ترجمة
العميد الركن صبحي الجابي

جوناثان رايلي سميث

الأسبتارية

فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص

١٠٥٠ - ١٣١٠م



دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الأسبتارية

فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص

١٠٥٠-١٣١٠م

الطبعة الأولى
١٩٨٩

جوناثان رايلي سميث

الأسبتارية

فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص

١٠٥٠-١٣١٠م

ترجمة

العميد الركن صبحي الجابي

عنوان الكتاب باللغة الانكليزية

THE KNIGHTS OF ST. JOHN IN JERUSALEM AND CYPRUS

c. 1050–1310

JONATHAN RILEY-SMITH

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

المقـــدمة

لا يوجد فارس اسبتاري(١) فرد يهيمن على تاريخ القرنين الثاني عشر والثالـث عشـر . وسوف لا يجـد المرء اسمـاء « برنـارد اوف كلـيرفو » « Bernard of Clair vaux » ، وتوماس اكيناس « Thoms Aquinas » ، وشوغر اوف سان دنيس « Sugar of St. Denis » ، بين الاخوة المقبولين رسميا في اخوية القديس يوحنا الكائنة في بيت المقدس . ومع ان الاسبتاريـة اسهموا اسهاما هاما في تنظيم العناية بالفقراء المرضى ، فقد انحرفوا بسرعـة عن مبادىء الطهارة القديمة ، وفقـدوا موافقـة بعض المثقفـين الاقويـاء في ذلك الزمن . وبحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت طريقة حياتهـم تقوم على طراز قديم ، كما انها تعكس بشكل منقوص المثل العليا المعقدة المتعلقـة بالزهد ، والقديمة .

كان فرسان الاسبتار ، على كل حال ، اعضاء في اخوية كنسية هامـة . وتكمن عظمة الاخوية في شخصيتها المندمجة ، وفي تطبيقها العملي لمثل اعلى فريد في نوعه . وكانت نشاطاتها ، المرافقة للحملات الصليبية ، التي كانـت مفاهيمها وثرواتها تصوغ شخصية اوروبا المعاصرة ، تعبر عـن الطموحـات الكبيرة والتوسعية للقرن الثاني عشر ، بينما كانت تؤذن باللطف والتسامح

---

(١) ـ نسبة الى الاسبتار وهي منظمة دينية عسكرية انشئت في بيت المقدس في القرن ١٢ م.

(٢) ـ الاسبتارية تسمية عربية محرفة عن لفظـة « Hospitallers » (فرسـان المستشفى) اسسها بعض تجار مدينة امالفي عام ١٠٧٠ كجمعية خيرية في بيمارستان ، قـرب كنيسة القيامة في بيت القدس للعناية بفقراء الحجاج الاوروبيين . ثم دخل هؤلاء تحت النظام الديري البندكتي ، المعروف في غرب اووربا ، وصاروا يتبعون البابا في روما مباشرة ، وعند وصول الصليبيين الى بيت المقدس وحصارها ، قدم فرسان الاسبتار مساعدات هامة لهم .

اللذين تميز بهما القرن الثالث عشر . وقد مارست الاسبتار ، كاحدى الاخويات العالمية الاولى ، بوجود ممتلكات لها في كل جزء من أوروبا ، نفوذاً كبيرا على مجرى الاحداث السياسية والتطورات الاقتصادية . وبصفتها وكيلة للسلطة الكنسية ، ظلت سلاحا بيد روما خلال قرون السلطة البابوية . وكاحدى اغنى المؤسسات في سورية اللاتينية ، مع ميزة وجود ممتلكات لها فيما وراء البحار ، كانت من أهم المؤسسات في الشرق .

ان المؤرخ محظوظ في مادته . اذ تتوفر لديه مجموعة كبيرة من الادلة الوثائقية ، وهي ان لم تكشف عن تلك التفاصيل الدقيقة التي تبرز طبيعة شخصية الأفراد ، فهي توفر وصفا دقيقا لمؤسسة غنية في قرنين من النمو والازدهار . وقد نشرت هذه الوثائق في اثر باق قدمتها دراسة صبورة يجدر ان تحظى بتقدير وامتنان كل دارس يدرس الحملات الصليبية . ويمكن ان تكمل هذه الوثائق بالمراجع العديدة المتعلقة بالاسبتار في كتابات تلك الحقبة من الزمن ، لان الاخوية مارست نفوذا سياسيا هاما في اكثر من دولة ، بينما الحملات الصليبية ، التي كانت مرتبطة بها بشكل لا ينفصم ، كانت تتمتع باعجاب المعاصرين بشكل دائم .

ان استمرار اخوية القديس يوحنا على قيد الحياة ، على الرغم من التنوع الشديد لاشكال هذا الاستمرار ، والاحياء الحديث للدراسات الصليبية ، اسهما بشكل مثمر جدا في الاهتمام بها . ولكن ، اذا استرسل المرء في الاستعارة اللفظية ، فان نوعية الثمار كانت ضعيفة . فقد كانت المؤلفات ، التي زادت مع تفهمنا للاخوية ، مهتمة في بادىء الامر بممتلكاتها وسياساتها في اوروبا اكثر من الاهتمام بالتطورات التي حدثت في سورية اللاتينية ، والتي كان الدفاع عنها هو سبب وجود الاخوية ، حيث كان مقرها ، وحيث كان يرسل اليها انتاج ممتلكاتها الاوروبية . ومع ذلك ، فهنالك مؤلفان يتصفان بمزايا هامة كرسا للاخوية في الشرق .

فقد نشرت دراسة عن الاسبتارية في الاراضي المقدسة وقبرص ، من قبل « ديلافيل لورولكس » « Delaville Le Roulx » في العام ١٩٠٤ . وكانت

هذه الدراسة هي الاولى التي تستفيد من الوثائق التي جمعها المؤلف في مجلدات ، وظلت المرجع النموذجي حول الاخوية في سورية اللاتينية . على اية حال ، كانت محدودة من حيث مداها . ويبدو ان « ديلافيل لورولكس » كان يرغب في مناقشة السؤال الصعب حول اصول الاسبتار « Hospital » ، وفي وضع تسلسل زمني للاحداث ، وفي تحديد شخصية ضباط الاخوية ، وفي وصف تنظيماتها ونشاطاتها ضمن الاطار العام للحروب الصليبية وتاريخ الشرق اللاتيني . وقد انجز عمله بشكل جيد ، وان جميع الدراسات الحديثة مدينة له في هذا المجال . ولكن الكتاب كان مخيبا للآمال في نواح اخرى . فمع انه كان حريصا في دراسته على المسائل المتعلقة بالتسلسل الزمني للاحداث وفي تحديد شخصية ضباط الاخوية ، فقد كان موقف « ديلافيل لورولكس » مؤيدا للدور الذي لعبه الاسبتار في سورية اللاتينية ، كما ان المسائل التي اثارت اهتمامه تطلبت استخدام اسلوب قصصي ، مع تركيز على تطور الترتيب الزمني للاحداث ، حاملا قصة الاسبتارية من مقاطعة الى اخرى . لذا كان التحليل مستحيلا ، وبقيت مسائل عديدة هامة ليس لم يتطرق الى معالجتها فحسب ، بل لم يتطرق الى بحثها اصلا .

كتب « بروتز » « Prutz » ، بعد بضع سنوات ، افضل ما ألف عن الاخويات العسكرية . لقد درس الاخويات هذه كمنظمات دولية واسعة النطاق . وكتب فصولا رائعة حول استثناءاتها الكنسية ، واسهامها في السياسات الاوروبية ، ونشاطاتها الاقتصادية ، والنتائج الاجتماعية لتطورها . لكنه لم يكن مهتما ، في بادىء الامر ، بسورية اللاتينية ، كما لم يضف الا القليل على ما هو معروف سابقا في ذلك المجال . ان تاريخ الاسبتارية في المشرق يمكن ان يرى الآن بالمقارنة مع الخلفية العامة للنشاط المتميز والعالمي . وبدا ان الموضوع قد اعتبر مضنيا ، اذ لم يكتب عن الاسبتار في سورية سوى مؤرخين فقط . وقدم « إ. ج كنغ » « E. J. King » وصفا قصصيا لنشاطاتها كان جذابا ومفيدا ، لكنه كان بسيطا وتنقصه الاصالة . وقد كتب بعده « فلوجي فان اسبرمونت » « Flugi Van Aspermont » كتابا لايعتبر اكثر من صياغة جديدة لمؤلف « ديلافيل لورولكس » . لذا نرى انهناك

حاجة لدراسة مفصلة وتحليلية لتاريخ الاخوية في القرنين الاولين لوجودها .

توجد اصول اخوية القديس يوحنا في احداث مشوشة وغير معروفة بشكل كامل في القرن الحادي عشر. وقد سرنا على منوال «ديلافيل لورولكس» في اختيار العام ١٣١٠ م لتحديد نهاية المرحلة الاولى من تاريخها . ففي تلك السنة نقلت الاسبتار مقر قيادتها من قبرص الى جزيرة رودس . ولم يقتصر محلها على تغيير مقر حكومتها ، فان سلسلة من القوانين الاصلاحية نقلت الاخوية الى موقف جديد . وان تلاشي اخوية الداوية (فرسان الهيكل) ، بعد سنتين من انتهاء فترتنا ، لم يؤد الى زوال منافس قوي فحسب ، بل أدى أيضا الى زيادة كبيرة في ثروة الاسبتار المؤلفة في معظمها من الاراضي . وبسقوط عكا في عام ١٢٩١ م ضاعت الاراضي المقدسة ، وانتهت الفترة الاولى الاكثر انتاجا ، واصبح عدو الاخوية الرئيسي هم الاتراك ، واصبح مسرح عملياتها هو البحر .

أقر معظم المؤرخين العصريين بأن المثل الاعلى للحركة الصليبية هو مزيج من عناصر قديمة وجديدة . ويمكننا ، في المفهوم العام ، ان نعتبر اول عنصر من هذه العناصر كمفهوم لحرب مقدسة دفاعا عن النصرانية ، تم تبنيه بمبادرة من البابوية . وكان هذا المفهوم يتطور في كل من ايطاليا واسبانيا ، وكان مترافقا بالتحول التدريجي لفكرة « جندي المسيح » الى اخرى تحمل تفسيرا اكثر حرفية واكثر قربا من الجندي المقاتل . وقد عدلت بواسطة تنظيم وروحانية الحجاج ، الذين ازداد عددهم وعدد البلدان القادمين منها خلال القرن الحادي عشر ، وبواسطة محاولات الكنيسة لفرض « الهدنة الالهية » في فرنسا . وقد تم تبني هذا من قبل بابوية اصلاحية واعية لذاتها ، والتي اعتبرت النصرانية ليست مجتمع جميع المسيحيين فحسب ، بل هيئة سياسية عالمية ، تتجاوز جميع الحدود الدنيوية ، وحاكمها على الارض هو البابا ، وهو القاضي الاعلى والحاكم وانه وريث القياصرة .

ولكن عندما قدم البابا « اوربان الثاني » « Urban II » موعظته للحملة الصليبية الاولى عام ١٠٩٥ م ، كان يستجيب ايضا لضرورات فورية

معينة ، روحية وسياسية . ومن بين هذه الضرورات برزت رغبته في مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، الامر الذي ينهي الانشقاق بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، والحاجة لتأكيد مركزه في الغرب ، ورغبته في جلب السلام الى اوروبا ، بتوجيه الطاقات الهائلة للفرسان نحو اهداف خلاقة ، وروحية ، وطموحة لممارسة السلطة القضائية على الاراضي التي يعتبرها المصلحون الفريغوريون(١) اراضي الكنيسة في الشرق . ونستطيع ان نستنتج ، بان الاستجابة لندائه كانت مشروطة بعوامل متنوعة ومعقدة على حد سواء : بالطاقة الروحانية الثورية الجديدة للعصر ، والناشئة عن التمثل السريع لمثلها العليا ، من قبل روما التي بعثت من جديد ، وبتطور النظام الاقطاعي ، وبتعداد الفرسان الذين لا اراضي لهم ، وبالمجاعة التي انتشرت في شمال فرنسا ، وبنمو الحركات المسيحية الشعبية .

وهنا يجب بذل محاولة ، الآن ، لتعريف الحملة الصليبية نفسها . وهذا امر ممكن ، على الاقل بالنسبة للقرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لان الحملتين الصليبيتين الاولى والثانية طورتا اسلوبا تم سلوكه في حملات تلت ، مع انه كان أقل دقة مما كان متوقعا . من الطبيعي ان يكون هنالك تغييرات ، في فترة ثورية ، في المجتمع والاقتصاد والسياسة . فقد كانت هنالك اجراءات شكلية متزايدة ، وتغييرات في العناصر المختلفة ، وتطورات داخل العناصر نفسها . لكن هذه التغيرات كانت في الجودة اكثر منها في النوع ، وما يتبع يفترض ، عادة ، انه قاعدة عامة ، مع ان كل حالة ينتج عنها استثناءات خاصة بها .

كانت الحملة الصليبية عبارة عن حرب مقدسة . لكنها تختلف كليا عن اية حرب اخرى . فقد كانت حربا للعودة ، ولتحرير القبر المقدس ، ولحماية النصرانية ، حيثما كانت في خطر ، وضد كل من يعرضها للخطر . لكنها ايضا كانت حجاً الى مكان معين وبأهداف معينة ، وكانت تتضمن مواصفات الحج التكفيرية والقربانية والشرعية . وكانت ظاهريا ، تشكل وضعا تناقضيا ، فهي ضد الحرب ، وأداة سلام ، تجلب المساعدة الاخوية الى المسيحيين في الشرق ،

---

(١) ــ نسبة الى البابا غريغوريوس (المترجم) .

وهي مرتبطة بشكل وثيق مع الهدنات الدينية في الغرب . وكانت تعبيرا عن عالمية الكنيسة ، وعن الوحدة السياسية للنصرانية . وكانت في الوقت ذاته دولية وتشكل جيش الدولة المسيحية الواحدة ، لذا كانت الحروب تشن وتنظم من قبل البابا . ومن الممكن ان تكون ، وقد كانت فعلا ، سلاحا للعقاب ، وقوة ردع نهائية في ايدي السلطة القضائية البابوية .

كانت الحملة الصليبية تعتبر عملا مقدسا . وكان المشاركون فيها نخبة المجتمع ، وجنود المسيح ، يدعمهم روحيا ، المتسامحون والبارزون من الرجال العاديين ، ليس بعملهم فحسب ، بل ايضا بقسمهم ، وبحملهم الصليب ، وبحقوقهم الشرعية الخاصة . ان الفكر الصليبي ، الذي اقر ، منذ البداية ، نموذجا جديدا من الجنود ، واسلوبا في استخدام الاسلحة ، والذي أثار اشمئزازا وشكوكا كنسية ، قد أعطي بعض المبررات الاخلاقية : « **انكم أصبحتم الآن جنود المسيح ، يامن كنتم في يوم من الايام قطاع طرق . حاربوا الآن بشكل شرعي ضد البرابرة ، يا من حاربتم اخوتكم ومن تربطكم بهم رابطة الدم . ان اولئك الذين كانوا اعداء للرب ، سوف يصبحون الآن اصدقاءه** »(١) .

كان لمفهوم جندي المسيح جاذبية في عصر كان يؤمن بالوحدة الاساسية للنصرانية ، وبالتفاعل بين العالمين الروحي والمادي ، وبعدالة سماوية دائمة الوجود . وقد انعكس ذلك في الادب الدنيوي . ولم يعبر عنه بوضوح الا في الدفاع الكبير عن الاخويات العسكرية « The De laude navae militia » الذي كتبه القديس « برنارد » « St. Bernard » للداوية (فرسان الهيكل) قبل عام ١١٣٦ . وهنالك شواهد على ان الداوية في ذلك الوقت كانوا عرضة للنقد الخارجي والشك الداخلي . وكان المنتقصون من قدرهم يجادلون بأن الحرب غير مقدسة بشكل متلازم ، وانها تثار بالبغض والجشع لانها تستلزم بالضرورة اعمال القتل والنهب . وقد رد على هذه الانتقادات مقدمهم الاول « هيو دو بايان » « Hugh de Bayens » في رسالة ركزت على الطبيعة

---

(١) ــ من خطاب البابا اوربان الثاني في كليرمون ، كما رواه « فولتشر اوف تشارترز » « Fulcher of Charters »

الدفاعية والمسالمة لواجبات الاخوية « في الحرب ضد اعداء السلام » : **« في الحقيقة اقول لكم بانكم لا تكرهون ، وهذا غير حق ، لانكم لا تكرهون الناس بل الظلم . وانني أقول لكم مرة أخرى بأنكم لستم جشعين ، وهذا غير حق، لانكم تتناولون ذلك الذي ينبغي ان يؤخذ بشكل عادل بسبب الآثام ، ذلك هو لكم عدلا بسبب العمل الذي تؤدونه »** .

وذهب القديس برنارد ابعد من ذلك . فقد طور المقارنة بين طبقتي الفرسان القديمة والجديدة ، اللتين وجدتا تعبيرا عنهما في اثارة الحملات الصليبية والادب الدنيوي . كانت طبقة الفرسان القديمة زائفة ، ومجرمة ، بدون فضيلة او شرف ، منهمكة في نزاع غير عادل : « انني لا اتكلم عن طبقة الفرسان بل عن المكر والخداع » . اذا سيطرتم فانكم تعيشون كقتلة . سواء اموات ام احياء ، وسواء منتصرين او مغلوبين ، انكم ارتكبتم القتل . ان النصر غير السعيد ، الذي يسيطر على الرجل ، يؤدي الى الفساد . لكن طبقة الفرسان الجديدة ظهرت في ارض تجسد المسيح . كان الفارس الجديد ، الداوي ، منهمكا في نزاعات ثنائية ، دنيوية وروحية ، وعندما يقتل الفارس مجرما شريرا ، فانه لا يرتكب القتل بل يعطي القصاص العادل . **« وهكذا تقدموا بأمان ، ايها الجنود ، واطردوا اعداء المسيح بدون وجل ، وكونوا على ثقة بانه ، لا الموت ولا الحياة تستطيعان ابعادكم عن حب الرب » . « كم هم مجدون المنتصرون الذين يعودون من الحرب . وكم هم مباركون الشهداء الذين يقضون في الحرب »** . وأكد القديس برنارد على ان الوثنيين ينبغي ان يقتلوا فقط عندما لا يمكن الدفاع عن النصرانية باسلوب اخر . ولكن من المفضل ان يقضى عليهم بدلا من ان يهددوا العدالة . « في موت الوثني ، فان المسيحي ممجد لان المسيح ممجد » .

لذا كانت الداوية واعضاء الاخويات العسكرية الاخرى مثالا للفرسان الجدد « الحكماء » ، وكانوا يتمتعون بين هؤلاء بمركز مرموق ، لانهم وفروا استجابة لمشاكل الحركة الصليبية الخاصة . وفي الحقيقة يجب القاء ظل من الشك والريبة حول ما اذا كانت الحركة الصليبية ناجحة ، بالنسبة لنظريتها

الرائعة ، وصورتها المجيدة . انها لم تعكس فقط مثلا اعلى ، بدلا من الحقيقة ، وتفترض مفهوم حكومة بابوية اصبح غير مقبول مسبقا في منتصف القرن الثالث عشر ، بل اشتملت ايضا على مصاعب وتناقضات متلازمة .

قبل ان يدعو البابا الى حملة صليبية ، كان يتوجب عليه ان يقدر مدى الاستجابة التي تثيرها دعوته . وكان من غير المستحسن جمع جيش كبير لايمكن السيطرة عليه بسهولة ، او وجود قادة يرسلون الى خارج اوروبا في وقت يكون الوطن فيه بحاجة اليهم . وهنالك شواهد على ان اوربان الثاني كان يفكر اساسا في حملة محدودة من اجل الحملة الصليبية الاولى . كما ان البابا « يوجينيوس الثالث » « Eugenius III » كان معارضا لمشاركة « كونراد » « Conrad » الالماني في الحملة الصليبية الثانية . من جهة اخرى، كان بعض الحماس افضل من السكوت المطبق ، او من عدم مبالاة مهذبة . ومن حكام اوروبا في عام ١٢٧٤ ، استجاب فقط « جيمس اوف اراغون » « James of Aragon » ، المتقدم في السن ، ورديء السمعة ، والفاسق والمهزار ، لدعوة البابا « غريغوري العاشر » « Gregory X » ، التي وجهها الى مجلس مدينة « ليون » « Lyon » . كان على النزاعات السياسية في الغرب ، مرة اخرى ، ان تجد حلا قبل ان يتمكن الجيش من بدء المسير . وكان ينبغي بذل بعض المحاولات لتقليل اعداد الاشخاص الذين يرافقون الحملة ويكونون عالة عليها ، كما كان ينبغي جمع الاموال ، وتنظيم النقل ، وتنسيق تحركات مختلف الجيوش وتوجيهها نحو هدف استراتيجي سليم . وشهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر عدة محاولات لحل هذه المشاكل . لكن جميع هذه الجهود المبذولة تصبح عديمة الجدوى اذا اصبحت الحملة التي تشن صعبة الانقياد . وعلى هذا الاساس كان لا يمكن للنظرية والتطبيق ان يلتقيا ابداً .

كانت الحملة الصليبية ، كما هو الحال بالنسبة للدولة المسيحية العالمية ، اداة تستخدم حسب مشيئة البابا . وكان هو الآمر والمنظم لها ، لكن لا يستطيع أي كاهن ، في القانون الكنسي ، ان يحمل السلاح ، أو أن يستخدمه فعليا .

ولم تكن ادارة الحملة وتوجيهها ملكا للبابا ، أو لسلطته ، وكانت مهمته تنحصر في اعلان الحملة ، واسداء النصح ، والتحكيم . وكان على البابوية ، من أجل اعادة فتح اسبانيا وبيت المقدس ، ومن أجل الدفاع عن النصرانية والدول اللاتينية في الشرق ، ومن أجل معاقبة المنشقين والهراطقة ، ان تعتمد على الحماسة والاخلاص ، وعلى الكد والمثابرة ، وعلى كفاءة السلطات الدنيوية .

على أية حال ، كان هنالك رد واحد على هذه المشاكل . ولم يكن هذا الرد مرضيا بأي شكل من الاشكال ، لكنه أصبح هاما في القرن الثالث عشر ، عندما تضاءل الحماس للحملات الصليبية ، وعندما ازدادت المخاطر التي تهدد الاراضي المقدسة بشكل يمكن ادراكه . وهي تكمن في وجود الاخويات العسكرية: جيوش عاملة منظمة ، مبنية على أسس دينية وعلى تسلسل هرمي ، تعتمد في النهاية على البابا نفسه . وقد أكد القديس برنارد مسبقا على أهمية الطاعة والنظام ، اللذين يجب ان يميزا اعضاء الاخوية عن الفرسان العلمانيين . وكان فرسان الداوية « **يذهبون ويجيؤون بناء على أوامر مقدمهم . وهم يرتدون مايقدم اليهم من لباس ولا يتجرؤون على أخذ ملابس او طعام غيرهم . انهم يعيشون بشكل واضح وفق نظام عام : بدون متاع ، في مكان واحد وتحت اعراف واحدة ، انهم حريصون على المحافظة على وحدة الروح في رباط السلام . . انهم يعملون وفق ما تمليه عليهم ارادة مقدمهم او الضرورة العامة** » . وكان فرسان الداوية في ثلاثينات القرن الثاني عشر ، بتشجيع من القديس برنارد نماذج للفروسية الجديدة ، وكانت اخويتهم سلاحا بيد روما . وقد تحول فرسان الاسبتار ببطء شديد من مؤسسة مكرسة للعناية بالحجاج الفقراء الى اخوية عسكرية ، بعد ان قدموا الى المدينة المقدسة باعداد متزايدة عندما اصبحت المدينة بأيدي المسيحيين . وكانت البابوية تعارض بوضوح قبول هذا التحول ، الذي لم يكتمل حتى وقت متأخر من القرن الثاني عشر، واستمرت الاخوية في القيام بدور مزدوج . ولكن نظرا لان تحول الاسبتار الى اخوية عسكرية كان بطيئا ، فان هذا يمكن ان ينبئنا الكثير عن الضغوط التي كانت تمارس على المؤسسات في القرن الثاني عشر ، كما يعكس بشكل مصغر ايضا المشاكل المتأصلة في الحركة الصليبية .

أدت الحملة الصليبية الاولى ونتائجها الى تأسيس مملكة بيت المقدس ، وامارة انطاكية ، ومقاطعتي الرها وطرابلس في الفترة ما بين ١٠٩٨ ــ ١١٠٩ . واستولى ريتشارد قلب الاسد ، في عام ١١٩١ ، على جزيرة قبرص ، وتم انشاء مملكة فيها ، حيث ازدهر نظام الفروسية الغربي في القرن الرابع عشر . والى الشمال ، وعلى البر الرئيسي ، قبلت مملكة ارمينيا النصرانية اللاتينية في اواخر القرن الثاني عشر ، وكان لها خلال فترتنا علاقات وثيقة وهامة مع جيرانها الفرنج .

جذبت هذه الممالك الست الاهتمام الرومانسي للاوروبيين لفترة طويلة . واثارت آثارها الهندسية المعمارية ، وقلاعها في الصحراء او على الجبال ، وكاتدرائياتها الرومانيسكية(١) في المدن العربية ، اعجاب الرحالة . كما ان تاريخها المثير ، والمأساوي قد اثار خيال اجيال من الروائيين والمؤرخين . ولكننا ، الآن فقط ، بدأنا نتفهم بوضوح اكثر ، التاريخ الاساسي لهذه الممالك غير الاعتيادية حيث تطورت المؤسسات الغربية في بيئة غريبة ، مكيفة بضغوط الاستيطان ، والاحداث السياسية غير العادية ، والضرورات العسكرية الملحة . وشهد القرن الاول ، من وجود مملكة بيت المقدس بزوغ وافول مملكة قوية وفعالة ، كما شهد القرن الثاني من وجودها ازدهار مدرسة واضحة من البارونات المحامين ، الذين لم يلق فكرهم السياسي الاهتمام الذي يستحقه . وانتجت المستوطنات الاخرى اشكالا حكومية خاصة بها . وسوف يكون من الضروري في سياق هذه الدراسة الانتباه الى بنية وسياسات هذه الممالك ، ليس فقط لكونها متأثرة بنشاطات الاسبتارية ، بل ايضا بسبب دورها الذي اثر على التطورات داخل الاخوية .

كانت اسبتار القديس يوحنا واحدة من أقوى المؤسسات في سورية اللاتينية . فقد لعبت الاسبتار في القرن الثالث عشر دورا هاما في حكومة مملكة بيت المقدس . واقر جميع مؤرخي الحروب الصليبية وسورية اللاتينية

---

(١) ــ الرومانيسك : « Romanesque » طراز في فن العمارة راج في اوروبا في اوائل القرون الوسطى بين عهدي فن العمارة الروماني وفن العمارة القوطي ــ المترجم .

أهميتها ، لكن معظمهم نظروا الى نشاطاتها بعداء . وكانت الاخوية ، بالنسبة لهؤلاء ، عنصرا مستقلا وقويا داخل الدولة ، ولها سياستها الخارجية الخاصة بها ، بينما كان سلوكها تمليه المصلحة الشخصية . وغالبا ما كانت المصلحة تتعارض مع احتياجات المسيحيين في الاراضي المقدسة .

هل تستحق الاخوية هذا القدح ؟ وما هو الدور الذي لعبته في الحياة الداخلية للمستوطنات اللاتينية في فلسطين ، وسورية ، وقبرص ؟ يمكن ان نجد الاجابات على هذه الاسئلة في تفحص مشاركتها في سياسات الشرق اللاتيني ، وفي دراسة بنيتها ، وممتلكاتها ، واستثناءاتها الكنسية ، وامتيازاتها الاقطاعية ، وسوف يسهم حل هذه المسائل في فهمنا لموضوع اكبر وهو : التاريخ الاساسي لسورية اللاتينية .

* * *

القسم الأول

تاريخ الأخوية العام ومشاركتها
في سياسات سورية اللاتينية

الفصل الأول

المستوطنة اللاتينية في الشرق ، ١٠٩٩ ــ ١١٨٧

في الخامس عشر من تموز عام ١٠٩٩ قتحم الجيش الصليبي مدينة بيت المقدس . لقد حققت الحملة الصليبية الاولى هدفها . وجاء جميع الصليبيين ، بعد مذبحة مروعة ورعب لم يستطع المسلمون نسيانهما او التسامح بشأنهما ، مبتهجين والدموع تذرف من عيونهم من فرط السرور بالعبادة عند قبر المخلص يسوع حيث اوفوا بقسمهم . وبحلول العام ١١٠٩ ، عندما استسلمت طرابلس للغربيين ، تأسست الممالك الصليبية ، التي دامت زهاء قرنين من الزمـــان .

انتشرت هذه الممالك بالقرب من شواطىء البحر الابيض المتوسط . وتبنى اللاتين ، اشكال الحكومة التي عرفوها في بلدانهم الاصلية ، وخاصـة في فرنسا بشكل طبيعي . وفي الفترة التي تلت الاحتلال ، انشئت الاقطاعـات والخدمات المعتادة ، التي فرضها السادة الاقطاعيون ، الذين اصبحوا مرتبطين بالملك برباط التبعية . ونفذ التاج والنبلاء والكنيسة واجباتهم المتعلقة بهم ضمن اطار اقطاعي . كان المؤرخون، في الماضي، يعتبرون مدينة بيت المقدس اللاتينية كمملكة اقطاعية في غاية الجودة . وقد وصفوها كنوع من الحكومة المتحجرة ، حيث ظل النظام الاقطاعي الفرنسي ، الذي كان سائدا في القرن الحادي عشر ، حيا في شكله الاصلي خلال القرن الثالث عشر ، الى ان اصبح شكليا جدا . على اية حال ، فان الدراسات الحديثة شككت في صحة وجهة النظر هذه . وتبدل النظام الذي قدم بشكل طبيعي ، وفقا للنمط الذي اتخـذه الغزو ، ووفقـا

لاصل طبقتي النبلاء والبورجوازية ، والانظمة الزراعية والادارية الموجودة في سورية نفسها ، والاستيطان الفعال ، وسيطرة المدن ، وسلطة الملكية في القرن الثاني عشر . وانبثقت مملكة احتوت في مؤسساتها تطورات فريدة في نوعها ، وهامة بالنسبة للنموذج الاقطاعي الاصلي .

كان السهل الساحلي خصباً أكثر مما هو عليه الآن ، لان المساحات الشاسعة من الغابات احتفظت بمياه الامطار التي تجلبها رياح الشتاء الندية . كما تمتد ، في منطقتي قيليقية والجليل ، اراض غنية لمسافة عدة اميال نحو الداخل ، لكن كان يتخللها في بعض المناطق مجموعات من التلال الجرداء ، التي تنتشر حتى الجبال الموازية للبحر على طول الساحة كله تقريبا . وكانت الجبال نفسها منفصلة بواسطة واد يمتد من الشمال الى الجنوب ومميز بقنوات مياه نهري العاصي والاردن . وكانت المناطق الريفية ، شرق وجنوب هذه الجبال ، اكثر جفافا وتتجه تدريجيا نحو الصحراء . وكانت توجد كروم وبساتين للفاكهة متاخمة للبحر ، كما كانت تنمو محصولات اخرى متنوعة ، من بينها شوندر السكر والقطن . وكانت الحبوب تزرع في المناطق الداخلية . وفي كلتا المنطقتين ، كانت المدن محاطة بمناطق مزروعة قريبة،كما ان البساتين التي تنمو فيها الخضراوات والفاكهة ، كانت تزرع اقسومات منها باشجار الزيتون .

كانت هنالك مدن على الساحل نفسه ، عرفت جميعها اياما مزدهرة . وحقق بعضها انتعاشا تحت حكم الفرنج : انطاكية ، اللاذقية ، انطرطوس(١) ، طرابلس ، جبيل ، بيروت ، صيدا ، صور ، عكا ، قيسارية ، يافا ، عسقلان. وكان بيت‌المقدس من المدن الداخلية،ومع انها العاصمة،ومقر البطريرك،ومركز الحج ، فقد كان لها أهمية تجارية قليلة . وكذلك شأن مدينة نابلس . ولم ينجح الصليبيون قط في احتلال دمشق وحلب ، وكانتا مركزين تجاريين هامين في الشرق الادنى . وقاومت حمص وحماه وشيزر الصليبيين حتى النهاية ، وخضعت كل من افاميا والرها للصليبيين لفترة قصيرة فقط .

---

(١) — الاسم القديم لمدينة طرطوس السورية .

وقد أفرغ الريف من سكانه ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وهي فترة أحداث بالنسبة للفتوحات التركية ، وكانت هنالك هجرات اخرى بعد الحملة الصليبية الاولى . وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الملوك ، فان المناطق الريفية كانت قليلة السكان دائما ، وقد تايد فراغها ، باعداد مناطق الاراضي البور والقرى المخربة التي ذكرت في الوثائق الباقية . ومع ذلك فقد تدفق سيل ثابت من المستوطنين من جميع الطبقات الى سورية اللاتينية في القرن الثاني عشر : وقد قدر بانه كان يوجد حوالي ١٢٠ — ١٥٠ الف مواطن غربي في المملكة في العام ١١٨٧ . كما انشأ التاج والكنيسة مدناً جديدة ومراكز استيطان ، مشابهة جدا لتلك الموجودة في اوروبا ، لكن المدن كانت دائما تسيطر على الريف ، فمدينة صور التي يبلغ عدد سكانها حوالي ثلاثين الفا ، كانت تسيطر على منطقة ريفية زراعية يقطنها تسعة الاف شخص فقط .

لم تغير الاقطاعية والاستيطان الغربي قط نظام الزراعة المحلي في سورية. وكانت الوحدة الاساسية هي القرية المحاطة باراضيها ، التي تختلف عن بعضها بعضا كثيرا من حيث المساحة ، والتي كان العمل فيها يتم بشكل مشترك من قبل الفلاحين العرب السوريين . وكان يديرها اما الدليل السياحي « Dragoman » ، وهو لاتيني عادة ، او المختار ، وهو رجل وطني حر يمارس سلطاته كرئيس مسؤول عن النظام والعدل في القرية . وكان الفلاحون يدفعون ضرائب باهظة ، ولكن اذا صدق رحالة عربي، فهي وفقا له، لم تكن اكثر مما كان يدفعه معاصروهم الذين كانوا تحت سلطة الحكام المسلمين (١) . وكان السيد الاقطاعي يتمتع بحق المصادرة والاحتكار . وكان يطالب بحقه في انتاج الارض ، وفي نسبة من مردود الحصاد وايجار الدواب ، وفي ضريبة تسمى ضريبة التقدمة « Presentatica » او ضريبة الاقوات « Nutrimenta » او ضريبة النقد، وكانت تستوفى ثلاث مرات في العام ، وفي ضريبة غير النبلاء(٢)، « Taille » التي ربما كانت تفرض على غير اللاتين .

---

(١) — ابن جبير — صفحة ٣١٦ — ٣١٧ .

(٢) — ضريبة مباشرة، كانت منتشرة في فرنسا حتى عام ١٧٨٩ م ، تفرض على غير النبلاء .

كان هنالك حق هام من حقوق الاقطاعية في اوروبا غائبا على الغالب . ففي نظام الزراعة السوري ، كان الفلاحون انفسهم يمتلكون معظم الاراضي . وكان هنالك القليل من الاراضي المتبقية او اراضي السادة الاقطاعيين ، التي تتطلب عملا مجانيا : في كروم العنب ، وكروم الزيتون ، ومزارع قصب السكر ، والبساتين قليلة العدد . وكان لا بد لهذه الخصائص الهامة لقرى سورية اللاتينية ان تؤثر على ادارة الاسبتار لاراضيها ، وعلى علاقتها بالسلطة الكنسية . كما كانت تؤدي الى خلق طبقة من ملاك الارض البعيدين عن اراضيهم ، حيث لم يكن هنالك سبب ، بصفتهم اصحاب دخل ، يجعلهم يعيشون في اراضيهم ، التي تركوا ادارتها للوكيل التابع لهم . وكان الفرسان الاقطاعيون يسكنون المدن .

لذا ، كانت المدن في سورية اللاتينية ، وخاصة المدن الساحلية ، ذات أهمية كبيرة . وكان يعيش فيها السادة الاقطاعيون والفرسان . كما كان يقطن فيها ، في منتصف القرن الثاني عشر ، ممثلون عن المدن التجارية الكبيرة : جنوة وبيزا والبندقية ، وكذلك عن مدن ايطالية وفرنسية واسبانية اقل مستوى تجاريا . وكانت التجارة بأيدي هؤلاء التجار ، وقد اخذت سلطتهم بالازدياد بعد عام ١١٨٧ . وكانت سورية اللاتينية احد اسواقهم لذا كانت هامة بالنسبة لهم . وفي الحقيقة أمنت سورية الكثير من السكر ، الذي كانت تستهلكه اوروبا في ذلك الحين . لكنها لم تنافس قط القسطنطينية او الاسكندرية . وظلت مدن حلب ، والموصل ، ودمشق ، الاسلامية مراكز تجارية كبيرة في الشرق الادنى ، بينما كان النشاط الاقتصادي في المستوطنة اللاتينية يعتمد كثيرا على الاستقرار في العالم الاسلامي الذي كان في الوقت نفسه يعرض وجودها للخطر . كان العقد الاخير قبل عام ١١٨٧ هو ذروة ازدهار التجارة السورية ، وشهد هذا العقد ايضا توحيد الدول المجاورة تحت سلطة صلاح الدين .

كانت الكنيسة اللاتينية في سورية مقسمة بين بطريركيتي بيت المقدس وانطاكية ، اللتين حددت مناطق سلطتهما الشرعية بشكل نهائي في أوائل القرن الثاني عشر . واصبحت اديرة معينة ، اخويات عسكرية ، مستثناة

من السلطة الكنسية ، ولا تخضع بالتالي لسلطة البطريركية . وينبغي هنا ملاحظة ثلاث نقاط : اولا ، كان يبدو ان هنالك سياسة عامة للتهدئة ازاء اليونان الارثوذكس والمسيحيين الاخرين غير اللاتين ، حتى في انطاكية نفسها ، حيث كانت توجد منافسة دائمة بين بطاركة اليونان واللاتين . ثانيا ، مارس الملوك والحكام الاخرون سلطات هامة على الكنيسة ، في الدول التي أسست ، بمبادرة بابوية والتي تعترف بسلطة روما ، وهذا امر متناقض ظاهريا . وكان لهم حق حضور الانتخابات البطريركية والكنسية . ومارس البلاط الملكي في بيت المقدس بعض السلطة القضائية على رجال الدين . ثالثا ، كانت الكنيسة جزءا من النظام الاقطاعي . وكان لبعض الاساقفة الحقوق البارونية الخاصة بعقد محكمة ، واستخدام اختام الخاصة بهم ، والتمتع بالفوائد المالية المترتبة على الاعمال القضائية والعدلية . وكانت الكنيسة مدينة للتاج بالخدمة العسكرية ، وكان التاج يمارس سلطته الملكية خلال وجود شواغر في الكرسي الاسقفي .

مملكة بيت المقدس

كانت الحدود الشرقية للمملكة تمتد ، خلال معظم سني القرن الثاني عشر ، من خليج العقبة ، وتسير شرق البحر الميت ونهر الاردن ، وتمر عبر نهر الليطاني وحتى الجبال اللبنانية . وكانت حدودها الغربية هو البحر من الداروم ، جنوب غزة ، وحتى نهر الكلب ، شمال بيروت .

توفي « غودفري دوبويون » « Godfrey de Bouillon » ، حامي القبر المقدس والحاكم الاول ، في تموز عام ١١٠٠ . وخلفه اخوه « بلدوين » « Baldwin » الملك الاول ، الذي حكم حتى العام ١١١٨ . وقد امنت سياسة بلدوين التوسعية بقاء المملكة على قيد الحياة ، وترك بيت المقدس دولة متحدة مارست الملكية سلطة فعالة . كما ان النشاط الدائب والسياسات الحكيمة لخلفه ، بلدوين الثاني ، عززت الفتوحات الاولى . وعند وفاته في عام ١١٣١ انتقل العرش الى ابنته الكبرى « ميليسند » « Melisende » التي

تزوجت من « فولك » « Fulk » ، كونت « آنجو » ، وبنى « فولك » دفاعات المملكة في الجنوب ، لكنه في الوقت ذاته تبنى سياسة هادئة ازاء جيرانه المسلمين .

تولت « ميليسند » ادارة شؤون المملكة ، بعد مقتل « فولك » في حادثة سقوط عن جواد في عام ١١٤٣ . وكانت كارهة ، على اية حال ، لتسليم السلطة الى ابنها ، بلدوين الثالث ، الذي ثار ضد وصايتها في عام ١١٥٢ . وتم التوصل الى تسوية تم فيها تقسيم المملكة بين الام وولدها . وكان واضحا ان هذا التقسيم غير قابل للتطبيق ، وبعد ان تم القاء القبض على مؤيد الملكة الرئيسي ، الكند سطبل(١) « ماناس دو هيرج » « Manasses de hierges » من قبل « بلدوين » ، انهارت المقاومة ضد الملك وسمح « لـ ميليسند » بالتخلي عن الشؤون السياسية . كان حكم « بلدوين » يتميز ، حتى عام ١١٦٣ بمحاولات لتوسيع مملكته جنوبا ، وبمشاركة فعالة في سياسات السوريين الشماليين ، لان الفرنج جوبهوا بالقوة المتزايدة لنور الدين. واستمر اخوه ، «املريك الاول»، بسياسته العدوانية على الحدود الجنوبية ، مكررا محاولاته لغزو مصر منعا لاتحادها مع سورية . ولكن بموت « بلدوين » في عام ١١٧٤ ، فان آخر ملك قوي في تلك الفترة كان قد قضى نحبه . وكان ابن املريك ، بلدوين الرابع مجذوما ، ومع انه كان شجاعا وذكيا ، الا انه كان مريضا بحيث لا يستطيع ممارسة اعباء الحكم ، وربما ادى غياب سلطة مركزية قوية الى ظهور فئات سياسية متنافسة ضمن المملكة في ثمانينات القرن الثاني عشر . وكان للتقسيم السياسي للطبقات الحاكمة نتائج وخيمة .

كان هنالك اعتقاد سائد بان الملكية في بيت المقدس كانت ضعيفة في القرن الثاني عشر . كما كان هنالك جدل حول ماذا كان العرش انتخابيا ، من حيث المبدأ ، وما اذا كان تطور السلطة الملكية معاقا بسبب ظهور فئة قوية من البارونات . لكن المؤكد هو ان الحكومة المركزية للمملكة لم تتطور قط الى

---

(١) ـ موظف كبير في قصر ملك او نبيل (في العصر الوسيط) ويلي الملك في قيادة الجيش (المترجم).

درجة عالية ، وان الكثير من السلطة المحلية كان يمارسها البارونات الذين كان لديهم بلاطهم الخاص بهم . وكانت الادارة الملكية المركزية بيد موظفين مشابهين لاولئك الموجودين في فرنسا . وكان الملك ، ممثلا في المقاطعات ، بأربعة فيكونتات(١) . وكانت الشؤون القضائية تدار من قبل الملك بالتعاون مع المحكمة العليا ، حيث كان جميع اصحاب الاقطاعات ، بعد عام ١١٦٦ ، حتى المقطعين في المناطق الخلفية ، مخولين بحضورها . وكانت هنالك محاكم ملكية وبارونية للمواطنين هي (محاكم البرجوازية) « Cours des bourgeois » ايضا ، ومحاكم مختصة بالنظر في قضايا الاهلين والقضايا التجارية : محاكم المدينة « Cours de la Fonde » ، ومحكمة المرفأ « Cour de la chaine » .

عدلت دراسات حديثة وجهة نظرنا الخاصة بالتاج . ويبدو انه لم يكن انتخابيا اكثر من نظرائه الاوروبيين ، في وقت كانت فيه مبادىء الوراثة والانتخاب مشوشة . كان الملك يحكم مملكة بيت المقدس ، وعكا ، ونابلس ، وصور . وكانت ممتلكاته الشخصية ، الممتلكات الملكية ، تقع حول بيت المقدس ، من الخليل الى بيسان ، وكان يمتلك ايضا مقاطعتي عكا وصور . وكان امراء قلاعه يديرون شؤون الداروم ، ولفترة من الزمن شؤون تل الصافية « Blanche garde » . وغالبا ما كان الملوك متضايقين ماليا ، لكنهم كانوا اكثر ثراء من مقطعيهم ، ومع ان البنية الادارية لم تتطور بشكل كبير ابدا ، فانه تبين ان الملكية خرجت قوية ونشيطة من السنوات المضطربة التي تلت الاستيطان . وتحت سلطة بلدوين الاول ، كان الاستيلاء على الاراضي ، الذي يتم بموجب حق الغزو ، مرتبطا بالمقطعية . وقبل عام ١١٣٠ ، كان هنالك توسيع متعمد للسلطة الملكية ، الامر الذي تسبب عن الحرب المزمنة والموجات المستمرة من الهجرة في تحول سريع للمقاطعات التي يحكمها اللوردات . وظهرت الدلائل الاولى لمعارضة التاج بعد عام ١١٣٠ فقط ، عندما حققت طبقة البارونات الاستقرار ، اذ نمت المشاعر الوطنية وخلقت مقاطعات جديدة يحكمها البارونات ، على حساب الممتلكات الملكية .

---

(١) ـ جمع فيكونت « Viconte » = لقب للاشراف (المترجم) .

على اية حال ، كان الملك قادرا في عام ١١٦٦ على سن القوانين بطريقة تظهر سلطته بوضوح . وقد انتزع « جيرارد » ، سيد صيدا ، على نحو استبدادي ، اقطاعا من احد مقطعيه . ومن أجل تأكيد حقوق المقطعين ، بالنسبة للعدالة والامن الخاصين بالاقطاعية الممنوحة ، فقد ربط الملك املريك الاول جميع المقطعين في المناطق الخلفية بعهد الولاء نحو التاج بموجب قانون خاص بالاقطاعات . واصبح جميع مالكي الاقطاعات نبلاء ، ومنحوا حق الجلوس مع كبار المستأجرين في المحكمة العليا ، وكان بامكان أي مقطع ، يطرده سيده الاقطاعي ، ان يستأنف القضية الى الملك مباشرة . وقد نوقش حديثا ان هذا القانون كان علامة ضعف بالنسبة للسلطة الملكية لان اقراره بأن الاقطاعة لايمكن مصادرتها بدون حكم من المحكمة يبدو انه يلغي قانونا قديما كان يسمح للملك بانتزاع الاقطاعة بدون حكم كهذا في حالات معينة . وفي السنوات الاخيرة أصبح سلاحا بكل تأكيد يستخدم ضد الملكية الضعيفة . لكننا لا نستطيع ان نوافق على أنه لم يكن يعبر عن شيء سوى السلطة الملكية في ستينات القرن الثاني عشر . وفي أوائل القرن الثالث عشر كان الملك مخولا — نظريا — بنزع ملكية الاقطاعة من الخونة ، أو من الذين يرفضون اطاعة اوامر معقولة بدون حكم من المحكمة . وفي عام ١١٦٦ جعل املريك جميع صلاحيات النظام الاقطاعي بيده ، كما ازال جميع العراقيل المتعلقة بالتبعية والتي تتدخل في ممارسة سلطته .

بدأ التاج يضعف بعد موت الملك بلدوين الرابع في اذار ١١٨٥ . فقد اتحدت مصر وسورية المسلمتين تحت سلطة صلاح الدين . وكان وريث العرش طفلا ، هو بلدوين الخامس ، الذي قضى نحبه في آب عام ١١٨٦ . ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٢٢٥ كان الارث ينتقل من النساء الى الازواج الذين ينبغي البحث عنهم . وتم النزاع على العرش فورا ، بين « سيبيلا » « Sibylla » ، « وايزابيلا » « Isabella » أولا ، ثم بين « غي دو لوزينيان » Guy de Lusignan ، «وكونراد اوف مونتفيرات» « Conrad of Montferrat » وقضت موقعة حطين في عام ١١٨٧ على اكبر جيش سبق للمملكة ان زجته في الميدان ، وفقد الفرنج تقريبا جميع سورية ، وانتهت بذلك مملكة بيت المقدس .

مقاطعـــة طرابلس

تقع مقاطعة طرابلس الى الشمال من بيت المقدس . وكانت صغيرة لكنها ازدهرت على التجارة . وهي تمتد من قرب الشاطىء من نهر الكلب الى نقطة على الساحل شمال طرطوس . ومن هنا تسير حدودها ازاء المنطقة التي تسيطر عليها الحشيشية وامارتا شيزر وحماه العربيتان . ومن بعرين تمر الحدود جنوبا الى الغرب من نهر العاصي واراضي حمص ، ثم تنعطف عبر الجبال اللبنانية الى نقطة جنوب شرق جبيل ، حيث تتصل بالبحر مرة اخرى . وتوفي « ريموند اوف تولوز »(١) ، الذي قام بعدة محاولات ليكسب لنفسه وقفا كنسيا في الشرق ، في عام ١١٠٥ ، ولكن ليس قبل ان يبدأ بغزو المنطقة التي تمت السيطرة عليها فيما بعد من قبل هذه المقاطعة . وكان خلفه في سورية هو ابن عمه ، « ويليام جوردان » « William Jordan » ، ولكن في بداية العام ١١٠٩ ، وصل « برتراند اوف سان جيل » « S. Gilles » ، ابن ريموند ، للمطالبة في الميراث . لكن ويليام جوردان رفض ادعاءاته ، وتم التوصل الى تسوية من قبل بلدوين الاول . وفاز برتراند في المنطقة الكائنة حول طرابلس ، التي سقطت في العام نفسه بأيدي الصليبيين . ولدى موت ويليام جوردان ، حصل على القسم الشمالي من المقاطعة ايضا . وتوفي برتراند في عام ١١١٢ ، وخلفه اخوه الاصغر « بونز » « Pons » وكان اداريا قديرا، لكنه كان سياسيا متهورا . فقد كان يسعى سعيا حثيثا لاستقلال بيت المقدس، على الرغم من انه لم يكن قويا قط كي يحصل عليها . وورث ريموند الثاني المقاطعة في عام ١١٣٧ ، لكنه قتل على يد الحشيشية في عام ١١٥٢ ، تاركا طفلا ، ريموند الثالث ، قدر له ان يلعب دورا هاما في التاريخ المتأخر لمملكة بيت المقدس الاولى .

بنيت سلطة الكونت على اساس الغزو الذي اصبح مشروعا بواسطة روابط المقطعية بالنسبة للدول الاخرى وبواسطة اتفاقية الكنيسة . ويمكن مقارنة الكونتات ، من حيث علاقتهم بملوك بيت المقدس ، بكبار ملاكي الارض

(١) ــ اطلق العرب عليه لقب (الصنجيل) من اسمه الفرنسي « Saintgilles »

في فرنسا ، على الرغم من ان هذه العلاقة كانت معقدة ، بحقيقة انها تعترف ايضا ببعض السيادة البيزنطية والانطاكية . وفي منتصف القرن الثاني فازوا بالحق الوراثي بموجب قوانين البكورة(١) . فكان لهم موظفوهم الكبار ، ودور صك العملة الخاصة بهم . وجمعوا جيشا معتدلا ، لكنهم كانوا يملكون اسطولا هاما . وتراسوا ، شأنهم شأن ملوك بيت المقدس ، محكمة عليا ، بينما كان بعض محاكم المواطنين بيد مستأجري اراضيهم .

استعمرت طرابلس اولا من قبل مستوطنين من جنوب فرنسا . وقد عانت ، على اية حال ، لان المستعمرين توقفوا عن المجيء من تلك المنطقة . علاوة على ذلك ، كانت المقاطعة ضعيفة جغرافيا ، حيث كان يصعب الدفاع عن حدودها . وكانت قد فقدت سابقا كلا من بعرين والرفنية في عام ١١٣٧ لصالح زنكي صاحب الموصل ، ومنذ اربعينات القرن الثاني عشر بدأت الاخويات العسكرية تتولى مسؤوليات الدفاع عنها(٢) .

وبموت ريموند الثالث في عام ١١٨٨ لم تعد المقاطعة تعيش كوحدة مستقلة ، حيث تم دمجها في امارة انطاكية .

امارة انطاكية

كانت امارة انطاكية تسيطر على الساحل ، من قلعة المرقب في الجنوب ، وحول خليج الاسكندرون في الشمال وعلى امتداد الساحل القيليقي . واحتلت المصيصة ، ولفترة من الزمن طرسوس . وامتدت حدودها الشمالية من المصيصة الى مرعش ، ثم جنوبا ، لتتاخم حلب الى الشمال وتمتد شرق نهر العاصي الى كفر طاب ، حيث تنعطف عائدة الى البحر على علو شمال شيزر واراضي الحشيشية . وبعد سقوط الرها استولت الامارة على بعض الاراضي

(١) — حق البكر في الارث كله دون سائر الابناء .

(٢) — راجع كتاب « ج. ريتشارد » « J. Richard » : كونتية طرابلس في عهد الاسرة التولوزية (١١٠٢ — ١١٨٧) .

Le Conté de Tripoli sous la dynastie toulousaine (1102 - 1187) .

الغربية التابعة لهذه المقاطعة ، بينما ورث امراؤها في عام ١١٨٨ مقاطعة طرابلس . وحصل « بوهمند اوف تارانتو » « Bohcmond of Taranto » على مدينة انطاكية في عام ١٠٩٨ . لكنه أسر في عام ١١٠١ على يد غازي جمشتكين صاحب سيواس ، واصبح ابن اخيه « تانكرد » « Tancred » وصيا . وعاد بوهمند في عام ١١٠٣ الى انطاكية ، لكنه اتخذ القرار المدمر لرفع الضغوط عن دولته ، وذلك بالعودة الى الغرب ، وشن هجوما من هناك على الامبراطورية البيزنطية . واجبر على قبول شروط مخزية مع اليونانيين في عام ١١٠٨ ثم توفي في ابوليا ، بعد ثلاث سنوات ، رجلا محطما ، وبقي تانكرد متحكما بزمام الامور في انطاكية ، ويعود الفضل لهذا الحاكم القدير ، في ان الامارة اكتسبت اساسا متينا ، لكنه كان عديم الضمير . ومات في عام ١١١٢، وعمره ست وثلاثون عاما فقط ، وخلفه ابن اخيه ، « روجر اوف سالرنو » « Roger of Salerno » الذي اثر بعمق على معاصريه المسلمين والمسيحيين بسبب انتصاره على العراقيين في معركة « دانيث » « Danith » عام ١١١٥ . وقتل بعد اربع سنوات في معركة « ميدان الدم » «Field of Blood» .

كانت انطاكية تحت ادارة بلدوين الثاني ملك بيت المقدس حتى العام ١١٢٦ ، عندما وصل بوهمند الثاني ، ابن بوهمند الاول ، للمطالبة بميراثه . وقد قتل هذا الامير على يد الاتراك في عام ١١٣٠ ، وحكمت زوجته « أليس » « Alice » الامارة كوصية على ابنتها ، « كونستانس » « Constance » . كانت اليس طموحة ، وسرت شائعات بانها تنوي عزل كونستانس . وسار والدها ، بلدوين الثاني ، شمالا وتولى الوصاية مرة اخرى . واستمر خلفه ، فولك ، في ادارة الامارة تحت سلطة تاج بيت المقدس ، لكن كان يتوجب عليه ان يسحق التحالف القائم بين « بونز » « Pons » امير طرابلس ، وجوسلين اميرة الرها ، اللذين كانا يدعمان مطالب أليس المتجددة . وفي عام ١١٣٥ ، استدعي « ريموند اوف بواتييه » ، ابن ويليام التاسع دوق « اكيتين » « A - quitaine » ، من قبل فولك الى سورية وتزوج من كونستانس على الرغم من معارضة أليس . وقد قتل هذا في احدى المعارك في عام ١١٤٩ تاركا كونستانس ارملة مع اربعة اطفال ، وكان اكبرهم ، بوهمند ، يبلغ من

العمر خمس سنوات . وكان الموقف يتطلب وصيا ذكرا ، لذا تزوجت كونستانس في عام ١١٥٣ من «رينالد دو شاتيون» Reginald de Chatillon (١) وهو فارس فرنسي فقير ، ارتحل الى سورية مع الحملة الصليبية الثانية . وقوبل اختيارها هذا برفض عالمي ، وكان رينالد يستحق مثل هذا العار . وكان فارسا شجاعا ، لكنه قليل المبالاة ، وكانت اعماله الطائشة تلقي ظلها على تاريخ سورية اللاتينية حتى وفاته في عام ١١٨٧ . وعلى اية حال ، فقد أسر في شهر تشرين الثاني من العام ١١٦٠ او ١١٦١ على يد المسلمين ، وامضى ستة عشر عاما سجينا في حلب . وبناء على طلب من نبلاء انطاكية تسلم بلدوين الثالث مسؤولية الامارة حتى عام ١١٦٣ ، عندما بلغ بوهمند الثالث سن الرشد وبدأ حكما استمر حتى وفاته في العام ١٢٠١ .

كانت خطوط التبعية بين انطاكية وبيت المقدس واهية ، لان الامارة كانت متمتعة بالحكم الذاتي بشكل متقمد لدى تأسيسها . من جهة اخرى ، نجحت الامبراطورية الشرقية في تدعيم سلطتها ، على الرغم من ان ذلك قد تطلب اظهارا متكررا للقوة من قبل الاباطرة اليونانيين لتأكيد حقوقهم . كان دستور انطاكية هاما ، فالدولة كانت مؤسسة من قبل النورمنديين الصقليين ، الذين كانت مؤسساتهم نفسها مزيجا من العناصر البيزنطية والعربية واللومباردية والنورمندية ـ الفرنسية . وكانت هذه المؤسسات مفروضة على منطقة عرفت الحكمين العربي والبيزنطي ، وكان تطورها متأثرا بدول صليبية اخرى ، وبشكل بارز بمملكة بيت المقدس . وكان الامير من الناحية الدستورية اقوى حاكم في الشرق اللاتيني . وكان يحكم بواسطة الحق الموروث ، فهو السيد الاسمي ، والجميع مرتبطون به برباط الولاء . وكان يسيطر على ادارة مركزية ، متأثرة بمبادىء الحكومة البيزنطية . لذا كانت سلطات محكمة انطاكية العليا محدودة . ومع ان محاكم المواطنين كانت تبدو مشابهة جدا للمحاكم في بيت المقدس ، فقد بدا ان ادارة الاقاليم تطورت كثيرا .

---

(١) ـ اسمه بالفرنسية « Renaud de Chatillon » « رينو دو شاتيون » ، وعرفه العرب باسم ارناط .

على اية حال ، كانت الامارة ضعيفة . وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، اصبحت معظم الحدود من مسؤولية الاخويات العسكرية ، بعد الكارثة التي حلت بجيشها في ارتاح عام ١٩٦٤ .

كونتية الرها « Edessa »

تغطي كونتية الرها منطقة تقع الى الشمال الشرقي من امارة انطاكية وتمتد حتى الفرات . تمر حدودها الشمالية من مرعش الى الشمال من بثينيا وسميساط ، ثم تنعطف جنوبا بين الرها وحران ومن ثم تعود الى حدود انطاكية جنوب تل باشر وشمال شرق حلب .

وقد تم تأسيسها من قبل بلدوين ،الاخ الاصغر لـ « غودفري دو بويون » « Godfrey de Bouillon » وهو أول ملك لبيت المقدس . وعندما اسرع جنوبا للفوز بالعرش ، سمي قريبه « بلدوين دو بورغ » « Baldwin du Burg » كونتا . وفي عام ١١١٨ فاز بلدوين دو بورغ بتاج بيت المقدس ، وبما انه كان مدينا لـ « جوسلين دي كورتيناي » « Joscelin de Courtenay » ، سيد طبريا وابن عمه ، بسبب دعمه له ، فقد منحه المقاطعة . وحكم جوسلين الرها بقوة ، وفي الوقت نفسه كان منهمكا بسلسلة من النزاعات مع انطاكية . وفي عام ١١٣١ قضى نحبه وورث الرها ابنه ، جوسلين الثاني ، الذي كان ، على مايبدو ، لايملك الا بعض صفات والده . وبما انه لم يكن حازما بطبيعته ، فقد اتبع سياسة انعزالية وفضل ان يجعل مقر حكومته في قلعة تل باشر الجميلة ، بدلا من مدينة الرها ، التي استولى عليها زنكي في عام ١٩٤٤ . وفي عام ١١٥٠ اسره نور الدين ، وفقئت عيناه وسجن في حلب ، حيث توفي فيها عام ١١٥٩ .

كانت الرها اقل الدول اللاتينية شهرة في الشرق . فقد سقطت بأيدي المسلمين مبكرا ، ولم يبق من وثائق حكامها الا القليل . على اية حال ، فقد تأثر دستورها بالمؤسسات الارمنية والبيزنطية والعربية . واعترف كونتاتها بسلطة ملوك بيت المقدس كسادة ، لكنهم كانوا مرتبطين بالتبعية لاباطرة البيزنطيين وفيما بعد لامراء انطاكية .

الجيران المسلمون

ينبغي ان لا يغيب عن ذهننا ، على اية حال ، أن انشاء وبقاء الدول اللاتينية في الشرق كانا يعتمدان على ضعف وتمزق المسلمين ، وعلى قدرات الفرنج انفسهم . وكان العالم الاسلامي منقسما على نفسه عشية الحملة الصليبية الاولى. فالاطراف المتنافسة حول الخلافة في القاهرة وبغداد كانت تمثل طوائف اسلامية مختلفة . وكانت الامبراطورية السلجوقية في الشمال ، التي أسست قبل نصف قرن من الزمن ، قد بدات بالتمزق ، ولم تكن الموارد تتوفر لامراء سورية صغار السن ، ولا القوة البشرية ، التي تمكنهم من مقاومة الصليبيين . وكانت خاصيتهم التقليدية تجعل توحيدهم ضد هذا التهديد امرا صعبا ، كما ان سقوط الساحل بأيدي المسيحيين أضاف عجزا الى عجزهم . كانت مصر مهتمة بالدفاع عن مصالحها ، وسرعان ما بدا واضحا ان التنافس بين المسلمين سوف يأتي من منطقة مابين النهرين العليا ، حيث اصبحت المدن مثل مدينة الموصل ،مراكز لدول مستقرة . وفي عام ١١٢٥ اصبحت مدينة حلب ، التي هي المدينة الاسلامية الهامة في شمال سورية ، تحت سلطة الموصل . وثارت في عام ١١٢٧ ، لكن عماد الدين الزنكي ، وهو قائد طموح يمثل السلطة الموجودة في بغداد ، عُين في غضون ذلك حاكما للموصل . فأعاد اتحاد المدينتين واعطيت اليه ادارة حكومتهما على مضض . واصبحت لديه قاعدة قوية يستطيع منها الاشتباك مع الفرنج . وفي خلال العشرين عاما التي تلت ، احتل جزءا من حدود مقاطعة طرابلس ، وفي عام ١١٤٤ ، استولى على مدينة الرها ، حيث استفاد من ضعفها الراهن. وقد اغتيل بعد سنتين من هذا الانجاز الكبير . وعلى اية حال ، فان فتوحاته لم تعتمد على القوة اكثر من اعتمادها على استخدام المفاجأة والسرعة ، واتجهت طاقاته ضد جيرانه المسلمين بقدر ما اتجهت ضد اللاتين .

وعند وفاته ، هرع ابنه الاكبر ، سيف الدين غازي ، الى الموصل ليتولى ادارة شؤون الدولة ، وذهب ابنه الثاني ، نور الدين ، الذي تسلم خاتم السلطة من جسد والده المسجى ، الى حلب مع الامير الكردي شيركوه ، حيث

نصب حاكما على المدينة . وقد تبعثرت ممتلكات الزنكي بموجب اتفاقيـة تم التوصل اليها بين الاخوين ، كما ان استقلال نور الدين تأكد بامتلاكه جيش قوي وبزواجه من ابنة حاكم دمشق .

كانت سياسة الامراء المسلمين في هذا الوقت تتطلب تخفيض عـدد قلاع الفرنج ، بهدف زيادة ممتلكاتهم الشخصية والاسهام في انعاش سوريـة . وفي عامي ١١٤٧ و ١١٤٨ فتح نور الدين العديد من ممتلكات انطاكية الواقعة الى الشرق من نهر العاصي . وبعد فشل الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٨ تابع الهجوم ، وفي عام ١١٤٩ انطلق لمحاصرة حصن انب ، مدعوما بدمشق . فسارع الامير ريموند صاحب انطاكية للدفاع عنها ، لكنه هزم شر هزيمـة . وقد ادى هذا النصر المؤزر في مرحلة مبكرة من مجرى حياته الى اقتنـاع نور الدين بان الله قد اصطفاه ليكون بطل الاسلام . وظهر عنصر جديد في جهـود المسلمين لازاحة الفرنج ، لان نور الدين ، الذي كان مخلصا في جهوده لازالـة البدع الدينية واعادة الوحدة الدينية وكذلك الانضواء سياسيا تحت سلطة الخليفة السني في بغداد ، كان له تأثير عميق على خلفه . واستمر في غضون ذلك يعمل من أجل توسيع المنطقة الكائنة تحت سلطته . وفي عام ١١٥١ اكتسح معظـم اراضي مقاطعة الرها التي بقيت في ايدي اللاتين . وفي غضون بضع سنوات وحد جميع سورية المسلمة تقريبا ، واعترفت به مصر سيدا عليها في كانون الثاني ١٩٦٩ . واستسلمت له الموصل أخيرا في عام ١٩٧٠ وأصبح بالامكان اضافة منطقة ما بين النهرين العليا الى ممتلكاته . ولكنه توفي في شهر ايـار ١١٧٤ في دمشق ، تاركا طفلا وريثا له ، وتمزقت امبراطوريته اشلاء ، لكـن صلاح الدين لمّ شملها ببطء .

قضى صلاح الدين ايام شبابه في بعلبك ، حيث كان والده واليا عليها ، أولا لحساب الزنكي ثم لحساب حكام دمشق . وفي عام ١١٥٢ ، انضم الى عمه الامير شيركوه في حلب ، وهو في سن الرابعة عشرة ، وقضى السنوات الاولى من مجرى حياته في خدمة نور الدين ، ومات شيركوه في مصر عام ١١٦٩ وهو يشغل منصب الوزير وعيّن صلاح الدين خلفا له ، وفي عام ١١٧١ خلع صلاح الديـن آخر الخلفاء الفاطميين ودعا للخلافة العباسيـة في مصر . ووجد

نفسه الحاكم المطلق لواحدة من أكبر الدول الاسلامية الهامـة التي تملـك جيشا كبيرا .

عندما توفي نور الدين ، طالب صلاح الدين بالوصاية على الملك الصالح ، وريث الزنكيين لكنه لم ينجح في مسعاه على الرغم من فتحه لمدينة دمشق ، وتميزت السنوات التي تلت بتوسيع سلطته على العالم الأسلامي تدريجيا . وباخضاع حلب في عام ١١٨٣ ، والموصل في عام ١١٨٦ ، امتدت امبراطوريته من افريقيا الشمالية الى حدود بلاد فارس . ويجب التأكيد على ان طموحه الدائب لم يبن قوته الشخصية فحسب ، بل خلق أيضا قوة قدر لها ان تدمر الدول اللاتينية ، لذا ، كانت وحدة الاسلام تحت زعامته امرأ ضروريا . وقـد تحققت هذه الوحدة في نهاية عام ١١٨٦ ، ولكن بشكل غير ثابت علـى كـل حال . وتم تنظيم كل شيء.. واصبح صلاح الدين مستعدا .

ان مملكة بيت المقدس ، وامارة انطاكية ، ومقاطعتي طرابلس والرها ، كانت جميعها الدول التي خلقت الاخويات العسكرية من اجلها باديء ذي بدء . ويجب ان ينظر الى تطور اخوية القديس يوحنا ، التي جوبهت بالقوة المتنامية للاسلام ، من خلال قوانينها الاساسية والضرورات الكامنة وراء انشائها .

* * *

الفصل الثاني

« من هذه البدايات الصغيرة ... »

اطلع « ويليام اوف سان ستيفانو » « William of S. Stephano » وهو فارس اخوي مثقف ، على روايتين تتعلقان بأصول اخويته . كانت الاولى ، وهي باقية الى اليوم في مجموعة كتابات ، اطلق عليها اسم «المعجزات»، محاولة لاضفاء القدم المبجل على أصل الاسبتار والصبغة الدينية السماوية على وجوده الاولي . جاء في هذه الرواية ان حاخاما من اليهود ، يدعى «ملخيور» « Melchior »، انتهك حرمة قبر داوود . فرغب الملك « انطيوخوس » « Antiochus » في معاقبته ، لكن العناية الالهية اقنعته ان يكون رحيما ، وان يبني تكية للفقراء(١) في البقعةالتي قدستفيما بعد بالصلب(٢). واستفادت المؤسسة الجديدة من كرم « يوداس ماكابيوس »(٣) « Judas Maccabeus » ويبدو ان هذه الاسطورة تشويه لسلسلة الاحداث الواردة في كتاب المكابيين(٤) الثاني ، وبخاصة محاولة تدنيس الهيكل من قبل «هليودوروس» « Heliodarus » بناء على اوامر من « سلوقس » « Seleucus » . وغيرت مجموعة كتابات « المعجزات » أسمي « هليودوروس سلوقس » الى اسمي « ملخيور » ، وهو من المجوس ، وانطيوخوس ، واضافت قصة الهدية التي

---

(١) ـ نزل للمسافرين او الفقراء تنفق عليه منظمة دينية .
(٢) ـ عملية صلب السيد المسيح .
(٣) ـ يهوذا المكابي .
(٤) ـ اسرة معروفة في تاريخ العبرانيين .

قدمها يوداس المكابي لارواح الموتى بعد انتصاره على «جورجياس اوف ادوميا» « Gorgias of Idumiea » ، على الرغم من انها جعلت المستفيدين من ورع يوداس هم الفقراء بدلا من الموتى .

كان القديس الحامي للاخوية هو يوحنا المعمدان ، الذي ارتبط به موقع الاسبتار في الازمنة القديمة . ان الرغبة الطبيعية في اعطاء القديس مكانا في تاريخ الاخوية ربما قد أدت الى الاعتقاد بان ادارة الاسبتار قد أعطيت الى والده زكريا ، الذي كان خلفه ، جوليان الروماني « Julian the Rom » الاسطوري ، بمثابة جسر بين العهدين القديم (التوراة) والجديد (الانجيل) . ويفترض بأن المسيح نفسه قد تردد على الاسبتار في عهد جوليان . وللحقيقة، فان العهد الجديد قد نهب على نحو منظم من قبل مؤرخين متحمسين . وقد فشل الانجيليون بعدم مبالاة في تحديد المواقع الجغرافية التي يفترض بانها تنطبق على الاسبتار ، والتي وردت في اشارات السيد المسيح او الحواريين بشأن المرضى . والى هنا التجأت السيدة العذراء والحواريون اثناء آلام المسيح . وفي هذا المكان ظهر السيد المسيح ثانية بعد قيامته . وهنا ايضا ارتاب القديس توماس ، وصرع المرتدان « حنانيا » « Ananias » وصفيرا « Sapphira » ، وانتخب الشماسون السبعة ، وادعى الاسبتارية ان القديس « ستيفن بروتومارتير » « Stephen Protomartyr » قد تولى ادارة اخويتهم .

يبدو ان هذه البدع التي تميز خيال العصر الوسيط ترجع الى القرن الثاني عشر . وكان يعتقد في روما ، في عام ١١٩١ ، ان الاسبتار في بيت المقدس كان مسرحا للعديد من الاحداث الواردة في العهد الجديد . وفي ستينات القرن الثالث عشر اعترف سيد الاسبتار نفسه بأن القديس « ستيفن بروتومارتير » كان احد اسلافه . وعارض « ويليام اوف سان ستيفانو » « William of S. Stephano » ، الذي كتب روايته عن تأسيس الاسبتار في الفترة ما بين ١٢٩٠ و ١٣٠٢ . وهو لم يستطع ان يجد دليلا جازما للرأي القائل بأن الاسبتار قد تأسس في عهد انطيوخوس، على الرغم من انه يفترض

بأنه من الممكن ان يكون تكية قديمة قد اندثرت أثناء تدمير بيت المقدس على يد الامبراطور الروماني « تيتوس » .

استمر سحر المؤسسة البدائية يسحر خلفاء ويليام . فقد افترض « ويليام كاورسين » « William Caoursin » ، في اواخر القرن الخامس عشر ، ان الاسبتار قد تأسس من قبل « يوداس المكابي » نفسه . وتمسك بالقشة التي القاها ويليام اوفسان ستيفانو . لقد دمرت التكية القديمة عندما نهب الرومان بيت المقدس واعيد بناؤها من قبل جيرارد ، سيدها الاول . وتسمح هذه النظرية لمعاصريه باتقان شرح الكتب السماوية . ففي الاسبتار أعطي القديس بطرس مفاتيح السماء ، وفيه عقد المجلس الاول للكنيسة . وتولى القديس « ستيفن » ادارته وجعل القديس يوحنا المعمدان راعيا له .

على أية حال ، كانت هنالك رواية أخرى حول اصول الاسبتار وهي موجودة في مجموعتين مستقلتين من المصادر ، على مايبدو ، وهي تظهر في تاريخ ويليام رئيس أساقفة صور ، الذي لم يكن كاتبا معتدلا وصاحب نفوذ فحسب ، بل كان ايضا رئيس القضاة في مملكة بيت المقدس . لذا فهو يعرف الاسبتارية جيدا . لقد كتب روايته في الفترة ما بين ١١٧٠ و ١١٨٢ ومع اننا سنرى في فصل لاحق أنه يكن قليلا من الحب لأخوته ، فليس هناك سبب يدعو لعدم تصديق روايته . وقد كتبت ان تجارا من أمالفي ، لم يكن لهم مأوى للسكن في بيت المقدس ، قد تسلموا بعض الاراضي في الحي المسيحي ، من الخليفة الفاطمي في مصر ، وتقع هذه الاراضي بجانب كنيسة القبر المقدس(١) . وحدثت هذه الهبة خلال القرن الحادي عشر ، قبل الحملة الصليبية الاولى . وبنى الامالفيون ديرا تكريما للسيدة العذراء وأمنوا له رئيسا ورهبانا من ايطاليا . وبما ان هؤلاء الرهبان من اللاتين ، فقد عرف الدير باسم « دير القديسة مريم للاتين » . وبعد وقت قصير بني دير القديسة مريم المجدلانية ، لتأمين المأوى للنساء الحاجات . لكن الحجيج أستمر في الازدياد ، كما ان مشكلة المسافرين

---

(١) ــ اي كنيسة القيامة (المترجم) .

الاوروبيين غير المحميين في ارض غريبة ادت الى بناء تكية ملحقة بالدير ، كرست للقديس « يوحنا الالمونر » « St. John the Almoner » . وكانت هذه التكية اسبتار القديس يوحنا الاصلي .

تؤكد الادلة المتعلقة بالاثار وجود هذه المؤسسات الثلاث ، والتي عرفت فيما بعد باسماء : « سانت ماريا لاتينا » « S. Maria Latina » ، وسانت ماريا ماجورا « S. Maria Majora » ، واسبتار القديس يوحنا المعمدان . على اية حال ، يبدو ان ويليام الصوري كان مخطئا في نقطتين . فمن الممكن ان لا يكون دير القديسة مريم للاتين مؤسسة جديدة . وربما اسست تكية من قبل البابا غريغوري الاول في عام ٦٠٣ ، التي استفاد منها الحجاج اللاتين القادمون الى بيت المقدس في أواخر القرن التاسع . وكان بالقرب منها كنيسة مكرسة للقديسة مريم ، يبدو مدينة بانشائها الى رعاية شارلمان . وكان يدير الكنيسة رهبان بنديكيتون ، انتقلوا من الموقع الاصلي لديرهم في جبل الزيتون الى بقعة قريبة من كنيسة القيامة . على اية حال ، دمرت المباني في بيت المقدس بناء على اوامر الخليفة الحاكم في عام ١٠٠٩ . وربما أعاد الامالفيون البنية الاصلية لهذه المباني .

ربما كان ويليام الصوري مخطئا أيضا في اعتقاده بان الاسبتار الاصلي كان مكرسا للقديس يوحنا الالمونر . وهو يشير الى هذا التكريس مرتين وبشيء من التفصيل . وعلى كل حال ، هنالك دليل قوي على ان الراعي الاول لم يكن القديس يوحنا الالمونر بل القديس يوحنا المعمدان . وربما كانت رواية ويليام الصوري تردد اصداء نزاع قديم حول رعاية الاخوية ، لانه يبدو ان اول كنيسة رهبانية للاسبتارية كانت كنيسة بيزنطية كرست للقديس يوحنا الالمونر . وبما انها كانت موجودة في منطقة ترتبط بالقديس يوحنا المعمدان مدة طويلة فمن الممكن ان تكون الاخوية قد غيرت اسم القديس الراعي لها بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بوقت قصير .

استخدم رواية ويليام الصوري عدد من الكتاب ، من بينهم « جيمس دو فيتري » « James de Vitry » ، « وويليام اوف سان ستيفانو »

« S. Stephano » . سار « جيمس دو فيتري » ، الذي كان اسقفا لعكا في الفترة مابين ١٢١٦ — ١٢٢٨ ، على منوال ويليام الصوري باخلاص . لكن ويليام اوف سان ستيفانو ، الذي رأيناه سابقا يعارض مجموعة كتابات «المعجزات» ، اضاف تفصيلات أخرى ، لاتعرف مصادرها . على اية حال ، فقد أكد على انه استفاد فقط من المعلومات التي اعتبرها جازمة . وقد كتب ان خمسين تاجرا أسسوا دير القديسة مزيم للاتين ، وان البديكيتين أرساوا للخدمة في هذا الدير . وناقش بأن الراعي الاصلي للاخوية لم يكن القديس يوحنا الالمونر قط ، بل كان دائما هو القديس يوحنا المعمدان ؛ على الرغم من انه قدم وثيقة لدعم هذا الرأي ونسبها خطأ الى « غودفري دو بويون » بان الاسبتار قد تمت ادارته اولا من قبل أشخاص يعينهم رئيس دير القديسة مريم ، لكنه لا يعرف التاريخ الذي أصبح فيه مستقلا .

على الرغم من ان سان ستيفانو اعطى تفصيلات جديدة ، فانه لا يمكن بأي حال من الاحوال ان نعتبرها مصدرا مستقلا ، وعلى الاصح كان من اتباع ويليام الصوري الناقدين له . لكن هنالك دليل معاصر آخر فيما يتعلق بالمؤسسة الامالفية الاصلية . وفي عام ١١١٢ أصدر البابا «باسكال الثاني» « Paschal II » امرا بابويا من أجل دير القديسة مريم للاتين ، اشار فيه الى ان الدير ، قبل الحملة الصليبية الاولى ، قد جعل تكية « للاتين والايطاليين واللومبارديين » وكان يديرها رهبان بنديكتيون . ويبدو أيضا أنه كانت هنالك محاولات للسيطرة على الدير من ايطاليا ، من اشارة وجهها البابا الى مكتب رئيس الدير . ويمكن أيجاد مراجع اخرى في التأريخ الخاص بجنوب ايطاليا . فقد ذكر « أيمية اوف مونت كاسينو » « Aimé of Monte Cassino » ان تأسيس المشافي في انطاكية وبيت المقدس كان بمبادرة من عائلة امالفية . وكان عميد هذه العائلة ، « مورو » « Mauro » ، والد « بانتاليوني » « Pantalone » الذي كان زعيم الجالية الامالفية في القسطنطينية . ونحن نعرف من مصدر آخر ان رئيس الاساقفة « جون اوف امالفي » « John of Amalfi » حج الى بيت المقدس حوالي العام ١٠٨٠ ، وقد استقبل هناك من قبل

الامالعيين الذين بنوا اسبتاريين ، قبل بضع سنوات ، أحدهما للرجال والآخر للنساء .

يمكن الاعتماد على الادلة التي قدمها وليام الصوري ، والبابا باسكال الثاني ، والمؤرخون في جنوب ايطاليا . ولو لم تكن مرضية بشكل كامل ، اكثر من الاعتماد على الادلة التي قدمتها مجموعة كتابات « المعجزات » . على كل حال ، من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ تاسيس هذه المجمعات من المنازل الدينية القريبة من القبر المقدس . ولابد أن تأسيسها قد تم بعد عام ١٠١٤ ، عندما انتهى اضطهاد المسيحيين في بيت المقدس . وقد اقترح بأن هذا التأسيس لايمكن ان يكون قبل عام ١٠٦٣ ، وهو العام الذي بنيت فيه اسوار الحي المسيحي في المدينة ، لكن اشير الى انه من الممكن ان يكون الحي قد اعطي للمسيحيين قبل بناء الاسوار . من جهة اخرى ، فان من المعروف ان مورو الامالفي توفي في عام ١٠٧١ ، واذا كان الدليل الذي قدمه « ايميه اوف مونت كاسينو » مقبولا ــ ويجب الاعتراف بأن كلماته ليست واضحة بشكل مطلق ــ فلا بد ان دير القديسة مريم للاتين قد أسس قبل ذلك العام . ومن غير المحتمل ان يكون قد أسس فيما بعد لان بيت المقدس كانت موضع نزاع بين المصريين والاتراك السلاجقة بعد عام ١٠٧٠ . ويبدو ان دير القديسة مريم للاتين ودير القديسة مريم المجدلانية كانا موجودين قبل عام ١٠٨٠ ، عندما زار رئيس الاساقفة جون المدينة المقدسة . والتاريخ الاكثر احتمالا لتأسيس دير القديسة مريم يجب ان يظل فترة حكم الخلفية الفاطمي المستنصر وهي من عام ١٠٣٦ الى عام ١٠٩٤ ، وبشكل خاص السنوات التي سبقت عام ١٠٧٠ .

لذا فان الادلة تمكننا من التوصل الى نتيجة محددة غير نهائية حول أصول الاسبتار . ففي منتصف القرن الحادي عشر أسس ، او جدد ، التجار الامالفيون دير القديسة مريم للاتين في بيت المقدس ، جنوب كنيسة القيامة . ووضعوا فيها رهبانا بنديكتيين من ايطاليا . وكانت السنوات الوسيطة من القرن تتميز بزيادة كبيرة في اعداد الحجاج القادمين الى الاراضي المقدسة . ولدعم مرور هذا العدد الكبير فقد تم انشاء مؤسستين مستقلتين هما : دير

القديسة مريم المجدلانية ، عرف فيما بعد باسم دير القديسة مريم الكبرى ، وتكية كرست للقديس يوحنا المعمدان او القديس يوحنا الالمونر . ومن المحتمل ان يكون الدير قد أسس في عام ١٠٨٠ . اما تكية القديس يوحنا ، ان لم تكن موجودة من قبل ، فقد انشئت بعد ذلك بوفت قصير . ومن المؤكد انها كانت تعمل قبل الحملة الصليبية الاولى .

في مساء يوم الثلاثاء من شهر حزيران ١٠٩٩ ، كان جيش الصليبيين اللاتيني يعسكر امام بيت المقدس . وكان الحاكم الفاطمي ، افتخار الدولة ، ينظم الدفاع عن المدينة المقدسة ، وقد عمد الى طرد السكان المسيحيين . ولكن يبدو ان جيرارد ، الذي كان يدير شؤون اسبتار القديس يوحنا ، لصالح رئيس دير القديسة مريم للاتين ، قد بقي في المدينة . وفي السنوات التي تلت كانت المدينة المحاصرة مسرحا لمعجزة قام بها جيرارد ، كانت مطاوبة لكتّاب سير القديسين . فقد قيل بأنه أمر هو والسكان الآخرون بتقديم المساعدة والدفاع عن بيت المقدس . وكان يعرف بان الصليبيين خارج الاسوار كانوا جياعا ، لذا كان يأخذ بضعة ارغفة كل يوم ويصعد بها الى المتراس ويقذفها على الفرنج بدلا من الحجارة . وشاهده الحراس العرب فالقوا القبض عليه واقتادوه الى الحاكم . ولكن عندما جيء بالارغفة كدليل ضده ، تحولت هذه الارغفة الى أحجار(١) فأطلق سراحه . وكان قادرا على الاستمرار في قذف الخبز على المحاصرين . وربما كانت هذه الرواية مستندة على تفاصيل معروفة . فمن المؤكد ان جيرارد كان في المدينة ايام الحملة الصليبية الاولى . ويبدو ان القاء القبض عليه قد حدث بسبب الشكوك التي اثيرت حول اختزانه للاموال ومساعدته للصليبيين . وقد عُذب لدرجة انه لم يستطع استخدام اطرافه فيما بعد .

ان عائلة جيرارد وبلده الاصلي غير معروفين ، على الرغم من محاولات المؤرخين الحاذقين لاعطائه نسبا ملائما . ففي عام ١٠٩٩ كان مديرا للاسبتار لذا فمن الممكن ان يكون راهبا غير مرسوم في دير القديسة مريم للاتين . اننا لانعلم التاريخ الذي أصبح فيه الاسبتار يدار ذاتيا ، ففي السنوات التي تلت

(١) ـ المقصود هو الدلالة على كرامات القديسين.

الحملة الصليبية الاولى ، من المحتمل ان يكون الاسبتار قد احتفظ بحالة شبه مستقلة وغير مستقرة . وعلى كل حال ، فمن المؤكد انه عومل ، منذ الغزو اللاتيني لبيت المقدس ، ككيان منفصل وكان يتلقى الهدايا بشكل مباشر. وقد اعترف به كاخوية مستقلة في عام ١١١٣ من قبل البابوية . لكن السنوات التي سبقت هذا العام كانت ذات اهمية كبيرة ، فهي تتميز باحسان ملك بيت المقدس وبطاركتها . وبكرم اللوردات الاوروبيين،وبشخصية ومثل جيرارد نفسه .

أعطي الاسبتار في بيت المقدس بعض الممتلكات من قبل « غودفري » ، اول حاكم لاتيني لبيت المقدس ، الذي قضى نحبه بعد عام واحد من الغزو . لذا . فان جيرارد نفسه او الخدمات التي قام بها الاسبتار مسبقا قد تركت انطباعا جيدا . وقد استمر خلف غودفري باظهار الاحسان الذي سبق وان اظهره غودفري . وفي الحقيقة فان الملك بلدوين الاول لم يعط الفضل الذي يستحقه في تاريخ الاخوية ، اذ بعد انتصاره على المصريين في الرملة عام ١١٠١ ، قدم عشر الغنائم الى الاسبتار . وفي عام ١١١٠ صدق على الهبات التي قدمت للاسبتار في مملكته ، وبعد سنتين ثبت جميع ممتلكاتها . وعندما توفي في عام ١١١٨ كفن في الاسبتار قبل دفنه في كنيسة القيامة .

يظهر تثبيت بلدوين لممتلكات الاسبتار بان هذا الاسبتار كان يحصل من لوردات المملكة على ممتلكات مبعثرة . لكنها متسعة . وكان سخاء الكنيسة ينافس السخاء الملكي . وفي عام ١١١٢ استثنى بطريرك بيت المقدس ، وكذلك رئيس اساقفة قيسارية المدعو « افرمار » « Evremar » ، أحد الاسبتارية (العاملين في الاسبتار) من دفع ضريبة العشر اليهما . ومن الممكن ان تكون الكنيسة قد حظيت بتأييد ملكي . لان بلدوين اصدر في السنة نفسها ميثاقه الخاص بالاسبتار ، بحضور « ارنولف » « Arnulf »،البطريرك المنتخب حديثا ، وارخ تثبيته لاملاك الاسبتار اعتبارا من تاريخ تنصيب ارنولف بطريركا .

ليس من الصعب معرفة اسباب هذا التأييد الملكي . فوجود القبر

المقدس بأيدي المسيحيين ، ومجيء الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس دون عوائق ، يجعل وجود منظمة مكرسة للعناية بالحجاج أمرا مستحسنا ومفيدا . كان الاسبتار في بيت المقدس معروفا جيدا بالنسبة للحجاج في أوائل القرن الثاني عشر ، وسرعان ما انتشرت شهرته في اوروبا الغربية . ففي عام ١١٠١ قدم مبعوث ، ارسله « روجر دون ابوليا » ، الف بيزنط (١) هدية للبطريرك « ديمبرت » « Daimbert » . وكان من المفروض ان يعطي ثلث هذا المبلغ الى كنيسة القبر المقدس ، والثلث الثاني الى الملك لانفاقها على جيشه ، والثلث الاخير الى الاسبتار . لكن ديمبرت الجشع احتفظ لنفسه بالمبلغ كله ، وكانت هذه آخر حادثة جعلت بلدوين يطلب عزل البطريرك . وهنا تجدر الاشارة الى ان الاسبتار في نظر الحاكم الاوروبي كان يوازي من حيث الاهمية جيش المملكة وكنيسة القبر المقدس .

يمكن ادراك مدى الترابط بين الاسبتار في بيت المقدس ونجاح الحملة الصليبية من الهبات التي كانت ترسل اليه في اوروبا . فقد استلم قبل عام ١١١٣ ممتلكات واسعة في ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا ، كما تلقى عبارات عديدة وردت في مواثيق اسبانيا « وبروفنس » « Provence » تشير الى انه مرتبط في اذهان الناس بكنيسة القبر المقدس . لكن العدد الكبير من التبرعات في أوروبا نتج عن قرار واع بانشاء تكيات جديدة في جنوب فرنسا وفي ايطاليا من أجل خدمة قوافل الحجاج . وبحلول عام ١١١٣ كانت هنالك تكيات تعمل في « سان جيل » « St. Gilles » قرب مرسيليا ، وفي كل من « استي » « Asti » . وبيزا . وباري . واوترانتو ، وتارانتو ، ومسينا . وقد اختيرت هذه الاماكن استراتيجيا . فكانت بيزا ، وباري . واوترانتو ، وترانتو ، وميسنا من بين المدن الهامة التي يتوجه منها الحجاج والصليبيون الى الشرق بحرا . وكانت باري بشكل خاص مشهورة لان القديس « نيقولا » « St. Nicholas » مدفون فيها . وتقع أستي على الطريق المؤدي من جبال الالب الغربية الى ايطاليا . وكانت « سان جيل » ميناء هاما للابحار الى الشرق ، بالاضافة

---

(١) ـ عملة ذهبية بيزنطية قديمة .

الى كونه مكانا مقدسا بحد ذاته ، وهو، ايضا مركز يقع على الطريق المؤدي الى ضريح القديس «جيمس اوف كومبوستيلا» « St. James of Compostella » من المفترض ان يكون جيرارد نفسه هو الذي اتخذ بوعي منه هذا القرار الخاص بانشاء التكيات في كل من جنوب فرنسا وايطاليا . وبحلول عام ١١١٣ كان الاسبتار أخوية دولية ، تدار من بيت المقدس ، وكان البابا « باسكال » « Pope Paschal » قادراً على ان يكتب مايلي عن التكيات الاوروبية : « انها ستبقى الى الابد تحت تصرفكم وتصرف احفادكم كما هي اليوم » . وقد أصبحت مركزية بحيث تميز الرهبان البنديكتيين . لذا كانت اول الاخويات العالمية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

لم يكن هذا السبب الوحيد لاهمية الاسبتار في تاريخ الكنيسة . فقد كانت واجباته والعبارات الواردة في وثائقه تعلن مثلاً عليا لم يسبق ان عبر عنها بمثل هذه العبارات فيما مضى . كان المرضى الفقراء ، بالنسبة للاسبتار ، هم السادة والاسبتارية (عمال الاسبتار) هم العبيد ، وقد الزم الاسبتارية أنفسهم بجعل هذا الاحترام للفقراء مشابها للتبجيل الذي يقدمه الرجال العاديون الى اسيادهم الدنيويين . وفرض عليهم القانون فيما بعد ان يلبسوا ثيابا متواضعة : « **من أجل سادتنا الفقراء ، الذين نقر باننا خدم لهم ، نسير حفاة ونلبس بتواضع . وسوف يكون من العار ان يتكبر العبد بينما يكون سيده متواضعا** » . وهنالك أسباب للاعتقاد بان فكرة سيادة الفقير قد طبقت على الاسبتار من قبل جيرارد نفسه ، وقد دعمت هذه الفكرة من قبل البابوية على الفور . وكان تأثير هذا المثل الاعلى كبيرا على الكنائس في القرن الثالث عشر .

لقد تأكد تواضع جيرارد وقداسته من قبل اجيال من المؤرخين غير ان قدراته لم تقدر حق قدرها . لقد استفاد من مركزه كمدير للاسبتار فأسس أول اخوية دينية عالية حقا ، كانت ذات مثل أعلى أصيل وجذاب . وقد اعتبره البابا « باسكال » الثاني « Paschal II » معلما للاسبتارية وقد تأكدت قدراته وطهارته في الكتابة المنقوشة على ضريحه ، وهنالك شك حول صحتها ، لكنها تلقى بعض التأييد في مجال الادلة الوثائقية .

« هنا يرقد جيرارد ، الرجل الاكثر تواضعا في الشرق ، وخادم الفقراء ، والمضياف بالنسبة للغرباء ، والحليم والمتزن الذي يحمل قلبا نبيلا ، والرجل الصالح ، كان حكيما ونشيطا . وكان يجهد نفسه بشتى السبل ، وقد استثمر الكثير من الاراضي لاطعام افراد اخويته . وقد صعدت روحه الى السماء محمولا على أكف الملائكة ، وذلك في اليوم السابع عشر من مرور الشمس تحت برج العذراء » .

لذا ، فقد تم تشجيع الاسبتار ، قبل عام ١١١٣ ، من قبل السلطات الدنيوية والاكليركية في بيت المقدس ، ومن قبل اوروبا الغربية المتحمسة لمثل الاسبتار العليا ، وأخيرا من قبل افكار وقدرات مديره . لكن كل هذا يبقى بدون جدوى اذا ظل الاسبتار معتمدا على بعض المؤسسات الاخرى . ولا نعرف بالتحديد متى تم تحريره من تبعية دير القديسة مريم للاتين . وربما كان تحت سلطة كنيسة القبر المقدس فترة من الزمن ، وقد يفسر هذا التأييد البطريركي له . لكن الذي جعله اخوية مستقلة هو الامتياز البابوي . لقد رأينا أن عام ١١١٢ قد شهد تثبيتا هاما من بلدوين الاول واستثناءات من ضريبة العشر من قبل بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة قيسارية . وفي العام نفسه اصدر البابا باسكال الثاني قرارا بابويا يتعلق بانشاء دير القديسة مريم للاتين . وربما كانت هذه الخطوات مقدمة للاعتراف البابوي باستقلال الاسبتار . وكان زعماء بيت المقدس يؤيدون مطلب جيرارد الخاص بذلك .

وكان القرار البابوي عام ١١١٣ يتضمن الميثاق التأسيسي للاخوية الجديدة . ووضع البابا باسكال الثاني الاسبتار تحت حمايته ، وثبت كل شيء حصل عليه او استحصله من المؤمنين . واقر تمتعه بضريبة العشر الناجمة عن الاراضي المملوكة من قبلها ، او المأخوذة من المحصولات التي انتجتها . وثبت تبعية ممتلكاته الاوروبية الى مقدم الاسبتارية . وعلاوة على ذلك ، حرر انتخاب مقدم الاسبتارية من التدخل الخارجي ، متبعا صيغة مستخدمة عادة من قبل البابوية بالنسبة لامتيازاتها الخاصة بالاخويات المستقلة او برئاسة الاديرة . وكان يتحتم اختيار خلفاء جيرارد من قبل اخوة القديس المعترف بهم . ويبدأ تاريخ الاسبتار بشكل صحيح بهذا القرار البابوي

كأخوية مستقلة للكنيسة . وكان لا بد من الحصول على بعض الخصائص واجراء العديد من التغييرات ، لكن البابا قد اوجد الصيغة الاساسية لاخوية دينية عالمية ، مسؤولة امامه فقط .

مع ذلك ، فقد اعتمد تطور الاسبتار (مقر الاسبتارية) على النصف التالي من القرن . وكان محظوظا في اول مقدمين له . توفي جيرارد في عام ١١٢٠ ، ووفقا للدستور الجديد تم انتخاب خلفه ، « ريموند دو بوي » « Raymond du Pay » بشكل قانوني . وكان يفترض ، فيما بعد ، ان يكون أول الاخوة الذين انضموا الى الاخوية الجديدة بامرة جيرارد ، ويوجد حديثمتواتر تكرر لمدة طويلة،لكنه غير مسند بأدلة صحيحة،بانه ولد فيمقاطعة « دوفينيه » « Dauphiné » الفرنسية ، وتتميز فترة ادارته للاسبتار بانها طويلة . وفي الوقت الذي توفي فيه ، في الفترة ما بين ١١٥٨ و ١١٦٠ ، كانت بنية الاخوية تأخذ صيغتها النهائية التي تتميز بها .

اشتهر ريموند فيما بعد بالبر ، وكان ورعه معروفا بالنسبة لمعاصريه . وكان يختلف كلية عن جيرارد الوديع . وكانت ادارته للاسبتار تتصف بالشدة ولم تظهر سوى القليل من التبصر الروحي الذي يميز بعض الاخويات الدينية الاخرى . وهو يبدو في مجالات اخرى مشايعا للشرعية والاستقامة ، لكنه كان في الوقت نفسه عديم الرحمة فيما يتعلق باستثمار اخويته ، وفي تنفيذ اية مسائل قانونية حتى النهاية . وكان واضحا انه رجل سياسة ، ومنذ بداية توليه ادارة مقر الاسبتارية كان يتردد على بلاط ملك بيت المقدس . ويبدو انه مثل في عام ١١٤٠ كلا من بطريرك بيت المقدس ومقدم الداوية ، في المفاوضات الدقيقة حول عودة الداوية والاسبتارية وقوانين كنيسة القبر المقدس الى مهارة ريموند . وعندما نشأ نزاع في خمسينات القرن الثاني عشر ، حول امتيازات الاخوية مع بطريرك بيت المقدس ، الذي سافر بنفسه الى ايطاليا للاحتكام الى روما ، سارع ريموند ايضا الى الادارة البابوية للدفاع عن ملك الاراغون الفونسو الاول . ويرجع الفضل في نجاح هذه المفاوضات الى الاسبتارية . وكان نشيطا بشكل بارز ، وفي اواخر ايامه قام برحلة طويلة في ارجاء اوروبا ، تفقد خلالها ، املاك اخويته .

نما الاسبتار بسرعـة تحت ادارة أول مقدمين له . وكانت هناك زيادة كبيرة في ممتلكاته ، وظهرت التطورات الاولى في التنظيمات الاقليمية . وحصل الاسبتار على امتيازات ، اذ تم اعفاؤه في عام ١١٥٤ مـن سلطنـة الكنيسة، بينما وضـع قانون الاسبتار ، الذي صـدر قبل عام ١١٥٣ ، اسس بنيته وحياته الرهبانية . وفي الوقت نفسه بدات الاخوية بالاسهام في النشاطات العسكريـة .

انهالت الهبات قبل عام ١١٦٠ على الاسبتار من جميع انحاء العالـم المسيحي ، وتم بذلك وضع الاساس لتلك السلطة العقارية التي جعلت الاخوية احدى المؤسسات الغنية في العصر الوسيط . وتبرع الناس العاديون والسلطات الدنيوية بسخاء من جراء اعجابهم باعمال الاخوية ، وتشجيع البابوية التـي كانت بحاجة كبيرة لالتزاماتها العسكرية . وتم الحصول على مناطـق كبيرة في شمال سورية حيث مارس الاسبتارية سلطة مستقلة تقريبا . وفي اوروبـا منح الاسبتار أملاكا من البرتغال وبوهيميا . وكان الفرض مـن الممتلكـات الاوروبيـة هو تأمين احتياجات الاسبتار في بيت المقدس ، وقد نظمت هـذه الممتلكات علـى شكل اديرة ، وكانت هذه تدار مـن قبل ممثلين عـن مقدم الاسبتاريـة . وبحلول عام ١١٦٠ ظهـرت اديرة : سان جيل ، ومسينا ، وكاستيل ـ ليون ، والبرتغال وانكلترا ، وأمبوستا . وقد تضمن قانـون الاسبتار نظاما مركزيا تدفع بموجبه الممتلكات الاوروبية جزءا من عائداتها الى الادارة المركزية للاسبتار .

وكان هذا النمو يسير في خط متواز مع الاعفاءات الكنسية . وسوف يبحث هذا الامر في فصل لاحق . ويكفي هنا القول بان الاسبتار حصل في عام ١١٥٤ علـى امتيازات مـن البابويـة مكّنته من بناء نظام كامل مـن الحريات الكنسية . وهنالك امتيازات ساعدته ماليا : الاعفاء من دفع ضريبة العشر تحت شروط معينة ، والحماية البابوية لجامعي الصدقات ، وتشجيع المحسنين بوعدهم بالغفران ، وبالسماح للاسبتارية بفتح كنائس ابرشية مرة واحدة في السنة في المناطق المحرمة . وهنالك امتيازات تتعلق بالانعاش الروحي

للاخوة ، وبمستأجري أراضيهم ، وبعبيد الارض . وبالخدم ، والمرضى : حق امتلاك الكنائس والمقابر ، وانشائها في المناطق المهجورة من اجل المستوطنين ، وان يكون للاخوة قساوستهم الخاصين وان يؤدوا خدمة القداس حتى في الاوقات المحرمة . واخيرا ، هنالك الامتيازات التي حررت الاخوية من السلطة الاسقفية : استقلال وظيفة مقدم الاسبتارية ، والتحرر من الحرمان الكنسي ، والسلطان القضائي للاساقفة . وعلى الرغم من اننا سنرى ان الاسبتارية لم يستطيعوا قط ممارسة جميع امتيازاتهم في سورية اللاتينية ، فقد كانوا يتمتعون باعفاءات هائلة .

لم يكن هنالك شيء أثار الاحترام والدهشة والذهول،في تاريخ الاسبتارية الطويل والرائع،اكثر مما أثاره جمع الانظمة المعروفة بـ «قانون ريموند دو بوي» . هنالك قليل من الشك حول وضع ريموند لهذا القانون ، وحول الوثيقة الموجودة حاليا ، بانها نتاج تشريعه . لكنا لا نستطيع معرفة تاريخها ، كما اننا لا نستطيع تقرير اصالتها . واننا لانستطيع ان نقول متى حل هذا القانون ، الذي يستند على القوانين الكنسية المألوفة ، محل قانون القديس « بنديكت » الذي يفترض بانه اول قانون تم اتباعه من قبل دير القديسة مريم اللاتين . وعلى أية حال ، يمكن ايضاح هذه المسائل وتقديم بعض الافتراضات غير النهائية .

يتضمن القانون تسع عشرة مادة . ويمكن تقسيم هذه المواد الى مجموعتين : المواد الخمس عشرة الاولى ، التي تشكل صلب القانون ، والمواد الاربع الاخيرة ، التي أضيفت فيما بعد . ومن المؤكد ان المواد من ١ ــ ١٥ مصاغة بأسلوب معقول . فبعد المقدمة ، هنالك المادتان الاولى والثانية وتتضمنان مبادىء عامة ، ثم المادة الثالثة ، التي تتعلق بالخدمة في المذبح ، ثم المواد من ٤ ــ ٧ وتتعلق بجمع الصدقات ، وتتحدث المادة الثامنة عن اللباس والطعام ، ثم المواد من ٩ ــ ١٣ وتتحدث عن النظام ، وتتحدث المادة الرابعة عشرة عن القداس الخاص بالموتى ، ثم المادة الخامسة عشره ، وتتضمن امرا عاما للعيش وفقا للقانون . اما المواد الاربع الاخيرة فقد صيغت كيفما اتفق بالمقارنة مع

المواد الخمس عشرة الاولى . فالمادة السادسة عشرة تتعلق باستقبال المرضي والعناية بهم ، على الرغم من انها تنتهي بملاحظة تتعلق بالنظام . وربما كان ينبغي ان تربط بالمادتين السابعة عشرة والثامنة عشرة . وهاتان المادتان تشرحان قواعد النظام ، بينما تذكر المادة التاسعة عشرة بأن على الاخوة ان يرتدوا الصليب .

لذا فان القانون يتألف ، من النظرة الاولى ، من سلسلة من المواد المصاغة بشكل معقول ، تبدأ وتنتهي بمبادىء عامة ، ومن مجموعة صغيرة من الانظمة التي يبدو انها اضيفت كفكرة متأخرة . لكن تفحصا أدق للمواد الخمس عشرة الاولى ، يكشف النقاب عن ان تنظيمها لم يتم بشكل مرتب . هناك نظام واحد للاسبتار ، تعبر عنه المادة الثالثة ، بالقول بان الاسبتار هو أكثر من مبدأ عام لنمط من الحياة ، انه قانون عام رسم لتلبية حاجة خاصة . كذلك ، فان القسم الاول من المادة الرابعة عشرة يبدو انه قانون عام أدخل باسلوب غير بارع الى بنية القانون ، لان العبارة الاخيرة من المادة ترتبط بالمادة الثالثة عشرة بشكل واضح . ومن الجدير بالذكر ان المادتين ٣ ، ١٤ تتعلقان بالكهنة داخل الاخوية. وفي الوقت نفسه ، هنالك اجزاء من المواد من ١٦ ــ ١٩ تبدو قديمة جدا . ويعتقد بان المادة ١٦ ، التي تتعلق باستقبال المرضى ، قد اخذت من ممارسة الاسبتار في بيت المقدس في القرن الحادي عشر ، على الرغم من ان المادة الاخيرة يبدو انها قانون عام ، رسم استجابة لحاجة خاصة .

من المسلم به لردح من الزمن ان قانون « ريموند دو بوي » كان تطويرا للقانون المسمى بـ « قانون القديس اوغسطين » « St. Augustine » . ولا يسمح المجال هنا بالبحث والتنقيب عن أصول قانون القديس اوغسطين ، وعن التطوير الذي ادى الى ظهور قانون ريموند دو بوي . وكانت الاخويات ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، على نمط حياة مدون في وثيقتين تعرفان باسمي « النظام الثاني » « Regula Secunda » « والنظام الثالث » « Regula tertia » ، وذلك بتشجيع من البابوية الاصلاحية . ويتضمن قانون « اوستن » « Austin Rule » العديد من النقاط المذكورة في

قانون القديس « بنديكت » « St. Benedict Rule » : في الطقوس الدينية، والانضباط ، وفي التركيز على الحياة العامة . وهنالك اهتمام اقل ، على كل حال ، بالنسبة للعائلة « Familia » : وهي التنظيم المستقل لكل دير ، ثابت في مكان واحد ، وهو عبارة عن جزيرة روحية في بحر دنيوي يغذي نفسه بنفسه . لذا فان قانون اوستن ، بصفته مجموعة من المبادىء لحياة عامة منتظمة ، يمكن اعتباره ملائما ، بالنسبة لاولئك الذين يتوقع ان يكونوا على احتكاك أكبر مع العالم . ومع أننا لانستطيع ان نجزم بأن قانون الاسبتار هو اوغسطيني برمته ، فاننا نجد موادا مأخوذة عن قانون اوغسطين وبشكل خاص المادة رقم (٤) في مجملها . علاوة على ذلك ، فان جميع فحوى القانون مستمد من القوانين الكنسية ، كما ان البابا اعتبر الاسبتار أخوية أوغسطينية منذ عام ١١٨٤ او ١١٨٥ .

لذا فان بامكان المرء ان يسلم بان القانون هو نموذج بين الاشكال المختلفة لقانون اوستن التي ظهرت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . غير ان النموذج الاوغسطيني تعرض لتأثيرات ، من جهة ما ، كان الهدف منها اجراء التعديلات المتعلقة بالمركزية ومدى نطاق السلطة الاكليركية . ولا بد ان تكون هذه التعديلات قد نتجت الى حد ما من حقيقة ان الاخوية كانت لها ممتلكات بعيدة عن سلطتها المركزية ، لكن النصف الاول من القرن الثاني عشر كان عصر الرهبانالبنديكتيين وبالتالي ذروة مجدهم . لقد كانت بنية أخويتهم تتركز على النشاط التشريعي للاجتماع العام لرجال كنيستهم والذي يحضره رؤساء الاديرة الفرعية ، وعلى تنظيم المزارع البعيدة التي يحرثها ويتعهد بها الرهبان العاملون . لقد تأثر قانون الداوية ، الذي وضع في الفترة ما بين عام ١١٢٨ و ١١٣٦ ، بالتشريع وربما كان ذلك ينطبق على الاسبتار أيضا ولكن بدرجة أقل .

لذا فان قانون الاسبتار هو عبارة عن وثيقة مؤلفة من مجموعة من الانظمة للحياة العادية ، تتبع بشكل عام النموذج الاوغسطيني ، مرصعة بنواميس تهدف الى معالجة وصفاء امراض معينة . وهنالك بعض الدلائل على وجود محاولة تنظيمية في المواد الخمس عشرة الاولى ، لكن لا يوجد ما يدل على ذلك في المواد الاربع الاخيرة وهذا يشير الى انها وضعت في تاريخ متأخر .

وقد صدق البابا « يوجينيوس » « Eugenius » الثالث القانون الذي وضعه « ريموند » « Raymond » . ولهذا السبب يعتقد بان القانون وضع في الفترة ما بين ارتقاء ريموند العرش . عام ١١٢٠ تقريبا ، وموت يوجينيوس في عام ١٩٥٢ . ومع ذلك فقد أعطى القانون صورة عن جماعة من رجال الدين ، موجودة كقسم مكمل للاخوية ، وقد صحح تاريخه حديثا بحيث اصبح ما بين ١١٥٥ و ١١٦٠ ، لان الوثيقة البابوية المتعلقة بالايمان المسيحي « Christiane Fidei Religio » ، وبالتحديد في عام ١١٥٤ . منح الاسبتار الحق في ان يكون له كهنته الخاصون بها . وقد سافر ريموند في مطلع عام١١٥٧ الى اوروبا ولهذا ينبغي حصر تاريخ وضع القانون في الفترة مابين ١١٥٥ و ١١٥٧ ، او بعد عام ١١٥٨ . ولكن لايمكن تأييد التصحيح . ومن المؤكد ان بعض المواد المتعلقة بالكهنة قد أضيفت الى القانون بشكل غير بارع ، كما ان هنالك دلائل واضحة وصريحة تشير الى اضافة عبارات ، تتعلق بالانضباط الاكليركي ، الى الترجمة اللاتينية . غير ان هنالك دليل على وجود الكهنة داخل الاخوية منذ العصور القديمة ، ويبدو ان وثيقة الايمان المسيحي كانت مجرد موافقة رسمية على تلك المهنة التي مورست لعدة سنوات . لذا لا يوجد اي سبب للشك في الاعتقاد بان البابا « لوسيوس » « Lucius » الثالث كان في عام ١١٨٤/١١٨٥ يصدق قانونا مشابها للقانون الذي أقره يوجينيوس الثالث . ويمكننا الرجوع الى عام ١١٥٣ بالنسبة للتاريخ النهائي لوضع القانون ؛ كما ينبغي ان يكون هناك تأكيد اقل ، حول اقدم تاريخ يمكن للقانون ان يكون قد وضع فيه . والافتراض القائم هو ان الاسبتار ، بصفته فرعا من دير القديسة مريم للاتين ، كان يتبع القانون البنديكتي(١) بشكل اساسي . وكان نمط الحياة هذا مرفوضا في وقت ما ، وليس هناك من سبب يدعو للاعتقاد بان هذا لم يكن من عمل جيرارد . وقد اثير جدل حول تخلف قانونه من هذه الناحية ، غير ان من المرجح ان يكون قانون ريموند قد تضمن موادا من هذه الوثيقة القديمة . ومع ذلك فقد تحدث القانون ، الذي استمر طويلا ، عن اخوية كانت المركزية وأساليب الحكم فيها متطورة

---

(١) ــ نسبة الى القديس بنديكت .

جدا . وقد كان مقدم الاسبتارية مرتبطا ، اداريا ودستوريا ، بجماعة رهبان الدير الذي ينبغي عليه تقديم بيان بالنفقات اليها . وساعدته في ذلك دوائر مركزية يقتضي وجودها درجة ما من التطور في نظام الاخوية . وقد سيطرت الادارة المركزية على اقاليم واسعة كانت مجمعة على شكل مقاطعات . وكانت كل مقاطعة من تلك المقاطعات تدار من قبل مقدم ، او رئيس دير للرهبان ، يتمتع بسلطة كبيرة ، مع ان من الممكن ارسال المسيئين اساءات كبيرة الى المقدم في بيت المقدس من أجل العقاب . وقد شعرت الاخوية في مرحلة ما بخطر اولئك المقدمين ورؤساء الاديرة ، وهم يتحالفون مع السلطة الدنيوية ضد السلطة المركزية . وكانت التكايا ملحقة بالعديد من مناطق النفوذ الاكليركية ، وكان الاسبتار يقوم بواجبه ليس في بيت المقدس فحسب ، بل أيضا على طرق الحج في اوروبا . وكان على الموظفين الاداريين المحليين ارسال ثلث محصول اراضيهم الى بيت المقدس بالاضافة الى ما تبقى بعد المصاريف التي تم انفاقها .

لقد كان الهدف من وجود الاخوية هو رعاية المرضى الفقراء ، وكان الرهبان هم خدم الفقراء . وكانت الحياة في الاسبتار ، في بيت المقدس ، وفي التكايا الموجودة في ارجاء العالم المسيحي ، منظمة بواسطة طقوس دينية متقنة . وقد تطلبت احتياجات الفقراء جمع الصدقات ، وقد وضعت انظمة شديدة بالنسبة لجباة الصدقات اخذت جزئيا من قانون « اوستن » « **Austin** » .

وكانت اخوة الاسبتار مؤلفة من الكهنة والرجال العلمانيين . ولم يكن هنالك أي تفريق بين الفرسان ، والحراس ، كما لم يكن هنالك ذكر للاخوة العسكرية او نشاطاتها . وكان هنالك تأكيد صارم على العفة والطاعة والفقر . وقد كان الاخوة الكهنة مميزين عن الاخوة العلمانيين فنظموا في روابط بادارة موظف يعرف برئيس الكنيسة « **Maistre de L'iglise** » سمي فيما بعد برئيس دير الرهبان .

ويصور قانون ريموند دو بوي مرحلة معينة من مراحل تطور الاخوية . وهنالك دليل آخر على ان الحالات المذكورة فيه تعود الى مابعد العام ١١٣٠

مباشرة . وكان هنالك تقليـد في القرن الثالث عشر يقضي بان يكون القانون مصدقا من قبل البابا انوسنت الثاني ، وهذا لايبدو أمرا مستحيلا . ومـن المؤكد ان هنالك اشارة الى الاخوة ، التي كانت تعيش في ظل قانون ما في العقد الذي تلا . لذا فان من الممكن القول بان ريموند على الرغم من كونه قد أعاد تنظيم وتوسيع مواد وثيقة قديمة اندثرت ، فان بعض تفاصيل قانونه ، خاصة تلك التي تتعلق بالكهنة والصلاة ، وجماعة الرهبان والموظفين المركزيين ، تدل على مرحلة متأخرة من التطور تم التوصل اليها في ثلاثينات القرن الثاني عشر في بيئة متأثرة بالراهب البنديكتي « كليرفو » « **Clair-vau** »، برعاية القديس برنارد ، وبتعاظم شأن الداوية .

ان قانون ريموند دو بوي عبارة عن وثيقة غير مرضية ، اذ لايمكن تحديد تاريخه بدقة ، ولا يمكن مقارنته كنموذج للحياة الدينية مع قانون الداوية او كقاعدة للتنسيق مع ميثاق البر والاحسان للرهبان البنديكتيين . لكن قانون ريموند كان ينظر اليه باحترام وتبجيل في ذلك العهد وما بعده . وكان يقرأ في الاجتماعات العامة للرهبان ، وكذلك في اجتماعاتهم الخاصة سنويا . وكـان على الزعماء الدينيين الجدد ، في مطلع عام ١١٧٢ ، ان يقطعوا العهود علـى أنفسهم بان يبقوا اوفياء لعادات الاخوية القديمة والمعقولة ، وان يسيروا على خطى وقوانين جيرارد وريموند طيبة الذكر . وعلاوة على ذلك فقد احتوى القانون ، بشكل اولي ، على أسس بناء الاخوية وهي : تكريس وعمل الاخوة ، وتنظيم الحياة العادية والانضباط ، وتنظيم الاسبتار ، والعناية بالمرضـى الفقراء ، ومنزلة مقدم الاسبتارية والادارة المركزيـة ، والادارة المحليـة ، والمؤسسة الاكليركية .

كان الاسبتار في البداية ، جمعية خيرية ، لكنه بدأ يلعب دورا في الاعمال العسكريـة خلال فترة حكم ريموند دو بوي . وفي عام ١١٣٦ منحه الملك « فولك » « **Fulk** » ، ملك بيت المقدس ، قلعـة بيت جبرين في جنوب فلسطين . وكانت هذه القلعـة احدى ثلاث قلاع بناها الملك لتطويق ميناء عسقلان الاسلامي وهي ذات أهمية بالغـة ، ولابد أنه كان لدى الاسبتاريـة

في وقت سـابق بعض المنشـآت العسكريـة ، كي يمنحوا هـذه القلعـة بتشجيع من كل المملكة ورجال الدين والناس على حد سواء . وعلاوة على ذلك فقد بدؤوا على الفور بلعب دور هام في المغامرات العسكرية للعالم المسيحي . وقد تحملوا اعباء كبيرة على حدود مقاطعة طرابلس في عام ١١٤٤ . وكـان « ريموند دو بوي » حاضرا مجلس الحرب ، الذي انعقد في عكا ، والذي قرر فيه قادة الحملة الصليبية الثانية مهاجمة دمشق . وقـد اشترك فرسان الاسبتار في هذه الحملة . وكانوا يشكلون عنصرا هاما فيها ، بحيث استحقوا اللوم لدى فشلها من قبل بعض الناس . وكانوا موجودين اثناء الحصـار الصليبي لعسقلان في عام ١١٥٣ ، وقد رفع هذا الحصار لان فرسان الداوية حاولوا الاستيلاء على المدينة بأنانية طائشة ، وبدون مساعدة من احـد . وكان ريموند وبطريرك بيت المقدس هما اللذان اقنعا الملك والبارونات بالمثابـرة ، وقد استسلمت عسقلان ، وهي آخر ميناء اسلامي في فلسطين ، بعد بضعـة أسابيع . كما شارك الاسبتارية في عام ١١٥٧ لمدة قصيرة في الدفاع عن مدينة بانياس الهامة .

ان الدور العسكري الذي لعبه الاسبتارية في تاريخ الحملات الصليبيـة يقود الى الاستنتاج بانهم كانوا رهبانا في اخوية عسكرية في منتصف القرن الثاني عشر . غير ان نشاطاتهم العسكرية لم تذكر في قوانينهم حتى عام١١٨٢، وورد ذكرها في هذا العام بايجاز . ولم تؤخذ هذه المسألة بعين الاعتبار في اي اجتماع عام عقدته هيئة رهبان الدير حتى عام ١٢٠٦ . ومـع ان الاخويـة لا يمكنها الذهاب الى الحرب دون ان تنظم جناحا من الرهبان المحاربين ، فلم يظهر الضباط العسكريون ، المارشال ، وآمرو القلاع حتى أواخر ستينات القرن الثاني عشر .

في الحقيقة يمكن ان نرى ان الدليل على تعاظم شأن الجناح العسكري غير كاف ، كما ان الدليل القوي على الخدمة العسكرية جاء اثر منح الاسبتار بيت جبرين في عام ١١٣٦ . ومن الممكن ان تكون الاخوية قد ورثت السـلاح من الفرسان الاوروبيين قبل عام ١١٤٣ . ويبدو من خلال احدى رسـائل

ريموند ، التي يرجح بأنها حررت في اوائل عشرينات القرن الثاني عشر ، بأن الاسبتارية كانوا يقاتلون في الاراضي المقدسة ، غير ان نص الرسالة غير واضح ويمكن ان يكون مجازيا . وظهر « كندسطبل » الاسبتار في عام ١١٢٦ . ويمكن ان يكون لحامل هذا اللقب العسكري الواجبات نفسها التي يتمتع بها حامل رتبة المارشال فيما بعد . ولكن أشير الى ان « الكندسطبل » ، في اوائل القرن الثاني عشر ، كان يقوم بمهمة تأمين الخيل والرواحل الاخرى بغية استخدامها من قبل الحجاج . وكان « ريموند دو بوي » موجودا في الجيش ، الذي شن به الملك بلدوين الثاني اغارة ضد أراضي عسقلان في عام ١١٢٨ ، ولكنه ربما كان عضوا في حاشية بلدوين . وقد ادى نقص الادلة ، حول أسباب دخول العنصر العسكري الى الاسبتار ، الى لجوء المؤرخين الى التخمينات . فقد ذكروا ان السبب في ذلك هو تأسيس الداوية والغيرة من منافس قوي . كما قيل بان التجارب في اسبانيا وعلى طول طرق الحج في فلسطين قد اجبرت الاسبتار على لعب دور عسكري . كما اثير جدل بان الخطوة قد اتخذت على مضض بسبب الضرورات الحقيقية لسورية اللاتينية.

وقد كتب « جيمس دو فيتري » « James de Vitry » ، في القرن الثالث عشر ، بان الاسبتارية بدؤوا بالتدريب على الاسلحة على غرار الدواية، كما يلاحظ بان الداوية قد ما رسوا تأثيرا على الاسبتار في نهاية القرن الثاني عشر . وقد استفاد الداوية ، بصفتهم اخوية عسكرية ، من حماس العلمانيين للمثل الصليبية . غير ان الدليل الذي ظهر حديثا يوحي بان الداوية قد اخفقوا في أعوامهم الاولى ، وأن أخويتهم قد انهارت تقريبا وأن دعوة القديس برنارد ، بعيدا عن كونها دعوة علنية الى الخدمة ، كانت محاولة لانقاذهم . وربما كان وضعهم في ثلاثينات القرن الثاني عشر لا يسمح لهم باثارة غيرة المنافسين . ولا يوجد دليل على وجود عنصر عسكري قديم بين رهبان الاسبتار الاسبان. وقد بين دارس حديث بان التركيز في المستوطنات الاولى في نافار Navarre ، كان منصبا على الزراعة الهادئة وجمع الصدقات . كما ان الهبة التي منحت للاخوية ، وهي ثلث مملكة اراغون،ميزت بين الاسبتارية ، الذين إعتنوا بالفقراء، وبين الداوية الذين قاتلوا دفاعا عن العالم المسيحي .

وتكشف دراسة دقيقة للوثائق بعض الشيء عن دوافع تحويل الاسبتار الى اخوية عسكرية . ومن الواضح انه بدأ نشاطاته العسكرية كامتداد لواجباته الخيرية . وقد اشار الامر البابوي ، الصادر بين عام ١١٣٩ و ١١٤٣ ، الى حماية طرق الحج ، كما ان الطبيعة الخيرية لهذه الواجبات يمكن استخلاصها من رسالة كتبها القديس برنارد في العام ١١٤٦ . وقد كتب البابا يوجينيوس الثالث في عام ١١٥٢ عن « قتال الاسبتارية لخدمة الفقراء » لكن الدليل الاكثر اهمية يأتي من الرهبان انفسهم . فقد كانت قوانين عام ١١٨٢ تؤكد بأن القتال كان نشاطا خيريا آخر : « ان هذه النشاطات هي الاعمال الخيرية الخاصة ، التي اقيمت في الاسبتار ، بعيدا عن الرهبان تحت السلاح ، الذين ينبغي على الدير ان يدعمهم بشكل مشرف ، واعمال خيرية اخرى كثيرة لا يمكن تفصيلها كل بمفرده » لقد كان القتال عملا خيريا وناجما عن المهمة الاساسية للاخوية ، كما كان امتدادا لرعاية الفقراء والعناية بهم .

على كل حال ، كانت النشاطات العسكرية والخيرية في القرن الثالث عشر متلازمة مع بعضها بعضا . ويبدو ان ذلك كان نتيجة ضغطين تمت ممارستهما على الاخوية . لقد ارادت السلطة العلمانية الاستفادة من الخصائص القتالية لقوى الاسبتار ، وقد انعكست هذه الرغبة في سلسلة من الامتيازات التي تم منحها لقاء خدمات عسكرية ، غير ان تعاظم طبقة المقاتلين داخل الاسبتار يوضح بانه قد طور قوته الخاصة به .

وفي عام ١١٤٤ منح ريموند ، كونت طرابلس ، الاسبتار القلاع التالية : قلعة الحصن ، وقلعة كاستيللوم بوشيه ، وقلعة لاكوم ، وقلعة فيليسيوم ، وقلعة مرج دابق ، كما منحها امتيازات على مدينتي بعرين ورفنية . وقد واجه الفرنجة في الامارات الشمالية وضعا اكثر خطورة من اي وضع واجههم منذ غزوهم لبلاد الشام . لقد اصبح زنكي الموصل قوة معادية مرهوبةالجانب . وفقدت كل من قلعتي : بعرين ورفنية في عام ١١٣٧ ، كما ان انطاكية قد ضعفت بسبب النزاعات الداخلية . وعلى الرغم من ان الهدوء ساد في عام ١١٤٠ ، عندما قام تحالف بين « فولك » ملك بيت المقدس ، وبين الدمشقيين ، والذي

ادى الى هزيمة زنكي مؤقتا ، فان قوة اتابك قد ازدادت . وكان ريموند بحاجة الى تقوية حدوده . وربما كان ريموند متأثرا بهبة جبرين قبل ثمانية اعوام عندما منح الاسبتار معظم وادي البقاع وجزءا هاما من دفاعات مقاطعته . غير انه فاق الملك « فولك » في منحه . ولم تكن الاخوية مدينة بأية التزامات اقطاعية لهذه الرقعة الكبيرة من الارض ، في حين كانت تمارس على سكانها سلطة السيد المتمتع بحق الولاء . كما يمكن ملاحظة الصفة العسكرية لهذه الهبة بكل وضوح . فقد كان يتم تقاسم الغنائم ، المستولى عليها في جميع المغامرات العسكرية ، مع الكونت عندما يكون موجودا فقط . كما كان من الواجب التقيد بعد موته بالشروط نفسها فيما يتعلق بخلفه . وكان واجبا معاملة من يرث الكونتية معاملة الكونت ، ولو كان ادنى مرتبة ، كما كان من الواجب معاملة كل من يصبح وصيا على عرش طرابلس معاملة الكونت . وكانت هنالك فقرات اضافية تحمي قلاع الاسبتار من المصادرة والضرر في حالة التجاء قوات الكونت اليها . وقد تعهد ريموند بان لا يعقد معاهدات مع المسلمين دون مشورة وموافقة الاسبتار . ويبدو قلق الادارة المركزية ، للتخلي عن مسؤولياتها على مناطق الحدود تلك ، واضحا من حقيقة ان الكونت، اسقف طرابلس ، وبارونات الاقليم قد تقاسموا نفقة شراء العديد من الممتلكات قبل منحها الى الاسبتار .

وفي حوالي الوقت نفسه ، منح سيد « مازيس » « Mares » ، في اقصى الشمال ، « بلاتا » « Platta » وفرسخين من الارض حولها الى الاسبتارية ، شريطة ان يقوموا بتحصين المكان في غضون عام واحد .

كما منح « موريس » « Maurice » سيد الشوبك هبات معينة الى الاخوية في عام ١١٥٢ تشتمل على برج وحصن امامي من قلعة الكرك في مؤاب . وكانت اقطاعته واقعة عبر نهر الاردن ومكشوفة للعدو ، لذا لم يكن مستغربا ان يحصل الاسبتار ، من موريس ، على العشر من مجمل الغنائم والجزية التي يأخذها من المسلمين . وقد منحهم موريس حرية المرور عبر البحر الميت ، واعفاهم من دفع الضرائب على كل شيء ينقلونه تقريبا .

كذلك منحهم الملك « همفري » ، ملك تبنين ، بعد خمس سنوات نصف مدينة بانياس ، ذات الموقع الاستراتيجي ، مع مقايضة تجارية مفيدة اضافة الى نصف هونين ، وذلك نتيجة لارهاقه من النفقات والمسؤولية المستمرة . وكانت هذه المنحة مشروطة بأن يشاركوا في اعباء المحافظة على بانيـاس والدفاع عنهـا .

وقد تكرر الحصول على مثل هذا النوع من الهبات طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر : ففي طرابلس تم ذلك في عام ١١٧٠ وفي ثمانينات القـرن الثاني عشر ، وفي انطاكية في عام ١١٦٨ وفي عام ١٢١٨ ، وفي أرمينيا في عام ١٢١٠ ، وفي مصر في عام ١١٦٨ . وقد تضمنت العهود والمواثيق خصائص مشتركة . فقد كان السيد يعطي الاسبتار المناطق المعرضة للخطر ، والتي لا يستطيع الدفاع عنها ، وذلك لاسباب دفاعية او استعدادا لشن هجوم . وربما كان قسم كبير من هذه المناطق بأيدي العدو ، مما يجعل الحصول عـلى امتيازات فيها ، مقابل القيام باعباء الدفاع عنها وبذل الجهود لاستردادهـا ، امرا هاما وجديرا بالاعتبار . وبما ان دور الاسبتار سيكون عسكريا على الاغلب، فقد كانت هنالك شروط مرضية لتقسيم الغنائم ، وحرية التصرف في العلاقات مع المسلمين ، وكان السيد غالبا ما يتقيد بقبول قراراتهم . ومن الجديـر بالذكر ان الاسبتارية لم يشتروا اية قطعة حتى ستينات القرن الثاني عشر . وقبلوا ، عوضا عن ذلك ، باراض كان عليهم ان يقوموا بدور عسكري فيها ، غير ان الامتيازات الكبيرة التي ترافق الهبات كانت تجعل مسؤولياتهم رابحة . وسوف نرى بان هذه السياسة لم تكن شائعة بين جميع الرهبان .

وقد ظهرت اولى الدلائل على وجود رهبان محاربين ، اثناء فترة حكم ريموند دو بوي . كما يبدو انه لم يكن هنالك تفريق في السابق بين الرهبان المحاربين وغير المحاربين . وان التقسيم الوحيد ، والمعروف حتى عام ١٢٠٦ ، كان بين الاكليركيين والعلمانيين . وربما كانت الواجبات العسكرية الاولى لا يقوم بهـا الاخوة الرهبان ابدا ، وانما كان يتم القيام بها من قبل مرتزقة مأجورين ، ومن الممكن ملاحظة ذلك في العبارات الواردة في رسائل البابا بين عام ١١٣٩ وعـام ١١٤٣ ، وفي رسائل القديس برنارد عام ١١٤٦ . وقد كتب الرحالة « جون

اوف فورتسبورع » « J. of Wurzburg » ، في سبعينات القرن الثاني عشر ، عن النفقات التي كانت تتكبدها الأخوية ، هذه الاخوية التي تحتفظ بالعديد من الرجال في قلاعها وتقوم بتدريبهم على جميع فنون الحرب من اجل الدفاع عن اراضي الصليبيين ضد غارات المسلمين . ان حقيقة حصول الاسبتار على الحصون ، لايعني بالضرورة وجود فئة من الفرسان الاسبتارية في ثلاثينات القرن الثاني عشر . وكباقي المؤسسات الدينية الأخرى ، ربما زودت الاخوية الحاميات بمرتزقة مأجورين . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، ربما امنت حراسة القلاع بواسطة الرجال التابعين لها في الاراضي التي حصلت عليها مع القلاع . وربما ساهم المستوطنون العلمانيون ، المكلفون بنوع ما من الخدمة في الدفاع عن بيت جبرين ، التي اشتملت حاميتها في عام ١١٧٩ على مرتزقة محليين . وقد يتساءل المرء عن الاهمية القديمة لقلعة الحصن بالنسبة للاسبتارية ، الذين تعهدوا باعطائها في منتصف القرن الثاني عشر للملك « فلاديسلاس » البوهيمي أثناء وجوده في الشرق ، وتظهر الحقيقة بأنه لم يكن هنالك تعهد قوي بذلك . ومع ذلك فقد ظهر رجل في عام ١١٤٨ ادعى لنفسه بأنه فارس وراهب ، وفي عام ١١٥٢ ، علم البابا بوجود عنصر محارب داخل الاسبتارية .

وقد اتخذت الخطوة الاولى في خلق الرهبان العسكريين من قبل ريموند دو بوي . وشبهت احدى رسائله القديمة الخدمة في الاسبتار بالحملة الصليبية: **« ان كل من دخل اخويتنا حقا ، او سوف يدخل ، فسيكون مشمولا برحمة الله كما لو قاتل في بيت المقدس بنفسه »** . وكانت الاخوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركة الصليبية ، حيث ارتدى اعضاؤها الصليب على صدورهم قبل عام ١١٥٣ . وقد رأينا منذ البداية بأن الاخوية مترافقة مع الاماكن المقدسة، لكن ريموند على ما يبدو حاول جعلها شريكاً فعالاً في الحملات الصليبية . وربما كان ، بموازنته بين الحملة الصليبية والخدمة في الاسبتار ، قد بدل شخصيتها ومهد السبيل لادخال فئة من الرهبان العسكريين في الاخوية . ويتضح بان هذه الخطوة لاقت تشجيعاً من أحد الاصوات القوية والمؤثرة ، لان القديس برنارد وجه رسالة في عام ١١٤٦ الى اعضاء من الاخوية يشجعهم فيها على المشاركة في الحملة الصليبية الثانية .

ويوجد على كل حال دليل واضح ومعاصر تقريبا على ان ريموند اعتبر الواجبات العسكرية للاخوية محدودة . وقد امر البابا الكسندر الثالث ، مابين عامي ١١٧٨ و ١١٨٠ ، الاسبتارية بالامتناع عن حمل السلاح كليا ، « وفقا لتقاليد ريموند المذكور انفا ، فيما عدا اثناء حمل الراية ، التي عليها صورة الصليب المقدس ، ومن اجل الدفاع عن المملكة ، او عند حصار مدينة ما وثنية » . وهكذا كان على الاسبتارية الانغماس في الحرب عندما اقتضت حاجات المملكة ذلك فقط .

وبموت ريموند ترسخت خطط تطوير المستقبل . وتوطد استقلال الاخوية عن حكومة الاساقفة ، وأذل بطريرك بيت المقدس في حضرة البابا . وكدست ممتلكات ضخمة في اوروبا وفي الشرق . وبدأت باحداث تسلسل هرمي من الموظفين المحليين ، وبتطوير اجهزة ادارة مركزية . واصبح لها قانون ينظم اعمالها . ففي سورية الشمالية ، كانت تنشىء مقاطعات شبه مستقلة على الحدود الاسلامية ، كما كانت تطالب باراض خارج السيطرة الصليبية . وقد عنت الطبيعة الخيرية لمعظم مكتسباتها (في الجنوب بأنها مدينة بعض الشيء ، او غير مدينة بالخدمة العسكرية) للملوك ، وبالنسبة للمتلكات التي منحت لها كصدقات فهي ليست مدينة باكثر من الصلاة . وقد أدى اعفاء الاخوية من دفع ضريبة العشر ، التي كانت تدفع الى الاسقف ، ومن دفع بعض الرسوم عن الاموال المنقولة ، التي كانت تدفع الى الحكومة ، الى تخفيف عبء ثقيل عن مواردها المالية في اجزاء عديدة من سورية اللاتينية .

وقد شاهدت ادارة ريموند خلق جناح عسكري . ويبدو انه أقيم أساسا كفرع من نشاطاتها الخيرية . وقد وسعت الاخوية نطاق واجباتها من رعاية الحجاج المرضى الى حماية طرق الحج . وربما استخدمت المرتزقة في البداية من أجل هذه الغاية . لكن رغبة السلطات الدنيوية في التخلي عن بعض مسؤولياتها العسكرية الى الاسبتارية ، وارتباط الرهبان بالحملات الصليبية، وكذلك ميول مقدمهم الثاني ، كل ذلك كان من العوامل التي أدت الى نشوء طبقة من المحاربين . ومع ذلك فقد بقي تنظيم الاخوية يرتكز على الاسبتارية. وقد الح ريموند وباصرار على وجوب استخدام قوتها العسكرية في حالات معينة فقط . وكانت العناية بالفقراء ما تزال مهمتها الاساسية .

الفصل الثالث

الاسبتارية يصبحون قوة كبرى

كانت الفترة ، ما بين عام ١١٦٠ وعام ١١٨٧ ، ذات اهمية كبيرة . لكن من الضروري التكلم ، وبايجاز ، عن سير حياة مقدمي الاسبتارية ، الذين كانوا يديرون الاخوية ، قبل تحليل التطورات التي حصلت في تلك الفترة . لقد توفي ريموند في الفترة مابين ٢٥ تشرين الاول ١٩٥٨و١٩٦٠،وخلفه «اوجيه دو بالبن» « Auge de Balben » ، الذي ربما كان قد اشترك في المجمع الكنسي ، الذي عقد في الناصرة ، والذي وافقت فيه كنيسة بيت المقدس على تأييد البابا الكسندر الثالث ضد خصمه فيكتور الرابع . ومن المفترض ان تكون عائلته ، بشكل تقليدي ، دوفينية(١) وربما كان في السابق راهبا في دير رهبان الصنجيل « S. Gilles » ، لانه شهد وثيقتين في عامي ١١٥٧ و ١١٥٨ ، عندما كان في صحبة ريموند دو يوي في جنوب فرنسا. ومن الممكن طبعا ان يكون قد رافق ريموند دو بوي من سورية ، وانه نجح ، كونه رفيقا موثوقا لدى مقدم الاسبتارية الكبير والموقر . وكانت مدة ولايته قصيرة ، حيث فارق الحياة في ١١ آذار عام ١١٦٢ ، وأصبح « جيلبرت دي أسايي » « G. d'Assailly » مقدما للاسبتارية في ١٩ كانون الثاني عام ١١٦٣ . وكانت اقصر ولاية بين المقدمين ، هي ولاية « آرنولد دو كومب » « A. de Comps » . وقد انتهت ولاية آرنولد بشكل مأساوي . وقد شهدت ، على كل حال ، تطور النشاطات العسكرية على نطاق واسع ، كما شهدت الدلائل الاولى للنفوذ على سياسة

(١) ـ نسبة الى مقاطعة دوفينة في فرنسا .

المستوطنة اللاتينية . وذكرت معلومات جديدة بأن جيلبرت كان متقدما في السن عندما تولى ادارة الاخوية . وانه كان فرنسيا على الاغلب ، وانه تولى في أواخر اربعينات القرن الثاني عشر ادارة حاكمية مدينة صور الشامية ، وكان أول مقدمي الاسبتارية معروفا خارج أخويته بمزاياه العسكرية . وكان صديقا للملك املريك الاول ، ولبطريرك بيت المقدس الروحي « املريك دي نيسل « A. de Nesle » . ولكن على الرغم من كونه شهما سمح التفكير وكريما ، فقد كان متقلبا وغير كفء ومتهورا ، ويبدو انه كان مترددا وهستيريا أثناء الشدائد .

لقد اقنع جيلبرت الملك املريك ، بتأييد من بارونات بيت المقدس ، بغزو مصر في عام ١١٦٨ ، فجمع خمسمائة فارس ، وعددا مماثلا من المرتزقة المحليين من أجل الحملة . واخفقت الحملة ووجدت الاخوية نفسها مثقلة بالديون . ويبدو ان جيلبرت نفسه كان مرتبكا من جراء الاعباء المالية والإحساس بالفشل . وفي اواخر العام ١١٦٩ او العام ١١٧٠ ، استقال من منصبه دون استشارة رهبنته وضد ارادة الملك . وتكشف قصة استقالته النقاب عن تطورات حدثت داخل الاسبتار ، وسيتم التحدث عنها في مكانها الملائم ، ولكن من الممكن ايجازها هنا ، وهي تتحدث عن الفوضى وعن محاولة الملك والبطريرك والرهبان الطموحين في الاخوية الحصول علي بعض المكتسبات .

لقد تقاعد جيلبرت ليعيش حياة عزلة تلاحقه فيها تأنيبات الملك ، الذي اكد على الضرر الذي قد يلحق بالمملكة بعد استقالته ، وانتقادات الاخوة الرهبان الذين ادعى بعضهم بانه لايستطيع التخلي عن منصبه بدون موافقة هيئة رهبان ديره وبدون أذن البابا . وقد طلب « بونس بلانوس » « Pons Blanus » نائب المقدم ، وموظفون كبار آخرون من البطريرك ان يقنع جيلبرت بالعودة. وقد أقنعه بالعودة الى بيت المقدس وتسلم مهام منصبه وحذره من مغبة الاستقالة بدون الموافقة البابوية ، تحت طائلة العقوبة بالحرمان الكنسي . وأمر البطريرك الاخوة بطاقة مقدمهم ، ريثما يتم الحصول على قرار من روما . ولم تحل المسألة بسهولة ، وثار جدل كبير نتيجة للظروف التي خلفتها استقالة

جيلبرت . وشعر المقدم واخونه الرهبان بان البطريرك قد تجاوز صلاحياته بشكل واضح ، لقد كانوا مستثنين من جميع السلطان القضائي الاسقفي ، باستثناء ما يخص البابا ، ولا يمكن حرمانهم كنسياً من قبل مطران . وقد أتاح الاضطراب ، الذي وقعوا فيه ، الفرصة لبعضهم كي يعربوا عن مظالمهم وشكاواهم ، فيما يتعلق بوضع مقدم الاسبتار ، وبتطرفه ، وبازدياد التزامات الاخوية عسكريا . وقد طلبت هيئة الرهبان من جيلبرت بعض التعهدات قبل عودته الى الحاكمية . واعترف جيلبرت بتطرفه. لكنه رفض قبول الشروط التي كان واضحا انها جديدة . واستقال ثانية وأشرف على انتخاب خلفه . وفاز في الاقتراع « كاست دي مورو » « C. de Murlos » ، وتم قبوله من قبل اكثرية الاسبتاريين في بلاد الشام . وجرى تعيين موظفين جدد ، ووجد بونس بلانوس نفسه بانه لم يعد ذلك القائد الكبير . وربما لم يكن يرغب في اعتزال منصبه ، لكنه كان ايضا مؤيدا لسيطرة بابوية مباشرة بشكل اكبر . وقد سجل احتجاجا فور استقالة جيلبرت يبين فيه بان جيلبرت لا يمكنه ترك منصبه بدون اذن البابا . ويبدو بأنه كان مؤيدا من قبل الملك والبطريرك ، اللذين كانا صديقين لجيلبرت ، وربما كانا متأثرين وبشكل حقيقي بسبب تخليه عن المنصب . ورفض « بونس » بعناد الاعتراف باستقالة جيلبرت واعلن بانه سيحتكم الى روما .

وكانت النتيجة حدوث انشقاق . وظلت التفسيرات المتضمنة للسلطة البابوية محورا للخلاف داخل الاخوية الذي دام عدة اشهر ، وتم انتخاب « روستانغ » « Rostang » المناهض لمقدم الاسبتار ، والذي ربما كان نائبا للمقدم في عام ١١٦٢ . وقد حاول الملك املريك تسوية الخلافات داخل الاخوية . وربما كان يهدف من وراء ذلك ، الى تأكيد سلطته الخاصة. واستدعي كل من بونس بلانوس ، نائب المقدم الجديد للمثول امامه . وكرر « بونس » رغبته في الاحتكام الى روما ، لكن نائب المقدم رفض السماح له بالقيام بذلك ، وبين بان مثل هذا العمل مخالف لعادات وتقاليد الاسبتار . وقد طلب «بونس» حكم هيئة الرهبان في هذه القضبة . وأمره نائب المقدم هو ومرافقه بتسليم فرسيهما وسلاحيهما ، قبل الذهاب الى ما وراء البحار ، وفقا لقوانين الاخوية،

لكنه عاد ومنعه مرة اخرى من الذهاب خارج البلاد . واصبح الموقف في هذه المرحلة معقدا كثيرا لان جيلبرت دي اسايي حاول العودة الى الحاكمية ، لدى سماعه بالفوضى التي تبعت استقالته ولاهتمامه بشرعية عمله. وأقنع بالاشتراك في اجتماع عقد في بيت المقدس ، حيث تقرر فيه وضع كامل القضية امام البابا ، وغادر بيت المقدس ليبرر موقفه في روما . ومنع البابا الكسندر الثالث اثارة النقاش حول أي خلاف اضافي . وصدق على استقالة جيلبرت ، وعلى انتخاب « كاست » ، وأقر القيود الجديدة على سلطة المقدمين المستقبلية . ولم يعد جيلبرت الى الاراضي المقدسة قط ، وانتهت حياته بشكل مأساوي . فقد غرق عندما كان في طريقه لمقابلة هنري الثاني في انكلترا ، نتيجة لغرق السفينة التي كانت تعبر القنال الانكليزي على بعد ثلاثة اميال من « دييب » « Dieppe »

كان « كاست دو مورو » يتمتع بسمعة طيبة في الاستقامة والامانة والتواضع واللطف . وكان امينا لصندوق الاسبتار ، لكنه لم يكن مسؤولا عن افلاس الاخوية في عام ١١٧٠ . وربما كان الاخوة الرهبان يتوقعون منه اعادة مواردهم المالية،وربما كمان مسؤولا عن سرعة عودة الاخوية الى وضعها السليم، الذي يبدو بانه تم التوصل اليه في نهاية ولايته . ومع ذلك فقد كانت مدة ولايته قصيرة ، حيث توفي في العشرين من حزيران عام ١١٧٢ .

وقد خلفه « جوبير » « Jobert » ، الذي يبدو بان سمعته كرجل سلام تفوق سمعته كجندي ، وذلك بالاستناد الى القوانين التي اصدرها هو بنفسه ، والتي تتعلق بالعناية بالحجاج وخدمة الكنيسة . وذكر بان انتخابه كان بمثابة رد فعل ضد سياسة جيلبرت دي اسايي العسكرية . ولكن يوجد في الحقيقة ، دليل بسيط على ذلك حيث ينبغي الاشارة الى ان خلفه « روجيه دو مولان » « R. de Moulins » ، الذي كان محاربا بالتأكيد ، كان مسؤولا ايضا عن القوانين المتعلقة بالاسبتار . وقد تابعت الاخوية نشاطاتها العسكرية في ظل حكم جوبير .

وتوفي جوبير في عام ١٩٧٧ ، وانتخب « روجيه دو مولان » مقدما

للاسبتار . والمعروف عن اسلافه قليل ، شأنه في ذلك شأن المقدمين الاخرين في القرن الثاني عشر : فقد كان راهبا يخدم في سورية عام ١١٧٥ ، ولكن من غير المعروف فيما اذا كان قد استلم أي منصب . لذا ينبغي النظر اليه كواحد من المقدمين الكبار والذي بدأت الاسبتار ، في ظل ادارته ، تلعب دورا فعالا في السياسة الداخلية لسورية اللاتينية . ومعروف عنه انه قام بزيارتين الى أوروبا . ففي عام ١١٧٩ كان في صقلية ، ورافق في عام ١١٨٤ البطريرك ومقدم الداوية في سفرهما الى الغرب ، من أجل طلب المساعدة نيابة عن سورية اللاتينية . وربما كانت زيارته هذه مرتبطة بزيارة قام بها الى البابا في آخر تلك الرحلات ، حيث انه تلقى عددا ضخما من الوثائق البابوية من المقر البابوي والتي عززت مكانة الاسبتار كاخوية مستثناة من الضرائب .

وعاد روجيه الى الشرق ليجد نفسه في خضم اخطر نزاع دستوري عرفته مملكة بيت المقدس . وفقد حياته ، وهو يحاول حل الخلافات التي كان مسؤولا عنها الى حد ما. ففي نيسان عام ١١٨٧ كان الملك «غي دو لوزينيان» « Guy de Lusignan » قد اقنع باجراء مفاوضات مع ريموند كونت طرابلس ، الذي كان يعارض تولي غي للسلطة ، وكان يخطط لان يجعل من نفسه ملكا . وكان المبعوثون الذين أرسلهم غي للتفاوض مع ريموند هم : « باليان دو ابيلين(١) « B. d'Ibelin » ، وجوسياس « Josias » رئيس الاساقفة الصوري ، وجيرارد دو ريدفورت مقدم الداوية ، وروجيه دو مولان ». وغادر هؤلاء بيت المقدس في التاسع والعشرين من نيسان وبرفقتهم عشرة من الاسبتاريين . وفي اليوم التالي انطلقوا ، باستثناء باليان الذي بقي في نابلس ، ووصلوا « لافيف » « La Féve » في مساء الثلاثين من نيسان حيث وجدوا رسالة بانتظارهم من ريموند ، تحذرهم وتطلب منهم البقاء في القلعة ، لانه سمح لقوة استطلاع اسلامية بدخول فلسطين عبر اقطاعة الجليل التي تملكها زوجته ، وذلك بموجب اتفاقية عقدها مع صلاح الدين .

واستدعى جيرارد دو ريدفورت على الفور مارشاله(٢) « جيمس دو

---

(١) ـ نسبة الى « يبنة » .

(٢) ـ المارشال هو مساعد الكند سطبل .

مايي » « J. de Mailly » ، الذي كان موجودا في منطقة مجاورة على راس ثمانين فارسا . وفي اليوم التالي انضم الى الجيش المسيحي الصغير اربعون فارسا من الناصرة . وقرب الصفورية ، عند ينابيع « كريسون » « Gressen » ، التقى الجيش المسيحي بسبعة الاف من الخيالة المسلمين، ونصح كل من روجيه دو مولان وجيمس دو مايي بعدم مهاجمة مثل هذا العدد من المسلمين ، لكن جيرارد دو ريدفورت ، وكان رجلا مدمنا للمسكرات ولا يقدر المسؤولية ، اتهم مارشاله وكذلك روجيه دو مولان بالجبن . وزج الجيش الصغير بنفسه في هجوم يائس . وسقط كل من روجيه دو مولان ، وجيمس دو مايي سريعين جنبا الى جنب . ونجا ثلاثة فرسان داويين فقط وكان مقدم الداوية من بينهم ، وعاش ليشارك في مسؤولية كارثة اعظم من كارثة الصفورية. لقد كان موت روجيه دو مولان ضربة قاسية للمملكة ، لانه افقد مستشاري الملك رجلا معتدلا ، كانت مشورته توازي مشورة جيرارد دو ريدفورت وغيره من المشعوذين الموجودين في البلاط . كما ان موته ترك الاسبتار بدون قائد ، في وقت محفوف بالضغوط والخطر . وكان روجيه ، بالنسبة لاحد المؤرخين الموجودين في اقصى شمال اوروبا ، مستشارا وزعيما للمسيحيين . وبالنسبة لاحد المؤرخين المسلمين الهامين كان واحدا من أكبر الفرنجة المسيحيين الذين يكنون الحقد والكراهية للمسلمين .

واثناء حكم اولئك المقدمين الخمسة ، في الفترة ما بين عام ١١٦٠ وعام ١١٨٧ ، استمر الأسبتار في زيادة ثرائه وامتيازاته . وكانت تلك السنوات هي الفترة التي كان فيها الأسبتار في بيت المقدس يكتسب شهرة كبيرة في مجال تقديم المساعدة للحجاج . ففي القرن الثالث عشر كانت النشاطات العسكرية تتقدم على الأعمال الخيرية ، ولم يصل اسبتار عكا قط الى مثل شهرة اسبتار بيت المقدس . ان تاريخ القوانين التي تنظم العناية بالمرضى تعود الى العقود التي سبقت عام ١١٨٧، فقد أعجب كل من الرحالة « جون اوف فورتسبورغ، وثيودوريك » بالمجمع في بيت المقدس ، الذي كانت تتم فيه العناية بألفي مريض من الرجال والنساء ، واستطاع الاخوة الرهبان في عام ١١٧٩ استقبال ٧٥٠ جريحا في وقت قصير بعد معركة تل الجزر .

وتكمن الاهمية الحقيقية لتلك الفترة في التقدم الذي احرزه الرهبان العسكريون وفي الدور الذي لعبته الاخوية في سياسات مملكة بيت المقدس . ففي سورية اللاتينية واصل مقدمون ، جاؤوا على التعاقب ، ممارسة سياسة ريموند دو بوي في اكتساب اراض بشروط ملائمة حيثما يكون عمل الاسبتار عسكريا . وفي عام ١١٦٨ منحت الاخوية حقوقا في أراض لم يتم غزوها في مصر ، وسوف يأتي ذكر هذه المنحة فيما بعد . وفي العام نفسه منحها بوهمند الثالث أمير انطاكية قطعة كبيرة من الارض تشمل افاميا وقسما كبيرا من الضفة اليمنى لنهر العاصي . وكان معظمها في أيدي المسلمين ، وكانت افاميا نفسها محتلة من قبل المسلمين منذ عام ١١٤٩ . وكان أمراء انطاكية قد عهدوا بجزء من دفاعاتهم هنا الى الاخوية بشروط مجزية ، كما فعل كونتات طرابلس عام ١١٤٤ ، وكانوا يأملون في الوقت نفسه باسترداد بعض الاراضي التي فقدوها . وقد منح بوهمند الاسبتار حق السيادة على تلك المناطق . وكانت لهم الحرية التامة في اعلان الحرب على المسلمين ، او التفاوض بغية توقيع معاهدات معهم ، ووعد بوهمند بانه هو ورجاله سوف يدعمون اعمالهم . وعلاوة على ذلك فقد تعهد بان لا يوقع اية معاهدات مع المسلمين ، او المسيحيين المتحالفين معهم ، دون استشارة الاخوة الرهبان . واذا تم عقد أية معاهدة فان على الاسبتارية ان لايلزموا أنفسهم بها . ويمكنهم الاحتفاظ بجميع الغنائم التي كسبوها ، ولا يحق للامير ان يطالب بحصته فيها .

وفي عام ١١٧٠ أسر ريموند الثالث صاحب طرابلس في مدينة حلب ومنح املريك ، ملك بيت المقدس ، الاسبتار نيابة عنه قلعتي « اركاس (عرقة) وجيبلاكار » « Giblacar » (١) ، وكانت هاتان القلعتان قد اصيبتا بالدمار من جراء زلزال حدث في شهر تموز ، وكانتا تتمتعان بأهمية استراتيجية كبيرة ، من حيث السيطرة على الطريق المؤدية من حمص الى السهل الساحلي وبعلبك . وكانت قلعة ابن عكار قد استردت حديثا من نور الدين . وقد منحت هاتان القلعتان مع كامل حقوق الكونت بالسيادة ، بما في

---

(١) ــ حصن ابن عكار في عكا (المترجم) .

ذلك خدمات الفرسان والرجال الاخرين . وكانت الغنائم التي يأخذها لا يتم تقاسمها مع اي شخص ما عدا الملك ، وعندما يكون موجودا في الحملة فقط ، ولا يحق لمثله المطالبة بها . وقد ترسخت امتيازات الاخوية في أمكنة أخرى . بينما التزم إمنريك بحماية مصالحها الجديدة وان يطلب من الكونت الموافقة عليها بناء على أمر منه .

ولا يبدو بان ريموند قد صدق على هذه المنحة قط ومن المحتمل ان تكون قلعة عرقة قد أعيدت اليه في عام ١١٨٠ . لكنه مدين بحريته الى حد ما لجهود الاسبتارية الذين دفعوا جزءا كبيرا من فديته . وقد مات وهو مدين لهم بمبلغ ٣٧٠٠٠ بيزنط . واعترافا منه بالجميل، وربما لتسديد ماعليه الى حد ما، فقد صدق على امتيازاتهم ، وتخلى عن ذلك الجزء من غنائم الحرب ، الذي كان والده قد طالب به عندما كان موجودا في الحملة . وعلاوة على ذلك ، فقد استمر في التفاوض من أجل تسليمهم المسؤولية عن حدوده . وفي عام١١٤٤، اي في الوقت نفسه الذي حصلوا فيه على قلعة الحصن ، منحوا حقوق الكونت على بحيرة حمص من قادس « Chades » وحتى الأسد الكائن عند نهايتها الشمالية الشرقية . كما منحهم ريموند في عام ١١٨٠ قطعة الطوبان(١) وتوابعها ، وبذلك يكون قد فتح لهم الطريق الى حمص ذاتها . وفي العام التالي منحهم جميع الاراضي الواقعة جنوبي هذه الاقطاعة ، والتي يحدها من الشرق نهر العاصي ومن الغرب وادى البقاع ، والجبال التي اقيمت عليها قلعة « ملكين » « Melechin » . وقد منحت الاراضي مع السيادة الكاملة عليها ، على الرغم من ان الكونت احتفظ لنفسه بحق السيادة على اقطاعة على نهر العاصي ، وكان يأمل من ذلك ان يحتفظ لنفسه بحق الاستيلاء على مدينة حمص والاراضي الواقعة خلف النهر . وبعد اربع سنين ، كان هذا الامل يتلاشى لانه منح الاخوية جميع الحقوق النظرية على حمص واراضيها ، التي لم تكن في أيدي الصليبيين قط ، واحتفظ لنفسه بحق الإنتفاع بتلك الاراضي الواقعة على الطرف البعيد من نهر العاصي ، والتي كان يطلب الاستيلاء عليها .

---

(١) ــ باللاتينية « Tubanie , Tuban » (المترجم) .

وكان على الاسبتارية أن ينتفعوا بالاراضي الواقعة على الضفة الغربية لنهر العاصي ، والتي كانت قد منحت اليهم مسبقا ، وكان بعضها في ايديهم . وقد صدق ريموند على هذه الهبة في عام ١١٨٦ ، واعيد التصديق عليها مرة اخرى، على الرغم من تخلي الكونت عن حقه في الإنتفاع بالاراضي الواقعة عبر نهر العاصي .

وباكتساب قلعب المرقب ، في عام ١١٨٦ ، تولى الاسبتارية الدفاع عن جنوبي انطاكية وشمالي طرابلس ضد الحشيشية وغيرهم من المسلمين . ولكن هذا الاكتساب كان مختلفا عن المكتسبات ، التي تم ذكرها سابقا ، لان الاخوة الرهبان ارادوا الاقطاعة بشكل واضح وكانوا مستعدين لدفع الكثير من اجلها . وقد وعد سيدها « برتراند أو مازوار » « B. le Mazoir » بايجار سنوي مقداره (٢٢٠٠) دينار اسلامي ، واتخذت ترتيبات دقيقة لمواصلة الدفع لورنته ، الذين كانوا لايزالون يستلمون عائدات الايجار في عام ١٢٦٩ . وقد استلم بوهمند امير انطاكية ثمانية آلاف دينار اسلامي كما استلم كل من ولديه الاثنين الف دينار اسلامي .

ومع ذلك فقد جاء اكتساب قلعة المرقب بامتيازات للاخوية ، مشابهة لتلك الامتيازات التي حصلت عليها باكتسابها كل من قلعة الحصن وافاميا . واذا كان الاسبتارية يريدون السيادة ، فان « برتراند لو ماتزورا » ، أيضا ، لم يكن باستطاعته تحمل اعباء الدفاع عنها ، كما ان بوهمند كان متلهفا لحماية حدود امارته . وقد منح الاسبتار حقوق السيادة من كل من برتراند وبوهمند ، بما في ذلك حق السيادة على الفرسان الموجودين في الاقطاعية . وكان الاسبتارية غير مدينين بأية خدمة ، ولا يتقاسمون غنائم الحرب الخاصة بهم مع الامير . وقد عدلت الاتفاقيات السابقة حول ابرام المعاهدات بشكل طفيف . وكانوا غير ملزمين باية اتفاقية يجريها بوهمند في غيابهم ودون اخذ موافقتهم . ومن جهة اخرى ، وعد بوهمند بالتقيد بشروط الهدنة ، في حال قيام الاسبتار بالتفاوض مع المسلمين من اجل تحقيق السلام في مناطق ابي قبيس او جبيل(١) بجوار قلعة المرقب . وقد اعفي الاسبتار وكذلك رجالهم من دفع الضرائب المترتبة

(١) ــ اسمها باللاتينية « Byblos , gibelet , gibel » (المترجم) .

على سلعهم المنقولة . وأصبحت المنطقة حول قلعة المرقب مقاطعة أخرى شبه مستقلــة .

ويمكن رؤيةالاسبتارية في تلك الحدود الشماليةوهم يقومون بمسؤوليات الدفاع والهجوم ، مقابل بعض الامتيازات التي جعلت بعض ممتلكاتهم مستقلة تقريبا عن الامير او الكونت . ويمكن القول بأن الاسبتارية باستئجارهم المرقب قد بدؤوا الخطوة الاولى على طريق تملكهم الحدود الاسلامية ، على الرغـم من شروع الاخوية في شراء القلاع ، قبل عشرين عاما في حاكمية « جيلبرت دو آسايي » . وقد تم شراء قلعة « ايكسيرك » « Eixserc » في عام ١١٦٣ ، وبيعت قلعة كوكب الهامة الى الاسبتار مقابل ١٤٠٠ بيزنط قبل عام ١١٦٨ ويبين عدد القلاع التي اكتسبتها الاخوية في ستينات القرن الثاني عشر مدى توسع اعمالها العسكرية السريع ، وكم كانت اتهامات وشكاوي الرهبنــة في عهد جيلبرت دو آسايي صحيحة . وكانت قبل عام ١١٦٠ تملك سبع، او ربما، ثماني قلاع . وانسحبت من تعهدها ببانياس ، ولكنها ساعدت في الدفاع عن الكرك ، وربما هونين ، بينما طالبت بمعقلين وربمـا ثلاثـة ليست بأيـدي الصليبيين . وتعهدت في ستينات القرن الثاني عشر بالدفاع عن اسوار صيدا ، واكتسبت احدى عشرة قلعة وربما اثنتي عشرة ، كما اكتسبت حقوقا نظرية على ست قلاع اخرى . وكان بعض هذه الحصون مراكز ادارية للممتلكات ، وكان العديد منها صغيرا ، لكن الحصون الاخرى ، ومن ضمنها كوكب ، كانت لها اهمية عسكرية .

ويعكس التزايد في عدد القلاع التي يمتلكها الاسبتار القوة داخل اخوية الرهبان الفرسان ، الذين قاموا بدور غامض ومبهم في المناقشات التي احاطت باستقالـة جيلبرت . واستنادا لاقوال الرحالـة « بنجامين اوف توديلا » « B. of Tudela » ، فقـد كانت هنالـك في عام ١١٦٣ قوة عسكريـة كبيرة موجودة داخل بيت المقدس ، وقد بدانا نرى الاسبتار كأخوية عسكرية في حاكمية جيلبرت . كما ظهرت هنالك مبادىء منظمة عسكرية تضم المارشال وآمري القلاع . وقد عبرت رسالـة من جيلبـرت الى اسقف « ترانـي »

« Trani » عن مفهوم الاسبتار «كجنود للمسيح» بالقول :«وهكذا نرهق نحن واخوتنا الرهبان بخلط الفروسية مع الدين في شرك الدفاع عن الاراضي المقدسة الذي لا ينتهي . اننا لا نرفض اراقة دمائنا ونحن نقاوم اعداء المسيح ، كما اننا ننفق اكثر مما انفقناه من قبل من أجل الدفاع عنها » .

ويمكن اثبات ادعاءات جيلبرت دو آسايي ، لان الاسبتارية كانوا في ذلك الحين ، يلعبون دورا هاما في الحملات الصليبية في الشرق . ففي عام ١١٦٤ فرض نور الدين حصارا على قلعة حارم ، قرب انطاكية ، لمعرفته بانشغال املريك ، ملك بيت المقدس ، في مصر . وجمع الامير بوهمند الثالث قوة على الفور وانضم اليه كل من ريموند صاحب طرابلس ، وطوروس صاحب أرمينيا، والجنرال البيزنطي في قيليقية « قسطنطين كولومان » . عندئذ رفع نور الدين الحصار وانسحب ، لكن بوهمند قرر ملاحقته بقوة قوامها ستمائة فارس وكان من ضمنها مفرزة من الاسبتارية . ولحق بجيش المسلمين في العاشر من آب قرب « أرتاح » وهاجمه على الفور . وتظاهر المسلمون بالفرار ووقع بوهمند في الشرك وطوق جيشه وابيد تقريبا . وكان بوهمند نفسه ، وريموند صاحب طرابلس ، وقسطنطين كولومان من بين الاسرى الذين أخذوا الى حلب .

وكانت الاخوية في الوقت نفسه متورطة بمحاولات الملك املريك الرامية الى الاستيلاء على مصر . فكانت علاقات بيت المقدس مع جيرانها متأثرة بهذه القضية في ستينات القرن الثاني عشر . وكان من الاهمية بمكان ، بالنسبة للصليبيين، ان لا يتحد المسلمون ، غير ان الخلافة الفاطمية كانت على طريق الانهيار ، كما كان واضحا بأن مصر ستسقط سريعا ، وبدون صعوبة أمام نور الدين ، الذي كان يتولى مقاليد الامور في سورية المسلمة . لذا قرر املريك ان تكون دلتا النيل في أيدي اللاتين انفسهم . وفي عام ١٩٦٣ انقض فجأة على مصر متذرعا بحجة عدم دفع الجزية ، التي وعد بها اخوه . لكن نهر النيل كان في حالة فيضان واجبر على التراجع . وفي العام التالي استطاع شاور ، الوزير السابق في مصر ، ان يعيد نفسه الى الوزارة بمساعدة نور الدين . وعندما تسلم مهام منصبه تنكر لولي نعمته ، ورفض الاعتراف بسيادة الرجل الذي يدين له

بمنصبه ، وطلب من الافرنج التدخل لمصلحته ، وقاد املريك جنده الى مصر وساعد شاور في اجبار شيركوه ، القائد لدى نور الدين ، على الانسحاب. ومع ذلك وفي كانون الثاني من عام ١١٦٧ ، انطلق شيركوه من دمشق لدى تسلمه الامر بمهاجمة مصر . وطلب شاور المساعدة مرة ثانية من املريك ، الذي اقنع باروناته بالمشاركة في هذه الحملة الثانية . وبرغم هزيمة اللاتين في البداية، فان جزءا من جيش شيركوه ، بقيادة ابن اخيه صلاح الدين ، كان محاصرا في الاسكندرية ، واجبرت القوات الشامية على التفاوض ووعدت ، بموجب هذه المفاوضات ، بالجلاء عن مصر . وكان على المصريين ، مقابل مساعدة الصليبيين، ان يدفعوا جزية سنوية مقدارها مائة الف قطعة ذهبية ، وان يقبلوا ضابطا من الافرنج مع حامية عسكرية في القاهرة ، تتولى السيطرة على أبواب المدينة . وعاد املريك الى سورية وتقدم باقتراحات الى بيزنطة من اجل غزو مشترك لمصر .

ربما كان اهتمام الاسبتار بالشؤون المصرية يعود الى عام ١١٦٤ . وعندما طلب شاور مساعدة الصليبيين له ضد نور الدين ، منحهم هدية خاصة ووافق على دفع بدل علف لخيولهم . وقد لعب الاسبتار دورا بارزا في خريف عام ١١٦٨ ، أثناء تدخل الفرنج . وكان حكم شاور يتصف بعدم الاستقرار . كما ان شاور تأخر في دفع الجزية الى املريك ، وكانت هنالك أيضا اشاعات عن مفاوضات مع شيركوه . وعلى الرغم من عدم توصل اللاتين الى اتفاق مع بيزنطة ، فقد وصلت قوة من الفرسان الصليبيين الى الشرق بقيادة الكونت ويليام الرابع سيد « نيفير » « Nevers » . وعقد اجتماع في بيت المقدس حاول فيه جيلبرت ذو آسايي الضغط على البارونية العلمانية والصليبيين من اجل القيام بغزو فوري . وقد عارض الداوية هذه الخطوة ، لانها تخرق المعاهدات والوفاء بالعهد مع المسلمين . ولم يكن الملك املريك مع الغزو تماما ، لكنه بدا وكأنه قد غلب على امره . وفي الوقت نفسه تقريبا عقد اتفاقية مع جيلبرت ، الذي وعد بتقديم خمسمائة فارس وعدد مماثل من التركوبول(١)

---

(١) ـ عساكر خيالة متطوعة من الاتراك في صفوف الاسبتارية .

من اجل الحملة . وقد وعد الملك مقابل ذلك ، علاوة على الشروط الملائمة لتقسيم الغنائم ، بمنح الاسبتار مدينة بلبيس وعائدات الايجارات في مصر ، التي تبلغ سنويا مائة وخمسين الف بيزنط .

وغادر الجيش الصليبي عسقلان في ٢٠ تشرين الاول ، وسقطت بلبيس في الرابع من تشرين الثاني . وبينما كان هذا الجيش يزحف نحو القاهرة ، وصلت انباء مفادها ان شيركوه قادم من بلاد الشام بسرعة ، بناء على طلب الخليفة الفاطمي . وكان املريك يأمل في مفاجأة شيركوه في البرزخ ، لكن الجيش الشامي تخطاه الى الجنوب ولم يكن امام اللاتين من خيار سوى التراجع ، الذي بدأ في الثاني من كانون الثاني عام ١١٦٩ . وكانت النتيجة الوحيدة لحملة املريك هي قدرة شيركوه على السيطرة على مصر .

لقد فشلت الحملة ، وكان تأثيرها المباشر مأساويا على الاخوية ، على الرغم من البلاء الحسن الذي ابلاه جيلبرت كمحارب . وكان الاسبتارية غير قادرين على التوسع اللامحدود . ففي عام ١١٥٧ ، وافقوا على مساعدة همفري سيد تبنين في الدفاع عن بانياس . ومن أجل تجهيز البلدة بشكل تستطيع فيه مقاومة الحصار ، قام الاسبتارية باعداد قافلة امداد كبيرة مؤلفة من الجمال والدواب . وكانت هذه القافلة تقترب من بانياس بحراسة قوة مؤلفة من فرسان الاسبتار ومعهم السرجندارية ، والداوية ، وحلفاء من المسلمين ، عندما وقعت في كمين نصبه لها المسلمون . وكانت النتيجة فقدان الامدادات وقتل وأسر العديد من الفرسان . ونظرا لخشية الاسبتارية من وقوع حوادث مشابهة، فقد تراجعوا عن مسؤولياتهم تجاه بانياس . وكان الموقف في عام ١١٦٩ ، أسوأ كثيرا . فقد كان جيلبرت متهورا ، خاصة بعد حصوله على عدد كبير من القلاع، وبسبب خططه العسكرية الحمقاء . وكان أحد معاصريه ، وهو وليام الصوري، يعتقد بان تشجيعه لغزو مصر كان محاولة يائسة اخيرة لتعويض الاموال التي بددها . فلو تم غزو مصر ووضعت الاتفاقية بين الملك والاسبتار موضع التنفيذ لكان ربح الاخوة الرهبان هائلا . وليس مستغربا ان يرفض الداوية ، الذين تقل ممتلكاتهم في غزة عن ممتلكات الاسبتار في أقصى الجنوب ، الاشتراك في

الحملة . ومن الافضل ان نتذكر ، قبل انتقاد جيلبرت بشدة ، بان المؤرخ الاسلامي الكبير ، ابن الاثير ، كتب بان اولئك الافرنج الذين الحوا على غزو مصر كانوا قد قدروا الموقف جيدا . لقد كان جيلبرت دو اسايي يقامر ، لكن ذلك لم يدم طويلا .

على أية حال ، لقد فشلت مقامرته . وكان الاسبتار في عهده مدينا بمبلغ مائة ألف بيزنط . وقد أظهرت الازمة الداخلية ، التي تلت ، وجود جماعة معارضة لسياسة المساهمة الفعالة في الاعمال العسكرية . وقد اقنعت هذه الجماعة الرهبان في الدير بان تطلب من جيلبرت ان يقطع على نفسه عهدا بان لا يحصل مرة ثانية على قلاع على الحدود الاسلامية بدون معرفتها . وقد تلقى رد الفعل هذا ، ضد النشاطات العسكرية ، تأييدا من البابوية ، لكن الغنصر العسكري قد يكون قويا الآن بحيث لايمكن ازالته : يبدو ان نائب المقدم « Grand Commander » نفسه ، كان رفيقا في السلاح في عام ١١٧٠ . ولم يكن التأثير المالي على الاخوية ، من جراء الكارثة في مصر ، كبيرا على المدى الطويل . فقد مكنتها ثروتها الكبيرة في أوروبا والشرق من استرداد وضعها بسرعة . وفي عام ١١٦٩ ، ذهب نائب المقدم الى الغرب لجمع الصدقات . وبحلول عام ١١٧٢ كان الاسبتار قادرا على لعب دور رئيسي في ضمان تحرير ريموند سيد طرابلس من أيدي المسلمين . وقد بلغت فديته مائة وخمسين الف دينار . ولم يكن هنالك بالتأكيد اقلال من شأن مساهمة الاسبتار في الاعمال العسكرية ، فهو لم يتخل عن طموحاته في مصر ، كما ان الاتفاقية ، التي أبرمها مع ملك بيت المقدس في عام ١١٦٨ ، جددت في عام ١١٦٩ ،ومرة أخرى في عام ١١٧٦ . وعندما فشل صاحب طرابلس في الاستيلاء على حمص في عام ١١٧٥ ، تراجع من أجل حماية قلعة الحصن . وقد اشترك مقدم الاسبتار في المجلس ، الذي عقد لدى وصول الحملة الصليبية التي يقودها « فيليب اوف فلاندرز » ، بعد عامين ، كما قاد مجموعة كبيرة من الاسبتار شمالا من أجل حصار حارم . ولم يبق في الجنوب أكثر من خمسمائة فارس حشدوا من فرسان الداوية والاسبتارية والفرسان العلمانيين ، عندما قام صلاح الدين بمهاجمة المملكة ، وقد اشترك الاخوة الرهبان في تحقيق النصر

عليه في معركة تل الجزر . وقد كان «روجيه دو مولان» « R. des Moulins »
حاضرا في الاجتماع ، الذي دعا اليه الملك ، أثر نبأ هجوم صلاح الدين في عام ١١٨٣ ، كما ان ممثلا للاسبتار اشترك في مجلس الحرب ، الذي دعا اليه الملك « غي دو لوزينيان » « Guy de Lusignan » قبل وقوع الكارثة في حطين. ومن غير الممكن ان تكون الحرب فعالة في ذلك الوقت بدون الاخويات العسكرية. وفي عام ١١٨٠ كان صلاح الدين قادرا على قطع خطوط المواصلات الصليبية ، وعلى اجتياح كونتية طرابلس في كل وقت ، لان الداوية والاسبتارية رفضوا مغادرة تحصيناتهم والالتحاق بالكونت في عرقة خشية الحصار . وبعد موت بلدوين الرابع في عام ١١٨٥ ، منح الاسبتار والداوية حق الوصاية على القلاع الملكية ، خلال فترة وصاية زيموند سيد طرابلس ، وربما كان ذلك من الدلائل المقنعة بالنسبة لمركزهما قبل عام ١١٨٧ .

ويعتبر موقف المسلمين المعاصرين من الاسبتار دليلا اكيدا على ازدياد قونه العسكرية . ومن بين قلاع الاسبتار نهبت قلعة الحصن في عام ١١٦٤ ، وقلعة كوكب في عام ١١٨٤ . وقد فوجئت قوة فرنجية للاغارة ، قوامها ثلاثمائة فارس ، من قبل والي البيرة المسلم في عام ١١٧٠ ، فقد قتل او أسر معظم أفراد هذه القوة . وأرسلت رؤوس القتلى الى نور الدين ، وقد ميز من بينها رأس آمر قلعة الحصن . وقد ابتهج لدى رؤيته ذلك ، لان هذا الرجل كان يحظى بالاحترام لشجاعته وكان كالشوكة في حلق المسلمين . وكان النصر في الصفورية ، والذي قتل فيها روجيه دو مولان ، ذا أهمية بالغة بالنسبة للقضية الاسلامية ، لان رهبان الاخويات العسكرية كانوا المحرضين للفرنج . وقد أمر صلاح الدين ، بعد احرازه النصر في معركة حطين على الجيش الصليبي ، بقتل جميع الاسرى من الاخويات العسكرية . **« وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يجمعوا ليقتلهم ، ثم علم ان من عنده أسير لايسمح به لما يرجو من فدائه فبذل في كل اسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية . فاحضر عنده في الحال مائتا أسير فامر بهم فضربت اعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الفرنج فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق**

ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له او لغيره ففعل ذلك(١) » .. وقد يدل هذا العمل على أهمية نفوذ الاخويات العسكرية ، ويمكن أن يكون ايضا مجرد اجراء عادي . ففي عام ١١٥٧ أمر نور الدين بقتل جميع الاسرى ، الذين احضروا اليه ، بعد هزيمة قوات الاسبتار في بانياس . وفي عام ١١٨٨ حاولت قوة صليبية انقاذ قلعة كوكب ، التي كانت محاصرة من قبل جيش صلاح الدين . وقد تم اعتراض هذه القوة وأسر اثنين من زعماء الاسبتارية. وعندما احضرا امام صلاح الدين كالا له المديح كي يتجنبا القتل ، حيث كان من عادته ان يقتل الداوية والاسبتارية ، بسبب بغضهم الشديد للمسلمين ولبسالتهم .

وقد ادى ازدياد نشاطات الاخوية العسكرية الى اثارة قلق البابوية بشكل ظاهر . ففي الفترة ما بين عامي ١١٦٨ و ١١٧٠ ذكر البابا الكسندر الثالث الاسبتارية ، خلال مشاركتهم في الحملة على مصر ، بأن واجبهم الاول هو رعاية الفقراء ، وان حمل السلاح مخالف لعادات الاسبتارية ، وللاهداف التي وجدوا من أجلها . وفي العام ١١٧٠ ، وافق على طلب الرهبان الخاص بوجوب تعهد كل مقدم من مقدمي الاسبتارية بان لايتلقى او يبني قلاعا على حدود العالم المسيحي دون أخذ رأي هيئة الرهبان في ديره . وقد حدد البابا الكسندر مرة أخرى في الوثيقة البابوية(٢) التي صدرت مابين عامي ١١٧٨ و ١١٨٠ ، بان المهمة الاولى للاخويات هي العناية بالفقراء ، وذلك على الرغم من اعتراف روما بالتطورات العسكرية داخل الاخوية ، والتي يمكن استنتاجها من اشارتها الى الاسبتارية على أنهم فرسان المسيح في عام ١١٧٧ . وقد أمرهم بالامتناع عن حمل السلاح برغم اعترافه بامكانية مشاركتهم في الحرب عند الضرورة : أي عندما تحمل راية الصليب المقدس في الجيش المسيحي من أجل الدفاع عن مملكة بيت المقدس ، او من أجل حصار مدينة غير مسيحية . ومن ذلك فقد كان من الضروري عدم الاقلال من العناية بالحجاج على حساب الحصول على السلاح.

---

(١) ــ الكامل في التاريخ لابن الاثير ــ المجلد التاسع .

(٢) ــ « Piam admodum et jugem »

وقد قيل بأن قوانين عام ١١٨٢ ، والمتعلقة كليا بالاعمال الخيرية ، قد صدرت لاسترضاء البابوية ، غير ان الاسبتارية ربما قد حاولوا بوسائل اخرى اقناع البابا بالموافقة على نشاطاتهم العسكرية .

وقد ظهر تزوير هام في وثيقة بابوية(١) يعود تاريخه الى ثمانينات القرن الثاني عشر . وفهم منه بأنه صدر في عام ١١٣١ ، غير أنه كان قد نسخ في الواقع عن وثيقة بابوية(٢) صدرت عام ١١٨٣ ؛ وعن وثيقة بابوية(٣) اخرى صدرت عام ١١٤٤ الى الداوية . ويوحي مصدرها وفحواها بانها من وضع الاسبتارية ، بعد عام ١١٨٣ بفترة من الوقت . وهي محاولة واضحة لاظهار ان الاسبتار كان أخوية عسكرية قبل عام ١١٣١ ، وربما تم تزوير الوثيقة لاقناع البابا بأن الاسبتار لم يكن مكرسا كليا في أيامه الاولى للاعمال الخيرية . كما ظهر بان الداوية كانوا يمارسون بعض النفوذ على الاسبتار في الربع الاخير من القرن الثاني عشر . ومع ذلك ، فان الاخوة لم تكن بحاجة الى ذرائع من هذا النوع لتغير سلوكها . ويبدو بأن البابا لوسيوس الثالث بدأ يدرك،في أوائل ثمانينات القرن الثاني عشر ، إن نشاطات الاسبتار العسكرية هي صحيحة ، بينما كانت الكارثة التي نزلت بالعالم المسيحي أثر معركة حطين ، والاحتياجات الواضحة لسورية اللاتينية ، توجب اعادة كيل الثناء على اعمالهم من قبل البابوية والعالم الغربي .

وقد ارتبط ازدياد القوة السياسية للاخويات العسكرية في سورية اللاتينية مباشرة بمشاركتها المتزايدة في الشؤون العسكرية . وربما رفع العمل الخيري الهام وحده الاسبتار ، في ظروف كان الاستعداد فيها للحرب كبيرا ، الى مكانة ليست اكثر سموا من تلك التي بلغتها اية مؤسسة رهبانية ضخمة بتغلبها على المشكلات التي تواجه حركة مسير الحجاج الى الاراضي المقدسة . وقد رأينا بأن الاسبتارية أصبحوا في نهاية القرن الثاني عشر عنصرا أساسيا في

---

(١) _ « Q - uam amabilis Déo »

(٢) _ « Ea que Vobis »

(٣) _ « Milites Templi Ierosolimitani »

الدفاع عن مستوطنة اللاتين . ولم يعقد اي مجلس حرب هام ، او تدار اية حملة بدونهم في ثمانينات القرن الثاني عشر . وكانت مجالس الحرب هي ادوات السياسة . وحدث في المجلس الذي عقد قبل غزو مصر في عام ١١٦٨ ، ان الاسبتارية كانوا قادرين على التأثير في توجيه السياسة الخارجية لان المسألة المطروحة امام الزعماء المسيحيين المجتمعين لم تكن كيفية الهجوم فقط ، بل ايضا ما اذا كان الهجوم سينفذ ام لا ؟ وقد ضغط جيلبرت دو اسايي من أجل القيام بغزو مصر ، وهذا عمل سيؤثر على مستقبل العلاقات مع جيران المستوطنة الفرنجية ، كما انه سيتمخض ، كما بين الداوية ، عن خرق المعاهدات والمس بحسن النوايا . لقد كان الاسبتارية يتمتعون مسبقا بحق عقد او خرق المعاهدات مع المسلمين في مناطق من الشمال ، غير ان مقدمهم كان قادرا في عام ١١٦٨ على مجابهة المعارضة الداوية ، ومعها البارونات ، وذلك بفرض قرار سياسي بارع يهز الملك نفسه . ويمكن توضيح نجاحه بعلاقته الشخصية الوثيقة مع الملك ، وبالوعد الذي قطعه على نفسه ، بتقديم مساعدة عسكرية كبيرة ، وبتأييد البارونية له ، وبحقيقة ان الملك املريك نفسه كان مترددا . ومع ذلك فقد كانت انجازاته كبيرة ، اذ برهنت على النفوذ المتزايد لاخويته . وربما كانت سياسة جيلبرت ازاء مصر طائشة وبمثابة الكارثة غير انها أدت الى نتيجة ايجابية واحدة . لقد كانت خطوة هامة في تزايد قوة الاسبتار السياسية. وقد اظهرت للمسيحيين والمسلمين ، على حد سواء ، بان الاخوية من الآن فصاعدا يجب ان ينظر اليها كقوة في السياسات الصليبية . وعندما تولى ريموند صاحب طرابلس الوصاية على عرش المملكة في عام ١١٨٥ ، كان الاسبتارية والداوية ممثلين في مجلس دعا اليه لتقرير السياسة الواجب اتباعها ازاء المسلمين . وكانوا في القرن الثالث عشر يشتركون دائما في المباحثات التي تمس علاقات اللاتين بالمسلمين .

وقد ادى الوضع المستقل والثروة والنفوذ المتزايد للاخويات العسكرية الى جعلها جماعة مثالية في التفاوض في بلد تقسمه النزاعات الداخلية بشكل متزايد . وقد بدأ البابوات والملوك في استخدام المقدمين لهذه المهمة في ثمانينات القرن الثاني عشر . وكانوا من بين الذين ارسلهم الملك ، عام ١١٨١ ،

وللتوسط في خلاف نشب بين بوهمند امير انطاكية والبطريك . وفي العام نفسه انتهك « رينالد شاتيون » ، صاحب الشوبك ، وبشكل فاضح المعاهدات المعقودة مع المسلمين ، وذلك بمهاجمة قافلة اسلامية . وقد امره بلدوين الرابع باعادة الاسرى والغنائم ، فرفض على الرغم من ارسال وفد اليه ضم داويين واسبتاريين ، وقد حاول هذا الوفد اقناعه باطاعة الملك لكنه لم ينجح في مهمته . وفي عام ١١٨٦ عين البابا مقدمي الداوية والاسبتار ، ورئيس أساقفة الناصرة ، وسطاء لحل خلافات ونزاعات نشبت بين الجنويين ، والملك بلدوين ، وريموند صاحب طرابلس . لقد رأينا بان مأساة صفورية ، عام ١١٨٧ ، وقعت بينما كان المقدمان في طريقهما للتفاوض مع ريموند صاحب طرابلس نيابة عن الملك « غي » ، وعقدت اتفاقية سلام بين غي وريموند في أواخر العام في قلعة « سان جوب » « St. Job » التابعة للاسبتار .

لذا كان مقدمو الاخويات العسكرية ، في السنوات التي سبقت معركة حطين مباشرة ، شخصيات هامة في حياة المستوطنة السياسية . وكانوا موجودين في المجلس الذي منح « فيليب اوف فلاندرز » الوصاية على العرش في أوائل عام ١١٧٧ ، عندما وصل الى بيت المقدس مع حملته الصليبية ، وتم استدعاؤهم الى برلمان(١) ، عقده الملك عام ١١٨٤ ، من اجل التخطيط لحملة دعائية لكسب المساعدة في الغرب .

وقد رأينا بان الاخويات قد كلفت برعاية القلاع الملكية ، خلال مدة وصاية ريموند صاحب طرابلس ، وهي مسؤولية تتضمن واجبات ادارية هامة . وفي عام ١١٨٦ أسندت الى بطريرك بيت المقدس ومقدمي الاسبتار والداوية مهمة الحفاظ على مفاتيح مجوهرات التاج الملكي .

ولسوء الحظ ، فقد بدأت الاخويات ، في الوقت نفسه ، بالتحول من مجرد التأمل ، الى المشاركة الحقيقية في السياسات المحلية . ومن الصعب التصور بانها كانت تستطيع تجنب تلك المشاركة . فقد كانت نشاطات الفرنج

---

(١) — « Curia generalis »

العسكرية ، والتي تشكل عاملا سياسيا هاما ، مستحيلة بدون الاخويات . وكانت هذه قادرة على التأثير على سياسات ممالك اللاتين ازاء المسلمين . وقد وفرت لها قلاعها وممتلكاتها خبرة وتجربة ادارية لم يحصل عليها سوى القليل من الناس . كما ان وضعها الدولي وامتيازاتها كأخويات كبيرة تابعة للكنيسة اعطاها الاستقلالية . وكانت تقوم بدور المرشد والوسيط في السياسات الداخلية ، غير ان الشعور السياسي في سورية اللاتينية كان آخذا في الارتفاع آنذاك . وكان الملك بلدوين الرابع مريضا بالجذام ، ولهذا فمن المؤكد بأن حياته ستكون قصيرة ، كما ان البارونية كانت منقسمة الى جماعات لها أهداف وولاءات مختلفة . وكان من الصعب بالنسبة لمقدمي الاخويات العسكرية ان يمتنعوا عن تأييد الاطراف المتنازعة عندما شعروا بضرورة قيامهم بعمل ما استلزمته الظروف .

وكان من الطبيعي ان يكون لسلطة الاخويات وثرائها حدود ، لقد دمر الاسبتار نفسه ماليا نتيجة سياساته الطموحة في ستينات القرن الثاني عشر . كما يجب التذكر بان الاخويات العسكرية كانت عائقا هاما في سياسات سورية اللاتينية الملتوية ، اذ لم يكن باستطاعتها فرض حل نهائي . وكانت الاخويتان ملتزمتين بالدفاع عن الاراضي المقدسة ، وكان الاسبتار ، اضافة الى ذلك ، يقوم برعاية الحجاج . وكانت مستوطنة اللاتين في الشرق هي سبب وجود الاسبتار . ومهما حدث ، وكانت صراعاته مع الحكومة المحلية ، او فيما بينهما ، فانه لايستطيع الانسحاب من البلد ، كما يستطيع ان يفعل ذلك الصليبيون الوافدون او التجار الايطاليون . وكان حل تلك النزاعات من مصلحته الحقيقية .

لقد كانت اولى مغامرات الاسبتار في مجال السياسات المحلية سيئة الحظ ، غير انها تبين شيئا واحدا بوضوح ، وهو ان مقدم الاسبتار آنذاك ، « روجيه دو مولان » ، لم يكن أقوى من سادة المملكة الآخرين الروحيين او العلمانيين . وكانت الاخوية بعيدة عن المكانة المتفوقة التي تمتعت بها في مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر ، وفي المناسبتين اللتين سبقتا معركة حطين ، عندما شاركت الاخويتان في السياسات المحلية بشكل فعال ، لم يكن مقدما الاسبتار والداوية فعالين .



- قلعة الحصن -

وفي عام ١١٨٠ ، تزوج «غي» ، الابن الاصغر لكونت لوزينيان،من«سيبيلا» « Sibylla » ، شقيقة بلدوين الرابع . ولم يلق هذا الزواج ترحيبا من الملك ومن عدد كبير من البارونات . ومع ذلك فقد كان من الواضح ، في عام ١١٨٢ ، بان الملك بلدوين كان مريضا جدا بحيث لم يكن قادرا على ادارة دفة الحكم بالشكل المناسب . واقنع نتيجة لذلك بتعيين صهره وليا على العرش . لقد كان « غي » مترددا وضعيفا ، واغضب الملك بسبب رفضه مبادلة صور ببيت المقدس . ونتيجة لذلك استدعى بلدوين اتباعه الرئيسيين وعزل « غي » من منصبه في ولاية العرش . وفي الثالث والعشرين من اذار عام ١١٨٣ اعلن بلدوين الطفل ــ ابن سيبيلا من زواجها الاول ــ وريثا له (للملك بلدوين) . وحاول اقناع سيبيلا بفسخ زواجها ، وتولى ادارة الحكم على الرغم من شدة مرضه. ورجع غي دو لوزينيان الى كونتيته في عسقلان ويافا حيث أعلن التمرد. وعلى اثر ذلك حاصر بلدوين يافا غير أن « غي » صمد في عسقلان . وقد استغل



الملك امالريك الاول يتسلم رسالة من الامبراطور البيزنطي (الصورة العليا)
حصار بلبيس عام ١١٦٨ (الصورة السفلى)

البطريرك ، ومقدما الداوية ، والاسبتار فرصة عقد مجلس عام من اجل التوسط مع الملك بشأن قضية غي ، غير ان بلدوين رفض توسطهم ساخطا ، وكان عليهم مغادرة بلاط الملك .

توفي بلدوين ، في اذار عام ١١٨٥ ، عن عمر يناهز الرابعة والعشرين فقط. وكان خلفه بلدوين الخامس طفلا يبلغ الثامنة من العمر . وفي اوائل العام نفسه اكد اجتماع للبارونات بان ريموند صاحب طرابلس منح الوصاية على العرش بدلا من غي دو لوزينيان . وقد توفي بلدوين الخامس الصغير في آب عام ١١٨٦ . وطالبت سيبيلا بالعرش بصفتها الوريثة الطبيعية ، كونها الاخت الكبرى لبلدوين الرابع . وبما أن زوجها كان مكروها وموضع استخفاف ، فقد نصت وصية بلدوين الرابع الاخيرة على ان يتولى ريموند ، صاحب طرابلس ، الوصاية على العرش في حالة وفاة وريثه الصغير ، حتى تقوم هيئة انتخابية مؤلفة من البابا ، وامبراطور الغرب ، وملكي فرنسا وانكلترا ، باعطاء قرارها في الادعاءات والمطالب المعارضة لعرش سيبيلا وشقيقتها الصغرى ايزابيلا المتزوجة من همفري حاكم تبنين . وقد اقسم البارونات في بيت المقدس على احترام وصية الملك . وتجمع هؤلاء البارونات ، باستثناء عدد قليل جدا ، حول ريموند وطالبوا بتنفيذ وصية بلدوين الرابع ، غير ان انصار سيبيلا وهم: بطريرك بيت المقدس هيرا كليوس ، والقهرمانة « جوسلين دو كورتيناى » « Courtenay » والكند سطبل املريك دو لوزينيان ، وريناالد دو شاتيون، ومقدم الداوية « جيرارد دو لاريدفورت » ، الذي كان يشعر بعداء شخصي نحو ريموند صاحب طرابلس ، تحركوا جميعا وبسرعة كبيرة . وخدع ريموند بدعوته لحضور اجتماع للبارونية في طبريا ، بينما استولى أنصار سيبيلا على صور ، وبيروت ، وعكا ، وبيت المقدس .

وقد ايد الاسبتار في هذا الموقف الخطير ريموند صاحب طرابلس . وكانت الاخوية بالطبع الحليف الطبيعي للكونت . فقد تلقت امتيازات كبيرة منه ومن اسلافه في طرابلس وكانت أقوى مالك للارض في الكونتية منذ اربعينات القرن الثاني عشر . كما ساعدت في تحرير ريموند نفسه من أسر المسلمين . وفي

الوقت نفسه كانت هنالك أسباب وجيهة لمعارضة سيبيلا ، فتتويجها سوف يكون بمثابة نقض للقسم الذي قطعه البارونات على أنفسهم لـ ريموند سيد طرابلس ، كما ان هذا التتويج هو ضد رغبة بلدوين الرابع المتوفي ، والاهم من ذلك هو انه كانت هنالك اعتراضات كثيرة وهامة على شخص غي دو لوزينيان . وربما ساير الاسبتار تيار الرأي العام ، والظروف المحيطة في البداية وذلك بجعل طلاق سيبيلا من « غي » شرطا للقبول بها كملكة .

لقد كان بطريرك بيت المقدس ومقدم الاسبتار ومقدم الداوية يتولون مسؤولية مفاتيح مجوهرات التاج الملكي . وبينما كانت أبواب بيت المقـدس مغلقة وكان ريموند والبارونات موجودين بعيدا في مدينة نابلس ، تمت مفاتحة « روجيه دو مولان » من أجل الحصول على مفتاح مدينة بيت المقدس بحيث يمكن تتويج « سيبيلا » ملكة . ورفض روجيه تسليم المفتاح ، مستندا الـى اسس دستورية،وقال بأنه لايمكن تنصيبها ملكة بدون موافقة محكمة البارونات العليا . وســارع كل من البطريرك هيراكليوس ، وجيرارد دو ريدفورت ، ورينالد دو شاتيون الى الاسبتار . ولم يكن روجيه راغبا في التحدث اليهم ، في بادىء الامر ، لكنه في النهاية قذف بمفتاحه من احدى نوافذ الاسبتار ، ويبدو انه فعل ذلك خشية الاضرار باخويته وتم تتويج سيبيلا على الفور ، وقامت هي بنفسها بتتويج زوجها ملكا . ورفض روجيه ورهبانه الحضور . ويبدو بأنه قد راودته أفكار بالتمرد بعد ذلك ولبعض الوقت . وعندما كان ريموند صاحب طرابلس وانصاره يخططون لتتويج ايزابيلا وهمفري،صاحب تبنين،تحديا للتتويج الجاري في بيت المقدس ، كانوا يعلمون جيدا ان مقدم الاسبتار يقف الى جانبهم . لكن همفري صاحب تبنين رفض ان يتوج ، وهرب الى بيت المقدس وقدم الولاء الى « غي » . وانتهى التمرد وبدأ البارونات بالتحول الى جانب ملكهم الجديد غير المرغوب فيه . وفي تشرين الاول عام ١٩٦٨ ، تمت استمالـة مقدم الاسبتار الى جانب غي حيث شهد وثيقة ملكية موجهة الى جوسلين دو كورتيناي . وربما شرع في العام التالي بالمفاوضات ، التي جمعت بـين ريموند وغي في نهاية الامر . وقيل ، بعد ان رأى بأنه لايمكن القيام بأي شيء، بأنه قبل مكرها بـ « غي » ملكا .

ازدادت الالتزامات العسكرية للاسبتارية في ستينات القرن الثاني عشر ، وبحلول عام ١١٨٠ كانت قد ازدادت قوة ونفوذ الاسبتارية ، واصبحوا عنصرا اساسيا في الجيوش الصليبية الى جانب قوتهم في التأثير على السياسة الخارجية ، وسلطتهم شبه المستقلة في الشمال . وهناك دليل بسيط على اهتمامهم بالسياسةالداخلية لسورية اللاتينيةقبل عام ١١٧٧ ، غير انالاسبتارية خلال ثمانينات القرن الثاني عشر كانوا عبارة عن منظمة تلعب دور الوسيط والمستشار ، وتقوم بالمهام والواجبات التي لا يملك الاخرون وسائل تنفيذها . ويقود ذلك الى الموقف المعقد الناجم عن بارونية غير مستقرة ، والى القوة المتنامية للاسلام ، والى وجود الملوك صغار السن او المرضى ، والى الصعوبات الدستورية ، هذا بالاضافة الى مكانة الاخويات العسكرية وثرائها . ونتيجة لانهماك الاسبتارية في تلك المهام والواجبات ، أصبح من المستحيل بالنسبة لهم القيام بدور غير فعال ، عندما اتخذوا موقفا معارضا عام ١١٨٦ ، فبدلا من ان يجدوا بنفوذهم حلا للمشكلة ، فقد اضافوا عبئا جديدا الى مصاعب المملكة.

من السهل في الوقت نفسه التأكيد على قوتهم . وقد وجد الاسبتارية بأنه من الصعب تمويل النمو المبكر لنشاطاتهم العسكرية . واستطاع الملك املريك الاول شنق اثني عشر داويا في احدى المناسبات . وفي مناسبة اخرى شنق واحدا منهم تحديا لحقوق الاخوية المزعومة . ولم يستطع البطريرك ومقدما الاسبتار والداوية اقناع الملك بتغيير موقفه ، عندما اعلن « غي دو لوزنيان » « Guy de Lusignan » تمرده . وكان يتوجب عليهم مغادرة البلاط حقا . من ناحية اخرى كانت معارضة « روجيه دو مولان » « Roger de Moulins » لسيبيلا فشلا مخزيا . ويمكننا اقتراح ثلاثة اسباب لقراره الخاص بالتعاون مع غي دو لوزنيان ، اولها ان اخويته بدأت لتوها تلعب دورا في السياسة المحلية ، وان نشاطاته ازاء هذه السياسة كانت محفوفة بالشكوك ، فعندما طلب منه مفتاح مجوهرات التاج اذعن للطلب كيلا يتضرر الاسبتار . والسبب الثاني هو أن الاسبتارية كانوا ملتزمينبالدفاع عن الاراضي المقدسة . اذ انه ليس هناك مقدم مسؤول ، مهما كان واثقا من

معتقداته السياسية ، يمكن ان يفحم البلد في حرب أهلية ربما نجمت عنها كارثة أسوأ من حكم غي دو لوزينيان . والسبب الثالث والاخير هو افتقار الاسبتار ، على الرغم من قوته ، الى القوة المسيطرة وذلك نتيجة معركة حطين . وقد كانت الفترة الحاسمة في تاريخ الاسبتار في سورية اللاتينية هي عندما بلغت الاخويات العسكرية الذروة فيما بين تلك المعركة ، واسترداد الثروات البارونية في قبرص. وقد كانت الاخويات العسكرية في عام ١٢٠٠ في وضع لايستطيع أحد منافستها باستثناء كوميونات التجار الايطاليين . اما في عام ١١٨٦ ، فلم يكن من السهل بالنسبة للاسبتارية ، حتى بمساعدة ريموند سيد طرابلس ، ان يعارضوا الداوية وجوسلين دو كورتيناي ، واملريك دو لوزينيان ، ورينالد دو شاتيون، والبطريرك ، كما لم يكن من السهل ايضا ان يقولوا شيئا بحق غي وسيبيلا . ولم يستطع روجيه دو مولان ، المقيد بالدفاع عن الاراضي المقدسة بحكم منصبه كمقدم لاخوية ، المجازفة بالنتيجة . ومما يثير السخرية هو ان اخوية القديس يوحنا ، قد اتحدت مع ريموند صاحب طرابلس ، عشية معركة حطين ، ضد غي لوزينيان ومقدم الداوية ولم ينجحا مرة اخرى في موقفهما .

* * *

الفصل الرابع

المستوطنة اللاتينية في الشرق ١١٨٧ ـ ١٣١٠

معركة حطين :

أدى الصراع من أجل السلطة ، داخل بيت المقدس في صيف عام ١١٨٧ ، الى نشوب ما يشبه الحرب الاهلية في مملكة اللاتين . وكان الوقت غير مناسب للانغماس في منازعات حول التاج آنذاك ، ذلك لان فتح صلاح الدين لحلب عام ١١٨٣ اكمل احاطة الدويلات اللاتينية باراض خاضعة لنفوذه ، وعزز قوة امبراطوريته ، وجعلها متميزة ، وحاول جذب انصار اقوياء من الافرنج ، وذلك عن طريق الدخول في اتفاقيات تجارية مع التجار الايطاليين في مصر ، وعن طريق تشجيع الامبراطورية البيزنطية على توقيع معاهدة معه . وبذلك أصبح مستعدا ، في نهاية عام ١١٨٦ ، لتحطيم اللاتين وسحقهم . غير انه كان مازال ملتزما بشروط هدنة عقدت معه عام ١١٨٥ ، حيث سمح له بموجبها بفرض سيادته على الموصل .

في أوائل عام ١١٨٧ هاجم رينالددو شاتيون(١)، قافلة كانت في طريقها من القاهرة الى دمشق ، ورفض تسليم الغنائم التي حصل عليها وبذلك خرق شروط الهدنة ، مما دعا صلاح الدين على أثرها الى استدعاء قواته من كافة انحاء الشرق الادنى ، حيث بدات جيوش مصر ، والشام ، وما بين النهرين

(١) ـ كان رينالد شاتيون (ارناط) نفسه قد طلب الامان من صلاح الدين عقب اغارته

بالتجمع على حدود مملكة بيت المقدس . وفي أواخر أيار استعرض صلاح الدين عساكره المحتشدين عند العشترة في حوران . وكانت قواته آنذاك أضخم قوات ، حيث بلغت اثني عشر الفا من الفرسان وعددا كبيرا من غير النظامين والجنود الاضافيين . وانطلق في يوم الجمعة الموافق للسادس والعشرين من حزيران ، واجتاز نهر الاردن في الاول من تموز . وفي اليوم الثاني منه قامت

الفاشلة في البحر الاحمر ، والتي حاول فيها الوصول الى الكعبة المشرفة وتدميرها . ووفقا للهدنة المعقودة بين صلاح الدين ، من جهة والصليبيين وارناط ، من جهة اخرى ، اخذت القوافل العربية الاسلامية ، سواء للحج او للتجارة ، تمر بصحراء الاردن ، بعد ان « امنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذاهب والجائي » (ابن واصل : مفرج الكروب) . وقد عادت هذه الهدنة بالفائدة على ارناط نفسه ، نظرا لما كان يفرضه على تلك القوافل من مكوس وضرائب . « ولكن ذلك الفارس اللص كان لا يستطيع الحياة دون ان ينهب ويسرق » كما يقول المؤرخ غروسيه . فانقض فجأة على قافلة « ثقيلة معها نعم جليلة » للمسلمين متجهة من القاهرة الى دمشق في اواخر سنة ١١٨٦ واوائل ١١٨٧ . ويصف ابن الاثير القافلة بقوله « قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال » . ويبدو ان ما كانت تحمله تلك القافلة من نفائس وثروة طائلة اسالت لعاب « الفارس اللص » وجعله لا يبالي بالعهود والمواثيق . حقيقة ان السلطات المصرية احتاطت لحماية القافلة ، وارسلت معها « جماعة صالحة من الاجناد » لحراستها في الطريق ، ولكن ارناط نجح في ان ينصب كمينا للقافلة ولحاميتها . وبذلك وضع يده على كل ماتحمله من ثروة وبضائع ، في حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة » ـ كما يقول ابو شامة .

اما صلاح الدين فقد تذرع بالحلم ، فارسل الى ارناط مقبحا اعماله « ويتهدده ان لم يطلق سراح الاسرى والاموال » . ولكن ارناط « امتنع من اجابة السلطان الى اطلاقهم » ، واصم اذنيه عن ذلك التهديد ، (« وابى الا الاصرار والاضرار » ـ كما ذكر القريزي . بل لقد بلغ من جرأة ارناط وقحته وحرصه على استفزاز صلاح الدين والمسلمين انه رد على الدين قائلا « قولوا لمحمد يخلصكم » . وعندما وجد صلاح الدين اعراضا عن التفاهم من جانب ارناط ، ارسل الى الملك غي لوزينيان يفيده بما حدث ، ويكرر طلبه بتسليم الاسرى والنهوبات ، ولكن ارناط اعرض ايضا عن الملك غي ، .. « وهكذا لم يبق امام صلاح الدين الا القصاص والحرب ... ونذر دمه وأعطى الله عهدا ان ظفر به (بارناط) ان يستبيح مهجته » .

مجموعة من جيشه بمهاجمة طبريا في حين عسكرت بقية قواته عند كفرسيت في التلال الواقعة غربي بحر الجليل(١) . وقد سقطت مدينة طبريا بأيدي المسلمين بسرعة ، غير ان الكونتيسة « اشيفا » « Eschiva » اعتصمت في القلعة وطلبت المساعدة من زوجها ريموند صاحب طرابلس ، الذي كان مع الجيش الصليبي . وكانت قوات مملكة اللاتين تتجمع عند الصفورية في الجليل. واعلنت التعبئة العامة للقوى الصليبية تدعو جميع القادرين على حمل السلاح الى الدفاع عن الاراضي المقدسة . كما وصلت مجموعات صغيرة مسلحة من انطاكية وطرابلس ، وارسل بطريرك بيت المقدس بقايا الصليب الحقيقي المقدس. وقد ساهمت اخوية الداوية بكل محاربيها تقريبا . كما كانت اخوية القديس يوحنا (الاسبتار) ممثلة ، غير انه لم يعرف بالضبط مدى مساهمتها . ووضع الداوية انفسهم ، بقيادة مقدمهم جيرارد دو ريدفورت ، تحت تصرف غي دو لوزينيان ، وتخلوا عن نصيبهم في بعض الاموال التي اودعها ملك انكلترا « هنري » الثاني لصالح الاخويات العسكرية من أجل الاستعداد لحملته الصليبية . وقد تم انفاقها في شراء الجنود . وربما كان عدم تخلي الاسبتار عن حصة الثروة الانكليزية ، التي كانت في ايديهم ، هو نتيجة لعدم كونهم الى جانب « غي » تماما ، او ربما لعدم وجود مقدم لديهم . وقد عسكر الجيش الصليبي حول ابار الماء في الصفورية ، في الثاني من تموز ، ويرجح بان عدد هذا الجيش كان قرابة عشرين الف رجل ، وكان بذلك يوازي عدد جيش المسلمين تقريبا . فقد كان مؤلفا من حوالي ١٢٠٠ فارس ، ومن ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ من السرجندارية الراكبين والمجهزين بالاسلحة ، ومن عدة الاف من الجنود المشاة،وقوات محلية مزودة برماة السهام . وقد وقف صاحب طرابلس، ومعظم افراد البارونية ، ضد قتال المسلمين لان قيظ الصيف كان سيحدث اثرا قاسيا على جيش المسلمين ، وعندما سيفقد هذا الجيش تماسكه في الريف القاحل ، سوف يتراجع صلاح الدين من تلقاء نفسه . وربما اشير ايضا الى ان تشتيت جيش صلاح الدين سيفقده الكثير من سلطته السياسية لان اتحاد

---

(١) — هي نفسها بحيرة طبريا .

امبراطوريته ، الهادف الى ضمان البقاء بعد فشل هذه الحملة ، كان مقلقـلا ومحفوفا بالمخاطر ، كما ان علاقته مع الخليفة في بغداد لم تكن على ما يرام .

وقد ادرك صلاح الدين المجازفة التي يقوم بها ، ووضع نفسه في موقف اكثر خطورة ، عندما قاد الهجوم على طبريا شخصيا ، بينما بقيت القوة الرئيسية من جيشه مرابطة في التلال . وكان القيام بانسحاب منظم عبر الارض كثيرة التلال حول طبريا مستحيلا . وكان التقدم لملاقاة الجيش الصليبي ، الـذي كان متمركزا جيدا مع توفر الماء لديه ، يستلزم اجتياز سهل قاحل واسع . وكان صلاح الدين يأمل في ان تكون ردة الفعل في المعسكر اللاتيني ، من جراء هجومه على الكونتيسة اشيقا ، جديرة بجعل المجازفة تستحق الاهتمام . وقد اتهم اكثر المندفعين من الافرنج ، وكذلك رينالد دو شاتيون ، وجيرارد دو ريدفورت ، الكونت ريموند بالجبن . وعقد مجلس الحرب في الصفورية ، عقب وصول الانباء عن حصار طبريا . وطلب ريموند منهم الصبر مرة ثانية ، وذكر بان طبريا هي مدينته ، وان المسؤولة عن الدفاع عنها هي زوجته ، غير ان اللاتين ينبغي عليهم ان لا يجازفوا باجتياز السهل الواقع بينهم وبين المدينة المحاصرة. ولو ان صلاح الدين أراد القتال لكان عليه ملاقاتهم، فأيده الاسبتارية، وتم قبول رأيه الصائب . ومع ذلك فقد قام جيرارد دو ريدفورت ، بزيـارة الملك « غي » في ذلك المساء . ووصف ريموند بانه خائن ، وقد اتسم هـذا الاتهام ببعض الاهمية بعد حوادث معركة الصفورية ، وحث الملك على تبديـل قراره السـابق . كما نبه الى ان « غي » كان ملزما كسيد اقطاعي بتقـديم العون والمساعدة لاي كان من تابعيه ، بغض النظر عن الخطورة التي يتسم بها مثل هذا السلوك . وقد عانى سياسيا في عام ١١٨٣ نتيجة فشله في قتال جيش مسلم فاتح . وبهذا يمكننا ان نرى بان قراره بالاسراع لملاقاة المسلمين كان مبررا في تلك الظروف ، غير ان النتيجة كانت قاسية ومأساوية هـذه المـرة .

وفي صبيحة الثالث من تموز غادر الصليبيون صفورية وبدؤوا بالتقدم عبر الريف القاحل . ولم يكن لديهم ماء ، واضافت المناوشات التي قـام

بها المسلمون القلق لديهم . وعند الظهر واجه الداوية في المؤخرة صعابا كثيرة حيث أمر الملك نتيجتها بالتوقف ، وتجمع الجيش حول بئر جاف أسفل هضبة تعلوها قمتان كانتا تعرفان بقرون حطين ، وقضوا الليل في بؤس وعطش يحيط بهم المسلمون المبتهجون الذين كانوا يثيرون الضجة حولهم والذين بدؤوا هجومهم بعد اول ضوء تقريبا . وقد قاتل الصليبيون بتشكيل مؤلف من الفرسان والمشاة الذين حاول صلاح الدين سحقهم بواسطة رماة السهام لديه . ولم تصمد قواتهم حيث تفرقت صفوف مشاة الافرنج نتيجة العطش الذي حاق بهم . وتم صد الفرسان ، الذين لم تكن لديهم حماية ، وتجمعوا حول الملك وحول الصليب المقدس لانهم لا يستطيعون القتال بدون مشاتهم . وفي أواخر النهار امر صلاح الدين رجاله بالقيام بهجوم اخير تم بنتيجته انهاء المعركة .

لقد كانت خسائر الصليبيين في هذه المعركة فادحة ووقعت بقايا الصليب المقدس بأيدي المسلمين . وكان من نجا من الافرنج هم اولئك الذين كانوا في المؤخرة مع باليان دو ابلين ومع ريموند في عربته . واسر في هذه المعركة ايضا كل من الملك والكند سطبل املريك دو لوزينيان ، ورينالد دو شاتيون ، وهمفري صاحب تبنين ، وجيرارد دو ريدفورت ، وغيرهم كثيرون . وقد أعدم رينالد دو شاتيون وكذلك الاسرى من الاسبتارية والداوية ماعدا « جيرارد دو ريدفورت » الذي لم يعد ، لحسن حظه ، يلازمه دوما .

وبهذا تركت المملكة بدون مدافعين عنها . وفي شهر ايلول فقدت جميع الموانىء الواقعة جنوبي طرابلس ، باستثناء صور ، الى جانب جميع المدن الداخلية والقلاع الواقعة جنوبي طبريا ، باستثناء الشوبك ، والكرك ، وكوكب ، وبيت المقدس التي كانت آخر مدينة استسلمت في الثاني من شهر تشرين الاول ١١٨٨ . وقد حاول صلاح اتمام فتوحاته في العام التالي فتقدم باتجاه الشمال وضرب طوقا حول انطاكية . وفي الجنوب أصبحت كل من الكرك والشوبك وصفد وكوكب واقعة تحت سيطرته في كانون الثاني عام ١١٨٩ ، في حين بقيت صور وقلعة شقيف بأيدي الصليبيين . أما في طرابلس فقد بقيت المدينة وحدها وقلعة انطرطوس وقلعتين داويتين صغيرتين وقلعة الحصن

(للاسبتار) بأيدي الصليبيين ، وفي انطاكية بقيت المدينة ذاتها وقلعة المرقب فقط .

وقد بدأت المستوطنة اللاتينية تعود الى وضعها السوي على الرغم من كل ذلك . فقد كانت صور صامدة بقيادة « كونراد مونتفيرات » ، وفي آب عام ١١٨٩ حصل اول هجوم مضاد صليبي . وقاد « غي دو لوزينيان » ، الذي اطلق سراحه صلاح الدين ورفض الدخول الى صور بمساعدة « كونراد مونتفيرات » ، انصاره واسطولا من بيزا وصل حديثا لحصار عكا . لقد كان أهالي بيزا مشاركين قدماء في الحملة الصليبية الثالثة . وقد حققت هذه الحملة بعض النجاح برغم انها كانت تتسم بالصراعات بين قادتها . وفي اواخر عام ١١٩٢ استرجع الافرنج الساحل الممتد من يافا وحتى صور . واحتفظ « بوهمند » الثالث في أقصى الشمال بمدينة انطاكية الى جانب الاراضي المحيطة بها وحتى البحر ، وقام بحمايتها في حين تولى ابنه السلطة على طرابلس وتولى الاسبتارية السلطة على قلعتي المرقب والحصن ، وتولى الداوية السلطة على انطرطوس . وتوفي صلاح الدين في عام ١١٩٣ وعاد الاسلام بعده الى التفرق والانقسام وانتهت بموته الاخطار المباشرة المحدقة بالمستوطنة اللاتينية .

لقد كانت معركة حطين نقطة تحول بالنسبة للاسبتارية برغم انه يبدو بأن مشاركتهم كانت ضئيلة نسبيا . وكانوا الى جانب الداوية قادرين على تولي السلطة في المملكة بعد عام ١١٨٧ وذلك لامتلاكهم موارد دولية . وكانت الملكية والاسقفية فقيرتين وكذلك البارونية ، غير ان الاخويات العسكرية والكوميونات الايطالية ، التي كانت راسخة الاقدام في اوروبا ، ظهرت وبشكل طبيعي بأنها أقوى المؤسسات في سورية اللاتينية . كما ان الحاجة الى الدفاع عن المستوطنة في الوقت نفسه أدت الى قبول نهائي بالاسبتار كأخوية عسكرية .

* * *

جيران المسلمين

لقد تأثر تاريخ المسلمين ، الذين كان الفرنجة يعتمدون على ضعفهم وتفرقهم ، في الشرق الادنى بعدة عوامل هي : التنافس التقليدي بين القاهرة ودمشق ، والنزاعات بين الأمراء الأيوبيين الصغار ، وقيام المماليك ، وظهور المغول ، وسقوط الخلافة ، وانحطاط السلاجقة الاتراك ، واخيرا حقيقة أن نجاحهم وازدهارهم المادي في مطلع القرن الثالث عشر كانا يستندان على اقامة علاقات صداقة مع الفرنجة . ولهذا فان فرص قيام المسلمين بالهجوم على الصليبيين كانت قليلة ، ولم ينتقلوا للهجوم ضدهم الا في عام ١٢٤٤ .

كانت النزاعات بين الأيوبيين الذين خلفوا صلاح الدين هي السبب الى حد ما في بقاء المستوطنة اللاتينية ، مع عدم المبالغة في ذلك . فقد كانت الامارات الاسلامية المتعددة في سورية ترتبط بروابط عائلية وثيقة في ظل الحكم الايوبي ، كما ان نزاعاتها كانت معتدلة نتيجة لتأثير بيروقراطية دولية قوية . وعلاوة على ذلك ، فقد كان يظهر في كل جيل منهم فرد من افراد الاسرة ينجح في فرض سيطرته على البقية منهم .

لقد قسمت امبراطورية صلاح الدين فيما بين خلفه . وفي عام ١٢٠٠ رسخ اخوه العادل سيادته على بقية العائلة ونودي به سلطانا على سورية ومصر برغم ان مكانته لم تكن معروفة عالميا . وقد أقام علاقات سلام مع مملكة بيت المقدس طوال فترة حكمه ، غير انه توفي عام ١٢١٨ وفي وقت كانت الحملة الصليبية الخامسة تقوم فيه بغزو مصر . وعلى الرغم من ان النجاح الوشيك لهذه الحملة قد أدى الى قيام اتحاد مؤقت بين الامراء الايوبيين الا أنهم سرعان ما غرقوا في حالة من الفوضى خرج من بين صفوفها الكامل صاحب الشخصية البارزة وحاكم مصر . وعندما توفي في عام ١٢٣٨ ، اندلعت النزاعات بين الامراء الصغار من جديد . وكانت دمشق والقاهرة تتنافسان فيما بينهما بزعامة الصالح اسماعيل وابن أخيه الصالح أيوب . وضمنت مصر النصر لنفسها باعادة الخوارزميين الباقين على قيد الحياة من الامبراطورية العسكرية الواقعة جنوبي

بحر آرال والتي دمرها المغولون . وقد اندفعت عصابات سلب من الخوارزميين باتجاه الغرب نتيجة تقدم المغول . وفي عام ١٢٤٤ اتجهت نحو الجنوب واستولت على القدس وانضمت الى المصريين في غزة حيث هزمت فيها الجيوش المتحالفة لكل من عكا الافرنجية وحمص ودمشق والكرك . وفي عام ١٢٤٧ كان الصالح ايوب يهيمن على سورية .

وفي عام ١٢٤٩ توفي أيوب ، في وقت كانت فيه مصر تعاني من غزو القديس لويس . وقامت خليلته(١) شجرة الدر والمماليك البحرية بتنظيم المقاومة ضد الصليبيين . وقد استخدم الامراء المسلمون العبيد المماليك والاتراك من آسيا الوسطى ، والاسيويين الغربيين والاوروبيين فيما بعد ، للقيام باعمال الحراسة . وقد تم التشجيع على زيادتهم نتيجة الفوضى التي رافقت تجزئة امبراطورية صلاح الدين والصالح ايوب الذي طور النظام الى درجة عالية .

وقد حاول ابنه توران شاه ان يحل رجاله من منطقة ما بين النهرين محل المماليك ، غير انهم قتلوه في شهر ايار من العام ١٢٥٠ . وتزوجت شجرة الدر من القائد المملوكي إيبك ، الذي اعترف به جنوده سلطانا وكان يصحبه لبعض الوقت حفيد الكامل وهو في سن السادسة ، وفشل برغم ذلك في تهدئة الامراء الايوبيين الباقين في سورية ، الذين اعلنوا الحرب على مصر من جديد . وخلفه ابنه علي من بعده في عام ١٢٥٧ . ولكن كان هنالك خطر متزايد في الشرق .

كان المغول ، ذلك الشعب البدوي الذي يقوده جنكيز خان ، يخضع العالم الآسيوي لسيطرته . ففي عام ١٢١١ – ١٢١٢ استولوا على شمال الصين ، وعلى ما وراء النهر وخراسان في عام ١٢١٩ – ١٢٢٠ . واجتازوا في عام ١٢٢٠ – ١٢٢٣ القوقاز في طريقهم الى جنوب روسيا . وتوفي جنكيز خان سنة ١٢٢٧ غير ان ابناءه الاربعة واصلوا فتوحاته من بعده . وجرت في الفترة ما بين ١٢٣١ – ١٢٣٤ تصفية سلالة « كين » الحاكمة في شمالي الصين ، وتم ايضا ضم

---

(١) – سريته .

كوريا واحتلال بلاد فارس . وسقطت روسيا العظمى واكرانيا في إيديهم ما بين ١٢٣٧ — ١٢٤٠ . وفي عام ١٢٤١ اخترقوا بولندا وهنغاريا وحولوا اناضوليا السلجوقية الى ولاية تابعة لهم في عام ١٢٤٣ . وقد عرقلت النزاعات على خلافة المغول القيام بغزو أبعد من ذلك . وبرغم ذلك ، فقد انهارت الخلافة في بغداد عام ١٢٥٨ وأصبحت منطقة مابين النهرين العليا تحت سيطرتهم في عام ١٢٦٠ . وقاموا بغزو سورية في ذلك العام .

لقد اقنع سقوط الخلافة في بغداد مجلس الدولة في القاهرة بالحاجة الى حاكم قوي . وعزل علي(١) من منصبه واستبدل به « قطز » المملوكي الذي هزم المغول في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠ . وأخرج الغزاة من سورية التي سقطت بأيدي المماليك بشكل طبيعي . وقام قطز المملوكي باعادة الامـراء الايوبيين الى مناصبهم السابقة كحكام تحت سيادته ، غير انه قتل على يـد قائده بيبرس الذي تولى الحكم من بعده . وكان بيبرس أعظم المماليك الاوائل . فأعلن خلافة عباسية تتخذ من القاهرة مستقرا لها ، جاعلا من مصر مركزا للعالم الاسلامي . كما انه وحد الامبراطورية المملوكية واعاد تنظيم حكومتها ، واصبح الاسلام موحدا وقويا لاول مرة منذ عهد صلاح الدين . وعندما توفي في حزيران ١٢٧٧ كان يسيطر على قيسارية وأرسوف ويافا وصفد وشقيف وانطاكيـة وقلعة الحصن . وحكم بيركي خان اكبر اولاده سنا مدة سنتين فقط حتـى عزله زوج أمه قلاوون الذي واصل سياسة بيبرس الخارجية المغامرة ، وهزم المغول مرة اخرى واستولى علـى المرقب وطرابلس . وفي عام ١٢٩٠ خلفه ابنه « الاشرف » الذي ورث خططه من أجل الاستيلاء عـلى عكـا وأدخـل التحسينات عليها . وقد حدث آخر هجوم على المدينة التي كان يحتلها الصليبيون في ايار عام ١٢٩١ واندثرت مملكة بيت المقدس خلال بضعة أشهر .

لقد اعتمد بقاء الولايات اللاتينية في الشرق ، في القرن الثالث عشـر ، على ضعف قوى جيرانهم المسلمين الى حد ما ، وخصوصا مصر . وجاء المماليك المغامرون ، الذين وحدوا مصر وسورية ، بعد الايوبيين المسالمين والانفصاليين ، كما تم تدمير المستوطنة المقامة على الجزء الرئيسي من البلاد خلال اربعين عاما .

---

(١) — علي بن ايبك

غير ان بقاء تلك الولايات اعتمد ايضا على قدرة الحكومات اللاتينية . ومن الضروري الالمام بعض الشيء بالتاريخ الداخلي للولايات الصليبية وذلك قبل النظر في أخوية القديس يوحنا مرة ثانية .

مملكة بيت المقدس

يمكن تقسيم التاريخ الاخير لمملكة بيت المقدس الى اربع فترات زمنية . تقع الاولى بين معركة حطين وعام ١١٩٢ حيث عمت الفوضى لكنها انتهت بالحملة الصليبية الثالثة وبعودة محدودة الى الوضع الطبيعي المستقر ، وقد تميزت هذه الفترة بالتنازع حول العرش . اما الفترة الثانية فهي تمتد ما بين عام ١١٩٢ عندما حلت قضية وراثة الملك ، وعام ١٢٥٥ ، وقد شهدت هذه الفترة سلسلة من الحكام الأكفاء أزواج ووريثات الملكة . كما كان هنالك توسع معتدل في ظل حكومة ملكية قوية . ومع ذلك فقد انتقل التاج عام ١٢٢٥ الى أباطرة عائلة « هوهينستوفن » « Hohenstaufen » ، ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٢٦٨ كان هنالك ملوك متغيبون عن بلادهم وغير مرغوب فيهم شعبيا ، ولم يكن ممثلوهم مقبولين من قبل معظم البارونات . وحكمت المملكة في معظم مراحل هذه الفترة بنوع من الاوليغاركية (حكم الاقلية) ، وكانت المحكمة العليا للبارونية تقوم أمورها الهامة بصورة دائمة . وفي عام ١٢٦٨ أعدم «هوهينستوفن كونرادين» «Hohenstaufen Conradin» ،وجاءملوك قبرص الى العرش برغم استمرار النزاع حول مطالبهم مع عائلة « انجفن » « Angevins » حتى عام ١٢٨٦ . فقد كانوا عاجزين عن السيطرة على باروناتهم ، وكان على المملكة ان تستورد جميع احتياجاتها ومؤنها من ما وراء البحار ، وكان المماليك في مركز قوي في مصر . وتزايد ضعف المستوطنة عاما بعد عام حتى سقوط عكا عام ١٢٩١ . وسوف يتم النظر في الفترة الاولى بالتفصيل في فصل لاحق . فقد خرجت الاخويات العسكرية أقوى من ذي قبل قياسا على المؤسسات الاخرى، كما كان من الممكن رؤيتها في الحملة الصليبية الثالثة وهي تأخذ مكانها المعتاد بين زعماء سورية اللاتينية . وفي الوقت نفسه تنازل « غي دو لوزينيان وكونراد اوف مونتفيرات » ، المتنازعان على العرش ، عن الكثير من حقوق التاج مقابل

الدعم الإيطالي . وكانت الجمهوريات التجارية لكل من البندقيـة وجنـوة وبيزا قادرة على إقامة كوميونات شبه مستقلة في الموانىء السورية ولم تكن نتيجة ذلك سارة بالنسبة للفرنجة في القرن الثالث عشر .

وقد حسم الخلاف حول العرش في عام ١١٩٢ لصالح كونراد عن طريـق مجلس دعا الى عقده الملك ريتشارد الاول ، ملك انكلترا ، لكن كونراد قتل على يد الحشيشية وتزوجت ايزابيلا ملكة بيت المقدس من «هنري اوف شامبين» **Henry of Champagne** ، الذي كفل قيام حكومة شعبية ببراعته واعتماده على مستشارين قديرين . وتوفي هنري فجأة علـى أثر حادث في عام ١١٩٧ واختار البرلمان املريك ملك قبرص ليكون زوج ايزابيلا الرابع . وقد حكم املريك الثاني المملكة حتى عام ١٢٠٥،وكان حاكما نشيطا ساعد في احياء القانون والتماسك الاقليمي للدولة الصغيرة . ومع ذلك ، ابتدأ الاحساس بآثار تأسيس قبرص اللاتينيـة عام ١١٩١ ، والامبراطوريـة اللاتينية في القسطنطينيـة عام ١٢٠٤ . كما أبعدت أخطار سورية الناس الى منتجعات أكثر خضرة وأمناً في قبرص واليونان ، وأفسحت الاوضاع في قبرص بعض المجال للبارونية في بيت المقدس للقيام بتعويض مالي ، لكن الطاقة البشرية في سورية كانت ضعيفة حيث كان هنالك استعمار للجزء الرئيسي من المشرق لمدة قصيرة .

وقد انفصلت المملكتان بعد موت املريك ، فانتقلت قبرص الى ابنه ، وبيت المقدس الى «ماريا اوف مونتفيرات» التي كانت أكبر بنات ايزابيلا سنا اذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها . وفي عام ١٢١٠ اختير « جون دو بريين » « **John de Brienne** » ، الذي كان فارسا فرنسيا خبيرا وطاعنا في السن، من قبل فيليب اغسطس ملك فرنسا ليكون رفيق الملك . وقد كان ملكا شعبيا برغم ارتباطه الوثيق بالنهاية المأساوية التي انتهت اليها الحملة الصليبيـة الخامسة عام ١٢٢١ . وقرر جون في العام التالي القيام بزيارة الى الغرب بغية ايجاد زوج مناسب لابنته الصغرى « يولاند » التي كانت قد تزوجت مـن الامبراطور « فريدريك » الثاني عام ١٢٢٥ . وقد توفيت يولاند عام ١٢٢٨ بعد انجابها كونراد الذي كان في الوقت نفسه ملكا لبيت المقدس ووريثا للامبراطورية الغربيـة .

ورحل فريدريك في تلك الاثناء مع حملته الصليبية التي طال انتظارها . وسوف يتم الحديث عن هذه الحملة وآثارها في فصل لاحق . ويكفي القول هنا بأنه أغضب البارونية السوريةعلى الرغم من تفاوضه لاعادة مدينة بيت المقدس والجليل الغربي الى المملكة . ولم يستطع بصفته امبراطورا للغرب ومسيطرا على قبرص ، الى جانب إحساسه العالي والمتطور بطبيعة سلطته الاستبدادية ، الادراك بانه ليس اكثر من وصي على عرش بيت المقدس نيابة عن ابنه . وربما كانت البارونية الموحدة والمرتبطة دينيا آنذاك تعارضه ايضا . وفي ثلاثينات القرن الثالث عشر اندلعت الحرب الاهلية في قبرص وبيت المقدس بين ممثليه والنبلاء في المملكتين . ففي مملكة بيت المقدس أقيمت كوميونة عكا التي تألفت من البارونات والفرسان والتجار في المدينة وكانت متأثرة بأساليب المدينة الايطالية بشكل واضح .

ومن الاهمية بمكان التحدث هنا عن ظهور مدرسة المحاماة البارونية، التي تم التعبير عن نظرياتها ببلاغة فائقة برغم أنها جزء من أفكار البارونية الاوروبية تماما . وفي عام ١١٨٧ اتلفت كتابات القبر المقدس « Letters du Sepulcre » وكتب القانون لاول مملكة لاتينية أثناء سقوط بيت المقدس . وقد أظهر « كتاب قانون الملك » « Livre au roi » ، الذي تم تأليفه في الفترة مابين عام ١١٩٨ و ١٢٠٥ ، والذي يعتبر اقدم كتاب قانون بقي بعد تلك الحادثة ، الملكية في وضع مختلف عن الوضع الذي شغلته فيما بعد في رسائل « فيليب اوف نوفارا » « Philip of Novara »و « جون دو ايبلين » « J. d'Ibelin » ، التي كتبت في الفترة مابين عام ١٢٦٠ وعام ١٢٦٥ على التوالي . وقد كررت قانونا من مطلع القرن الثاني عشر يجيز للملك حرمان الرجل الخائن او الخارج عن الطاعة من الارث او الامتيازات التي يتمتع بها بدون قرار من المحكمة . كما أنه تضمن تعبيرا واضحا عن الالتزامات المتبادلة بين الملك وتابعه ، وتحويلها الى مجموعة من الامتيازات الملكية . وكان عمل التابعين محصورا في التصديق على أعمال الملك ، والموافقة على أي تحويل في الممتلكات الملكية مع المحافظة على حقوق الملك . ومـع ذلك ، فقد قام فيليب اوف نوفارا وجون دو ايبلين بعد نحو خمسين عاما تقريبا بتعداد اثني عشر التزاما تتعلق بالسيد الاقطاعي يلتزم

بها الملك وذلك في تسع وعشرين فصلا مختلفا . وقد صور هذان المؤلفان طبقة سياسية يكون الملك فيها السيد الاعلى لا أكثر من ذلك ، ويتقيد بالتزامات اقطاعية صارمة تجاه تابعيه الذين أعدوا صياغة حقوق معارضة الملك بدقة. وقد رأينا في فصل سابق الدليل على وجود حكومة ملكية قوية ومتطورة في القرن الثاني عشر ، وان هناك نصا قانونيا ذا تأثير كبير يعود تاريخه الى القرن الثالث عشر ، كان الملك بموجبه مقيدا والسلطة في أيدي البارونية . وقد أصبح واضحا للمؤرخين الحديثيين بأن فيليب اوف نوفارا وجون دو ابيلين كانا يقترحان ، على الرغم من جميع احتجاجاتهما ، نظام حكومة لها علاقة محدودة بالظروف التي كانت سائدة في القرن المنصرم . ومن الاهمية بمكان اظهار كيفية قيامهم بهذا العمل .

لقد ضعفت الملكية وانتقلت ما بين عام ١١٨٦ و ١٢٢٥ الى النساء وهن : سيبيلا ، وايزابيلا ، وماريا ، ويولاند . وقد مارست المحكمة البارونية العليا في أثناء تلك الظروف حقها الاكيد في تقديم المساعدة لاختيار ازواج الملكات . كما أثير النزاع حول التاج في الفترة مابين ١١٨٦ و ١١٩٢، وقد سلم المتنافسون بالكثير من حقوق الملك لكسب التأييد والدعم لمطالبهم . وقد أفقرت الملكية والكتيبة والبارونية بعد معركة حطين وأجهدت مصادر التاج كثيرا في أعوام اعادة الفتح والاستيلاء التي تبعت ذلك . وكان أفراد أسرة « هوهنستوفن » « Hohenstaufen » هم الملوك الذين حكموا الفترة التي امتدت ما بين عام ١٢٥٥ وعام ١٢٦٨ . وقد كانوا ملوكا متغيبين وغير مرغوب فيهم من قبل البارونية التي تورطت في النزاعات بين «الجلفيين» « Guelf » «والجبلينيين» « Ghibelline » .

لقد ادى ائتلاف كتابات « القبر المقدس » « Letteres du Sepulcre » القديمة الى نتيجتين . فقد كان هنالك أهتمام عملي حول ماهية قانون المملكة آنذاك ، وربما كان « كتاب قانون الملك » « Livre au roi » نتيجة المساعي التي بذلت من أجل صياغته . وعلاوة على ذلك ، فان القانون لم يكن أكثر من قانون تقليدي وغامض يفتقر الى اكسائه الشكل والوضوح معا .

وتطور الفكر الباروني ضد خلفية هذه الفكرة . فقد كان النبلاء في سورية اللاتينية يشكلون دوما مجتمعا مدينيا . وعندما كانت ممتلكات النبلاء في أيدي المسلمين بعد عام ١١٨٧ وحتى شروعهم في استعادة ثرواتهم في قبرص ، أدين البارونات بالعيش في دعة ولهو حيث تجمعوا في المدن الساحلية ، وعلى مقربة من الكوميونات الايطالية الذين كانوا من دعاتها والمروجين لمعتقداتها السياسية الخاصة ، كما الح الى ذلك « جيمسن دو فيتري » James de Vitry . وكان المجال الوحيد الذي يقوم البارونات بالتعبير من خلاله هو المحكمة العليا التي كان من الممكن رؤية سلطاتها تزداد بتولي النساء العرش بالوراثة ، اللواتي كان ينبغي ايجاد أزواج لهن ، وكان ذلك من ضروريات المملكة أيضا . كما كانت العلاقات مع المسلمين قضية أخرى يتم التشاور فيها بشكل تقليدي بحيث اصبحت قضية بقاء واستمرار .

لقد كانت الحرب الاهلية التي نشبت في ثلاثينات واربعينات القرن الثالث عشر بمثابة حافز لاعمال مختلفة . فقد توضح الفكر الباروني في ردة الفعل على ادعاءات اسرة « هوهنستوفن » المؤيدة للاسبتارية ، وكان مجاله فسيحا امام المحكمة العليا وكوميونة عكا . كما حفظ السادة الاقطاعيون العارفون بالعادات والتقاليد القديمة ، وهم : « رالف » صاحب طبريا « وزيجينالد » صاحب صيدا و « جون ذو ايبلين » العجوز ، القوانين المحببة للاتباع ونقلوها الى ابنائهم واتباعهم امثال « باليان » صاحب صيدا و « فيليب اوف نوفارا وجون دو ايبلين » الصغير . لقد كانت مدرسة المحاماة البارونية ، والتي كان اولئك الرجال قادتها ، مسؤولة بالتأكيد عن أربعة ابحاث حقوقية هي : كتاب فيليب اوف نوفارا ، وكتاب جون دو ايبلين ، وكتاب جيمس دو ايبلين ، وكتاب جيوفري لو تورت . وقد تم تأليف الكتابين الاخيرين في الفترة ما بين ١٢٧١ و ١٢٩١ والفترة ما بين ١٢٦٩ و ١٢٨٨ على التوالي . كما يمكن ضم « كتاب قوانين محكمة البرجوازيين » الذي يرجح بأنه الف بتشجيع اثنين من المجموعة البارونية ما بين عام ١٢٤٠ وعام ١٢٤٤ . غير انه كانت هنالك اعمال تاريخية وأخلاقية تشربت بأفكارها السياسية والقانونية . فقد الف فيليب اوف نوفارا الكراسة الاخلاقية « مراحل عمر الانسان الاربعة » اضافة الى كتابة سيرته

الذاتية وقدم تقريرا عن الحرب الاهلية ـ بوصفه موال لها بشدة ـ التي اندلعت بين البارونات وفريدريك الثاني والتي جسدت في تاريخ أطلق عليه اسم « مآثر البارونات » « Les Gestes des Chiprois » كما هو الحال بالنسبة لتاريخ مايسمى بـ « داويو صور » الذي كان مؤلفه وصيفا يقوم على خدمة أصحاب صور من آل مونتفورت . وكما يبدو فان معظم تاريخ « ارنول » « Chroncile of Ernoul » قد كتب من قبل شخص كان يقوم على خدمة عائلة ايبلين التي التفت المجموعة البارونية حولها . كما انه من الواضح بان « حوليات الارض المقدسة » ونصا مكتوبا في معظم الترجمات اللغة الفرنسية القديمة التي هي استمرار لتاريخ ويليام الصوري ، وكذلك تاريخ هرقل قد كتبت جميعها من قبل اشخاص مقربين من هذه المجموعة . ولهذا السبب ، كانت المجموعة البارونية السورية مسؤولة خلال سبعين عاما عن اربعة او خمسة أبحاث قانونية ، وعن أربع قصص روائية الى جانب « حوليات الارض المقدسة » و « مراحل عمر الانسان الاربع » . وقد استطاعت بضعة مجتمعات دنيوية تحقيق مثل هذا الانجاز الكبير في القرن الثالث عشر .

لقد احتوت تلك الاعمال ـ ولو شكليا ـ على نظرية قانونية وسياسية ، وكان البارونات يعتقدون بان الملكية ينبغي ان تتم عن طريق الانتخاب بشكل أساسي برغم قبولهم بالحق الوراثي فيها . وحاولوا البرهان بان « جودفري دو بويون » « Godfrey de Bouillon » ، اول حاكم لبيت المقدس ، كان قد انتخب من قبل أمراء الحملة الصليبية الاولى وانه أقسم بان يتقيد بقانون قام بصياغته ونال عليه موافقة تابعيه . لذا ، كان الاساس الذي استند اليه القانون المتعلق ببيت المقدس نموذجا لاتفاقية اجتماعية بين الحكومة الملكية والمستوطنين الاوائل . ولم يكن هذا صحيحا من الناحية التاريخية لان « جودفري » لم ينتخب من قبل اتباعه بل من قبل امراء الحملة الصليبية الاولى الذين غادروا بيت المقدس بعد ذلك فورا باستثناء « تانكرد » ، ووزعت الاقطاعات فيما بعد . وهنالك دليل بسيط على وجود حكومة ملكية انتخبت انتخابا في القرن الثاني عشر ، برغم الدور الذي لعبته المحكمة العليا في تقرير من كان صاحب الحق الشرعي عن طريق الحق الوراثي ، وربما ساهم تزايد

نفوذه في الفترة الممتدة ما بين ١١٨٦ و ١٢٢٥ في اقناع البارونات بوجود من سبقهم في معتقداتهم .

ونتج عن العلاقة المتبادلة تقيد الملك بالتزامات صارمة نحو تابعيه وبقرارات المحكمة العليا الناطقة بلسانهم والتي حكمت مع « جون دو ايبلين » بموجب القوانين السابقة . ويمكن توضيح الوضع الجديد للحكومة الملكية بالنظر إلى القضية التي يبدو بانها حملت الفكر الباروني في كل مكان ، وفيما اذا كانت هناك أسباب لقيام الملك بانتزاع اقطاعات اتباعه بدون موافقة رسمية من المحكمـة .

وكما ذكرنا فان رسالة قديمة ردت بالايجاب على قدرة الملك في انتزاع الملكية ممن يشاء بدون قرار محكمة من هذا النوع اذا كان التابع خائنا ، او حتى مجرد رفضه أمرا ممكنا . وقد أعيد تكرار ذلـك في « كتاب قانون الملك » « Livre au Roi » ولكن ليس مـن قبل « فيليب اوف نوفارا او جون دو ايبلين » اللذين لايجوز بالنسبة لهما ان يضع الحاكم يده على أقطاعة مرؤوسة، أو على صاحبها ، مالم يكن هناك حكم ينص بذلك وبمعرفة المحكمة . ويمكن ملاحظة انشغال البارونات بهذه القضية في تاريخ سورية اللاتينية من أزمـات الثقة التي كانت تقوم بينهم وبين الملك كلما قام الملك او ممثلوه بعمل استبدادي ضد ممتلكاتهم . وكان الاجراء الواجب اتباعه من قبل التابعين اثناء محاولـة السيد الاقطاعي مصادرة الممتلكات بدون قرار رسمي من المحكمة قد خطط بدقة من قبل فيليب اوف نوفارا وجون دو ايبلين . وكان مستندا عـلى قانون الاقطاعة « Assise sur la ligece » الشهير الذي قيد به املريك الاول ، كما رأينا ، جميع التابعين المقيمين تحت سلطة الملك مباشرة ، معطيا لهم بهذه الطريقة الحق في الجلوس مع زعيم المستأجرين للارض في المحكمة العليـا وبالاحتكام الى رؤساء سادتهم المباشرين في حالات انتزاع الملكية الخاطئة .

وقد ناشد كل من فيليب وجون للاخذ بهذا القانون باعتباره وسيلـة يستطيع التابع بواسطتها مناشدة نبلائه ضد الملك ، وطلب اتخاذ القرار في المحكمة العليا عندما تنتزع املاكه منه بشكل غير صحيح . وقد تم في اعـوام

١١٩٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣١ مناشدة المحكمة العليا باسم « قانون الاقطاعة » بهذا الخصوص .

ولهذا السبب يمكن تتبع تطور الفكر الباروني بشكل واضح . فعندما ضعفت الملكية ، اصبح « قانون الاقطاعة » دليل ضعف بالنسبة لها ، بعد ان كان دليل قوة ، خاصة عند محاولة انتزاع الملكية من البارونية بدون قرار رسمي من المحكمة . واقترحت البارونية في الوقت نفسه فكرة قيام حكومة ملكية تلتزم بالتزامات تعاقدية صارمة وتنتخب من حيث المبدأ ، ان لم يكن من حيث الخبرة والممارسة العملية ، وذلك ردا على حكم فريدريك الثاني الاستبدادي . وكانت كوميونة عكا هي التجسيد المادي لهذه النظرية الى جانب كتب فيليب اوف نوفار وجون دو ايبلين التي كانت التبرير والمسوغ المكتوب لها .

لقد استمرت الحرب الاهلية حتى عام ١٢٤٣ عندما استرد البارونات صور . وقد عزل الامبراطور في مجلس ليون الذي عقد عام ١٢٤٥ ، برغم بقاء « توماس اوف اسيرا » « Thomas of Acerra » ممثلا لفريدريك الثاني في طرابلس . ومنذ عام ١٢٤٣ حين بلغ كونراد سن الرشد وحتى عام ١٢٦٨ كانت المحكمة العليا للبارونية تمارس السلطة على بيت المقدس وتعمل بالاتفاق مع ممثلي مؤسسات اخرى في المملكة ، كما كانت تقوم باختيار بعض الاعضاء الجدد في الحكومة من الصليبيين الزائرين احيانا .

لقد تبعت الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس في عام ١٢٤٨ كلا من حملة « ثيوبالد شامبين وريتشارد كورنوول » في عامي ١٢٣٩ و ١٢٤٠ . وقد اسفرت الحملتان الاوليان عن توقيع اتفاقية مع مصر عادت بموجبها جميع أراضي الافرنج غربي الاردن وحتى غزة جنوبا ، ماعدا نابلس (السامرة) برغم انها لم تدم طويلا . وقد انتهت حملة القديس لويس التي كانت آخر الحملات الصليبية الواسعة النطاق بحدوث المأساة من جراء وقوع قادتها بالأسر في أيدي المصريين . وقد أطلق سراح القديس لويس فورا وبقي في فلسطين قرابة أربع سنوات . لقد كان المماليك الاوائل مهتمين كثيرا بقمع وتشتيت الايوبيين

المنشقين لمهاجمتهم الافرنج . وقد اتيحت الفرصة للويس كي يقوم باعادة بناء وتنظيم دفاعات المملكة ، وهنالك دليل اكيد على انه جرى اعادة احتلال الصليبيين لقسم كبير من فلسطين أكثر مما كان متوقعا .

ومع ذلك لم يعد هناك اية حملات صليبية هامة وسقطت الحصون التي تم الاستيلاء عليها بصعوبة في أيدي المسلمين تقريبا ، كما زاد ظهور المماليك في معدل الانهيار والاخفاق . وفي اواخر ستينات القرن الثالث عشر ، كانت المملكة محددة بقطعة ضيقة من الارض على طول الساحل .

لقد كان عام ١٢٦٨ على جانب كبير من الأهمية لما حمل في طياته من احداث : فقد سقطت انطاكية في أيدي بيبرس ، وورث ملوك قبرص بيت المقدس وتم قطع رأس « كونرادين » « Conradin » في نابولي بناء على اوامر « شارلز اوف آنجو » . وفي الرابع والعشرين من ايلول عام ١٢٦٩ تُوج « هيو » « Hugh » الثالث — لوزينيان ملكا على انطاكية . واستعاد بعض الوحدة الداخلية لكنه لم يكن قادرا ابدا على السيطرة على البارونية والاخويات العسكرية والكوميونات الايطالية . ولم يستطع ملوك قبرص وبيت المقدس توطيد اية سلطة فعالة ، وقد حققت الحملات الصليبية غير الملائمة ، التي قادها كل من « انفانتاس اوف اراغون » عام ١٢٦٩ وادوارد ملك انكلترا عام ١٢٧١ ، القليل من أجل تقوية المستوطنة .

وفي عام ١٢٧٦ انسحب « هيو » الى قبرص مستاء من الداوية ومن سلوك البارونات في عكا . واكملت ماريا اميرة انطاكية ، التي كانت مطالبة قوية بالعرش ، بيع حقوقها الى « شارلز اوف انجو » الذي اتخذ لنفسه على الفور لقب ملك وارسل « روجر اوف سان سيفيرينو » ممثلا عنه . وكان روجر مؤيدا من قبل الداوية والبنادقة وقادرا على محاصرة عكا . وفي عام ١٢٨٤ قسمت القدس اللاتينية الى مقاطعتين : كانت عكا تحت حكم اسرة «الانجيين» « Angevins » ، في حين أقرت صور وبيروت بحكم « هيو » وابنه جون ، الذي عاش فترة قصيرة وتوفي عام ١٢٨٥ . كما توفي شارلز اوف انجو في العام نفسه . وفي عام ١٢٨٦ نزل الملك الصغير هنري في عكا قادما من قبرص

وتسلم تنازلا عن القلعة ، وتوج ملكا في ١٥ آب وتبع ذلك آخر أحتفالات سوريا اللاتينية الرائعة مع المهرجانات الآرثرية والرومنسيات الطروادية التي أقيمت أمام الملك في نزل « Auberge » الاسبتار في عكا . ومع ذلك كانت النهاية قريبة وسقطت طرابلس في عام ١٢٨٩ وبدأت عصابة اجرامية من الصليبيين الايطاليين وصلت الى عكا في آب عام ١٢٨٠ باثارة الشغب والاخلال بالامن ، فذبحت عدداً من المسلمين برغم الهدنة القائمة بين المسلمين والصليبيين. فاعتبر قلاوون الهدنة منتهكة وقرر الاستيلاء على عكا ، ومات قبل اتمام استعداداته ، لكن ابنه الاشرف الذي جاء من بعده استمر في خطط أبيه وسقطت عكا في أيديه مساء الثامن عشر من أيار سنة ١٢٩١ وسقطت بعد ذلك كل من صور ،وصيدا، وبيروت ، و « كيفاس » « Cayphas » ، وقلعة عتليت ، وانطرسوس . في حين ظلت جبيل ولاية تابعة للمماليك لبضع سنوات أخرى . وتمسك الداوية بجزيرة ارواد الواقعة على بعد بضعة اميال في البحر من طرطوس غير ان البر السوري فقد إلى الابد .

« امارة وكونتيه انطاكية ــ طرابلس »

لقد كان تاريخ امارة إنطاكية الاخير أقل اضطرابا من تاريخ بيت المقدس. فقد شهد العقدان الاوليان من القرن الثالث عشر صراعا على وراثة العرش بين ريموند روبين ، يسانده الارمينيون والاسبتارية ، وبين بوهمند الرابع الذي تحالف مع الداوية . وانتصر بوهمند في منتصف عشرينات القرن الثالث عشر لكنه مات عام ١٢٣٣ . فقد كان رجلا نشيطا لكنه كان مجردا من الاخلاق وكان سياسيا بارعا يتمتع بسمعته كمحام قدير . وقد واصل خلفاؤه من بعده تسمية أنفسهم أمراء على انطاكية لكنهم نادرا ماكانوا يزورون المدينة التي ظلت شبه مستقلة ، وكانت معزولة عن حكومتهم ومقاطعتهم في طرابلس من قبل المسلمين في اللاذقية معظم تلك الفترة. وفي عام ١٢٦٨ ظهر بيبرس امام طرابلس لكنه كان عاجزا عن أخذها فالتف الى الشمال وحوّل جيشه ضد انطاكية ، وقد رافق الاستيلاء على المدينة وقوع مجزرة مروعة ؛

لقد كان بوهمند الخامس شعبيا مع تابعيه الطرابلسيين ، خلافا لسلفه، وكان على علاقات طيبة مع روما برغم منحه حق اللجوء السياسي لـ « توماس اوف أسيّرا » ممثل الامبراطور فريدريك . وقامت زوجته الثانية لوسياني بادارة الامارة بعد موته عام ١٢٥٢ لكن لم يكن مرغوبا في وصايتها على العرش . وتدخل القديس لويس وانهى موضوع الوصاية بترتيبه زواج بوهمند السادس من ابنة هيوم ملك ارمينيا ، مما أسفر عن ذلك قيام اتحاد وثيق بين الدولتين . وفي عام ١٢٥٨ كان بوهمند يحاول كسب وراثة عرش القدس لابن اخيه الملك هيو ، ملك قبرص ، غير ان هدفه كان في طرابلس ذاتها حيث كانت عائلة « امبرياكو » « Embriaco » الجنوية وسادة جبيل يسعون الى اقامة دولة مستقلة . وأيدتهم في تمردهم هذا بارونية كانت غير راضية عن حكومة بوهمند . وتم انقاذ الكونتية بتدخل فرقة من الداوية وبقتل بيرتراند امبرياكو فقط .

وسار بوهمند في تلك الاثناء على درب الارمينيين في طلب التحالف مع المغوليين . وكان بذلك قادرا على اعادة الاستيلاء على اللاذقية برغم من المعاهدة المغولية لم تحظ برضى البارونات في عكا . بينما أدى اعادة تقديمه لبطريرك يوناني ارثوذكسي في انطاكية ، الى حرمه كنسيا . ووقع مع بيبرس بعد سقوط قلعة الحصن في عام ١٢٧١ على هدنة لمدة عشر سنوات ، لكنه مات بعد اربع سنوات تاركا ابنا في سن الرابعة عشرة اسمه بوهمند السابع وابنة اسمها لوسني . وأعطيت الوصاية على العرش للاميرة الارملة سنيبيل . وتسلم بوهمند السابع الحكم عام ١٢٧٧ . وفي عام ١٢٨١ جدد الهدنة مع المماليك لكنه لم يك على مايرام مع تابعيه ، وتمرد الداوية وأسقف طرابلس وعائلة امبرياكو نتيجة لذلك . وسويت الخلافات بين الفرقاء المتنازعين بواسطة الاسبتارية ، غير ان الداوية وعائلة امبرياكو ثاروا وتمردوا من جديد عام ١٢٨٢ . وقد فشلوا في تدبير انقلاب في طرابلس ، وهربوا الى الاسبتارية الذين سلموهم الى الامير شرط الحفاظ على حياتهم ، لكن بوهمند لم يتقيد بالشرط .

سقطت اللاذقية في أيدي المماليك عام ١٢٨٧ . وتوفي بوهمند بدون أولاد

في العام نفسه وخلفته اخته آوسي التي كانت ترغب في منح اسقف انطرسوس ، الذي لم يكن محبوبا ، منصبا في الادارة . وقد اعلن التجار والنبلاء معا تنحية السلالة عن الحكم ، واقاموا كوميونة كان أول رئيس لها من عائلة امبرياكو . ومع ذلك فقد وصلت لوسي في أوائل عام ١٢٨٨ لاستئناف اقامتها وتم الاعتراف بها كونتيسة بسبب جهود الاخويات العسكرية الى حد ما ، وبسبب خوف أعضاء الكوميونة من مطامح عائلة امبرياكو والجنويين .

واهملت طرابلس دفاعاتها . وفي أواخر آذار من عام ١٢٨٩ فرض قلاوون الحصار على المدينة التي كانت تدافع عنها مفارز من الداوية والاسبتارية والايطاليين والقبارصة . وقد كانت وسائل الحصار الاسلامية فعالة ومؤثرة وبدأت الاسوار بالتقوض والانهيار . وخلخل الايطاليون الدفاع فضعفت المعنويات . وعندما قام عساكر السلطان بالهجوم في السادس والعشرين من نيسان واجهتهم مقاومة بسيطة فقط . وتم احتلال البترون ، وانفه Nephin بعد بضعة ايام وظلت جبيل وحدها مع الفرنج وسمح ببقائها في أيدي اللاتينيين لثماني او تسع سنوات اخرى وتحت المراقبة والاشراف الاسلامي الشديد .

مملكة ارمينيا

لايمكن اعتبار ارمينيا القيليقية ولاية من الولايات اللاتينية الا في أواخر القرن الثاني عشر . ومع ذلك فقد ابتدأ تاريخها في القرن العاشر عندما اقام الارمينيون في قيليقية . وقد تزايد عددهم في القرن الحادي عشر نتيجة لوصول المواطنين الفارين من السلاجقة الاتراك ، ونتيجة لبعض الهجرة من المستعمرات في « كابادوسيا » « Cappadocia » . وقد عين البيزنطيون ، بغية الحفاظ على الاقاليم حول قيليقية ، حكاما ارمينيين وقادة عسكريين قام بعضهم بانتهاك الروابط والصلات مع الامبراطورية تدريجيا واصبحوا زعماء مستقلين . وفي اواخر القرن الحادي عشر ظهرت أسر « الهيتوميين » « Hetaumids » المنافسة والهامة التي تمركزت حول قلعة لامبرون ، « والروبينيين » « Roupenids » التي استولت على قلعة « فاهكا » « Vahka » عام ١٠٩١ .

١

لقد ظل الهيتوميون الذين سيطروا على المخرج الجنوبي للبوابات القيليقية وعلى الطريق المؤدي الى انطرسوس تابعين أوفياء للبيزنطيين ، في حين كان الروبينيون اكثر طموحا ونجحوا في ظل حكم كل من ظوروس الاول ، وليو الاول وطوروس الثاني ، وروبين الثاني ، « ومليه » « Mleh » وروبين الثالث في اخضاع جزء من السهل القيليقي لسلطتهم . وتزايدت قوتهم بالاستفادة من التنافس القائم بين السلاجقة والبيزنطيين واللاتين وترسخت قوتهم جيدا بتبوؤ ليو الثاني العرش عام ١١٨٧ ، كما تزايدت بوقوع كارثة حطين لانهم كانوا في وضع تقديم المساعدة للافرنج الضعفاء . كما ساهم جنود ليو في الحملة الصليبية الثالثة . واكد في تلك الاثناء على مطالبته بالتاج لدى البابا والامبراطور الالماني. وأمر البابا مقابل ذلك باخضاع الكنيسة الارمينية ، الى روما ، وتم ذلك برغم المعارضة الكبيرة ، وتوج ليو الثاني ملكا في السادس من كانون الثاني عام١١٩٨ . لقد كان ليو أعظم الحكام الارمينيين ويبدو بانه ربط سياساته بسياسات الولايات الافرنجية ، برغم العداء الذي تزايد بينه وبين حكام انطاكية ، عندما حاول ضم الامارة وتدخل في صراعها حول العرش وأعطى الاخويات العسكرية أراض ومنح امتيازات للبنادقة والجنويين وادخل القابا لاتينية في بلاطه .

لقد عدّل النظام الاقطاعي الغربي النظام الارميني من حيث امتلاك الارض. فقد اتخذ الارمينيون أثناء حكم خلفه قوانين انطاكية قانونا لهم . وتوفي في عام ١٢١٩ ، وتزوجت ابنته ايزابيلا من فيليب ابن بوهمند أمير انطاكية غير ان حكمهم المشترك لم يدم حيث عزل فيليب عن العرش وسجن ثم قتل . وفي عام ١٢٢٦ اجبرت ايزابيلا على الزواج من « هيتوم » « Hetoum » ابن الوصي على العرش قسطنطين اوف لامبرون . وبهذا الزواج ارتبط الروبينيون والهيتوميون بعضهم مع بعض أخيرا .

كان البيزنطيون والسلاجقة اقل تهديدا بالخطر في اواسط القرن الثالث عشر ، ومع ذلك كانت تواجه المملكة قوة كل من المغول والمماليك المتزايدة ، وكان الملك « هيتوم » المؤيد الرئيسي للتحالف الصليبي المغولي ، وزار بنفسه الخان الكبير في عام ١٢٥٣ . وقد هزم المصريون المغوليين عام ١٢٦٠ وكان

هناك خطر حقيقي على ارمينيا من المماليك الذين نهبوا وخربوا قسما كبيرا من البلد ، وفرضوا شروطا قاسية من اجل السلام . وتخلى هيتوم عن العرش عام ١٢٦٩ وواصل ابنه ليو الثالث من بعده التحالف مع المغوليين وترسخ لقبه ب « الخان » ، غير ان هزيمة الارمينيين المتحالفين والجيش المغولي عند حمص عام ١٢٨٢ عجلت في انحطاط ارمينيا ووقعت هدنة مرهقة وشاقة لمدة عشر سنوات مع مصر في عام ١٢٨٥ ، وبعد اربع سنوات خلف ليو الثالث ابنه هيتوم الثاني الذي كان حكمه مضطربا ليس لمجرد كرهه الملكية ومحاولاته التخلي عن العرش فحسب ، بل للنجاح المؤقت لثورة أخيه « سيمباد » الذي حصل على تأييد رئيس الكنيسة الارمينية والبابا « بونيفيس » الثامن . وتواصلت الهجمات المصرية بلا انقطاع برغم استمرار التحالف مابين ارمينيا والمغول ، وتخلى هيتوم عن العرش عام ١٣٠٥ لابن أخيه الذي اصبح اسمه ليو الرابع. وقد قتل ليو عام ١٣٠٧ على أيدي المغول وخلفه لاول مرة قسطنطين الاول ، ومن ثم أوشين . وفي عام ١٣٣٧ حكم المماليك معظم قيليقية وقضي على المملكة أخيرا في عام ١٣٧٥ .

مملكــة قبــرص

وصل ريتشارد الاول من انكلترا في السادس من ايار عام ١١٩١ مع اسطوله على مقربة من جزيرة قبرص . وفي نهاية شهر نيسان تحطمت عند شواطئها سفينة تحمل اخته « جوان » وخطيبته « بيرنفاريا » . وقد عوملت النساء معاملة سيئة من قبل حاكمها « ايساك كومنينوس » ابن الاخ الكبير للامبراطور مانويل الذي أسس دولة مستقلة في قبرص .

غضب ريتشارد من ذلك واستولى على الجزيرة خلال شهر ووقع « أيساك » أسيرا لديه ، وباع قبرص الى الداوية مقابل اربعين الف بيزنط الى جانب الوعد بدفع ستين ألف بيزنط من عائدات الجزيرة . ومع ذلك ارسل الداوية بعض الرهبان الاخوة مدراء الى الجزيرة مما أدخل الرعب في نفوس السكان . واسفرت الثورة التي قامت في نيسان عام ١١٩٢ عن قيام شكوك خطيرة بالنسبة للاخوية حول عملها الجديد ، ونتيجة لذلك قدمت قبرص

الى « غي دو لوزنيان » الذي فشل في اعادة اكتساب تاج بيت المقدس،ودفع اربعين الف بيزنط الى الداوية وتولى المسؤولية بدفع ستين الفا الى ريتشارد. وعندما دخل بلده الجديد في أيار عام ١١٩٢ وجد الكثير من الارض المهجورة التي يعود بعضها الى املاك الدولة القديمة ، لكن بعضها هجر حديثا من قبل اولئك الذين هربوا من مشاكل العام المنصرم ، فأعاد توطينها بمستعمرين من الشرق اللاتيني مكونا حوالي ثلاثمائة اقطاعة للفرسان ومائتين للرفاق في السلاح ، اضافة الى اعطاء المنح للمواطنين وغيرهم . وبهذه الطريقة توطدت السيطرة اللاتينية ، على الرغم من ان هذا السخاء قد أضعف مكانته الخاصة بشكل كبير .

توفي غي في عام ١١٩٤ وخلفه أخوه املريك الذي أصبح ملكا على بيت المقدس . وسد النقص في الخزينة الملكية عن طريق مطالبة تابعيه بقسم من أجورهم ، وفي عام ١١٩٧ استلم تاج قبرص من الامبراطور الغربي وأصبح بذلك أول مالك لقبرص . وقد ورثه ابنه « هيو » الاول (١٢٠٥ — ١٢١٨) الذي كان في سن العاشرة ، والذي توفي وهو مايزال صغيرا وانتقل العرش الى « هنري الاول » (١٢١٨ — ١٢٥٣) الذي كان في سن الثامنة . وقد كانت أمه « اليس » تتولى الوصاية ويساعدها في ذلك أعمامها فيليب وجون دو ايبلين.

وفي عام ١٢٢٨ تمزقت الجزيرة من جراء التنازع بين بارونية بيت المقدس وقبرص من جهة ، وبين الامبراطور فريدريك الثاني من جهة أخرى . ولم يكن هنري الذي كان بدينا ومترهلا ملكا قويا برغم تحرر الجزيرة من السيطرة الاسبتارية بعد عام ١٢٣٣ . وفي عام ١٢٥٣ جاء طفل آخر الى العرش اسمه « هيو » الثاني (١٢٥٣ — ١٢٦٧) ، وورث العرش من بعده «هيو» الثالث (لوزنيان) ملك انطاكية عام ١٢٦٧ وحكم في الفترة (١٢٦٧ — ١٢٨٤) ، وكان ابنا لايزابيلا شقيقة هنري الاول وشقيقة هنري ملك انطاكية الابن الاصغر لـ بوهمند الرابع . وكان على «هيو» تولي عرش بيت المقدس كما كان أولاده من قبله جون الاول (١٢٨٤ — ١٢٨٥) وهنري الثاني (١٢٨٥ — ١٣٢٤) الذي كان مصابا بالصرع . وفي عام ١٣٠٦ ثار قسم كبير من البارونية ضد هنري الثاني بقيادة أخيه املريك الذي حكم المملكة لمدة اربع سنوات . وواظب هنري

رفضه القبول بشرعية حكومة اخيه ونفي عام ١٣١٠ الى ارمينيا . لكن املريك قتل في ذلك العام وكان الملك قادرا على العودة الى السلطة .

ربما كان لقبرص تقاليدها الخاصة . ومهما يكن فان البارونية القبرصية كانت مؤلفة من الاسر نفسها والافراد كما هو الحال بالنسبة لبارونية بيت المقدس . وكان الاساس الذي استند اليه القانون القبرصي الاخير هو تلك الفكرة التي رأيناها سابقا تتطور بين الايبليين واصدقائهم والعلاقات فيما بينهم وتابعيهم . وكانت المحكمة العليا في نيقوسيا هي الهيئة الحاكمةالرئيسية التي انتخبت الملك والوصي على العرش . والتي تتمتع بالسلطان القضائيعلى النبلاء باستثناء القضايا التي تحفظ للمحاكم الكنسية او محاكم المواطنين . ومع ذلك فقد كان التاج في قبرص أقوى منه في بيت المقدس . لقد كانتالاقطاعات القبرصية وراثية لكنها كانت تعود للورثة الشرعيين من الهيئة . وكانت الممتلكات تعود الى الملك في حال عدم وجود وريث مباشر . ولم تتطور هناك اقطاعات كبيرة من الاراضي . وحافظ الملوك في الوقت نفسه على حقهم في وضع شعاراتهم ورموزهم على العملة .

وكما في سورية اللاتينية ، فقد شغل الافرنج المجالات العليا في المجتمع دون ان يبدلوا كثيرا في النظام الزراعي الاغريقي ، لكن السادة الاقطاعيين احتفظوا باراض ومبان عليها وطالبوا باعمال السخرة من فلاحيهم . . على عكس ما كان يجري في سورية . وازداد ازدهار المدن لتشجيع الملك نشاطات التجار الايطاليين الذين استقر بعضهم في قبرص . وفرضت الكنيسة اللاتينية على الجزيرة ، لكنها لاقت معارضة صلبة من الشعب اليوناني .

ظلت قبرص في أيدي اللاتين حتى عام ١٥٧٠ . وقد اشتهر مجتمعها في القرن الرابع عشر بشهامته وفروسيته في كل مكان من الغرب .

الفصل الخامس

فرسان السيد المسيح

لم يكن هناك مقدم لاخوية القديس يوحنا عندما خسر الصليبيون معركة حطين ومدينة بيت المقدس . فقد قتل » روجر دو مولان » في صفورية،وكانت ادارة الاسبتار في أيدي نائب المقدم « بورل » الذي كانت صور مركزا لقيادته. وفي تشرين الاول عام ١١٨٧ ، بعد ثلاثة اشهر من معركة حطين ، انضم اليه اخ ذو مرتبة عالية يدعى «ارمنفو دو آسب» وكان يحكم قلعة امبوستا في اسبانيا منذ اب عام ١١٨٠ ، وعين عام ١١٨٢ رئيسا لدير رهبان سان جيل ومديرا عاما للاسبتار في بروفنس والاراغون . ويبدو أنه استبدل في ديرسان جيل لفترة قصيرة عام ١١٨٥ ، لكنه عاد رئيسا للدير ثانية في نهاية العام نفسه . وكان ايضا يجمع بين هذا المنصب ومنصب حاكم قلعة امبوستا . كما يتضح بان « آرمنفو » كان مؤتمنا لدى الادارة العامة لكامل الاخوية في وقت ما،بعد شهر ايار وقبل تشرين الاول من عام ١١٨٨ . وقد اعتقد من خلال تاريخ المقدمين الموتى وجميع مؤرخي الاخوية بان ارمينفو أصبح مقدما للإسبتار . وبالنسبة لتاريخ المقدمين الموتى بأنه وثيقة محرفة يرجح بأنه تم تأليفها بعد اكثر من قرن من وقوع الاحداث المذكورة هنا . ولو اننا صدقنا ما ورد فيها لكان هو المقدم الديني الوحيد الذي تمتع بمنصب عال في الاخوية في تلك الفترة بعد استقالته او عزله لانه لم يعد مقدما دينيا في عام ١١٩٠ ، لكنه اصبح آمرا لقلعة امبوستا . ومن بين المقدمين السابقين كان جيلبرت دو آسايي، والفوسو البرتغالي ، و « فولك دو فيياريه » الذين يتضح بأنهم عاشوا بعد

انقضاء حاكمياتهم كرهبان عاديين فقط . وتجدر الملاحظة بان ارمينغو لم يسم نفسه مقدما دينيا في الوثائق بل مديرا للاسبتار الذي كان لقبا غريبا ، لكنه يمكن استخدامه جيدا من قبل موظف يحكم الأخوية مؤقتا . كما تأكد من ناحية اخرى بانه اتخذ لنفسه لقب « Custos » على ختمه الوحيد المتبقي ، وكان هذا اللقب لقبا حاكميا عاديا . ويجب ان يبقى غامضا فيما اذا كان مقدما او كان قد عين مديرا حتى ذلك الوقت ، نظرا لان المقدم ينبغي ان يكون منتخبا ، وبعد ذلك عاد الى وظيفته القديمة في اسبانيا بعد تسلم « غارنييه دو نابولي » الحكم .

أصبح « غارنييه » مقدما دينيا في أواخر عام ١١٨٩ او عام ١١٩٠ وربما كان عضوا هاما من اسرة ميلي الافرنجية التي احتفظت بلورديات(١) نابلس وما وراء نهر الاردن - « Oultrejourdain » وتوفرت مقدما دينيا للداوية . لقد كانت سيرته متميزة ويرجح بانه كان امرا لقلعة بيت جبرين من عام ١١٧٣ وحتى عام ١١٧٦ ، وعين بعد ذلك نائبا للمقدم وظل في منصبه هذا حتى عام ١١٨٤ او ١١٨٥ عندما اصبح رئيسا لدير رهبان انكلترا . ويبدو بأنه كان يجمع مابين منصبه كرئيس لدير رهبان انكلترا ومنصبه كنائب للمقدم في فرنسا أثناء انتخابه مقدما دينيا . لقد كان صعبا للاسبتارية) اختيار من هو أفضل منه لانه يجب ان يكون عرف ريتشارد جيدا ، بوصفه رئيسا لدير رهبان انكلترا الى جانب تعاطف الملك مع اخويته . وربما عاد ذلك الى علاقاتهم السابقة حيث اكتسب غارنييه بعض الشهرة أثناء الحملة الصليبية الثالثة .

لقد لعب الاسبتارية دورا هاما في المحافظة على بقاء سورية اللاتينية ، غير ان أمكاناتهم لانقاذ مدينة بيت المقدس ، التي كان المدافعون عنها يشعرون بتعذر الدفاع عنها أمام حصار المسلمين لها ، كانت قليلة . وقد وصلها « باليان دوابيلين » الذي نجا من معركة حطين قادما من صور ، وقد ناشده البطريرك وقادة الاخويات العسكرية للبقاء وقيادة الدفاع عنها ، لكنه رأى حالا بانه ليس أمامه سوى الاستسلام . وقد شارك الاسبتارية والداوية في المفاوضات التي تلت ذلك مع المسلمين . وكان بعض المال الذي وزعه ملك

(١) — اللوردية : المقاطعة التي يحكمها « لورد » .

انكلترا هنري الثاني استعدادا لحملته الصليبية موجودا في الاسبتار في بيت المقدس . وطلب بالين والبطريرك ووجهاء المدينة انفاق المال لصالح سكان المدينة عندما علموا بان صلاح الدين مستعد لافتداء سكان بيت المقدس . وبينوا بأن الداوية انفقوا نصيبهم من أموال هنري بغية حشد الفرسان من أجل « غي لوزنيان » قبل معركة حطين ، وهددوا بتسليم قائد الاسبتار الى المسلمين اذا لم يستجب لذلك ، ووافق القائد على تسليم المال بعد استشارة رهبانه . وعاد باليان الى صلاح الدين لترتيب الشروط النهائية ، وكان الاسبتارية والداوية حاضرين الاجتماع مع المدافعين حيث قبلت هذه الشروط ، وقد ناشد باليان في تلك الاثناء الاخويات والبطريرك والمواطنين الاغنياء لافتداء ماهو ممكن من الاشخاص . ولم تكن الاخويات كريمة كما ينبغي ان تكون ، لكن اللاجئين غادروا المدينة في ثلاثة أرتال على رأسها الداوية والاسبتارية وبالين والبطريرك . وقد سمح للاسبتارية بالبقاء في المدينة لمدة عام للعناية بالمرضى ، ومن ثم تم احتلال بيت المقدس من قبل جنود صلاح الدين الذين هدموا برج كنيسة الاسبتارية ، التي حولت الى مدرسة شافعية للمسلمين ، وأعطيت عام ١١٩٢ — ١١٩٣ من قبل صلاح الدين لابنه سكنا له أثناء اقامته في بيت المقدس .

ويبدو للوهلة الاولى بأن الاخوية لم تقاوم العدو كثيرا نتيجة لضعفها وانخفاض معنوياتها عقب الخسائر التي تكبدتها في حطين ، ولسقوط المدينة المقدسة . فقد استسلمت حاميتها في بيت جبرين بدون قتال بالشروط نفسها التي منحت للمدافعين عن بيت المقدس . وعلى كل حال فقد تم استردادها بسرعة ملحوظة . وقد كفلت بنيتها المركزية والتنظيمية المحافظة على النظام واطاعة الاوامر . وبامكان ممتلكاتها في أوروبا امدادها بالاسلحة ، والاحصنة ، والطعام والمال والتعزيزات . وكانت ارتباطاتها الوثيقة مع البابوية وحكام أوروبا تعني ان منظمة جمع الاموال ، الذي كان جاريا طيلة ستين عاما ، يمكن ان تبدأ العمل وان تطلب الصدقات وتتلقاها من المؤمنين . وكانت في هذا الوقت غنية جدا بالاموال النقدية بشكل غير اعتيادي لانها احتفظت لنفسها بجزء من الاموال المرسلة الى فلسطين من قبل ملك الانكليز .

لقد كان نواب مقدم الاسبتارية والداوية في صور في نهاية تموز عام ١١٨٧ الى جانب « كونراد مونتيفرات » الذي تولى قيادة القوات الصليبية. وقد استخدمت بقايا الاموال الانكليزية من قبل الاسبتارية في الدفاع عن صور، وساهمت الاخوية بثمانية آلاف بيزنط اضافة الى ذلك . وتم ابعاد اسطول اسلامي يحاصر المدينة بواسطة سفن مجهزة الى حد ما من قبل الاخويات العسكرية . وعندما أطلق سراح « غي دو لوزينيان » من قبل صلاح الدين رفض « كوزاد مونتيفرات » السماح له بدخول صور ، كان اخوة الداوية والاسبتارية موجودين في المجلس الذي قرر التقدم الى عكا ، واشتركوا في أول هجوم مضاد صليبي . وقد كانت قلاع الاسبتار الضخمة تقدم الكثير من اجل الدفاع عن سورية اللاتينية آنذاك . اما المرقب فقد كانت مزودة بالمؤن بشكل جيد ومنيعة تقريبا ، وقوية جدا أمام هجوم صلاح الدين ، الذي وجد صعوبة بالغة في تحريك جيشه على طول الطريق الواقعة اسفل القلعة ، برغم تدميره للمدينة الاسبتارية المجاورة لبانياس « Valenia » بحيث لاتتمكن من امداد القلعة باحتياجاتها . وفي أيار عام ١١٨٨ ظهر صلاح الدين أمام قلعة الحصن « Crac des Chevaliers » لكنه ادرك فورا بأنه لايملك القوة للاستيلاء عليها .

لقد كان دفاع قلعة كوكب « Belvoir » التي صمدت لاكثر من عام وحتى كانون الثاني عام ١١٨٩ هو اكثر الدفاعات بطولة . فقد كان بناء هذه القلعة غريباً بحيث بنيت اسوارها الداخلية والخارجية بشكل دائري ومتماثل وتشرف على نهر الاردن والطرف الجنوبي من بحر الجليل(١) . كما سيطرت عند نقطة التقاء طريقين على أحد أهم خطوط اتصال صلاح الدين . وقد فر ماتبقى من الاسبتارية بعد معركة حطين والرجال المصممون الذين شتتهم الحرب ، الى كوكب التي كانت مزودة بالمؤن بشكل وافر . وكان صلاح الدين مهتما جدا بالتحصير شخصيا لمهاجمة هذه القلعة، فارسل قائدا قديرا اسمه سيف الدين محمود لقطع الامدادات عنها ومنع المساعدة التي تنضم اليها من صور . احتل

---

(١) ـ بحيرة طبريا .

حاميه لكن المجاوره الاسبتاريه « Forbelet » « لفربلا » قلعه الدين سيف
كوكب اعترضت سبيل قافلتين اسلاميتين احداهما محملة بالغنائم التي كسبه صلاح الدين . وبعد ذلك وفي احدى الليالي العاصفة من شهر كانون الثاني عام ١١٨٨ وفي غفلة من الحرس السراسيني قام الاسبتارية المحاصرون باغارة عند الفجر ادهشوا المحاصرين واجتاحوا معسكرهم منزلين بهم اصابات شديدة وعادوا الى كوكب بأسلحة وغنائم مستولى عليها .

وبينما كان صلاح الدين عائدا من حصاره غير الناجح الى صور ، وصل نبأ هزيمة قواته فاهتز له ، وتملكه الغضب عندما علم بالمعاملة السيئة التي عومل بها قائده . وجعل من الاستيلاء على القلعة قضية شرف وأرسل في الحال قائد آخر هو قيماز الى قلعة كوكب مع خمسمائة فارس . وبعد ان سرح معظم جيشه تبعه الاول من شهر آذار واثقا من سهول الاستيلاء على القلعة . وعندما شاهدها أدرك أن القوات التي معه غير كافية وأن الحصار سيتطلب زمنا طويلا . فانسحب في أيار تاركا قيماز لمحاصرة القلعة مع خمسمائة رجل ، ويبدو ان قيماز قد حقق نجاحا أكثر من سابقه سيف الدين . حيث ذكرت رسالة مؤرخة في تشرين الثاني ١١٨٨ ، أرسلها اسبتاري ، تتضمن أنباء مقلقة اذ لم يسمع شيء عن قلعة كوكب .

وبحلول الخريف فرض صلاح الدين حصارا على قلعة صفد الداوية الواقعة الى الشمال . وظن الافرنج في صور بان الاستيلاء على صفد أن يجعل كوكب تصمد طويلا فارسلوا رتلا مؤلفا من مائتي رجل بقيادة ضابطين اسبتاريين للنجدة واعترض سبيل الرتل وتم اسر قائديه . وسقطت صفد في السادس من كانون الاول وانتقل صلاح الدين الى كوكب مع جيش ضخم ومجهز تجهيزا جيدا . وقد ارسل رسائل الى المدافعين عنها يعدهم بالحفاظ على حياتهم اذا استسلموا ، لكنه هددهم بالدمار في حال مقاومتهم له وقد رفضت شروطه ؛ وواجه صعوبات بالغة لان الفصل كان ماطرا ولتحول الأرض الى طين لزج بفعل تحرك الجيش المحاصر ، كما ان طبيعة تضاريس الارض جعلت من الضروري ان يعسكر المحاصرون قريبا من أسوار القلعة ، وكان على المسلمين دوما لباس الدروع خارج خيامهم لانهم كانوا ضمن مدى نبال وسهام القوس والنشاب

في الحامية . ومع ذلك خرق النقابون لدى صلاح الدين السور الخارجي وأمر السلطان القيام بسلسلة من الهجمات تحت غطاء رمي مركز من رماة سهامه . وكان جيشه يتقدم نحو السور الداخلي عندما عرض المدافعون عن القلعة الاستسلام مقابل الابقاء على حياتهم ، فوافق صلاح الدين واستولى على القلعة في الخامس من كانون الثاني عام ١١٩٨ .

لقد وصف دفاع كوكب العنيد بالتفصيل لان الكتاب المسلمين لم يشكوا في انه ساهم في الصعوبات التي واجهت صلاح الدين ، ولهذا الغرض ساعد في بقاء المملكة . وقد كانت انباء هزيمة سيف الدين مؤلمة لصلاح الدين كما لو كانت بسبب خيبة أمله لدى فشله أمام صور .

ومع ذلك فقد استغرق الاستيلاء على الارض فترة طويلة . ويعود الفضل الاكبر في بقاء سورية اللاتينية الى الاخويات العسكرية التي وجدت في كل مكان: في بيت المقدس ، في معاقلهم الضخمة ، في صور وأمام عكا . كما انفق الاسبتار كثيرا من أمواله الخاصة في سبيل المصلحة العامة للمستوطنة الفرنجية ، وكان عليه ان يجني ثمار ذلك في زمن الحملة الصليبية الثالثة .

وفي الثامن من أيار عام ١١٩١ نزل ملك انكلترا ريتشارد في قبرص يرافقه من انكلترا المقدم الديني الجديد للاسبتارية «غارنيية» من نابلس . وبعد الاستيلاء على الجزيرة ، أبحر « ريتشارد » الى سورية ووصل في الثامن من حزيران الى مواجهة عكا. وكان فيليب اغسطس الفرنسي في المعسكر الصليبي، واستسلمت عكا في الثاني عشر من تموز، وفي الحادي والثلاثين من الشهر نفسه غادر ملك فرنسا في أول مرحلة من مراحل رحلته الى الوطن . ومع ذلك قرر ريتشارد مواصلة التقدم الى بيت المقدس ولعبت الاخويات العسكرية دورا بارزا في الحملات التي نجمت عن ذلك .

وفي الثاني والعشرين من آب قاد ريتشارد جيشه خارج عكا . وشارك الاسبتارية والداوية في تحمل الاعباء الثقيلة للتقدم على الساحل . وقد اتضح أثناء تقدم الجيش من ارسوف صباح السابع من ايلول بان المسلمين سيواجهون معركة . واتجه الصليبيون لملاقاة السراسينيين، ووجد الاسبتارية الذين كانوا في المؤخرة انفسهم في الجناح الايسر من الجيش حيث وقع ثقل



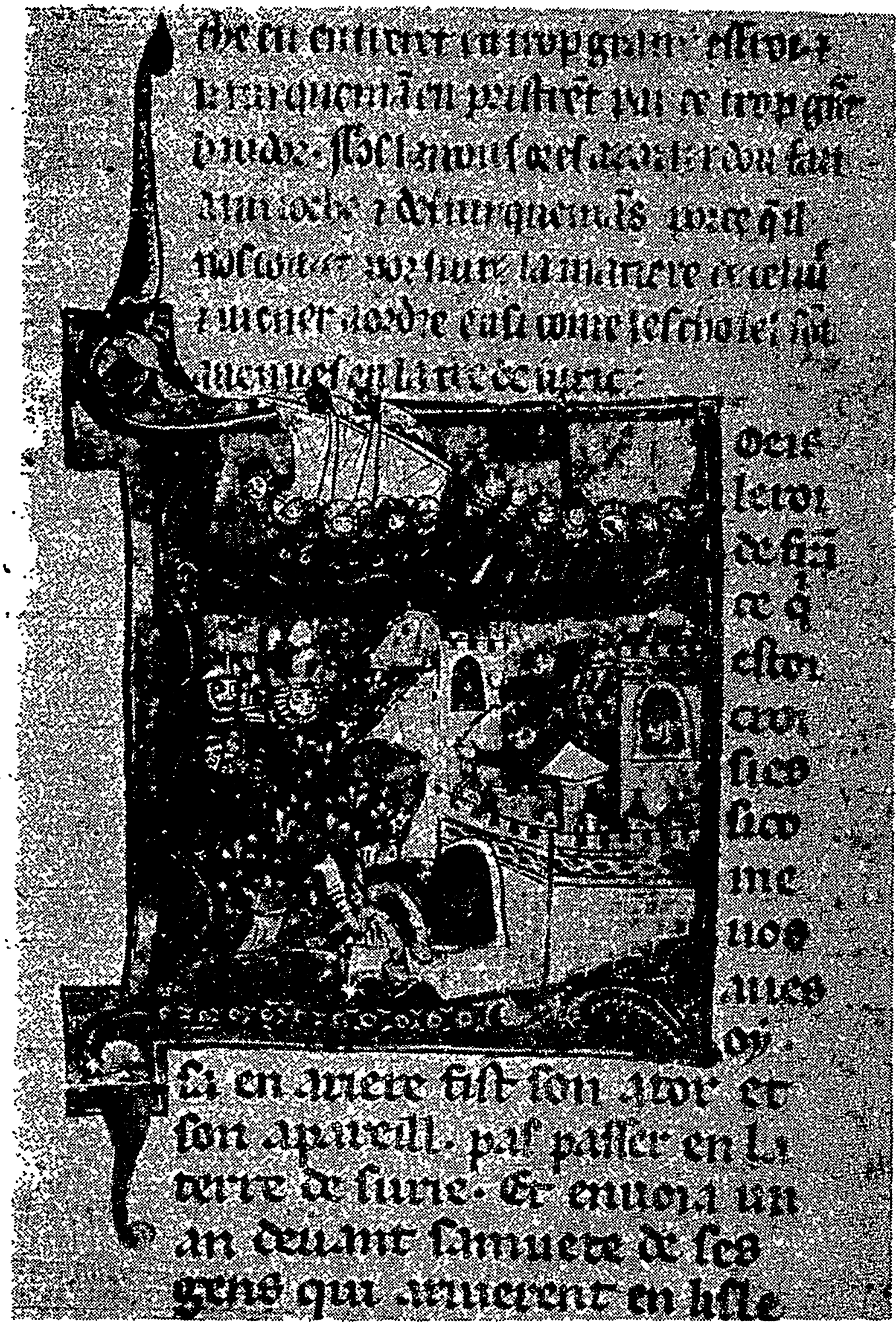
البوابة الرئيسية لقلعة كوكب

هجوم المسلمين عليه . فأمرهم ريتشارد بعدم الرد والثبات في أماكنهم حتى ترهق فرسان صلاح الدين التركية وتقع قوة الجيش الاسلامي الرئيسيـــة داخل مدى الرمي .

لقد ارسل « غارنييه » صاحب نابلس عدة رسائل الى ريتشارد يلتمس منه فيها السماح لرجاله بالرد بتهمة مضادة. فأمره ريتشارد بالتحلي بالصبر، لكن مقدم الاسبتارية ومعه رجل انكليزي يدعى «بالدوين كارو» لم يتحملا هذا التوتر اكثر من ذلك في النهاية . وهاجموا العدو وهم يصيحون باسم القديس « جورج » ، ولما لم يتمكنوا من احتواء بقية الجناح الايسر ، هموا احصنتهم خلفهم يتبعهم كامل الجيش . ووقع ارتباك في البداية. ووجد ريتشارد صعوبة في اعادة النظام فيما واصل المسلمون الاغارة على الصليبيين لكنهم خسروا المعركة ، برغم ان النتيجة لم تكن حاسمة كما يمكن ان تكون لو ان أوامر ملك انكلترا أطيعت كما ينبغي .

لقد شكلت الاخويات العسكرية قسما هاما من جيش ريتشارد طوال حملته ، واتضح بانهم كانوا مستعدين للخدمة في ظل قيادته ، ومع ذلك كان يترفع عن تقدير مشورتهم كقائد كبير ، وكان تخطيطه للمغادرة الى اوروبا في تموز عام ١١٩٢ باذنهم وموافقتهم . وقد اشيع بانهم هم الذين اقنعوه بالذهاب لنجدة يافا عندما وصلت الانباء عــن حصارها ، واقتناعه الاكثر بسيطرتهم يمكن ملاحظته في مجالس الحرب التي اعتبرت افضل الطرق للاستيلاء عــلى بيت المقدس .

لقد اقنع كل من الاسبتارية والداوية والبارونات السورية الملك بعدم مهاجمة المدينة المقدسة ، وبينوا استمرار وجود جيش تركي في تلال اليهودية « Judaeam » واحتمال قطع شبكات الطرق عليها ، في حالة قيام القوة الصليبية كلها بالحصار حيث ستجد نفسها تقاتل على جبهتين . ومع ذلك فلو تم الاستيلاء على بيت المقدس لاتم الصليبيون رحلتهم وتبدد الجيش ولم يبق من الرجال مايكفي للاحتفاظ بالمدينة،ولاصبحت الحالة في سورية اللاتينية اسوأ مما كانت عليه لا افضل منها ، كما ان رد فعل بعض الصليبيين على تلك



الملك لويس التاسع أمام دمياط ١٢٩٤

الخلافات ليس غريبًا . وقد غضب الفرنسيون كثيرا من انعقاد مجلس آخر في الرابع عشر من كانون الثاني . وأوصى الاسبتارية والداوية والسوريون اللاتين في هذا الموضوع باسترداد حصون عسقلان التي دمرها صلاح الدين، بحيث يمكن الاشراف على الطريق من مصر الى بيت المقدس واعتراض سبيل قطارات الامداد والتعزيزات الاسلامية . وقد وافق المجلس على الاخذ بهذا الرأي برغم شروع الفرنسيين في التخلي عن الجيش الصليبي .

لقد شهد ذلك الصيف انعقاد آخر مجلس حرب لمناقشة الاستيلاء على بيت المقدس ، وكان الجيش في بيت نوبا « Bethnoble » وانضم اليه الفرنسيون من جديد وألحوا على الهجوم . وقد القى ريتشارد خطابا بين فيه كم كان متأثرا بالقادة المحليين ، وقال بأنه لن يتهم بالتهور وان صلاح الدين علم بوضع جيشه وسيقطع الامدادات كما أنه لايملك العدد الاضافي الكافي من الرجال لكي يحاول الاستيلاء على مدينة محصنة بشكل قوي . وقال بانه ومعه الصليبيون يجب ان يعتمدوا ، كغرباء ، على مشورة أولئك الذين عرفوا البلد ولديهم ممتلكات فيها ويرغبون في استعادتها . ونظرا لعدم تأكده مما سيفعله شكل لجنة مؤلفة من عشرين شخصا لتحديد العمل المستقبلي ، وكانت هذه اللجنة تضم خمسة من كل أخوية عسكرية وخمسة من السوريين وخمسة من البارونات الفرنسيين . واقسم الجيش على اطاعة قرار اللجنة ، لكن الفرنسيين رفضوا التعاون بصراحة عندما علموا بأن اللجنة أوصت بغزو مصر. ووعد ريتشارد في محاولة يائسة اخيرة للحفاظ على وحدة جيشه بمحاصرة بيت المقدس اذا لقي هـذا العمل تأييدا عاليا . وانعقد اجتماع في معسكر الاسبتارية ، وسرعان مالوحظ بأن الاقتراح مآله الفشل ، ويتضح من ذلك بأن لدى الاخويات العسكرية والبارونات السوريين تقويما صحيحا الحالة . فقد خشي صلاح الدين من الهجوم على بيت المقدس لان لديه الدليل على قيام هجوم صليبي على مصر .

كما كان هناك دليل آخر على يقظة الاخويات وحذرها فيما بعد عام١١٩٢، عندما كان ريتشارد مريضا ويتوق الى العودة الى أوروبا ، واستدعى ممثليه بالاضافة الى « هنري شامبين » للمثول أمامه في يافا . لقد كان صريحا معهم

وكان مريضا جدا لأيستطيع مواصلة حملته الصليبية وينبغي ان يعود الى عكا . وامرهم بتولي أمر العناية بعسقلان ويافا لكنهم رفضوا بحجة عدم قدرتهم حماية تلك الحصون بمفردهم بدون جيشه ، فكان السبيل الوحيد امام ريتشارد على ان يطلب شروط السلام من صلاح الدين ..

وتعكس المشورة التي قدمت أثناء الحملة الصليبية الثالثة الموقف العام للاخويات العسكرية في القرن الثالث عشر . فهي عادة تعتبر بمثابة هيئة استشارية في الشؤون العسكرية ، ليس لمجرد خبرتها مع المسلمين فحسب بل لتجربتها مع الصليبيين أيضا . وحالما يذهب الصليبيون، وهم عادة يغادرون بسرعة ، فمن المشكوك فيه ان يتم التمسك بالاراضي التي تم الاستيلاء عليها حديث بالقوة البشرية المتوفرة . ويبدو برغم ذلك بان الاسبتار كان واحدا من مؤيدي ريتشارد الموثوقين كثيرا، لان غارنييه كان يقوم بمهمات يستحيل اداؤها بدون الثقة بالملك الانكليزي . وتفاوض غارنييه في أول اجتماع له مع حاكم قبرص « ايساك كومنينوس » لدى وصول ريتشارد اليها عام ١١٩١ . شجب ايساك الاتفاقية المبرمة مع ريتشارد مما أدى الى الاستيلاء على جزيرته وأسره. ومنح الاسبتارية في المرقب أمر العناية به بعد موت حارسه الاول . وقد أرسل غارنييه أثناء حصار عكا من قبل ريتشارد لبدء مفاوضات سلام مع صلاح الدين، وليس غريبا لهذا السبب بان الاخويات العسكرية اتخذت أهمية جديدة اثناء الحملة الصليبية الثالثة . فقد رأينا بانه قيل بان ريتشارد كان يخطط في تموز عام ١١٩٢ لمغادرة سورية باذنهم . كما تضمنت اقتراحاته السلمية الى صلاح الدين في الخريف السابق فقرة تضمن استرداد ممتلكاتهم . وكانوا من بين اولئك الذين عملوا لصالح ريتشارد عندما تم التفاوض اخيرا من اجل عقد هدنة مع المسلمين . ومع ذلك فقد كان هناك دليل مادي على تعاظم قوتهم السياسية.

لقد بدأ « غي دولوزينيان وكونراد مونتيفرات » يتنازعان على المملكة فور اطلاق سراح غي من قبل صلاح الدين . واتضح بان الاسبتارية أيدوا كونراد في البداية برغم حرصهم على عدم مخاصمة غي . وهناك ، من ناحية ثانية ، بعض الدلائل على ان الاخويات العسكرية غيرت من تأييدها اثناء الحملة الصليبية، حيث كان الداوية يؤيدون كونراد والاسبتارية يؤيدون «غي» وربما أدى ذلك الى نشوب

الصراع بين الرهبان انفسهم . كما يمكن ان تكون العلاقات الوثيقة بين مقدم الاسبتارية وريتشارد بتعليمات من انكلترا هي السبب في تحول الولاء والتأييد لان ريتشارد تحيز لمطالب غي . وقد تفاوض الملوك الزائرون من أجل ابرام اتفاقية بين المتنازعين تقرر بمقتضاها وجوب تسليم عائدات ملكية خاصة الى الاخويات العسكرية ، حتى تحسم مسألة وراثة العرش نهائيا .. وليس هناك اي شك في اهمية هذا القرار برغم ان العائدات التي ذكرت في هذه الاتفاقية كانت نظرية اكثر منها عملية . فقد كان الاسبتارية والداوية يتولون بعض المسؤوليات الادارية المركزية عندما حصل تغير في الحكومة . ووضعت حصون الملك والعائدات الملكية آنذاك في ايديهم عام ١١٨٥ . وينبغي على المرء الحرص على عدم المبالغة في مركزهم في وقت كانت فيه السلطة السياسية الفعالة يمارسها الملوك الصليبيون القادمون . لكن الاخويات العسكرية منحت أثناء النزاع السياسي ، قسما من الأموال الملكية وبهذه الطريقة تولت القيام بمنصب في الحكومة .

توفي « غارنييه » صاحب نابولي في الاشهر الستة الاخيرة من عام ١١٩٢ . وفي كانون الثاني من عام ١١٩٣ خلفه « جوفري دو دونجون » الذي كان راهبا عاديا في سورية عام ١١٨٥ لكنه ربما كان خازنا للاخوية أيضا ونائبا للمقدم لمنطقة « اوتريمر » « Outremer » لفترة قصيرة ، ويحتمل ان تكون حاكميته قد استمرت حتى اواخر عام ١٢٠٢ . كما وجد الاسبتار نفسه مجرورا في ظل ادارته الى الحرب الاهلية التي نشبت بسبب وراثة امارة انطاكية ، في حين أصبحت الخلافات حول أراضيه مع الداوية مشوبة بالعنف . لقد كانت تلك التطورات دليل شؤم ، لكن الاخوية مارست سلطة معينة في مملكة بيت المقدس أثناء حكمه وحكم خلفه من بعده .

وبموت « كونراد مونتيفرات » ، تزوجت « ايزابيلا » اميرة بيت المقدس من هنري شامبين الذي أصبح بموجب ذلك حاكما للمملكة ، لكن « غي » كان ما يزال مطالبا بالعرش برغم انه كان يحكم قبرص آنذاك . واكتشف هنري

عام ١١٩٣ بان تجارا بيازنة(١) من صور كانوا يخططون لكسب السيطرة على المدينة لمصلحة « غي » فاعتقل قاذة هذه المؤامرة ، وأمر بتخفيض خجم الكوميونة ، ونفاهم من عكا عندما انتقم البيازنة بالاغارة على القرى الساحلية. وتدخل املريك لوزينيان ، شقيق « غي » الذي كان مايزال كندسطبلا لبيت المقدس الى جانب البيازنة وسرعان ما القي القبض عليه مباشرة . وقد توسط له الاسبتارية والداوية والبارونات ونجحوا في الافراج عنه . وقالوا بانه كان رجلا عظيما يستطيع ان يلحق ضررا كبيرا في حال اثارته ودفعه للتمرد .

لقد كان المقدمون الدينيون لكلا الاخويتين في عام ١٢٠٢ يقدمون المساعدة للموفدين البابويين الرسميين للتوسط في النزاع حول وراثة العرش في انطاكية، وهو نزاع انجذبوا اليهم أنفسهم وذلك حول من سيؤول اليه العرش . لكنهم مارسوا نفوذهم بتعيين حاكم جديد لبيت المقدس في ذلك الحين . لقد توفي « هنري شامبين » عام ١١٩٧ وكانوا مسؤولين بشكل كبير عن تنصيب زوج ايزابلا وهو « املريك لوزينيان » ملكا على قبرص آنذاك ، وقد توفي املريك نفسه عام ١١٩٧ ، ولم تعش ايزابيلا طويلا بعده ويبدو بان الاسبتارية والداوية لعبوا دورا رياديا في المجلس الذي قرر بان ماريا ، ابنتها من كونراد مونتيفرات، هي الوريثة الشرعية للمملكة وعهدوا بماريا والحكم الى وصاية «جون ايبلين». وفي عام ١٢٠٨ كان الاسبتارية والداوية ورهبان من اخوية عسكرية جديدة هم الفرسان التيوتون حاضرين لاجتماع النبلاء الذي قرر تكليف فيليب اغسطس باختيار زوج لماريا التي بلغت سن الزواج انذاك . وقد بدأ البابا انوسنت الثالث ومن خلفه من بعده بالتطبيق العملي لطلب وتلقي تقارير دورية من السلطات في سورية والداوية والاسبتارية عن الحالة في سورية . كما انه مع من جاء بعده قد منحوا الاخويات العسكرية مسؤولية كبيرة في تحديد كيفية توزيع الاعانات المالية لسورية اللاتينية والاستفادة منها .

وقد لعب الاسبتارية عقب معركة حطين دورا كبيرا في الدفاع عن المستوطنة اللاتينية . وكانت قدرتهم في ذلك ليست نتيجة لتنظيمهم الجيد وامتلاكهم

---

(١) ــ نسبة الى مدينة « بيزا » الايطالية .

ممتلكات في أوروبا تزودهم بالحاجات الضرورية فحسب، بل لانهم كانوا يمتلكون كمية ضخمة جدا من الاموال الجاهزة في وقت كانت الحاجة اليها شديدة جدا، فاستفادوا من حقيقة فقر البارونية لهذه الاسباب . لقد كانت الثروة تعني القوة وهذا هو سبب عجز طبقة النبلاء الفقيرة علـى تحدي قوتهم المزايدة ، والدليل في هذا المجال هو الكلام الذي قاله ممثلو الداوية والاسبتارية في المجلس الذي عقد أثر موت هنري شامبين . فقد قيل عن رالف، صاحب طبريا الذي اقترح زوجا لايزابيلا بأنه ليس غنيا بشكل كاف . وحتى الكونت هنري لم يكن يجد مايأكله أياما عديدة برغم كل ثروة شمبانيا Champagne التي يملكها. « فكيف يمكننا اعطاء الارض الى رجل لا يملك شيئا بالاصل اذا كان الرجل الـذي بكل مايملكـه في شمبانيا غير قادر على حكم المنطقـة والسيطرة عليها ؟ اننا سنعطيها بمشيئة الله الى الرجل الذي سيحكم المنطقة » . لقد تزايد تحول أنظار البارونات الى قبرص أكثر فأكثر بحيث يمكنهم تعويض ممتلكاتهم الضائعة هناك وغادروا سورية الى الاخويات العسكرية .

لقد أصبحت الطبيعة العملية والفجائية لسلطة الاخويات واضحة اثنـاء هـذه الفترة ، وستناقش هـذه المسألة فيما بعد لكنني أظهر هنا مدى تزايد قوة الداوية والاسبتارية السياسية وفقا للمراحل التي قابلت أزمـات في الحكم أثناء غياب القيادة الحازمة عن المملكة ، كالوضع القلق الذي تلا موت بالدوين الرابع ، والخلاف بين غي وكونراد حول العرش ، وموت هنري شامبين ووصاية جون ايبلين على العرش بعد موت املريك الثاني .

كما ينبغي النظر الى اعتماد الملك ريتشارد على الاخويات العسكريـة بحيث لم يفعل بدون رأيهم الا القليل ودون مخالفته بأي عمل أبدا . فقد كانوا من بين الذين اقسموا العهد الى جانبه في هدنته مع صلاح الدين ، كما انهـم ائتمنوا على قسم هام من عائدات المملكة المستقبلية اثناء اختلاف « غي » مع كونراد على المملكة . كما تزايدت سلطتهم السياسية خلال الحملة الصليبية الثالثة بشكل ملحوظ ، ولم تكن ترتكز هذه السلطة كثيرا على محاولة واعية،

بقدر ما كانت تستند الى حقيقة انهم الوحيدين الذين يملكون الثروة والتنظيم لاخذ زمـــام المبادرة في حال فقر البلد ، وغياب القيادة المتفق عليها في وقت من الاوقات .

لقد خلف الفونسو المقدم الديني « جوفري دونجون » وربما كان الابن الطبيعي لملك البرتغال الفونسو الاول ، ويبدو بانه كان مقيما في اوروبا. واول ظهور له كان في فرنسا عام ١٢٠٣ ، حيث كان مقدما دينيا ويحتمل بانه كـــان في طريقه الى سورية لانه ربما كان قد وصل الى عكا في تموز من عام ١٢٠٤ . ولم يذكر شيء عـــن حياته لكنه لايوجد مايدعو إلى الاعتقاد بأنه كان رجـــلا علمانيا قبل ان يصبح مقدما دينيا . ومـــع ذلك فقد كانت حاكميته قصيرة وانتهت بوقوع أزمة . لقد كان هناك تقليد بين الاسبتارية عام ١٢٩٩ خسر «الفونسو» : الذي ظل محافظا على ممتلكاته بمقتضاه حاكميته عندما دعا لعقد اجتماع عام لرجال الكنيسة ، الى قلعة المرقب في امارة انطاكية،لان الدعوة الى مثل هذا الاجتماع خارج مملكة بيت المقدس كانت مخالفة لعادات الاخوية. وقد ساد الاعتقاد في القرن الرابعشر بانالفونسو اما ان يكون قد كره قوانينالمرقب، أو أنه أصدر أمرا الى رهبنته ، وان هيئة الكهنة رفضت اطاعته فاستقال من منصبه وفقا لذلك . وربما كانت هذه عناصر من التقليد نفسه،اذ انعدمالموافقة على القوانين ، وعدم اطاعة الدير كانا مرتبطين بدعوة هيئة الرهبان الـــى المرقب . وقد توقف عن ممارسة منصب المقدم الديني عام ١٢٠٦ بالتأكيد وتوفي في البرتغال في الاول من آذار من العام التالي ، وقيل بأنه قتل بالسم من قبل بعض أفراد أسرته الخاصة .

ويبدو بأن القوانين التي صدرت مابين عام ١٢٠٤ وعام ١٢٠٦ أو العام التالي على الارجح ، صيغت بعبارات شديدة . ومع ذلك فقد كانت ذات أهمية بالغة وتم النظر اليها كدستور ثان . كما أنها أبرزت ظهور الاسبتار كأخوية عالمية تعتمد على كل من المقدم الديني والدير وهيئة الرهبان الى جانب قيامه بوظيفـــة مزدوجة هي العنايـــة بالمرضى وممارســـة الحرب . وقد وطدوا طريقـــة الانتخاب وسلطـــة المقـــدم الديني والموظفين الكبار وخطـــة عمـــل الاجتماع العام لرجال الكنيسة والحياة العادئة .والنظام الداخلي والعنايـــة

بالرهبان المرضى والتنظيم المحلي . كما أنهم لم يكونوا أصيلين جميعا اذ أن العديد منهم كان يمنح العرف والعادة سلطة تشريعية ، وربما كانوا متأثرين في هذه الناحية بالنشاط التشريعي المماثل الذي حصل في مملكة بيت المقدس والذي أفضى الى كتاب قانون الملك .

وقد ظل النشاط التشريعي متوقفا قرابة ستين عاما ، كما تسب الى مصادرهم ، ولا توجد لدينا قوانين عن الفترة مابين عام ١٢٠٦ وعام ١٢٦٢ . وبالرغم من وجود أدلة على ضياع القوانين الاكليركية ، يجب الافتراض ان هيئة الرهبان العامة قد اصدرت عددا قليلا من القوانين قبل عهد حاكمية « هيو ريفل » . كما يبدو بأن المجلس الكنسي « Lateran Council » الرابع الذي أدى الى نشاط داخلي كبير ، والى اعادة تنظيم أخويات أخرى ، لم يترك اثرا على بنية الاسبتار . وربما كان الاصلاح في هذا الوقت خاضعا لاهتمامات اخرى ، فقد كان الاسبتارية غارقين في الحرب مع الاسلام ، وفي سلسلة من النزاعات مع الهيئة الحاكمة في سورية اللاتينية ، وفي نزاع أهلي في انطاكية وبيت المقدس . ومع ذلك فهي دليل على أهمية قوانين عام ١٢٠٦ ، بحيث تستطيع الاخوية التطور بدون اصلاحات أخرى حتى ستينات القرن الثالث عشر .

ومع ذلك فقد كان النصف الاول من القرن الثالث عشر فترة شهدت قيام البابوية بكثير من النشاط التشريعي لصالح الاخوية . ففي عام ١٢١٦ أعاد البابا «هونوريوس» الثالث تنظيم اعلان الايمان ملغيا بذلك الاختلاف الكبير في أداء القسم الذي يتعهد بموجبه الرهبان بالاخوة ، وأصدر قرارا يلغي قبول الاخذ بالقسم بدون اذن المقدم الديني باستثناء ماكانت تؤكد عليه هيئة الرهبان . وبعد عشرة سنين فوض اسقف قيسارية بتنظيم عمل أولئك الذين أصبحوا ببساطتهم رهبانا بشكل غير قانوني في سورية اللاتينية . في عام ١٢٤٨ اذنت روما بتغييرات في لباس الرهبان وكذلك في عام ١٢٥٩ . وسمحت في مناسبات كثيرة اخرى ، عام ١٢٥٠ ، باسترداد الممتلكات المحولة خطأ من قبل الاخوية . وفي عام ١٢٥١ وافق البابا انوسنت الرابع على قرارات رؤساء الاديرة المحليين ، كما أعفى في العام التالي وبموافقة هيئة الرهبان رئيس دير « هنغاريا » من قانون الصمت اثناء الطعام . ولم يكن اعتماد الأسبتارية الواضح على البابوية من أجل اصلاحها

ناجحا تماما ، فهناك دليل بانها وقعت في الفوضى في منتصف عام ١٢٣٠ . كما أمرهم البابا غريغوري التاسع عام ١٢٣٨ في وثيقة بابوية صيغت بلهجة شديدة باصلاح انفسهم في غضون ثلاثة أشهر . ولم يعرف شيء عن نتائج ذلك . ومن المؤكد هو ان الاخوية لم تبق طويلا بدون حظوة ، وان معرفة ان الاخوة كانوا يساعدون الامبراطور فريدريك الثاني في وقت كانت فيه الكنيسة والامبراطورية منفصلتين ، ربما جعلت غريغوري يعبر عن نفسه بكلمات قاسية وشديدة .

ـ لقد كشفت قوانين المرقب عن تطورين هامين داخل الاخوية . اولهما هو انهم ميزوا مرحلة في انحطاط السلطة الحاكمية . وقد حددت سلطات المقدم كما تم تخفيضها ، فقد كان مقيدا بعد عام ١٢٠٦ بقسم كفل بموجبه ادارة متعاونة ، ولم تكن له اية سيطرة مباشرة في تعيين موظفيه . لكن تلك القوانين هي ذاتها التي أوجدت الاسبتار كأخوية عسكرية أخيرا . وقد تبدلت الظروف منذ تحذيرات البابا ضد حمل السلاح في القرن الثاني عشر . فقد مارست الاخطار التي كانت تهدد سورية اللاتينية وكان الدور الهام الذي لعبه الاسبتارية في الدفاع عن المستعمرة بعد عام ١١٨٧ دورا متصلبا . ولم يستطع الافرنج في الشرق الاستمرار بدون تعهد الاخوية العسكرية ، وقد اعترفت البابوية بذلك عام ١١٩١ . « **من لايكبر قوة الله التي تزدهر وتحيا بقوة في الاخوية المذكورة وفي نفوس الاخوة الرهبان حيث يعزز الكثير منهم بالسلاح يوميا ، ويحسن الى العديد من الفقراء ، كما ويستقبل العديد منهم في التكية** » . وقد منحت هيئة الرهبان العامة في المرقب المنظمة العسكرية في الاسبتار اول سلطة تشريعية . وقد بينت القوانين واجبات وتجهيزات « المارشال » والاخوة الرهبان تحت السلاح، وبموجب ذلك تم اعدادهم من أجل تطورات هامة في القرن الثالث عشر .

لقد شاهدنا كيف تكونت في القرن الثاني عشر طبقة عسكرية ، كانت صغيرة في بادىء الامر ، ثم تعاظم حجمها وشأنها ، وانعكس استمرار تعاظم هذه الجماعة في ظهور منصب «المارشال» في القرن الثالث عشر . كما في الوقت نفسه،

واستجابة لضغوط اجتماعية انقسمت طبقة الاخوة الرهبان المسلحين الى فرسان والى سرجندارية تحت السلاح ، واحتكرت طبقة الفرسان الوظائف الهامة .

لقد كان المارشال مسؤولا عن جميع الاخوة الرهبان تحت السلاح ، ولم تكن له سلطة على الاخوة الرهبان المكلفين بالمهمات المدنية والاخوة الموجودين في الخدمة الذين كان يترأسهم نائب المقدم . وعندما نمت الطبقة العسكرية ازدادت بالمقابل سلطات المارشال . وفي عام ١٢٠٦ ، كان المقدم يرسل الدعوة الى المارشال عندما يريد دعوة هيئة الرهبان الى اجتماع عام . وقد خضع جميع اولئك الاخوة الذين سموا أنفسهم رهبانا الى اوامره في منتصف القرن الثالث عشر . لهذا يمكننا القول بان الرهبان المسلحين هم وحدهم الذين كان ينظر اليهم آنذاك على أنهم رهبان ، لان نائب المقدم لم يفقد أيا من سلطته على الاخوة الرهبان القائمين بالخدمة ، كما كان الاخوة المسلحون هم وحدهم القادرين على الجلوس (بوصفهم اعضاء) في اجتماع رجال الدين في الكنيسة ، وتقرير عمل الدير ، ولم يعد للرهبان المدنيين القائمين بالخدمة اية سلطة حقيقية .

لقد اظهرت قوانين المرقب ولاول مرة وجود فئتين من الفرسان والسرجندارية ، وقد وضعت هذه القوانين أسس متطلبات جعلهما فرسانا اخوة ، على الرغم من كون هذه القوانين غير دقيقة . وسوف نجد في فصل لاحق كيف صيغت هذه القوانين ، وكيف أنه في سبعينات القرن الثالث عشر لم تكن تسند الوظائف الهامة سوى لطبقة الفرسان . وقد كان لتلك التطورات الاجتماعية المؤدية الى حكم الاخوية من قبل النبلاء الاوروبيين ، تأثير هام على دستورها ، ويبدو ان الافكار البارونية اثرت على مركز المقدم الديني في اواخر القرن الثالث عشر ..

ويمكن بعدئذ وصف الاسبتار بالاخوية العسكرية عام ١٢٠٦ . وقد اتخذت الواجبات والمهمات التي انجزها في سورية ثلاثة اشكال . فقد شارك الاسبتارية في الحملات وعمليات الحصار التي قام بها الفرنج،ورافقوا الفرسان

الصليبيين في الاغارات (اغارات الخيالة) على الاراضي الاسلامية . وقدموا الى القادة الصليبيين رأيا يستند الى تجربتهم الخاصة ، وشاركوا في الدفاع عن المدن الصليبية والقلاع وتسلموا المسؤولية أحيانا عن أجزاء من الحدود . لقد اعتمد معيار تعهد الاسبتارية على ثروة الاخوية وقدرتها العسكرية . وقد انسحبت عام ١١٥٧ من اتفاقية عسكرية لانها لم تستطع تنفيذها ، ولانها افلست تقريبا في عام ١١٧٠ نتيجة طموحاتها العسكرية ، ولم تكن الشكاوى من الفقر التي اعلنها المقدمون الدينيون الذين جاؤوا في القرن الثالث عشر مبالغ فيها كثيرا كما ظنتها المعاصرون . ومع ذلك فقد أصبح الدفاع عن الارض المقدسة مبررا لوجود الاخوية ، وتوحي نشاطاتها بأنها كانت مهيأة لمواجهة التزاماتها على نطاق كبير .

وسنبحث فيما يلي بنية القوات الاسبتارية : ففي سورية ، يبدو بأن الاخوية لم تكن قادرة ابدا على دعوة أكثر من ثلاثمائة راهب مسلح وفارس وسرجندار . لكن هذه القوة كانت تعزز بالاتباع والمرتزقة وبعدد كبير من التركوبول او من الخيالة الخفيفة الوطنية ومن الفرسان الاوروبيين السرجندارية الذين يخدمون كمأجورين لقاء دفع أجورهم . وفي الحملات الهامة كان ينضم اليها الداوية ، والفرسان التيوتون ، وعدد من البارونيات السورية والحلفاء المسلمين .

لقد اوضح عمل احد العلماء حديثا التاريخ العسكري للقرن الثاني عشر ، لكن القرن الثالث عشر بقي بدون أن يسبر بشكل كاف . ويمكن تقسيم حملات الافرنج الى نوعين . ان حشد جيش المملكة يتم بغية تهديد تقدم العدو او لكسب الارض وكانت طرق القتال في كلتا الحالتين هي ذاتها ، وغالبا ماكان الصراع في العصور الوسطى يدور حول امتلاك القلاع ، ولا يعتبر الغزو قد حقق أهدافه الا بالاستيلاء على المراكز القوية ، وكان الغزو المعادي أيضا لايواجه الا بتهديد الجيش الهادف الى محاصرة تلك المراكز القوية . ويمكن تسمية مثل هذا النوع من الحرب بالحرب المباشرة لان أهدافها تنحصر في الاستيلاء على أراض أخرى او احباط خطط العدو على أراضيه . وهناك ، من ناحية ثانية ، نوع آخر

من الحملات هو الاغارة المسلحة (اغارات الخيالة) التي يتم القيام بها بدون الميل الى الاستيلاء على الارض ، ولكن بقصد الحصول على نتائج غير مباشرة وطويلة الامد ، بحيث يضعف الدمار الناجم عن الاغارة العدو او يجبره على الاعتراف بخصمه ويكون عادة على شكل دفع جزية . وقد كانت الحملات في الجنوب عموما وحتى عام ١٢٥٤ من النوع الاول ، لكن حدة الصراع خفت ، بعد حملة القديس لويس الصليبية ، واقتصرت على سلسلة من الاغارات التي لم تحقق الا النذر القليل من النجاح . ويبدو بأن الصليبيين في الشمال قاموا طوال القرن الثالث عشر تقريبا بسلسلة من الحملات الصغيرة ، لم يتعد الهدف منها أكثر من فرض الجزية تقريبا .

لقد ساهم الاسبتارية في معظم حملات القرن الثالث عشر الهامة ولعبوا دورا في الحرب بين ارمينيا وقونية السلجوقية عام ١٢٠٩ ، وفي هجوم الفرنج على جبل طابور في الجليل عام ١٢١٧ . كما رافقوا الحملة الصليبية الخامسة، وحملة فريدريك الثاني ، وساعدوا في تحصين قيسارية عام ١٢١٨ . كما قاتلوا في معركة غزة التي وقعت عام ١٢٤٤،وفي غزو القديس لويس لمصر . وساهموا أيضا في الهجوم على بانياس عام ١٢٣٥ ، وفي تحرير قلعة اليوم « Casttlum Album » عام ١٢٥٤ . وقد دافعوا عن المملكة في العام التالي ضد الهجوم الاسلامي ، وذهبوا في شهر تشرين الثاني مع ادوارد ملك انكلترا لمحاصرة قلعة « كاشو » « Cacho » .

كما أنهم امدوا كواكب الفرسان بالجنود وسنرى بأن سياستهم العدوانية في الشمال كانت ترتكز على هذا الشكل من الهجوم . وشاركوا في الجنوب في غارة انتهازية نظمها املريك الثاني عام ١٢٠٣ في الجليل . ونفذوا تحت قيادة « جون جونيفيل » اغارة قرب يافا عام ١٢٥٢ . وفي عام ١٢٦٤ اتحدوا مع الداوية في شن اغارة على «الليجون Lijon » قرب مجدّو « Megiddo »، وانضموا الى حملة «جيوفري دو سارجان» في منطقة عسقلان ، التي كانت تهدف الى ضمانة تحرير « جيرارد بينيكني » حاكم يافا ، فخربوا البلد وأثناء عودتهم قاتلتهم قوة من المسلمين وأجبرتهم على الفرار . وفي ايلول من العام نفسه وصل « اوليفر دو ترمز » الى عكا مع جنود فرنسيين وهاجم في شهر تشرين

الثاني الى جانب الاخويات العسكرية ، ودمر بيسان وعاد محملا بالغنائم . وفي عام ١٢٦٦ قاد «هيو دو لوزينيان»الاخويات العسكرية ومعها الجنود الفرنسيين نحو طبريا ، وكانت صفد قد سقطت قبل ذلك بعام ، وكان الجليل في أيدي المصريين تقريبا . وقد تركت طليعة الجيش ، المتدفقة بتهور بحثا عن الغنائم، مسافة كبيرة تفصلها عن الجزء الرئيسي من القوة الصليبية ، فهوجمت وهزمت هزيمة منكرة عند الخروبية « Caroublièr » من قبل حامية صفد ، وتم ذبح من نجا منهم على أيدي الفلاحين المسلمين المحليين أثناء الليل . ووصل ادوارد أمير انكلترا الى فلسطين في أيار عام ١٢٧١ ، واشترك مع الداوية والاسبتارية في الاغارة ، وعاد بغنائم كثيرة برغم تكبده بعض الاصابات .

وقد كانت القوات التي تقدمها الاخويات العسكرية خاضعة للنظام نسبيا ، وغالبا ماكانت موضع ثقة . وكانت قوات المسلمين تستخدم تكتيكات تركية تتضمن مهاجمة اجنحة ومؤخرة الجيش المعادي ، وقد تولى الاسبتارية المؤخرة على مراحل معينة من التقدم من عكا في الحملة الصليبية الثالثة،وكانوا في المؤخرة عندما فرض المسلمون عليهم المعركة في « ارسوف » . وفيما هم على ميسرة الصليبيين تحملوا وطأة هجمات صلاح الدين . لقد كان الداوية يتولون طليعة الجيش أثناء اغارة الفرنج على الجليل عام ١٢٠٤ ، بينما كان الاسبتارية يتولون مهمة المؤخرة حيث صدوا هجمات المسلمين أثناء عودتهم. وقد قام الاسبتارية في بعض الاحيان بتولي طليعة الجيش كما حدث أثناء الاغارة على الجليل عام ١٢٦٦ . وكان توليهم لمراكز هامة في الجيوش الصليبية عادة مثبتا عن طريق حدث وقع عام ١٢٦٧ ، عندما كان بيبرس يتطلع الى مباغتة مدينة عكا فحمل رايات الداوية والاسبتارية أمام جنوده .

ان التقارير عن المعارك والاشتباكات التي شاركت الاخويات فيها تعتبرهم عناصر مستقلة في جيش الفرنج ، برغم اتحادهم في أغلب الاحيان مع القوات بغية تشكيل جزء من الجيش . لكنهم وبرغم استطاعتهم الامتناع عن تأييد الحملات التي تتم خارج الولايات اللاتينية ، كما فعل الداوية عام ١١٦٨ ، كانوا عادة يطيعون القائد الصليبي القادم . وقد نفذوا أوامر ريتشارد أثناء الحملة الصليبية الثالثة وقبلوا حتى سلطة الامبراطور فريدريك الثاني . وهم يتبعون

جيشه الذاهب الى يافا وبيت المقدس . وحضروا مجلسا عقد من أجل اعادة تحصين المدينة المقدسة . وقد طرحوا خلافاتهم أمام « ريتشارد كورنول» الذي وصل الى فلسطين في ذروة خلافاتهم ، حول العلاقات مع الولايات الاسلامية ، ولم يتنازعوا علنيا حتى بعد رحيله . وكان القديس لويس قادرا على التسوية بينهم عند وصوله فأمر مقدم الداوية بشكل ديكتاتوري بوقف التفاوض مع مصر عام ١٢٤٨ ومع دمشق عام ١٢٥٩ ، ومن الواضح أن أوامره قد نفذت في الحالتين . كما أمر الاخويات بمرافقة « جون جونيفيل » الى يافا عام ١٢٥٢ ، وقد نصحوه بالعدول عن القيام بمهاجمة نابلس لان الارض كلها ستضيع في حال حدوث أي شيء له .

كان الداوية ومعهم الاسبتارية يقدمون المشورة في الشؤون العسكرية للقادة الصليبيين في أغلب الاحيان . وقد جسدت الاخويات ، كمؤسسات ، تجربة وخبرة المسلمين التي لم يحظ بها الا القليل ، وذلك برغم امكانية تصرف بعض الاشخاص بينهم بشكل متهور . لقد رأينا بأن الاسبتارية تحالفوا مع المسلمين منذ عام ١١٥٧ ، وكانت لهم علاقات مع مصر وان موقفهم من المسلمين صدم الالمان عام ١١٩٧ . وقد كان الكثير من الولايات الصغيرة في الشمال أثناء القرن الثالث عشر خاضعا لهم ، واستطاع الاخوة الرهبان التكلم بالعربية عام ١٢٥٠ . وقد اندفع رهبان من الاخويات العسكرية لمساعدة الفلاحين عندما بدأ صليبيون ايطاليون سكارى بذبح الفلاحين المسلمين في عكا ، واستطاعوا انقاذ بعضهم . كما حذر مقدم الداوية قبل سقوط طرابلس وقبل الحصار الاخير لعكا عن طريق صديق مسلم من الاقتراب من العدو لكنه لم يصدق ذلك . وكان الاسبتارية يشاركونه في أغلب الاحيان التفاوض من أجل تحرير الصليبيين الذين أسرهم المسلمون ، وقد افتدى تاجر دمشقي عام ١٢٦٦ رجالا من المسلمين تم أسرهم في قلعة الحصن وكانوا علاوة على ذلك عارفين بسياسات العالم الغربي جيدا . وتظهر الرسائل بأنهم لم يعرفوا ماكان يجري ضمن حدود العالم الصليبي فقط ، بل ادركوا ضرورة ابقاء الولايات الاسلامية مجزاة بغية الاستيلاء على سورية . وهناك دراسة مفصلة متبقية عن امكانية مصر العسكرية والجغرافية ، كتبت في السنوات الاخيرة لسورية اللاتينية ، بناء على طلب الاسبتارية .

وليس غريبا مشاركة ممثلي الاخويات العسكرية الدائمة في مجالس المملكة التي كانت تبحث طبيعة العلاقات مع المسلمين . فقد حضروا اول مجلس حرب عقده آملريك الثاني عام ١١٩٧ عندما قرر الهجوم على بيروت ، ومجلس عام ١٢١٠ الذي رفض اعادة تجديد الهدنة مع مصر . كما انهم شاركوا في المباحثات التي تلت عروض السلام المصرية ابان الحملة الصليبية الخامسة . وسوف نرى بأن الاسبتارية الذين لم يرضوا عن الاتفاق مع دمشق التي تم التفاوض عليها بواسطة «ثيوبالد اوف شامبين» ، دخلوا في مفاوضات مع مصر واجبروا عام ١٢٤٤ على الموافقة على حلف مع دمشق ، وكانوا من بين اولئك الذين ترتب عليهم وضع خطة عمل بعد خرق المسلمين للاتفاقيات المعقودة عقب فشل حملة القديس لويس الصليبية في عكا . لقد وافقوا على عقد هدنة مع مصر عام ١٢٥٥ ، والتصديق عليها في العام التالي ، لكنهم رفضوا شروط السلام التي اقترحت عام ١٢٦٣ . وفي عام ١٢٨١ انضموا الى بوهمند صاحب طرابلس في ابرام اتفاقية مع مصر . وقد كان الاسبتارية والداوية بين ممثلي الفرنج الذين توصلوا الى اتفاق مع السلطة نفسها عام ١٢٨٣ . وكان أحد الاسبتارية عضوا في وفد اللاتين الذي تفاوض مع المصريين عام ١٢٩٠ .

ولم تكن مشورتهم سياسية دوما بل استراتيجية وتكتيكية أيضا. كما أنهم لعبوا دورا في تحديد أهداف الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة على نطاق واسع ، وحضروا المجلس الذي انعقد من أجل الحملة الصليبية الخامسة الذي قرر بناء سدود للابقاء على ارتفاع منسوب مياه النيل ، لكنهم عارضوا التقدم الى داخل مصر في آب عام ١٢١٩ ، وشاركوا في مجلس الحرب الذي انعقد في مصر عام ١٢٥٠ ، والذي قرر اجتياز (البحر الصغير) الى المنصورة، لكنهم رفضوا الهجوم عليها الذي قام به « روبرت ارتوز » . واغار آملريك الثاني على الجليل عام ١٢٠٤ بناء على نصيحتهم . وقد حاولوا تخفيف اندفاع « كونت اوف بار » Count of Bar » قبل معركة غزة عام ١٢٣٩ . وفي عام ١٢٥١ حصّن القديس لويس قيسارية تنفيذا لمشورتهم ، وفي عام ١٢٥٣ ساعدوا في حصار بانياس . وقد اثنتهم ابنة ملك الاراغون ، من ناحية ثانية ، عن شن هجوم متسرع على جيش بيبرس الذي كان يتربص مقابل عكا عام ١٢٦٩ .

ان أعظم خدمة قدمتها الاخويات العسكرية للقضية الصليبية كانت امتلاكها ودفاعها عن القلاع . فقد استلزم النجاح العسكري احتلال مراكز قوية لانه لا يمكن السيطرة على الارض بشكل دائم ما لم يتم سحق مثل هذهالمواقع. ومهما كان الجيش الاسلامي قويا فان امتلاك الصليبيين لقلعة او اثنتين يعرقل تقدمه ، وحققت القلعة علاوة على ذلك مهمات عديدة حيث كانت وسيلة للدفاع ومكانا للانسحاب والتأمين ضد الاحتلال . كما كانت سلاحا للهجوم نشر النفوذ الصليبي فوق مناطق لم يتم الاستيلاء عليها . وكانت مركزا اداريا يضمن الحكم السلمي والفعال وجمع الرسوم الجمركية والضرائب من المنطقة التي تسيطر عليها . لقد اتخذت الواجبات التي قامت بها الاخويات شكلين هما : مشاركة الحكام في الدفاع عن المدن او القلاع الهامة وكسبوا قلاعا بحكم حقهم الشخصي ، وتولي المسؤولية عن أجزاء من الحدود أحيانا .

لقد ساعد الاسبتارية أثناء الازمات العسكرية في الدفاع عن المدن والقلاع الكبرى في سورية : مثل بيت المقدس وصور عام ١١٨٧ ، وطرابلس عام١٢٨٩، وعكا عام ١٢٩١ . وفي عام ١١٨٥ منحوا الى جانب الداوية الوصاية على القصور الملكية أثناء وصاية ريموند صاحب طرابلس على العرش . كما قاموا بحماية قلعة انطاكية خلال الحرب الاهلية التي اندلعت في أوائل القرن الثالث عشر ، لكنهممنحوا ايضا قطاعات من التحصينات بغية الصمود الدائم،وشاركوا بذلك في تحمل مسؤوليات ونفقات الدفاع عنها . لقد شاهدناهم عند كرك ، وقلعة هونين ، وبانياس ، وصيدا لكنهم أقاموا برجا قويا على أسوار عسقلان قبل عام ١١٨٧ ، وبرجا عند يافا عام ١١٩٤ . وكانت لهم تحصينات معقدة كاملة عند عكا ابان اعادة الاستيلاء عليها من قبل الحملة الصليبية الثالثة ، ومنحوا بوابة في طرابلس عام ١١٩٦ ، وامتلكوا برجا على اسوار المدينة عام ١٢٨٩ وربما امتلكوا نصف اللاذقية في عام ١٢٦٢ .

والاكثر اهمية من المساهمة في تحمل النفقات ومهمات حماية مدن المشرق، كان كسبهم لقلاعهم الخاصة ومناطق الحدود . وقد منحوا بيت جيرين جنوبي فلسطين عام ١١٣٦،وتولوا عام ١١٤٤ المسؤولية عن جزء من حدود طرابلس

وعلى القلاع : قلعة « بوشي » « Bochee » ، وقلعة الحصن ، وفيليسيوم ، ولاكوم ، ومرج دابق (وحصلوا فيما بعد على : عرقة) ، وجبل عكار ، وطوبان بينما مارسوا حقوقا نظرية على بعرين ورفنية وحمص ، وربما تولوا الدفاع عن حدود انطاكية الشمالية البعيدة عن بلاطة « Platta » ومنحوا المناطق الجنوبية الشرقية من الامارة الى جانب قلاع الروج « Ruge » ، وشقيف، وروشفورت « Rochefort » ، وربما الشغر – بكاس « Shaghr Bakas » ، وطالبوا بآفاميا ، وأبو قبيس « وبسرفوت » « Basarfut » ، وبمكان يسمونه « لاكويا » « Lacoba » ، ويحتمل ان يكونوا قد طالبوا ايضا بأرزغان « Arzghan » والحويجة « Huwajah » . وفي عام ١١٨٦ كسبوا قلعة المرقب كما كسبوا قلاع ابراهيم وبوبوس وربما « ايركيوم » « Ericium » ومدينة « فالينيا » « Valenia » وحقوقا نظرية على القدموس « والعليقة » « Al - Ullaigah » « والمنيقة » « Manigah » . كما يجب اضافة القلعتين اللتين كانتا بحوزة الاخوية في هذه المنطقة الى كل هذه القلاع حول المرقب ، وهما بويضة ويلدا وربما أضيفت « كورفيس » Corveis التي تم تحصينها بالتأكيد في تاريخ لاحق . لقد شاهدنا بأن تلك المكتسبات كانت في اغلب الاحيان مصحوبة بامتيازات جعلت أعباء المسؤولية العسكرية جديرة بالاهتمام ، كما واصلت الاخوية في القرن الثالث عشر كسب اصقاع كبيرة من الأرض بشروط مرضية .

اعطيت مدينة جبيل « Gibel » للاسبتار من قبل « ريموند روبين » صاحب انطاكية في عام ١٢٠٧ ، وأضاف القلعة القديمة «Chateau de la Vieille» عام ١٢١٠ الى هذه الهبة ، فقد كان غير قادر على السيطرة على جبيل حتى عام ١١٢٨ عندما سلمت المدينة والقلعة القديمة الى الاخوية مع حق السلطة القضائية والسيادة الكاملة . وكان الاسبتارية لايدينون بالولاء للسيد الاقطاعي . وكانت لهم حرية التعامل مع المسلمين بالشكل الذي يرونه مناسبا، كما كانوا قادرين على عقد السلام او اعلان الحرب على الدويلات الاسلامية المجاورة ، وكان ينبغي مراقبة قراراتهم من قبل الامير ورجالاته ، لكن انطاكية ذاتها كانت موضع تنازع حولها ، وكانت جبيل قد اعطيت ايضا الى الداوية

من قبل « بوهمند » صاحب طرابلس ، ويحتمل بأن تكون منحتا ريموند وبوهمند مكافآت مقابل مساندة الاخويات . لقد خرج بوهمند من الحرب الاهلية منتصرا وسوف يتم وصف النزاعات التي تلت بين الاخويات فيما بعد، تلك النزاعات ، التي تفاقمت بسبب متاخمة أراضي هذه الاقطاعة مع أراضي المرقب . وقد استولى الصليبيون على جبيل في القرن الثالث عشر على مراحل.

ففي عام ١٢١٠ كان الاسبتارية يساندون الجانب الارميني في الدفاع عن انطاكية ، وقدموا العون الى الملك « ليو » في الحرب ضد السلجوقيين . ومن الواضح ان « ليو » خطط لدفع الاسبتارية للتقدم الى الغرب من قيلقية « Cilicia » كحاجز ضد الاتراك مضيعا حقوقا على أماكن خارج السيطرة الارمينية للاسباب نفسها كما فعل حكام انطاكية وطرابلس. فقد أعطى الاخوية مدينة « سيليفكه » « Selcfkie » وقلاع « كمرديسيوم » « Camardesium » وحصن «هونين» وحقوقا على «كرمان» « Karaman »التي كان يستولي عليها الاتراك آنذاك . وكان الاسبتار حرا في عقد السلام او اعلان الحرب على كرمان برا وبحرا، ولم يكتف «ليو» بالزام نفسه بتأييد هذه الاعمال فحسب، بل بخرق أية اتفاقيات ابرمها مع المسلمين عندما يتطلب ضمان أمن الاخوية ذلك . وكانت جميع الغنائم التي يستولي عليها الاسبتارية تعود لهم وحدهم فقط سواء أكان الملك حاضرا أو لا .

وفي الجنوب ، كان انتصار المصريين على الفرنج وانصارهم عند غزة عام ١٢٤٤ هو بداية النهاية . وتدفق المماليك في السنوات التالية على حدود المملكة الجنوبية . وقد لعب الاسبتارية دورا هاما في الدفاع عنها وكانت القلعة في عسقلان قد أعيد تحصينها من قبل « ريتشارد كورنول » في عام ١٢٤١ ، وعهد الامبراطور فريدريك الثاني بها الى الاخوية في عام ١٢٤٣ ، ووعد بضمان اعادة نفقات أجور صيانتها الضرورية . وتملك الاسبتارية القلعة في نيسان اعتبارا من عام ١٢٤٤ ، وشرعوا في ترميمها وتحسين تحصيناتها مباشرة . وفي عام ١٢٤٧ حاصرها الجيش المصري وطلبت المساعدة من عكا وقبرص. وقد أبعدت عاصفة مفاجئة الاسطول المصري المحاصر بعيدا ، وحررت

عسقلان بواسطة اسطول من السفن الشراعية وعدد كثير من السفن الخفيفة التي تحمل معها الذخائر والتعزيزات بقيادة « بلدوين دو ايبلين » ، قهرمان قبرص. لكن العاصفة التي دمرت السفن المصرية كانت من حظ المحاصرين الذين كانوا قادرين على جمع الاخشاب من حطام السفن وبناء آلات حصار . وتم نقب سور القلعة بواسطة الكبش(١) ، مما اذهل الحامية وأدى الى سقوط القلعة في الخامس عشر من تشرين الاول ، وتم قتل معظم المدافعين عنها او أسرهم وكانت الخسارة ثقيلة على الاخوية ، ولم تسو مسألة تعويض نفقاتها حتى عام ١٢٥٧ .

كانت اقطاعة ارسوف تقع الى الشمال من عسقلان ، ولم تعد اراضيها محجوبة عن انظار المسلمين، واصبحت تشكل الحدود بين المسلمين والصليبيين. وفي عام ١٢٦١ أعطى « باليان صاحب ايبلين » الاخوية ريعا مقداره ٤٠٠٠ بيزنط مقابل ربع ثابت قدره ألف بيزنط اسلامي . ويبدو من هذا بأنه كان جزءا من اجراء مالي معقد ، استأجر الاسبتار بموجبه القلعة والمدينة وحق السيادة على ارسوف مقابل أربعة آلاف بيزنط اسلامي سنويا . ونحن نعرف أننا سنستلم في شهر أيار خدمة اقطاعية مكان « باليان » من الاتباع في الاقطاعة، ولهذا الغرض ينبغي ان تتولى ادارتها والدفاع عنها . وفي عام ١٢٦٣ تمتعت الاقطاعة بصلاحية فرض العدالة . وبدأ الاسبتارية في الوقت نفسه بادخال التحسينات على دفاعات المدينة ، فاتهمهم بيبرس بخرق اتفاقية معقودة معه تتضمن فقرة تمنع بناء تحصينات جديدة . وفي اذار من عام ١٢٦٥ ظهر بيبرس امام ارسوف التي كانت محمية ومزودة بالمؤن بشكل جيد وتدعم من البحر ومعززة بالفرسان العلمانيين من عكا ، فأمر بيبرس مهندسيه بأعمال النقب تحت المدينة فورا برغم فشل محاولة ملء الخندق باغصان من الخشب لان الحامية فتحت النار عليهم ، وكسحت الالغام وأسلحة الحصار اسفل

(١) ــ الكبش : أداة خشبية ذات رأس يشبه رأس الكبش ، يستخدم قديما لدك الاسوار وفتح ثغرات فيها . (المترجم)

الاسوار . وقد سقط الجزء السفلي من المدينة في السادس والعشرين من نيسان، بعد قتال عنيف . وبعد ثلاثة ايام استسلم قائد الحامية بشرط مغادرة الحامية بأمان ، فرفضت شروطه واقتيد أكثر من الف رجل أسرى كان بينهم عدد ضخم من الرهبان . وفي عام ١٢٦٩ أعاد الاسبتارية السلطة الى « باليان » الذي تخلى عن الريع العائد اليه ، ووافق علاوة على ذلك على تعويضهم .

ويبدو ان الاراضي التي تم الحصول عليها بمبادرة الاسبتار قد حققت مهام الدفاع عن الحدود كتلك التي قامت بها الادارات السابقة . وفي هذا السياق تعتبر ارسوف بحد ذاتها مسألة هامة، وكذلك كان الامر بالنسبة للمرقب . وكانت قلعة كوكب « Belvoir » تهاجم باستمرار من قبل المسلمين بشكل لا يدع مجالا للشك في اهميتها الاستراتيجية . وينبغي التأكيد بان الدوافع خلف منح تلك المناطق للاسبتار لم تكن محض دفاعية ، ويوضح ذلك وجود اراض خارج نطاق السيطرة الصليبية تلك . فلم تكن الحكومة تتخلى في تلك المسائل عن واجباتها في الدفاع فقط بل عن مسؤوليتها في مهاجمة المسلمين ، وتوسيع حدود العالم المسيحي ، وسوف نرى كيف ان الاسبتارية نفذوا هذه السياسة العدوانية . كما ان القلاع الاسبتارية ، فضلا عن ذلك ، لم تقم جميعها بوظائف عسكرية ، برغم فقدان الممتلكات الموجودة داخل حدود المملكة في بداية عام ١١٨٧ ، وسوف يجدون أنفسهم معرضين للخطر بعد عودة استيلائهم ومع اقتراب القرن الثالث عشر . وهنالك برج يقع الى الشمال من قلعة بيت جبرين كان بمثابة حدود للمستوطنة ، لكن كفربلا القريبة من كوكب كانت ذات اهمية عسكرية بالتأكيد . وكان جبل طابور ينظر اليه كقلعة هامة برغم كونه مركزا اداريا لمجموعة ضخمة من الممتلكات ، وخططت الاخوية في عام ١٢٥٦ لحمايته بواسطة أربعين فارسا ، ويعتبر هذا العدد كبيرا اذا ماقورن بعدد الفرسان الستين المكلفين بحراسة قلعة الحصن في الوقت نفسه . وربما تم الاستيلاء على قلاع معينة لتضاف الى قوة الاسبتارية في المنطقة المعرضة للخطر مثل « ايكسيرك » « Eixserc » و « فونتينس » « Fonteines » في كونتية طرابلس ، كما يبدو بأن قلاعا اخرى كانت مراكز قلاع أكثر ضخامة . و «بوريا» الواقعة اسفل جبل طابور هي المثال على ذلك . وينبغي ، ريثما يظهر دليل

آخر ، اعتبار معظم القلاع مراكز ادارية وربما خالية لمعظم الوقت برغم ان ضعف سورية اللاتينية بيّن امكانية دعوتها للقيام بمهمات عسكرية أوقات الإزمات وهي : شقيف «ارنون» « Bellfort » ، وقلعة « بلمونت » « Belmont » ، وقاعة « بلفير » « Belveer » ، وقلعة « عمواس » « Emmaus » ، وقلعة « كولا » « Chola » ، وقلعة « قلنسوة » « Kalansue » ، وقلعة « سان جوب » « St. Job » ، وقلعة « توريكلي » « Turriclee » وقلعة « مانويث » « Manueth » ، وقلعة « توريس سالينارون » « Turris Salinarum » وقلعة « تل الاوبيتال » « Lator de L'opital » وقلعة « كاستروم رو بروم » Castrum Rubrum وقلعة « كولياث » Coliath ، ولو كامل « Le Camel » ومرقية ، وكلاهما يتولى الاسبتارية ادارتهما لفترة قصيرة قبـل عام ١١٩٩ ، وقلعـة « لاث وتوريس بير تراني ميلونيس » Lath and Turris Bertranni Milonis وربما « اراميس » « Arames » وقلعة « بوفونيس » « Bovonis » ، وقلعة «غوفيرة» « Gouvaira » .

لقد استولى الاسبتارية في وقت من الاوقات على ٥٦ قلعة تقريبا في كـل من فلسطين وسورية . وليس غريبا في ان كتاب قانون الملك حظر على ملوك بيت المقدس تحويل ملكية القلاع لصلاح الدين،كما أن الكلمات التي يفترض بأن احد حكـام ارمينيا في القـرن الثاني عشر قالهـا لملـك فلسطين مشهورة : **« عندما أتيت الى بلدكم وسألت لمن تعود القلاع ، قال لي البعض بأنها تعود الى الداوية وقال آخرون بأنها عائدة للاسبتارية،وآخرون لجبل صهيون .وهكذا لم استطع ايجاد اية قلاع او مدن او قرى عائدة لكم باستثناء ثلاثة في حين تعود كلها الى الاخويات الدينية »** . ومن بين القلاع الاسبتارية ، على أية حال، كان بعضها أصغر من الابراج بقليل،وقد تم الاحتفاظ باحدى عشرة منها لوقت قصير . ومن الصعب تقويم هـذا الامر لكنه يمكننا الافتراض بأن الاخويـة استولت في عام ١١٨٠ على خمسة وعشرين قلعة من أحجام مختلفة ، وعلى تسعة وعشرين في عام ١٢٤٤ ، عشية معركة غزة .

ومن الممكن تحديد سياستين ثابتتين لكنهما مختلفتين اتبعهما الاسبتارية تجاه الدويلات الاسلامية في القرن الثالث عشر . ففي الشمال ، تاخمت قلاعهم

القوية في المرقب وقلعة الحصن أمارات اسلامية شبه مستقلة نادرا ماكانت تتحد . وكانوا يتمتعون في تلك السلطات الكبيرة بامتيازات منحهم اياها امراء انطاكية وكونتات طرابلس،واستطاعوا التصرف كفوة مستقلة يعقدونالاتفاقيات او يخرقونها ، وغير ملزمين باية طريقة بالتقيد بالاتفاقيات المعقودة مع الامير او الكونت ، كما طالبوا بأراض واقعة خارج نطاق السيطرة الصليبية . وكانت الاتفاقية المعقودة بين فريدريك الثاني ومصر عام ١٢٢٩ تعتبر دائما على انهـا كانت ضربة قاسية للصليبيين في الولايات الشمالية . فقد استثنيت انطاكية وطرابلس من السلام ولم يتقيد الامبراطور بتقديم المساعدة لهما . غير ان حقيقة عدم تقيدهما باتفاقية سلام يجب أن يكون قد ناسب الاسبتار الذي كان سلوكه نحو الجوار المسلمين عدوانيا لفترة طويلة . وقد وصف احد المعاصرين قلاع الاسبتار في الشمال بانها كانت في حالة حرب دائمة .

لقد هاجم الاسبتارية بعرين(١) في الاعوام ١٢٠٣ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٣ في ١٢٣٤ . وفي عام ١٢٣٣ شعرت بعرين بأنها مهددة كثيرا عندما ضمت الـى مدينة حماة ، لكن حماة نفسها هوجمت في أعوام ١٢٠٤ ، و ١٢٣٠ و ١٢٣٣ عندما شنت عليها حملات مشتركة لاجبارها على دفع الجزية . وكانت حمص التي كانـت تسمى ناقـة الفرنجـة « The la chamele of the tranks » وقد هاجمها الاسبتارية عام ١٢٠٨ وعام ١٢٦٥ . وكان بوهمند صاحبطرابلس يخطط مع الاسبتار لحملة ضد اللاذقية في عام ١٢٠٥ ، وكانت تلك المدينة قد وقعت بأيدي الصليبيين في عام ١٢٦١ بمساعدة الاخويات العسكرية ، وكان الاسبتارية قد نظموا في عام ١٢١٣ حملة ضد حمص وحماة بعد ان تلقوا مساعدة من عكا وقبرص وقيليقية « Cilicia » ، لكنه تم التخلص مـن الحملة قبل القيام بدفع الجزية ، وفي العام التالي حضر المقدم الديني حصار قلعة الخوابي التابعة للحشيشية . وفي عام ١٢٣٠ اخفق الفرنج ، وكذلك الداوية والاسبتارية، في الاستيلاء على جبيل على الرغم من تغلغلهم في المدينة واستيلائهم عليها بضعة اسابيع قبل اخراجهم منها . وفي عام ١٢٣٣ اجرت الاخويات الترتيبات اللازمة

---

(١) ـ يطلق عليها الصليبيون اسم : « Montperrand »

للسيطرة على عقد الاتفاقيات وتنظيم الحملات في المناطق المجاورة وقد استردت جبيل في عام ١٢٦١ . وبعد خمس سنوات قدم الداوية نصف المدينة التابع لهم الى بيبرس ، وذلك بغية عقد اتفاقيـة تحمي أراضيهم حول قلعة البوم وطرسوس . ولم يمنع المسلمين من الاستيلاء عليها سوى تصميم الاسبتارية والمساعدة التي ارسلها أمير انطاكية فقط . وفي عام ١٢٣١ شنت الاخويـات العسكرية هجوما ناجحا على منطقة الحشيشية لجمع الجزية المترتبة عليهم بالقوة ، وكان الاسبتارية منشغلين بالحرب ضد حلب في عام ١٢٤٢ .

ويبدو بأن القليل من تلك الحملات كانت قوية بشكل يكفل تحقيق نتائج مؤكدة ، فيما كانت بقية الحملات هي عبارة عن اغارات خيالة ، وكان واحدا من أكثر الوقائع المؤثرة في النفس هو عدد المرات التي شرع فيها الاسبتار باغارات من هذا النوع لفرض الجزية بالقوة . وفي عام ١٢١٢ كانت مدينة حلب وكذلك الحشيشية يدفعون الجزية للاسبتارية في المرقب . وقد شك بوهمند الرابع في الاخوية التي كان الحشيشية يدينون لها بدفع الجزية عندما قتلوا ابنه في كاتدرائية طرسوس عام ١٢١٣ . وقد كانت الاخوية تستلم في عـام ١٢٢٠ الجزية من بعرين وربما من حمص التي ألغيت في الاتفاقية المعقودة مع مصر التي انهت الحملة الصليبية الخامسة . كما هوجمت حماة في عامي ١٢٣٠ و ١٢٣٣ لفرض الجزية بالقوة ايضا .

كان الحشيشية في عام ١٢٢٧ ما يزالون يدفعون الجزية الى الاسبتار ، وقد ارسل الامبراطور فريدريك الذي كان يستعد للقيام بحملة صليبية مبعوثا توصل الـى عقد اتفاقية معهم رفضوا على أثرها دفـع الجزيـة للاسبتارية معتمدين على حاميهم الجديد . وذكر الرهبان ان الامبراطور نادرا ماكان يحفظ عهوده مع الحشيشية فلجأ الى استخدام القوة ضدهم . ولم يكن الموقف قد تحسن عندما ذهب الحشيشية الى حلب مقترحين (بدليل رسالة امبراطورية) عقد معاهدات مـع فريدريك لانها برأيهم أكثر نفعا للمسلمين مـن العلاقات الطيبة مـع الاخويات العسكرية . ومع ذلك كانوا مايزالون يدفعون الجزية في عـام ١٢٣٦ ، عندما كانوا متحالفين مـع الاسبتاريـة ضـد بوهمند ، وارسلوا في أواخر عام ١٢٥٠ بعثـة الـى القديس لويس تطلـب منه أن

يصدر الاوامر الى الداوية والاسبتارية لالغاء الجزية التي أجبروا على دفعها، وقد علق احد شهود العيان بانه كان على الحشيشية ان يدفعوا ، وأنهم لن يكسبوا شيئا بقتلهم لمقدمي الداوية والاسبتارية ، لانهم يعرفون جيدا بانه سيتم تعيين غيرهم في حال قتلهم .

وفي عام ١٢٦٦ التمس الاسبتارية في الشمال السلام لانهم خسروا كثيرا في سقوط ارسوف . وكانت انطاكية قد دمرت وأعاد المماليك توحيد سورية . فقد أرسلوا بعثتين الى بيبرس كانت الاولى ترغب في اعادة تجديد اتفاقية معقودة تحمي ذلك القسم من مقاطعة الاخوية المتاخمة لمدينة حمص واراضي الحشيشية ، فرفض بيبرس الموافقة على ذلك ما لم يتخل الاسبتارية عن الجزية التي يدين بها لهم وهي اربعة آلاف قطعة ذهبية عن مدينة حماة ، وأربعة آلاف قطعة ذهبية عن حمص،وثمانمائة قطعةذهبية عن ابو قبيس ، وكانت بالنسبة للحشيشية الفا ومائتي قطعة ذهبية ومائة مكيال من القمح والفول . وكان هناك شرط اضافي ينص بان السلطان حر في خرق الاتفاقيات عندما يريد . وقد وافق الاسبتارية وطلبت البعثة الثانية عقد اتفاقية لحماية قلعة المرقب وقلعة الحصن لاحد عشر عاما تقريبا . وكان علىالاسبتارية التخلي عن الجزية من الحشيشية ، وحماة ، وشيزر ، وآفاميا وابو قبيس كما هو الحال بالنسبة لعائدات مقاطعة « عنتاب » « Aintab » البالفة خمسمائةدينار وضريبةعلى الارض تعرف بـ « الموفادينا AL - Mufadina » .

كان للاخوية بعض المطالب في اكثرية تلك المناطق . وكانت حماة مستثناة من ذلك ،لكن الاسبتار أحرز حقوقا نظرية على بعض قلاع الحشيشية،وأعطيت حمص التي كانت تعرف ، بالناقة ، الى الاخوية عام ١١٨٤ ، وبعرين (التي كان اسمها مونتيفراند) عام ١١٤٤ ، وتم التخلي عن أبو فبيس وأفاميا الي الاسبتار عام ١١٦٨ وكانتا تسميان : بوقبيس وفيميا (آباميا) . وقد امتلكت الاخوية ارضا قرب شيزر عام ١١٧٩ وقرب عينتاب عام ١١٣٣ . ويبدو انها كانت تنتزع الجزية من اماكن سيكون لها مطالب قوية فيها لو كانت قادرة على حمايتها .

وقد استمرت هذه السياسة العدوانية في الشمال حتى النهاية وعقد الاسبتار اتفاقية اخرى مع بيبرس بعد سقوط قلعة الحصن في عام ١٢٧١ ، اتضح من خلالها بأنه مايزال لديه من يخضعون لدفع الجزية ، وكان عليه اقتسام جميع الحقوق المطالب بها والعائدات المأخوذة من الدويلات الاسلامية مع السلطان بالتساوي . وواصلت حامية المرقب اخذ زمام المبادرة بشكل صحيح حتى سقوط القلعة في عام ١٢٨٥ . وقد قام الاسبتارية بأعمال لا تصدق ، فقد نشرت تخريباتهم وغاراتهم الرعب في الاقاليم المجاورة بحيث اغلق المواطنون في القلاع المجاورة الابواب والنوافذ وكأنهم في سجن او قبر .

كان الاسبتارية حذرين في الجنوب كما كانوا عدوانيين في الشمال . وكانت الظروف هنا مختلفة فبدلا من الدويلات الضعيفة العديدة والمقسمة، كانت توجد قوتان كبيرتان هما دمشق ومصر اللتان كانتا تتحدان على نحو دوري بقيادة حاكم قوي . وعندما كان يحدث ذلك ، كان الفرنج يشعرون بخيبة أمل ، واصبح ضروريا بالنسبة لهم بشكل متزايد ان يدخلوا في السياسات العربيةويتحالفوا مع احدى هاتين الدولتين،وكانتدمشق هي الحلفالتقليدي، وليس هناك من دليل على وجود سياسة موالية لسياسة مصر من جانب الاسبتارية حتى عام ١٢٣٠ . ويفسر هذا الخوف أن جاريهم القويين وكذلك الرغبة في عدم المساس بميزان القوة الحساس ، موقفا ثابتا ازاء الحملات الصليبية ، التي كانت تؤدي كثيرا الى فقدان شعبية الاخويات العسكرية . وتم اطاعة الافراد الصليبيين الذين كانوا يتمتعون بهيبة وسلطة قوية تكفي لفرض ارادتهم ، لكن الاخويات كانت تشك دائما في الحملات الصليبية وفي هدفها المتمثل باسترداد المدينة المقدسة بشكل خاص . واختلفوا في عامي ١١٩١ و ١١٩٢ تقريبا على اكتساب اراض جديدة لعدم استطاعتهم الاحتفاظ بها وحمايتها بعد رحيل الغربيين . فقد وجدهم الصليبيون الالمان في عام ١١٩٧ قلقين لعدم قيامهم بحملات طموحة ضد المسلمين . وفي الحملة الصليبية الخامسة كان بالامكان التنبؤ بردود فعلهم ازاء مقترحات السلام المصرية .

لقد تضمنت المقترحات الاولى في منتصف عام ١٢١٩ عرضا بارزا بحيث

اقتضت اعادة بقايا الصليب المقدس الى المسيحيين وكذلك جميع الاراضي الواقعة غربي الاردن . ومع ذلك استثنيت قلاع املريك الواقعة في « مؤاب » « Moab » والشوبك الواقعة شرقي نهر الاردن بشكل خاص . وتمت الدعوة الى اجتماع للقادة في المعسكر الصليبي مباشرة . وكان ملك بيت المقدس والصليبيون الفرنسيون والبارونات السوريون يؤيدون القبول به في حين لم يكن «بيلاغيوس» « Pelaguis » الموفد البابوي الرسمي والايطاليون والداوية والاسبتارية يؤيدونه ، مما أدى الى رفض العرض ، لكن ممثلي السلطان عادوا مباشرة تقريبا بتنازل آخر يدفعون بموجبه الى الصليبيين ريعا سنويا قدره خمسة عشر الف بيزنط لقاء رسوم جمركية فرضت في دمشق ، برغم عدم استسلام « الكرك » والشوبك امام المسلمين . وقد ساند الفرسان التيوتون الملك في هذه الفترة ، لكن الموفد البابوي والداوية ومعهم الاسبتارية كانوا عنيدين ، وكانت الاسباب التي دفعتهم الى الرفض كما زعموا مشابهة كثيرا للمشورة التي قدمت الى ريتشارد عندما أراد مهاجمة بيت المقدس في الحملة الصليبية الثالثة ، وقالوا بأنهم كانوا في مصر للاستيلاء على دمياط« Damietta »التي كانت في قبضتهم تقريبا . ماذا سيفعلون بالاراضي التي اكتسبت بموجب السلام المفترض ؟ ان الاراضي الجديدة لايمكن الدفاع عنها في حالة عودة الصليبيين الى البلد . وقد عرفت الاخويات العسكرية بان الصليبيين سيغادرون حالما تتحقق أغراض حملتهم ، وسيجد من يخلفهم بان مواردهم وصلت الى مرحلة افلاس من جراء الاعباء الجديدة المفروضة عليهم .

وفي عام ١٢٢٠ قام المصريون بمحاولتهم الاخيرة الهادفة الى التفاوض من اجل السلام ، ويبدو ذلك من خلال ممثلي الاسرى المسيحيين في القاهرة التي ضمت رهبانا من الاخويات المسيحية . وقد عرض السلطان الشروط السابقة ذاتها ، لكنه أضاف بأنه سيعيد بناء أسوار القدس والقلاع الصليبية في فلسطين ، فكان ذلك تنازلا مهما ، كما انه سيوقع اتفاقية سلام مع الفرنج لتدوم ثلاثين عاما . وقد رفض الموفد البابوي تلك العروض مرة ثانية برغم حقيقة اختلاف الداوية والاسبتارية بسبب قبولهم . وينبغي التذكر بانه تم

تلقي رسالة من البابا تبلغ الصليبيين بان الامبراطور فريدريك الثاني وعد بالمباشرة في حملته الصليبية في الربيع التالي . واتضح بان الامبراطور كان جديا في وعده ، وكان يشجع تابعيه لأخذ الصليب وأنه أرسل جيشا بقيادة دوق « بافاريا » « Bavaria » . لذا لم تكن الاخويات العسكرية متناقضة مع نفسها عندما نادت بقبول شروط السلام الجديدة . فالتنازلات الجديدة لم تؤكد فقط ، بأن الاخويات لن تستدعى للدفاع عن فلسطين فورا ، بل انها عندما تغادر الحملة الصليبية الحالية هنالك مهمة اخرى اكثر أهمية تنتظرها في البحر ، كما ان القلق الفوري حول القوة البشرية يمكن التغاضي عنه .

استمر الحرص المميز للاخويات العسكرية خلال القرن الثالث عشر . وذكر ان الداوية وطوائف مسيحية اخرى كانت تخشى وصول فريدريك الثاني في عام ١٢٢٨ . وسوف نرى كيف انها عارضت معاهدته مع مصر بسبب أعباء الدفاع التي سوف تفرض عليها بالحصول على أراض جديدة . وفي عام ١٢٧٤ كان مقدم الداوية ، الذي كان يدعمه « ويليام دو كورسيل » ممثل الاسبتار مثبطا للهمم في مجلس ليون ، حيث أوضح بأن الحملة البرية الى جانب الحملة البحرية تتطلب اهتماما كبيرا لمسائل السلاح والطعام وخاصة فيما يتعلق بالرجال المخلصين ، اذ قال بأن السكان في الشرق يحتاجون لمثل هؤلاء . وان المرة الوحيدة التي تخلت فيها الاخويات عن سياسة التهدئة في الجنوب حدثت في سياق نزاعاتها حول العلاقات الخارجية في اربعينات القرن الثالث عشر ، عندما كانوا مستعدين لقبول ما كانوا يرفضونه في الاحوال الهادئة رغبة منهم في اقناع الآخرين بفوائد التحالف مع مصر أو مع دمشق .

ويمكن القول بأنه كانت للاسبتارية نحو المسلمين مواقف ثابتة معينة ومستمرة . ففي طرابلس وانطاكية قاموا باعمال عدوانية ضد جيرانهم المسلمين ويبدو بان هدفهم من ذلك كان اخضاعهم لدفع الجزية . وقد كانت الدويلات العربية المتاخمة لمملكة بيت المقدس قوية جدا بالنسبة لهم وكانت أهدافهم هنا هي منع اتحاد مصر ودمشق والمحافظة على توازن في القوى . كانت الحملات

الصليبية لا تحظى بالشعبية لانها قلبت هذه السياسة ، ولان هدفهم المتمثل باسترداد بيت المقدس يتعارض مع افكار واهداف اولئك الذين عليهم البقاء في سورية بشكل دائم ، وينبغي الاشارة الى ان الاخويات العسكرية كانت في وضع غير ملائم .. وكانت ملتزمة بالمثل الصليبية ، حيث لم يكن بمقدورها خذلان الحملات الصليبية دون ان يتهموا بأنهم لم يعودوا يقومون بواجبهم .

* * *

الفصل السّادس

حكـام سوريـة اللاتينيـة

اكتسب الاسبتارية هيمنة سياسية مبكرة في شمال سورية اللاتينية ، واستطاعوا التصرف في حدودهم الواسعة على حدود طرابلس وانطاكية كحكام مستقلين تقريبا ، وقيل بأنهم ظلوا في القرن الثالث عشر العناصر الفعالة الوحيدة في الكونتية والامارة . وكنا قد رأينا المراحل التي ازدادت فيها سلطتهم السياسية في بيت المقدس ، ومع ذلك فقد تبدلت الحالة في تلك المملكة بشكل كبير في نهاية حكم «جون دوبريان» « **John de Brienne** » عام ١٢٢٥ . وظل العرش مشغولا من قبل « هوهنستوفن » « **Hohonstaufen** » الذي كانت اهتماماته الرئيسية في أوروبا وليست في الشرق حتى عام ١٢٦٨ . ولم يكن هناك أي ملك يقيم بشكل دائم في المدينة المقدسة ، وكان الممثلون البابويون غير قادرين على السيطرة على البارونية . وقد حدث إختلاف حول العرش من عام ١٢٦٩ وحتى عام ١٢٨٦ بين ملوك قبرص والانجويين(١) « **Angenins** » ولم يتم الاعتراف بالملك دوليا حتى قبل سقوط عكا بخمسة أعوام .

وبسبب غياب الملكية، كما حدث أولا في « صقلية » « **Sicily** » ثم في قبرص « **Cyprus** » كانت وظائف الملوك تستند الى أولئك الاوصياء على العرش الذين مكنتهم منزلتهم الشخصية من ممارسة بعض السلطات مثل « جون » صاحب أرسوف و « جون » صاحب يافا ، و « جيوفري دو سارجين » و « هيو » صاحب قبرص . وبقيت سلطة المملكة في أيدي مجموعة من الوجهاء مؤلفة من أوصياء العرش وأعضاء المحكمة العليا « **High Court** » وكوميونة عكا والبطريرك

---

(١) ـ نسبة الى مقاطعة آنجو الفرنسية .

والاساقفة وممثلي كوميونات التجار والاخويات العسكرية. ومع ذلك، لم يحظ أوصياء العرش بالشعبية دائما. وقد حولت البارونية الفقيرة في سورية اهتمامها الى قبرص حيث توجد ممتلكاتها الجديدة هناك . وشجع البابوات الاساقفة والبطاركة بشكل خاص لشغل الكثير من المسؤوليات التي كان يتولاها الملك المقيم ، لكنهم كانوا فقراء كما هو الحال بالنسبة للبارونات ، ولم يستطيعوا القيام سوى بمساعدة عسكرية محدودة للدفاع عن بيت المقدس . كانت الكوميونات الايطالية تتنازع دوما فيما بينها ولم تكن مهتمة مبدئيا بمصير الارض المقدسة، لكن الاخويات العسكرية كانت تلقى تشجيعا من قبل البابوية لتشارك في السياسات التي كانت تطبق في سورية اللاتينية ، وفي التعامل مع المسلمين ، حيث كانت هذه السياسات جوهرية للدفاع عن البلاد ، التي كانت غنية بالاراضي في سورية وكذلك في اوروبا . وكانت ملتزمة بحماية ووجود الاراضي المقدسة ، شأنها في ذلك شأن البطاركة وليس كالبارونات والكوميونات ، علاوة على ذلك كانت لديها خبرة سابقة بتولي السيطرة على الشؤون الهامة في ايام الازمات .

ان سلطتهم لم تضعف ازاء قوة معاصريهم ، ففي عام ١٢٦٣. اشتكى بيبرس بمرارة من اعتماد ملك قبرص عليهم . ويبدو بان « قلاوون » « Kalaun » عندما ارسل رسلا الى الفرنج عام ١٢٨٩ لم يوجههم الى الملك فقط بل الى الداوية والاسبتارية ايضا ، وكانت أشد مطالبهم موضوعة من قبل البابوية في عام ١٣٢١ . وبعد بضع سنوات فقط من ازاحة « جون بريان » « John Brienne » عندما كتب البابا غريغوري التاسع الى فريدريك الثاني الذي صادر ممتلكاتهم في صقلية يقول له : « **عليك الا تزعج الاسبتارية والداوية وان لاتتحرش بأولئك الذين كانت الارض المقدسة تحكم من قبلهم حتى هذا الوقت وسط الكثير من الصعوبات والتي لم يكن من المستطاع السيطرة عليها بدونهم** ». ولكن برغم كونها اشارة واضحة الى سلطتهم السياسية فهي لم تبين كيف كانت تمارس تلك السلطة ، ويمكننا اثباتها من الوثائق والتواريخ .

لقد كانت الاخويات العسكرية تستخدم كمصادر معلومات لروما ولتنفيذ أوامر البابوية . وقد اعتمد بقاء سورية اللاتينية في القرن الثالث عشر بشكل

كبير على الاهتمام البابوي والموارد المالية والامدادات التي ارسلت الى الشرق عبر روما . ونحن رأينا بأن ، انوسنت الثالث انشأ نظاما يتم بواسطته ارسال تقارير منتظمة عن الاوضاع في سورية اللاتينية والدويلات الايسلامية المجاورة الى روما من قبل البطريرك ومقدمي الاسبتارية والداوية ، وان الاخويات كانت وسائط عادية ترسل بواسطتها الاعانات المالية البابوية الى المشرق ، وكان البابا يوصي الاسبتار بالملوك والاساقفة ، وكان الزهبان يعملون دوما كمرشدين وممثلين للسياسة البابوية ، كما مارست الاخويات العسكرية سلطة سياسية من خلال القيام بدور الوساطة مشاركة للبابوية في اهتمامها بالخلافات الداخلية في سورية اللاتينية ، وسوف نراهم يحاولون مصالحة الاطراف في المراحل الاولى من الحروب الاهلية التي اندلعت في كل من بيت المقدس وقبرص، ويتفاوضون على استبلام عكا الى آل لوزينيان في عام ١٢٨٦ . لقد كان مقدما الداوية والاسبتارية بين وسطاء الاتفاقات بين ملك قبرص والكنيسة . وفي عام ١٢٦٠ وعام ١٢٦١ كانت الاخويات بين أولئك الذين كانوا يحاولون مصالحة الايطاليين بعد معركة « سانت ساباس » « St. Sabas » كما انهم توسطوا دون ان ينجحوا في نزاع الملك هيو مع بازوناته في عام ١٢٧٢ . وفي نهاية سبعينات القرن الثالث عشر عقد مقدم الاسبتارية سلاما بين بوهمند أمير انطاكية والداوية . وفي عام ١٢٨٧ حاصر اسطول الجنويين(١) عكا كخطوة في صراعها مع بيزا في المشرق « Levant » ، وقد اقنع بمغادرتها عن طريق وفد ضم مقدمي الداوية والاسبتارية .

لقد كان مقدمو الاخويات العسكرية الدينيون أعضاء في تلك الجماعة الذين انتقل اليهم حكم المملكة في غياب الملك المقيم . ويجب ان نتذكر بأنهم لم يحكموا بالمعنى الحقيقي ، ولم يسيطروا على الادارة ، كما لم يصدروا الاوامر اليومية . وقد جاءت فضلا عن ذلك أوقات استطاع خلالها أحد الصليبيين الاقوياء شغل مكان الملك الغائب ، ويجب التأكيد على أنه لم تقلص سلطة الاخويات العسكرية السياسية فقط ، بل أعيقت وبسهولة كان يتم التخلي عنها حالما يصل أحد الصليبيين المتمتعين بالثروة والسلطة الشخصية

---

(١) ـ نسبة الى مدينة جنوة في ايطاليا .

الضرورية لتولي سلطة مؤقتة . وكان مقدمو الاخويات برغم ذلك يحضرون دائما ، مناقشة قادة المملكة للعلاقات مع المسلمين . ويبدو بأنه كان لهم الحق في تقديم المشورة السياسية الخارجية بالقدر الذي كان يهم المسلمين على الاقل . وواضح بانهم شاركوا في اجتماعات المحكمة العليا حيث طرحت قضايا الخلافة المطالبة بالعرش ، فقد ركزوا اهتمامهم ولعبوا دورا في الخلافات الدستورية التي احاطت بخلافة « غي وسيبيلا » والمنافسة الاخيرة حول العرش بين غي وكونراد ، وساعدوا في انتخاب آملريك في عام ١١٩٧ ، وعارضوا ترشيح رالف صاحب طبريا . كما لعبوا دورا هاما في الحرب الانطاكية ، من أجل وراثة العرش . وفي عام ١٢٠٨ حضروا قرار المحكمة العليا ارسال فيليب اغسطس ملك فرنسا ليكون زوجا للوريثة ماريا . وقد لعب مقدم الداوية دورا بارزا في المجلس الذي ناقش حق كونراد فيالعرش في عام ١٢٤٣ ، ويبدو بأنه لم يمثل الاسبتارية أحد في هذا المجلس ، لكنه ينبغي التذكر بأنهم كانوا مشغولين آنذاك في محاولة انقلاب « Coup d'etal » في عكا ، وكان معظم البارونات يعارضونهم في ذلك . وحضر أعضاء منالاخويات مناقشات وراثة العرش في عام ١٢٥٨ ، والوصاية على العرش في عام ١٢٦١ ، وخلافة العرش في عام ١٢٦٩ .

وقد اثار الدور الذي لعبوه في كل إختلاف حول العرش وحضورهم المعتاد في المحكمة العليا مشكلة هامة . وينبغي على المرء ان يسأل فيما اذا كان المقدمون الدينيون أعضاء دائمين في محكمة بيت المقدس العليا بفضل اقطاعتهم ككنسيين او بصفتهم رجالا ذوي مراتب عالية ، لانه برغم قوتهم ، من ناحية ثانية ، لم ينعموا بسلطة ادارية أو قضائية ولا بأية سلطة قانونية ، وينبغي الاعتراف بأن هناك دليلاً على ذلك . وفي عام ١٢٦١ وافقت محكمة المملكة و « السير جوفري سرجينوس » والوفد الرسمي البابوي والمقدمون الدينيون والكوميونات والجمعيات الدينية على ان وصي العرش « هيو » ملك قبرص لديه حجج اقوى لوصاية العرش من الكونت بريان ، ويستطيع المرء ان يرى في قائمة المشاركين هذه تمييزا واضحا بين محكمة المملكة والبقية .

وعندما توج «هيو» ملكا في عام ١٢٦٩ حضر الى عكا لاستلام المملكة رجالاتها وكل من : « الوفد الرسمي البابوي ومقدمي الداوية والاسبتارية الدينيين الإلمان وقنصل بيزا وشريف البندقية والجمعيات الدينية وجميع رجال عكا الذين كانوا هناك » . وقد تكلم الملك المذكور الى رجال المحكمة العليا الذين كانوا مجتمعين بحضوره . وحدث اختلاف مرة ثانية بين اعضاء المحكمة العليا وآخرين كان مقدم الداوية من بينهم . ويبدو اضافة الى ذلك ، بانه لم يصوت سوى الرجال الموالون الذين كانوا اعضاء في المحكمة على الرغم من مشاركة المقدمين الدينيين وبقية الحضور في المناقشات التي جرت آنذاك . وقد اقترح بأن يشكل الوفد الرسمي البابوي ووصي العرش وممثلو الكوميونات الايطالية والتجار المقيمون والاخويات العسكرية والجمعيات الدينية ، نوعا من حشد الطبقات الاجتماعية مع المحكمةالعليا في مناسبات مقدسة معينة برغم تمركز السلطة الفعلية في ايدي الموالين فقط . وربما يمكننا رؤية بشائر لتلك الاجتماعات في برلمان عام ١٩٨٤ الشهير الذي حضره مقدما الاسبتاريةوالداوية.

تشير الدلائل الى ان المقدمين لم يكونوا اعضاء في المحكمة العليا ، على الرغم من ان الاسبتار قد يكون ملتزما بتقديم خدمة الى املاكها ، كما ان مقدمه قد قدم الطاعة الى الملوك . لكنه لم يبد انه كان ملتزما بتقديم الخدمة الى الملك لذا لا يمكن وصفه بأنه رجل موال مدعو للحضور وفقا لقانون الاقطاعة . وعلى اية حال ، اذا لم يوصف على انه رجل تابع فان مقدم الاسبتار من المؤكد انه سيحضر كرجل ذي مرتبة عالية،لانه من المعروف بأن المحكمة العليا لها الحق في اختيار اعضاء لها من الافراد الصليبيين الهامين . وكان اولئك الاعضاء يعتبرون اعضاء شرعيين طوال فترة اقامتهم في الاراضي المقدسة . وينبغي على المرء ان يستنتج بأن مقدم الاسبتارية ربما كان عضوا في المحكمة العليا على الرغم مما تألفت منه هذه الهيئة في ستينات القرن الثالث عشر ، ومع ذلك يبقى هذا السؤال بدون جواب قاطع .

لقد كان مقدما الاسبتارية والداوية من بين اكثر الاعضاء البارزين في اوليغاركية « حكم الاقلية » التي حكمت الارض المقدسة في غياب اي ملك رسمي

بعد تنحية « جون بريان » عن العرش . لكنه يوجد شك حقيقي فيما اذا كان المقدمون الدينيون اعضاء مهيمنين في المحكمة العليا دوما ، كما ينبغي على المرء ان يأخذ دائما بعين الاعتبار امكانية عدم ممارستهم سلطة قضائية مركزية في المملكه . على اية حال ، لقد تصرفوا بشكل أكيد ، بصفة شبه رسمية وذلك بحضورهم الاجتماعات ، حيث ناقش فيهما وجهاء المملكة السياسية الخارجية ووراثة العرش ، ولعبوا دورا فعالا في تقرير تلك المسائل . وليس غريبا في ان القضايا تلك هي التي فرقتهم بشكل خطير .

ويظهر للوهلة الاولى بان الاخويات العسكرية كانت منهمكة في النزاعات بشكل دائم ، لكن تاريخ سورية اللاتينية يبين انهم قاموا معا في معظم الأوقات في الحملة والمجلس كمصلحين ومفاوضين وينبغي عدم اغفال ان أهم دليل على تنازعهم حول الارض موجود في الاتفاقيات فيما بينهم . وفي عام ١٢٠٣ تفاوض الداوية لعقد اتفاقية مع حماة من أجل الاسبتارية لانهم فشلوا في الاستيلاء على بعرين . وكان هناك اسبتارية في قلعة صفد الداوية عندما سقطت اخيرا في عام ١٢٦٦ . وفي عام ١٢٧٣ كتب « هيو ريفل » مقدم الاسبتارية عن انتخاب مقدم جديد للداوية يقول بانه نعمة الهية عظيمة منحهم الرب اياها . وكانت الاخوية متلهفة بوضوح لتسوية الخلافات وانهاء النزاعات الداخلية المتكررة التي اضعفت سورية اللاتينية .

ان القراءة السريعة لتاريخ الممالك الصليبية يظهر ان ذلك لم يتم . ولهذا السبب سيكون معقولا السؤال عن عدم وجود قوات للسلام ولماذا صعدوا الفوضوية ولم يقللوا منها . ويظهر بانه كان هناك سببان لذلك كان اولهما هو ان الاسبتارية والداوية وجدوا أنفسهم منقسمين بسبب قضايا العلاقات الهامة مع المسلمين ووراثة عرش المملكة او الامارة . فكانت هناك ثمانية نزاعات رئيسية فيما بينهم في عام ١٢٩١ وكانت حرب «سانت ساباس» المتعلقة بمطالب الكوميونات الايطالية المتنافسة واحدة منها ، لكنهم كانوا من ناحية ثانية منقسمين حول السياسة نحو الدويلات العربية في عام ١١٦٨ ، وحول وراثة العرش عندما اثيرت مطالب سيبيلا في عام ١١٨٦ ، ومطالب كل من « غي

دو لوزينيان وكونراد مونتفيرات » في عام ١١٩١ ، وريموند روبين وبوهيمند صاحب طرابلس في انطاكية ما بين ١٢٠١ و ١٢٢١ ، وبليسيانس في عام ١٢٥٨ ، وماريا اضافة الى « الانجويين » وملوك قبرص مابين ١٢٦٨ و ١٢٨٦ . ولم تكن أكثر نزاعاتهم اهمية تتعلق بحقوق « هوهينستوفن » في عرش بيت المقدس فقط بل بالعلاقات مع المسلمين أيضا .

لقد أثير بأن الغيرة والتنافس حول تلك القضايا قد قسم الاخويات ، وأن المصلحة الذاتية ظاهرة في مواقفهم وبشكل اكيد احيانا ، لكنها كانت متوافقة . ونتيجة لانقسام المملكة بسبب النزاعات حول التاج مع البارونية، كان الاسبثارية يؤيدون الملك في كل ازمة سياسية تقريبا ، في حين كان الداوية يؤيدون البارونية . ويبدو لاسباب مجهولة بالنسبة لنا بأن كل اخوية تبنت فلسفة سياسية مناسبة . وقد شغل اثنان من تلك النزاعات الاول في انطاكية ـ طرابلس والثاني في مملكة بيت المقدس ، النصف الاول من القرن الثالث عشر ، وكان كلا النزاعين مميزا ، كما ورطت الاخويات نفسها فيهما كليا ، لكن تلك النزاعات بددت قوتهم وأضعفت نفوذهم في اللحظة التي بلغوا فيها أوج قوتهم .

لقد بدات عاصفة سياسية تلتئم في الشمال أثناء حاكمية « جيوفري دونجون » عندما توفي ريموند الابن الاكبر لامير انطاكية بوهمند الثالث تاركا ابنا صغيرا اسمه « ريموند روبين » ، كانت أمه ابنة أخ الملك ليو الثاني ملك ارمينيا . كان ريموند روبين الوريث الطبيعي للامارة وتم الاعتراف به في اجتماع كامل للبارونات الانطاكيين في عام ١١٩٨ . لكن بوهمند صاحب طرابلس ، الابن الثاني لريموند الذي كان قوي الشكيمة ومقتدرا لا يقبل بفكرة خلافة ابن اخيه الصغير لعرش الامارة ، وكان يؤيده في ذلك كوميونة انطاكية والداوية الذين كانوا يعارضون بصلابة « ليو » ملك ارمينيا بسبب استيلائه على قلعتهم « باغراس » « Castle of Baghras » وعدم رغبته في اعادتها لهم . وفي عام ١١٩٨ ثارت كوميونة انطاكية وعزلت بوهمند الثالث ، واقسم لبوهمند صاحب طرابلس أميرا للامارة . واسترد بوهمند الثالث انطاكية ، بمساعدة ارمينيا لكنه مات في عام ١٢٠١ والتفت الاطراف مباشرة حول المرشحين المتنافسين على خلافة العرش ، وكسب بوهمند صاحب طرابلس حكم الامارة ، وكانت

الكوميونة تؤيده ومعها الداوية . لقد اعترف القسم الاكبر من البارونيــة وليو ملك ارمينيا بريموند روبين ، ويبدو بان الاسبتارية اظهروا بعض التأييد لبوهمند في ذلك الوقت . ومع ذلك كانت القضية معقدة كثيرا وزاد في تعقيدها تدخل الدويلات الاسلامية المجاورة في حلب والروم « **Rum** » بناء على طلب بوهمند . وكان البابا « انوسنت الثالث » « **Innocent III** » برغم تعاطفه مع مطالب ريموند روبين قلقا لحل مايمكن ان يصبح أزمة سياسية خطيرة . ووصل موفده الرسمي الكاردينال « سوفرد سان براكسيدسك » « **Soffred of St. Praxidesx** » الى عكا في عام ١٢٠٢ ، وتشاور مع مقدمـي الداويـة والاسبتارية لكن مساعيه الاولية في التحكيم اخفقت ، ورفض بوهمند التفاوض برغم قبوله بمساعي الموفد الرسمي البابوي للتوصل الى اتفاقية مع الاسبتارية حول عائدات قلعة الحصن المتنازع عليها .

وفي الفترة مابين ١٢٠٢ ـ ١٢٠٣ ، غزا ليو انطاكية وقرر التدخل في عكا وسافر الموفد البابوي « سوفرد » والملك « آملريك » الثاني ومقدم الداوية ونائب مقدم الاسبتارية الى انطاكية . وقد حصل سوفرد على وعد من ليو الذي كان يعسكر خارج المدينة بعقد هدنة قصيرة ، لكن المحكمين البارونيين الذين تم تعيينهم اختلفوا على ان وراثة الامارة كانت قضية عدائية ، ولهذا السبـب ليست من اختصاص الكنيسة ، ويئس سوفرد من تحقيق أي شيء فانسحب الى قلعة المرقب الاسبتارية ، وعاد بذلك الى عكا بانتظار وصول موفد بابوي ثان . وواصل ليو الحرب لكن السكان كانوا معادين له ، وطرد الداوية الغزاة على الرغم من دخول فرقة صغيرة من الجنود الأرمن الى المدينة . وطلـب بوهمند اضافة الى ذلك المساعدة من حلب وأجبر تقدم المسلمين ليو علــى رفع الحصار .

ووصل آنذاك الى قيليقية « بيتر كابوانو » كاردينال «سان مارسيارس» يرافقه اسقف « سيكارد صاحب كريمونا » . وقد كان بيتر رجلا ضيق التفكير اتخذ خطوات عملية اضافية ضد الداوية بمصادرته أملاكهم في «روشدو روسيل» « **Roche de Roussel** » « وروش غيوم » « **Roche Guillaume** » فطلب بيتر اعادتها ووافق ليو مشترطا تحديد نشاطات الداوية لدينهم ، وطلب

من البابا أيضا ربط قضيتي وراثة عرش انطاكية ونزاعه مع الاخوية . وقد زاد بيتر الامور سوءا بدعوته الى عقد مجلس في انطاكية لم يدع اليه كاثوليك الكنيسة الارمنية فكانت اهانة غير ملائمة بغية استراضاء ليو . وفي عام ١٢٠٤ انسحب بيتر الى عكا دون الوصول الى أكثر مما توصل اليه سلفه .

في عكا وجد الموفدون البابويون أنفسهم منقسمين حيث كان سوفرد يؤيد مطالب ريموند روبين وبيتر يؤيد مطالب بوهمند . وأعيدت المفاوضات بناء على طلب « ماري فلندرز » « Mary of Flanders » . زوجة اول امبراطور لاتيني للقسطنطينية، بأمرة سوفرد هذه المرة . وتبين نتيجتها نأ«ليو» يتمتع بثقة أكبر وطلب من كلا الجانبين ارسال ممثلين عنهما الى عكا . وقد قبل ليو عقد هدنة لمدة أربعين يوما . لكن بوهمند رفض الاعتراف بها دون السماح لمبعوثي ليو بالمرور بأمان عبر مقاطعته . ووافق ليو على اعادة قلعة «روش دو روسيل» الى الداوية وأعلن سوفرد على أثرها عن تأييده لمطالب ريموند روبين ، لكن بيتر ظل مؤيدا ثابتا لبوهمند ، ولهذا لم يكن ممكنا تقرير شيء وغادر الموفدان البابويان في تشرين الاول من عام ١٢٠٤ الى أوروبا . لقد كان العام التالي أكثر هدوءا اذ كان بوهمند مشغولا في نزاع اقطاعي مع أحد تابعيه الطرابلسيين « اللورد نيفين « Nephin » ، وكان ليو يدافع عن مملكته ضد جيش من حلب . ومع ذلك ظلت الاطراف في انطاكية متمسكة بموقفها وكذلك ريموند روبين أيضا بسبب مساندته من قبل ليو والبطريرك والملك العادل في مصر ، وبوهمند الذي كان مدعوما من قبل الداوية وكوميونة انطاكية وحلب والروم . وكان الاسبتارية قد بدؤوا يظهرون التعاطف مع مطالب ريموند برغم استمرار احتفاظهم بالحياد . وقد حاول البابا مرة ثانية برغم ذلك تعيين لجنة من المفاوضين ذوي الخبرة وأمر « بيتر كابوانو » «Peter Capnano» بالعودة الى الشرق ، ووصل بيتر في اواخر عام ١٢٠٥ لكنه كانت تعوزه اللباقة كما كان من قبل ، وتدخل في انتخاب احدى رئاسات الشماسة وبعض القوانين الكنسية « Canonries » في انطاكية ، ونزع صلاحيات البطريرك في العزل الكنسي عندما تساءل البطريرك « بيتر انغوليم » « Peter of Angoulemê » عن حقه في القيام بذلك . بعدئذ قدم بوهمند في عام ١٢٠٦ بطريرك ارثوذكسي

يوناني الى انطاكية ، فأذعن بيتر انفوليم لـ « بيتر كابوانو » اثناء انتظاره رأي روما في سلطاته الكنسية واسترداد حقه في فرض قوانين الكنيسة ، وحرم كنسيا البطريرك سيمون الثاني وبوهمند وانصاره ، كما فرض الجرمان على مدينة انطاكية .

وقد تبدلت الحالة كثيرا بدخول الاسبتارية في النزاع وينبغي أن يكونوا قد أظهروا بعض التأييد لـ « ليو » لانه كتب في عام ١٢٠٤ او ١٢٠٥ يطلب بأن يعين البابا الفونسو ملك البرتغال مفاوضا خبيرا في قضية انطاكية . وفي عام ١٢٠٥ شنوا هجوما مشتركا على اللاذقية مع بوهمند صاحب طرابلس،لكنهم كانوا يساندون الطرف الارميني علنا وكانوا يتحركون الى الحرب مع الداوية، وقد اختاروا قائدا جديدا في ذلك الوقت . لقد كان « جوفري رات » « Geofrey le Rat » قائدا لانطاكية وربما كان امرا لقلعة الحصن قبل انتخابه مقدما دينياً في عام ١٢٠٦ . ولهذا السبب كانت حياته جلها في الشمال ، وكان بالتأكيد يدير أملاك الاخوية في انطاكية أثناء تطور الازمة . وليس هناك من شك في الجهة التي كانت تحظى بتعاطف الاخوية برغم تعلق أولى وثائق حاكميته بهبة من بوهمند واعترافها به أخيرا أميرا لانطاكية . وقد سقطت انطاكية في أيدي الارمن في عام ١٢٠٧ بمساعدة البطريرك ، والتجأ بوهمند الى القلعة التي استطاع من خلالها حشد قواته واسترجاع المدينة ، ورمى البطريرك في السجن حيث شرب في ربيع عام ١٢٠٨ زيت المصباح في زنزانته نتيجة لحرمانه من الماء ولعطشه الشديد ومات على أثرها . وكان قد أودع مجوهراته لدى الاسبتارية قبل اعتقاله وكان هؤلاء قد تلقوا فوائد كبيرة من ريموند روبين لقاء مساعدتهم له . وفي عام ١٢٠٧ اعطاهم ريموند وبموافقة ليو مدينة جبيل التي كانت في الواقع في أيدي المسلمين . وصدق على منحته عام ١٢١٠ باضافة القلعة «القديمة «Chateau de la vieille» وامتيازات جعلت هذه الاقطاعة تقارن مع بلاطينيات(١) الاخوية في انطاكية وطرابلس .

---

(١) ــ البلاطينية : مقاطعة يحكمها البلاطين وهو امير اقطاعي (المترجم) .

وآخر أخبار «جيوفري لورات» «Geoffrey Le Rat» هي ان آخر أيام حياته كانت في الثاني والعشرين من أيار عام ١٢٠٧ . وفي تشرين الاول خلفه « غارين مونتيفيو Garin de Montaigu » الذي يمكن ان يكون قد ولد في عائلة « أو فرنيه » « Auvergnais » ذات السجل الحافل . وربما كان ، اخوته كل من « بيتر مونتيغيو » مقدم الداوية من ١٢١٩ الى ١٢٢٩ ، وبرنارد اسقف « لو بوي Le Puy » و« استورج » رئيس أساقفة نيقوسيا و «فولك» اسقف ليماسول . كان غارن راهبا في دير عكا ١٢٠٤ وعين مقدما للاخوية في عام ١٢٠٦ . وفي عام ١٢٠٧ اعلن ولاءه نيابة عن الاخوية لريموند زوبين في جبيل . ولهذا السبب فان حياته السابقة قد ارتبطت بريموند والارمن مثل « جيوفري رات » وربما كفل ذلك انتخابه ، وقد توفي خلال الفترة مابين ١١ تشرين الثاني عام ١٢٢٧ والاول من آذار عام ١٢٢٨ ،بينما كان الضليبيون يعيدون تحصين صيدا . ان حاكميته الطويلة مميزة بتحالف الاخوية الوثيق مع ارمينيا وبتقيد حرفي دقيق يتعلق بحقوقها وخصوصا بامتيازاتها الاكليركية. ويمكننا ان نتساءل على ضوء اثار السياسة المؤيدة للارمن في العلاقات مع الدويلات الشمالية طوال القرن الثالث عشر عن الاطراءات المبالغ فيها من قبل المؤرخين الحديثين .

انتهت الحرب الاهلية ودمر ليو الامارة في عام ١٢٠٨ و ١٢٠٩ ، وانتقم بوهمند غن طريق استدعاء أنصاره من المسلمين مرة ثانية وغزا « كاي »خسرو الاول ملك الروم « Rum » والحلبيون « Aleppans » ارمينيا . لقد كان على ليو التفاوض من أجل اتفاقية مخزية مع السلجوقيين تخلى بموجبها عن مطالبه في انطاكية ووعد باعادة باغراس « Baghras » الى الداوية . وغني عن القول بانه لم يكن ينوي قط احترام هذه الاتفاقية ، لكن الاسبتارية ساعدوه في الدفاع عن مملكته ضد هذا الغزو التركي ، فمنحهم حدود قيليقية الجنوبية الغربية في ذلك الاثناء ، الى جانب حقوق نظرية في كرمان « Karaman » التي خطط معهم لشن حملة مؤقتة عليها . كانت حدود الاسبتارية في غربي قيليقية تبدأ من مدينة « سيليفكه » « Selefkie » وقد اصبحت واحدة من اكثر قلاع الاخوية أهمية لبضع سنوات .

وقد حاول البابا « انوسنت الثالث » موضحا سخطه على كلا الطرفين بدون تحيز مرة ثانية للتوصل الى اتفاقية حول قضية انطاكية في ذلك الاثناء .فاقترح ان يضع بوهمند قلعة انطاكية تحت وصاية الداوية والاسبتاريةبقيادة البطريرك « بيتر لوسيديو » « Peter Locedio » الذي لم يكن متعاطفا مع احد كونه حديثا في منصبه . وأمر «سيكارد صاحب كريمونا» باعادة المفاوضات لكنه لم يستطع القيام بشيء ، وعارض ليو الذي صادر الكثير من الممتلكات الداوية محاولة قام بها بطريرك بيت المقدس للتوسط في قضيـة باغراس بشدة . وفي عام ١٢١١ هاجم قوة داوية كانت تزود قلاعها بالمؤن وجرح المقدم الديني في هذه المعركة . وفور ذلك كتب البابا انوسنت الثالث الى « جـون بريان » ملك بيت المقدس يأمره بالمجيء لمساعدة الداوية وطلب تنفيذ حرم كنسي كان قد فرض على ليو من قبل « بيتر كابوانو Peter Capuano » لكنه لم يكن يطبق عموما بشكل صارم . أرسل جون جنودا للانضمام الـى جيش الداوية وأجبر ليو على طلب عقد هدنة .

وفي العام نفسه ، نودي « بريموند روبين » وريثا لمملكة أرمينيا بشكل قانوني . وأصبح ليو بمحاولته جذب أخوية أخرى الى جانبه عضوا في أخوية الفرسان التيوتون ، وذلك باعطائهم ممتلكات واسعة . وفي عام ١٢١٢ خرق الهدنة التي أجبر عليها في العام السابق وخرب سهل انطاكية . لكن وضعه الضعيف أمام الكنيسة جعله يرغب في اقامة علاقات ودية مع روما ، وأعاد بعد بضعة أشهر مصادراته الى الداوية ، وأعاد المفاوضات حول باغراس ورفـع البابا الحرم الكنسي عنه فورا .

لقد شهدت السنوات القليلة التالية انهيارا في وضع بوهمند حيث زاد من غضب البابا انوسنت كثيرا برفضه التعاون مع مساعي بطريرك بيت المقدس للتوسط في قضايا تتعلق بالكنيسة في الشمال . كما أبعد حلب في عام ١٢١٤ بمهاجمته انصارها من الحشيشية . وكانت سيطرة ليو قد قويت بزواجه من ابنة جون ملك بيت المقدس . وقد استدان من الاسبتارية ٣٠،٠٠٠ بيزنط اسلامي من أجل الزواج ، وغزا ملك أرمينيا الامارة في عام ١٢١٦ . ومرة ثانية دخلتجنوده الى المدينة ليلا بتشجيعمن البطريرك ، واستولوا على جميعالنقاط

الاستراتيجية فيها . وفي الرابع عشر من شباط نظم دخولا مهيبا مع ريموند روبين ، الذي كرّس اميرا من قبل البطريرك ، وتلقوا الطاعة من البارونات والقسم بالولاء من ممثلي الشعب . واستسلمت الحامية الموجودة في القلعة فورا ولم يستطع بوهمند القيام بشيء . فقد غزا أنصاره السلجوقيون قيليقية في غياب ليو وخربوها ، لكن ليو قد يكون اعتمد على الاسبتارية في حماية مؤخراته أثناء انشغاله في انطاكية . من المؤكد ان مدينة سيليفكه قد حوصرت في الفترة من عام ١٢١٦ الى عام ١٢١٨ من قبل « كاي كاوس » « Kai - Kaus » الرومي .

واخيرا وضع ريموند روبين يده على الامارة يسانده في ذلك البابا الجديد هونوريوس الثالث ، الذي كتب رسائل توصية به الى الموفد البابوي «بيلاغيوس» « Pelagius » والداوية والاسبتارية وكوميونة انطاكية ، وكان انصاره يشملون رجال الدين اللاتين وجميع بارونات انطاكية تقريبا والبيازنة والفرسان التيوتون والاسبتارية الذين تعاطف معهم بشكل كبير . وكان بمقدوره في عام ١٢١٨ اعادة الاستيلاء على جبيل التي سلمت لهم مباشرة ، وكتب في الوقت نفسه الى روما يطلب من الكاردينالات القيام بمساعيهم الحميدة لاقناع الملك بالتصديق على هبته للاخوية ، وجاء في رسالته : **« انهم المعاونون الخاصون لي ، وهم من بين جميع الناس ضد الشر والعنف البربري . الذين أتطلع الى مشورتهم ومساعدتهم ولي حاجة خاصة بهم في ادارتي »** .

وقد تنازع في الوقت نفسه تقريبا مع ليو ، وتوفي حليفه البطريرك في عام ١٢١٧ وبقيت الكنيسة اللاتينية في انطاكية بلا رئيس مدة ثلاث سنوات . لقد كان اتباعه متهورين ، وكانت الاجراءات التي اتخذها لاسترداد امواله غير رسمية ، وانتزع عهودا اضافية ليس من رجال علمانيين فقط بل من رجال الدين أيضا مسويا وضعه في نظر الكنسيين ، وفي عام ١٢٢٧ انضم بوهمند الى الصليبيين في الجنوب . وفي عام ١٢١٨ وجب عليه الدفاع عن بلده ضد غارات المسلمين . لكنه كان على اهبة الاستعداد في عام ١٢١٩ ، واستولى على مدينة انطاكية بمؤامرة . وبعد ان التجأ ريموند الى القلعة هرب الى قيليقية تاركا اياها في أيدي حامية الاسبتارية بقيادة « فيراند دو باراس »

« Ferramd de Barras » آمر قلعة سيليفكه . وتم التصديق على امتلاك الاخوية لهذه القلعة من قبل الموفد البابوي بيلاغيوس .

وفي عام ١٢١٩ توفي ليو الكبير وامتدت الخلافات حول وراثة العرش الى ارمينيا ذاتها . وانتقل العرش الى ابنته ليو الصغرى « ايزابيلا » ، التي تجاوزت اختها الكبرى التي كانت متزوجة من جون بريان كما تجاوزت ريموند روبين الذي نودي به وريثا للعرش في عام ١٢١١ . وقد كان ريموند في دمياط مع الحملة الصليبية الخامسة يتشاور مع الموفد البابوي الرسمي بيلاغيوس فانطلق فورا الى قيليقيةواستولى على طرسوس بتأييد بيلاغيوس ومساعدة الاسبتارية، وكان آدم صاحب باغراس وصي عرش ارمينيا قد قتل في ذلك الاثناء على أيدي الحشيشية ، وخلفه قسطنطين رئيس عائلة « الهيتوميين » « Hetoumids » الذي كان متعاطفا تقليديا مع المصالح البيزنطية التي كانت تمثل في ارمينيا انذاك اولئك الذين عارضوا النفوذ اللاتيني . وقد فرض قسطنطين حصارا على طرسوس في مطلع عام ١٢٢١ . وتوسل ريموند روبين طلبا للمساعدة فارسلت قوة اسبتارية فورا من دمياط بقيادة « ايمر لا يرون » ابن أخت المارشال الذي أسر حديثا من قبل المصريين . ووصلت القوة الى سيليفكه ، لكن ايمر كان بطيئا جدا بحيث وصلت القوة متأخرة لانقاذ طرسوس او ريموند روبين، الذي توفي في السجن بعد ذلك بوقت قصير . وسقطت قلعة انطاكية بيد بوهمند .

أصبح الاسبتارية في وضع سيء ، حيث أبعدت مساندتهم لريموند روبين قسما هاما من النبلاء الارمن ، بينما كان خصمهم بوهمند يسيطر على انطاكية ، ولم يستطيعوا البقاء بدون تعاطف معهم في كلتا الدويلتين . ويبدو بانهم قرروا تهدئة الحزب الحاكم في ارمينيا ، وقدموا مساعدة طوعية الى قسطنطين تتمثل في اربعمائة من سلاح الفرسان سنويا . وفي عام ١٢٢٤ ثار الارمن ضد فيليب أمير انطاكية الابن الرابع ليوهمند الرابع الذي تزوج ايزابيلا، لكنه أظهر تعاطفا كبيرا مع حاشيته من الفرنج على حساب تابعيه الجدد . وقد سجن فيليب ثم قتل بالسم . وهربت الملكة الصغيرة ايزابيلا كونها اصبحت ارملة بعد وفاة زوجها الى الاسبتارية في سيليفكه لحمايتها يتبعها عن كثب

وصي العرش قسطنطين الذي طلب استسلامها له . وكان الاسبتارية حائرين فيما يفعلونه ، فالتخلي عن الملكة الصغيرة سيلحق بهم العار ، لكن القلعة كانت عبئا ثقيلا ومهددة بالخطر من قبل السلاجقة الذين كانوا يرغبون في البقاء على علاقات طيبة مع الارمن ، وكان قرارهم الاخير بعيدا عن الشرف حيث باعوا سيئيفكه الى قسطنطين ، وخرجوا تاركين وصي العرش يتملك القلعة التي بقيت ايزابيلا البائسة في داخلها ، وقد اجبرت على الزواج من ابن قسطنطين واتحدت بذلك عائلتا روبين وهيتوم .

وقد استمرت العلاقات مع الارمن طوال القرن الثالث عشر ، وأصبح قسطنطين ووالده عضوين في الاسبتار قبل عام ١٢٢٨ . لقد كان المقدم ويليام دو شاتينوف «William de Chateauneuf» وكونت يافا يتفاوضان مع بعض على زواج « يوفيميا » « Euphemie » ابنة هيتوم الاول من جوليان صاحب صيدا في عام ١٢٥٢ . ويحتمل ان يكون الاسبتارية قد قاتلوا في عام ١٢٨١ جنبا الى جنب مع الارمن في الجيش المنغولي في معركة حمص . وفي العام التالي ارسل المقدم مئة خيال لمساعدة أرمينيا . وأرسلت مساعدات منتظمة الى قيليقية من قبرص استمرت بعد سقوط عكا . وكانت صداقة ارمينيا ضرورية لان الاسبتارية ظلوا عموما على علاقات سيئة مع بوهمند وحلفائه ، في حين كانوا متورطين في نزاع طويل مع الداوية حول جبيل ؛ وكان بوهمند قد أخرج الحامية الاسبتارية من انطاكية لكنه تابع مصادرة الكثير من املاك الاخوية ، ودخل ديرها في طرابلس بالقوة يعذب راهبا ويقتل آخر ، وقد فصل كنسيا. وفي عام ١٢٢٦ سمح البابا للاخوية باسترداد ممتلكاتها وقلعة انطاكية بالقوة ووافق على الفصل الكنسي لاي شخص له علاقات مع الكونت . وربما صالح مندوب امبراطوري بوهمند مع الاسبتارية مؤقتا ، لكن البابا صدق على فصل بوهمند كنسيا في عام ١٢٣٠ بناء على طلب الاخوية .

وفي عام ١٢٣١ تقدم بوهمند في السن وطلب اعادة توحيده مع الكنيسة، وكانت علاقاته مع الداوية أقل التزاما ، بينما حرمت سياسات فريدريك الثاني الدويلات الشمالية من المساعدة ضد المسلمين . وقبل بتوسط بطريرك بيت

المقدس متخليا عن جميع مطالبه عند الاسبتار ، وقدمها مع ربع عن كل من انطاكية وطرابلس . ووافق الاسبتارية مقابل ذلك على التخلي عن جميع المنح التي قدمت لهم من ريموند روبين باستثناء جبيل والقلعة القديمة . وفي عام ١٢٣٣ صدق البابا على الاتفاقية ، ورفع الحرمان الكنسي عن بوهمند الذي توفي بعد ذلك مباشرة .

وعلى كل حال استمرت النزاعات مع خلفائه . ويبدو ان هذه النزاعات نشبت من جهة بسبب المرارة التي نجمت عقب حرب الوراثة ، ومن جهة اخرى بسبب ضعف الامراء الذي أدى بهم الى التنازع حول السلطة على عدة مواضيع ، وكان الاسبتار أقوى مالك ارض في منطقتهم . واتسمت عهود بوهمند الخامس، وبوهمند السادس، وبوهمند السابع بسلسلة من النزاعات حول الارض . ومع ان الامراء تعاونوا أحيانا مع الاخوية في حملات ضد المسلمين، فقد اتفق جميع الاطراف على وقف نزاعاتهم جانبا في عدة مناسبات ، حيث اتحد الاسبتارية مع الحشيشية ضد بوهمند الخامس في عام ١٢٣٦، وظلوا مؤيدين للامراء ، الخصوم الاكثر عنادا ، وهم لوردات جبيل الامبرياسيين . في عام ١٢١٢ أصبح غي صاحب جبيل عضوا في الاخوية فمنحها اعفاء من دفع الرسوم على منقولاتها داخل اقطاعته ، ووضع هنري أمير جبيل عقوده مع الاسبتارية كأمانة لحفظها ، وأراد منهم ان يكونوا الحافظين لها على الدوام . في عام ١٢٧٤ وضع غي الثاني صاحب جبيل عائلته تحت حمايتهم . وليس مستغربا انهم ساعدوا ثورة الامبرياسيين في عام ١٢٥٨ ، وكذلك في عام ١٢٨٢ عندما أخفق تمرد غي ضد بوهمند ، واضطر الى البحث عن ملجأ لديهم في طرابلس . حاصر بوهمند الاسبتار الى ان نجح آمره في التفاوض مع غي على الاستسلام ، وكانت لهذا نتائج وخيمة لان «غي» ومؤيديه أعدموا على الرغم من التطمينات التي أعطيت من الاخوية . ولم تتصالح السلالة الحاكمة مع الاخوية حتى عام ١٢٨٨ عندما لعب الاسبتارية دورا بارزا في تنصيب « لوسي Lucy » كونتيسة على طرابلس . وقد سقطت طرابلس في أيدي المماليك في العام التالي .

لقد أبعدت سياسة الاخوية القائمة على الاسترضاء في ارمينيا وعداواتها

التقليدية مع حكام انطاكية وطرابلس . قيام تعاون صليبي فعال في الشمال. ولم تكن الحالة في مملكة بيت المقدس تختلف كثيرا لانها أنهت خلافها فيانطاكية بصعوبة فاقت تلك التي لاقتها اخويات الداوية والاسبتارية التي اندفعت الى نزاع سياسي آخر ، أكثر خطورة من جميع النزاعات القائمة بينهم وأكثرها تميزا . وقد مرت فرص سياسية وعسكرية لاسترداد المملكة في الوقت الذي انتهى فيه النزاع المذكور ، وكانت مملكة بيت المقدس بذلك تدخل المرحلة الاخيرة من مراحل انحلالها وفنائها .

وفي عام ١٢٢٢ قرر الملك جون زيارة الغرب ورغب في استشارة البابا حول مستقبل مساعدة المستوطنة اللاتينية ، وايجاد زوج لابنته الصغيرة « يولاند **Yolande** » وريثة عرش بيت المقدس . بحيث يتم ضمان خلافة عرشه ، فوصل الى ايطاليا في شهر تشرين الاول مع حاشية ضمت بطريرك بيت المقدس و «غارين دو مونتيغيو **Garin de Montaigu** » » مقدم الاسبتارية ونائب مقدم الداوية . وقد تعهد الامبراطور فريدريك الثاني بنفسه بشن الحملة الصليبية في مطلع عام ١٢١٥ ؛ وفي السابع والعشرين من نيسان عام ١٢٢٤ تسلم الصليب بوقار بحضور الملك جون وممثلين عن الاخويات العسكرية ، وتزوج يولاند في ألتاسع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٢٢٥ في كاتدرائية « برنديزي »« **Brindisi** » . وبعد ذلك تسلم فريدريك تاج بيت المقدس متجاهلا احتجاجات والد زوجته الذي أجبر على الاعتقاد بأنه سيسمح له بمواصلة ادارة الاراضي المقدسة .

وقد اظهر بعض التعاطف مع الداوية والاسبتارية في أوائل سنوات حكمه . لكن فريدريك بدأ بمصادرة ممتلكات الاسبتارية والداوية في صقلية بين تشرين الثاني من عام ١٢٢٦ ، عندما عقد اتفاقية مع الاسبتار كجزء من الاستعدادات لحملته الصليبية ، وشهر آذار من عام ١٢٢٨ . ولم تكن الاخويتان هما وحدهما الاخويتين الدينيتين اللتين تدفعان الثمن، فقد تصادف هذا العمل مع انتخاب البابا غريغوري التاسع « **Gregeory IX** » واساءة العلاقات بين الكنيسة والامبراطورية . وفي الوقت نفسه بدأ فريدريك

المفاوضات مع أمراء الشرق الادنى المسلمين ، ودراسة ردود أفعالهم على قيام تحالف معه متستفيدا من التنافس التقليدي بين دمشق والقاهرة . وقد استجابت مصر تماما ، لكن هذه المناورات ، وبشكل خاص تقربه من الحشيشية الذين كانوا كما رأينا خاضعين للاسبتار ، صعَّبت الامور بالنسبة للاخويات العسكرية . لذا كان موقفه قبل ان يصل الى سورية حرجا بالنسبة للاسبتارية والداوية . وقد صادر الكثير من ممتلكاتهم في صقلية ، وأجرى مفاوضات مع المسلمين اذ أفسد بعض استعداداتهم في ذلك الجزء من سورية الذي يضم معظم أملاكهم الهامة . وقد كتب أحد الكتّاب المسلمين تقريرا جاء فيه ان الداوية ومسيحيين آخرين على الساحل السوري نظروا الى اقتراب الامبراطور الوشيك بانه انذار بالخطر .

توفي غارين مونتيغيو في مطلع عام ١٢٢٨ ، وبالنسبة لما يتعلق بحياة خلفه « بيرتراند دو تيسي » « Bertrand de Thessy » الماضية وأصوله فهي مجهولة . ويفترض بأنه انتخب للحاكمية في عام ١٢٢٨ ، لكنه مات قبل الاول من أيار عام ١٢٣١ وخلفه « غيرين » « Guérin » . فقد تولى ادارة الاخوية في وقت امتد فيه عنف الصراعات بين الجلفيين « Guelfs » والجيبليين(١) « Ghibellines » الى سورية اللاتينية لوصول فريدريك الى قبرص في تموز عام ١٢٢٨ ، وقد تضاربت رغبته في ان يكون حاكما قويا لبيت المقدس وقبرص — كامبراطور ونائب الآله وكأب للصبي كونراد الذي ولدته يولاند الحزينة وهي على فراش الموت — مع وجهات نظر احدى البارونيات التي اعتبرته سيدا أعلى وليس وصيا على عرش قبرص ، بل مجرد وصي على عرش بيت المقدس من أجل ابنه ومسؤوليته نحو المحكمة العليا . وقد تعاطف الداوية والاسبتارية مع الامبراطور برغم معارضتهم العلنية له . ونصح «جون ايبلين» زعيم النبلاء من قبل أصدقائه بعدم لقاء فريدريك في قبرص بل في ان يتمرد على البر الرئيسي لوجود الداوية والاسبتارية وأناس طيبين آخرين في سورية ، ولان الامبراطور لم يستطع أبدا تنفيذ ماينوي القيام به. وتم التوصل الي تسوية نهائية تلقى فريدريك بموجبها الولاء كامبراطور ، وبناء على ذلك

(١) — فئتان متنازعتان في تاريخ ايطاليا السياسي خلال القرون الوسطى .

اعتبر سيدا أعلى على قبرص . ويبدو بانه كان هناك رهبان من الداوية والاسبتارية بين اولئك الذين اقسموا على الالتزام بهذه الاتفاقية من ناحية البارونات .

وفي غضون ذلك تواصلت المفاوضات مع مصر التي بدا حاكمها آنذاك بالندم على اتحاده القديم بالامبراطور . وقرر فريدريك الذي وصل عكا في شهر ايلول البت في الامور خلال مسيرته باتجاه يافا . وقد استقبله الداوية والاسبتارية أولا بالمراسم التي تليق بالامبراطور . وبعد وصوله بوقت قصير وصل الى عكا رهبان فرنسيسكان يحملون رسائل من روما كانت أولاها موجهة الى انبطريرك تعلن نبأ فصل فريدريك كنسيا . وكانت الحملة الصليبية قد ابحرت في ايلول الماضي تقريبا عندما أصيب الامبراطور في مرض الملاريا ، فترك الاسطول عند«اوترانتو Otranto »وذهب لاسترداد صحته في«بوزولي Pozzuoli » فكان ذلك بالنسبة للبابا غريغوري مثالا آخر عن المراوغة الامبراطورية التي أحبطت خطط البابوية منذ تسلم فريدريك للصليب لاول مرة في عام ١٢١٥ . لقد فصله كنسيا وحذره عندما واصل استعداداته من المغادرة طيلة بقائه تحت حرم الكنيسة ، وابلغ البطريرك بالوضع . وكانت الرسالة الثانية التي أحضرها الفرنسيسكان تحظر على الاخويات العسكرية مساعدة الامبراطور باية وسيلة كانت . وكتب البابا في الوقت نفسه الى الكامل ، سلطان مصر ، في محاولة لاحباط تحالفه مع فريدريك . وقد نصح مقدما الداوية والاسبتارية الامبراطور بعقد السلام في روما وانهما لن يتعاملا ، او يسيرا ، معه في حالة رفضه ، كما طلبوا تبليغ أنباء فصله كنسيا الى الجيش الصليبي . وتابعوا جيشه الى يافا على بعد مسافة معينة من قوة الصليبيين الرئيسية على الرغم من ذلك .

وقد حقق الزحف الى يافا غرضه ووقع في الثامن عشر من شباط عام ١٢٢٩ على اتفاقية مع مصر لمدة عشر سنوات ، تم التخلي بموجبها عن مدينة بيت المقدس لـ فريدريك شرط عدم اعادة بناء أسوارها ، على ان تبقى منطقة الداوية في ايدي المسلمين . وكان على الصليبيين خارج بيت المقدس ذاتها اعادة الاستيلاء على بيت لحم « Bethlehema » ، وربما تبنين « Toron » ، والطريق بين عكا والقدس الى جانب مدينتي اللد « Lydda » والرملة الواقعتين عليه .

وطبقت الاتفاقية على مملكة بيت المقدس وحدها ولم تستثن انطاكية – طرابلس فقط ، بل وعد فريدريك بان لايقدم اليها هو ورجاله المساعدة .

ولم يواز الرعب الذي استقبل به العالم الاسلامي أنباء هذه الاتفاقية سوى سخط الصليبيين الذين كان بينهم خمسة معارضين رئيسيين . وظل الهيكل في بيت المقدس بأيدي المسلمين وقد اثارت هذه المسألة غضب الداوية الذين اخفقوا في استعادة مقر قيادتهم ، وكانت مكتسبات الفرنج خارج المدينة ضئيلة ولم يكن لهم حق بالسلطة القضائية لانه ينبغي على المسلمين البقاء خاضعين لقوانينهم . ولم يعد بيت المقدس وفلسطين الى مصر بل الى دمشق التي التزم اللاتين باتفاقية معها . كما ان أراضي الصليبيين في الشمال لم تك مستثناة من الاتفاقية ومعرضة لخطر المسلمين فقط ، بل غير قادرة على تلقي العون من عكا . وكانت اكثر الممتلكات الداوية والاسبتار أهمية واقعة في الشمال مثل قلعة الحصن ، والمرقب ، وطرسوس وباغراس ، كما يمكن ان يكون استثناء انطاكية وطرابلس من الاتفاقية اهانة مقصودة للداوية ، برغم أننا لاحظنا بأنها ربما ناسبت الاخويات العسكرية ، التي كانت تتبع سياسة عدوانية تجاه المسلمين السوريين . واخيرا كان هناك شك في امكانية الدفاع عن المكتسبات الصليبية ، وقد أثير جدل حول استعادة بيت المقدس في مجرى الحملتين الصليبيتين الثالثة والخامسة . غير ان يقظة الاخويات العسكرية الطبيعية ومعرفتها بحدود المملكة لن يشجعها على قبول المسؤوليات عن بيت المقدس ومساحة ضيقة من الارض على الشاطىء ، لمعرفتهم بأن الدفاع عنها سيجهد مواردهم ويرهقها في حالة مغادرة الصليبيين . وشاركهم في نظرتهم هذه سلطان مصر الذي اعتقد بأن عقد هذه الاتفاقية قدم له الفائدة في معاملاته مع دمشق ، ويسهل استرداد بيت المقدس .

وقد عارض الاسبتارية والداوية هذه الاتفاقية بشدة ، وقرروا مع ذلك مرافقة الامبراطور الى بيت المقدس بالرغم من انهم أبدوا رفضهم المشاركة في طقوس استثنائية قامت بها كنيسة القيامة ، التي توج فيها فريدريك نفسه ملكا ، وأقام في الاسبتار . وفي نهاية فترة اقامته في المدينة ، حضرت الاخويات العسكرية مجلسا دعي اليه لتقرير الدفاع عنها ، ووعدوا بتقديم مساعدتهم . ويبدو بأنه لم تكن لديهم فكرة عن فقرة في الاتفاقية تمنع اعادة بناء اسوار

المدينة . ولم يستطع فريدريك القيام بشيء سوى المراوغة وغادر بيت المقدس دون تقرير اي شيء بعد تبادل حام في الآراء .

وقد ظهرت في هذه الاثناء معارضة منظمة ضد الامبراطور قادها البطريرك الذي وضع بيت المقدس تحت الحرمان طيلة فترة بقاء فريدريك في المدينة . ووقف الداوية علنا مع البطريرك وحدثت في ذلك الاثناء المؤامرة الداوية الاسبتارية الشهيرة التي انتقدها المؤرخ الانكليزي الكبير « ماثيو باريس » « Mattheu Paris » . فقد كان فريدريك يخطط للقيام بزيارة الاراضي المقدسة وحيدا على الاغلب وغير مسلح ويرتدي ملابس بسيطة كملابس الحجاج . فأخبر الاسبتارية والداوية السلطان الكامل بذلك وحرضوه على اسر او قتل الامبراطور . وقد روع السلطان لخيانة المسيحيين ، ونظرا لعلاقات الصداقة مع الامبراطور فريدريك بعث اليه برسالة ولما علم مضمونها لم يقل شيئا ، بل خطط للانتقام فيما بعد . ويمكن تحديد تاريخ حقده على الداوية من هذا الحادث .

ومهما ظن بقصة ماثيو باريس يبقى هناك شك ضئيل بأن كره فريدريك لاخوية الداوية ازداد أثناء حملته الصليبية . وقد حاول الاستيلاء على قلعة « عتليت الكبيرة Château Pélerin » ، لكنه أخفق بشكل مذل وعاد الى عكا ساخطا . وقيل بأنه نوى خطف أنصاره بما فيهم مقدم الداوية «بيتر مونتيفيو» لإعادتهم معه الى«ابوليا Apulia » او ليتخلص منهم . وهرب بيتر والبطريرك الى مركز الداوية في عكا طلبا للحماية ، ولعب فريدريك ورقته الاخيرة في تلك الاثناء ، فقد ناشد البيازنة الذين كانوا يساندون الهوهينستوفيين بشكل تقليدي ورجاله الخاصين الالمان . وبعد خطاب مثير مع اشارة خاصة الى بيتر ومونتيفيو ، أغرى الناس بمحاصرة قصر الداوية بجميع آلات الحصار ودروع الحرب الكاملة . ولم يكن الداوية مجهزين لمعالجة حالة كهذه نتيجة لغياب معظم رهبانهم ، لكن اثنان استطاعا الانهماك في لعبة فريدريك . فقد أثار جون ايلين الفار من الاعتقال الجنويين . وعندما تحقق الامبراطور من ضعفه الكبير للصمود أمام التحالف المثير للبارونية والداوية والجنويين والاساقفة ، انسحب والتجأ الى الاسبتارية الذين يبدو بأنهم ظلوا على الحياد في الحرب

الاهلية التي نشبت ضمن شوارع عكا لبضعة أيام ، وبعد ذلك بفترة قصيرة غادر فريدريك الى صقلية .

ان علاقة فريدريك مع السلطات الاسلامية لم تنته بعقد معاهدة بل كان له نفوذ في جميع العلاقات بين مسيحيي ومسلمي الشرق الادنى حتى موته، وقد لقي قيامه بذلك اهتماما كبيرا . وقد تركت الحملة الصليبية الامبراطورية المسيحيين السوريين في حالة تنذر بالفوضى . كما اندلعت أثر مغادرة فريدريك حرب أهلية بين الايبليين « Ibelin » ومؤيديهم من البارونية السورية والامبراطوريين الذين كان يقودهم خمسة ممثلين عن الملك من قبرص . ولعبت الاخويات العسكرية ، التي كانت معارضتها لفريدريك واضحة كثيرا أثناء حملته الصليبية ، دورا غير واضح بشكل جلي في النزاع ،لكنه يوجد بعض الشك في الجهة التي ساندوها . وفي عام ١٢٢٩ التجأ « فيليب صاحب نوفارا » الذي كان مواليا متعصبا للايبليين الى اسبتار نيقوسيا كما فعل«ايشيفا دو مونبليار» « Eschiva de Montbélard » الذي اصبح زعيما لجماعة البارونات بعد سنتين . وقد طوقه الامبراطوريون لكنه كان قادرا على احراز النجاح في معركة نيقوسيا ، وكان قتاله من العوامل الحاسمة في نصر أهل يبنة . كما أعلن في العام نفسه ، بأن مدن صور وصيدا استسلمت للامبراطور برغم انها حررت سابقا بواسطة الداوية ، وفي شباط من عام ١٢٣١ كتب البابا غريغوري ، الى الداوية يبلغهم بشكل قاطع بان الامبراطور يشكو من محاولاتهم لخرق اتفاقيته مع مصر ، وطلب منهم الكف عن ذلك فورا . وفي عام ١٢٣٢ استطاع أهل يبنة « Ibelins » بيع الداوية والاسبتارية قلعة كفارلت « Casalia of Cafarlet » وأراميس « Arames » وبيوتا في عكا ، وزادوا بذلك من أموالهم التي تمكنهم من استمرار تمردهم . وأثناء الصيف ، شنت القوات الامبراطورية طريقها الى نيقوسيا ونهبت ممتلكات الداوية والاسبتارية .

لكن الموقف الذي اتخذته الاخويات لم يسلمها الى جماعة يبنة . وأيا كانت مشاعرهم فان سياستهم يبدو بأنها كانت الابقاء على حياد غير ثابت ، وربما حاولوا في عام ١٢٢٩ التفاوض من أجل السلام . كما رتب الاسبتاري « ويليام دو تينير » « William de Tiniéres » استسلام الامبراطوريين في قلعة « ديو دامور » « Dieu d' Amour » للقوات البارونية في عام ١٢٣٠ .

وفي العام التالي تسلم ويليام منصب نائب مقدم الاسبتارية. لقد كان صديقا لـ جون صاحب يبنة الذي كان مقبولا أيضا لدى كبار الرهبان . وقد كان مقدمو الداوية والاسبتارية من بين هؤلاء الذين حاولوا التوسط اثناء حصار قوات جون صاحب يبنة ، الامبراطورية ، لمدينة بيروت في عام ١٢٣٢ . ووجد باليان امير يبنة الذي كان يقيم مع الداوية في « مونكوكو » « Moncocu » قرب طرابلس الابواب موصدة في وجهه في احد الايام . فذهب الى الاسبتارية المجاورين لكنهم رفضوا اقامته معهم ايضا . وكانت الاسباب التي قدمها الرهبان في كلتا الاخويتين هي أنهم لايرغبون في جعل رجال الامبراطور يسيئون الظن بهم .

وهناك ايضاح واحد ممكن لهذا الموقف المتكافىء وهو ان الاخويات كرست مواردها لسياسة عدوانية ضد المسلمين في الشمال ، لكنه ربما كان هناك سبب آخر أكثر اهمية . وفي عام ١٢٢٩ غزت مدينة « ابوليا Apulia » قوات بابوية يقودها ملك سابق لبيت المقدس ، هو « جون دوبريان » وكانت هذه الانباء التي تسربت من ايطاليا هي الدافع الذي جعل فريدريك يعود الى وطنه بسرعة. لقد كان موقف البابا غريغوري ازاء المعاهدة مع مصر واضحا لا لبس فيه في بادىء الامر ، ثم ساهم في الشكوك العامة حولها . كما وافق بناء على طلب مقدم الداوية ورئيس اساقفة نيقوسيا على الحرمان الذي فرضه البطريرك على بيت المقدس . وجدد فصل الامبراطور كنسيا وطلب من الفرسان التيوتون أنصار فريدريك الخضوع لسلطان الاسبتارية القضائي ، الذين كانوا يدعون بأن الاخوية الالمانية كانت تابعة لهم . وصدق أيضا ووسع الامتيازات التي اكتسبها الاسبتارية مقابل قتالهم المسلمين في الارض المقدسة . غير ان اتفاقية سان جرمانو : جاءت في الثالث والعشرين من تموز عام ١٢٣٠ بالسلام للبابوية والامبراطورية معا . فقد اراد غريغوري انهاء الحرب الاهلية في سورية اللاتينية ولم يكن امامه اختيار سوى الوقوف الي جانب فريدريك . وفي العام التالي رفع الحرمان عن بيت المقدس ووبخ البطريرك لمساندته أهل يبنة ، وصدق على تعيين « ريتشارد فيلانجييري Filangieri » ممثلا امبراطوريا وعين بطريرك انطاكية موفدا بابويا . ونوشدت الداوية والاسبتارية لاقناع البارونية المتمردة بالاستسلام .

وقد كان غريغوري قلقا من أجل استرداد الاخويات العسكرية لممتلكاتها في صقلية . وعند وصوله الى ابوليا كان فريدريك قد صادر الكثير من الاراضي الداوية انتقاما من معاملتهم له في سورية . وكان احد شروط اتفاقية سان جرمانو ينص على وجوب اعادة تلك الممتلكات . وفي آب من عام ١٢٣٠ أمر فريدريك موظفيه باعادة بضائعهم الى الداوية والاسبتارية محافظا على حقوق المحكمة الامبراطورية . هذا وقد بدل من موقفه في أواخر العام وصادر أراض عائدة لكلتا الاخويتين مرة ثانية . وطلب البابا من الامبراطور في شهر كانون الثاني عام ١٢٣١ اعادة بضائع الاخويات ، وفي شباط أيضا عندما عين رئيس الاساقفة « ريفيو » وسيطا في القضية كما في شهري نيسان وحزيران ثانيه . وفي الوقت نفسه انتخب الداوية « آرمند بيريغورد » مقدما عليهم فأدار ممتلكاتهم في صقلية وكالابلريا،وبذلك يتوقع منه لهذا السبب تفهم الامبراطور. وكان موقف البابا المتبدل تجاه سورية وكيفية عمل الاخويات وأملها في اسرداد ممتلكاتهم في صقلية ، عوامل تنحو بعض الشيء الى ايضاح رغبة الاخويات في عدم مضايقة فريدريك في أواخر عام ١٢٣١ .

وفي عام ١٢٣٤ وافق البابا على التمهيد لاتفاقية بين فريدريك والاسبتار تم التفاوض بشأنها من قبل بطريرك انطاكية وهيرمان صاحب سالزا مقدم الفرسان التيوتون . وأبلغ الاسبتار والداوية في شهر آب بأنه أرسل رئيس اساقفة « رافينا » « Ravenna » الى الاراضي المقدسة للتوصل الى معاهدة مع أصحاب يبنة على أساس هذه الاتفاقية ، لكن القتال اندلع مرة ثانية في عام ١٢٣٥ وكان عليه ان يأمر الداوية والاسبتارية بتقديم العون لريتشارد فيلانجييري ومنع جون صاحب يبنة وكوميونة عكا من مهاجمة صور . وفي عام ١٢٣٦ كتب البابا مرة ثانية الى الاخويات العسكرية يأمرها بتأييد الاتفاقية التي كان يأمل في ابرامها بين فريدريك وكوميونة عكا برغم ان حقيقة علاقاته مع الامبراطور كانت تزداد سوءا .

في عام ١٢٣٧ كانت سورية اللاتينية ضعيفة لدرجة الشعور ان خسائر الداوية القليلة نسبيا في « دربساك » « Darbsak » كانت السبب في القلق. وكانت الاتفاقية مع مصر ستنتهي في عام ١٢٣٩ . وفي تشرين الاول عام ١٢٣٨

كتب اساقفة وبارونات الارض المقدسة الى اوروبا للتشاور في الحملة الصليبية القادمة . وكان البارونات قد أرسلوا في ذلك الاثناء برسائل الى روما للتفاوض من أجل السلام مع الامبراطور . لانهم فقدوا قائدهم جون صاحب يبنة وآلت الحرب الاهلية الى مأزق ، مع احتجاز القوات الامبراطورية في صور . وكانت العلاقات بين فريدريك والبابا تزداد سوءا ، في حين كان الاسبتارية في هذا الوقت يتقدمون الى معسكر فريدريك . وفي اوائل كانون الاول من عام ١٢٣١ صدق الامبراطور على تلك الاخوية قرب نابولي ، وفي عام ١٢٣٤ عقد الاسبتارية في سورية سلاما معه . وفي تموز عام ١٢٣٨ كان الامبراطور لم يتخذ قراره بعد بشأن ممتلكات الاسبتار المصادرة في أبروزي « Abruzzi » وصحيح بان وثيقة المراسلات السابقة لفريدريك في عام ١٢٣٩ . والرسائل البابوية اللاحقة استمرت في الحديث عن المصادرات المتعلقة بالهيكل والاسبتار ، بينما لاتوجد وثائق تتعلق بعودة البضائع المصادرة . ومع ذلك يبدو بأن الاسبتارية استردوا ممتلكاتهم : وفي حزيران عام ١٢٣٨ صدق الامبراطور على منح الاخوية كنيسة تشغلها الامبراطورية ، وبعد عام وضع دير رهبان سان جيل تحت حمايته الخاصة اعترافا منه بالجميل مقابل الخدمة التي قدمها رئيس دير الرهبان له . وفي عام ١٢٤٣ اعطى الاسبتار قلعة عسقلان ، ووعد بدفع النفقات الضرورية لصيانتها والدفاع عنها وكتب بهذه الهبة : **« تكريما وتقديرا للاسبتارية الذين أبدوا اهتماما في ان يظهروا لنا الطاعة والمحبة فما وراء البحار »** . وفي عام ١٢٥٠ منع موظفيه من ازعاج الاسبتارية في « ترويا Troia » وتكشف عن ذلك وصيته الاخيرة : **« نعلن ان جميع بضائع دير فرسان الهيكل التي تم الاستيلاء عليها بأمر منا ، ستعاد اليهم وهذا حق مسلّم به »** وليس هناك ذكر للاسبتار في هذه الوصية .

ويبدو بان التبدل في موقف الاسبتارية من فريدريك حدث خلال حاكمية « غيرين » الذي ربما كان رئيسا لدير رهبان فرنسا من عام ١٢٢٥ ، وقد خلف « بيرتراند دو تيسي » قبل شهر أيار من عام ١٢٣١ . ومن الممكن ان يكون قد شغل منصب مقدم في تشرين الثاني عام ١٢٣٠ عندما استبدل في وقت سابق من ديره . وقد توفي في صيف عام ١٢٣٦ لكن الذين جاؤوا من بعده

واصلوا سياسات حاكميته . والمعروف عن « بيرتراند دو كوم » « Bertrand de Comps » الذي كان مقدما في ٢٠ ايلول عام ١٢٣٦ هو انه كان راهبا في سورية عام ١٢١٦ ، ورئيساً لدير رهبان سان جيل من عام ١٢٣١ وحتى عام ١٢٣٤ على الاقل . وكان صديقاً حميماً « لكونت بروفانس » « Provence » ويرجح بأن تكون عائلته قد نشأت في جنوبي فرنسا . ويبدو بأنه كان متعاطفا نحو الامبراطور ، فقد نسب اليه المؤرخون الحديثون بأنه رفع طبقة الرهبان الفرسان الى مركز سيطرة داخل الاخوية ، ولكن في عهده غير البابا من اعتقاده بأن الاسبتار بحاجة للاصلاح . وتوفي في أواخر عام ١٢٣٩ او أوائل ١٢٤٠ وخلفه « بيتر دو فييه بريد Peter de Vieilel Bride » ، والذي ربما كان قد ولد في « اوفيرن » « Auvergne » بفرنسا . ويبدو بأن حياته في الاخوية ارتبطت بحياة سلفه . ويظهر كلا الرجلين كأخوين عاديين في صحبة المقدم عام ١٢١٦ ، ويبدو بأن بيتر لم تسند اليه أية وظيفة حتى حاكمية بيرتراند. وهذا بحد ذاته يبدو شيئا قليلا . ان حياة المقدمين موثقة بشكل ضعيف ، بحيث ان عدم ذكر اسم أخ في المواثيق لايعتبر أمرا مستغربا . على أية حال فان مناقشتنا مبنية على حقيقة ان « بيتر » كان زعيما دينيا رهبانيا قبل ان يصبح مقدما مباشرة . وبعد عشرين عاما ، عُرف انه كان أخا راهبا . ان الترقية الى مرتبة الاخ الراهب تأتي عادة في بدء حياة الاخ ، وعادة يكون الزعيم الرهباني من لم يكن سابقا مكلفا بادارة دير اوروبي ، على الرغم من وجود بعض الاستثناءات . وعلى أي حال ، فقد كان بيتر نائبا للمقدم في عام ١٢٣٧ ويبدو بانه ظل يشغل هذا المنصب حتى انتخابه مقدما . وواصل بالتأكيد سياسات أسلافه الجبليين .

والسؤال المطروح هو كيف شغل المقدمون والاخوية المناصب منذ عام ١٢٣٤ فصاعدا ، التي لم تكن دارجة لدى الداوية والبارونية فحسب بل لدى البابوية فيما بعد ؟ ولماذا أيدت الاخوية الامبراطور ، التي كان ولاؤها للكرسي البابوي ، أمرا مميزا ، بعد عام ١٢٣٩ حسب الوثائق ، التي قضتها دائما في بلاد الشام ؟ والجواب هو ان الاسبتارية ، اولا ، كانوا ملكيين بشكل عام وليس هناك من شك في ان أبن فريدريك هو الملك الشرعي لبيت المقدس . لكنهم ، من ناحية ثانية ، آمنوا كثيرا بفوائد قيام تحالف مع مصر ، وقد عارض الداوية واكثرية البارونية السورية هذه السياسة .

وفي عام ١٢٣٩ كانت الدويلات الاسلامية المحيطة بعكا وانطاكية ـ طرابلس في حالة فوضى . كما تبع موت « الكامل » في عام ١٢٣٨ صراع على السلطة استمر حتى عام ١٢٤٠ . وبقيت المنافسة التقليدية على تلك الولايات ، بين « الصالح اسماعيل » حاكم دمشق وبين الصالح ايوب سلطان مصر ، شديدة كما كانت من قبل ، بينما أصبحت القبائل الخوارزمية المتجولة مصدر تهديد للجميع ، وليس غريبا ان يبحث الصليبيون عن فرصة لتحقيق بعض المكاسب لانفسهم . وكانت بعض الدويلات الاسلامية المحاطة بالخوارزميين ضعيفة ، فيما بدا ان الحملة الصليبية كانت وشيكة الوقوع .

وجد كل من « ثيوبالد » أمير شامبانيا ، وملك « ناڤار » « Navarre » بعد وصولهما على رأس الحملة الصليبية ، أن الصليبيين كانوا غير متأكدين من العمل الواجب القيام به ، وانه لا مجال للتفاوض فيما بينهم . وكانت الظروف تحول دون ذلك ، واصبح هذا الامر غير مألوف منذ حملة فريدريك الصليبية . وكان السؤال قبل انعقاد مجلس الحرب هو : أي من القوتين الاسلاميتين يجب مهاجمتها ؟ وليس هناك ما يشير الى الدور الذي لعبته الاخويات في المناقشة ، كما لم يعلن في الواقع عن حضور اخوية القديس يوحنا ، لكنه من الواضح بأن الداوية ساندوا حملة ضد مصر ، فيما كان الاسبتارية على خلاف حول الحرب مع دمشق . وقد اتخذ « ثيوبالد » أسوأ قرارات يمكن اتخاذها : أولا لتهديده المخافر المصرية الامامية في غزة وعسقلان ، ومن ثم التوجه الى دمشق ، اذ كان يرى شن الحرب على جبهتين . وبالاضافة الى ذلك لم يكن قادته يتجاوبون معه . وبعد مجلس الكونت « بار » « Bar » أبلغه جاسوس من الداوية عن وجود قوة مصرية في غزة اساء تقدير حجمها ، مما أدى الى وقوع قواته في مصيدة على الرغم من تحذيرات ملك ناڤار ومقدمي ثلاث اخويات عسكرية كبيرة ، فتكبد خسائر فادحة وتراجعت الحملة الصليبية الى عكا . وبعد فترة قصيرة استولى الكونت « بيتر بريتاني » على قافلة اسلامية في وادي الاردن . وانتقم الناصر داوود حاكم « الكرك » « Kerak » بمهاجمته القدس لدى علمه باعادة الصليبيين تحصين برج داوود « Tower of David » حيث استولى على المدينة ودمر تحصيناتها ثم انسحب منها .

وفي هذه الاثناء قاد « ثيوبالد » قواته الى طرابلس للتفاوض مع امير حماة، واثناء وجوده هناك نصب الصالح ايوب نفسه مقدما على مصر . وتحرك ملك نافار جنوبا الى الجليل وهدد المقاطعة الدمشقية . كما تقرب الصالح الاسماعيل نتيجة لخوفه من مصر من الصليبيين الذين قبلوا مقترحاته من اجل اتفاقية تعهدوا بموجبها بمساعدته ضد مصر، مقابل امتلاكهم لبيت المقدس ومناطق اخرى . وقد كانت هذه الاتفاقية من عمل الداوية الى حد بعيد ، وما من شك في ان الرأي العام في سورية اللاتينية كان وراءهم . لقد كانت دمشق هي الحليف التقليدي للدويلات المسيحية في حين كانت مصر هي العدو التقليدي لهم . وقد عارض الاسبتارية التحالف الجديد بشدة ، فقد كانوا آنذاك في المعسكر الامبراطوري ويساندون بشكل واضح سياسات فريدريك المؤيدة لمصر . بينما يحتمل ان يكون اعادة اكتساب قلعة صفد من قبل الداوية كنتيجة للاتفاقية مع مصر قد اثار غيرتهم . ولما اجروا مفاوضات مع مصر وعدهم ايوب باعادة اولئك الباقين احياء ممن اسرهم في غزة ، فصعد « ثيوبالد » هذا الاغراء ووافق على اتفاقية مع مصر ناسيا تعهده لدمشق متجاهلا الشعور العام لجيشه ضده . وبدأ بشن حرب لاتطاق على جبهتين وانتهى بعقد معاهدة بشروط قاسية مع كلا عدويه . وبعد بضعة أيام من مغادرته بلاد الشام وصل الى عكا « ريتشارد دو كورنوول » شقيق الملك هنري الثالث قادما من انكلترا .

وصل « ريتشارد دو كورنوول » يحمل سمعة كبيرة في حين استعد الاسبتارية للعمل بجد بغية كسب قبوله بوجهة نظرهم . وكان قد بدأ في رحلة الى الشرق يصحبه « تيودريك دو نوسا » «Theoderic de Nussa» رئيس دير رهبان انكلترا واقام لدى وصوله الى عكا في الاسبتار حيث تباحث الاسبتارية والداوية فيها وفي يافا في قضاياهم امامه . فرفض حسم اي شيء مباشرة وتابع الى عسقلان حيث انهى التحصينات وسلم القلعة مؤقتا الى الممثل الامبراطوري في بيت المقدس، وانجز اتفاقية كان ثيوبالد يتفاوض عليها مع الناصر صاحب الكرك . بعدئذ صدق على الاتفاقية مع ايوب عندما وصله مبعوثون من مصر ، وقد حاول الحصول على موافقة الداوية في البداية ، لكن

المناقشة أثبتت عدم جدوى ذلك وظهر بأنهم لم يقبلوا بها أبدا . وكانت هذه الاتفاقية لمدة خمسة عشر عاما . وقد عوضت مكتسبات الاسبتارية في بيت جبرين وفي عسقلان فيما بعد عن ماهو أكثر من جميع جهودهم ، بشكل يجعل أجيال الرهبان في المستقبل تذكر ريتشارد اعترافا منها بالجميل . وانسحب الداوية الى صفد حيث كانوا مشغولين باعادة التحصين وبدأوا المفاوضات مع دمشق من جديد . وعاد ريتشارد الى أوروبا حيث استقبله فريدريك الثاني بكل احترام نتيجة لسروره بالاتفاقية مع مصر .

ومع ذلك ، فما أن غادر ريتشارد حتى اندلع النزاع مرة ثانية . وكان الداوية متحالفين علنا مع دمشق ويتجاهلون الاتفاقية مع مصر وبدؤوا استنادا للعداوة التي قامت بين البابا والامبراطور آنذاك بمحاولة تحريض مصر لخرق الاتفاقية ، وفر أمير مسلم يدعى الجواد « Al - Jauwad » له مطالب قوية في دمشق الى عكا فطالبت دمشق بتسليمها اياه وأرسلت في الوقت نفسه مبلغا من المال مقابله ، وأرسل الجواد رغما عنه الى دمشق وتم اعدامه هناك . وفي عام ١٢٤٢ هاجم الداوية مدينة الخليل واصطدموا مع المصريين في معركة قرب عسقلان . وفي أواخر العام هاجم بعض الصليبيين ـ ربما الداوية ـ نابلس. واشير الى ان الاخوية انتهكت المعاهدة مع مصر بحماقة .

وفي الوقت نفسه بلغ كونراد سن الرشد في نيسان عام ١٢٤٣ وبذلك لم يعد لفريدريك أية حقوق في بلاد الشام ، وكان هناك احتمال بسيط لاعادة تجديد البارونات والداوية لوصايته على العرش . وكانوا جميعا علنا معتعيين « اليس » ملكة قبرص وزوجها « رالف دوسواسون «Ralph de Soissons» أوصياء على العرش . وكان الرأي العام في بلاد الشام ، الذي هو متعاطف مع دمشق دوما ، يميل الى صالح الداوية . وبذلت محاولة أخيرة لانقاذ الوضع ، وخطط الاسبتارية في عكا لانقلاب على الرغم من حقيقة إن أخويتهم ورطت نفسها في الشمال في حرب مع حلب . ففي احدى ليالي ربيع عام ١٢٤٢ جاء « ريتشارد فيلانجيري » صاحب صور سرا وادخل الى عكا عبر باب خلفي عائد للاسبتار وأخذ الى قصر الاخوية حيث تشاور مع الاسبتارية ومع اثنين

من تجار المدينة يرجح بانهما كانا من البيازنه . فانطلقوا الى الشوارع لحشد اكبر عدد من المتطوعين من جنسهم . لكنهم كانوا طائشين ووصل النبأ الى « فيليب مونتفورت » المعادي الرئيسي للحكم الامبراطوري في عكا ، فجمع رجاله الى جانب الجنوبيين والبنادقة الذين يكرهون فريدريك وهجموا على الاسبتار ، وارسل رسائل الى « بالين ايبلين » حاكم بيروت الذي انطلق شمالا لاعتراض سبيل فرار « فيلانجيري » . لكنه كان متأخرا كثيرا لان فيلانجيري ما أن سمع بذلك حتى فر مباشرة عائدا الى صور بأمان .

وكانت مدينة عكا في غضون ذلك تشبه مدينة « لومباردية » أكثر من كونها مدينة احتلها الصليبيون . وقاتل الجنويون الجلفيون«Guelf Genoese» والبنادقة البيازنة الجبلينيين في الشوارع . وفرض الجنويون حصارا على الاسبتار وقد انضم اليهم حالا « بالين ايبلين » والداوية الذين جاؤوا من قيسارية . ودام حصار الاسبتار ستة اشهر واستغل الداوية في الوقت نفسه فرصة اطفاء حريق كنيسة الفرسان التيوتون . ونزل مقدم الاسبتارية « بيتر دو فيل برايد » من المرقب حيث كان ينظم الحرب مع حلب وعسكر خارج أسوار المدينة ولكنه مات في السابع عشر من ايلول ، وجاء من بعده « ويليام دوشاتينوف » الذي كان قبل عشر سنوات راهبا عاديا ومارشالا للاخوية في عام ١٢٤١ . ويبدو بأن ويليام كان متعاطفا مع سياسة الجبلينيين، كما كان سلفه من قبل . لكن الاصدقاء أجروا مفاوضات أنكر فيها كل العلم بالمؤامرة ، وحاول البرهان على أنه لايجوز ان تتحمل جميع الاخويات آثام البعض . وتم التوصل الى اتفاقية ورفع الحصار عن الأسبتار .

تم الاستيلاء على صور في عام ١٢٤٣ وفقد بذلك آخر معقل في سورية اللاتينية على الرغم من بقاء ممثل جديد في طرابلس . واستدعي«فيلانجيري» مرة ثانية الى أوروبا . وقد عنت هزيمة الامبراطور نهاية السياسة الاسبتارية الخارجية . ففي مطلع عام ١٢٤٤ قصد « جوفري سرجينس » يافا للقاء ممثلي دمشق ، وتم تشكيل تحالف بين دمشق والكرك والمسيحيين ضد مصر عندما اندلعت الحرب بين دمشق ومصر . ولم يستطع الاسبتارية تحقيق الا القليل ضد هيئة الاساقفة والداوية والبارونية ، لذلك وافقوا على التحالف

مكرهين ، برغم انهم ومعهم الفرسان التيوتون حذروا من هذه التحالف . واستطاع بطريرك بيت المقدس ان يدون بأن المسيحيين وحدوا أنفسهم مع دمشق بتصميم مشترك . بيد انه كان هناك سبب آخر لهذا التحالف وهو حضور سلطان دمشق وسيد الكرك المسلم الى عكا حيث تم استقبالهما واستضافتهما بحفاوة من قبل الداوية ، واستدعت مصر الخوارزميين .

وقد اثير ايوب سلطان مصر بشكل كاف وكان الداوية هم الذين خرقوا المعاهدة التي أبرمها ريتشارد ، ونتيجة لقيام تحالف بين دمشق والكرك وعكا واثارته بالكثير من الاستفزازات الصغيرة ، لجأ السلطان ، الى الخوارزميين. وفور وصول هذا النبأ انطلق اسماعيل والناصر الى عكا وطلبوا المساعدة التي وعدهم بها الفرنجة . وكان قسم من مصر سيمنح للمسيحيين في حال نجاحهم .

وانقض الخوارزميون من الشمال في حزيران. كما قام ويليام دو شاتينوف وارمان دو بيريغورد « Armand de Périgord » بزيارة لبيت المقدس وساعدا في اخلاء المدينة . لكنهما غادرا قبل اقتحام الخوارزميين . في الحادي عشر من تموز سقط في القتال « ويليام دو سينليس « W. de Senlis » » نائب مقدم الاسبتار أثناء القتال . وصمدت الحامية حتى شهر آب، لكن الخوارزميين الذين كانوا يقاتلون الى جانب المصريين تقابلوا مع الحلفاء أمام مدينة غزة في شهر تشرين الاول ، وبذلك قضي على التحالف الشامي — الفرنجي وكانت الخسائر بين الاخويات العسكرية جسيمة بشكل خاص ، فقد أسر مقدما الاسبتارية والداوية وسيقا الى مصر حيث مات الاخير هناك . ولم يفق الخسائر التي وقعت عند غزة سوى خسائر معركة حطين . وبقي مقدم الاسبتار سجينا في القاهرة حتى عام ١٢٥٠ ، وعندما أطلق سراحه كان في حالة مرض شديد . وكانت الاخوية تدار لمدة ست سنوات تقريبا من قبل معاون نائب المقدم « جون دو روناي « Pohn de Ronay » » الذي كان حاكما لطرابلس ، وكان نائبا للمقدم أثناء معركة غزة .

وقد لام فريدريك الداوية وبارونات سورية بشدة عندما سمع بخسارة

بيت المقدس وهزيمة غزة ، وذلك لعدم اتباعهم نصيحة الاسبتارية والفرسان التيوتون . فقد عزل من قبل البابا انوسنت الرابع في مجلس ليون في عام ١٢٤٥ وانتقم لذلك بقطع الامدادات عن الارض المقدسة . وكانت الاخويات العسكرية قد اخبرت لمنع اي تأييد له والمساعدة على سحب ممثليه من طرابلس . ويبدو بأن الشعور في المشرق كان مايزال مستمرا في الارتفاع لان مقدام الداوية امر في عام ١٢٤٧ بمعاقبة اسبتاري وفارس تيوتوني وقوفا الى جانب الامبراطور .

ولم يشف وصول القديس لويس على راس حملة صليبية جديدة الجروح تماما برغم ماأشيع عن قيامه بمصالحة الداوية والاسبتار . وقد مثلت كلتا الاخويتين في مجلس قرر الهجوم على مصر ، لكنه من الواضح بأنهم وافقوا على ذلك مكرهين وربما كان ذلك لانهم كانوا مايزالون يشعرون بنتائج غزة . وكتب كل من مقدم الداوية ومارشال الاسبتار «ويليام دو كورسيل «W. de Corceles» الى ملك فرنسا يذكران بأن مصر ، وحلب ، ودمشق كانت تتفاوض من أجل عقد تحالف وانهما يخشيان على مصير يافا وقيسارية أمام قوة اسلامية موحدة . كما كتب « ويليام دو كورسيل « فيما بعد بأن مفاوضات المسلمين انتهت بالفشل ، وان حلب كانت تطلب عقد سلام مع لويس ، غير ان مقدم الداوية ويليام دو سوناك « W. de Sonnac » ذكر في ذلك الاثناء بأن أميرا مصريا يمثل السلطان قد اتصل به وهو يرغب في عقد معاهدة مع الصليبيين . وكانت هناك اشاعات قوية مفادها ان المقدم نفسه بادر بتلك المفاوضات وان لويس منعه من اقامة أية علاقات غير مخول بها مع المصريين . لكن الداوية بقيادة مقدم جديد هو « ريجنالد دو فيشييه « Reginald de Vichiers » عادوا في عام ١٢٥٢ الى موقفهم القديم وكانوا على انسجام مع دمشق مرة ثانية . وكان على لويس فرض سلطته بقوة للمحافظة على معاهدة مع مصر وواصل الاسبتارية تأييدهم لعائلة « هوهينستوفن » . وفي أواخر عام ١٢٥٨ وفي منتصف حرب « سانت ساباس » أحضر بوهمند صاحب انطاكية وطرابلس شقيقته « بليسانس « Plaisance » وابن أخيه « هينو » ملك قبرص الى عكا وطلب من المحكمة العليا التصديق على مطالب « هيو » كوريث للعرش بعد

كونرادين من عائلة هوهينستوفين ولذلك ينبغي ان تؤول السلطة الملكية له . ويمكن لـ بليسانس ان تصبح وصية على العرش في حال التصديق على تلك المطالب . وكان يؤيد بوهمند في ذلـك الداويـة والفرسان التيوتون والبيازنة والبنادقة . وقد حاول الاسبتاريـة ومعهم الجنويون والجمعيات الدينية والعديد من البارونات الكبار البرهنة على أنه لايمكن تقرير شيء في غيـاب كونرادين لكن أنصارهم كانوا أكثرية .

توفي فريدريك الثاني في عام ١٢٥٠ ، وشتت النزاع الطويـل القائم بين الاخويات حول حقوقه وسياسته ازاء مصر ، قوتها في وقت استطاعت فيه ان تكون قوة حقيقية للوحدة والاستقرار . كما تخلت أثناء هذا النزاع عن حذرها التقليدي من اكتساب اصقاع كبيرة ، يتعذر الدفاع عنها ، عن طريق التفاوض. وفي عام ١٢٥٠ ضاعت فرصة لاتينية لايمكن تعويضها وانتقلت المبادرة الى المسلمين ، ووجـد الازدراء الذي بدأ العالم المسيحي ينظر به الـى الداويـة والاسبتارية تبريرا أكثر .

« آه من خيانة الداوية القديمة : آه مـن تحريض الاسبتارية الدائم على الفتنة ! » .

بهذه الطريقـة الخطابيـة كتـب أحد المعاصرين الانكليز يقول : **« ان فريدريك ليس هو الشاهد الموثوق بأساليبهم الخداعية البارعة » .**

غادر القديس لويس الارض المقدسة في عام ١٢٥٤ . وفي غضون سنتين تورط الاسبتارية والداوية من جديد في قتال اندلع في شوارع عكا ، وكانـت حرب سان ساباس التي قسمت سورية اللاتينية من عام ١٢٥٦ الى عام ١٢٦١ امتدادا للصراع بين البندقية وجنوة على السيطرة على تجارة شرقي المتوسط. واقيم دير سان ساباس المستقـل على قمة رابية عائدة الـى جنوة تسمى « مونتجوى Montjoie » واقعة بين مراكز جمهوريتين مجاورتين للبحر في عكا . وقد طالب كل من البنادقة والجنويون بهذا الدير مبرزين وثائـق بابوية اثباتا لتملكهم وتم سماع القضية في الادارة البابويـة الرومانية طوال عام ١٢٥٥ .

وفي مطلع عام ١٢٥٦ أخذ الجنويون حقهم بالقوة واستولوا على سان ساباس فاحتج البنادقة ، لكن الجنويين ارسلوا عصابات مسلحة الى الجانب الآخر من التل نحو مركز منافسيهم فسلبوه ودمروا السفن البندقية في الميناء قبل ابعادها وتحقق الجنويون بعد ان هدأ انفعالهم بأنهم تمادوا كثيرا فعرضوا التفاوض لكن الاوان كان قد فات ، لان البنادقة بقيادة قنصلهم القوي « مارك جيستينياني Mark Giustiniani » كانوا يقيمون تحالفا ضخما ضدهم وكانوا يستعدون للحرب . واقتنع البيازنة الذين تحالفوا مع جنوة في البداية بأن تأييد البنادقة الذين كسبوا تعاطف عائلة ايبلين كسبوا لهذا السبب أيضا أقوى قسم في البارونيـة ، هو في مصلحتهم . كما كان تجار مرسيليا وجمعيات عكا الدينية (الخيرية) والداوية والفرسان التيوتون والامير بوهمند أمير انطاكيـة ـ طرابلس انصارا لهم أيضـا . اما الجنويون فكان يساندهم صاحب صور « فيليب مونتفورت » الذي رأى في هذا النزاع فرصة لاخراج البنادقة من منشآتهم العسكرية القوية في مدينته . كما تلقوا أيضا المساعدة من الكتلانيين « Catalans » ومن عائلة امبرياسي« Embriaci » ، ومن سادة جبيل الذين تحدوا بهـذا سيدهم الاعلى في طرابلس ، ومن السوريين الارثوذكس اليونانيين في عكا ، والاسبتارية . واستدعت كلتا الكوميونتان أساطيلهما البحرية من ايطاليا .

ووجد الاسبتارية أنفسهم للمرة الثانية وخلال عشرين عاما يلقون معارضة من الداوية وأكثرية البارونية السورية . لكنهم كانوا متحالفين مـع جنوة ومع «فيليب دو مونتفورت» وكلاهما كان يلقيان معارضة شديدة في أربعينات القرن الثالث عشر . وكان الجنويون آنذاك مستعدين بالطبع لتأييد ملوك بيت المقدس من عائلة هوهينستوفين وقد رأينا بان الاسبتار لديه تقليد ، منذ عهد بعيد ، يتعلق باقامة علاقات وثيقة مع عائلة امبرياسي الجنوية في جبيل . ويبدو بأن أكثر الاسباب أهمية لذلك هو ان الاسبتارية كانوا مقتنعين بصحة مطالب جنوة . وهناك بعض الدليل على تلقي رئيس الدير رسالة من البابا تطلب منه ان يدرك بان الجنويين اكتسبوا الدير على الرغم مـن أمر البابا الكسندر الرابع في عام ١٢٥٥ لرئيس دير رهبان الاسبتار بمنع المبيـع الـى الجنويين عن طريق سان ساباس الذي يمكن أن يكون ضارا بحقوقه .

وفي عام ١٢٥٧ هاجم الجنويون حي البيازنة في عكا واستولوا عليه بعد أن تأكدوا بأن البيازنة قد تخلوا عنهم . غير ان اسطولا من البندقية وصل حديثا اخترق حاجزا وضعه الجنويون أمام الميناء وانزل قواته على الارصفة. وبعد قتال عنيف ، تم رد الجنويين الى قسمهم الخاص في المدينة ، حيث كانت مؤخرتهم محمية من قبل الجزء الاسبتاري . وحوصر الاسبتار ذاته ، ولكن على الرغم من ان البنادقة احتلوا دير ساباس ، فانهم لم يستطيعوا دخول حي الجنويين ، الذين تم تعزيزهم وامدادهم من قبل اخوية القديس يوحنا . وربطت مسائل سياسية أخرى بالنزاع . فقد تمردت عائلة الامبرياسي ضد الامير بوهمند ، وحاولت اقامة دولة مستقلة . وتم أثناء غياب ملك كونرادين من عائلة هوهنستوفين انتخاب بليسانسن اميرة قبرص وصية على العرش في اجتماع حيث فاز البنادقة وانصارهم فيه بالتصويت على الجنويين وجماعتهم الذين حاولوا البرهان على ان هذه الخطوة هي انتهاك لحقوق كونرادين .لكن البابا الكسندر كان في ذلك الوقت يشرع بالعمل بناء على طلب بطريرك بيت المقدس الجديد « جيمس بنتاليون James Pantaleon » . واستدعى الى فيتيربو « Viterbo » ممثلين عن ثلاثة جمهوريات بحرية وطلب عقد هدنة عاجلة . وتم الموافقة على سفر مبعوثين من المدن الايطالية الى سورية وتسوية القضية ، وغادروا ايطاليا في تموز من عام ١٢٥٨ لكنه سنمع على الطريق بأن كارثة وقعت. وفي الثالث والعشرين من حزيران ابحر اسطول الجنويين من صور ووصل الى عكا بينما تقدم فيليب مونتفورت عن طريق البر . وقد انضم اليه خارج عكا ويليام دوشاتينوف الى جانب اخوة الاسبتار والتركوبول « Turcopoles » وفي اليوم التالي احبطت مناورات اسطول الجنويين وهزم كليا على أيدي البنادقة متكبدا خسائر فادحة . وتوقف «فيليب مونتفورت» خارج عكا ، في حين كان مكان الجنويين داخل المدينة في حالة اجتياح نهائي وانسحب فيليب والجنويون الى صور .

توفي ويليام دو شاتينوف في الفترة بين ٢٤ حزيران و ٩ تشرين الاول. وكان خلفه قادرا على عقد السلام ، ويبدو بان الاسبتارية بدؤوا حالا باقامة علاقات

طبيعية مع البنادقة من جديد ، برغم انه لم يتم ذلك حتى عام ١٢٦١ حين توصل اجتماع عام للمحكمة العليا حضره ممثلون عن الكوميونات الايطاليةالى اتفاقية نهائيــة . وكان علـى البنادقة والبيازنة اتخاذ مقر قيادة لهم في عكا ، والجنويين في صور حيث كانوا يتحشدون . وقيـل بأنهـم غادروا عكا وكأنها دمرت من قبل المسلمين .

وقد خلفويليام دو شاتينوف أبرز مقدمي القرنالثالث عشر قاطبة،وهو: « هيو ريفل » الذي ربما كان دوفينيا (١) . لقد كان آمرا لقلعـة الحصن في عام ١٢٤٣ وأصبح نائبا للمقدم بعد ذلك بعشرة أعوام . ويمكن ان يكون قد أدين بنجاحه في حياته السابقة لصداقة ويليام دو شاتينوف ، لكنه أظهـر نفسه فيما بعد بأنه قدير جدا ، واستمر في منصبه كنائـب للمقدم حتـى انتخابه مقدما في عام ١٢٥٨ ، وواضح بأنه كان يتحمل الكثير من اعباء الادارة في سنوات عمله كنائب للمقدم . وتظهر الوثائق الباقية من هذه الفترة بأنه كان يعمل دوما لصالح المقدم والاخوية في هبات هامة ومبادلات في الاراضي. ويمكن ان يكون ذلك لان ويليام كان رجلا مريضا بعد سجنـه الطويل ولم يستطع القيام بواجباته كاملة ، وان « هيوريفل » كان بالتأكيد من أبرز نواب المقدم في القرنين الثاني والثالث عشر . وقد بقيت شهرته بعد موته نتيجـة لاعجاب معاصريه به . وكان بالنسبة للاجيال اللاحقة مصلحا قبل كل شيء ويبدو بأنه استحق هذه السمعة . وكانت هناك نهضة تشريعية في حاكميته ، وقد وطد تطبيق تقليد عقد اجتماعات عامة متكررة لهيئـة الرهبان العامة ، واضلها خلفاؤه من بعده . ودعا الى عقد اول اجتماع عام لهيئة الرهبانالعامة في عام ١٢٦٢ ، وهو العام الذي تلا الحسم النهائي لحرب سان ساباس . وقد سار الذين خلفوه على منواله في أعوام ١٢٦٣،و١٢٦٤،و١٢٦٥،و١٢٦٨،و١٢٧٠. وقد شملتتشريعاته جميعنواحي الحياة العادية والانضباط والتنظيمالاقليمي. لكن يجب ذكر واحدة مـن ميزات حاكميته هنا وهي أن سلطـة المقدم كانت

---

(١) ـ نسبة الى مقاطعة (دوفينة) في فرنسا .

طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر خاضعة لقيود كثيرة . ان ادارة « هيوريفل » تظهر ولادة السلطة الحاكمية لكن قانونا واحدا على الاقل يعاكس هذا التطور الدستوري .

كان الاسبتارية منذ العام ١٢٣٤ وما بعد موالين ويؤيدون بشكل ثابت ملوك عائلة هوهينستوفين . وقد انقرض هذا الفرع من عائلة بيت المقدس عندما اعدم كونراذين بناء على أوامر تشارلز صاحب انجو في عام ١٢٦٨ . وجاءت من بعدها العائلة الملكية في قبرص التي كانت مطالبها معترفا بها من قبل المحكمة العليا في عام ١٢٦١ ومع ذلك فقد اعترضت عليها . كان هيو ملك قبرص سليلا من اليس الابنة الثانية لايزابيلا ملكة بيت المقدس ، لكن ابنة ايزابيلا الخامسة « ميلسيند » تزوجت الامير بوهمند الرابع صاحب انطاكية، وكان الابن الذي جاء نتيجة لهذا الزواج مايزال حيا . ويمكن ان يكون هيو ملك قبرص رئيسا لاسرة سابقة ، غير ان ماريا اميرة انطاكية مثلت جيلا سابقا وبذلك استطاعت بهذا الادعاء ان تكون على درجة قرابة اكبر من جد مشترك بينهما ، وقد أيد الداوية ادعاءاتها لكنها رفضت من قبل المحكمة العليا . وتوج « هيو » ملكا في الرابع والعشرين من ايلول عام ١٢٦٩ . ويبدو بان الاسبتارية قرروا تأييده لان الاسرة الهوهينستوفينية كانت قد انقرضت . وربما كانت هناك روابط صداقة شخصية اكبر بينهما ، وذلك لان هنري أمير انطاكية والد هيو كان قد دفن في اسبتار صور عام ١٢٧٦ . وأظهر الداوية عداء متزايدا للملك ، بينما وضعت ماريا قضيتها امام البابوية مسجلة احتجاجا رسميا . وقد وصلت الخلافات بين كلا الطرفين الى مجلس ليون في عام ١٢٧٤ .

وفي عام ١٢٧٦ ظهر العداء بين الملك وأخوية الداوية علنا ، وزادت من تفاقمه أعمال مقدمها الجديد وليام دو بوجو « W. de Beaujeu » الذي كان متعجرفا وطموحا،وذا قرابة بالاسرة الملكية في فرنسا ، كما كان فيما مضى مديرا لاملاك اخويته في ابوليا . وقد اشترى الداوية قلعة « فوكونري Fauconnerie قرب عكا بدون الحصول على موافقة الملك التي كانت ضرورية ، لانها كانت

اخوية ذات صفة خاصة ومستثناة لهذا السبب من تأدية مهمة عسكرية . فوجد « هيو » بأنه من المستحيل السيطرة على البارونات في عكا والمستوطنات الايطالية غير ان هذا التحدي من قبل الداوية لمركزه كان اهانة بالغة ، فقرر المغادرة الى قبرص واوضح بأنه لم يستطع حكم الارض المقدسة بسبب تصرف الاخويات العسكرية . وحاول الاسبتارية ، والفرسان التيوتون ، والبيازنة ، والجنويون ، وممثلو المواطنين وهيئة الاساقفة اقناع الداوية بالاعتراف بحقوق الملك لكنهم رفضوا يؤيدهم في ذلك البنادقة . واندلع القتال في عكا بين تابعيهم المحليين وتابعي الاسبتارية ، وسافر « هيو ريفل » الى صور مع بطريرك بيت المقدس وقادة آخرين من المملكة ،حيث دعا هناك الى عقد اجتماع للمحكمة العليا ناشد فيه جميع الذين كانوا يحضرون هذا الاجتماع « هيو » بالعودة الى عكا لكنه كان مصمما على الرجوع الى قبرص على الرغم من موافقته على تعيين « بالين ايبلين » نائبا عنه أثناء غيابه .

وفي العام التالي باعت ماريا اميرة انطاكية ، التي لم تقبل أبدا بتتويج « هيو » ملكا ، حقوقها المزعومة الى « تشارلز صاحب انجو » بموافقة البابا غريغوري العاشر الذي كان على فراش الموت . وفور ذلك اتخذ تشارلز لنفسه لقب ملك بيت المقدس وارسل الى سورية قوة مسلحة بقيادة «روجر اوف سان سيفيرينو « R. of San Severino »الذي دخل عكا بمساندة الداوية والبنادقة ، وابرز أوراق اعتماد موقعه من تشارلز وماريا والبابا جون الحادي والعشرين . وقد كان باليان ايبلين لايعرف ماذا يفعل لانه لم يحصل على تأييد من البطريرك والاسبتارية ، ولم تكن لديه تعليمات من قبرص ، فسلم نتيجة لذلك قلعة عكا للانجويين (١) ولما لم يتلق بارونات بيت المقدس ردا على سؤالهم حول توجيهات « هيو » ، استسلموا الى « روجر » الذي اعترف به ايضا ممثلا شرعيا من قبل الامير بوهمند السابع .

ولم يبد الاسبتارية أية مقاومة لروجر ، ويبدو بأنهم منحوه أيضا بعض التأييد وربما كان ذلك جزئيا لانهم فقدوا مقدمهم حديثا . توفي « هيو » بعد

---

(١) ــ آل انجوا والانجويين : نسبة الى مقاطعة انجو الفرنسية ــ المترجم .

الاول من نيسان ويحتمل ان يكون قبل الاول من تموز عام ١٢٧٧ . ويبدو بأن راهبا متمرسا اسمه « نيكولاس لورني N. Lorgne » كان في هذا الوقت في طرابلس ، جيء به الى عكا وعين نائبا للمقدم لكي يدير الاخوية في ذلك الاثناء . وتم انتخابه مقدما قبل الرابع من آب من العام التالي . وقد اشتغل عدة وظائف كانت احداها في المشرق . ويحتمل ان يكون قد تسلم في حوالي عام ١٢٥٠ وظيفة آمر لقلعة المرقب واصبح بعدئذ آمرا على قلعة الحصن . كما عين مارشالا في النصف الثاني من ستينات القرن الثالث عشر واحتفظ بهذا المنصب حتى ١٢٧١ ، عندما أصبح نائبا للمقدم وتسلم منصب المارشال مرة ثانية في السابع من تشرين الاول عام ١٢٧٣ لكنه نصب قائدا على طرابلس في شهر أيار عام ١٢٧٥ . ويبدو بأنه ظل في طرابلس حتى صيف عام ١٢٧٧ عندما ظهر من جديد كنائب للمقدم قبل انتخابه مقدما . وواصل عادة « هيو ريفل » في عقد اجتماعات عامة متكررة لهيئة الرهبان العامة وتجاوب بدقة مع ادوارد الاول ملك انكلترا ، يشاركه في اعتقاده بأهمية قيام تحالف مع المغوليين ، وقد أرسلت الاخوية فرقة لتقاتل في الجيش المغولي في معركة حمص . ويحتمل ان يكون قد مات في الثاني عشر من آذار عام ١٢٨٤ وقد خلفه راهب فرنسي يدعى « جون دو فيير J. de Villiers » الذي استدعي في عام ١٢٦٩ الى سورية من قبل « هيو ريفل » . كان جون قائدا على طرابلس في عام ١٢٧٧ وعين رئيسا لدير رهبان فرنسا في السابع عشر من حزيران عام ١٢٨٢ وربما كان تعيينه في هذه الوظيفة قد تم في الاشهر الاولى من العام نفسه . وظل في فرنسا حتى تم انتخابه لتولي السيادة قبل ايلول عام ١٢٨٥ ولم يغادر الى سورية فورا بل توقف في اوروبا حتى نهاية عام ١٢٨٦ على الاقل .

وسرعان ماساءت حكومة « روجر » اوف سان سيفيرينو » في الاراضي المقدسة ونزل الملك « هيو » في عام ١٢٧٩ فجأة في صور حيث تلقى تأييد حاكمها « جون مونتفورت » . وحث فرسان الداوية عكا على القيام بعمل مشترك استجابة للانجويين ، وأجبر « هيو » على العودة الى قبرص حيث صادر هناك املاك الداوية انتقاما لذلك . وفي الثلاثين من آذار عام ١٢٨٢ بدأ

« آل فسبر Vespers » الصقليون ، من ناحية ثانية ، سلسلة من الاحداث أدت الى زوال الهيمنة الانجوية غير المستقـرة في البحر الابيض المتوسط . واستدعي « روجر سان سيفيرينو » الى ايطاليا تاركا عكا بعهدة قهرمانها « اودو بويليشين« Odo Poilechien » لكنه وجد بعض التأييد من سائر المملكة علـى الرغم من ابحار « هيو » ملك قبرص الى صور مرة ثانية ، وظل في صور حتى وفاته في آذار عام ١٢٨٤ وتوج ابنه جون ملكا على بيت المقدس حتى توفي في أيار عام ١٢٨٥ ، دون ان يعترف به سوى في صور وبيروت . وقد توفي « تشارلز صاحب انجو » في هذه الاثناء وكان خلفه متورطا في حروب ايطالية ، وحدث أيضا ان تسلم ملك جديد للحكم في قبرص . وأرسل مبعوث ملكي من قبرص الى عكا أقام في الاسبتار ،وأجرى مفاوضات مع آل انجوا ووافـق كل مـن البارونية والداوية على منح تأييدهم برغم ان الداوية كانوا مكرهين على ذلك، ووصل الملك الجديد هنري بنفسه الى عكا في الرابع من حزيران عام ١٢٨٦ ورفض « اودو بويليشين » ، من ناحية ثانية ، التخلي عن القلعة . وقد خطط الملك هنري لمحاصرة القلعة بعد مناشدتها بالاستسلام ثلاث مرات لكنه اثني عن خطته من قبل مقدمي الداوية والفرسان التيوتون ونائب مقدم الاسبتارية الذين رفضوا مساعدته في هذه المغامرة بحجة انه ليس باستطاعتهم تأييد أحد في نزاع سياسي بوصفهم أعضاء في اخويات دينية ، وان الهجوم بأية طريقة قد يشكل عملية خطرة . ويجب ان تكون هذه الحجة قد بدت غريبـة لاولئك الذين شاهدوا تطفل الاخويات على السياسات طوال القرن الاخير . ومعذلك وافقوا على التوسط ، وتفاوضوا على تسليم القلعة لهم والتي تخلوا عنها بعدئذ الى الملك . وتوج هنري ملكا في صور في الخامس عشر مـن آب وعاد بعد انتهاء مراسيم التتويج الـى عكا واقام في نزل الاسبتـار حيث مثلت أمامه مهرجانات تضمنت مشاهد من قصة « المائدة المستديرة » ومن قصة طروادة الرومانسية . وقد توجب ان تكون هذه المهرجانات الاخيرة في فلسطين اللاتينية كما وترتب ان تكون عكا في أيدي المماليك خلال خمسة أعوام .

لقد رأينا الاسبتارية يتخذون في تلك النزاعات دائما موقفا مواليا للملك ويؤيدون ريموند روبين والهوهينستوفينيين وانصار لوزينيان ، لكن النزاعات

السياسية لم تكن شغلهم الشاغل الوحيد . وقد كانت آخر سنوات سورية اللاتينية مظلمة بالنسبة لهم بسبب خسائرهم الخاصة في قلعة الحصن والمرقب وبسبب مشاركتهم في الدفاع الاخير عن عكا . لقد كسبوا قلعة الحصن في عام ١١٤٤ وكانت هذه القلعة في القرن الثاني عشر قوية بشكل ملحوظ لكنه أعيد تحصينها وتوسيعها في حوالي عام ١٢٠٠ ، ويحتمل ان يكون ذلك قد تم بعد حدوث زلزال سبب ضررا شاملا في عام ١١٩٦ . وواصل الاسبتارية تحسين تحصيناتها حتى عام ١٢٧١ ، مما جعلها أضخم جميع القلاع الفرنجية الموجودة في سورية . وكانت هذه القلعة التي تمثل مفتاح الاراضي التي استولى عليها الصليبيون محط اعجاب أجيال من المسافرين . فقد وصفها احدهم بأنها أقوى وأعظم قلاع الاسبتارية وتسيطر الى حد كبير على مناطق المسلمين . وقد ضمت حامية مغامرة نفذت السياسة الاسبتارية في الاغارات المتواصلة على الدويلات الاسلامية الصغيرة في سورية .

في عام ١٢٦٧ كانت القلعة وشقيقتها قلعة المرقب تتعرضان لخطر حقيقي حيث هوجمت منطقتهما وهلك عدد كبير من السكان ، كما جرى في العام نفسه اعادة تجديد الاسبتارية لاتفاقية معقودة مع المماليك لحماية المرقب وقلعة الحصن ، لكنها رفضت مباشرة من قبل بيبرس وكتب المقدم « هيو ريفل » بانه يشك في امكانية الاحتفاظ بالقلاع طويلا الى جانب موارد الأخوية الحاضرة . وقد قرر بيبرس الشروع في هذا العمل فعلا . وتقدم في عام ١٢٦٩ نحو المرقب لكن جيشه أجبر على التراجع الى دمشق بسبب سوء الطقس . وفي أواخر العام نفسه قام على رأس مائتين من الفرسان وبدون آلات حصار بهجوم مباغت على قلعة الحصن ، فأكره الاسبتارية على الفرار برغم قيامهم بهجمة من داخل القلعة . لكنه كان ينبغي المحافظة على القلعة بعد هذا الهجوم لان بيبرس انسحب مخربا المزارع والحقول في الاراضي المجاورة ، وكان انسحابه بسبب خوفه على مصر لان الحملة الصليبية الثانية بقيادة القديس لويس كانت آنذاك على وشك التحرك باتجاه شمال افريقيا .

واستطاع بيبرس نتيجة فشل الحملة الصليبية قبالة تونس ، مغادرة

مصر في مطلع عام ١٢٧١ والهجوم مرة ثانية على منطقة طرابلس . وفي شباط استسلمت له القلعة الداوية « كاستلوم ألبوم » . وظهر في الثالث من آذار مقابل قلعةالحصن وانضمتاليه فرق أرسلتمن حماه وصهيون والحشيشية. وسقطت القلعة في الخامس من الشهر على الرغم من ان المطر الغزير قد منع المنجنيقات الاسلامية واوقف عملها فجأة مقابل القلعة ذاتها . وفي الحادي والعشرين من آذار استطاع المسلمون اجتياح سد ترابي اقيم الى الجنوبمن القلعه التي كانت على الارجح قيد الانشاء عندما بدأ الحصار وهيأ بيبرس النقابين لديه للتأثير على القلعة ، وانهار البرج المقام على الجدار الواقع بين الابراج بعد ثمانية أيام ، واندفع المسلمون بعنف الى الساحة الخارجية وهاجموا الفلاحين الذين اجتمعوا اليها وكذلك الفرسان الذين لم يتراجعوا الى القلعة العليا . وواجه المسلمون معاقل قلعة الحصن الداخلية الضخمة والمقامة على جانبها الصخري المنحدر ، يعلوها معقل على الطرف الجنوبي في اعلى الموضع الذي اقتحموا القلعة منه . وقد صمدت الحامية الموجودة في الساحة الداخلية عشرة أيام أخرى لكنها استسلمت في الثامن من نيسان وسمح لها بالتراجع الى طرابلس .

وحاول الاسبتارية والداوية مباشرة عقد صلح مع السلطان فكانت الشروط التي فرضها قاسية ، وأجبر الاسبتارية على الجلاء عن « كورفيس Corveis » بعد ان قاموا بتدميرها نهائيا . وقد استسلمت قلعة « بيلدا Belda » العائدة لهم ومنطقتها الى جانب جميع الاراضي التي أخذت حديثا . وتم تقاسم المدينة والمرقب وعائداتها مع بيبرس وتعهد الاسبتارية بعدم ترميم أسوار حماية القلعة . كما تم تقاسم كل الجزية التي دفعها المسلمون اليهم مع السلطان أيضا .

أعيد تحصين قلعة المرقب التي تم الاستيلاء عليها عام ١١٨٦ وأدخلت عليها تحسينات في أوائل القرن الثالث عشر . وقد وصفها بوضعها الراهن زائر زارها في عام ١٢١٢ بقوله : انها قلعة ضخمة ، وفي غاية القوة ومحصنة بسور مزدوج،وبعدد كبير من الابراج التي تبدو كأنها ملائمة لاقامة الشعائر أكثر منها للدفاع . ووصفها آخر على انها واحدة من أقوى القلاع العائدة للفرنج في

المشرق ، وكانت قوية مع أنها أقل جمالا من قلعة الحصن ومبنية من حجارة رديئة . وكان متراسها مقاما على رأس هضبة مثلثة الشكل بدت منها أسوار القلعة في خطوط تشبه غطاء القادس(١) . وبقيت هذه القلعة ، بسقوط قلعة الحصن ، القلعة الهامة الوحيدة في أيدي الاسبتارية . وواصلت الاخوية مع ذلك اتباع سياسة عدائية نحو جيرانها . ففي عام ١٢٨٠ استغلت الذعر الذي سببه الغزو المغولي وشنت هجوما على المسلمين المجاورين وهزمت قوة تركية أثناء عودتها ، فانتقم المسلمون لذلك بفرضهم حصارا على القلعة التي كان في حاميتها ستمائة فارس . وقد قام الاسبتارية بهجمة من داخل القلعة وهزموا مهاجميهم ، وقد تسبب عن ذلك تلف مزروعات الارض المحيطة بالقلعة . وفي عام ١٢٨١ عقدت الاخوية هدنه مع « قلاوون » . وقد جعلتهم خبرتهم بالمصريين يشكون فيما اذا كان سيتم التقيد بهذه الهدنة أم لا ، واستطاع « نيكولاس لورني » ان يبلغ بأن قلعة المرقب كانت محمية جيدا كتدبير وقائي .

لقد كان الاسبتارية هم الذين خرقوا الهدنة في الواقع بانضمامهم الى الجيش المنغولي وبمشاركتهم في معركة حمص . وكتب « كالافن » مباشرة الى حاكم قلعة الحصن المسلم آنذاك يأمره بمهاجمة المرقب . فجمع هذا قوة ضخمة لكنها بوغتت وهزمت هزيمة منكرة عندما اقتربت من هدفها ، وتم القيام بهجوم آخر في شتاء عام ١٢٨٢ لكنه رد الى حماه بسبب العواصف الثلجية . وواصل الاسبتارية شن الاغارات على البلد المجاور . وقام السلطان من ناحية ثانية باستعدادات ضخمة وظهر أمام المرقب في السابع عشر من نيسان عام ١٢٨٥ ، محضرا معه عددا ضخما من آلات الحصار . وكانت القلعة محمية جيدا ومجهزة أيضا . واستطاع المسلمون خلال شهر أخذ فكرة بسيطة عن القلعة ، ونجح المهندسون المسلمون من ناحية ثانية في نقب القسم الشمالي من التحصينات حيث الاسوار الداخلية والخارجية التي تفصل بين الابراج والمتصلة باحكام . وفي الثالث والعشرين من أيار دمر « برج الامل Tower of Hope » واكتشف المدافعون بان النقب نفذ

---

(١) ـ القادس : سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف ـ المترجم .

الى ابعد من ذلك معرضا البرج الكبير المستدير للخطر فاستسلموا لهذ السيف وسمح لهم بالانسحاب الى طرابلس .

وقد سقطت طرابلس نفسها في عام ١٢٨٩ برغم مشاركة قوة من الاسبتارية بقيادة المارشال «ماثيو دو كليرمونت M. de Clermnot » في الدفاع عنها . وبدأت جيوش المماليك في أقل من سنتين بالزحف نحو عكا . واتخذ قلاوون ومن بعده الاشرف خليل تدابير وقائية . وقد كان الجيش المشترك أضخم بكثير من القوات الصليبية الموجودة داخل المدينة ، كما أنه أحضر معه مئة آلة حصار تقريبا كان بعضها ضخما جدا . لقد كانت مدينة عكا مبنية على رعن (١). وأمتد على جانبها المتجه نحو اليابسة سوران متوازيان من البحر الى البحر مطوقان المدينة وضاحيتها « مونتموزارت Montmusart » . وقد كانت تلك التحصينات قوية وتحسن باستمرار ، لكنه وفي وسط الاسوار برز نتوء خطر يمتد من بوابة « سانت انطوني » الى برج « سانت نيكولاس » مؤلفا الابراج التالية :

برج الكونتيسه « بلوا Blois » ، وبرج الانكليز ، وبرج الملك هنري الثاني ، والبرج « الملعون Accursed » ، وحصن الملك « هيو » . وكانت الابراج المقامة على الاسوار الداخلية تقع خلف تلك الابراج على الخط الخارجي مباشرة مقللة من أهميتها الدفاعية . وقد طوق بناء الضاحية ، داخل المدينة، القلعة بحيث يمكنه تأدية دور ثانوي في الدفاع ، فيما يمكن محاصرته عن طريق اسوار المدينة ذاتها . ولدى وصول انباء الاستعدادات المصرية ، ارسل الملك هنري شقيقه أملريك من قبرص لتولي قيادة الدفاع عنها ، ووعد باللحاق به مع التعزيزات . وكان المدافعون مقسمين الى اربعة اقسام كان يقود أحدها « جون فيلرز » ومقدم أخوية « سانت توماس » في عكا واسندت للاسبتارية والداوية مهمة حماية الاسوار الممتدة شمالا من بوابة « سانت انطوني » الى البحر والمحيطة بضاحية مونتموزارت . وقد ألحق الفرسان التيوتون بقوات المملكة في النتوء حول البرج الملعون .

---

(١) ـ الرعن : قنة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر ـ المترجم .

وصلت جيوش المماليك أمام عكا في الخامس من نيسان عام ١٢٩١ وانتشرت على طول خط الاسوار . وكان جيش حماه في الشمال يواجه الداوية بينما كان جيش دمشق الموجود على يساره يواجه الاسبتارية . وبدأت آلات الحصار الاسلامية برمي مقذوفاتها من التحصينات في السادس من نيسان . وفي مساء الخامس عشر من الشهر نفسه وبعد بضعة أيام شن الداوية والاسبتارية هجمات فاشلة ولم تحدث أية عمليات مسلحة اخرى . لكن الملك وصل من قبرص في الرابع من أيار ومعه التعزيزات . ورفضت محاولته التفاوض على عقد الصلح مع السلطان ، وقرر في الثامن من أيار سحب الرجال من الاسوار الخارجية التي أصبح الدفاع عنها متعذرا ،وتراجع المدافعون الى الاسوار الداخلية في السادس عشر من الشهر نفسه . وقد جرى في ذلك اليوم هجوم عنيف من قبل المسلمين على بوابة « سانت انطوني » وكانت جهود الداوية والاسبتارية وحدها هي التي أوقفتهم من الاندفاع داخل المدينة . وأظهر « ماثيو كليرمونت » شجاعته في هذه المعركة . وبعد يومين شن المماليك هجوما شاملا على الامتداد الجنوبي للاسوار من بوابة «سانت انطوني» الى برج البطريرك . وقد تركز ثقل هذا الهجوم على النتوء البارز وبشكل خاص على البرج الملعون الذي تم الاستيلاء عليه فورا . واتحد الداوية والاسبتارية لشن هجوم معاكس بقيادة « ماثيو كليرمونت » لكنهم هزموا وجرح مقدم الداوية « ويليام بوجو » جرحا مميتا وغاد ماثيو كليرمونت ، الى المعركة .

كان المماليك يشقون طريقهم على طول الاسوار واقتحموا المدينة. توفي « ماثيو كليرمونت » وهو يقاتل قرب الحي الجنوي وبدأ رحيل المسيحيين ونقلت مراكب تجذيف صغيرة حشنودا من اللاجئين خارج المدينة الى قوادس، تقف بعيدا عن المدينة . وكانت السفن غير كافية لاخلاء جميع السكان وذبحت اعداد ضخمة منهم او أخذت الى الاسر . ومع حلول الظلام كانت عكا بأسرها في أيدي الاشرف باستثناء قصر الداوية الضخم الواقع على قمة الرعن . ووافق مارشال الداوية «بيتردو سيفري « Peter de Sevrey » بعد بضعة أيام على عقد هدنة ، غير ان التحرش بالسكان المسيحيين من قبل بعض الجنود العرب ،

الذين كانوا يشرفون على عملية الاستسلام ، ادى الى اثارة المدافعين واتخذوه حجة لذبح المسلمين داخـل أسوارهم واستعدوا للمقاومة حتـى النهاية .
وفي اليوم التالي عرض الاشرف عليهم شروطا مشرفة لكنه أعدم بيتر وبعض مرافقيه بعد تطويقهم ، عندما خرجوا للتفاوض ، وكان المهندسون المسلمون في هذه الاثناء ينقبون أسوار القصر التي بدأت بالانهيار . وكان ثقل المهاجمين الذين شاركوا في الهجوم الذي أمر به السلطان كبيرا جدا ، فتسبب في اضعاف بنية البناء فانهار مبتلعا المسلمين والمسيحيين داخل جدرانه . . وقد جرح « جون دوفيير » مقدم الاسبتارية بجرح مميت اثناء قتاله من أجل عكا . وحمل بعد سقوط المدينة من قبل السرجندارية وغلمان فرسانه الى مركب نقله الـى قبرص . ومن هناك كتب بعد وقت قصير الى رئيس دير سان جيل يقول : **« بحزن قلبي كبير ، نهزم بأسى عميق » .**

* * *

الفصل السابع

فترة اضافية في قبرص

كان العديد من اللاجئين من سورية الى قبرص معدمين . وبالرغم من ان الاخويات العسكرية كانت قادرة على استيراد المواد الغذائية والحاجات الضرورية بكميات كبيرة من اوروبا ، الا ان معنوياتها كانت محطمة . فيمكن تقسيم تاريخ أخوية القديس يوحنا بين عامي ١٢٩١ و ١٣١٠ الى فترتين : تتسم الفترة الاولى الممتدة حتى عام ١٣٠٠ بالصراع الداخلي والافتقار الميؤوس منه الى الهدف . الا ان الفترة الثانية شهدت تطورات من شأنها أن تضع حجر أساس حياة الأخوية الجديدة في رودس .

اتجه « جان دوفيير » والباقون في الدير في سورية فورا الى قبرص . وفي السنة التالية عقد اجتماع عام لهيئة الرهبان العامة تقرر بموجبه جعل «ليماسول» مركز الاخوية . وأيد البابا « سيليستاين » الخامس هذا القرار. وفي عام ١٢٩٦ أقامت الاخوية اسبتارا جديدا للحجاج في البلدة . لقد كان قرارا واضحا اذ كانت قبرص أهم ولاية شرقية ماتزال في أيد غربية ، وظلت تستخدم لمدة قرن كنقطة هجوم على مصر وسورية . وعلاوة على ذلك ، كان للاسبتارية عدة ممتلكات ضخمة على ارض الجزيرة : نخص بالذكر قلعة في مدينة « كولوس » وممتلكات في نيقوسيا وفي ليماسول ذاتها .

الا ان الاسبتارية في البداية شاطروا القبارصة اللاتين الآخرين الافتقار الى الهدف وتجلى ذلك في شكل حملات عسكرية . ففي عام ١٢٩٩ غزا « غازان Ghazan » ، خان بلاد فارس المغولي ، سورية بجيش ضخم وانضمت اليه

القوات الارمنية . وفي أثناء زحفه فيما بين مدينة حلب ودمشق ، كتب الى ملك قبرص ومقدمي الداوية والاسبتارية يدعوهم الى المشاركة في حملته . وفي تشرين الثاني عقد الملك هنري اجتماعا مع « جيمس دوموليه » ، مقدم فرسان الهيكل ، ومع نائب المقدم في غيام ويليام دو فيياريه ، الا انهم لم يستطيعوا ان يتفقوا على اية خطة ، مع ان « غازان » كان قد ارسل اليهم رسالة أخرى في نهاية الشهر ذاته .

في السنة التالية تم عقد مؤتمر آخر . وهذه المرة انضم مبعوث مغولي واملريك دو لوزينيان ـ صاحب صور وشقيق الملك ـ الى هنري وجيمس دو موليه ونائب مقدم الاسبتارية وتم اتخاذ قرار بتجهيز اسطول غادر فاماغوستا في العشرين من تموز متوجها نحو مصر . وتم احراق قرية في الدلتا، ثم تابع الصليبيون حملتهم حتى وصلوا الى الاسكندرية ومكثوا في الميناء يوما واحدا ثم تحركوا شمالا . واشتبكوا في عكا وطرطوس مع المسلمين وقتلوا عددا قليلا منهم ، لكن عندما حط الاسبتارية ترحالهم في « مرقية » من سفينتين صغيرتين لنهب المدينة ، كانت قواتهم على مايبدو ثملة وفوجئوا بقوة مسلحة صدتهم الى الشاطىء . وكانت قوادس الاسطول الصليبي متجهة نحو البحر ولم تتمكن من تقديم اية مساعدة . ولم يستطع الاسبتارية مغادرة الشاطىء الا بعد اشتباك ضار ادى الى فقدان فارس وعشرين جندي مشاة .

في العام نفسه بعث غازان برسول آخر وصل الى قبرص يخبر بان الخان ينوي غزو سورية من جديد ويريد من القبارصة الاجتماع به في ارمينيا . فحشد املريك قوة تتألف من ثلاثمائة رجل على وجه التقريب انضمت اليهـا الداوية والاسبتارية بنسبة الضعف او أكثر ، وقاد « ويليام دو فيياريه » اخويته وابحر مع جيشه القليل العدد الى جزيرة ارواد ـ التي تقع قـرب طرطوس ، والتي كانت في أيدي الداوية . استولى املريك علـى طرطوس الا انه انسحب الى جزيرة ارواد بعد بضعة أيام ليرى حلفاءه الذين لم يظهروا . لم يصل المغوليون الى اية منطقة مجاورة حتى شباط التالي ، الا انهم مالبثوا ان انسحبوا بعد غزو سورية حتى مدينة حمص . وعاد املريك وجيشه الى

قبرص . وبالاضافة الى مشاركته في هذه الحملات القصيرة ، قام « ويليام دو فيياريه » بحملتين على أرمينيا بين عامي ١٣٠٠ و ١٣٠٥ يصحبه عدد كبير من الرجال الخيالة .

هذه الحملات المتقطعة لم تكن مؤثرة ولا بناءة . الا أنه يجدر بنا الذكر بان الاسبتارية كانوا يقومون بعملية تغيير لتنظيمهم العسكري . ومن الجلي بأنه بعد عام ١٢٩١ حاول الاسبتارية قطع التزاماتهم العسكرية ، ومنع الرهبان من دخول قبرص . وصدر قانون في عام ١٢٩٢ حرم استقبال الفرسان في معظم انحاء اوروبا دون اذن خاص من مقدم أوتريمر «Outremer» أو نائبه ، لان بعض الاديرة تعج بالفرسان الرهبان . ومنذ عام ١٣٠٠ صدرت أحكام معينة تتعلق بعدد الرهبان الذين سيعتبرون مقيمين في قبرص . الا انه يبدو أن هذا العدد خضع أيضا لتخفيضات ابعد مدى ، وقد يعود تقليص الاسبتارية لمؤسستها العسكرية الى محاولتها البدء بالتركيز على الحرب البحرية ، هذا التغيير الذي كان من شأنه ان يؤثر الى حد بعيد على تاريخها اللاحق . كان ذلك بالطبع نتيجة طبيعية لظروف الاسبتارية الجديدة ، ذلك أنها محصورة ضمن جزيرة . يبدو ان هذا التغيير كان قد قوبل بالتشجيع ، ان لم تكن البابوية قد بادرت به . ففي أواخر عام ١٢٩١ حاول البابا نيقولا الرابع تسهيل ايجار اسطول الاسبتارية الحربي من الغرب . وفي عام ١٢٩٢ كتب الى «جان دوفيير» يفوضه باستعمال قوادس الاخوية في الدفاع عن مملكته أرمينيا ، وذكر في رسالته بأنه كان قد أمر الاسبتارية بانشاء اسطول . ويبدو ان تطور الجيش البحري كان سريعا . اشار تشارلز الثاني ملك نابولي الى القوادس العشرة التي تملكها الاخوية في قبرص ، كما أشار البابا بونيفاس عام ١٢٩٧ إلى استغلال الرهبان للملاحة في مواصلة الحرب ضد المسلمين . وفي عام ١٢٩٥ أقر مصلحو الاخوية بأنه ينبغي قيادة جيشها برا وبحرا ، وظهر ادميرال الاسبتار للمرة الاولى عام ١٢٩٩ . وبعد فترة جهدت البابوية لان تؤكد بان الملاحة الاسبتارية تتسم بالكفاءة . وفي عام ١٣٠٦ التمست رحمة ملك قبرص من أجل الرهبان ، الذين حرم عليهم الملك تجهيز سفنهم دون اذن ملكي يصعب الحصول عليه .

لم يكن تغير شكل واجباتهم العسكرية المشكلة الوحيدة التي واجهت الاسبتارية في السنوات التي تلت سقوط عكا ، الا انهم تعرضوا الى عاصفة متزايدة من النقد في أوروبا والى عداء ملك قبرص ، بينما أصاب الاخوية نزاع داخلي شديد .

تعرضت الاخويات العسكرية للنقد الحاد منذ السنين الاولى من تأسيسها . اما في الاصقاع الاخرى فان فئة كبيرة من رجال الدين رفضت امتيازاتها داخل الكنيسة . الا انهم كانوا أيضاً مثقلين بذنوب خطيرة في الامور الاكثر دنيوية وكانت هناك فئة كبيرة من الشعراء والادباء الذين اتهم أفرادها بالكسب الحرام والترف والغرور والشهوانية والجشع والخداع والحسد لبعضهم البعض . وجهت هذه التهم الى العديد من المؤسسات الكبيرة في القرن التاسع عشر . في الحقيقة يبدو من العسير معرفة كيف استطاعت الفئات ذات الامتياز تجنب الوقوع في احدى هذه الآثام . الا ان احد الاتهامات المتكررة كان أكثر خطورة : فقد قيل أنه بسبب عيوبهم ومن أجل ان يخدموا مآربهم تعمدوا عرقلة الغزو الثاني للارض المقدسة . كان هذا الاعتقاد السائد الذي عبر عنه الشاعر « روستان بيرينغوبيه » في القرن الرابع عشر بقوله : « ان الداوية والاسبتارية بجبنهم فسحوا المجال للمسلمين بأن يبقوا مدينتي عكا وبيت المقدس في قبضتهم » . كما عبر عن هذا الاعتقاد شاعر آخر اسمه « فيليب دو ناتويل » الذي اسره المسلمون بعد معركة غزة عام ١٢٣٩ بالقول :

« لو كان فرسان الاسبتار وفرسان الداوية والفرسان الرهبان مثلا يحتذى في القتال بالنسبة لرجالنا ، لما باتت فروسيتنا العظيمة حبيسة ، ولما بقي مسلم على قيد الحياة . الا انهم لم يكونوا كذلك على الاطلاق ، وهذا خطأ فادح للدرجة الخيانة » .

أتهم « ماتيو باريز » ، راهب كنيسة القديس « البانز » الاخويات باعاقة الحملات الصليبية خشية ان يمحوا انتصار الصليبيين اسباب وجودهم ، وان يقيموا علاقات مع المسلمين على حساب المسيحيين . قبل ذلك وفي عام ١١٩٧ اتهمهم اوتو الالماني رئيس كنيسة القديس « بلازين St. Blasien » بالانشغال

بالتجارة وبوجود تآلف سري مع المسلمين . وبعد عام ١٢٩١ اتهمهم بطرس دوبيوس ، « ووليام نوغار W. Nogare » بالاحتفاظ بالاموال التي كان يمكن للصليبيين استغلالها بشكل جيد . وفي عام ١٢٧٤ لاحظ جيمس ملك اراغون عند انعقاد مجلس ليون عدم رغبة الاخوية في دعم الخطط الموضوعة من أجل القيام بحملة واسعة النطاق . وعندما قال مقدم الداوية بأنه سيحتاج الى عدد من الفرسان يتراوح بين المئتين والخمسين والثلاثمائة فارس والى خمسمائة جندي مشاة . علق اراغوان على ذلك قائلا : عندما سمعت المقدم يقول هذا ، لم استطع الا ان اقول : « أيها المقدم ، اذا ارسل البابا خمسمائة جندي مشاة ، فكم جندي سيكون تحت امرتك ؟ » .

وهكذا نرى كيف عرضتهم سياسات الاخويات في سورية الى هذا النوع من الاتهامات . وبسبب وعيهم آفقر وضعف الفرنج في المشرق ، عارض الاسبتارية والداوية باستمرار الخطط التي تتطلع الى استئناف الغزو حيث لم يكن باستطاعتهم الصمود طالما ان الصليبيين ينفذون تعهداتهم ثم يغادرون. ولم يكن النقاد الاوروبيون الفئة الافضل في الحكم على الوضع في سورية اللاتينية ، وسنرى في الفصل القادم كيف بالغوا بشدة في الثروة الحقيقية للاسبتارية . الا ان هذا يدل دائما على ان للنقد تأثير على الرأي العام ، وأن وضع الاخويات كان قد ضعف بسبب بعدهم الواضح جدا عن البساطةالاصيلة، وبسبب حاول نظريات الغزو البسيطة بدلا من شن الحملات الصليبية الكبيرة الفعالة والقديمة . وذلك بتشجيع من قبل رجال أمثال القديس فرانسيس ووليام صاحب طرابلس .

ادى النقد المستمر الى سلسلة من الاقتراحات لاقامة اتحاد بينالاخويات العسكرية . وظهرت هذه المقترحات لاول مرة في عهد القديس لويس ونوقشت في مجلس ليون عام ١٢٧٤ . الا انها رفضت عندما قيل بان ملوك اسبانيا لن يوافقوا بسبب تهديد اخوياتهم الوطنية في سانتياغو ، وكالاترافا ، والقنطرة الا ان الموضوع استمر يهيمن على أفكار المنظرين للحملات الصليبية ، وفكر تشارلز الثاني ملك آنجو ، وبطرس دوبوا ، وريموند لول ، باقامة اخوية

موحدة ومحسنة تكون ذات ثروة وقوة ونظام بحيث لايمكن قهرها . ويرى بعضهم بان مقدم هذه الاخوية سيكون حاكم مملكة بيت المقدس بعد استعادتها، والمرشح لذلك في نظرهم هو « ريموند لول » . وفي آب عام ١٢٩١ أمر البابا نيقولا الرابع رؤساء أساقفة العالم المسيحي بتداول أمر اقامة اتحاد بين الاسبتارية والداوية في مجامعهم الكنسية الاقليمية . وفي الوقت نفسه طلب من الملك فيليب ، ملك فرنسا ، النصح في هذه المسألة .

طرح الموضوع مرة أخرى من قبل بونيفاس الثامن ، وفي عام ١٣٠٥ كتب جيمس دو موليه ، مقدم الداوية ، تقريرا عن اتحاد الاخويات قدمه الى البابا كليمنت الخامس ، جاء فيه انه ليس فقط من غير المشرف للاخويتين القديمتين ان يتحدا ، بل ان التغيرات الناجمة في العادات ستؤدي أيضا الى نزاعات وصعوبات في التكيف . ففي البداية سيكون هناك مضاعفة في عدد المكاتب . وبالتأكيد سيجري تخفيض في مقدار الصدقات التي تمنح للفقراء وفي تقديم الاضحيات على المذبح ، بينما لن يكون باستطاعة اخوية واحدة بمفردها تقديم المساهمة العسكرية الكبيرة التي تقدمها اخويتان . ويمكن للاخويات ان تحصل على مال أوفر من المؤمنين عندما تكون منفصلة عن بعضها بعضا . واعترف « جيمس دو موليه » بوجود منافسة بين الاخويات ودافع عنها مقارنا بينها وبين المنافسة بين الفرانسيسكان والدومينيكان . فقد قامت كلتا الاخويتين بمهامهما على نحو أفضل مدفوعتين بتنافس بريء . وتم التأكيد ، دون اللجوء الى كثير من المبررات ، على ان الحسد لم يقلل من فعاليتهما او قدرتهما على التعاون في الحملات ، وان رهبان اية أخوية لم يستعملوا العنف ضد رهبان الاخويات الاخرى . واختتم تقريره بمناقشات مهمة تؤيد الخطة التي لابد وان تكون قد تركت أثرها في نفس قرائه كشيء منذر بالسوء . فاذا ما اتحد الاسبتار وأخوية الداوية ، ستغدو الاخوية لوحدها قوية قادرة على الدفاع عن حقوقها على أكمل وجه ، ولن يبقى ترشيد امتلاك نزل الفقراء ومنح الصدقات بنفقات مرتفعة . على اية حال ، خلال مضي عشر سنوات من هذا التقرير الجدلي المقنع من المفروض ان يتم تنفيذ خطط الاتحاد ولو بوسائل غير متوقعة . كان يجب قمع أخوية فرسان الهيكل ، وكان على « جيمس دو موليه » ان يواجه

الموت من أجل جرائم ربما لم ترتكب ، وستقع اراضي الداوية في ايدي الاسبتارية التي ستسند الى مقدمهم دفة قيادة الغزو .

واجهت الاخويات العسكرية هي الاخرى معارضة الملك هنري ، ملك قبرص . فقد كان شغل هنري الشاغل ان يفرض الحكم الملكي ، واستطاع ان يحصل في ذلك على تعاطف البابوية . فقد قاده قراره هذا الى الدخول في نزاع مع الاخويات ذات الامتياز . فحاول فرض ضريبة الرؤوس ومقدارها بيزنطان اثنان على الخدام والاقنان في كل الفئات الدينية بما فيها الداوية والاسبتارية . وفي عام ١٢٩٨ علم بونيفاس الثامن بان الملك كان قد توقف عن هذا الابتزاز عندما علم بأنه كان بذلك ينتهك حقوق الاخويات . وبسبب اعتراف الملك الصريح بالذنب وبحقوق المملكة ، سمح له البابا بفرض ضريبة الرؤوس . الا انه في عام ١٢٩٩ ، حظر على هنري وبشدة ابتزاز هذه الضريبة أكثر من ذلك من الاخويات الدينية او من اية فئة من رعيته . وبعد عشرة اشهر انب البابا الملك لعدم ملاحظته لاوضاع التحكيم التي وضعت لمعالجة نزاعاته مع كهنة المملكة . يبدو ان هنري كان يحاول جاهدا منع الاخويات العسكرية من التحول الى اخويات ذات قوة هائلة في سورية . كما منعت الاسبتارية والداوية من اكتساب ثروات في قبرص الا باذن من الملك او البابا . وفي عام ١٢٩٩ ، اعترض بونيفاس الثامن على الوضع بقوله انه بالرغم من صدور هذا المنع من البابوية الا انه كان قد نفذ بشدة كبيرة . وكان على الملك ان يسمح للاخويات بان تمتلك ثروات بمقادير قليلة . ويبدو أنه لم يكن لهذا الاعتراض تأثير كبير ، فهناك دليل على تزايد ملكية الاراضي في قبرص قبل عام ١٣١٠ ، بالرغم من ان البابا طلب في عام ١٣٠٤ من اسقف مدينة ليماسول ان يساعد الاسبتارية على امتلاك مصلى اغريقي بالجوار من مقرهم في المدينة . ومن الواضح ان الرهبان ارادوا بذلك توسيع مقر قيادتهم .

ربما كان الانتقاد في اوروبا وعزم ملك قبرص على كونه صاحب النفوذ الاعلى في علاقاته مع الاسبتار من المشاكل الصغيرة ، بالمقارنة مع عدم الثقة الداخلية والنزاع والثورة . ففي اراغون حاولت اخوات القديس يوحنا الراهبات في دير « سيجينا Sigena» الخروج عن الاخوية والحصول على استقلالهن .

فدخل أمير أراغون والبابوية والاسبتار في نزاع دام عدة سنوات . وفي عام ١٢٩٧ قام بعض الرهبان في « دير كاستيل Castile » بتمرد في ظروف غامضة ، الا ان تمردهم لم يقمع الا بعد عام ١٢٩٩ ، كما كان هناك اضطراب اكثر خطورة في المركز . فقد توفي « جون دو فيير » خلال الفترة من ٢٠ تشرين الاول ١٢٩٣ الى ٣٠ ايلول ١٢٩٤ . فانتخب الاسبتارية مكانه « اودو دي بان Odo des Pins» الذي شغل المنصب الرهباني في « درابيير » وذكر في نص آخر ان اودو كان مسنا جدا عندما نصب مقدما وانه كان متعصبا للدين . لكن مهما كانت شخصيته ـ في الحقيقة ليست لدينا ادلة كثيرة لكي نكون أكثر دقة ـ فلا شك في ان ادارته قوبلت بالاستياء الشديد من قبل الرهبان . قد لايقع اللوم كليا على أودو . فقد يكون قد ورث أعراف الحكم المطلق التي ـ كما يعتقد في بلاد أخرى ـ تعود الى هيئة حكام « هيو ريفل » . وعند وفاته وجه دير قيرص تقريرا مطولا الى الحاكم الجديد ، ويليام دو فيياريه ، لايتهم فيه فقط اودو بل أيضا اتباعه بالتبذير والفساد واساءة استعمال السلطة.

الا ان ادارة اودو تبدو مرهقة الى حد ما . وفي عام ١٢٩٥ اجتمع عدد من الاسبتارية الكبار في روما تحت قيادة بونيفاس دو كالاماندراسين »، نائب المقدم لمدينة « اونريمر » . وويليام دو فيياريه ، رئيس ديرسان جيل والذي أصبح مقدما فيما بعد . وقدموا للبابوية خططا لاصلاح بنية الاخوية . الا ان هذه الخطط لم تنفذ ، ربما يعود السبب الى أنه أولا لم يكن من الممكن اقناع الادارة البابوية بان هذه الخطط ضرورية وثانيا بسبب وفاة اودو . سنتناول هذه الخطط في فصل قادم لذلك يكفي القول هنا بان هؤلاء المصلحين اقترحوا بان يكون مستقبل ادارة الاخوية في أيدي سبعة اداريين ، أحدهم سيكون المقدم . وسيتداول هؤلاء الاداريون في كل الامور سرا ويؤخذ بتصويت الاكثرية. وسيتحتم عليهم أداء واجباتهم الدينية والقسم على ان يحافظوا على ان تكون قوانين الاسبتار وأعرافه تحت الملاحظة . فغدا بوينفاس الثامن قلقا حول وضع الاخوية . ولفت المصلحون انتباهه الى حكم مقدمها السيء ، فتقرب « ويليام دو فيياريه » منه عدة مرات ، طالبا دعمه لخططهم . وفي ١٢ آب ١٢٩٥ كتب الى « اودو » يوبخه على عدم ملاحظة قوانين وأعراف الاسبتار ويطلب منه

اصلاح سلوكه . لكن يبدو ان المقدم لم يأخذ بانذار البابا ودعي الى روما لتفسير سلوكه . ووافته المنية في ١٧ آذار ١٢٩٦ أثناء رحلته الى المغرب .

وبعد عدة أيام ، أي في السادس والعشرين من آذار ، انتخب ويليام دو فيياريه مقدما باجتماع عام في مدينة ليما سول . ولد ويليام من عائلة بروفانسية . انحدر منها عدد من اعضاء الاخوية منهم : جوردين ، ورئيسة راهبات الاسبتار في مدينة فيوكس ، وبيندكت ، ابنة أخيه وهي راهبة في كنيسة سيجينا ، وأخيها ، فولك ، خليفة ويليام كمقدم . اما ويليام نفسه فقد تمتع بسيرة طويلة ومتميزة في الاسبتار . ففي ستينات القرن الثالث عشر كان جواخا «Drapier» ، وفي عام ١٢٦٩ غدا نائبا لرئيس دير سان جيل . ويبدو انه سمح له البقاء جواخا أثناء ادارته للدير . وفي عام ١٢٧١ نصب رئيسا لدير رهبان سان جيل وظل يشغل هذا المنصب حتى تم انتخابه مقدما . فقد كان رئيس دير جيدا ، اعترف الدير بكفاءته عام ١٢٩٩ ، اذ انه تميز بين المصلحين في روما عام ١٢٩٥ بالطريقة الجدية التي اتبعها في التماس الدعم من البابا والكاردينالات وبعنايته الواضحة بالاخوية .

كما وجد الآخرون فيه نفعا لمقدراته . ففي عام ١٢٧٤ عينه البابا مديرا مؤقتا لدير « كومتات — فينيسين «Comtat Venaissin » التي حكمها بعدل وقوة حتى منتصف ثمانينات القرن الثالث عشر وفي نهاية القرن عين مستشارا لتشارلز الثاني ، ملك نابولي . فقد قيل بأن الملوك والبارونات والامراء كانوا يعرفونه ويحبونه . من الواضح انه كان انسانا جذابا له شعبية عظيمة ، ملما بالسياسات الدينية والدنيوية وقادرا على التحرك بسهولة في بلاطات أوروبا .

الا أنه اتخذ من دير سان جيل موطنا له . ويبدو انه كان يكره الشرق . وبما أنه كان رئيس دير مر به مرتين فقط الى الدير في سورية او قبرص بدلا من ست مرات كما اقتضته العادة . وعندما انتخب لاول مرة مقدما ، عزم على تشكيل الادارة من ديره القديم . وكانت هناك مناقشات تؤيد قراره هذا . فقد كانت أوروبا مركز قوة . وكان من المهم للمقدم ان يكون على صلة بالسلطات العليا الدينية والدنيوية . وكان ويليام قادرا على زيادة ممتلكات الاسبتار في الغرب

بسبب نفوذه الشخصي . الا ان رؤساء الاديرة في قبرص الذين مازالوا ساخطين على ادارة اودو، لم يرغبوا في ان يتحملوا مقدما غائبا باستمرار . وعندما انتخب ويليام عاملوه حسب سيرة سابقيه الطويلة من الفساد وسوء الادارة . فمنهم من يؤيد فكرة انتخابه فقط اذا اتبع عادات الاخوية كما وعد .

وفي حوالي الثالث والعشرين من آب عام ١٢٩٧ ، عقد ويليام اجتماعا كنسيا عاما نقل مقره من مدينة افينيون الى مدينة مارسيليا . ووافق الدير مكرها على ارسال ممثليه بالرغم من شكوكهم بشرعية هذا الانعقاد . وطلب المجمع الكنسي نفسه من المقدم ان يوافق على ان يكون مقر المجمع في قبرص، الا ان ويليام رفض الانتقال بالرغم من ان الدير ، وبتأييد من البابا ، طلب مرة أخرى من ويليام ان يكون حاضرا في عام ١٢٩٨ . وفي الثامن من ايار من عام ١٢٩٩ ، تلقى رؤساء الاديرة في ليماسول دعوات الى انعقاد مجمع كنسي لعام جديد في ١ آب عام ١٣٠٠ في مدينة افينون . فبرر ويليام سلوكه بالاشارة الى الاضطرابات في أوروبا ، واضاف بأنه لايملك المال الكافي للمرور بالشرق بطريقة محترمة .

قرر رؤساء الاديرة ان يقاوموا، ففوضوا رسولين لحمل جوابهم . ودرسوا اعتذارات ويليام ورفضوها بشدة ، ثم طرحوا مشكلتهم الخاصة بهم ، وخلصوا الى قرارات منها ان السلطة التي تدعو الى انعقاد اجتماع كنسي تتألف من المقدم والدير معا ، لذلك يجب ان ينعقد في البلد الذي يقطن فيه كلاهما . لهذا ينبغي انعقاده في قبرص التي هي مقر الحاكمية حسب قرار الاجتماع الكنسي العام الذي أيده البابا . ثم انهى رؤساء الاديرة مناقشاتهم بتهديد مبطن نوعا ما . وذكروا ويليام بانذار البابا « لاودودي بان » واشاروا الى أنه لايمكن استدعاء رؤساء الدير من جديد الى الاجتماع الكنسي العام الا بضمان رهباني جديد . ومن ضمن تعليماتهم للرسولين ، في النهاية ، اثارة الحق الرسمي بالمعارضة : أي طلب حقوق الاخوة الرهبان من المقدم .

الا أنه على مايبدو لم يلجأ الرسولان الى هذه الخطوة النهائية . فقد كان قرار رؤساء الاديرة ناجحا ، اذ وافق « ويليام دو فيياريه » على مطالبهم .

وعلى الرغم من انه مازال في اوروبا في تموز عام ١٣٠٠ ، الا انه تراس اجتماعا كنسيا عاما عقد في قبرص في الخامس من تشرين الثاني حيث أقر بان تعقد الاجتماعات الكنسية العامة القادمة في قبرص اذا لم ينتقل مقر الدير مرة أخرى الى سورية . والغيت تشريعات الاجتماع الكنسي الذي عقد في مدينتي افينون ومارسيليا . ولم يعد ويليام نفسه الى اوروبا ، اذ يبدو انه قد حمل نفسه على القبول بالشرق . وفي عام ١٣٠٢ بلغ ملك اراغون ان ويليام يخطط للعودة الى الغرب نظرا لتدهور صحته بسبب تقلب الطقس في تلك البلاد .

وبوصول المقدم الى قبرص عام ١٣٠٠ انتهت مرحلة الازمة . كان ويليام نشيطا يتمتع بقدرات حقيقية ، وكانت سلسلة الاجتماعات الكنسية العامة السنوية أحسن انجاز في بداية تاريخ الاسبتار . فقد حد من نفوذ المقدم وزاد من نفوذ المجمع الكنسي واصلح الادارة المحلية والحياة الرهبانية وضبط ادارة قبرص بحيث يشرف المقدم والدير على الولاية ، كما اوجد وظائف جديدة ، ووسع مناطق نفوذ رؤساء الاديرة . فلا بد ان يعزى أحياء وتوسع الاسبتار بعد عام ١٣١٠ الى تشريعات ويليام .

توفي ويليام قبل الثالث من تشرين الثاني عام ١٣٠٥ . وخلفه ابن أخيه « فولك دو فيياريه » الذي نصب ادميرالا في عام ١٢٩٩ ثم نائبا للمقدم في عام ١٣٠١ . ولم يكن في عام ١٣٠٣ يشغل هذا المنصب ، الا انه أعيد تعيينه فيه بعد فترة من العام نفسه عندما عمل مرة أخرى نائبا للمقدم . ومثل عمه ، تمتع فولك بجاذبية كبيرة ، وربما ساعدت شعبيته على انتخابه مقدما . فقد كان قادرا ومتفهما جدا للشؤون المالية . وتألقت حاكميته في البداية ، الا انها انتهت باستقالته ويوصمه بالعار . وبعد عام ١٣١٠ مالبث ان ظهرت بعض العيوب في شخصيته منها : عدم المبالاة والخداع اللذين تجليا في محاولته الفاشلة في محاكمة بعض الرهبان عام ١٣٠٣ من أجل أعمال لم تكن في الواقع مخالفة للقوانين . كما كان يتظاهر بالشجاعة ، وتجلى ذلك في تنظيمه لحملة صليبية عام ١٣٠٨ . وسيطرت على الحاكمية الاولى التي شكلها بعض المشاكل الدستورية في قبرص ، ووقعت ثلاثة حوادث اخرى كان لها فيما بعد تأثير

عميق على تاريخ اخوية القديس يوحنا . وهذه الحوادث هي : الاستيلاء على رودس ، وسقوط الداوية ، والقيام بحملة صليبية مخطط لها بين عامي ١٣٠٨ – ١٣١٠ .

ظهرت مشكلة سياسية في قبرص عام ١٣٠٦ كشفت من جديد المواقف التقليدية للاخويات العسكرية ، أي دعم الاسبتارية للملك ومعارضة الداوية له. وقام شقيق الملك ، املريك دو لوزينيان ، صاحب صور بتدبير تمرد . وتتفق معظم المصادر على ان سوء نية املريك هو سبب هذا التمرد ، الا انه من الواضح ان حكم هنري ، الذي كان مصابا بالصرع ، لم يكن مرضيا . وفي السادس والعشرين من نيسان عام ١٣٠٦ اجتمع حشد كبير من الفرسان والاتباع والحاشية وممثلي المدن ليدلوا بولائهم لاملريك . وقدمت تصريحات تتضمن شكواهم من الادارة السيئة وانتخبوه لشغل منصب « كاهن وحاكم وقائد للمملكة » . بينت قائمة المتمردين شكاوى الداوية والاسبتارية والمؤسسات الدينية الاخرى ومعاناتهم من فشل الملك في بسط العدل . وبالرغم من بقاء الاسبتارية في البداية محايدين ، الا ان الداوية أيدت بشكل واضح املريك . وشكا هنري نفسه بمرارة معارضتهم المستمرة لسلالته الحاكمة منذ اعتلائها عرش بيت المقدس في عام ١٢٦٩ . كما قيل بان « جيمس دو موليه » ، مقدم الداوية ، أيد التمرد لانه استدان ٥٠,٠٠٠ بيزنط من صاحب صور . وبدا ان جيمس كان قد شجع المتمردين منذ البداية ، الا انه تحالف مع « فولك دو فيياريه » في محاولة للتوصل الى اتفاق مع الملك وشقيقه ، على الرغم من ان مثل هذا الاتفاق قد ينقصه الاخلاص . وفي التاسع والعشرين من نيسان تقدم المقدمان كوسيطين ، واستمرت المفاوضات أكثر من عشرين يوما ، وتوصلا في النهاية الى اتفاق . فقد سمح للملك بدخل سنوي ومبلغ من المال كاف لتغطية نفقاته ، بينما تدفع الرواتب السنوية الى الملكة الام والمستخدمين الآخرين . وفي عام ١٣٠٧ تم تعزيز هذه الاتفاقية بميثاق وقعه كل من هنري واملريك ومقدمي الداوية والاسبتار .

واعتزل هنري مع اسرته في بيته الريفي في « ستروفيلو Strovilo » وكانت الادارة البابوية تفكر في مسألة حكومة قبرص، واتفق الطرفان على انتظار

قرارها . وفي كانون الثاني من عام ١٣٠٨ بلغ املريك ان فريقا من الفرسان ينوون التقدم الى مساعدة هنري . وبالرغم من الشكوك في رغبة الداوية في اضعاف المملكة عن طريق اثارة النزاع ، الا انهم كانوا من بين هؤلاء الذين ثبتوا في الميدان في نيقوسيا ليمنعوا الملك واتباعه من تسلم مقاليد الحكم . وقام اساقفة مدينة فاماغوستا وليماسول وقس كاتدرائية نيقوسيا ونائب مقدم الاسبتار وغيرهم من ذوي الشأن بمحاولة ثانية لاعادة الوفاق الى المملكة . وانهارت مقاومة هنري ، واجبره وفد مفوض يضم مارشال الداوية ونائب مقدم الاسبتار على توقيع امتياز يمنح صاحب صور منصب الحكم مدى الحياة. وأظهر مارشال الداوية حقده على الملك بقوله عند ختم الميثاق :

« اي منسوخة هذه » !!؟ .

بدأ املريك الآن باتباع سياسة القمع تجاه المتعاطفين مع هنري . وفي عام ١٣٠٩ أصبحت العلاقات بين الشقيقين اسوأ من ذي قبل ، اذ ظل هنري يرفض باستمرار الاعتراف بسلطة املريك . فيما كان شقيقه الحاكم قلقا ، بسبب توقعه قيام الاسبتارية بغزو جديد فأراد حماية منصبه قبل وصولهم. وكان على علم بأن المحكمة البابوية كانت معادية له ، وان الغزوات في بعض الاحيان تجر في أذيالها نزاعا سياسيا غير متوقع . ومن المحتمل جدا انه تساءل فيما اذا لم يصر الفرنسيون على جعل احد ابناء « فيليب العادل » الشبان اميرا على قبرص او بيت المقدس ، هذا ماكان شائعا في فرنسا . وظل املريك طوال شهر آب من عام ١٣٠٩ يحاول اقناع هنري بالاعتراف بمنصبه . وذهب وفد يضم « غي دوسيفيراك » ، ونائب مقدم الاسبتار ، الى الملك ، واشار هذا الوفد الى ان البابا نفسه قد خاطب املريك بصفته حاكما . لكن الملك كان صارما في موقفه ، اذ احتج بأنه لم يكن يتدخل في ادارة املريك لكنه لايستطيع الاعتراف بها ، لانه اجبر على وضع ختمه على الوثيقة التي تعطي املريك الحاكمية في وقت كان فيه مجردا من المشورة القانونية . لكن هنري بقي متصلبا حتى عندما ارسل اليه « سيمون لورات » ، مارشال الاسبتار ، لكي يهدئه .

فقد أملريك صبره وقرر ان ينفي الملك . وأقنعت زوجته « ايزابيل » أخاها « أوشين Oshin » ملك ارمينيا ، بان يقبل بسجن هنري الذي ابعد الى خارج البلاد في شباط عام ١٣١٠ . لكنه في الخامس من حزيران تم اغتيال املريك على يد صديقه الحميم « سيمون دو مونتوليف Simon de Montolif» وبذلك تغير كل الوضع ، فقد غدا الاسبتار قادرا على تأييد هنري علنا . ورأينا كيف كان الاسبتارية حريصين على ان يظلوا غير مرتبطين بأي ولاء خلال فترة النزاع بين الشقيقين . وفي اليوم ذاته الذي قتل فيه املريك ، ذهب «جون» صاحب اللاذقية ورئيس الدير ، وأربعة او خمسة من الرهبان بصحبة « ريموند دو بان » ، سفير البابا ، للاجتماع بالحاكم . قادت زيارتهم هذه الى اكتشاف جثة املريك . وكان الاسبتارية منهمكين في غزو رودس وبالاعداد لحملتهم الصليبية ، لكنهم في الوقت نفسه لم يستسيغوا الدخول في نزاع قبرص ، بينما كان تعاطفهم واضحا جداً . ففي السنة الماضية حرم املريك على « سيمون لورات » الذهاب مرة ثانية الى الملك لانه كان يشك في اسباب رغبته في الذهاب . وسنرى فيما بعد كيف قادت حادثة اغتيال إملريك فورا الى انتشار شائعات بأن الملك والاسبتارية كانوا متورطين في ذلك .

وفي يوم موت املريك ، وصل « غي دو سيفيراك » ، نائب مقدم الاسبتار، الى فاماغوستا . في البداية لم يجرؤ على النزول من سفينته اذ بلغه ان املريك كان غاضبا من الاسبتارية بسبب دعمهم للملك . وذهب غي الى ارمينيا حيث حاول اقناع اوشين بالافراج عنه . فسأله اوستين فيما اذا حل السلام بين املريك ومؤيدي الملك . الا ان نائب المقدم أجاب بدبلوماسية ، ولكن بعدم ثقة، انه يعتقد بان السلام حل بينهما لان المحادثات كانت جارية عندما غادر قبرص. عبر ملك ارمينيا عن رغبته في ان يتوصل القبارصة الى اتفاق لان سجن هنري كان عبئا ثقيلا ، ووعده غي بان يبذل قصارى جهده من أجل التسوية . لان أوشين لن يدعه يجتمع بهنري ، لكن غي نجح في الحصول على رسالة من ملك قبرص يعده فيها بالصفح عن جميع معارضيه ، وعين مقدم الأسبتار وصيا يحل محله في أثناء غيابه .

وعندما سمع غي بوفاة املريك ، وافق على العودة الى قيليقية . الا ان

احد رفاقه كذب على ملك ارمينيا بقوله ان انصار الملك قتلوا املريك واولاده وزوجته بأمر من الملك والاسبتارية. كان هذا بالنسبة لأوشين سهل التصديق. وبعد كل ذلك ، وصل غي الى فاماغوستا يحمل رسالة تتضمن تعيين « فولك دو فيياريه » وصيا على عرش قبرص في اليوم نفسه الذي اغتيل فيه املريك. هرب غي من ارمينيا ناجيا بحياته ومعه زوجته . وارسل رسالة توضيحية الى أوشين ، رد ملك ارمينيا عليها بقوله أنه سيطلق سراح هنري عندما يتأكد بأن أخته واولادها على قيد الحياة .

وفي اثناء ذلك كانت الحرب الاهلية تهدد قبرص . وكان انصار الملك مجتمعين في مدينة فاماغوستا ، بينما اجتمع سفير البابا وأنصار املريك في نيقوسيا . وفي السادس والعشرين من حزيران وصلت الى انصار الملك في رودس تعزيزات ، من بينها غي دو سيفيراك واربعين راهبا إسبتاريا بمعداتهم وأحصنتهم . لكن الموقف كان معقدا لاستمرار أوشين برفض اطلاق سراح هنري . كان انصار الملك يرغبون في ارسال قوة لاسر ايزابيل ، صاحبة صور، وارسالها الى اخيها لاقناعه بالافراج عن الملك ، لكنهم اقنعوا بارسال وفد من الاسبتارية يتألف من أشخاص يلعبون دورا كبيرا في اتخاذ قرارات الاسبتار مثل : « غي دو سيفيراك » ، وجون صاحب اللاذقية ، وراهب انكليزي يدعى « توماس بينكني **Thomas Pinckney** » ؛ بغرض معرفة ما اذا كانت ايزابيل ستذهب الى ارمينيا طواعية ، فوافقت على الذهاب ، الا انها أجلت رحيلها الى وقت آخر .

اقتنع أنصار املريك بالانسحاب من نيقوسيا الى « كورماكيتي **Korma Kiti** » حيث بقوا متيقظين وعلى أهبة الاستعداد ، وبذلك تجردت العاصمة من الرجال ، فطلبت الملكة ايزابيل ، ونساء أخريات في نيقوسيا من نساء فاماغوستا ارسال جنود لحماية المدينة . وعلى الفور انطلق « البرت لوأليمان **Albert L'Aleman** » ، نائب مقدم قبرص الاسبتاري ، مع قوة تتألف من خمسين قبرصيا واربعين فارسا اسبتاريا . وفي يوم الجمعة الواقع في الرابع والعشرين من تموز استدعى جميع الفرسان وممثلي المدن وشعب نيقوسيا الى سماع رسالة الملك التي يعين فيها مقدم الاسبتار نائبا له، والتي حملها

« غي دو سيفيراك » الى قبرص . ثم قرئت رسالة « آيغ « Aygue صاحب بيسان الذي عينه أنصار الملك نائبا للملك فورا بعد اغتيال صاحب صور وفيها يبلغ مواطني نيقوسيا بأنه اختار « ألبرت لاليمان » ممثلا له لان مقدم الاسبتار قد تخلف في رودس ، وسيشاركه«آيغ»صاحب بيسان في ادارة المملكة . وبعد يومين وصلت تعزيزات كبيرة من رودس ، تتألف من المارشال سيمون لورات ورؤساء اديرة فرنسا والمانيا وفينيسيا برفقة جيش صغير العدد يتألف من ثمانين فارسا من الرهبان ، وعشرين تابعا يمتطون جيادا ومئتي جندي مشاة .

وفي العاشر من آب وصلت الانباء بأن أوشين وافق على الافراج عن الملك مقابل اطلاق سراح صاحبة صور واولادها . وابحرت ايزابيل الى ارمينيا في العشرين من آب ، رافضة الاذعان لـ « غي دو سيفيراك » ، الذي كلف باصطحابها ، لانها كانت على عداء مع الاسبتارية . وقالت بأنه غير ذي شأن لديها وهي لاتقيم له وزنا يذكر . وبعد ستة أيام وصل هنري نفسه الىمدينة فاماغوستا ، وفي العاشر من ايلول دخل نيقوسيا بابتهاج شديد مصحوبا بقوة تضم سبعين اسبتاريا .

ولم يشارك الاسبتار علنا في هذا النزاع الدستوري الا في عام ١٣١٠ . وقبل ذلك ، انشغل الاسبتارية في مكان آخر بعمل ذي أهمية أعظم من أجل مستقبلهم . وليس من الملائم هنا ايراد وصف لحصار رودس والاستيلاء عليها بالتفصيل ، اذ من الافضل تخصيص مجلد آخر لهذا الموضوع . ومن الممكن على كل حال ذكر بعض الملاحظات ، فقبل نهاية شهر ايار من عام ١٣٠٦ التقى « فولك دو فيياريه » بقرصان جنوي يدعى « فينيولو دو فينيولي Vignolo de Vignoli » بالقرب من مدينة ليماسول . وكان لقاؤهما سريا لان تشجيع القرصان مخالف للقانون ، ووضعا خطة للاستيلاء على بعض الجزر اليونانية التي تقع بالقرب من شاطىء آسيا الصغرى . وفي السابع والعشرين من أيار توصلا الى اتفاق . كان ثلثا الدخل الحكومي وانتاج الجزر المحتلة يعود الى الاسبتار بينما يعود الثلث الباقي الى فينيولو . وكانت جزر رودس،

وكوس ، وليروس تابعة بشكل كلي للاسبتار ، علـى الرغم مـن ان فينيولو احتفظ لنفسه بمزرعتين على ارض رودس احداهما كانت ملكا له في السابق.

وفي الثالث والعشرين من حزيران ارسل الاسبتار حملة صغيرة من قبرص. وعند رأس « أرنوتي » انضمت اليها سفينتان جنويتان ، ثم تابعت بعد ذلك طريقها الى جزيرة رودس . تختلف الادلة على مدة الحصار . الا أنه على العموم يعتقد بأنه استمر حتى عام ١٣٠٩ ، وربما حتى عام ١٣١٠ . الا ان هنـاك احتمالا بسقوط الجزيرة في صيف عام ١٣٠٧ ، على الرغم من أنه من المحتمل ان الاسبتارية كانوا مهتمين في الاعداد لعمليات عامي ١٣٠٨ و ١٣٠٩ . نحن نعلم ان الاستيلاء على المدينة تم في الخامس عشر من آب ، الا اننا لانعرف في أية سنة . وفي الخامس من ايلول عام ١٣٠٧ اصدر البابا امرا رسميا يؤكد امتلاك الاخوية لجزيرة رودس . وساد الاعتقاد في الماضي بان هذا كان متوقعا، الا ان الاسلوب الذي كتب فيه هذا الامر يبين ان كليمنت الخامس كان على علم بالاستيلاء على الجزيرة على الاقل . كان « فولـك دو فييباريه » ينوي المغادرة الى اوروبا بعد انعقاد الاجتماع الكنسي العام في مدينة ليماسول في الثالث من تشرين الثاني عام ١٣٠٦ . ولا بد انه اجل رحلته هذه ، الا أنـه استدعى في شباط عام ١٣٠٧ رئيس أديرة انكلترا لمقابلته في روما ، ووصل الى بواتييه في الحادي والثلاثين من آب . ويروى أنه تأخر بضعة أشهر عن السفر بسبب انشغاله في اخضاع الجزيرة وسافر الى الغرب بعد ان تم له ذلك . وبذلك لايمكن ان تكون المدينة قد سقطت في عام ١٣٠٧ ، لان «فولك دو فييباريه» لم يستطع في أواخر شهر آب الذهاب الى بواتييه ، لذلك لابد انها سقطت في أحد الاعوام التالية : ١٣٠٦ او ١٣٠٨ أو ١٣٠٩ . لكن فولك بقي في اوروبا على الاقل حتى ايلول عام ١٣٠٩ . وليس من الممكن ان يكون فولك قد وافق على تسخير ثروة الاخوية بكاملها للقيام بحملة صليبية في عام ١٣٠٨ ، اذ كان جزء من قوته العسكرية مشغولا في حصار في مكان آخر ، ومن المحتمل ان تكون المدينة قد سقطت بأيدي الاسبتارية في الخامس عشر مـن آب عام ١٣٠٦ . ويبدو أن الدير انتقل الى مقر قيادته الجديد في عام ١٣٠٩ .

اذا كان الاسبتارية منشغلين في قبرص خلال النزاع الدستوري فيها فالداوية كانوا كذلك أيضا . وفي تلك السنين بدأ سقوطهم وانتهى بالعار . وفي عام ١٣٠٥ اتهم الملك فيليب ، ملك فرنسا ، الداوية بالهرطقة والكسب الحرام وذلك لسببين : اولا بسبب اسلوب الحكم وثانيا لانه كان يطمع في مواردهم المالية . ومما سهل هزيمتهم ليس فقط كون البابا الجديد، كليمنت الخامس ، ضعيفا ومعتلا ، بل أيضا لكونه فرنسيا منفيا من روما واتخذ مدينة افينون مقرا لاقامته لكنه عاش ردحا من الزمن في بواتييه التي تقع في أراضي ملك فرنسا .

وفي الرابع والعشرين من آب عام ١٣٠٧ انتشرت الفضيحة انتشارا واسعا، عندما أعلن البابا قراره ببدء تحقيق عن وضع اخوية الداوية نزولا عند طلب « جيمس دو موليه » الذي دعي الى فرنسا في السنة قبل الماضية لمناقشة الخطط الموضوعة لشن حملة صليبية جديدة . لكن في الثالث عشر من تشرين الاول تم اعتقال جميع فرسان الهيكل في فرنسا ، وكان جيمس نفسه من بين الذين اعتقلوا . ومن جراء التعذيب الذي تعرض له العديد من الرهبان ، بمن فيهم قوادهم اعترفوا بفداحة آثامهم . الا ان البابا بقي غير مقتنع بذنبهم . وعلى الرغم من انه أمر باعتقال جميع فرسان الهيكل في العالم المسيحي ، الا أنه طلب من فيليب ان يولي الرهبان الفرنسيين الى عناية اثنين من كاردينالاته. وفي أوائل عام ١٣٠٨ حول القضية كلها من التحقيق المحلي الى الادارة البابوية ، التي كان رئيسها في فرنسا اداة في يد الملك . وبذلك اراد ان ينتزع الداوية من حكم فيليب . احبط الملك ووزراؤه هذه الخطط بابقاء الداوية الفرنسية في قبضتهم . وفي تموز وافق فيليب وكليمنت على اتخاذ حل وسط بشأن التحقيق . فعرض التحقيق من جديد وقضى البابا بوجوب عرض الاتهامات الموجهة ضد الرهبان على مسامع أساقفة الابرشية ، يساعد كل أسقف أربعة كهنة : اثنان من الدومينكيان واثنان من الفرانسيسكان. وفي الوقت نفسه أمر بايجاد لجان بابوية مستقلة في كل بلد من أجل التحقيق في أمر الاخوية . وكانت تقارير هذه اللجان ترسل الى مجلس يعقد في فيينا . لذلك كان هناك نهجان متشابهان في البحث : الاول يتضمن التحقيقات الاسقفية في

فرنسا والثاني يتضمن اللجان البابويـة في العالم المسيحي اللاتيني . وفي عام ١٣١١ انهت اللجان البابويـة عملها دون التوصل الـى أي دليل عادي على الاتهامات الموجهة ضد الاخوية .

انعقد مجلس فيينا في السادس عشر من تشرين الثاني من عام ١٣١١ اذ أصر فيليب ، ملك فرنسا ، على ادانة الداوية . وفي الثالث من نيسان عام١٣١٢ نشر القانون البابوي في المجلس . وتم قمع اخوية الداوية ليس فقط بالادانة بل باتخاذ الوسائل الاخرى أيضا ، فقد أرسل البابا كل بضائعه الى اخوية القديس يوحنا ماعدا الاخويات في اسبانيا والبرتغال . وافق فيليب على هذه التسوية وعلى منح اخوية القديس يوحنا ممتلكات الداوية ، الا اذا أصلحـت الاخوية نفسها . في الثامن عشر من آذار عام ١٣١٤ أحرق في باريس كل من «جيمس دو موليه» ومقدم الداوية النورماندي لتراجعهما عن اعترافاتهما .

لايمكن النظر الى هزيمة الداوية بعدم مبالاة ، اذ لم يثبت أي دليل واضح على ارتكابهم أي اثم . وشنعر معظم المؤرخين الجدد بعطف تجاه ضعفهم وحتى تجاه ضعف البابا وتردده كما شعروا بالدهشـة تجاه صلابة فيليب ووزرائه وتجاه سذاجة بقية العالم المسيحي . لكن اذا كان من الصعب في ذلك الوقت البقاء غير آبهين بهذه الهزيمة فانه من المتعذر البقاء كذلك فيما بعد . يجب ان نتذكر ان جميع المساهمين في هذه المأساة كانوا يلفقون عددا هائلا من الاشاعات وان الدليل اختلط بسبب الاعترافات الاولى للداوية انفسهم ، وصححت هذه الاعترافات بكل الوسائل .

كان الاسبتار هو الرابح الحقيقي من هذا التسلسل الفظيع للاحداث . فقد كان المنافس القوي الذي أبعد ، بينما كسب ممتلكات هائلة حتى ولو لم يمتلكها كلها . وعلاوة على ذلك فان كليمنت وفيليب نفذا اقتراح الصليبيين، فقد وحدا بشكل فعلي كلا من اخوية فرسان الهيكل واخوية الاسبتار . وانعكس هذا التطور في الحملة الصليبية التي امتدت بين عامي ١٣٠٨ ـــ ١٣١٠ . لذلك يجب ان نتساءل كيف تصرفت الاسبتارية خلال معاناة الداوية الطويلة ، اذ لابد انهم ادركوا ان منافسيهم سيهزمونهم أو انهم سينتصرون .

وفي قبرص . يبدو ان دير الاسبتار حاول ان يحافظ على حياده المتعمد. واذا كان رؤساء الاديرة قد فعلوا القليل للتسريع في اسقاط الداوية ، فانهم لم يفعلوا شيئا في مساعدتهم . وفي السادس من ايار من عام ١٣٠٨ وصلت رسالة من كليمنت الخامس الى قبرص يأمر فيها املريك ، صاحب صور . باعتقال الداوية ومصادرة ممتلكاتهم. وحاول الرهبان في البداية مقاومة محاولات اعتقالهم ، الا انهم في الاول من حزيران استسلموا بعد محاصرة ديرهم لمدة ثلاثة أيام . وفي ٢٩ أيار أمر املريك صاحب نيقوسيا وفريقا يضم رئيس دير الرهبان الاسبتار باغلاق دير الداوية في نيقوسيا والقيام بجرد محتوياته . بينما قدم « غي دو سيفيراك » في الثامن من ايار الى كاتدرائية مجمع نيقوسيا الكنسي رسالة من البابا يقضي فيها كليمنت بتخصيص دخل ابرشية نيقوسيا المهجورة الى فرسان القديس يوحنا ، كما حول الكهنة لهم مبلغا من المال كان قد منح الى الداوية حسب الاوامر البابوية . وفي ايلول عام ١٣٠٩ ذهب كليمنت ابعد من ذلك في رسالة ارسلها الى ممثله وسفيره في قبرص . وكان جزء معين من دخل ابرشية نيقوسيا في أيدي الداوية . وكان املريك . صاحب صور والقيم على ممتلكات الداوية ، يدفع هذا الجزء الى « فولك دو فيياريه » مع بعض الاجور الاخرى . كما كان يجب اعطاء مقدم الاسبتار حق الادارة العامة لممتلكات الداوية .

بدأ أعضاء اللجان التي عينها البابا للتحقيق في وضع الداوية عملهم في قبرص في نيسان عام ١٣١٠ . الا ان مقتل املريك قطع جلساتهم ؛ وبدأ تحقيق جديد في الواحد من ايار عام ١٣١١ استمر حتى الخامس من حزيران . وتم سماع كل انواع الشهادات قبل تبرئة الداوية من الاتهامات . وكان « سيمون دو ساريز اريز » ، رئيس دير الاسبتار ، من بين الذين ادلوا بالشهادة، فكانت شهادته ممتعة بالرغم من كونها كشهادة الآخرين ، اذ انه لم يدل بشيء ذي اهمية حقيقية . فقد كرر ذكر العديد من الاشاعات التي اما لم يستطع ، او لم يكن من الممكن ، تذكر مصادرها ؛ ولم يستطع في النهاية الا ان يقول بأنه لم يسمع اي شيء يحط من قدرة الداوية في قبرص نفسها . اظهرت شهادته شيئا من العداء تجاه الداوية ، الا انه ثبت ان ادعاءاته لم يكن لها اساس عندما

ضغط عليه اعضاء اللجان . يبدو ان موقفه كان الموقف المميز للاسبتارية ، اذ كان عداؤهم يأخذ طابع عدم المبالاة الحذرة التي يمكن ان تكون ناجمة عن رغبة في عدم اظهار التلهف الشديد في انتهاز محنة الداوية . وكانت تقاريرهم تقريبا عقلا حول الموضوع ، الا انه لابد ان وراء هذا الصمت مشاعر عميقة . واذا استطاع الاسبتارية تحطيم الداوية ، فانهم كانوا هم الآخرون في خطر . ومن جهة ثانية ، كانت اخوية المفكرين الصليبيين الوحيدة على وشك الظهور على طريقة الاسبتارية ، اذ انه من الواضح انه في الوقت نفسه الذي كانوا فيه يحققون هزيمة الداوية ، كان ملك فرنسا والبابا يستعدان لدعم اخوية القديس يوحنا بشكل لابد انه يحقق طموحات الاسبتارية الجامحة .

ارتقى كليمنت الخامس العرش البابوي في الخامس من حزيران من عام ١٣٠٥ . وعلى الفور ارسل الى مقدمي الداوية والاسبتار يطلب منهما النصح بشأن تنظيم وتحديد أهداف الحملة الصليبية الجديدة . فقدم كلا الطرفان بيانات له . فرفض « جيمس دو موليه » الاقتراح بارسال حملة صغيرة الى أرمينيا ، اذ لابد انه ستتم ابادة الصليبيين بسبب وضع البلد السيء وعداء سكان ارمينيا ، بينما سيجدوا من الصعب اقتحام سورية من خلال الحاجز الجبلي الذي يفصلها عن سهل قيليقية . لذلك لابد من التخطيط للقيام بحملة صليبية على نطاق كبير بقوة يتراوح عددها من اثني عشر الفا الى خمسة عشر الف فارس وخمسة آلاف جندي . كما كان ضروريا ان تشتمل على الفي جندي يمتطون الجياد ويحملون القوس والنشاب . وكان يمكن للمصريين مواجهة اية قوة تقل عن هذا العدد ، لذلك كان لابد من اتخاذ بعض التدابير الحذرة . فلا بد من بناء اسطول يتألف من سفن ناقلة للجند والمعدات تذهب الى قبرص بدلا من السفن الشراعية . وقبل انطلاق الاسطول يجب ارسال عشر سفن ــ عبارة عن سفن حربية سريعة ــ لشق الطريق امام الاسطول . وينبغي على البابا ان يمنع بشدة تجارة الجمهوريات البحرية الايطالية مع المسلمين . وقضى جيمس بان يسلم « روجر اوف لوريا » ، الامير ال الايطالي المشهور ، قيادة الحملة الصليبية ، اذ لم يحبذ تسليم رهبان الداوية

والاسبتار مراكز القيادة لان الاجراءات التي يمكن ان تتخذ ضد الشحن الايطالي ستؤثر بشكل سلبي على موقف الاخويات في البندقية وجنوة .

قدم « فولك دو فيياريه » تقريرا مفصلا مثل « جيمس دو موليه » ، أوضح فيه تصوره لشن حملة ضد مصر . وجاء في تقريره هذا ، كما جاء في تقرير جيمس ، انه ينبغي فرض حظر على بيع المعدات الحربية الى المسلمين . كما اقترح بان يرسل الاسطول قبل الحملة الصليبية نفسها . الا ان هذا الاسطول يجب ان يتألف من خمس وعشرين سفينة يزودها ملك قبرص والداوية والاسبتارية بشكل جيد بالرجال والعتاد . وسيكون هدفها محاصرة الاسكندرية والساحل المصري . ثم اقترح بان يرسل الى الشرق اسطولا يتألف من خمسين او ستين سفينة ، يحمل نصفها عددا من الجياد يتراوح بين الاربعين والخمسين جوادا ، وذلك قبل الحملة الصليبية بسنة واحدة . وستحط هذه القوة رحالها لفترات قصيرة جدا في مناطق مختلفة على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، تنشر الدمار في البلاد وتستخدم مؤن المسلمين الثمينة وترهق جنودهم بسحبهم من مكان الى آخر في مصر .

كما أخذ باعتباره البنية التنظيمية للحملة . فعلى البابا نفسه أن يعظ الحملة الصليبية وان يجيز هذا الوعظ ويصدر أمر الغفران في كافة أنحاء العالم المسيحي . ويجب ان يعين ممثلا له يقود الحملة بالتعاون مع قائد علماني . وينبغي عليه ان يوجه عناية خاصة لجمع مبالغ كبيرة من المال ، وشرح فولك بالتفصيل الوسائل التي يمكن بواسطتها تمويل الحملة الصليبية . وينبغي تحديد مهمة قصيرة الاجل للحملة الصليبية لان المهمة طويلة الامد ستؤدي الى صعوبات جمة . ولا يجوز للبابا ان يستدعي المجلس للاجتماع قبل الحملة لان ذلك يتطلب نفقات لاضرورة لها . وفي كل منطقة من العالم المسيحي يجب ان يقوم هؤلاء المفوضون بوعظ الحملة وبتقديم المساعدات الممكنة من الرجال والمال . وينبغي على البابا ان يأمر مقدم الفرسان التيوتون بالمساهمة في ذلك ، ولا يجوز للحكام المدنيين اعاقة الاخويات العسكرية او الاستعدادات لشن الحملة . كما يجب على البابا ان يتمتع بمعرفة كاملة ماأمكن عن وضع الاسلام

وعن قوة الحملة ليستطيع اتخاذ قرار نهائي بشأن أهدافها . ويجب ان يجمع الطعام من أجل الحملة الصليبية ، ويجب ان تكون هناك خطط حذرة لتزويد الجيش في الخارج بالطعام ، اذ لايمكن ان يعيش مدة شهرين دون التزود بالمؤن ثانية من الغرب .

لوحظ بان بيان الداوية يعكس اهتمامات « جيمس دو موليه » العسكرية بينما يعكس بيان الاسبتار اهتمامات « فولك دو فيياريه » المالية والعملية. لابد ان كليمنت كان قد تلقى التقريرين اما في أواخر عام ١٣٠٥ او في أوائل عام ١٣٠٦ . وفي حزيران عام ١٣٠٦ استدعي كلا المقدمين لمناقشة الخطط ، ربما بالاستناد على تقريريهما . وفي تشرين الثاني منح المجمع الكنسي العام للاسبتار ، فولك تفويضا عاما لادارة شؤون الاخوية في الغرب . لابد انه عندها كان يخطط للبقاء في اوروبا لبعض الوقت . فقد أقام في قبرص حتى أوائل عام ١٣٠٧ وسافر الى جزيرة رودس حيث من المحتمل انه اشرف على تخفيض عدد القوات النهائي للجزيرة ، وفي آب سافر كليمنت الخامس الى بواتييه . ولدى وصوله بدأ التحقيق مع الداوية وتم عرض ضرورة شن الحملة الصليبية عليه وحده .

وبحلول عام ١٣٠٨ تخلى ، كما يبدو ، عن فكرة القيام بحملة صليبية أكبر . وبدلا من ذلك ، اقترح القيام بحملة صغيرة يقودها مقدم الاسبتار نفسه . وفي الحادي عشر من آب أصدر كليمنت امرا بابويا صليبيا ، رثى فيه فقدان الارض المقدسة والمخاطر التي تهدد قبرص وارمينيا ، وأثنى على حماسة « فيليب العادل » الذي كان يؤيد الحملة الصليبية الجديدة وحض الاسبتارية على الاستعداد للحملة القادمة . واقترح تشكيل جيش مؤلف من الف فارس وأربعة آلاف جندي مشاة يبقى خارج البلاد مدة خمس سنوات. وسيقوم هو نفسه بمشاورة مقدمي ورؤساء أساقفة وقواد الداوية والإسبتار حول وضع الاسلام قبل ارسال الحملة . وسيتم استثمار المال في الغرب المسيحي . وسيقود « فولك دو فيياريه » الحملة الصليبية مع رهبان الاسبتار يعينهم قادة تحت امرته ، كما سيرافقه في القيادة سفير بابوي .

وفي اليوم نفسه كتب البابا الى اساقفة العالم المسيحي ، واضعا امر

تنظيم الحملة الصليبية في ايدي الاسبتارية . وسيقوم العالم المسيحي بتمويلها وستوضع خزائن الدولة في الكنائس لتتلقى مساهمات المؤمنين . سمح الاساقفة – وذلك لصالح الاسبتار – لمن يرغب بالعدول عن نذره باداء الحج والتقشف . الا انه لابد لهؤلاء الذين وعدوا باداء الحج في الشرق بان يقوموا بذلك . ولا زال الكهنة الذين يخططون لمرافقة الحملة الصليبية الى الارض المقدسة يتلقون دخلا من رتبهم الكنسية مدة سنتين ، وسيمدد هذا الامتياز مدة سنتين اخريين اذا اقتضى الامر . وعين وقت مغادرة الحملة الصليبية في الربيع التالي من عام ١٣٠٩ .

وكان الشهران القادمان مليئين بالنشاط الدبلوماسي الدؤوب . فقد أرسل بعض رجال الاسبتار الى موانىء اوروبا لتنظيم عمليات الشحن . الا ان الاستعدادات تمت ببطء شديد عندما طلب كليمنت من « فيليب العادل » في العشرين من ايلول ان يمنح الاسبتارية المال الذي جمع للحملة وان يسمح بتصدير الحاجات الضرورية من موانىء فرنسا . وطلب من الملك منع تصدير البضاعة المحظورة الى المسلمين واستعمال نفوذه في اقناع الجمهوريات البحرية الايطالية بعدم الدخول في تجارة غير مشروعة مع المسلمين . وفي الوقت نفسه كتب الى الفرسان التيوتون يطلب منهم مد يد المساعدة الى الاسبتارية . وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني عين « بطرس دو بلين تشاسان » ، اسقف دير « رودز Rodez » سفيرا بابويا . فكتب فولك الى الملك فيليب يطلب منه حماية ابرشية رودز في غياب بطرس ، وفي السادس من كانون الثاني من عام ١٣٠٩ كرر البابا الطلب نفسه .

الا ان المؤشرات بدأت بالظهور مشيرة الى ان كل شيء لم يكن على مايرام . وفي أوائل عام ١٣٠٩ اشتكى فيليب الى كليمنت بان فولك لم يكن يطلعه على خططه ، وانه لم يكن مقتنعا بتنظيم الحملة ولا ببنية الاخوية . فقد كان كلاهما يعملان ضد رعية وشرف فرنسا . وعلاوة على ذلك ، هرب امين صندوق الاسبتار في باريس بالمال المكرس للحملة الصليبية بأمر من رئيس اساقفة سان جيل . فكتب فولك دو فيياريه على الفور رسالة استرضاء الى فيليب أرسلها له من بلاد فارس ، الا انه من الواضح أخيرا ان الخطط كانت

آخذة بالفشل وان الحملة لن تغادر البلاد في عيد الفصح . الا ان فولك أقر بان عددا كبيرا من السفن كانت تصنع في « كاتالوينا » ، بمدينة ناربون ، وفي مارسيليا ، وجنوة ، وبيزا ، والبندقية ، حيث قدمت له جنوة والبندقية سبع سفن مزودة بالاسلحة . ثلاثا منها تابعة للاسبتار وما تبقى منها تم تزويده من قبل اللاتين في الشرق لتنطلق في فصل الربيع ، او قبل حلوله ان امكن ، وستمخر البحار استعدادا للرحلة الرئيسية . وتم جلب الخيل والمؤن والاسلحة الى اسبانيا وكاتالوينا وصقلية وابوليا وبروفانس . ودعي خمسمائة راهب اسبتاري كانوا يقطنون في اوروبا الى افينون للمشاركة في الحملة .

كان « بطرس دو بلين » ينوي المغادرة في شباط ؛ ولا بد انه قد أبحر فورا بعده ، الا ان عيد الفصح مضى دون مغادرة الحملة لان السلطات الدينية في أوروبا لم تكن كلها تساعد على ذلك . فقد صادر أصحاب الإملاك المحليين في فرنسا الخشب المكرس لبناء السفن للاسبتارية . وكان جيمس ملك اراغون على عداء مع مسلمي غرناطة ، واراد ان يستفيد من الاسبتارية الذين كانوا يتجمعون في اسبانيا من أجل الحملة ، فأمره البابا بان لايعرقل خططهم . وأذعن جيمس لهذه المطالب في حزيران ، لكنه كان يشك بشكل واضح بنجاح هذه الخطة . وربما في آذار ، كتب جيمس يقول بان الاسبتار كان منشغلا كليا في جزيرة رودس وفي جزر الدوديكانيز الى درجة أنه لايستطيع قيادة مثل هذه الحملة . وكان قد سمع بأنهم كانوا قد وعدوا كليمنت بغزو بيت المقدس أو انطاكية خلال خمس سنين ، الا انه لايمكن تحقيق ذلك بالقوة التي هي في متناولهم .

لكن الخطط مضت قدما الى الامام . وفي أيار وصل نائب المقدم الى نيقوسيا حاملا رسالة من البابا يخبر فيها القبارصة بان الحملة التي يخطط لها هو نفسه وفيليب معدة بشكل جيد وان فولك دو فيياريه سيكون مقدمها . وفي الشهر نفسه فوض ادوارد الثاني ملك انكلترا مقدم الاسبتار بسحب الجنود والخيل والاعانات المالية من مملكته . وفي الثامن من حزيران كتب كليمنت الى فيليب رسالة يخبره فيها بأنه كان قد تلقى تقريرا جديدا من فولك يثني فيه على ميول الملك للقيام بالحملة . وفي اليوم التالي كتب الى جمع الاساقفة

يطلب منهم تلاوة الصلوات والقداس من أجل نجاح الحملة . وفي الثامن من آب أمر الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومينيكان بالاشارة في خطبهم الى الغفران الذي يمكن ان يمنحه هؤلاء الذين ساعدوا الاسبتار . وكنا قد رأينا كيف أنه في الرابع والعشرين من ايلول كان كليمنت قد كلف كلا من : بطرس دو بلين تشاسان . وريموند دو بان ، وسفيره في قبرص . للتحقق من ان الاسبتارية قد نقلوا مساعدة مالية لحملتهم الصليبية من دخل ابرشية نيقوسيا الخالية من املاك الداوية المصادرة .

الا أنه من خلال شهر واحد كان المشروع كله آخذا في الانهيار . ففي الثاني والعشرين من تشرين الاول بلغ جيمس ملك اراغون ان الحملة كانت قد ارجئت حتى السنة التالية . فطلب من آمر قلعة امبوستا الاسبتاري ان يرسل له البسكويت المخزون في القلعة استعدادا للحملة لانه يحتاج الى مؤن للقيام بحملته ضد غرناطة . وفي السابع والعشرين من الشهر نفسه كتب البابا الى فيليب يتوسل اليه ان يهرع الى مساعدة الاسبتار ماليا الذي كان هو نفسه من اقرضه خمسين الف فلورين فضي . كان الطقس السيء يعيق السفن المتأهبة للمغادرة الا ان بعضا منها ابحر الى الشرق في أواخر تشرين الثاني . لكن الحملة كانت في الحقيقة آخذة بالفشل بسبب الافتقار الى الموارد المالية. لم تكن الحملة سوى حملة صغيرة تتألف من ست وعشرين او سبع وعشرين سفينة ابحرت في أوائل عام ١٣١٠ لاتمام السيطرة على الجزر الواقعة على مقربة من آسيا الصغرى ، ولاثارة مخاوف سكان البندقية الذين كانوا قد سمعوا بان القوة تنوي مهاجمة ممتلكاتهم في بحر ايجه . الا ان وعود انطاكية او بيت المقدس لم تؤول الى اي شيء ، اذ ان الاسبتار كان يفتقر الى المال . وحتى قبل الحملة كان « فولك دو فيياريه » قلقا حول تمويل الاخوية . اذ أصبحت الآن آنذاك تحت دين كبير ، وذكر في ملحق خطة هذه الحملة الضخمة ، ان كليمنت سمح لـ « فولك » بفرض ضريبة كبيرة استثنائية لمدة خمسة أعوام على جميع قيادات الاخوية ، ولكن هذه الجباية لم تجمع اكثر من عشرين الف فلورين ذهبي في السنة .

من الممكن أن تكون الخطط الضخمة الموضوعة من أجل القيام بحملة

صليبية قد أخفقت بشكل تام ، الا انها كانت على الرغم من ذلك هامة . ومن المحتمل أن تكوون الفكرة التي يطرحها اتحاد الاخويات العسكرية بشكل دائم قد أثرت على المشاركين الرئيسيين الاثنين في تحطيم الداوية ، اذ انهما كانا في الوقت نفسه يدعمان حملة ينظمها ويقودها الاسبتار . يمكن النظر الى الحملة التي قامت بين عامي ١٣٠٨ و ١٣١٠ كمحاولة لوضع افكار تشارلز الثاني ، ملك آنجو ، وبطرس دوبيوس موضع التنفيذ . وكانت لها اهمية أخرى بالنسبة للاسبتار ، اذ انها مهدت الطريق لكسبه ممتلكات الداوية الهائلة. فقد أكدت عدم فعالية الداوية وأخفت عيوبهم ، في وقت كان يمكن فيه لمنافسيهم الاقوياء اسقاطهم . يمكن القول بان حقيقة وجود اخوية القديس يوحنا حتى ذلك اليوم هو نتيجة اصلاحات « ويليام دو فيياريه » والاستيلاء على جزيرة رودس والقيام بالحملة الصليبية المذكورة آنفا .

* * *

القسم الثاني

تنظيم أخويّة القدّيس يوحنّا

الفصل الثامن

أعضاء الاخوية وحياة الدير

اجتمع الاخوة في خريف عام ١٣٠٣ في ليماسول من اجل اجتماع مع هيئة الرهبان العامة . وجلسوا هناك لبحث قضية طرحها جيرارد مارشال غرانيانا «Gragnana» فقد ارسل رئيس دير قشتالا مبعوثا الى قبرص يدعى « سويرو » ، الذي مات في نيقوسيا ، وطالب المارشال بدرعه لمارشاليته، داعيا أعضاء الهيئة لقراءة القانون الحادي عشر الذي صدر عن مجلس لهيئة الرهبان العامة المنعقد في عام ١٢٠٦ ، حيث قدمه كاثبات لحقوقه . وناقش مبعوث رئيس الدير في ليماسول بان درع « سويرو » ينبغي ان يعاد الى مقاطعته وهو لم يقض نحبه كأخ راهب يعمل في الشرق ، وانما كان في مهمة من اسبانيا، وعلاوة على ذلك ، اشترى درعه خصيصا للرحلة بالنقود التي أعطت اليه من قبل رئيس الدير . وعند عودته الى الغرب ، لابد وانه قدم الدرع الى رئيسه. وقف المارشال ثانية متسائلا عما اذا كان عادة يحمل السلاح ام لا ؟ فقد كان سويرو أخا تحت السلاح اتى من وراء البحار ومعه عدة فرسه . استمع الاخوة أعضاء الهيئة لطرفي القضية وتفحصوا القانون الموضوع أمامهم . يقضي هذا القانون بان عدة الفرس ، ايا كان مصدرها ، سوف يرثها المارشال ، لان هذا القانون يمكن ان يفسر على نطاق واسع اذ اقر هنا : ان حقوق المارشال الرسمية كانت تمارس في عدة مناسبات وقضت هيئة الرهبان العامة بان أسلحة « سويرو » يجب ان يرثها « جيرارد » مارشال غرانيانا .

توضح هذه القضية كيف كان الاخوة يحترمون بشكل جدي قوانينهم وأعرافهم . وقد قدمت هذه القوانين بيئة منضبطة لنشاطاتهم في سورية

اللاتينية ، وفعاليتهم في أعمال الاسلحة والاعمال الخيرية التي اعتمدت على نظام المؤسسة التي وهبوا انفسهم لها . ولذلك ، فانه لأمر هام ان نتفحص بالتفصيل طريقتهم في الحياة وبنية اخويتهم . يتوفر الآن الكثير من الادلة ، لكن المؤرخين الذين استفادوا منها وصفوا قوانين الاسبتار وكأن كل عناصر الاخوية المطورة بشكل تام في القرن الرابع عشر كانت موجودة في وقت سابق. وكان هنالك ، بالطبع ، تغييرات صعبة الفهم خلال قرنين من التطور .

يمكن ان تأخذ العضوية في الاخوية عدة أشكال . فكان هناك الاخوة الكهنة، وفي القرن الثالث عشر ، الاخوة الفرسان والاخوة السرجندارية . وكان هناك أخوات القديس يوحنا في القرن الثاني عشر . كما كان هناك الرفاق العلمانيون: الاخوة والمحسنون . عاش الاخوة حياة عادية في بيوت عرفت كلها بالاديرة التي تنوعت بالحجم بشكل كبير . وفي اوروبا ، عرفت أصغر الوحدات التي ادارها الاخوة بالحاميات . وقد جمعت الحاميات بعضها ضمن حاكميات سميت بالاديرة ، الحاكميات الاكليركية او القلاع الاكليركية ، وكان مدراؤها بمرتبة رؤساء اكليركيين ، الذين يعينون بشكل نظري ويقالون في اجتماع لهيئة الرهبان العامة لكل الاخوة . وفي أواخر القرن الثاني عشر، جمعت الاديرة ضمن وحدات أكبر سميت بالحاكميات الكبيرة ، بينما قسمت في أواخر القرن الثالث عشر الى سبعة مناطق رئيسية . وفي الشرق كانت هنالك حاكميات وقلاع أيضا ، لكننا سنرى بان الحاكم السوري ، وفيما بعد القبرصي ، قد حكم منطقة اكبر من نظيره الغربي ، بينما كانت رتبته رئيسا اكليركيا ، وبهذا كان مساويا للرئيس الغربي .

وكانت مراكز قيادة الاخوية في بيت المقدس ، وعكا وليماسول تدعى الاديرة أيضا . واختلفت بنيتها قليلا عن اكثر بيوت الرهبان تواضعا ، وكذلك كانت اكبر بكثير وموظفوها كانوا ذوي أهمية أكثر . وفي نهاية عصرنا ، كان هناك ثمانية من هؤلاء الموظفين الرئيسيين يسمى سبعة منهم عادة برؤساء اكليركيين وهم : نائب المقدم، والمارشال، والاسبتاري، والجواخ، وأمين الصندوق، والادميرال ، والتركوبول . وقد كانت رتبهم مثل رتبة الرئيس ، يعينون من قبل هيئة الرهبان العامة . أما الثامن فهو الرئيس الاكليركي الذي كان له وضع

خاص ، سيأتي على وصفه في فصل لاحق . وكان على رأسهم المقدم الذي عهدت اليه امور ادارة الاخوية . ولكن سلطته ، مثل سلطة أقل القادة اهمية ، مقيدة بواسطة القرارات الجماعية لاخوته ، الذين يجتمعون مع هيئة الرهبان العامة في أيام السبت في كل بيت من بيوت الاسبتارية . وكان يعقد اجتماع عام لرؤساء الجماعات مرة واحدة في السنة في مراكز قيادة المقاطعات ، وفي اوقات غير منتظمة يجتمع الرؤساء الاكليركيون واخوة الدير في الشرق في اجتماع عام . ويمارس كل هؤلاء الاعضاء السلطة وبشكل متزايد يتولون المناصب الادارية ، ولكن هيئة الرهبان العامة أيضا تسن القوانين لكل الاخوية .

قبـول الاخـوة

يبدو ان نفس الشكل للقبول قد اتبع لقبول كل الاخوة . ففي البداية ، يستطيع اي نائب مقدم ان يقبل اخا فارسا ، مع ان المقدم فقط ، او اي أخ يعينه لهذه المهمة ، يستطيع قبول أخ سرجنداري . وقد رسمت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٧٠ ، على اية حال ، ان القادة في قبرص ، وصور ، وطرابلس وارمينيا يستطيعون في اي وقت تعيين الاخوة دون سلطة المقدم ، اما في المؤسسات الكبيرة ، مثل عكا وقلعة الحصن وقلعب المرقب ، فيمكن قبول المرشحين بموجب موافقة هيئة الرهبان المحلية . وفي عام ١٢٩٢ ، وبسبب وجود الكثير من الفرسان ضمن الاخوية ، صدر قانون يقضي بأنه لايمكن تعيين أخ فارس دون الاذن خاص من المقدم او نائبه لمنطقة « اوتريمر » ، باستثناء اسبانيا حيث كانت هناك حدود مع المسلمين وربما بشكل افتراضي بسبب النقص في القوة البشرية . وقد بقي هذا القانون ساري المفعول في عام ١٣٠١ عندما منع نائب المقدم في المانيا من قبول الاخوة الفرسان ، والاخوة السرجندارية او الكهنة دون اذن من الحكام . ويبدو انه كانت هناك محاولة قليلة لتحديد السن التي يمكن قبول الاخ فيها . ففي القرن الرابع عشر كان هنالك حالة قبول اليافعين . وعلى اية حال ، فرضت القيود على السن التي يرفع بها المرء الى مرتبة فارس او يعين قسا ، ويبدو انه في مطلع القرن الثالث عشر كان الاخوة يجتازون مرحلة التثبيت كرهبان بعد قبولهم ، وهذا يمكن ان يعادل

فترة ثلاث سنوات التي ، في تاريخ لاحق ، يجب ان يمكثها الاخ ضمن الاخوية قبل ان يعطى منطقة نفوذ تابعة للاخوية .

كان قبول الاخ من أحد الشعائر المقدسة ، التي ربما من خلالها يمكن ان نرى محاكاة لرتب الاقطاع . كان المرشح يحضر اجتماع يوم الاحد في ديرما ، ويطلب الانضمام الى الديرمن المقدم او الاخ الذي يشرف على العضوية في الاخوية . ويسأل الرئيس جماعة الرهبان اذا كان مقبولا ، حيث لايمكن قبول أحد دون موافقة أكثرية الاخوة الحاضرين . وبعدئذ يكلم المرشح : **« أيها الصديق الفاضل ، أنت ترغب بالانضمام الى الدير وانك محق في هذا ، لان الكثير من الرجال يطلبون بشكل جدي قبول أولادهم أو أصدقائهم ويكونون مسرورين جدا اذا استطاعوا ادخالهم في هذه الاخوية . فاذا أردت أن تصبح ضمن جماعة رفيعة ومشرفة جدا وفي اخوية مقدسة جدا مثل اخوية الاسبتار، فانك محق في هذا،ولكن اذا كان دخولك بسبب أنك ترانا نلبس جيدا،ونركب خيولا ضخمة،ونملك كل شيء من أجل راحتنا،فعندئذ أنت مخدوع،لانه عندما ترغب ان تأكل فانه سيكون ضروريا لك ان تصوم،وعندما ترغب بالصوم عليك ان تأكل.وعندما ترغب بأن تنام،سيكون ضروريا لك ان تحرس،وعندما تكون متيقظا يطلب اليك ان تنام . وسوف ترسل الى هذا الجانب من البحر او ماوراءه الى اماكن لن تسرك وعليك الذهاب اليها . وسيكون ضروريا لك عند ذلك ان تتخلى عن كل رغباتك كي تنفذ هذه الاعمال وغيرها ، وان تتحمل مصاعب أخرى في الاخوية أكثر مما أستطيع وصفها لك.هل أنت راغب في أن تعاني كل هذه الامور؟ ».**
عندما يتلقى جوابا بالايجاب ، يسأل الرئيس المرشح فيما اذا كان قد وعد بالدخول الى أخوية أخرى ، وفيما اذا كان متزوجا او مدينا او خادما لدى أي سيد ، كانت كل هذه الشروط عوائق من أجل العضوية ، واذا كذب المرشح سوف يفقد ثوب الرهبنة عندما يكتشف كذبه .

وكان يؤتي بكتاب مقدس ويضع المرشح يديه عليه ويقسم بالله،وبالسيدة العذراء والقديس يوحنا المعمدان بأن يعيش ويموت تحت طاعة سلطة سيده الذي منحه الله هذه السلطة ، بعفة ودون أن يمتلك شيئا ، خادما وعبدا

لسادته المرضى . اما من جهة الاسبتار فيعده بتقديم الخبز والماء واللباس المتواضع فقط . ويصبح افراد اسرته مشاركين بالمزايا الروحية من جراء عضويته في الاخوية . ويأخذ المرشح الكتاب المقدس الى مصلى الكنيسة ويضعه على المذبح ، ومن ثم يرجعه الى الرئيس الذي يرفع عباءة الاخوية ويقول : **« امسك هنا ، رمز الصليب الذي سوف تلبسه على هذه العباءة أحياء لذكر السيد المسيح ، الذي عانى الموت والآلام على الصليب من أجلك ومن اجلنا والمذنبين الآخرين . وعسى الله باسم الصليب وبحق عهد الطاعة الذي قمت به بالايمان وبالعمل ، ان يحفظك ويحميك ، الآن والى الابد ، من قوة الشيطان »** . ثم يضع العباءة على كتفي الاخ الجديد ويقبله قبلة السلام ، التي كانوا يتبادلونها مع كل الاخوة الحاضرين . وعندما يتم انجاز هذه الشعائر لايستطيع الاخ ان يترك الاخوية ابدا الى اخوية اخرى او أن يعود الى الحياة العلمانية .

الاخوة الكهنة

في عام ١١٥٤ منح قانون « الايمان بالديانة المسيحية » الاسبتار الحق الرسمي بأن يكون له كهنته الخاصون به . وهؤلاء الكهنة يستطيعون الخدمة في أي دير يقدم القرابين المقدسة الى الاخوة والفقراء ، وكان لدى الاخوية ترخيص بالاحتفاظ بهم فيما اذا قبل الاساقفة الابرشيون ذلك ، برغم انه كان يسعى دائما الى التماس موافقتهم . ولم يكن الرهبان الاسبتارية خاضعين لسلطته سوى لهيئة الرهبان العامة للاخوية وللكرسي المقدس . وقد حول هذا القانون البابوي أخيرا الاسبتار الى أخوية ذات امتيازات ، مع ان هذه الامتيازات مبالغ في أهميتها . فانها لم تدخل الاخوة الرهبان الى الاخوية ، الذين كان يؤتى على ذكرهم في الوثائق لسنوات عديدة . وكانت ديانة الايمان المسيحي تؤكد على ممارسة شعائر الاخوة الموجودين إكثر من انشاء طبقة جديدة من الاخوة .

وقد تمتع الاخوة الكهنة باسبقية على كل الاخوة الآخرين حتى حاكمية

« بيرتراند دو كومب » . وكانت الاخوية تقبل كأخوة اولئك الذين كانوا رهبانا سابقين ، ولكنها أيضا قامت باتخاذ ترتيبات من أجل رسامة اعضاء اخوية الاسبتار . وقد قضت قوانين عام ١٢٦٥ انه لايمكن ان يسمى أي أخ كاهنا حتى يخدم لمدة سنة في الاخوية ، كما لايمكن لاولاد هؤلاء ، الذين كانوا يعينون بشكل عرفي ، ان يصبح احدهم مساعد شماس ، او شماس ، أو كاهنا حتى يبلغ السن القانوني للرسامة . ولم يسكن الكهنة في الدير فقط ، وانما أيضا في الحاميات ، وفي أوروبا ، في بعض الاحيان ، في مجتمعات خاصة اسست من قبل الطبقة العامة والاسبتارية معا . وشملت هذه المجتمعات كنسيين ذوي مرتبة عالية . وكانت ابرشية فالينيا ، قرب قلعة المرقب ، في بعض الاحيان بأيدي الاخوة ، بينما في مطلع القرن الرابع عشر كان اسقف طرطوس اسبتاريا . وقد تولى الكهنة بعض الوظائف العلمانية الهامة في الحاكميات. كان الرئيس الاكليركي نائبا للمقدم في اسبانيا في عام ١٣٠٨ . وقد تقرر في عام ١٢٨٣ ، ان لايتولى أي رجل دين منصبا يشارك في احكام قضائية بالاعدام. وهذا جعل الاخوية تتمشى مع القانون الكنسي ، الذي منع كهنة الاخويةمن ادارة تلك الحاميات والقلاع ، حيث يتمتع الاسبتارية بعدالة لابأس بها . يشترك الاخوة الكهنة في الاجتماعات العامة لهيئة الرهبان العامة وفي انتخاب الرئيس . اما بالنسبة لمسائل السلطة ، فقد كانوا خاضعين للحكم ذاته ، ويحاكمون بالطريقة نفسها من أجل الاخطاء التي تستلزم العقوبة السباعية ، ولكنهم كانوا خاضعين مباشرة في المسائل الاكثر أهمية لرؤسائهم الكنسيين الخاصين بهم ، وللرئيس الاكليركي في المركز الذي يتمتع بسلطة كلية علىالكهنة والرؤساء المساعدين في الاديرة خلال تاريخ الحملات الصليبية .

تمتعت المؤسسة الاكليركية اكثر من اية مجموعة اخرى في الاخوية بامتيازات الاعفاء من الواجبات الكنسية ، وهنالك دليل على ان هذه الامتيازات كانت كثيرة . ففي عام ١١٧٩ عرض المقدم ، طالبا الصدقات ، على جماعة المؤمنين الف قداس يحتفل بها ١٤١٣٠ كاهنا في العالم ، وقد كتب : « ان الاخوية في حوالي عام ١٢٤٠ كانت تملك حوالي ٣٥٠٠ كنيسة » . ان هذه الارقام ليست معتمدة ، ولكننا نعرف انه في عكا في عام ١٢٦٣ كان الرئيس

الاكليركي مسؤولا عن أربعة كهنة ، وقافلة واحدة من العربات ، وقندلفت او قسيس عسكري ملحق بقصر ، وشماسين اثنين ، وأربعة مساعدين للكهنة ، وقيم غرفة المقدسات . اما في الاسبتار ومن أجل الحجاج الفقراء ، كان هنالك قسيس ومساعد له . بينما كان في كنيسة القديس ميخائيل في مقبرة الاخوية، قسيس آخر يرتل الترانيم والشعائر الدينية للموتى ، يعاونه مساعد كاهن آخر ، وانه من غير المعروف كيف رعت الاخوية كثيراً من الاكليركيين في قبرص، برغم انه لايزال يبدو انها استخدمت كاهن القافلة في عام ١٣٠٣ . وكذلك في الدير كان هنالك قساوسة المقدم ، ولكن خارج نطاق سلطة رئيس الدير ، وقد ظهر هذا لاول مرة في عام ١١٥٧ . وسمحت قوانين عام ١٢٠٦ للمقدم بان يستخدم قسيسا وموظفا . ويبدو انه كان لديه قسيسان في عام ١٢٤١، وبالتأكيد قسيسان وموظف في عام ١٢٩٨ . وكرست قوانين عام ١٣٠٢حصة عام ١٢٠٦ ، ولكنها سمحت له بان يستخدم قسيسا اضافيا عوضا عن الموظف اذا رغب في ذلك .

وبرغم ادلة المؤسسة الكنسية الضخمة ، يمكن ان تكون الارقام المعروفة لدينا ارقاما نظرية واكثر من الواقع . وبشكل مثالي ، يجب ان يخدم ثلاثة كهنة في كل دير ، ولكنه ثبت ان هذه الخطة لم يتم التقيد بها دائما . وقد رسمت قوانين عام ١١٧٧ تعليمات حريصة لكي تتبع في تلك الكنائس حيث كان هناك كهنة بشكل كاف . وقد اشتكت الهيئة العامة للرهبان في اجتماعها العام سنة ١٢٦٢ بأن كثيرا من الاديرة الصغيرة ليس لها كهنة على الاطلاق ، وأمروا رؤساء الاديرة بتطويع رجال الدين كي يخدموا في مذابحها. وكان من الضروري دائما ان يلحقوا بالكهنة عددا لابأس به من الغرباء .

وقد سمحت الاوامر البابوية الرسمية للفترة ١١٣٩ — ١١٤٣ للكهنة العلمانيين بان يخدموا في الاخوية لمدة سنة او سنتين . وقد اكدت انه لايمكن لاحد ان يخلق لهم المصاعب اذا قرروا مساعدة الاخوية بهذه الطريقة ، او ان يغير مكاسبهم . ولكن الاسبتار أيضا استفاد كثيرا من الكهنة بشكل مؤقت، فقد اشتملت القوانين والاحكام في عام ١١٧٧ و ١١٨٢ على فقرات تهتم بتنفيذ

الواجبات الدينية من قبل الغرباء ، وشملت تدبير الاعمال الخيرية للاخوية. وفي عام ١٢٤٣ ، كان الموظفون العلمانيون لايزالون يستخدمون في وظائف شبه الاديرة ، وفي أواخر القرن الثالث عشر كانوا يستخدمون في وظائف شبه رسمية . وعلى اية حال ، لايمكن توظيف اي غريب كاهنا مالم يقدم شهادة قانونية لرسامة الكاهن . وفي الظروف العادية ، لايستطيع سماع اعترافات الاخوة ، كما كان ممنوعا ان يتولى أي منصب .

الاخوة الفرسان

يبدو أنه لم يكن هناك تمييز سابق بين الاخوة الذين حاربوا (الاخوة تحت السلاح) والذين لم يحاربوا (الاخوة في الخدمة) ولا بتحويل الاخوة تحت السلاح الى أخوة فرسان وسرجندارية . فقد كانت الطبقات المعروفة فقط من الاخوة حتى عام ١٢٠٦ هي الكهنة والطبقة العلمانية . وقد رأينا كيف توسع العنصر العسكري في القرن الثاني عشر ، وكيف ظهرت في القرن الثالث عشر، القوة المتزايدة لسلطة المارشال في مقرات القيادة ، حيث يبدو ان الاخوة تحت السلاح وحدهم الذين كسبوا الحق بان يسموا انفسهم الاكليركيين ، وبذلك كانوا جديرين بحضور اجتماع هيئة الرهبان العامة ليقرروا شؤون الاخوية. وفي الوقت نفسه ، كان هنالك تطور آخر أدى الى تقسيم الاخوة العسكريين: الى اخوة فرسان وسرجندارية . وقد حدد مفهوم الفروسية كطبقة بواسطة قانون صدر في تلك الفترة . فقد اشير الى قانون الداوية الذي ميز الاخوة الفرسان بالسماح لهم بارتداء عباءات بيضاء،عن الاخوة العلمانيين السرجندارية الذين ارتدوا العباءات البنية . ومع ذلك يشتمل هذا القانون ، على وصف دقيق للصفات المطلوبة للفروسية ، والتي لم تظهر حتى منتصف القرن الثالث عشر . وقد اصبح ضروريا بالنسبة للمرشح من أجل القبول كأخ فارس ان يرفع الى رتبة فارس ، ويجب ان يكون ابنا لفارس او سليل أحد الفرسان لجهة والده . اما الفارس الذي اختار ان يخفي رتبته وينضم الى الاخوة السرجندارية فسوف يكبل بالسلاسل اذا اكتشف امره . وكانت هذه القوانين تطبق بشدة ، ويمكن رؤية ذلك في الفترة الواقعة بين عامي ١١٣٠ — ١٢٥٠ اذ

ان الحق بأن يصبح المرء فارسا قد تحول الى امتياز وراثي . ويمكن ان نجد قوانين مماثلة في أوروبا الغربية ، وقد اقترح ان نظام الطوائف هذا قد تزايد مع تطور قوانين الوراثة وكرد فعل للتغيرات الاجتماعية الاخرى ، ونشوء الطبقة البورجوازية ، وطبقة النبلاء الاغنياء المدنيين ، واضعاف القوانين المتعلقة بالنظام الاقطاعي .

واننا لانعرف شيئا عن اساليب الاخوية في التجنيد ، ولكن ، مثل الداوية ، يبدو ان الاخوية قد جندت كثيرا من الاخوة من الطبقة الارستقراطية. وعندما أصبحت اخوية عسكرية ، كانت ملزمة بان تعكس تطورات اجتماعية وقانونية ضمن الطبقات النبيلة . فأظهرت قوانين عام ١٢٠٦ ، التي أسس الاسبتار بموجبها كأخوية عسكرية ، للمرة الاولى وجود طبقتين من الاخوة تحت السلاح . وسمح لكل فارس بان يملك اربعة أحصنة ، وربما سمح له أيضا ان يتيح الفرصة لمرشحين لرتبة فارس . وسوف نرى ان هذا الامتياز قد تغير فيما بعد في هذا القرن نفسه . وقد رسمت القوانين الشروط المطلوبة للترشيح لرتبة فارس . وهذه الشروط لاتزال غير دقيقة . وربما انعكست العوائق الاجتماعية المتزايدة في القانون الذي ينص على أن الذين يدخلون الاخوية يجب ان ينجزوا الخدمات التي يتلاءمون معها في الحياة الدنيوية او اي عمل آخر يؤمرون به . ولا يمكن ان يصبح المرشح فارسا حتى يعدونه بهذا الشرف قبل استلامه لثوب الراهب وحتى يبلغ سن الفروسية ، ولكن ابناء النبلاء الذين تربوا في الاخوية يمكن ان يرفعوا الى رتبة فارس عندما يبلغون سن الفروسية ، قبل ان يرسلوا الى ماوراء البحار او الى تخوم العالم المسيحي .

اشتد النظام الطبقي في غضون القرن الثالث عشر ، ففي حاكمية «بيرتراند دو كومب» بين عامي ١٢٣٦ و ١٢٣٩ منح الاخوة الفرسان أسبقية على الكهنة ، وقيل فيما بعد ان بيرتراند قد صنع الكثير من اجلهم اكثر من أي مقدم آخر . وفي عام ١٢٦٢ صدر قانون بان الفارس فقط يمكن ان يصبح مقدما ، وفي تلك السنة أيضا جاء التعريف القانوني للفروسية . وقد أكد انه

لايمكن ان يرفع الاخ الى رتبة فارس مالم يولد بشكل شرعي من عائلة تمتاز بالفروسية . وفي عام ١٢٧٠ احتفظ بالمناطق الاكليركية للمولودين بشكل شرعي الذين وحدهم فقط يستطيعون ان يكونوا مسؤولين عن راية الاسبتار . وقد عدل هذا القانون نوعا ما بواسطة فقرة تسمح للابناء غير الشرعيين للكونتات او الاشخاص الاكثر شأنا بان يصبحوا فرسانا . وفي عام ١٢٩٧ سمح البابا « بونيفيس الثامن » لابن غير شرعي بان يبلغ كل الرتب ضمن الاخوية ، ماعدا تلك المراتب التي تتعلق بالادارة العامة او الاقليمية . ولكن القوانين كانت تطبق جيدا ، وكان المصلحون في عام ١٢٩٥ مصرين على ان هؤلاء الذين يتولون منصب المدير يجب ان يكونوا اخوة فرسان وابناء زواج شرعـي . يجب ان نكون حريصين على الا نغالي في التأكيد على تطور طبقة الفرسان ، لانه في مطالع القرن الرابع عشر عرضت حالة رفع فيها احد الاخوة السرجندارية الى رتبة فارس . وفي منتصف القرن الثالث عشر ، حدث رد فعل غريب ضد التطورات الاجتماعية . وفي عام ١٢٥٩ ، وبسبب ان الكثير من النبلاء ينضمون الـى الاخويـة ربما كتقليد للداويـة ، فقـد وافق البابا علـى محاولـة لتمييز الفرسان عن السرجندارية تحت السلاح بواسطة اللباس ، واجاز للفرسـان بارتداء عباءات سوداء في زمن السلم ومعاطف حمراء في زمن الحرب . وعلى اية حال ، فقد الغى قانون عام ١٢٧٨ هذا القرار اذ قضى بأنه ينبغي على كل الاخوة ان يلبسوا عباءات سوداء باستثناء الاخوة تحت السلاح فيرتدوا معاطف حمراء . وربما تأثرت الاخلاق بالاصلاح البابوي .

وعلى اية حال ، يمكن التحقق من عمليتين في نظام الاسبتار في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . فقد تطور العنصر العسكري واصبح عنصرا مهيمنا، ولكن هذا التطور تم استجابة للضغوط الاجتماعية ، ونشأت طبقة الفرسان، التي احتكرت بشكل طبيعي مناطق النفوذ . ويبدو انه في السبعينات من القرن الثالث عشر لايمكن أن يتولى هؤلاء الذين لم يكونوا فرسانا مناصب عالية. وكانت التكية من أجل المرضى الفقراء ، بحد ذاتها ، وبادارة رئيس اكليركي ، في أيدي الفرسان. وفي عام ١٣٠٣، كانت حتى وظيفة مساعد في الاسبتار بأيدي الاخوة تحت السلاح. وقد اقتصر العنصر المدني على السرجندارية في الوظيفة والسرجندارية

في الخدمة في ادارات متنوعة . وقد كان تأثير القديس بيرنارد كبيرا ، ولكن التطورات الاجتماعية جعلته يهمل وصفه للداوية . فانهم يذعنون الى الافضل، وليس الى الاكثر نبلا .

الاخوة السرجندارية

لم تطبق اية شروط على الاخوة السرجندارية تتعلق بمولدهم . فقد قسموا في القرن الثالث عشر الى السرجندارية تحت السلاح ، وربما عرفوا ايضا باسم ادلاء القوافل ، والسرجندارية في الخدمة . ويستطيع المقدم وحده ان يقبل اخا سرجنداريا تحت السلاح ، وفي الواقع ، يبدو انه كان هنالك عدد من هؤلاء الاخوة العسكريين من الفرسان ، قد أوجدوا لاول مرة في عام ١٢٠٦، وربما تمتعوا بامتيازات أكثر من السرجندارية في الخدمة. فقد كانوا اكليركيين، وربما يعين من رتبهم السرجنداريون الذين يشاركون في انتخاب المقدم . وقد سمح لكل منهم بحصانين . وفي عام ١٣٠٢ خصص لكل واحد تابع له ، ولكن سابقتهم تبدو بانها كانت أقل كلفة من سابقة الفرسان . وقد ظهر من بين عددهم القليل ضابط عسكري هام وهو تابع المقدم . اما السرجندارية في الخدمة ، من ناحية أخرى ، فقد قاموا باعمال ادارية واعمال وضيعة . وقد كانوا تحت امرة نائب المقدم بشكل مختلف عن السرجندارية تحت الخدمة ، الذين عينوا كأخوة عسكريين بموجب أوامر المارشال . وغالبا ماتمتعوا بمسؤولية كبيرة ، ورغم الاختلاف في الواجبات والامتيازات ، فقد كان ممكنا للسرجنداري تحت السلاح ان يصبح سرجنداريا في الخدمة برغم انه كان من الصعب للسرجنداري في الخدمة ان يصبح سرجنداريا تحت السلاح .

وكان من الصعب غالبا تمييز هؤلاء الاخوة عن الجماعات المؤلفة من الخدم المأجورين ، لخدمة المائدة في الاسبتار ، الذين كانوا يدعون ايضا بالسرجندارية . كما ان أحدث الدلائل على السرجندارية ، في قوانين واحكام عام ١١٨٢ ، تشير بشكل افتراضي الى هؤلاء الخدم الذين عرفوا بكونهم مأجورين ، وبشكل مختلف عن الذين يقومون بالاعمال الخيرية ، اذ تعاقدوا

كي يخدموا الاخوية لفترة محدودة والتي يمكن ان تكون سنة في بعض الحالات. كما وجدت سلسلة من القرارات التشريعية التي اهتمت بسلوك الاخوة تجاه هؤلاء الخدم ، وبالعقوبات التي تفرض بحقهم اذا كانوا مذنبين . فلم يكن ممكنا ان يدلي الاخوة بشهادة ضد عضو من الاخوية لقضية تستحق عقوبة أعلى من العقوبة السباعية ، ولكنها تتطلب شهادة أخ او رجلين علمانيين لتبرئتهم . كما لايستطيع أي مسؤول ان يترك لهم أي شيء بموجب وصية ، ماعدا أجورهم. فقد كانوا يشتغلون مقابل طعامهم ، اذ سمح للاخ بأن يأكل ، اذا لم يستطع المشاركة بذلك على موائد الدير . وكخدم مأجورين ، يمكن ان يندمجوا في طبقة كبيرة وغير متجانسة وتتألف من : الناسخين ، وكتاب العدل ، والمحامين ، والاطباء ، والحجاب ، والخدم ، وسائسي الخيل ، وحاملي الترس ، وسائقي الرواحل ، والطهاة ، وخدم المطبخ ، والسقاة ، والحلاقين ، والاطباء البيطريين ، والمشاة ، والمرتزقة .

أخوات القديس يوحنـــا

لقد رأينا أنه في القرن الحادي عشر في مدينة بيت المقدس قد كانت هناك تكية الى جانب الاسبتارية من أجل الرحالة النساء ، أصبحت في القرن الثاني عشر ديرا مستقلا للقديسة « ماري ميجر » . ولكن يجب علـى النساء ان يخدمن منذ سن مبكرة في الاسبتار نفسه ، حيث كان هناك جناح للنساء . وتوجد ادلة على أنه كان في بعض المقاطعات الاوروبية أجنحــة يسكنها كــلا الجنسين . وفي انكلترا قبل عام ١١٨٠ كانت هناك أخوات في عـــدة اديــرة اسبتارية ، ونجد الحالة نفسها في « شلزويغ Shleswig » في عام ١١٩٤ ، وفي سويسرا في القرن الثالث عشر ، وفي قبرص عام ١٢٥٥ وأواخر عام ١٢٩٦ في هانوفر . ويمكن لهؤلاء النسوة ان يكن قد عملن غسالات وممرضات ، ولكنه واضح انه في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر قد جمعن ضمن اديرة ، التي في بعض الاحيان ملكت التكيات ، ولكنهن انشغلن في وظائف اسبتاريـــة بشكل محدد ، وكرسن انفسهن كاهنات مترهبات من أجل الصلاة . وفي عام ١١٧٧ انشأ ملك آرغون ديرا لاخوات القديس يوحنا في « كرايسن » .

واتبعت هذه المؤسسة بدير « بوكلاند «Buckland» في انكلترا في عام ١١٨٠، حيث اجتمعت الاخوية بشكل مؤقت في.« اكورنبري « Acornbury » في القرن الثالث عشر . وقبل عام ١١٨٢ كان هنالك بيت للاخويات في « مانتينا » في بوهيميا ، واسست كنيسة السيدة العذراء في براغ قبل عام ١١٨٨ . وانشئت الاديرة الضخمة في سيجينا والفويرا في آرغون في عام ١١٨٧ و ١٢٥٠ . وقد ملكت كل من جنوة وبيزا بيوتا للاخوات في القرن الثالث عشر . وقد بورك بيت بيزا من قبل القديسة « أو بالديشا« Ubaldescha » . وفي فرنسا كانت هناك اديرة بوليو ، ومارتيل وفيوكس « Fieux ». وفي سورية كان هناك بيت في عكا عام ١٢١٩ ، وفي عام ١٩٥٦ كانت الاخوية تخطط لاستبدال اخوات القديس لازاروس بأخوات القديس يوحنا . ويبدو في منتصف القرن الثالث عشر انه كان هناك بعض الضغط على رؤساء الاديرة من قبل اللواتي يرغبن بان يصبحن مرشحات : حيث منع قبول اية اخت دون موافقة المقدم ، ولكن هذه القاعدة تبدلت في عام ١٢٦٢ ، حيث اصبح قبول الاخوات حسب راي الرئيس المحلي ، الذي يعرف اكثر من المقدم ، ليس فقط ما هي الفوائد التي تقدم للاخوية نتيجة قبول مرشحة ما . ولكن ايضا ما هو الضرر الذي ينشأ اذا رفض قبولها .

صدر قانون اخوات سيجينا في عام ١١٨٨ وصدق من قبل « ارمينفود دو آسب «A. d'Asp» . وبقي هذا القانون ، مع بعض الاستثناءات القليلة، قانون الحياة العامة التي اتبعت من قبل كل هؤلاء الراهبات . وقد اتبعت حياتهن النموذج النسكي العادي للكاهنات المترهبات للقديس اوغستين ، ولكن قانون الاسبتار قد تحكم بحياتهن ايضا . وكانت تحكم كل دير رئيسة للدير ، التي يصادق على انتخابها من قبل الرئيس المحلي للاسبتار . وكان هذا الرئيس يتمتع بسلطات واسعة وقوية ، ويشرف على امور الانضباط ، ويقوم بالزيارات ويعين الموظفين كي يراقبوا الشؤون الروحية والدنيوية .وكانت موافقته مطلوبة قبل موافقة الرئيسة على قبول الاخوات او زيادة عددهن للاقامة في ديرها . وتشبه الرئيسة اي قائد ، فانها تحضر اجتماع الرؤساء السنوي . وترسل اما الى الشرق او الى ديرها ريع الهبات والصدقات .

اعضاء الجمعية الدينية (الاخــوة)

لقد رغب الكثير من الرجال العلمانيين بالانضمام الى الاخوية دون القيود والمصاعب التي كانت مطلوبة كمهنة كاملة . وقد دعمت الاسبتار ، مثل كل الاخويات الدينية ، بعدد ضخم من الزملاء ، الذين على ما يبدو ، انهم في القرن الثاني عشر كانوا يحضرون الاجتماعات العامة في الدير الرئيسي : وقد وجـد اول ذكر للجمعية الدينية في عام ١١١١ ، ومنذ ذلك التاريخ اصبحت اعداد كبيرة من الرجال العلمانيين أعضاء جمعية دينية ، ومن بينهم صاحب طرابلس ريموند الثالث وأمير انطاكية بوهمند الثالث ، وفي الغرب ملك من ملوك آراغون، وكونتات بروفانس وتولوز واخت ملك من ملوك فرنسا . وفي عام ١١٨٣ سمح البابا بدفن إعضاء الجمعية الدينية في مقابر اسبتارية شريطة ان لا يكونــوا محرومين كنسيا ، ويبدو ان ذلك كان معمولا به . وقد صــدر قانون في عام ١٢٦٥ يقضي بان الاخوة يجب ان يحضروا عملية دفنهم ، ما لم يطلبوا في مكان آخر . وطوال هذه الفترة ، حاول الاسبتارية ، دون نجاح ، ان يوسعوا امتيازاتهم الخاصة عن طريق الاستثناءات من اجل اعضاء جمعيتهم الدينية . وقد اشتكى المجلس الكنسي الثالث في عام ١١٧٩ بان الاخويات العسكرية كانت تطالب باستثنائها من السلطة الاسقفية . وقد صدر قانون يقضي بان اعضاء الجمعية الدينية كانوا دائما مسؤولين أمام أساقفتهم المحليين .

وقد كان هناك نوعان رئيسيان من الاعضاءوهما عضو الجمعية الدينيــة ومانح الهبات . وانه ليس من السهل دائما التمييز بينهما، وفي تاريخ لاحــق كانوا على الاغلب يدمجون ضمن جمعية واحدة ، ولكن تساعد الدراسة الدقيقة للوثائق على استنتاج بعض الوصف لهذه المجموعة . ففي القرن الثالث عشر كان على الشخص الذكي الذي يرغب في ان يصبح أخا (او راهبا) ان يتصل بالمقدم او نائبه : يبدو أن أعضاء الجمعية الدينية دائما كانوا يلحقون بديرهم المحلي،سواء أكان ديرا مركزيا أو ديرا عاديا او ديرا للمقاطعة. ويجمع المقدم الاخوة في اجتماع عام ويقدم المرشح تعهدا بانه يرغب بالانضمام الى هذه الجمعيــة الدينية فقط من أجل الفوائد الروحية . ويمسك المرشح المقبول كتابا مقدسا

او احد كتب الانجيل ويضع يديه عليه ويعد بان يدافع عن الاخوية وممتلكاتها ضد الاضرار ، واذا لم يستطع الدفاع عنها بشكل فعّال ، فعليه ان يبلغ الدير بانه سيفعل كل ما بوسعه لايقاف الضرر الذي سيلحق بهذا الدير . واذا رغب بالدخول الى أخوية دينية فسوف يطلب القبول في الاسبتار . ويُبلّغ بان هناك نوعين من اعضاء الجمعية الدينية يستطيع النوع الاول اختيار دفنه في المكان الذي يرغب ، كونه عضوا في الجمعية مدى الحياة . اما النوع الثاني لا يمكن ان يدفن في مكان آخر سوى في واحدة من مقابر الاخوية ، وعند موته سوف يعتبر كأنه قد دخل الاخوية سواء فعل ذلك خلال حياته أو لا . كما يبلغ عضو الجمعيةالجديد أنه ينبغي عليه في كل سنة،في عيد القديس يوحنا المعمدان، ان يقدم شيئا ما الى الاخوية كاعتراف لخدماته لجمعيته الدينية . ومن ثم يقبله المقدم باسم الرب ، والسيدة العذراء والقديس يوحنا المعمدان والمرضى ، ويجعله هو وأحفاده مشاركين في المنافع الروحية للاخوية . وتنتهي هذه الشعائر بتبادل قبلة السلام مع كل الحاضرين ويسجل اسم العضو الجديد ضمن كتاب مع تسجيل الهبة التي وعد بتقديمها سنويا .

يمكن ان نجد آثار هذه الشعائر في كثير من الوثائق . وعادة ما كانت تستهل هذه الشعائر بتنازل العضو عن جسده وروحه الى الاخوية ، كما احتوت الوثائق على ادلة على القسم الذي يقسمه المرشح على الكتاب المقدس ، والوعود بالدفاع عن البيت ، وعدم الانضمام الى اخوية دينية اخرى ، وتقديم هبة سنوية ، ليس فقط في عيد القديس يوحنا ، واختيار الدفن في المقابر الاسبتارية ومشاركة هؤلاء الاعضاء في المنافع الروحية للاخوية . وعلى اية حال ، يبدو انه كانت هناك انواع سابقة لهذه الشعائر . وتتضمن وثيقة سورية تعود لعام ١١٧٤ ان مرشح الجمعية كان يقسم قسمه واضعا يديه على المذبح،ويوجد في أماكن أخرى ذكر لاحتفال عند باب الكنيسة يرافقه قرع للاجراس .

وربما يمكن ايجاد ما نحي الهبات في القرن الثاني عشر . فقد كانوا اعضاء في الجمعية ، ولكن يمكن تمييزهم في ثلاث طرق . فقد كانوا من أصل نبيل ، ولديهم نية لاشك فيها للدخول الى الاخوية وللقبول بشعائر مختلفة نوعا ما .

وقد ذكر نُبلهم في قوانين الاخوية وغالبا ما احتوت الموافقة على قبولهم على عبارة يعبرون فيها عن نيتهم الصادقة للانضمام الى الاخوية او يوعدون بصورة دقيقة بالقبول بدلا عن الضمانة غير الواضحة ، التي وجدت في معظم صكوك الجمعية . ويبدو انهم في بعض الاحيان ، كانوا يتمتعون بمخصصات من المؤن في المقاطعات الاسبتارية . وكان تقديم المؤن عبارة عن التزام من الاخوية من اجل اعالة شخص ما بواسطة مخصصات ثابتة من الطعام واللباس ، على سبيل المبادلة لعملية نقل الملكية الى الاسبتار او لقاء الخدمات حيث تكون الفائدة عامة . ويمكن لمانح الهبات الذي يتقدم بطلب لنيل عضوية كاملة في الاخوية ان يقبل دون موافقة هيئة الرهبان العامة . ولكن في عام ١٢٩٢ ، وبسبب وجود الكثير من الاديرة الاسبتارية ، فقد منع تعيينهم ، ما عدا بعض الاستثناءات من المقدم او نائبه لمنطقة « اوتريمر » وقد استثنيت اسبانيا من هذا القانون بسبب وجود حدود مع المسلمين ، اذ كانت الاخوية بحاجة الى اعضاء جدد . ويبدو انه غالبا ماكان مانحو الهبات يذهبون الى سورية بقصد قبولهم كأخوة. وعلى اية حال ، فقد ذكر في عام ١٢٦٢ انهم لم يرسلوا الى الشرق دون اذن خاص من المقدم ، وعندما يرقى احدهم الى مرتبة فارس يجب ان يحضر معه مبلغ (٢٠٠٠) دنير (١) فضي ليدفعها من اجل تجهيزاته ومقابل شهادة قبوله المكتوبة ، والا سيُعاد الى أوروبا . وفي عام ١٣٠٣ انقص المبلغ الذي يحضره كل مانح الى الشرق الى (١٥٠٠) دنير ، وهو المبلغ ذاته الذي يحضره السرجنداري تحت السلاح لشراء طقم فرسه .

وقد أستقبلت امرأتان كمانحتين للهبات في دير سان جيل وفي نافار عند نهاية القرن الثالث عشر ، ونستطيع من خلال عقود قبولهن ان نوضح الشعائر التي كانت تقام . فكانت مانحة الهبات تمنح جسدها وروحها الى الرب ، والى القديسة مريم والقديس يوحنا . وتختار ان تدفن في المدافن الاسبتارية ، وتعد بعدم الانضمام الى اخوية اخرى . ومقابل ذلك ، كان هنالك وعد معين بقبولها كأخت اذا رغبت ذلك . وشملت شعائر قبولها قسما

---

(١) ـ الدنير « Deniers » قطعة نقد فرنسية قديمة ضئيلة القيمة ـ المترجم .

على الصليب وكتب الانجيل . ويبدو في وقت مبكر ان قبول مانحة الهبات ضمن أخوية كاملة كان يترافق مع احتفالات مضحكة ، بحيث تلبس مانحة الهبات بعض الزي المضحك وتنطلق من احواض الاستحمام في دير القديس يوحنا في عكا الى المنزل الاسبتاري مصحوبة باصوات الابواق والطبول . وقد منع هذا الاحتفال في عام ١٢٧٠ .

يبدو انه كانت هناك انواع اخرى من الجمعيات . فكان هناك الذين اختاروا ، عند موتهم ، الدفن في مقابر الاخوية ولكنهم ليسوا اعضاء في الجمعية بالمعنى الدقيق للكلمة . وقد شمل عددهم الصليبيين والحجاج . وكان هناك الذين وهبوا انفسهم وعائلاتهم بشكل كامل الى الاخوية ، وبينهم كان المتزوجون الذين اصبحوا اعضاء وسلموا كل محاصيلهم ، بسبب السماح لهم بحق الانتفاع من ممتلكاتهم مدى الحياة او ان يصبحوا مستأجرين لاراضي اخرى . واخيرا ، كان هناك الرجال والنساء الذين يلحقون بالبيوت الاسبتارية كأخوة وأخوات علمانيين ، او يمنحون المخصصات . ويبدو أنهم كانوا في بعض الاحيان خدما يمنحون مكافأة عند التقاعد من قبل الاديرة التي خدموا فيها مع استمرار تقديم الوجبات لهم .

حياة الدير

ارتكزت حياة الاسبتارية على الدير حيث عاشوا وصلوا بشكل جماعي . ولكن ، مثل الاخويات الدينية الاخرى ، عدلت قوانين الحياة العامة في غضون القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ويبدو ان ابنية الاديرة في الشرق قد اصبحت منفصلة عن الملكية الاسبتارية . وكانت ضمن المجموعة نفسها في بيت المقدس ، الى الجنوب من كنيسة القبر المقدس(١) ، وتشغل الجزء الغربي من ساحة من الارض ، تعرف اليوم باسم المرستان ، الذي يتقاسمونه مع اديرة القديسة ماري سيدة اللاتين والقديسة « ماري ميجر » . وفي الزاوية الجنوبية

---

(١) ــ المقصود كنيسة القيامة في بيت المقدس .

الغربية من المرستان يوجد دير اغريقي قديم، الذي لا تزال كنيسته موجودة ، واصبحت الكنيسة الرهبانية للاسبتارية ، وكذلك من الممكن انهم قد استخدموا ايضا المصلى الذي وجد بشكل اقرب الى القبر المقدس . وقد بنيت ابنية الدير حول الكنيسة البيزنطية ، والى شمالها مباشرة كانت التكية الاسبتارية الكبيرة من اجل الفقراء وتكية اخرى من اجل الحجاج . وقد وسعت الابنية وحسنت في عام ١١٥٠ ، وكان ٤٠٠ فارس يقيمون فيها في عام ١١٦٣ . ويبدو ان طول الاسبتار نفسه كان ٢٣٠ قدما وعرضه ١٢٠ قدما ، وفيه اقواس ذات ارتفاع قدره ١٨ قدما . وقد اعجب بها الحجاج الغربيون المسافرون الى فلسطين في القرن الثاني عشر ، بينما وجد زوار المدينة من العرب بأن ابنيتها ذات جمال فائق . وبقيت هذه الابنية في أيدي الاخوية حتى سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧، ولم يكن بمقدور الاخوة ان يعيشوا فيها بعد استسلام المدينة المقدسة الى صلاح الدين ، مع ان الاسبتارية قد بقوا لمدة سنة في بيت المقدس من أجل العناية بالمرضى . واحتلت بيت المقدس ثانية من قبل الصليبيين بين عامي ١٢٢٩ — ١٢٤٤ ، ولكن برغم ان الاسبتارية قاموا مباشرة باستملاك ابنيتهم الديرية ، فلم ترجع لهم مراكز قيادتهم . وبقيت ادارة الاخوية متمركزة في عكا ، حيث كانت هناك أخوية هامة .

لقد استملك الاسبتار مقرا في عكا منذ الايام الاولى من القرن الثاني عشر ، واسبتارا منذ عام ١١٧٢ على الاقل ، وبعد عام ١١٩٢ توسع الاسبتارية بشكل كبير وقاموا بتحسين ابنيتهم في مركز المدينة وادخلوا المستودعات والمخازن الى الابنية الرئيسية لاديرتهم . وعلى اية حال ، انتقل الاخوة الرهبان الى جزء آخر من عكا . « زود اسبتار القديس يوحنا بعدد لابأس له من الابراج وكان قصرا جميلا بما فيه الكفاية » ، ولكنه لم يكن في منتصف المدينة . وكان هناك مكان آخر يدعى « النزل » الذي وجدت فيه غرفة طويلة وفخمة جدا ، حيث بلغ طولها ١٥٠ قصبة . وكان يحتفل فيها بعيد تتويج الملك هنري في عام ١٢٨٦ . وهناك عاش المارشال وهيئة رهبان الاسبتار . وفي قوانين منتصف القرن الثالث عشر ، تم التمييز بين اسبتار الحجاج الفقراء الذي عرف باسم التكية وبين قصر المرضى . وفي النزل يبدو أنه كان هناك مهجع وحجيرات

حيث كان الاخوة ، كرهبان في الدير ، تحت امرة المارشال . وفي خرائط القرن الثالث عشر لمدينة عكا ظهر هذا النزل في ضاحية « مونتموسارت » « Montmusart » في مكان يطلق عليه اسم « فين نوف » « Vigne Neuve » وربما انه وسع في عام ١٢٦٠ عندما استطاعت الاخوية اكتشاف بعض الاراضي في المنطقة المجاورة للمدينة ، وبقي اسبتار الحجاج الفقراء ضمن المدينة ، وتجمع حوله كل الابنية الاكليركية الاخرى . احتلت مجموعة ابنية الاخوية مكانا مستطيلا كبيرا في مركز المدينة . وفي احد الجوانب كان هناك المستشفى من اجل المرضى الفقراء ، وهو عبارة عن بناء ضخم مع باحة في منتصفها وربما محاطة باروقة معمدة . وفي الجانب الآخر ، بشكل محاذ للجدار الاول للمدينة ، كان هناك حصن ضخم محاط بالابراج ، عرف فيما بعد « بقصر المقدم » ، لكن ربما احتوى على مجموعة من المكاتب والابنية الاكليركية . وقد سميت في الخرائط باسم اسبتار « Hospitale » وفي احدى الوثائق لعام ١٢٥٢ ربما سميت بالعزبة « Manor » ويمر خلال هذه المجموعة من الابنية طريق يفصل العزبة عن التكية والكنيسة الاكليركية للقديس يوحنا . وقد اختفى الاسبتار والكنيسة الاكليركية ، مع ان آثارهما بقيت حتى اواخر القرن السابع عشر . وفي قصر المقدم ، بقيت هنالك قاعات تعود الى القرن الثالث عشر، وعلى الاغلب كانت احداها حجرة الطعام في الدير ، ومطابخ وبعض الغرف المجاورة. وقد قسمت حجرة الطعام الى قسمين بواسطة اعمدة ضخمة مشابهة للاعمدة التي بنيت في عام ١٣٠٠ في كاتدرائية فاماغوستا . ويبدو ان القسم الشرقي من مجموعة الابنية قد شغلته المستودعات الضخمة حيث كان في منتصفها بوابة رائعة . ولم يبق اي شيء من الابنية الاكليركية في ليماسول .

وكان الاخوة يأوون ، الى الفراش بعد صلاة العشاء وينهضون من اجل صلوات الفجر ، وينامون بالبسة صوفية او حريرية ويجب ان يلزموا الصمت في مهجع النوم . ويبدو ان الجواخ هو الذي كان يقدم لهم لباس نومهم ، وفي عام ١٢٠٦ خصص لكل اخ ثلاث قطع قماشية مع واحدة احتياطية موضوعة في كيس . وفي السنوات التالية ، على اية حال ، يبدو ان فراشهم قد تتطور اكثر . وقد بدا واضحا ، منذ تاريخ سابق ، ان كل الاخوة لم يناموا في المهجع

العام ، اذ كانت هناك ميول لزيادة الراحة والعزلة التي كانت ميزة لحياة الدير الغربية في تلك الفترة . ويبدو ان المقدم يملك احياء خاصة لسكنه في ستينات القرن الثاني عشر ولاهل بيته عام ١٢٠٦ . وربما في القرن الثالث عشر كان المقدم يعيش بجوار التكية ، حتى بعد ان انتقل المارشال والاخوة الرهبان الى جزء آخر من البلدة . وفي عام ١٣٠٢ توسع بيت المقدم بشكل كبير . وبالتأكيد ، ملك المارشال حجيرات اقامته الخاصة ضمن النزل في عام ١٢٦٥ ، وفي عام ١٢٨٨ يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة للرؤساءالاكليركيين ، وللذين كانوا رؤساء اديرة سابقين . وقد بينت قوانين عام ١٢٠٦ بان الاخوة كانوا يملكون حجيراتهم الخاصة ، وفي عام ١٣٠١ حصل كثير من الاخوة الرهبان على غرف خاصة في قصر المرضى ، حيث سمح لهم بتقديم الوجبات .

كان الاسبتارية ملزمين بأن يحضروا ساعات الدير المعتادة وكانوا يقرأون في بعض ايام السبت الفصول التسعة للسيدة العذراء . وتتلى بعض الصلوات وتقدم بعض المواعظ حول السلوك والواجب في او قبل قداس يوم الاحد . يـ الاجتماعات الاكثر اهمية . وتسير المواكب في كل يوم احد وفي أعياد تطهير مريم العذراء ، وعيد الصعود ، وعيد القديس يوحنا ، وعيد رفع مريم العذراء الى السماء بعد موتها . وكان الاخوة يحضرون القداس في هذه الاعياد وفي عيد الميلاد، واعياد ختان السيد المسيح ، ومعمودية المسيح ، وعيد البشارة ، واحد السعف، وعيد الفصح ، وعيد الخمسين (او العنصرة) ، وعيد الجسد المقدس (عيد القربان)،وكلا عيدي الصليب المقدس واعياد ولادة السيدة العذراء للسيد المسيح، وعيد الحواريين بطرس وبولص وكل القديسين . كما كانوا ملزمين بأن يتناولوا العشاء الرباني ثلاث مرات سنويا : في عيد الميلاد ، وعيد الفصح ، وعيد الخمسين (العنصرة) . ويتوجب عليهم ان يتلوا ١٥٠ ترتيلة كل يوم . وكانوا يقدمون القرابين في أعياد تطهير مريم العذراء وفي القداس الاول الذي يتم من اجل الميت ، وفي عام ١٣٠٣ في قداس راحة النفس للمقدمين الموتى وللاخوة ، والذي كان يجري في يوم الاثنين الاول من فترة الصوم . وفي عام ١٣٠٠ قضى احد القوانين ان حامي الاخوية يجب ان يكرم بقراءة الفصول التسعة للقديس يوحنا المعمدان عند صلوات الفجر ولمرة واحدة في الاسبوع وذلك بين عيد

العنصرة وأيام الآحاد الاربعة السابقة لعيد الميلاد . وفي عام ١٣٠٤ كان يقام ايضا قداس اكليركي للقديس يوحنا المعمداني مرة واحدة في الاسبوع في الفترة نفسها من السنة .

وقد كان هناك الكثير من القوانين التي تهتم بامور دفن الاخوة والحجاج وطقوس احياء ذكراهم . وفي اواخر القرن الثاني عشر كانت جثثهم تمدد قبل الدفن بفترة من الوقت ، وذلك حسب ساعة موتهم ، على نعش مغطى بعلم الاخوية ومحاط بالشموع وينظر اليهم في الكنيسة بينما يقوم رجال الدين بترتيل كتاب المزامير . وكان على الاخوة ان يحضروا عملية دفنهم ما لم يكونوا مطلوبين في مكان آخر . وبعد عام ١٢٧٨ كان الاخوة يدفنون وهم بعباءاتهم ، وينسخ نعي كل اخ في لائحة ويحتفل بالذكرى السنوية لموتهم . وقد اصدر القانون الامر الثلاثيني : وهو عبارة عن قراءة ثلاثين قداس من اجل الاخ الميت ، بينما يتلو رجال الدين سفر المزامير ويتلو الاخوة العلمانيون ١٥٠ ترتيلة . وقد اكد اجتماع هيئة الرهبان العامة ، فيما بعد ، على تطوير طريقة القيام بهذا القانون، وحدد الوقت الذي يجب ان تقرأ فيه القداسات وكيف تجري قراءتها وذلك حسب عدد الرهبان المعينين من قبل الدير ذي العلاقة . ففي قداس الاسبتارية، يقوم بقراءة كتاب المزامير خمسة من رجال الدين في كل مساء من اجل ارواح المحسنين ، وبعد عام ١٢٦٢ اصبحت تدق نواقيس صلاة المساء وتنشد صلوات الاموات في يوم الاحد قبل فترة الصيام . وكانت تقرع الاجراس في هذا اليوم في كل البيوت الاسبتارية حيث يقيم الاخوة الرهبان . وفي يوم الاثنين الاول من فترة الصيام ، يقرأ قداس راحة ارواح المقدمين والاخوة الموتى .

وقد جرى الاهتمام في عدة اجتماعات متتالية لهيئة الرهبان العامة بالتنفيذ الجيد للواجبات الدينية ، وخاصة الحفاظ على أعمال كنائس الاخوية. وفي عكا عام ١٢٦٣ قرر بانه يجب على الرئيس الاكليركي ان يتأكد من وجود ست شموع على المذبح العالي للكنيسة اثناء الاحتفالات المزدوجة . ويجب ان تشعل اربع شموع في كل ايام الاعياد الأخرى وايام الاحد ، وفي عيد فصول الانجيل تشعل شمعتان وفي ايام العطلة تشعل شمعة واحدة . وعندما يجتمع

الاخوة في الدير لقضاء بعض الساعات . يجب ان تضاء بعض الشموع في المذابح الاضافية للسيدة العذراء وللقديس بليــز « St. Baise » ، ـ القديس الشافي ـ . وكان على رؤساء الاديرة في الحصن والمرقب ان يتأكدوا مــن ان كنائسهم تضاء بالطريقة نفسها .

يبدو ان الاخوة كانوا يتناولون الغذاء بشكل جيد . فقد ألحقت حجرة الطعام ، التي عرفت باسم القصر ، في عكا بالابنية الأكليركية المجاورة للمستشفى . وفي ذلك المكان كان الاخوة يدعون الى الطعام بواسطة قرع جرس ، ويقــوم بخدمتهم خدم مأجورون . وقد اكد القانون بان عليهم ان يأكلوا مرتين فقط في اليوم . ويبدو ان تطبيق هذا كان اجباريا تماما . وجرت العادة بان تقسم هذه الوجبات الى جلستين ، حيث تكون الوجبة الثانية للذين كانوا يقومون بواجباتهم اثناء الوجبة الاولى وللذين كانوا صائمين . وفي عام ١٢٠٦ كانــت الجلسة الاولى للوجبة الاولى تجري قبل صلاة العصر والثانية فيما بعد . وفي عشيات بعض ايام الاحتفالات ، كانوا يقومون بصلاة العصر قبــل الاكــل ، ويتناولون الوجبة الثانية بعد صلاة المساء . ولم يكن يسمح باحتساء اي خمر بعد صلاة المساء عندما يأوي الجميع الى الفراش . وقضت قوانين عام ١١٨٢ انه في كل يوم يجب اطعام ثلاثين فقيرا في الدير الرئيسي .

وقد الزم القانون الاخوية بان تزود الاخوة بالخبز والماء فقط . وكان واضحا على اية حال ، انها كانت تقدم اطعمة اخرى التي شملت اللحم المطبوخ ، والسمك ، والبيض ، والخبز ، والخمر . ولا يستطيع اي اخ ان يأكل بشكل افضل من الآخرين . برغم انه سمح للاخ ان يتناول الطعام الذي يتناوله الخدم اذا لم يستطع ان يتحمل الطعام الكنسي . ومع ذلك ، فقد قرر في عام ١٢٠٦ ان الطعام والشراب الذي تقدمه الاخوية يجب ان يكون جيدا بشكل كاف كي يتحمله الاخوة اذا كان بأستطاعة الدير ذلك . وفي القرن الثالث عشر لم تكــن القوانين المتعلقة بالطعام ذات طابع تقشفي . وعلى اية حال ، كان الاخوة ملزمين بأن يمتنعوا عن الطعام ويصوموا ، فكانوا يمتنعون عن اكل اللحم في أيام الاربعاء والسبت ، وخلال أيام الآحاد الاربعة السابقة لعيد الميلاد وكل الايام من احد

السبعين حتى فترة الصوم ، ولكن يوم الاثنين أصبح يوما اضافيا للتقشف . كما اصبح استهلاك الحليب ممنوعا في فترة الصيام ، بينما سمح بأكل البيض والجبنة في ايام الجمع . وفي عام ١٢٧٨ صدر قانون يقضي بانه يجب على الاخوة ايضا ان يصوموا في كل ايام الجمع بدءا من أعياد كل القديسين حتى عيد الفصح ، واكد في عام ١٣٠٠ ان صوم يوم الجمعة يبدأ في عيد القديس ميخائيل . وفي عام ١٢٩٩ حذر القيمون الاكليركيون رسلهم الى المقدم بان يعرضوا ليس فقط كل ساعات القداس ولكن ايضا التقشف الضروري والصيام كي يظهروا مدى ايمان الاخوة في الدير . ويستطيع الاخوة ان يفرضوا الصيام على أنفسهم ، رغم انه عليهم ان يتلقوا اذنا بذلك ، وسوف نرى ان نسبة كبيرة من الاخوة كانوا يتهمون ببعض الاعمال الشريرة ويحكم عليهم بان يأكلوا الخبز والماء فقط .

وقد خففت شدة القوانين حول الصيام ببعض الغفران . فقد سمح للمقدم بان يأكل اللحم في ايام الاحد الاربعة التي تسبق عيد الميلاد ، وكذلك الاخوة في البحار ، برغم انه عليهم ان يصوموا في أيام الجمع . وفي عام ١٢٩٥ أجاز البابا للذين كانوا في حملة عسكرية بأن يأكلوا اللحم والاطعمة الاخرى ، ما عدا ايام الجمع من فترة الصوم . وفوق كل هذا ، كان هناك نظام من العلاوات الصغيرة ، حصص من الطعام الاضافي ، والذي أصبح عاديا في حياة الدير في تلك الفترة . وفي عام ١٢٠٦ تلقى الاخوة مقادير قليلة من الخمر في الاحتفالات المزدوجة ، وازداد فيما بعد ليشمل الخبز والخمر . واذا اجريت صلاة في امسية عيد مزدوج ، تقدم الخزينة الى الدير كمية من السمك والبيض او علاوة أخرى . اما الاخوة الذين سمح لهم بفصد أنفسهم في أحد أيام السبت ، فيمكن ان يحصلوا على علاوات عند الوجبات الثلاث التالية . ويستطيع المقدم وبعض الموظفين الآخرين ان يقرروا العلاوات للاخوة الذين يخضعون لعقوبة . ولم يكن معتادا لهؤلاء ان يجلسوا على الموائد في الايام الاخرى غير يوم السبت، ولكن في عام ١٣٠٣ صدر امر يقضي بان المقدم يستطيع وضع علاوة للدير في أول يوم الاثنين من فترة الصوم ، عندما يبدأ الصيام .

وقد افترض ان الاسبتارية كانوا يتناولون الطعام بصمت ونظام جيد ، ولكنه واضح ، ان سلوكهم لم يكن دائما محتشما . فقد اصبحت الوجبات في بعض الاحيان غير لائقة بالاخوة وكانوا يضربون الخدم ويرموا عليهم الخبز والخمر . وبعد انتهاء الوجبة كانوا ينهضون ويهبون الى الكنيسة من اجل صلاة المائدة . وعلى الرغم من القوانين حول الطعام ، بشكل عام ، فقد سمح للمقدم ثم الرؤساء الاكليركيين واخيرا الاخوة البسطاء بان يقدموا الطعام الى ضيوفهم في غرفهم .

قضى القانون بان يكون لباس الاخوة متواضعا . فيجب ان لا يلبسوا البسة ذات الوان براقة . وكذلك الغذاء والنسيج القطني . وخلال تلك الحقبة ، توجب على الاخوة ان يضعوا صليبا مزخرفا على صدر القفطان والعباءة . وعندما يموتون يجب اعطاء البستهم الى الفقراء .

لقد كانت العباءة الاسبتارية هي التي توضع على كتفي المرشح لدخول الرهبنة عند قبوله . وقد رأينا انه كانت هناك محاولة غير ناجحة لتمييز الاخ الفارس بالسماح له بارتداء عباءة سوداء ، ولكن بعد عام ١٢٧٨ سمح لكل الاخوة بلباسها ، برغم أنه من المؤكد ان الجميع لم يفعلوا ذلك . اما بالنسبة للقرنين الثالث والرابع عشر ، فقد كان للعباءة قلادة قصيرة مطوية تماما حول الجسم ومصنوعة من قماش بني او المخمل . وكانت مفتوحة من الامام ولا يمكن وضع أزرار عليها من نفس القماش . اما في اوروبا ، فكانت العباءة تلبس وهي مغلقة تماما ، ويوضع على مقدمتها صليب مخاط او مزخرف طوله ٣ ــ ٤ انشا ، وعرف باسم صليب القديس يوحنا ذي الثماني رؤوس . ويبدو انه حتى منتصف القرن الثالث عشر كان الاخوة تحت السلاح يلبسون القفطان فوق السابغة . وكان ذلك بشكل واضح مانعا شرعيا للتنقل الحر ، وفي عام ١٢٤٨ سمح لهم البابا انوسنت الرابع بأن يلبسوا عوضا عن ذلك معاطف مع صليب على الصدر . ولبس الاخوة في أقدامهم ماكان يدعى بالاحذية الرهبانية ، التي لانعرف عنها الا القليل . وبعد عام ١٣٠٠ يمكن ان يلبس هذه الاحذية بعض الرجال الذين يخدمون الاسبتار ، والرهبان ، والمحامون ، والاطباء ، والناسخون لدى المقدم

والخزينة وبعض خدم المقدم . ويبدو أن ثوب الراهب لم يعتبر كاملا بدون العباءة والحذاء . وكان على الاسبتارية ان يلبسوا الثوب اذا استدعوا امام قيم الدير ، وفي حجرة الطعام ، وعند التقدم الى صلاة المائدة ، وعندما يكونون خارج ديرهم .

كما انه من الواضح ان الاسبتارية ظهروا يرتدون اللباس الجيد . فقد خصصت قوانين عام ١٢٠٦ لكل اخ حصة سخية من اللباس : ثلاثة قمصان ، وثلاثة أزواج من البنطلونات ، وحلة كنسية ، وقفطان ورداء مزركش ،وقلنسوة، وعباءتين احداهما مبطنة بالفرو ، وجوارب من الكتان والصوف. ويبدو ان هذه الحصة لم تتغير في نهاية القرن عندما رغب المصلحون في عام ١٢٥٩ بفرض اللباس المناسب . فقد اشاروا الى انه في كل سنة يجب ان يوزع على الاخوة بزتان ، والمعطف ، والالبسة الداخلية تحت الرداء الكهنوتي ، ورداء مزركش وعباءة . ويجب ان تبطن واحدة من البزتين بالفرو . ومن الواضح ان المصلحين هنا كانوا يشيرون الى أثواب الخدم المميزة والاثواب رخيصة الثمن،والتي كانت تصنع من القماش الرقيق . وقد قررت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٦٢ انه لا يجوز في الاحوال العادية ان يملك أي أخ ثوبا آخر . على اية حال ، يبدو ان هناك بدلة اكثر سماكة ، وفي عام ١٢٦٣ صدر امر يقضي بان الاخوة يمكن ان يحصلوا على ردائين مزركشين احدهما مبطن بالفرو من اجل الشتاء. وفي عام ١٢٨٣ اصبح مألوفا ان يلبس الاخوة الأثواب المميزة في الشتاء والاثواب الرخيصة في الصيف . وعندما كانوا يرتدون الاثواب المميزة في وقت الشتاء ، فانه لا يمكن ارتداء أي ثوب آخر حتى عيد الفصح ، الذي اعتبر على ما يبدو تاريخا تستبدل فيه الاثواب الرخيصة مكان الالبسة المميزة . ولكن يمكن اخراج الثوب المميز من المستودع في الصيف الا انه لايمكن ارتداء اي ثوب آخر طوال الفصل ، ويبدو انه كانت هناك حركة لتعديل كل الملابس في مطلع القرن الرابع عشر . وفي عام ١٣٠٠ بلغ طول صليب الاخوية ٣ — ٤ بوصات يوضع على صدر القفطان والرداء والعباءة. وقد تقرر بأن الرداء المزركش يجب ان يكون من القماش الخشن ومفتوحا من الامام مع سبعة ازرار من القماش

نفسه . وفي عام ١٣٠٥ صدر امر يقضي بان يكون اللون الاسود هو لون العباءة وكذلك القفطان والوشاح والرداء .

وكان الاخ يضع على رأسه قلنسوة بيضاء ، اذ كانت في البداية قلنسوة مزدوجة ولكن فيما بعد سمح له بوضع قلنسوة بسيطة . وعلى اية حال ، لا يستطيع ارتداؤها بمفرده ، الا عندما يقوم بواجبات معينة في الكنيسة ، ويضع فوقها نوعا من القلنسوة الكبيرة التي يجب ان تلامس اذنيه في كلا الجانبين . ويمكن ان يخلعها الاخ فقط من اجل تلاوة الانجيل ، وتوزيع الخبز المقدس ، وعندما لا يترتب عليه الانحناء امام رئيس أعلى . وسمح للاخ ايضا ان يضع على رأسه قبعة ذات أطراف ، وهي عبارة عن عمامة بيضاء تلامس الاذنين . ويلبس الاخ في قدميه ، كما رأينا ، أحذية اكليركية . وعند نهاية القرن الثالث عشر سمح للاخ ان يلبس في المساء جزمة في قدميه . وقد صدر عن اجتماع هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ قرار يقضي بانه لا يسمح لاي أخ ان يلبس الجزمة . ما عدا اوقات صلوات الساعة الاولى وصلوات الفجر ، او عندما يكون مريضا او بموجب اذن من رئيسه الاعلي ، ولكن نظام منح الرخص والاستثناءات بالسماح بارتدائها ، كان نظاما مدروسا .

يبدو ان تقديم هذه الملابس قد اصبح احد الاعباء على اموال الاخوية . وفي عام ١٢١٩ دفع ملك انكلترا هنري الثالث قيمة ثوب لاحد الاخوة الجدد وبلغت كلفته ٤٠ شلنا . وقد منع اجتماع هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ الاخوة من شراء الملابس . وساد القلق حول حالة مخازن الالبسة ، وتقرر في السنة التالية انه علي اي مرشح يرغب في ان يصبح اخا ان يشتري ملابسه الخاصة إذا استطاع ذلك . وبعد عام ١٢٦٨ اصبح من الممكن ان يمنح الاخوة اذنا لشراء ملابسهم الخاصة ، وفي قبرص في عام ١٣٠٢ تقرر ان يعطى الاخوة النقود لشراء الملابس بدلا من تقديم الملابس بحد ذاتها . وقد شابه هذا التطور ادخال مصروف اللباس في الاخويات الاخرى ، ولكن برغم ذلك ، ادخلت هيئة الرهبان العامة قوانين تهتم باهتراء وفقدان الملابس ، ويبدو ان ذلك قد ادى الى القبول بمبدأ الملكية الخاصة للالبسة من قبل الاخوة .

ومثل الاخويات الدينية الاخرى في القرن الثالث عشر ، خصص لكل أخ في الاسبتار مبلغ صغير من النقود مصروفا شخصيا له . وكان هذا المبلغ يصرف من قبل الاخوة الفقراء على الملابس ، لانه كانت هناك رغبة طبيعية للحصول على ملابس اغلى ثمنا ، وهذا ما نوقش في اجتماعات متتالية لهيئة الرهبان العامة واقلق المصلحين بشكل واضح في عام ١٢٩٥ . وبشكل خاص ، حاول بعض الاخوة ان يحصلوا على ملابسهم مصنوعة بتفصيلة حديثة ورغبوا باستخدام ملابس افضل ، ومناديل وعمامات مطرزة وفاخرة ، ولبسوا قماشا ذا الوان زاهية ، وخاصة من الحرير المطرز بخيوط ذهبية او فضية ومحلاة بالمجوهرات الرخيصة . ويبدو واضحا ان أثر قرارات هيئة الرهبان العامة كان قليلا في تلك الفترة .

وكان قادة الاخوية يقومون باعباء تأمين حاجات الاخوة المرضى . واعفي هؤلاء ليس فقط من واجباتهم العادية / الصيام والاعمال الدينية ، وانما ايضا من التنفيذ القسري للعقوبات القاسية التي كانت تفرض بحقهم . ويستطيع المقدم ان يسمح للاخوة المسنين والضعفاء ان يسلموا اسلحتهم ، وعلى الرغم من ان الاخ المصاب بالجذام لا يستطيع ارتداء ثوب الراهب والعيش بين الاخوة الآخرين ، فقد سمح له بالطعام واللباس . وقد اقيمت ترتيبات خاصة من اجل المرضى في كل الاخويات الدينية . وكانت هذه الترتيبات ضرورة اضافية في ظروف الشرق ، وفي الاخوية التي يواجه اعضاؤها اخطار الحرب ، وكذلك فانن وجود اسبتار من اجل الفقراء قد أعطى الاخوة خبرة العناية بالمرضى التي شارك بها بعض الاخوة . ويمكن للاخوة ان يفصدوا انفسهم كل يوم سبت، ولكن لهذا السبب كان عليهم عادة ان يتلقوا اذنا من رئيسهم الاعلى . ووجد في الشرق قبل عام ١٢٠٦ اسبتار خاص للذين يكونون في حالة المرض الشديد، وانه من الواضح أن عددا من الاسبتار قد الحق بالمقاطعات الكبيرة . وكانت اجنحة المرضى تبنى في مكان منزو اذا امكن عن بقية الابنية الاكليركية ، ولكنها قريبة من الكنيسة .

وعندما يشعر الاخ بالمرض ، يأوي الى حجرته او فراشه في عنبر النوم ،

وهناك يقومون بخدمته ويقدم له كل ما يحتاجه . وإذا بقي مريضنا حتى اليوم الثالث ، يدخل الاسبتار : ويستطيع المقدم فقط ان يبقى في غرفته لاكثر من ثلاثة ايام من المرض . وفي البداية ، كان على الاخ ان يطلب اذنا قبل الذهاب الى اجنحة المرضى ، وهنالك ادلة على ان هذا الاذن كان في بعض الاحيان يمنح على مضض . وفيما بعد ، لم يعد الاخ بحاجة الى اي اذن ، بعد ان جهز المشفى بالاسرة من قبل اعضاء الجمعية الدينية والتابعين . وكان الاخ يأخذ سريره وسلاحه معه ويعترف بذنوبه للرئيس الاكليركي او لقسيس اسبتاري، والذي سوف يسأله فيما اذا كان دائنا او مدينا ، وفيما اذا كان مؤمنا على أية املاك لاتخصه ، وتطلب قائمة جرد لكل أشيائه الخاصة . ومن ثم يتلقى المريض القرابين المقدسة ، واذا كان الاخ يتولى منصبا معينا فكان يودع مفاتيح مخزنه الى رئيس الدير . وطوال فترة بقائه في المشفى ، يقدم له وهو في سريره كل ما يحتاجه وحسب قدرة الدير . ويستطيع سماع القداس في الكنيسة بعد الساعات الاعتيادية اذا رغب بذلك ، بينما يبدو انه كانت تقام الطقوس الدينية نفسها في المشفى مثلما كانت في قصر المرضى ، ولكن كان على الاخ ان يطلب اذنا قبل الذهاب الى الحمامات العامة او اماكن الاستحمام ، ومنع من لعب الشطرنج وقراءة القصص الرومانسية واكل الطعام المحرم .

وقد الحقت بالمشفى غرفة خاصة للطعام ، ومكان من المفروض ان يكون الطعام فيه مشابها للطعام الذي يقدم في الدير ، ولكن المرضى يجب خدمتهم قبل الاخوة الآخرين ، وسمح بأن يقدم لهم نوعان مختلفان من اللحم او اللحم المطبوخ بطريقتين مختلفتين ، ويمكن ان تحسن نوعية خمر الدير من اجلهم . ومن الواضح ان نوعية الطعام الذي يقدم في المشفى كانت افضل من طعام الدير ، كما كانت الكمية اكبر ، ويقدم المشفى ايضا الطعام الى الاخوة الذين فصدوا أنفسهم خلال الاسبوع ، عندما لايكون هناك علاوات الطعام على المائدة الاكليركية ، وللقيمين والاخوة الاقدم الذين استطاعوا ، بعد عام ١٢٨٨ ، ان يأكلوا في المشفى دون الحصول على اذن من اجل ذلك .

كان تطبيق العدالة عاملا قويا للحفاظ على وحدة اخوية عالمية ، لان الجميع كانوا يحاكمون حسب التشريع الصادر عن المركز . وكانت طبيعة القوانين الصادرة غير تامة او مرضية بحد ذاتها سببا كافيا للنشاط التشريعي الثابت الذي عمل به الاسبتارية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ولكن يمكن شرح هذا النشاط فقط الى حد ما بواسطة القيود التي فرضت عليه . وكانت هنالك عوامل اخرى يعمل بها : الدستور وظروف الاراضي حيث توجد ادارة الاخوية المركزية ، والتاريخ المأساوي للصليبيين ، والتطورات الاقتصادية والسياسية في اوروبا ، والتغيرات في أهداف الاسبتار ، وفساد طهارة الاسبتار القديم ، واخيرا الانشغال بالقانون في البيئة الاصلاحية الهامة للعصور الوسطى .

كانت القوانين الجديدة ، تصدر بأربع طرق . ان أول وأهم طريقة هي شكل من أشكال التشريع ، الذي تقرره هيئة من الرهبان ، الذي انتشر من خلال الكنيسة في القرن الثاني عشر . كما تصدر القوانين من قبل المقدم في اجتماع هيئة الرهبان العامة في أي وقت تدعو الحاجة لمراجعة القانون او وضع اضافات فيه . وكان التشريع القانوني نتيجة لاربعة وعشرين اجتماعا لهيئة الرهبان العامة ، والذي شمل كل مظاهر حياة الاسبتارية وادارتها . اما الطريقة الثانية ، فكانت الجلسات او المحاكمات المسجلة لاخ ما من قبل الآخرين في اجتماع لهيئة الرهبان العامة . وان هذه المجموعة من القوانين ، التي اهتمت بشكل رئيسي بالسلوك ، اتسمت بميزة اضافية بانها اعطت تفاصيل هامة عن الحياة الاكليركية . وقد وجدت في عدة مجموعات ، وجمعت اول مجموعة منها من قبل « ويليام اوف سان ستيفانو » بين عامي ١٢٨٧ و ١٢٩٠ . وفي عام ١٣٠٣ قام بجمع نسخة معدلة ثانية ، بينما كتبت الثالثة في عام ١٣١٥ من قبل « دانييل اوف سان ستيفانو » وهو مساعد المفتش العام لدير لومباردي . وعلى اية حال ، يمكن ان تؤرخ كل الجلسات المسجلة ، ما عدا بعض الاستثناءات ، الى ما قبل تاريخ أول مجموعة لويليام . وتظهر العشرين الاولى من هذه الجلسات في قانون أخوية القديس «جيمس اوف هوت ــ باس»

« James of Haut - Pas » ، الذي تبنى قانون الاسبتار في عام ١٢٣٩ ، ويمكن ان نجد العديد من هذه المجموعات في قانون اخوية الروح المقدسة في بونيلييه ، الذي صدق من قبل البابا انوسنت الثالث في عام ١١٩٨ ، ولكنها بقيت فقط كنسخة معدلة بين عامي ١٢٢٨ – ١٢٥٢ . وعلى الرغم من الرأي القائل بوجود نسخة مشوهة للجلسة ٤٩ في الفقرة ٥٠ من قانون الروح المقدسة، فمن غير الممكن ان تكون دقيقة ، ولكننا نستطيع استنتاج ان العشرين الاولى فقط يعود تاريخها الى ماقبل عام ١٢٣٩ . وعلى أية حال فقد كانت المحاكمة تجري عن طريق الجلسات ، في الخمسينات من القرن الثاني عشر ، ويبدو ان أحد القرارات كان يعكس الظروف السياسية في سورية اللاتينية بين عامي ١١٨٦ – ١١٩٢ . ويمكن ان يضاف الى هذه المجموعات تقارير الاحكام الفردية التي بقيت بعض اعدادها منذ مطلع القرن الرابع عشر .

والطريقة الثالثة هي اعراف الاسبتارية . وبرغم انها غالبا ما كانت تلاقي تصديقا كنسيا ، كانت تعتبر كمجموعة منفصلة عن القوانين . ولم تصدر هذه الاعراف عن جماعة الرهبان العامة للدير ، ولكن القضاة في محاكم العمال رغبوا بكتابة ما كان يطبق عرفيا في الاخوية . وقد لعب القانون العرفي دورا كبيرا منذ منتصف القرن الثاني عشر ، لكن ايضا ظهرت بعض الاعراف في قانون اخوية الروح المقدسة للقديس جيمس التي لا نستطيع تحديد تاريخها الدقيق اكثر من الفترة التي سبقت عام ١٢٩٠ . وقد ضمت هذه الاعراف مجموعة ويليام ، وان مثل جلسات المحاكمات ، قدمت لنا كثيرا من اللمحات عن الحياة اليومية الاولى للاسبتار . واخيرا ، انشغلت البابوية بكثير من النشاطات التشريعية حول مصلحة الاخوية . وقد صدق البابويات القانون والاحكام وايدوا استخدامها وذكروا الاسبتاريين بواجباتهم ومنحوا الغفران وعملوا على التنفيذ الدقيق للقانون ، وفي بعض الاحيان سنوا قوانين جديدة .

لقد رأينا ان تاريخ التشريع منقسم بدوره الى اربع فترات . ظهرت الاولى ، في فترة من التطور ، في اجتماع هيئة الرهبان العامة عام ١٢٠٦ ، وكانت الثانية ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، فترة يبدو ان الاسبتارية كانوا

خلالها راضين بالسماح للبابويات بأن يشرعوا لمصلحتهم . ومع ان التشريع البابوي استمر طوال ذلك القرن ، فان حاكمية « هيو ريفل » عملت على تحديد النشاطات الكنسية التي انبثقت عنها اعداد كثيرة من القوانين . وقد أدى سقوط عكا في عام ١٢٩١ والمشاكل الداخلية والخارجية التي واجهتها الاخوية الى فترة من الفوضى ولكن ايضا تخللها بعض محاسبة الذات والاصلاح .

وقد تحكم في تطبيق العدالة على اخوة الاسبتار العلمانيين مفهومان اثنان. كان الاول الحكم الذي يصدر عن هيئة الرهبان العامة الذي بلغ درجة عالية من التطور وتميز بالشكلية القانونية . اما المفهوم الثاني ، فقد كان نظاما من العقوبات المتدرجة . ويرجع تاريخ الاجراءات التي اتبعت في المحاكم على الاقل منذ ان عرف القانون باسم « جلسات الاخوة » . تقدم الشكوى الى هيئة الرهبان للمقاطعة او الدير او الدير الرئيسي ، وتصدر هذه الهيئة قرارها بعد سماع كلا الطرفين والشهود . وهكذا فقد كانت هناك ثلاثة مراحل للمحاكمة وهي : الشكوى الرسمية ، وسماع البراهين ، وقرار هيئة الرهبان العامة . وفي بعض الاحيان يمكن ان يلي ذلك مرحلة رابعة وهي الاستئناف الى سلطة أعلى .

لقد نص القانون على انه « في كل الاخطاء والقضايا والمشاجرات الاخرى ، دعوهم يتحاكمون عند هيئة الرهبان العامة لتقرير الحكم الصحيح » . ويمكن لهيئة الرهبان العامة ان تعدل عقوبات معينة ، ولكن عدالة الاخوية يجب ان تعقد امام الجميع . واذا كان اخوان او أكثر معا وواحد منهم مذنب ، فيجب على الآخر ان لا يشوه سمعته ولكن عليه في البداية ان يعاقبه سرا ، وكذلك يستطيع طلب مساعدة أخوين او ثلاثة لمعاقبته . واذا لم يصلح الاخ المذنب سلوكه ، فكان على الاخ الذي عاقبه بشكل سري ان يدون الذنب ويرسله الى رئيسه الاعلى ، الذي سيقرر في اجتماع هيئة الرهبان ما يجب فعله بحق المذنب . وقد قرر اجتماع هيئة الرهبان العام لعام ١٣٠٤ انه لا يمكن لاي اخ ان يعاقب بالعقوبة السباعية وما فوق ما لم تقدم ضده شكوى رسمية . ولكن هذا لم يكن قانونا جديدا ، فقد قضت الكثير من المحاكم والاعراف والقوانين ان العقوبة يمكن ان تفرض على الاخ فقط ، اذا قدمت شكوى من قبل احد

الاخوة ضده ، او من قبل رئيس اعلى او مساعد المأمور ضد احد مرؤوسيه. وفي بعض الاحيان . يستطيع المقدم تعيين اخ كي يشتكي لصالحه الى هيئة الرهبان العامة . ولكن مهما كانت الطريقة المتبعة ، كان من المستحيل لمسؤول ما ان يفرض ادنى عقوبة على احد الاخوة دون تقديم شكوى رسمية الى هيئة الرهبان العامة ، ولم تكن العقوبة المفروضة اكثر من العقوبة التي تنتج عن عمل يقوم به أخ عادي ، كان مساعد المأمور نفسه مسؤولا امام القانون ، مثل الآخرين ، ويعاقب اذا لم يتمكن من تقديم الادلة على التهمة الموجهة لاحد الاخوة .

وقد لوحظ تطبيق مبدأ ان الاتهامات تقدم فقط لهيئة الرهبان العامة طوال ذلك العصر . وبأن الاخ الذي يشتكي ضد أخ آخر قبل معاقبته سرا ، ويتهمه خارج اجتماع هيئة الرهبان العامة وامام الاخوة الآخرين ، فسوف تفرض بحقه نفس عقوبة المتهم ، ويشترط ثانية ان يتقدم الاخ الذي شوهت سمعته بشكوى ضد الآخر . وكان هنالك ، على أية حال ، خطر هو ان سلطة الموظف تكون في موقف حرج لانه كان معرضا للعقوبة اذا لم يستطع اثبات تهمة ما ، وسمح للموظفين والاخوة ان يؤجلوا شكواهم اذا لم تتوفر لديهم الادلة الكافية لتحقيق اتهام مباشر . ويستطيع مساعد المأمور ان يحصل على أذن لتأجيل شكواه الى الاجتماع الاقليمي لهيئة الرهبان العامة ، ولكن شكواه تفقد كل الشرعية اذا لم يطرح شكواه مرة ثانية . وبشكل مشابه يستطيع ان يؤجل شكواه الى الاجتماع الثالث لهيئة الرهبان العامة المحلية ، شريطة ان يذكر ذلك في الاجتماعات الطارئة لهيئة الرهبان العامة . واذا أراد المقدم ان يتخذ اجراء ضد مساعد المأمور دون أن يكون لديه دليل كاف ، فيستطيع تأجيل الشكوى الى الاجتماع التالي . وعلى اية حال ، يجب على الذي يؤجل شكواه ان يبلغ اية هيئة رهبان بهذا ، والا فيستطيع الاخ المتهم نفسه ان يقدم شكوى بأنه هو الآخر يشعر بكراهية نحوه ولذلك اتهمه ، ويعاقب بنفس عقوبته .

كان الاستئناف الذي يقدم في جلسات الاخوة الرهبان لا يتعلق فقط بالجنح . وكانت هيئة الرهبان العامة تستدعي اثناء جلساتها الرؤساء الاكليركيين الى الشرق ، ويفترض ان يكون هذا الاستدعاء بناء على طلب المقدم ، وكان حكم

الجلسات مطلوبا عندما ينشأ نزاع حول الحقوق ، او عندما يعتبر أخ ان رئيسه قد أصدر اليه أمرا غير معقول . وكان العديد من قرارات جلسات اوائل القرن الرابع عشر يتعلق بحقوق متنازع عليها بين الاخوة والرؤساء الرهبانيين، وذكرت الاعراف انه اذا اصدر رئيس أمرا الى مرؤوس (اخ) يبدو انه لا ينطبق على الاعراف ، فان للاخ المأمور الحق بأن يطلب عقد جلسة للإخوة الرهبان للنظر في هذه المسألة . هنالك قانون لـ « هيو ريفل » يعارض هذا النظام الهام، ولكن الدير في عام ١٢٩٩ خطط لطلب حكم من قبل جلسات الاخوة الرهبان حول قرار المقدم بعقد جلسة لهيئة الرهبان في مدينة « افينيون » . ربما كانت قوانين عام ١٣٠٠ متأثرة بهذا النزاع ، اذ نصت على ان الجلسات يجب ان تعقد اذا طلب أخ قرارها حول أمر صدر او حول مسألة تتعلق بحقوقه . اذا رفض رئيسه عقدها ، ينبغي على الاخ ان يطلب عقدها يوميا ، ويكون الامر غير قابل للتنفيذ الى أن يصدر حكم من هيئة الرهبان العامة بصوابه . وسوف نعود الى مسألة الاستئناف المقدم الى جلسات الاخوة الرهبان لانها ذات اهمية بالغة توازي المطالب الدنيوية اصدار حكم (أو أحكام) من قبل الامراء ، وعلاوة على ذلك تمت الاستفادة من قانون الاقطاعة « Assise sur la ligece » في مملكة بيت المقدس في القرن الثالث عشر .

نصت قوانين عام ١٢٠٦ ان هذه المحاكم يجب ان تعقد خلال الاجتماع العام لهيئة الرهبان العامة للاخوية بعد ان تقرأ تقارير القيمين وتتلى الاعراف الجيدة للدير من قبل الاخوة القدامى . وفي وقت لاحق من القرن ، يبدو ان هيئة الرهبان العامة قد تحولت الى تطبيق العدالة مباشرة بعد استلام التقارير حول حالة المناطق التابعة للاخوية . واذا رغب المقدم او أحد الاخوة بتقديم أية شكوى او ان يبلغ المحكمة بانه يرغب بتأجيل شكوى ما ، فيجب عليه ان يفعل هذا قبل اختتام اجتماع هيئة الرهبان العامة . وعندما يقرر المقدم او مأمور او أخ علماني بسيط ان يشتكي او يطلب حكم هيئة الرهبان العامة ، يعتبر الاجراء مقدسا ورسميا . ويظهر أول دليل على جلسات الاخوة في الوثيقة التي تصف استقالة « جيلبرت دو اسايي » عام ١١٧٠ . وقد ألح الاخ « بونز بلانوس » الذي كان نائبا للمقدم ، انه يجب على روما ان تحكم حسب شرعية تصرف

جيلبرت ، ويبدو انه احتج على قرار هيئة الرهبان العامة . وقد حكم نائب المقدم الجديد انه يجب ان يحرم هو ورفيقه من عدة الحرب والاحصنة قبل الذهاب الى ما وراء البحار . ويمكن ان نتبين عناصر الاستئناف والحكم بشكل واضح . فكانت هناك إجراءات متطورة ومدروسة في أواخر القرن الثالثعشر، اذ يجب على الاخ الذي يطلب انعقاد محكمة او التقدم بشكوى ان يصرح بقضيته في البداية ويدعو شهوده الذين سيقسمون على ما يدلون به . وسوف يكون المتهم موجودا طول الوقت ، ولكن لايطلب منه الدفاع عن نفسه حتى تسمع القضية من جهة الادعاء . كما لا يطلب من المدعي ان يقسم ما عدا الحالات حين لايوجد لديه شهود ، ولكن يبدو أنه كان من الممكن في بعض الاحيان للاخ المدعي ان يطلب ادلة من المتهم وبعد ذلك يطلب منه ان يقسم . وايضا يملك المتهم الحق باستدعاء الشهود ، وينصح الاخوة في الجلسة بان يتأكدوا بان الشهادات قد سمعت بطريقة قانونية ، اذ يسألونهم بشكل شخصي وبحضور الطرفين . وقد سمح اجتماع هيئة الرهبان العامة عام ١٢٩٣ للاخ المدعي او الذي يطلب عقد جلسة للاخوة ، بان يستدعي حوالي ستة شهود من الاخوة الذين يخدمون في الشرق . ولكن المحكمة احتفظت بحق اتخاذ القرار ، عن طريق تصويت الاكثرية، فيما اذا سمح للاخ باستدعاء الاخوة من البلدان البعيدة فيما وراء البحار .

وفي الوقت ذاته ، كان الاسبتارية حريصين على تشريع القوانين المتعلقة بالصلاحية الشرعية للشهود وفرض العقوبات ضد توجيه الاتهام الكاذب . وعادة لا يمكن ان يؤخذ بشهادة الرجل الخادم او أي رجل غلماني ضد احد الاخوة ، وتعتبر شهادة باطلة اذا كان المتهم سيعاقب بعقوبة اكثر من العقوبة السباعية . ويمكن ان يعاقب الاخ بالعقوبة اكثر من العقوبة السباعية . ويمكن ان ، يعاقب الإخ بالعقوبة السباعية بموجب شهادة أخ واحد ، كاهن أو فارس من التابعين للاخوية ، او شهادة أي شخص شريف . ولا يستطيع أي أخ ان يثبت خطأ أخ آخر اذا استلزمت عقوبة هذا الخطأ عقوبة أعلى من العقوبة السباعية ، ولكن يمكن ان يفقد الاخ ثوب الرهبنة بشهادة اثنين من الاخوة ، أخ واحد واثنين من الرجال الغلمانيين أو رجال الدين التابعين الى الاخوية . وقد نص القانون بانه لا يمكن للاخ ان يتهم أخا آخر بتهمة ما ، ما لم يتمكن

من اثبات قضيته . واذا كان المشتكي غير قادر على اثباتها ، فسوف يفرض بحقه عقوبة المتهم نفسها . واذا اشتكى أحد الموظفين ضد تابع له ولم يستطع اثبات تهمته ، فيمكن للمتهم ان يتقدم بشكوى ضد رئيسه ويطلب ان يعين رئيسا مؤقتا لهيئة الرهبان العامة كي يسمع القضية في مكانه . ويمكن أيضا ان نرى وجود رغبة عامة لتعيين رئيس عادل لجلسة الاخوة في قضايا الحقوق والقيادة . وعندما كان الدير يخطط لطلب جلسة للاخوة من ويليام دو فييارية في عام ١٢٩٩ ، طلب من المقدم ان نيعين أخا في مكانه ليستمع الى هيئة المحكمة لانه كان طرفا في القضية .

وتتوضح ادلة قوانين الاخوية بواسطة مجموعة قيمة من جلسات الاخوة المسجلة التي وجدت منذ مطلع القرن الرابع عشر . وكانت الاجراءات المتبعة هي نفسها اذا كانت القضية لاحد المشتكين او حول الحقوق في الاخوية . ويقدم المدعي او نصير القضية بشكوى او يطالب بعقد جلسة للاخوة ، ومن ثم يقدم قضيته التي تمت الاجابة عليها من قبل المدافع . وفي بعض الاحيان ، يقدم كلا الطرفين اجابات اخرى . ويستدعي الشهود ويسألون بشكل منفرد ، او تقدم فقرة من احد القوانين كاثبات اذا لم يتوفر الشهود ويقسم المدافع على ما يقول . ويلي ذلك نقاشات بين اخوة في الجلسة حتى يتم التوصل الى قرار يؤخذ في معظم الحالات عن طريق تصويت الاكثرية .

وكانت الصفة الرسمية واحدة من أهم الخصائص المميزة لعملية المحاكمة هذه . وقد اكد انه حتى في حالة القتل ، فان الاخ الذي حكم عليه مرة من اجل جرح المحتضر ، لايمكن ان يحاكم ثانية ، وهكذا ينجو من عقوبة القاتل ، ويجب تأجيل الشكوى ضده الى ما بعد الموت الممكن لضحيته . وان مسألة تقديم دليل جديد تعد المحكمة قد شغلت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠٣ ، ولكنها قررت ان حكمها لا يمكن ان ينقض . ركن هنالك احترام عميق لقوانين الاخوية وخاصة المتعلقة بالدستور ، الذي كان لاحكامه أهمية بالغة في المحاكمات . وفي احد القضايا ، رفض سماع شهود أحد الاطراف بعد ان تناقضت ادلته بموجب أحد احكام القانون . وفي تسعينات القرن الثالث عشر نصح ويليام أوف سان

ستيفانو الاخوة عند عقد جلسة ان يتقيدوا بالدستور والقوانين والاعراف واذا لم تف بالغرض ، يمكن الرجوع الى نصوص الكتاب المقدس والقوانين المدنية والطبيعية ، على الرغم من اقراره بانه ليس كل القضاة ينبغي ان يكونوا من حاملي شهادات في القانون . وكانت الاجراءات تتبع بدقة . ففي احد جلسات الاخوة اشير الى ان المتهم قد اقسم قبل سماع شهادة الشهود ، ولا يمكن استدعاء اي شاهد بعد ان يقسم المتهم ويعرض قضيته . وكان الاخوة في هيئة الرهبان العامة قلقين ايضا حول ما يمكن ان يكون سابقة ، وهذا أمر صحيح تسبب وجود تقارير حول الجلسات يشير الى قوة القانون . وقد حرصوا ان يلفتوا الانتباه الى اهمية شهادة الشاهد التي يعتبرونها كأثبات ذي اهمية بالغة .

وكانت العقوبات التي تفرض بحق الاخوة في الاسبتار تنظم بعناية وكانت مشابهة لعقوبات كثير من الاخويات الدينية الاخرى . وكانت أقل عقوبة هي الحرمان اما من الخمر او الطعام المطبوخ او كليهما . ومن أجل الاخطاء الاكثر اهمية ، كانت هناك عقوبات مختلفة تدخل كلها ضمن مصطلحات العدالة والتي تفرض من قبل جلسة لهيئة الرهبان العامة . وتستلزم العقوبة السباعية للضرب والصوم القسري لمدة اسبوع . وكانت عقوبة الاربعين مشابهة للعقوبة السباعية ، ولكن الصيام يستمر ٤٠ يوما ، واخيرا يمكن ان يفقد الاخ ثوب الرهبنة اما بشكل مؤقت او بشكل دائم .

ولم تكن عقوبة الحرمان من الخمر او الطعام المطبوخ،بمعنى آخر الحمية القسرية على الخبز والماء ، اقل عقوبة من عقوبات الاسبتار . فكانت العقوبة الوحيدة التي تفرض من قبل موظف أعلى بشكل مباشر دون الرجوع الى هيئة الرهبان العامة . ولذلك ، كانت العقوبة الوحيدة التي لم تستلزم جلسة من قبل جماعة الاخوة . وفي سورية كانت هذه العقوبة تفرض من قبل المقدم بحق الاخوة الآخرين الذين اساؤوا التصرف في الواجبات ، ومن قبل المارشال على الاخوة المقصرين في واجباتهم والذين يخالفون القوانين في النزل . وفي الظروف العادية ، يمكن ان يكون القيمون الاكليركيون غير قادرين على معاقبة الاخوة بهذه

الطريقة ، ولكن ربما استطاع نائب المقدم ان يعاقب الاخوة في الخدمة . ويستطيع المقدم ان يحاكم القيمين ، ويستطيع ايضا ان يأمر بعقوبة عامة لديرة . وفي الغرب كانت هذه العقوبة تفرض ، بشكل افتراضي ، من قبل رؤساء الاديرة او القادة في المناطق التابعة لهم .

وقد فرضت العقوبة السباعية وهي ادنى عقوبة تشريعية ، منذ ان وجد الدستور في الاسبتار . وتفرض هذه العقوبة مع كل العقوبات الاعلى من قبل هيئة الرهبان العامة فقط ، وفي بعض الاحيان تترافق مع حرمان الاخ من طقم فرسه ، وبهذا تخفض مرتبته الى رتبة أخ في الخدمة . وان الاخ الذي يحكم عليه بالعقوبة السباعية ، سوف يضرب أمام هيئة الرهبان أو في كنيسة ، وبعد ذلك يجب عليه ان يتبادل قبلة السلام مع رئيسه الاعلى . وتستلزم هذه العقوبة ان يأكل على الارض بدون منديل مائدة لمدة اسبوع ، ويقدم له الخبز والماء فقط في يومي الاربعاء والجمعة . وكانت العقوبة السباعية تفرض من اجل الاساءات الصغيرة مثل المشاكسة ، والسلوك الفوضوي ، والذهاب الى الاماكن المحرمة ، ومخالفة أمور متعلقة باللباس والتجهيزات ، والمخالفات الصغيرة للقوانين وخاصة السلوك في الكنيسة وعند المائدة ، والمعصية في المسائل الصغيرة ومن أجل الاهمال من قبل بعض الموظفين . وفي القضايا الاكثر أهمية ، تفرض العقوتة السباعية فقط بحق الراهب المبتدىء وذلك بسبب قلة خبرته .

يرجع تاريخ عقوبة الاربعين ايضا الى تاريخ اصدار الدستور . وقد استلزمت هذه العقوبة الضرب ، ولكن في هذه الحالة يجرد الاخ من ملابسه . وبعد ان يتم الضرب ، عليه ايضا ان يتبادل قبلة السلام مع رئيسه الاعلى . ويفرض عليه ان يأكل على الارض ويصوم في ايام الاربعاء والجمعة ، ولكن مدة العقوبة هذه تستمر لمدة اربعين يوما . وقد عدلت هذه العقوبة في عام ١٢٦٢ عندما صدر أمر يقضي بان يصوم الاخ في ايام الجمع فقط . وعلى اية حال ، بقيت هذه العقوبة كعقوبة شديدة جدا ، وترافقت بالنسبة للقيمين ، بالطرد الفوري من الوظيفة . ولهذا فانه ليس مدهشا ان تفرض بحقهم بسبب

التقصير في الواجب . وكانت تفرض أيضا بحق الاخوة الذين استخدموا العنف وخاصة ضد الاخوة الآخرين ، واعمال خرق القوانين الاكثر أهمية ، والعصيان، والعلاقات المحرمة مع الاشخاص العلمانيين واطلاعهم على أعمال الدير .

وكان هنالك نوعان من العقوبات عرفت باسم « فقدان ثوب الرهبنة » ، وفقدان رفقة الدير . فقد وجدت الاولى منذ ان وجد القانون ، ويمكن ان يستعيد الاخ الذي فقد ثوبه الثوب بعد فترة من النفي . وسوف يضرب بقضبان قاسية ويفصل من الاخوية . ويبدو ان فترة طرده قد تنوعت ٪ ففي عام ١٢٨٣ كان بالامكان ان يفقد الاخ ثوب الرهبنة لمدة سنة ، ولكن في عام ١٣٠٣ يبدو ان الاخ كان يستطيع استعادته بسرعة . وكان على الذين يرغبون باعادة قبولهم ان يمثلوا أمام أحد اجتماعات هيئة الرهبان العامة بعد أن تنتهي أعمال هـذا الاجتماع . كما أن قبولهم لم يكن مؤكدا تماما ، ويبدو في كثير من الحالات انه كان مقترنا بموافقة المقدم ، ورئيس الدير ، او هيئة الرهبان العامة . وبعد ان يتم قبولهم ، فانهم سيعاملون كغرباء عن الدير لفترة من الوقت ، وسوف يتحملون عقوبة الاربعين . وكانت هذه العقوبة تفرض من أجل الجرائم الخطيرة ومن بينها : الزنا العلني ، والسلب ، والانشقاق عن الدير ، وقتل الخدم والمسيحيين ، والسرقة ، والاتهام الكاذب في المسائل الخطيرة ، فاستخدام العنف ضد أحد الاخوة والذي ينتهي بجرح الاخ ، والغش ، والمعصية ، والتهديد بالفرار الى المسلمين ، وتحويل ملكية الاخوية دون أذن والاستقبال غير الصحيح للاخوة . ويستطيع بعض المذنبين استعادة أثوابهم اذا مثلوا أمام المقدم أو الدير في الشرق : كمن يقتل أخا آخر ، وفي عام ١٣٠١ نائب المقدم في المانيا اذا استقبل الاخوة الفرسان ، والسرجنداريه والرهبان الكهنة دون اذن المقدم ، نواب المقدم في المانيا اذا اقترضوا نقودا دون أذن .

ويمكن ان يفقد الاخ ثوب الرهبنة طوال عمره اذا اكتشف انه كذب لدى استقباله وكان متزوجا ، او اذا كان مدينا ، او اذا كان عضوا في أخوية اخرى ، واذا ظهر ان كان فارسا وليس ابنا غير شرعي ، أو اذا كان مصابا بالجذام .

ويمكن للاخوة الذين حاولوا ترك الاخوية ثلاث مرات ان يحصلوا اعلى أذن كي يدخلوا ضمن أخوية أخرى . ولم يكن هناك الكثير من العقوبات التي تفرض بحق الاخوة الذين دخلوا الاخوية بشكل غير صحيح وعرضوا الاخوة الآخرين للخطر . ولكن كانت عقوبة الطرد الدائم تفرض بحق الاخوة الذين يفرون الى صفوف المسلمين ، والذين يفرون من المعركة او من القلاع المحاصرة دون اذن . كما أن هذه العقوبة كانت تفرض بحق اللواطيين . والذين يدلون بشهادة كاذبة ، والذين يتآمرون مع الاشخاص العلمانيين ليثيروا تمردا ضد المقدم .

وكانت هناك عقوبات متدرجة للذين ينتهكون القوانين بشكل متكرر ، وخاصة للذين يخالفون بعض صيغ القانون مثل المشاجرة ، والتخلف عن القيام بصلوات الفجر ، والسكر ، وعدم الانتباه الى الاخوة المرضى . وفي كل مرة يكرر المذنب مخالفته ، فسوف تكون عقوبته اقسى من العقوبة السابقة .

وقد خففت صرامة هذه العقوبات نوعا ما بواسطة نظام من الغفران . فيمكن ان يعفى الاخ من خرمانه من شرب الماء فقط اذا تحقق ان عقوبته ستلحق به الاذى . ويستطيع المقدم ان يصفح عن الاخوة الذين حرموا من شرب الخمر ، كما يستطيع اصدار علاوات للذين ينفذون العقوبة السباعية او عقوبة الاربعين ، وفي حال غيابه يستطيع ذلك القيمون الاكليركيون ، وبشكل افتراضي ، كل الموظفين في دوائرهم ، وعلى اية حال ، لا يستطيع نائب المقدم ان يصفح عن الاخ الذي ارسل لتنفيذ عقوبته في حاكميته .

وفي الظروف العادية ، نفذت العدالة من قبل كل هيئة الرهبان العامة بدءا من أصغر حاكمية وما فوق . وقد رأى الاسبتارية تقديم الشكاوى الى سلطة اعلى ، وذلك لفرض السلوك الجيد وتعديل العقوبات معا . وقد نصت بعض القوانين على أن الاخ الذي يرفض تحسين سلوكه بعد معاقبته مرتين او ثلاثة ، فيمكن ارساله سيرا على الاقدام الى المقدم وهو يحمل دليلا مكتوبا لخطيئته . وفي عام ١١٨٢ هدد المقدم بان يحاكم بنفسه اي قائد تكية لم يخدم المرضى بشكل مناسب . واذا رفض أحد القيمين تلبية طلبات مرؤوس له من أجل عقد جلسة محكمة للاخوة في قضية اتهام كاذب او عمل ظالم ، فيمكن ان يتقدم

المرؤوس بشكوى الى رئيسه او الى المقدم وسوف تفرض بحق القيم نفس عقوبته . ويستطيع الرئيس العفو عن أخ يعاني من عقوبة ما في أحدى المقاطعات، ولكن جلسة الاخوة في عام ١٣٠٢ قررت انه حتى المقدم نفسه لا يستطيع ان يعفو عن أخ كان عاصيا ، وان هذه الجنحة يجب ان يحكم بها في اجتماع هيئة الرهبان العامة .

القديسون والدارسون

تقدم القوانين وجلسات محاكمات الاخوة والاعراف الى القارىء الانطباع بانها وجدت في بيئة من الفطرة السليمة والتسامح . وكانت الحياة بالنسبة للاسبتارية بعيدة عن كونها لا تحتمل ، ولم يشاركوا تزمت وتقشف بعض الاخويات الدينية المعاصرة الاخرى . وقبل كل شيء كانت حياتهم قابلة للتكيف وقدمت بيئة مرضية لكل الاشخاص ذوي شخصيات واهتمامات مختلفة . وان بعض هؤلاء ، وكبار الاداريين والجنود الذين كانوا اتباعا « لريموند دو بوي ـ المبارك ـ » ،قدذكروا في مكان آخر ، ويمكن ان يضاف اليهم القديس الجندي « نيكاسيوس اوف بالرمو » الصقلي الذي نعرف عنه القليل ، والذي كان أخا في الاخوية الاسبتارية في القرن الثاني عشر . وبين اخوة واخوات القديس يوحنا يمكن ايضا أن نجد اشخاصا ذوي قداسة ارثوذكسية كبيرة ، واتباع جيرارد المقدس المحسنين الكرماء. وان الناسك الفلورنسي« جيرارد ميركاتي»ـالمباركـ هو شخصية معروفة من أخوية الفرنسيسكان القديمة ، ولكنه كان سابقا أخا خدم الاسبتار وقد ارتدى طوال عمره صليب القديس يوحنا مخاطا على الثوب الرمادي للاخوة الاقل مرتبة . وان « جيرلاند » « Gerland » المبارك ، وهو فارس الماني ـ او بولندي ـ في أخوية القديس يوحنا ، أمضى السنوات الاخيرة من حياته في صقلية ومات في عام ١٢٤٣ وهو محبوب على نطاق عالمي. والقديسة فلور ، وهي راهبة بوليو ، ماتت في عام ١٢٩٩ . ولكن من أشهر القديسين في التاريخ المبكر للاخوية كانتالقديسة او بالديشا « Ubaldescha » والقديس هيو الجنوي . ولدت القديسة أو بالديشا قرب بيزا في عام ١١٣٦ ،

وعرفت خلال حياتها بجودتها ولطفها ، وعنايتها بالفقراء والمرضى والتقشف الذي فرضته على نفسها ، وماتت في عام ١٢٠٦ . وكان القديس هيو ، المتواضع والوديع ، يقوم بنفسه بمعظم الواجبات الوضيعة في حاكمية جنوة . وقد اشتهرت معجزاته وتقشفه ، ومات في عام ١٢٣٣ ولم يحتفل بذكراه في الاخوية فقط ولكن في جنوة ذاتها .

وقد وجد آخرون ، غير القديسين ، مكانهم في ذلك المجتمع ، ومع ان الاسبتارية لم يشتهروا بالتعليم ، فقد كان لدى بعض وكلاء الأعمال دراية بالقانون ، ومن بينهم نجد اندرو اوف فوغيا « Andrew of Foggia » ، وهو أول محام اسبتاري عرف بالاسم . وفي عصرنا هذا ، على اية حال ، كان هنالك دارس فذ وهو معروف جيدا بالنسبة لنا وهو ويليام اوف سان ستيفانو ، الذي ربما كان ايطاليا . وفي عام ١٢٨٢ كان ويليام في عكا ، اذ كلف كاهنا يدعى المقدم يوحنا الانطاكي ، الذي ربما كان أخا في الاخوية وجنسيته الاصلية هي سورية ، بترجمة بحثين من اللغة اللاتينية الى الفرنسية هما : « Rhetoric ad Herenian ,De Inventione of Cicero » ، اللذين نسبا في ذلك الوقت الى نفس المؤلف . وبعد فترة وجيزة ، عاد ويليام الى اوروبا واقام مؤقتا في دير لومبارديا . وهناك بين عامي ١٢٨٧ ــ ١٢٩٠ ، قام بجمع أول مجموعة من الوثائق ، والقوانين ، وجلسات محاكم الاخوة، والاعراف، واستفاد من الادلة التي أرسلها له« بيرنارد دو شومن Bernard de Chemin » أمين صندوق الاسبتار . ومن ثم رجع الى الشرق وتولى ادارة مدرسة قبرص منذ عام ١٢٩٦ حتى عام ١٣٠٣ . وكان عندئذ رئيسا اكليركيا عندما كان الدير في حالة نزاع مع « ويليام دو فيياريه »،وحول ذلك جمع الكثير من المواد في أضخم اعماله . وهذا العمل يمكن ان ينقسم الى جزئين . الجزء الاول هو عبارة عن مجموعة من الوثائق الغنية جدا ، والتي توضح كل جوانب التاريخ المبكر للاخوية . وفي الجزء الثاني ، الذي اكمله في عام ١٢٩٦ ، قام باستخلاص الاستنتاجات من المراجع ، ودرس أصل الاخوية ، وقد تناولنا ذلك في فصل سابق حيث بدد الشكوك وقدم تاريخا حقيقيا ونقدا بارعا ، دون ذكر أي أمر لم

يجد له برهانا . واضـاف فصـلا تشريعيا طويـلا والـذي أراد تسميتـه مع الاشارة الى اخويته الخاصة ، وهدف بشكل واضح بان يبين كيف انسجم « Lex Saturiana » . وهذا الجزء هو عبارة عن مناقشة لمبادىء القانون ، قانون الاسبتار مع القانون الطبيعي والمدني ، وان يقدم نصيحة عملية للذيـن اجتمعوا كي يحكموا في أجتماع هيئة الرهبان العامة . واعتمد ويليام الى حـد كبير على آباء الكنيسة والكتاب الاكليركيين القدامى الآخرين . وكان اطلاعـه أقل على الادب العلماني للعصور الكلاسيكية القديمة ؛ ولكنه كان ملما بشكل جيد بفلسفة ارسطو ، ومن غير المدهش ان يكون ملما أيضا بفلسفة شيشرون . ولم تكن أفكار ويليام جديدة وخاصة به . وعلى أية حال ، كانت لديه مؤهلات حقيقية كمعلق على قوانين الاسبتار ، ويجب اعتباره ، مع ويليام الصوري ، كأحد المؤرخين الكبار لسورية اللاتينية . وكان واحدا من أهم المصادر النفيسة للتاريخ المبكر لاخوية القديس يوحنا ، وان تكريس نفسه للاسبتار وهو تقدير منه للقاعدة الواسعة لحياة الدير حيث يستطيع أشخاص متفاوتون ، مثـل القديس هيو ، وروجر دي مولان ، وويليام نفسه ، ان يجدوا مكانا مضمونا .

* * *

الفصل التاسع

المقدم ، ديره ، وهيئة الرهبان العامة

كان المقدم حاكما للاخوية ، ففي اواخر القرن الثالث عشر[1] كان ويليام اوف سان ستيفانو لايزال قادرا على اعتباره يمارس حكما مباشرا وفرديا . لقد كان دائما ، على أية حال ، يشارك السلطة في ديره في الشرق ، مع هيئة الرهبان العامة ، وفي الفترة التي سبقت عام ١٣١٠ تبدلت موازين القوى لصالح هاتين الهيئتين الاخيرتين .

ان نقطة البدء في اية دراسة للمقدم هي البيان الرسمي البابوي « Pie Postulatio Voluntatis » الذي صدر عام ١١١٣ ، ولم يؤكد هذا البيان فقط ولاء وانتماء تابعية الممتلكات الاوروبية ، ولكنه حرر انتخابه من التدخل الخارجي ، بعد استخدام البابوية لمجموعة تعابير تستخدمها عادة بناء على الامتيازات التي تتمتع بها ازاء المؤسسات الدينية . كان خلفاء « جيرارد » يختارون من قبل اخوة القديس يوحنا المعترف بهم ، وقد اقرت شرعية انتخابهم الكنسية في القرن الثاني عشر . ويمكن اولا معرفة طريقة الانتخاب في عام ١١٧٠ . فقد استقال « جيلبرت دو اسايي » وان الطريقة التي رحبت بها الاخوية لهذا الخبر دليل على أن المقدم ، بعكس معظم الموظفين ، كان يختار لمدى الحياة . وقد بدأ بانتخاب خلف له . وبعد أن تلقى وعداً من هيئةالرهبان بأن انتخابه ستتم الموافقة عليه انسحب مع اثني عشر ناخبا . وبعد وقت قصير عادوا واعلنوا قرارهم وطلبوا من الاخوة المجتمعين الموافقة . وبدا ان معظم أعضاء هيئةالرهبان قد اتفقوا في الرأي . وكانت هذه ظروفا استثنائية ولكن من الممكن ان يكون جيلبرت قد اتبع الطريقة المعتادة للانتخاب ، بالوعد الذي انتزع

من هيئة الرهبان للالتزام بقرار الناخبين ، ثم بتعيين رئيس ولجنة من اثني عشر شخصا لاختيار مقدم يتسلم زمام المنصب مدى الحياة . واخيرا تصديق هيئة الرهبان العامة بكاملها على من وقع اختيارهم عليه والذي سيصادق البابا على اختياره بعدئذ في أغلب الاحوال .

حددت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٠٦ طريقة انتخاب المقدم على نحو قانوني . وهي من ناحية المبدأ نفس الطريقة التي اتبعت في عام ١١٧٠ . وعندما يعلم المقدم بأنه على حافة الموت فانه يدعو للاجتماع بالاخ الاكثر اخلاصا وامانة في حاشيته ويعطيه الخاتم . وبعد وفاته فان الخاتم يسلم الى المدير الذي عليه ان يدير أمور الاسبتارية حتى يدعى الى اجتماع هيئة الرهبان العامة والذي يدعى اليه كل الاخوة في سورية اللاتينية الى جانب رؤساء الاديرة الاوروبيين ، واعضاء آخرين من الاخوية من ذوي الحكمة والحصافة . ويوضع خاتم السلطة في الاصبع وينتخب أخ ليترأس مناقشات الاجتماع . ويقوم الرئيس بنصيحة من هيئة الرهبان باختيار أخ كاهن ، وأخ فارس ، وأخ سرجنداري وهؤلاء المنتخبون الثلاثة ، الذين أصبحوا يعرفون في القرون التالية أعضاء الادارة الثلاثة ، يعينون أخا رابعا ، ويقوم الاربعة باختيار أخ خامس ، ويستمر العمل على هذا النحو الى ان يصبح عدد اعضاء اللجنة ثلاثة عشر اخا . ويعد الرئيس وهيئة الرهبان التصديق على قرار المنتخبين حيث ان الغالبية البسيطة من الاصوات كانت تكفي لان تضمن النجاح .

صدر عن هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ امر يقضي بان المقدمين يجب ان يختاروا من بين الاخوة الفرسان . وفي محاولة واضحة لتجنب العنف الذي كان يرافق الانتخاب ، صدر قانون في عام ١٢٨٢ يقضي بأنه لايحق لاحد حمل السلاح داخل حدود الدير في الفترة الواقعة مابين موت المقدم وتعيين خلف له . ولكن ، على أية حال ، فانه لم تحدث تغييرات في صيغة الانتخاب حتى رئاسة « جون دو فيير » « J. de Villiers » . فلم تكتب الحياة للقانون المحلي الذي اصدره جون ولا للاضافة عليه التي قامت بها هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٩٧ . ففي عام ١٢٩٥ حدث أن كان هناك عدم رضى عن طرق

الانتخاب ، ولكن هذه الصيغ الجديدة قد تأكدت في عام ١٣٠٢ ويمكن ان تكون قد أدت الى اتخاذ اجراء أصبح فيه ممثلو اجتماع المناطق ينتخبون مندوبين الى لجنة تتألف من سبعة اشخاص تقوم هي باختيار اعضاء الحكومة الثلاثية . تعتبر هذه الاجراءات ذات أهمية عندما تعزى الى القرن الثالث عشر او تاريخ آخر لانها حصلت على سلطة انتخاب المقدم بعيدا عن سلطة هيئة الرهبان العامة واعطته الى ممثلي الاخوة الاكليركيين في الشرق . درس اجتماع هيئة الرهبان العامة ١٢٦٢ ما يجب عمله في حال وقوع مقدم ما في الاسر من قبل المسلمين . هذه الفاجعة خطرت في ذاكرة ناشطة اذ ان « ويليام دو شاتونوف » « W. de Chateauneuf » اودع السجن عند المصريين من عام ١٢٤٤ حتى عام ١٢٥٠ . حين صدر مرسوم يقضي بأن الاسبتارية الذين يستطيعون الهرب من الأسر ينبغي عليهم هم واية اخوة محليين ان يعينوا أخا يدير أمور الاخوية حتى يدعى الى اجتماع هيئة الرهبان العامة ، وبالتالي يتم في هذا الاجتماع انتخاب نائب للمقدم ، وعلى هذا الاخير ان لا يألو جهدا في تأمين اطلاق سراح المقدم .

يقسم المقدمون الجدد قسما عند انتخابهم . وفي عام ١١٧٢ أمر البابا الكسندر الثالث بان على المقدمين في المستقبل الإلتزام بالاعراف القديمة والمعقولة للاخوية ، وان يتلقوا مشورة هيئة الرهبان العامة في القضايا الهامة . وفي عام ١٢٠٦ كان على المقدم ان يعد بالمحافظة على التقاليد الجيدة والقوانين المحلية للاخوية ، وان يدير أعمال الدير بنصائح الاخوة . وان يلتزم بالقوانين المحلية التي تصدرها هيئة الرهبان العامة وان يراقب الالتزام بهذه القوانين من قبل تابعيه . واصبح هذا القسم اساسا لفرض قيود صارمة على سلطته ، لكن وفي الوقت نفسه كان يتمتع بسلطة واسعة . فمركزه مستمد من الاله ، والحث على الطاعة من الفضائل التي يكرسها تشريع الاسبتار . لقد كان بمثابة الاب للاخوة وأولاده وعليهم الخضوع لطاعته لاجل كرامة المسيح . وكان الخروج عن طاعته عقابه الطرد . لقد كان يتمتع بامتيازات ويلقى التبجيل فالاخوة ينزعون قلنسواتهم في حضرته . فهو يتحمل مسؤولية الادارة العامة للاخوية . وهو يقبل الإخوة واعضاء الجمعية الدينية ويقوم بالاشراف على قيمي الاديرة ،

ويمارس القيادة العليا على الحملة . وهو يشرف على تلقي الصدقات والهبات ويقوم بتصريف شؤون الاسبتار المالية . وكان يدعو الى الاجتماع ويترأس هيئة الرهبان العامة . وكانت محكمته محكمة العدل النهائية . ورأينا انه كان يتمتع بامتيازات تمنحه الحق في اعفاء الاخوة من تأدية واجباتهم بشكل صارم وممارسة الرحمة على المعاقبين . وعلى الرغم من وجود قيود على ادارة المقدمين، فقد كان بمقدورهم ان يتصرفوا او توقراطيا (فرديا) في نهاية القرن الثالث عشر .

استخدم أول اثنين من المقدمين هما جيرارد وريموند دو بوي عددا مختلفا من الالقاب . ففي عهد حاكمية ريموند اصبح لقب « حاكم » شائع الاستعمال ، على الرغم من ان المقدمين المتتالين وخاصة في الوثائق الحاكمية وعلى اختامهم كانوا يدعون انفسهم بـ : « **Pauperum Christi Custos** » أي خدام المسيح. وظهر لقب نائب المقدم في القرن الثاني عشر ، لكنه لم يستخدم بشكل عادي حتى ما بعد عام ١٤٨٩ . وفي عام ١٢٠٦ جرى توسيع وتطوير لبطانة المقدم وعتاده . فقد سمحت له هيئة الرهبان العامة في تلك السنة ان يمتلك حصانا يعد للقتال وتركمانا وبغلا يستخدم كراحلة . وان يرافقه سائس خيل وثلاثة اتباع ، وجميعهم راكبون ، وفارسان من الاخوة ، وحاشية يعطى كل فرد منها اربعة احصنة . وكان مسؤولا عن محتويات بيته أخ سرجنداري وكان في الوقت نفسه وكيلا له وكان اتباعه تحت أمرة سلطة التابع الاقدم . وسمح لكل مأمور من هؤلاء بحيازة حصانين . وكان يرافق المقدم ايضا قسيس ، وموظف ، يقوم على خدمتهم تابع ، وكاتب ، وتركوبول(١) ، وطباخ ، وبيطار . وكانت امتعته تحمل على ظهر راحلتين بأمرة سائق . وتضاعف حجم هذه الحاشية في القرن التالي . لقد لاحظنا ايضا كيف ان عدد قساوسته قد ازداد ، ولكنه استخدم كاتبين في عام ١٢٦٨ ، وامتلك خدما لغرفته في عام ١٣٠٠ . وسمح « ويليام دو فيياريه » في عام ١٣٠٢ بأربعة رواحل ، من الاحصنة والبغال ، واربعة سائسين للخيل ، وثلاثة تابعين يمتطون احصنتهم ، وخادم للغرفة ، وغلام

(١) ـ عساكر خيالة متطوعة من اترالاك في صفوف الاسبتارية .

حذاء وثلاثة سرجندارية راجلين ، وحامل للراية ، وفارسين كمرافقة مع ثلاثة احصنة ، وتابعين ، وسائس خيل لكل منهما . وكان يسمح لوكيله باثنين من الاحصنة وتابع ، وراجل ، وكانت حاشيته تكتمل بالقسس الخاصين به ، وكل واحد منهم له حصان ويشارك التابع الذي يقود الراحلة في تحميل امتعته ، وبكاتبين ، وكل منهما مخصص له حصان وسائس ، وبيطار ، وطباخ ، وخادم مطبخ ، وساقي ، وحلاق ، وبالاضافة لذلك يوجد سائسو خيل للاعتناء بالخيل الموجودة مع الحاشية ، والامتعة كانت تحمل على ظهر ست من الرواحل بأمرة ثلاثة سائقين .

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر كانت شارات وظيفته هي الحزام، والمحفظة ، والخاتم . امتلك المقدم خاتمه الخاص على الاغلب منذ البداية ، ولكن في غضون القرن الثاني عشر أحرز المقدم شيئين هما : الخاتم البابوي ، الذي كان أصلا الخاتم الكبير للاخوية ، والخاتم الشمعي لاجل تصريف المستندات الاقل اهمية . على الرغم من وجود بعض التغيرات الصغيرة في تصميم الخاتم في منتصف القرن الثالث عشر،بقيت الاختام الرصاصية كما هي خلال تلك الفترة. وتعلق الاقراص الرصاصية على الحبال الحريرية البيضاء والحمراء . ويوجد على الوجه المقابل من الخاتم صورة المقدم راكعا امام الصليب البابوي وعلى أحد اطرافه نقش اسمه بالحرفين اليونانيين : الفا (١) واوميغا (٢) وعلى الطرف الآخر من الخاتم صورة انسان واقف على الفراش بالقرب من التابوت. استخدم الخاتم الشمعي قبل عام ١٢٠٦ . وكان يختم بالشمع الاسود بدون ان يكون له اي انعكاس ، لكن على الوجه المقابل للخاتم يوجد وجه كامل عبارة عن نصف صورة المقدم مع صليب على صدره الايسر . وقد نقش حوله اسمه أيضا . وسنلاحظ بأن الدير حدّ من سلطة اختام الحاكم بنجاح خلال القرن الثالث عشر .

كان المقدم في ادارته للاخوية يساعد ويراقب من قبل حكماء الديـر .

---

(١) ـ الفا : الحرف الاول من الابجدية اليونانية .

(٢) ـ اوميغا : الحرف الاخير من الابجدية اليونانية .

تطلق كلمة دير « Convent » على اي بيت يسكنه الاخوة بشكل دائم ، ولكن في معناها الضيق كانت تعني مقر الادارة في مدن بيت المقدس ، وعكا ، وليماسول ومن قبل الاسبتارية الذين يعيشون هناك . وذكرت كلمة « دير » أول مرة في عام ١١٤٠ ، وفي عام ١١٧٠ تطورت صفاتها المعروفة ، وفي القرن الثالث عشر كان الدير يضم مجموعة متنوعة من الاخوة من ذوي المواهب المختلفة .

أولا : هناك القيمون الاكليركيون ، وهم كبار مأموري الاخوية . وخاض الاسبتار تجربة اولى مع عدد من هؤلاء . وفي عام ١١٢٦ ظهر كل من كبير كتاب الانشاء « Chancellor » ، والكندسطبل « Constable » ، وربما ظل الاخير مساعدا للمارشال حتى أواخر عام ١١٦٩ . وكان هناك سقاة الاسبتار « Butlers » ما بين عامي ١١٤١ – ١١٥٢ ، والقهرمان في عام ١١٤١ ، والقاضي ، ووكلاء الاعمال مابين عامي ١١٥٧ – ١١٨٦ الذين كانوا مسؤولين عن ممتلكات وايجارات الاسبتار في مدينة بيت المقدس ، ثم لم يعد لاحد من هؤلاء وجود فيما بعد ، ولكن تدريجيا أسست خمس مناطق نفوذ رهبانية يديرها على التوالي نائب المقدم ، والمارشال ، والاسبتاري، والجواخ، وأمين الصندوق (المحتسب) . وكان عددهم يزداد في اوائل القرن الرابع عشر باحداث وظيفتي الادميرال والتركوبول . ولم يكن مأمور كبير آخر ، وهو رئيس الدير الاكليركي ، خاضعا للقيود نفسها مثل القيمين الاكليركيين ، اذ كان اهمهم نائب المقدم والمارشال . وفي عام ١٢٠٦ تقدم أمين الصندوق في المرتبة على الاسبتاري والجواخ ، ولكنه فيما بعد احتل مرتبة ادنى من الاسبتاري والجواخ وكذلك ادنى من مرتبة الادميرال والتركوبول . وكان هؤلاء المأمورون، باستثناء رئيس الدير ، خاضعين للمارشال بالرغم من انهم كانوا اخوة فرسان . وفي اواخر القرن الثالث عشر اصبحوا يتمتعون بامتيازات كبيرة . ومن خلال وظائفهم ، كانوا يعتبرون ممثلين للمقدم ، واكد ويليام أوف سان ستيفانو استقلالهم ، مقارنا مركز المقدم بمركز قبطان البحر ، الذي يمارس السيطرة الكاملة على سفينته ، لكنه لا يقوم بنفسه بتسلق صواريها ، او برفع اشرعتها .

وفي نفس الطريقة ، كتب أنه يجب ان لايتدخل المقدم في سير العمل البابوي للادارات المركزية .

بالنسبة لمناطق نفوذ الدير في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت تدار نسبيا من قبل الاخوة الشبان الذين اتسمت اعمالهم باسلوب مميز . وسوف يصل الاخ الى الشرق بعد قضاء فترة في حاكمية او دير اوروبي . ويمكن ، بعد فترة من الخدمة ، ان يتسلم ادارة حاكمية سورية او قلعة ، ومن ثم ادارة احدى المناطق الاكليركية . وفيما بعد يمكن ان يعهد اليه فقط برئاسة دير في أوروبا . وكانت وظائف فيراند دو باراس« **Ferrand de Barras** »التي اسندت اليه مثالا على هذا النوع من التسلسل الوظيفي . ولكن هذا لا يصدق بسبب المدة الطويلة التي يستغرقها هذا التسلسل ، وربما كان هناك عضوان في الاخوية متشابهين في الاسم . وعلى كل حال ، فان الاخ « فيراند » يظهر بهذا التسلسل الوظيفي في الوثائق ويمكن قبول ذلك طالما ان الامر يتعلق بشخص واحد .

وفي عام ١١٨٠ كان « فيراند دو باراس » أخا بسيطا في دير سان جيل . وفي عام ١١٩٤ ظهر انه كان يخدم في الشرق ، وفي عام ١٢١٤ عين هو ، او شخص آخر بالاسم نفسه ، آمرا لقلعة سيليفكه ، الجديدة نسبيا والهامة ، الموجودة في قيليقية . وقاد هذا الرجل القوة الاسبتارية التي دافعت عن انطاكية بعد هروب « ريموند روبن » « **Raymond Roupen** » في عام ١٢١٩ . وبعد فترة قصيرة ، عين مارشالا للاخوية وتسلم قيادة هذه المنطقة الاكليركية الهامة في مصر خلال الجزء الاخير من الحملة الصليبية الخامسة . ولا نعرف مدة شغله لهذا المنصب ولكن من المؤكد انه استبدل في عام ١٢٣٢ ، لكنه ارسل في عام ١٢٤٦ الى وطنه الام رئيسا لدير سان جيل ، وربما خلف في ذلك أحد أقاربه في عام ١٢٥٩ . وبعد ثمانين سنة تقريبا من ظهور فيراند الاول في الاخوية ، عين نائبا للمقدم لمنطقة « اوتريمر » . وبعد سبع سنوات لم يعد نائبا للمقدم لهذه المنطقة بل أصبح رئيسا للدير ثانية ، ومن المحتمل ان يكون قد تولى المنصبين في آن واحد . وآخر ما عرف انه كان حيا في عام ١٢٦٨ . وكان في هذا الوقت كبيرا في السن بالتأكيد ، لانه في عام ١٢٦٦ اعفاه

البابا كليمنت الرابع من القيام بواجبه لزيارة الدير في الشرق . وكان هـذا استثناء نادرا جدا ،.وقد اعطي بسبب « وضعه الصحي » . ولكن اذا كـان فيراند كبيرا في السـن فقد ظل وافر النشـاط حتى آخر أيامه . فقد قدر البابا كليمنت عاليا قدراته ، وتظهر وثائق رئاسته ان هذا الاخ الكبير في السن كان يحارب بضراوة من أجل الحقوق والامتيازات المفترضة لاخويته .

وتظهر سيرة حياة « فيراند دو باراس » مدى أهمية اعطاء الاخوة الشبان مناصب اكليركية . وهنالك العديد من الحالات المشابهة ، وربما تم اللجوء الى هذه الطريقة بسبب الرغبة في الحصول على مأمورين نشيطين للعمل في الدير الذي يدير القتال في الشرق . ويمكن ان يكون لذلك تأثير هام على منزلة المقدم. وعندما يقترب الاخ عادة من نهاية وظيفته ، كان يحاط برجال شبان اقل نضجا، وكان هذا يؤدي الى احتدام الصراع فيما بينهم في الدير ، وقد ظهر ذلك واضحا في تلك الفترة . بعد سقوط مدينة عكا في عام ١٢٩١ كان هنالك تغير هـام . فالقيمون الاكليركيون أصبحوا في أواخر سني وظائفهم ، وغالبا ماكانوا يعودون الى الوظائف المركزية كرؤساء اديرة بعد فترة من الزمن : ان حياة العديدين من هؤلاء ستوصف خلال هذه الدراسة ، ولكن يمكن اعطاء مثال نموذجي هنا . فقد كان جيرارد اوف غرانيانا « **Gerard of Gragnana** » سليل اسرة ايطالية انجبت اخا(١) متميزا في أخوية القديس يوحنا . وفي عام ١٢٩٩ كان رئيسا لدير بيزا ومعاونا للبابا بونيفاس الثامن . ولقد نصب في عام ١٣٠١ رئيسا لديـر البندقية ، لكنه في شباط ١٣٠٣ كان اسبتاريا للاخوية في قبرص ، وفي أوائل تشرين الثاني عينته هيئة الرهبان العامة مارشالا . كانت سيرة حياته مختلفة تماما عن سابقيه . ان سبب التغيير في طبيعة الوظائف ربما يعود الى الظروف التي كانت سائدة في تسعينات القرن الثالث عشر . ففي السنين التي تلت فقدان الاراضي المقدسة كان الحصول على الاخوة المجربين والمحنكين لصالح الدير في الشرق أمرا هاما . كما ان هذا الحشـد المفاجىء في مناطق النفوذ الإكليركية بالاسبتارية الكبار، قد أضفى عليها هيبة اضافيـة كانت ضروريـة للخروج من نزاعهم منتصرين مع ويليام دو فيبارية .

---

(١) ـ هو جيرارد اوف غرانيانا « **Gerard of Gragnana** » رئيس دير لومبارديا ، والبندقية ، وروما .

شكلت المجموعة الثانية من الاخوة المرافقين للمقدم في الدير المركزي . وقد سمحت هيئة الرهبان العامة للمقدم في عام ١٢٠٦ باختيار مرافقين اثنين من بين الاخوة الخيالة وتزويدهما بالدروع والاحصنة . ويبدو ان هذين المرافقين قد عينا اسميا في اجتماع هيئة الرهبان العامة من قبل المقدم اذ من المفترض ان يتركا وظيفتهما لدى موته . وكانا يتمتعان في الدير بنفس الامتيازات التي يتمتع بها القيمون الاكليركيون ، بما في ذلك استثنائهما من سلطة المارشال . وسمح وجودهما بأن يكون لدى المقدم أعوان مخلصون في الدير وفي هيئة الرهبان العامة .

ثالثا هناك جماعة الحكماء « Ancients » الذين ظهروا لاول مرة في عام ١١٨٣ . وهؤلاء الحكماء هم من الاخوة الذين تولوا وظائف في الاخوية ، ممن كانوا مرافقين للمقدم ، والذين كانوا أخوة لاكثر من عشرين عاما ، او الذين تزيد أعمارهم على ستين عاما . وكانوا يتمتعون أيضا بامتيازات الرؤساء الاكليركيين . وفي اوائل القرن الرابع عشر سمح للمقدم باستدعاء حكماء من الغرب كمستشارين له ويعطيهم حاكميات « Camera » تدار غيابيا في الاديرة الرهبانية التي قدموا منها . وفي وقت سابق ، يبدو ان العديد من أعضاء الدير هم من الاخوة الحكماء الذين كان المقدم يعتمد على حكمتهم . وكان « جوزيف شونسي » « J. Chauncy » ، الذي سنأتي على ذكره في فصل لاحق ، أحد هؤلاء الحكماء .

واخيرا كان هناك الاخوة الكهنوتيون. ففي القرن الثالث عشر كان يبدو ان هؤلاء يختلفون تماما عن الاخوة تحت الخدمة وكان جميعهم أخوة تحت السلاح او أخوة كهنوتيين. وكان الاخوة تحت السلاح بأمرة المارشال، لذا كان يتمتع بمركز هام في الدير . في نفس الوقت بدأت مقاطعات متنوعة للاخوية بارسال ممثلين عنها للخدمة في سورية ، وارتبطت هذه الممارسة بالتقسيم الخطير للاخوة في الشرق الى فئات « Tongues » ، او الى جماعات تتكلم لغة واحدة . وكانت هذه الفئات تمثل مناطق في اوروبا لا تصل دائما الى مستوى الحاكميات الكبيرة، على الرغم من ان كل واحدة منها تضم ديرا او عدة اديرة ، ويبدو أنها كانت

على اتصال مع الاخوة الفربيين في الشرق وربما كان ذلك في مجال دفع الصدقات، ويذكر انه كانت هناك البداية اربع فئات تمثل فرنسا ، واسبانيا ، وايطاليا ، والمانيا ، ولكن بحلول عام ١٢٦٨ كانت هناك اشارة الى سبع فئات تمثل بروفانس، وفرنسا ، واوفيرن ، والمانيا ، وانكلترا ، واسبانيا ، وايطاليا . ومن المؤكد ان الاخوة كانوا منظمين ضمن هذه الفئات في عام ١٢٩٥ . ومن الممكن ان يكون تطورهم قد ابتدأ باكتساب تكلم اللغة الالمانية في بيت المقدس عام ١١٤٣ . لكنهم كانوا اول من جيء على ذكرهم في القانون لعام ١٢٠٦ ، فقد استخدمت العبارة للمرة الاولى حيث طلبت مشورة أخوة احدى المقاطعات من قبل المقدم قبل ان يرسل مرؤوسا الى ما وراء البحار بعد اجتماعه مع هيئة الرهبان العامة . وفي القرن الثالث عشر ، كان ممثلو الاخوة الغربيون يعيشون في الدير في الشرق وكانوا يقومون بمهام استشارية هناك . في عام ١٢٨٣ ارسل الاخوة من قبل رؤساء اديرتهم الى ما وراء البحار ، لكن في سورية على ما يبدو انقسموا على انفسهم الى فئات حسب لغاتهم . وقد توطد نظام التقسيم هذا تماما بعد عشر سنوات تلت . وفي عام ١٣٠٠ ادى الاطباء في الاسبتار قسما بالولاء والاخلاص امام سبعة اخوة ممثلين عن المناطق . ولم يتم التصديق على هذا الانقسام حتى عام ١٣٠١ عندما أصدرت هيئة الرهبان العامة قانونا بتقسيم الاخوة الكهنوتيين على هذا النحو ، واصبح بامكان المرء في هذا الوقت ان يرى الانقسام في الاحياء السكنية حيث تعيش كل مجموعة تتكلم نفس اللغة مع بعضها . وفي السنة التالية حدد العدد الادنى من الاخوة تحت السلاح المطلوب ارسالهم الى قبرص من كل منطقة : ١٥ من بروفانس وفرنسا ، و ١٤ من اسبانيا و ١٣ من ايطاليا ، و ١١ من اوفيرن ، و ٧ من المانيا ، و ٥ من انكلترا . واصبح مالوفا على ما يبدو ان تكون كل منطقة اكليركية مخصصة للاخوة الذين يتكلمون لغة واحدة ، وعلى الرغم من ان الممارسة لم تطبق بشكل نهائي حتى السنوات الاولى في رودس ، فمن المؤكد ان رفع عدد مناطق النفوذ الاكليركية الى سبع قد سهل تطورها . وواضح ان هذه التقسيمات كانت جديدة نسبيا وذلك من شكاوي فيليب ملك فرنسا ١٣٠٩ ، لاعتقاده بان هذه التقسيمات تقلل من قيمة فرنسا . وربما كره هذا النظام بسبب تقسيم املاكه الى ثلاث مقاطعات منفصلة .

شارك اخوة الدير في الشرق في جميع اجتماعات هيئة الرهبان العامة المحلية والاقليمية والعامة . لذلك مارسوا سلطة قوية في الاخوية ، ومع انهم لم يتولوا مهام المنصب سوى فترة قصيرة ، فقد استطاع هؤلاء ان يصبحوا بارزين جدا ، وفي عام ١٢٤٠ كان « ويليام دو كورسيل » « W. de Corceles » اخا بسيطا في مدينة عكا، وفي عام ١٢٤٨ أصبح مارشالا ، لكنه لم يستطع الحفاظ على هذا المنصب طويلا ، ويبدو انه لم يعين بوظيفة اخرى خلال سني حياته الطويلة . وفي عام ١٢٧٤ ، على اية حال ، كان ممثلا رئيسيا لاخوية القديس يوحنا في مجلس ليون ، ولعب مع مقدم الداوية دورا هاما في مباحثات حول الحملة الصليبية القادمة .

عين من بين الاخوة السرجنداريين تحت السلاح تابع مقدم المدير وهو ضابط عسكري هام. لكن الاخوة الرهبانيين كانوا يشكلون جزءا صغيرا فقط من مؤسسة كبيرة . ويوجد ايضا العديد من الاخوة السرجنداريين تحت الخدمة في ادارات ثانوية ، فالبعض منهم تولى منصبا اداريا ، يخضعون لاوامر نائب المقدم . ويوجد علمانيون يعملون في خدمة الدير في الشرق : كتبة للمقدم وللخزينة، وكاتب الدير الذي استحدثت وظيفته هذه لاول مرة في عام ١٣٠١ . وكان الاطباء يعتنون بالمرضى ، وقام الاخوة بخدمات كاتب العدل عام ١٢٦٨ والمحامين في عام ١٣٠٠ . والى هؤلاء ينبغي اضافة خدمات العلمانيين في ادارات متعددة واعمال مرتزقة من كافة الانواع .

لابد ان مجلس المقدم ، الذي أصبح يتمتع بأهمية كبيرة في أواخر أيام الاخوية ، كان موجودا في هذا الوقت . لكنه لا يوجد شاهد حقيقي حول ذلك ، وقرارات الدير كانت عادة تتخذ من قبل هيئة الرهبان العامة . وكان هذا اهم الميزات الادارية للاسبتار . وهيئة جماعة الرهبان عبارة عن اجتماع هؤلاء الاخوة الذين يحضرون في مكان واحد ويطيعون رئيسا اعلى ، ومن خلال الاخوية، كانت المبادىء التي تحكم اسلوب العمل هي المعتمدة ، وكانت هيئة الرهبان تساعد الرئيس الاعلى في الادارة وتقاسمه اعباءه الوظيفية ، وهي لا تعمل فقط كهيئة ادارية وانما كمحكمة أيضا . ويمكن مقارنتها بمؤسسات الاخوية المعاصرة

للكنيسة وبيرلمانات الامراء . وفي الوثائق السورية التي أصدرها الاسبتار يبدو ان التعبيرين « هيئة الرهبان » و « الدير » قابلان للتبادل احدهما مكان الآخر ، وكان المقدمون دائما حريصين على التأكيد انهم لايتصرفون لوحدهم ، وانما بمشورة وموافقة الدير التابع لهيئة الرهبان وذلك منذ عام ١١٦٨ . وفي حال غياب المقدم ، يتولى نائبه رئاسة جلسة هيئة الرهبان . وكان يدعى للاجتماع كل يوم أحد المأمورون المقيمون والاخوة ، والزائرون من قيمي الاديرة القادمون من سورية وذلك عن طريق قرع جرس خاص .

كانت كل هيئة للرهبان بمثابة محكمة . لكن هيئة رهبان الدير العامة كانت تمثل المحكمة العليا الدائمة في الاخوية التي يرأسها هيئة الرهبان العامة فقط . وكانت تتمتع بسلطات ادارية كبيرة وتشارك في ادارة حاكمية المقدم . ومن المؤكد انها كانت تدير الاخوية في حالة وفاة او استقالة المقدم .

وفي احدى السنين عقد اجتماع اقليمي لهيئة الرهبان في الشرق ، دعي اليه جميع امراء القلاع والقادة السوريون . والقيت فيه موعظة ، وامر المقدم بتلاوة بعض القوانين ، واقيمت صلاة خاصة من قبل رئيس الدير .

شاركت هيئة الرهبان العامة المقدم في السلطة والدير ، على الرغم من اجتماعاتها غير المنتظمة . وكان يحضر هذه الاجتماعات المقدم وجماعة الدير وجميع الاخوة تحت السلاح الذين يخدمون في سورية والقيمون الاكليركيون من اوروبا . ويمكن تمييزها عن هيئات الرهبان الاخرى بحجمها ، وباسلوب عملها الذي يتسم بالوقار ، كما انها بالاضافة الى كونها هيئة ادارية وقضائية فهي هيئة تشريعية ايضا . وهي وحدها تستطيع تشريع القوانين ويتحتم تنفيذ مراسيمها . فهي التي تعين وتقبل الرؤساء الاكليركيين . ولا يمكن تحويل ملكية الاراضي من شخص لآخر بدون اذن منها ، فهي محكمة العدل العليا .

ليس من السهل تحديد ظهورها في هذه الصفة . فنصوص القوانين الاولية لا تخبرنا فيما اذا كان من الضروري استدعاء رؤساء الاديرة الاوروبيين الى

بيت المقدس،او فيما اذا كان المقدم والدير يتعهدان بوضع القوانين موضع الاجلال والتقدير . ومن ناحية اخرى ، فان ممارسة الراهب البندكتي ، التي كانت تؤثر على العديد من الاخويات ، قد توطدت بشكل جيد في منتصف القرن الثاني عشر، وانه لا داعي للتفكير بان ادارة المقاطعات البعيدة سمح لها بالاستمرار في عملها بدون اقامة اتصال مع السلطة المركزية . استخدمت عبارة « Capitulnm Generale » اي الجماعة الإكليركية العامة لاول مرة في عام ١١٧٦ وعام ١١٨٢ . ويبدو ان رؤساء الاديرة في مدينتي ابوليا ومسيناقد حضروا انتخاب كاست « Cast » مقدما في عام ١١٧٠ . وقامت هيئة الرهبان العامة لعام ١١٨٢ بالترتيبات المتعلقة بصدقات وهبات رؤساء اديرة فرنسا ، وسان جيل ، وايطاليا ، وبيزا ، والبندقية ، ولم يكن حدوث ذلك ممكنا بدون الرجوع الى قادتهم . وقد اشترك نائب المقدم لاسبتار ايطاليا ورئيس دير المانيا في اجتماع هيئة الرهبان العامة الذي اقر قانون اخوات « سيجينا » في عـام ١١٨٨ .

وعلى اية حال ، فان هيئة رهبان عام ١٢٠٦ هي التي وضعت اسلوب اجتماعات هيئة الرهبان العامة ، وتبع ذلك تغييرات طفيفة حتى نهاية القـرن الثالث عشر . وكان المقدم والدير والقيمون الاكليركيون يجتمعون كما كـان يستدعي ممثلون عن اية مقاطعة بموافقة الدير . واذا كان المقدم يرغب في عقـد اجتماع هيئة الرهبان العامة فان الدير يرسل ممثليه الى الاجتماع ، باستثناء الاجتماعات التي تعقد في عكا . وكان اجتماع هيئة الرهبان يستهل بقـداس الروح القدس . وتنشد ترتيلة الخالق « Veni Creator » ، وتقرأ نصوص من الانجيل : « Cum venerit filius hominis in mejestate sua » ، وتتلى موعظة ، ويقرأ الدستور . ويلقي المقدم كلمة قصيرة ، واي أخ آخر يتذكـر شيئا من الاعراف القديمة للاخوية بامكانه تذكير هيئة الرهبان بها . وبعـد اتمام الاجراءات التمهيدية ، يقدم الرؤساء الاكليركيون تقريرا حول وضع مناطق نفوذهم ، ويسلمون الشارات المميزة لوظائفهم ويقدمون كشـف حساباتهـم كتابة . وكانت هذه الكشوف تقرأ على مسامع الجميع . وكانت هيئة الرهبان

تستمع الى اية شكاوى يقدمها المقدم او الاخوة او اي اعضاء آخرين في الاخوية والتي تصدر احكامها حول كل شكوى .

ومن ثم تنتقل هيئة الرهبان الى اهم واجباتها . فالمقدم يقوم بتشكيل لجنة فرعية من الاخوة المجربين والمحنكين في كل منطقة تتكلم لغة واحدة . وكان الاعضاء بحكم مناصبهم هم : رئيس دير الرهبان ، ومعاونو المقدم . ويسأل المقدم الاخوة في اجتماع الدير اذا كانوا هم انفسهم يرغبون في اختيار اي أشخاص آخرين كأعضاء في اللجنة ، التي تنتهي بانتهاء مهام منصبه ، وتشرع القوانين للاخوية وتستمع الى الرسائل القادمة من وراء البحار . ثم تقوم هيئة الرهبان بتعيين القيمين الاكليركيين . وكان المقدم يلعب دورا ثانويا في ذلك ، لان اللجنة نفسها تترك المقدم وتستمر في مباحثاتها بامرة رئيس يعينه المقدم . وتقوم اللجنة بعرض آرائها على المقدم ، وعندما ينسحب المقدم تصوت اللجنة على المرشحين لتولي مناصب اكليركية . فيعين اولا نائب المقدم ، ثم الاسبتاري وامين الصندوق (الخازن) معا ، ثم المارشال والجواخ معا . وتنهي اللجنة اعمالها باختيار الرؤساء الاكليركيين لسورية ورؤساء الاديرة وامراء القلاع والقادة لاوروبا .

ثم يصدر المقدم والاخوة رسائل اقالة وتعيين في الحاكميات الاكليركية . وكانت تقرأ القوانين الجديدة ، والقوانين الملغاة وهبات حاكميات المناطق في الاجتماع ، وبامكان الاخوة الوقوف ولفت الانتباه ثانية لاية مسألة . وبامكان الذين يرغبون في طرح شكواهم على هيئة رهبان اخرى ان يفعلوا ذلك . وفي اليوم الاخير يستطيع اي اخ كان قد ترك الاخوية ان يطلب العفو والسماح له بالعودة . ويلقي المقدم كلمة قصيرة ويستعرض القوانين التي وضعت ، وينهي اجتماع هيئة الرهبان بصلاة يقيمها رئيس الدير .

في بداية القرن الرابع عشر حدثت تطورات متعددة ربما ارتبطت بأعمال اكبر تعقيدا . ان انشاء منطقتي نفوذ رهبانيتين جديدتين وعدة مناطق نفوذ اكليركية جديدة في اوروبا قد القى عبئا كبيرا على هيئة الرهبان ، بينما في عام ١٣٠٤ أضيف المشفى الى اولئك الذين يترتب عليهم تقديم تقرير عن

وظائفهم . نستطيع تقسيم التغيرات الى مجموعتين بعضها كانت اجرائية فكان ان يصبح واضحا ان الوقت المخصص لهيئة الرهبان العامة، ربما كان اسبوعيا، لم يكن طويلا بشكل كاف . ان قوانين عام ١٣٠٠ سمحت لهيئة الرهبان ان تمدد اجتماعاتها حتى عشرة ايام . ويمكن دراسة النقاط التي جرى بحثها سابقا . وفي عام ١٣٠٤ اصبح اجتماع هيئة الرهبان لمدة عشرة ايام هو الرقم المألوف ، واصبح بالامكان الآن تمديد مدة الاجتماع الى ثمانية عشر يوما عند الضرورة . وكانت هناك محاولات عديدة من قبل السادة العلمانيين لتعيين محاسيبهم في المناصب الاكليريكية . وصدر امر في عام ١٣٠١ يقضي بعدم تلاوة طلبات السادة العلمانيين الى ان تنتهي هيئة الرهبان من اعمالها .

وترتبط مجموعة التغيرات الثانية بمحاولة « ويليام دو فيياريه » زيادة عدد اجتماعات هيئة الرهبان . وكانت هيئة الرهبان العامة تدعى للاجتماعات بشكل غير منتظم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، على الرغم من انها اجتمعت في اواخر حياة الاخوية على فترات تفصلها خمس او عشر سنين . ويوجد دليل على ان رؤساء الاديرة الاوروبيين لم يحضروا الاجتماعات كماينبغي، والقليل من اجتماعات الرهبان العامة كانت تضم جميع الرؤساء الاكليركيين . ومن المؤكد انه لم يكن ملائما بالنسبة لهم ان يدعوا مرارا الى الشرق ، على الرغم من انه سمح لهم بتغطية نفقات سفرهم من اموال الاخوية . وفي نهاية القرن الثالث عشر ، جرت العادة بان تتم الدعوة لزيارة الدير المركزي مرة واحدة كل خمس سنوات ، وكانت احدى شكاوى الرؤساء الرهبانيين تتعلق باستدعاء رؤساء الاديرة الجدد لزيارة الدير المركزي بعد تعيينهم مباشرة . وأثيرت المسألة ثانية عندما ازمع « ويليام دو فيياريه » على عقد اجتماع لهيئة الرهبان العامة في افينيون عام ١٣٠٠ ، وبعد ثلاث سنوات فقط من الاجتماع الذي عقد في مرسيليا . ويلاحظ بان الرؤساء الرهبانيين في خلافهم الكبير مع المقدم حول هذه المسألة كانوا هم المنتصرين ، ولكن يبدو انهم توصلوا الى تسوية لهذه المسألة بعد اجتماعات متتالية لهيئة الرهبان العامة . وكانت هذه الاجتماعات تعقد سنويا بين عامي ١٣٠٠ و ١٣٠٦ ، وصدر قانون لعام ١٣٠١ نص على استدعاء رئيسي ديرين او اكثر في المستقبل كل عام ، وبشكل خاص اولئك الذين يكونون

بعيدين عن الشرق مدة اطول . من المعتقد ، انه خطط لعقد جلسات هيئة الرهبان كل سنة بحيث تتألف الهيئة من الرؤساء الرهبانيين والاخوة ، وقيمي الاديرة في الشرق وعدد قليل من المامورين الاوروبيين . وكانت التجربة فاشلة لان القانون الغي عام ١٣٠٤ ، بينما لا يوجد دليل بعد عام ١٣٠٦ على انعقاد اجتماعات هيئة الرهبان العامة حتى عام ١٣١١ .

قام المقدم بممارسة السلطة عام ١٣١٠ بشدة اثارت جدلا حول ان هيئة الرهبان العامة هي السلطة العليا في الاخوية . وفي رودس ، على كل حال ، كان الدير هو الذي ينتخب المقدم وليس هيئة الرهبان العامة . ويميل المؤرخون للنظر الى الدستور على انه غير قابل للتغيير ، وينبغي التأكيد على ان السلطة عمليا كانت موزعة بين المقدم والدير وهيئة الرهبان العامة بدرجات متفاوتة وفق امكانيات ونزعات المقدم والدير وتواتر جلسات هيئة الرهبان العامة . ان مراحل السيطرة التي مارسها الدير وهيئة الرهبان العامة مؤيدة بوثائق واضحة . ولم تكن العملية بطيئة او منفذة تدريجيا . لقد تطورت في سلسلة صراعات دستورية مؤلمة ، وقد كشف ذلك مدى النفوذ الملقى على كاهل اخوية كنيسة كبيرة : خاصة الاعتقاد المعاصر بادارة تتحكم فيها العادات والاعراف ومقيدة بضرورة الاخذ بالمشورة . وقد كان العديد من الاخويات الدينية يعاني من النزاعات التي كانت قائمة في هذه الفترة بين المقدم والدير . لكن كان لهذه النزاعات صوت خافت في الاسبتار ، وهنا لا بد من ذكر تأثير الافكار البارونية . وشهد القرن الثالث عشر اخوية القديس يوحنا وهي تخضع بشكل متزايد الى الفرسان الذين كانت مؤهلاتهم تعتمد على التعاريف القانونية الضيقة . ونتوقع ان نجد بنية الاخوية وهي تعكس المثاليات الارستقراطية ، وفي الوقت نفسه بينما كان الفرسان يتولون السلطة ، يمكن القول بوجود ايديولوجية بارونية عامة عبر عنها بأشكال مختلفة مثل الوثيقة العظمى (١) « Magna Carta » ، ولوائح اكسفورد « Provisions of Oxford » ، وقوانين بيت المقدس « Assises of Jerusalem » والوثيقة الذهبية الهنغارية

---

(١) ــ وثيقة الحقوق التي اكره النبلاء الانكليز الملك جون على اقرارها في عام ١٢١٥ ــ المترجم .

« Golden Bull of Hungary » ، وظهور الكورتس « Cortes » (مجلس التشريع) في اسبانيا ، وظهور الطبقات الاجماعية « Estates » في فرنسا .

وقد تشكلت هذه الآراء ، بصريح العبارة ، بشكل معارض لرغبات الملكيات في الإدارة المركزية وهي تعبر عن نظرية رجعية . وكانت البارونية الاوروبية تنظر الى الوراء أي الى «العصر الذهبي» للنظام الاقطاعي،الذي لم يكن موجودا في الحقيقة والذي طور مفهوما رومانتيكيا لمواثيق الاقطاعية بين السيد والتابع ، وهما متساويان نظريا ، والذي يتضمن حقوق وواجبات كلا الطرفين. وبما ان الادارة المحترفة قد تطورت في المركز ، كان البارونات مهتمين بمسؤوليات التاج وسلوكه العادل ، ولكنهم طالبوا أيضا بحق لهم كان في الماضي التزاما ، وهو خدمة الهدف « Consilium » ، والذي كان موروثا في المواثيق الاقطاعية . وبالنسبة لهم ، كان الامر التاريخي والطبيعي للحكومة هوان يحكم الملك بمشورة كبار المستأجرين . واتبع ذلك بان العقوبات يمكن ان تفرض على الملكيات التي انتهكت بشكل علني العقد الاقطاعي ورفضت الحكومة التعاونية ، وبذلك : ساؤوا استخدام النظام الطبيعي . وهكذا ظهرت افكار تتعلق بحق المقاومة ، والتي يمكن ان تطبق بشكل رسمي ضد الملوك المتمردين .

لقد أشير في مملكة بيت المقدس الى أنه كانت هناك جماعة منفصلة متطرفة من البارونات الذين شاركوا بهذه الافكار . كانت هذه المجموعة واحدة من الجماعات التي كان لها اتصال يومي مع الاسبتارية . ففي سورية كان هناك مقدموهم،وضباطهم الكبار،واعضاء حكومتهم المركزية.بعد عام ١١٨٧ وخاصةبعد عام ١٢٢٥ ، في حال غياب الملكية ، لعبت الاخويات العسكرية دورا هاما في حكومة مملكة بيت المقدس . لقد رأينا ان الاسبتارية كانوا ملكيين في تسوية النزاعات السياسية للمستوطنة ، ولكن كان الكثيرون منهم من بيئات سادت فيها الافكار البارونية بشكل حر ، وبينما كانوا في الدير ظلوا على اتصال دائم مع مدرسة هامة للمفكرين السياسيين البارونيين . وليس مدهشا ان نجد النزاع الاساسي ضمن الاسبتار قد تركز على أربعة مسائل ، المسائل التي ظهرت في المجتمع العلماني وهي : قسم المقدم عند الانتخاب ، وتعيين ضباطه ، والطبيعة التعاونية لادارته . وكلا الحالتين تؤديان الى نفس النتيجة ، وغالبا ماصدقت أوامر

الانتهاكات التي قام بها الدير بناء على اوامر هيئة الرهبان العامة ، التي سعى الدير جاهدا ليقنع المقدمين بدعمها ، يكمن الخلاف بين الحالتين في الاسلوب. وقيدت هيئة الرهبان العامة المقدم بواسطة القانون والدير بواسطة السوابق .

حدثت الازمة الاولى في نهاية ستينات القرن الثاني عشر . ولقد وصفنا ظروف الاستقالة من وظيفة المقدم في حالة « جيلبرت دواسايي » كيف طلب منه الدير في اجتماع هيئة الرهبان العامة وعودا معينة قبل ان يقبلوا اعادته الى منصبه . وكانت هذه الوعود ، بشكل واضح ، شروطا جديدة ، ورفض جيلبرت قبولها ، ولكنها كانت هامة . طلب الاخوة الاكليركيون انه في المستقبل يجب على المقدم ان لايطالب بقلاع على الحدود الاسلامية ، او يثقل كاهل الاسبتار بنفقات او ان ينشغل باي تعهد ضخم دون علم الاخوية . عندما صدق البابا ألكسندر الثالث ، بعد عامين على انتخاب خلف جيلبرت ، اكد أيضا على فرض قيود جديدة على المقدم والتي كانت أساس القسم الخاص بادارة المقدم . ويجب ان يلتزم المقدم الجديد بشكل مؤكد بالعادات المعقولة القديمة للاخوية ، وان لا ينشغل بعمل هام دون المجلس العام للرهبان ، او الجزء الاكبر منه ، وخاصة في ادارة المقاطعات وفي اكتساب امتلاك او تشييد القلاع على الحدود الاسلامية . ولم يكن اي أخ ملزم بان يؤدي قسما خاصا له ماعدا في اجتماع عام للرهبان بسبب واضح ومعقول ، كما لايقوم بأي تعهد او قسم لاي شخص بدون موافقة اغلبية الرهبان . وبعد ازمة عام ١١٧٠ اصبح من غير الممكن لاي مقدم أن يتصرف في اية قضية هامة دون استشارة ديره ، وقيدت اعماله بواسطة قوانين اسلافه .

اتخذت الخطوة التالية في اجتماع هيئة الرهبان العامة الذي ربما عقد في عام ١٢٠٦ ، خلال حكم الفونسو ملك البرتغال . وفي عام ١٢٩٩ سمع الدير بأن الفونسو قد فقد منصبه لانه عقد هذا الاجتماع خارج مملكة بيت المقدس، بينما اعتقد في القرن الرابع عشر بأن الاخوة الرهبانيين قد رفضوا أمرا صدر عنه وانه قد كره القوانين التي تصدر عن هيئة الرهبان . لقد اقترحنا بان هذه القصص هي جزء من نفس التقاليد وان هيئة الرهبان العامة سجلت واحدة من الازمات الدستورية الاخرى : بالتأكيد فسرت قوانينها سلطات

المقدم بشكل غير مرضٍ . وعند الانتخاب يجب على المقدم ان يعد امام الاخوة المجتمعين بأن يحافظ على اعراف وقوانين الاسبتار،وان يلبي حاجاتها باستشارة ديره وان يلتزم بقراراتِ هيئة الرهبان العامة . وكذلك ايضا يدعو ويترأس اجتماعات هيئة الرهبان العامة ، فكان ملزما في كل مرحلة بأخذ المشورة . لم يكن لديه حق التصويت في تعيين القيمين الاكليركيين ، برغم انه يختـار لجنة الانتخاب ورئيسها التي كانت تستشيره . في حين ان مشاركة رفاقه بحكم مناصبهم تؤكد ان بامكانه ان يمارس بعض النفوذ غير المباشر على قراراتها . كانت هيئة الرهبان العامة هي التي تدعو ضباط الاقاليم الى المحاكمة . ان نتائج هذه القوانين واضحة . فقد حددت حقوق المقدم على نحو غير مرض . كان ملزما بقسم يضمن حكومة تعاونية وليس له سلطة مباشرة على تعيين ضباطه حيث كانت السلطة النهائية لهيئة الرهبان العامة .

وبعد ذلك ، على أية حال ، لم يحدث أي نقد لسلطات المقدمين حتى السبعينات من القرن الثالث عشر ، وبالفعل يبدو ان سلطتهم الشخصية قد ازدادت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر . لقد رأينا ان أحد اعراف الاخوية قد سمح للاخ ان يطلب عقد محكمة لهيئة الرهبان العامة اذا بدت له ان ادارة المقدم غير قانونية ، وانه من الصعب ان نضع تاريخا لهذا القانون العرفي ولكنه عكس بشكل دقيق القانون الاول الذي صدر عن اجتماع هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٠٦ ، بينما توافقت آراء الاجتماع جيدا مع تلك التحقيقـات حول الممارسة الاعتباطية للسلطة الحاكمة التي صدرت في نفس الوقت . في عام ١٢٦٥ ، على اي حال ، قرر اجتماع هيئة الرهبان العامة برئاسة هيو ريفل انه اذا أصدر المقدم امرا لاحد الاخوة في اوروبة وطلب من تلقى الامر مشورة رفاقه حول الامر او طلب عقد جلسة للاخوة ، سوف يجبر على المجيء الى الشرق وسيفقد ثوب الرهبنة . ويمكن ان يستعيده فقط اذا التمس الرحمة بتواضع . فجعل هذا القانون من المستحيل بشكل فعلي طلب أمر السلطة ، وسينتهي هذا العمل ، على اية حال ، بشكوكه ضد الاخ في محكمة المقدم الخاصة . عبر هذا القانون عن مفهوم ذي اهمية بالغة لسلطات المقدم ونقض هذا القانون فقط لقلة عمل القيمين الاكليركيين في عام ١٢٩٩ . يمكن ان تكون قوة المقدمين قـد

تزايدت في سنوات الهدوء التي تبعت قوانين عام ١٢٠٦ ، لكن يبدو إن رهبان الدير عام ١٢٩٦ تضمنت ان سلطتهم كانت في تطور حديث نسبيا . اشتكى القيمون الإكليركيون بأن « اودو دي بان » « Odo des Pins » واسلافه قد تصرفوا بشكل غير دستوري وتجاهلوا القوانين ، والاعراف ، والاوامر . وكان الاخوة يستدعون الى الشرق دون اخذ مشورة الدير ، واعطيت الاوامر والاوامر المعاكسة بشكل اعتباطي وبدون مغزى . ولم ينفذ المقدمون قوانين هيئة الرهبان العامة . وكان رؤساء الاديرة ايضا يستدعون بعد تعيينهم مباشرة وتصدر المهام لمرؤوسيهم وهم على رأس عملهم هنالك ، علاوة على ذلك ، بعض الفساد . لقد بقيت كل الاديرة حاكميات للسلطة ، اذ يمكن القول ان دخلها كان يتمتع به المقدم وحده . وتم الاستيلاء على الكثير من الاديرة والحاكميات بشكل مباشر من قبل المقدمين لمنفعتهم الخاصة . وقد طلبت الضرائب والمساعدات الاضافية من رؤساء الاديرة بحيث ان محاصيل الاخوية وملكيتها قد تم تبذيرها . اتخذ المقدمون لانفسهم ماينبغي ان يختص به القيمون الاكليركيون وقد انفقوا بافراط حتى يعززوا من مجدهم الدنيوي . ويبدو من المرجح ان « هيو ريفل » كان أول واحد من سلسلة المقدمين الاسبتاريين أصحاب الارادة القوية .

سيكون من الخطأ ، على أي حال ، الاعتقاد بانه سمح لسلطاتهم بالتطور بسهولة في هذه السنوات . وفي احدى النواحي الهامة جدا نجح الحد من حرية تصرفهم . لقد رأينا ان المقدمين ملكوا الخاتم الرصاصي الذي كان في البداية الخاتم الرسمي للاسبتار . لكن منذ عام ١٢٣٩ كان الدير يستفيد من خاتمه الخاص . وفي تاريخ لاحق صور على الجانب المقابل صورة المقدم والقيمين امام الصليب في الصلاة ، بينما كان جانبه المعاكس مشابها لوجه الخاتم الرصاصي للمقدم . انه من الممكن ، على اية حال ، ان خاتما غريبا ووحيدا ، الذي الحق باحدى وثائق عام ١٢٢١ ، كان خاتما رهبانيا اصيلا . وظهرت على جانبه المقابل صورة (الحمل الفصحي) (١) يحمل صليبا وراية ، وكتبت عبارة حول

---

(١) ــ حمل يضحي ويؤكل في عيد الفصح عند اليهود ــ المترجم .

الاطار هي : « Sigillum S. Johannis » « اي : خاتم سان جون » ويتألف الجانب المعاكس من صليب مصمم بشكل متقن مع كتابة « Hospitalis IHRXM » وتقرر في اجتماع هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٧٨ في احد لقاءاته جعل خاتم المقدم باطلا . واعطى الاجتماع صلاحية قانونية للخاتم الكنسي الذي يجب ان تصدق به كل عقود الهبات ، والمبيعات ، والتبادلات ، ودعوات القيمين والاديرة ، وكل الالتزامات ، والاتفاقيات ، والتغيرات في الملكية والتوكيل . كان يحفظ هذا الختم عند أمين الخزينة ، ويمكن ان يستخدم فقط من قبل المقدم والدير معا. في عام ١٣٠٢ استمرت هيئة الرهبان العامة باقرار أنه يمكن ان يستخدم فقط في حضور كاتب الدير ونائب المقدم ، والمارشال ، والاسبتاري وأمين الصندوق أو مساعديهما ، بعد الحصول على موافقة هيئة الرهبان العامة . ان عملية تطور الخاتم الكنسي تجد مكانا في تاريخ كثير من المجتمعات الدينية في القرن الثالث عشر ، ويمكن ان يكون هذا ممارسة من قبل الاسبتاريين لضبط اللامسؤولية من طرف المقدم وأكدت هيئة الرهبان العامة على ذلك بشكل مشابه في اجتماعها لعام ١٢٨٣ ، وهو أنه يجب ان تدقق الميزانية كل شهر بحضور عدد من الاخوة الرهبانيين . من الواضح ، على اية حال ، ان هذه الاجراءات لم تكن كافية لكبح سوء ادارة المقدمين ذوي الارادة القوية .

ازداد عدد الاسبتارية ضمن الاخوية خلال حكم « اودو دي بان » الذي أساء بوضوح استعمال السلطة التي منحت له بشكل خاص من قبل هيئة الرهبان العامة . ولقد أجبرت البابوية على التدخل . ولكن في حين اجتمعت مجموعة رفيعة المستوى من الرؤساء الاكليركيين في روما وتقدمت الى البابا « بونيفاس » الثامن والى أعضاء الادارة البابوية بتفاصيل خطط للاصلاح، اقترحوا ان كل واحدة من المناطق السبع التي قسمت اليها الاخوية يجب ان تنتخب شخصا اداريا « Diffinitor » . فالمقدم ، بصفته رجلا اداريا لمنطقته، سيكون أحد اعضاء اللجنة السياعية التي يعين أعضاؤها مدى الحياة ، ولكن من الممكن ان يفقد وظيفته ويطرد من الاخوية من أجل الهرطقة ، والحنث باليمين بعد التحذير الثالث ، وجريمة ماكرة ، واللواطة، وعلاقات مع غير المؤمنين في حالة الحرب معهم ، واثارة النزاعات بشكل دائم . ويمكن لاعضاء هذه اللجنة

ان يتقاعدوا بشكل طوعي عند بلوغهم سن الخامسة والسبعين عاما ، ولكنهم يعزون من مناصبهم عندما يكتشف اقرانهم بأنهم في حالة جنون . ويجب ان يكونوا أخوة فرسانا ولكنهم يحرمون من كل المناصب الاخرى للاخوية ماعدا القيادة في الحرب . وعندما يموت أحدهم سوف ينتخب خلف له من نفس المنطقة من قبل الآخرين . وعند الانتخاب يقسم الجميع بأن يسدوا نضيحة حقيقية وخالية من الكراهية الى زمائهم ويراقبوا قوانين واعراف الاخوية .

لقد اتبع اجراء جديد تماما من أجل الانتخابات الحاكمية . فبعد شهرين من موت المقدم ، سوف يدعو الرجل الاداري « Diffinitor » الذي عين مساعدا للمقدم الى عقد اجتماع لهيئة الرهبان العامة ، بعد اخذ مشورة مساعديه في الحكم . وخلال اربعة ايام من أجتماع الرهبان ، سوف ينتخب الدير والرؤساء الاكليركيون سبعة من الاخوة ، واحدا من كل منطقة ، ويمكن ان يكون بينهم كهنة وسرجنداريون . وسوف ينضم هؤلاء الى الاداري « Diffinitor » في الانتخاب ، ولكن اذا لم تختار المناطق ممثليها خلال الفترة المسموح بها ، يستطيع الاداريون وحدهم ان يبدؤا بعملية تعيين المقدم الجديد . وسوف يؤمن الانتخاب تسعة اصوات او اكثر ، ولكن اذا لم يتم التوصل الى قرار بعد ثمانية ايام ، سوف يغلق على الناخبين في غرفة او دير ، ولا يتلقوا اي شيء للاطعام ما عدا الخبز والماء حتى ينتخبوا مقدما . عند انتخاب المقدم الجديد يقسم المقدم قسما مشابها لقسم الاداريين . واذا انتخب رجل لم يكن اداريا، فان الاداري الذي مثل منطقة المقدم الجديد ينحى جانبا ، على الرغم من انه يظل يتمتع بامتيازاته ولقبه ، وسوف يرجع الى منصبه القديم عند موت المقدم .

ويقرر التشريع ، والادارة ، واحتياجات الاخوية الاخرى بشكل سري من قبل الاداريين . وفي حال غيابهم يمكن ان يمثلهم مساعدوهم الذين سوف يتركون مناصبهم اذا مات الاشخاص الذين يمثلونهم . ولا يمكن للاداريين ان يملكوا أي شيء سوى ملابسهم وطعامهم مثل الاخوة ، وتسلم جميع الهبات من الذهب، والفضة والاحجار الثمينة الى الخزينة. على أية حال، سمح للمقدم ان يتلقى هدايا من الاحصنة غير أنه لايستطيع تلقي اية هدايا اخرى دون موافقة

أغلبية زملائه . ويجب على الجميع أن يبذلوا قصارى جهدهم لان ينفذوا هذه الاصلاحات بأمانة ويكونوا خاضعين لنفس العدالة مثل الاخوة الاخرين ، ولكن يمكن محاكمتهم فقط من قبل مساعدي الحكام في منطقتهم ، الذين بموجب موافقتهم يرجع الاداري الى منصبه اذا فقد ثوب الرهبنة .

لقد ذكرنا سابقا بأن هذه الاصلاحات لم تنفذ أبدا . مات « اودو دي بان » وعين خلف له من اكثر المؤيدين لهذه الاصلاحات التي لم تكن اصيلة . وشهد مطلع القرن الرابع عشر القوانين الاغسطينية(١) التي تبنت انظمة الاداري ، بينما كان الإخوة يستخدمون منذ زمن طويل هذه الطريقة من الحكم . ويبدو ان مقترحات عام ١٢٩٥ قريبة جدا من نمط الادارة الاقليمية الذي تصوره القديس دومينيك : رئيس الدير واربعة اداريون يختارون من قبل هيئة الرهبان العامة كاملة ، برغم ان الاسبتارية كانوا يفكرون بلجنة حاكمة تكون بشكل دائم بعد الانتخاب الاولي . وتعكس الاصلاحات ، على أية حال ، الرغبة القوية لجعل نظام الادارة يقلل من الفرص المتاحة للمقدمين ليكونوا استبداديين .

لذا ، لسوء الحظ فان خليفة « اودو » حاول تركيز حكمه في أوروبا . وكان هذا بالنسبة للرؤساء الاكليركيين القشة الاخيرة . كان « ويليام دو فيياريه » غير موجود في اجتماع هيئة الرهبان التي انتخبته ، لكن أرسل اليه تقرير مطول من الحكومة السيئة لاسلافه ، ووافق الدير المركزي على تصديق انتخابه ، حيث كان ذلك حقا له ، شريطة ان يحافظ على عادات وتقاليد الدير كما وعد . وفي آب عام ١٢٩٧ دعا ويليام هيئة الرهبان العامة للانعقاد في مدينة افينيون ومرسيليا . وكان حريصا للحصول على سلطة الدير في قبرص لاجل هذا الحدث . ولقد رأينا كيف ان الدير وافق على مضض بارسال مفوضين عنه آملا ان ينتج عن ذلك بعض الاصلاح في الاخوية . وفي العام التالي ، طلبت هيئة الرهبان ، والرؤساء الاكليركيون والبابا بونيفاس الثالث من ويليام وتوسلوا اليه ان يأتي الى الشرق ، لكن في ٨ أيار عام ١٢٩٩ تلقى الرؤساء

---

(١) ـ الاغسطينية : نسبة الى القديس اغسطس (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) او الى تعاليمه المنسوبة اليه .

الاكليركيون في مدينة ليماسول دعوه الى عقد اجتماع جديد لهيئة الرهبان العامة الذي سيعقد في ١ آب عام ١٣٠٠ في مدينة افينيون .

لقد واجه ويليام المصاعب ليبرر اجتماعه في مدينة افينيون بدلا من مدينة ليماسول . فقد كتب ان الامراض الجديدة تحتاج الى ادوية جديدة . وقد تعرضت الاخوية للظلم من قبل السلطات العلمانية في أوروبا ، وتمرد الاخوة الفرسان في كاستيل (قشتالة) ضده ، ولم يكن يملك نقودا كافية للذهاب الى الشرق بطريقة لائقة تتناسب مع مركزه ، لان البابا قد صادر ممتلكات نائب المقدم لمنطقة « الاوتريمر » الذي مات حديثا وهو « بونيفاس دو كالامندراسن « Boniface de Calamandracen » . ووعد بان يسافر الى الشرق حالما ينتهي انعقاد جلسة هيئة الرهبان . قرر الرؤساء الرهبانيون ان يقاوموا ويعينوا مبعوثين لهم الى المقدم هم : « ويليام دو شوس » « William de Chaus » ، واحد الحكماء ، وجون صاحب اللاذقية رئيس الدير الرهباني . وخلال تعليماتهم لهؤلاء الاخوة اكدوا الحاجة الى التعقل . فكان على الرسل ان يطوفوا التماسا للدعم بين المأمورين الكبار بالاقاليم في اوروبا . وكانوا حريصين على انجاز واجباتهم الدينية لذلك لم يلم الدير بحقائق الموقف القاسية ، فكان عليهم ان يوفقوا بين شرف المقدم ووقاره . وكان عليهم ان يكونوا ثابتين في مواقفهم . واذا لم يستطيعوا تغيير رأيه ، كان عليهم ان يطلبوا عقد جلسات الاخوة حول القضية لصالح الرؤساء الرهبانيين .

اضافة الى طلب رسمي لعقد جلسات الاخوة فقد حمل « ويليام دو شو وجون » صاحب اللاذقية كتابا رسميا الى « ويليام دو فيياريه » ، يتضمن قضية الدير مع طلب عقد اجتماع هيئة الرهبان العامة في قبرص ، وسيطرحان تفاصيل هذه القضية ويناقشانها في حضور المقدم . ويذكر الزعيمان الرهبانيان « ويليام دو فيياريه » في رسالتهما بأن عليه ان يقيم معهما وانه قضى حتى الآن ثلاث سنوات بعيدا عنهما . وقد شرح وجهة نظره بانه كان يفتقر الى المال لان البابا صادر ممتلكات « بونيفاس دو كالامندراسن » ، وقد اقتنعنا بوجهة النظر هذه . فاذا صادر البابا ممتلكات نائب المقدم لمنطقة

أوتريمر ، فماذا سيفعل اذا مات المقدم وهو في اوروبا ؟ وذكر ان هيئة الرهبان العالمية في مدينة مرسيليا قد نصحت ويليام بالذهاب الى قبرص وأشارت الى ان واجبه كمقدم هو تنفيذ قوانين الاخوية لذا كان عليه ان يعقد جلسات هيئة الرهبان العامة في ديره .

تضمنت تعليمات المبعوثين هذه النقاط ونقاطا اخرى بالتفصيل . وبعد الاشارة الى ان عقد جلسة الرهبان العامة في مدينة افينيون يطول من حياة صولجان المقدم في الغرب ، فقد رفضا اعذار ويليام بشكل صارم . ان ابتزاز السلطة العلمانية ليس جديدا ، اذ من الممكن بحث ذلك من قبل رؤساء الاديرة وبمساعدة روما . اضافة الى ذلك ، لقد درست هيئة الرهبان العامة في مرسيليا المشكلة قبل عامين فقط . ان التمرد في « قشتالة »« Castile » يمكن ان يسحق اذا استخدم المقدم سلطته ، او اذا عين من يقوم بحسم الموقف بشكل دقيق .

اذا لم تكن هناك حاجة لعقد اجتماع هيئة الرهبان العامة ، اعترف الرؤساء الاكليركيون بان البابا قد استولى على املاك نائب المقدم لمنطقة اوتريمر لكنهم ناقشوا بان ويليام قادر على جمع المال الكافي لرحلته الى قبرص اما من صدقات انكلترا ، التي تجمعت اذ انها لم ترسل الى الشرق منذ عدة سنوات ، او من أموال سان جيل ، التي أدارها بحكمة مدة ثلاثين عاما ، وذكر بانه لم يذهب الى الشرق سوى مرتين بدلا من ست مرات كما تقضي الاعراف . وعلاوة على ذلك ، سمع من مصادر موثوقة بأن البابا قد وافق على اعطائه محاصيل تعادل (٥٠,٠٠٠) فلوران ذهبي من ممتلكات « بونيفاس دو كالامندراسن » .

وبعد ان دحض الرئيسان الرهبانيان اقوال مقدمهم ، طرحا قضيتهما الخاصة ومفادها ان دعوة هيئة الرهبان العامة للاجتماع كانت محظورة بموجب القوانين في افينيون .. ان السلطة لدعوة انعقاد اجتماعات هيئة الرهبان العامة كانت بيد المقدم والدير معا . لذا ليس بالامكان عقد الاجتماع بدون استشارتهما . ويجب ان يعقد الاجتماع في قبرص حيث يوجد مقر ادارة مشترك ، فقد اختير

مقرا لقيادة الاخوية من قبل هيئة الرهبان العامة بعد سقوط مملكة بيت المقدس. وهذا القرار قد صدق من قبل البابا علاوة على ذلك . وقد انهيا مناقشاتهما بالاشارة والتحذير الى أنه لايمكن دعوة الرؤساء الاكليركيين لاجتماعات هيئة الرهبان العامة الا بكتاب رسمي ممهور بالخاتم الرهباني يشير الى انهم جاهزون لحضورها ، وذكروا ويليام بتدخل البابا في حكومة سلفه . وفي الوقت نفسه كتبا الى اخوتهم في اوروبا يطلبان العون منهم .

اظهر القيمون الرهبانيون حدة نزاعهم الدستوري من خلال طرحهم لقضيتهم . لقد تحدثوا عن القليل ، لكن هذا القليل كان جديداً ، على الرغم من انهم أبدوا تفهما لسلطاتهم الجديدة ، التي كانت مرتبطة بالسيطرة على الخاتم الرهباني . لكنهم اكدوا ثانية بان على المقدم ان يكون ملتزما بقوانين الاخوية وان يأخذ بمشورتهم ، وأن يكونوا شركاء معه في السلطة . لقد كانوا مستعدين لاستخدام القانون النهائي الذي بين ايديهم وان يطالبوا بالحق الرسمي للاعتراض بواسطة طلب عقد جلسات الاخوة. لقد رأينا ان أول القوانين «الاعراف» التي اقرت هي انه اذا اعتبر احد الاخوة ان قيادة المقدم غير قانونية ، يستطيع ان يطلب حكم هيئة الرهبان ، وكذلك لا تعقد اجتماعات هيئة الرهبان من أجل قسم الطاعة ، اذا انتهكت هذه القيادة القوانين والاحكام ، التي تعهد المقدم نفسه بالانصياع اليها . وتقوم هيئة الرهبان بدراسة مسألة قسم المقدم وتنتهي الى النتيجة المنطقية وهي ان اطاعة المقدم محددة بالقانون والاحكام والعادات الحسنة للاخوية وقرارات هيئة الرهبان العامة ، التي اقسم على اطاعتها جميعا . وقد لغى هذا القسم جزئيا بواسطة القانون الذي اصدره « هيو ريفل » ، والذي ، كما عرضنا سابقا ، صدر قبل حوالي ثلاثين عاما وكان يتميز بقوة تنفيذية . وفي عام ١٢٩٩ الغى الدير نفسه قانون عام ١٢٦٥ ، بالتهديد بطلب الاحتكام ، ووضع موضع التنفيذ الحق بالتمرد الرسمي، وطلب الاحتكام الى النبلاء ، وكان ذلك معمولا به في العديد من المجتمعات الغربية ، وبشكل خاص في القدس اللاتينية عن طريق تطبيق قانون الاقطاعة . **« اننا نطلب منك يا مولاي عقد جلسات الاخوة بناء على اوامرك التي إصدرتها بموجب رسائلك المذكورة آنفا »** .

يبدو ان رسل الدير لم يجدوا ان من الضروري ان يطلبوا بشكل رسمي من « ويليام دو فيياريه » ان يعقد جلسات للاخوة ، وكانت نقاشاتهم ناجحة . وفي عام ١٣٠٠ عقد ويليام اجتماعا لهيئة الرهبان العامة في ليماسول ، تقرر فيه انه يجب ان يدعى الى عقد اجتماعات هيئة الرهبان العامة في قبرص ما لم يرجع الاسبتارية الى سورية . وقد الغيت قرارات الاجتماع الذي عقد في افينيون ومرسيليا عام ١٢٩٧ ، واكد أحد القوانين ثانية على حق الاخوة بان يطلبوا عقد جلسة للاخوة بناء على قرارات رؤسائهم . وكرر أحد اجتماعات هيئة الرهبان الذي عقد عام ١٣٠٦ بأن من الممكن ان يدعى الزعماء الاكليركيون فقط من قبل هيئة الرهبان العامة ، بينما يجب ان تمهر رسائل استدعائهم بالخاتم الرهباني . ولكن الاجتماع اثبت سلطته فيما بعد . وكان فولك دو فيياريه أحد قادة الدير هو الذي طالب بعقد جلسة الاخوة من عمه في عام ١٢٩٩ . وانتخب مقدما في عام ١٣٠٥ ، واستدعى الى فرنسا ليقدم المشورة الى البابا الجديد كليمنت الخامس حول الحملة الصليبية المقترحة . وقد منحه الدير في اجتماع هيئة الرهبان العامة تفويضا عاما كي يدير شؤون الاخوية ويستخدم اموال الاسبتار اثناء وجوده في أوروبا . ولم يكن ذلك تصرفا جديدا . وهناك ادلة على ان « اودو دو بان » قد منح منح تفويضا عاما في تسعينات القرن الثالث عشر . ولكن اجتماع عام ١٣٠٦ اكد على الطبيعة التعاونية لسلطة الحكم الكنسي . كان بامكان فولك ان يبحث امور الحاكميات والايجارات، واستبدال الاملاك والاستفادة من محاصيل الاخوية ومن اقواله : عندما يكون اودو دي بان معنا ونحن معه نستطيع ان نفعل مانشاء في هذا الجانب من البحر دون حاجة لعقد اجتماع لهيئة الرهبان العامة . وان الرسائل التي يصدقها لها نفس المفعول مثل الرسائل المشتركة التي يمهرها بختمه كل من المقدم والدير . وقد منح « اودو دو بان » سلطات كبيرة ، ولكن التوكيل العام كان في عدة اشكال تعبيرا عن انتصار الرؤساء الرهبانيين على ويليام دو فيياريه، مؤكدين الطبيعة التعاونية للسلطة في مقر قيادة الاخوية .

ان موقف الدير في اواخر القرن الثالث عشر يعبر عنه أحسن تعبير

ويليام اوف سان ستيفانو عندما قدم اسبابا لاعادة تقديم مذكرات الرؤساء الرهبانيين الى ويليام دو فيياريه في عام ١٢٩٦ :

« اولا : لان هذا السرد لاخطاء المقدمين السابقين التي اكتشفت سوف يظهر المقدمين ماذا سيتخذ بحقهم من اجراءات اذا تصرفوا بشكل خاطئ بأي شكل كان ، وانهم سيتجنبون هذه الاجراءات اذا كانوا فاضلين ، وكانت الاجراءات عبارة عن توبيخ المقدمين وتحطيم ارواحهم .

ثانيا : وبما ان حكماء الدير كانوا يحذرون المقدمين بشكل صريح من الاخطاء التي ينبغي عليهم ان يتجنبوها . كما كان يمنح حبا كبيرا لاولئك الذين لا يتسترون على اخطاء المقدمين ويخبرونهم بأسرع وقت ممكن عن اخطائهم ويجعلونهم يصلحون احوالهم . اما اولئك الذين يصمتون ولا يتكلمون عن الاخطاء فسوف يعاقبهم الله ، والذين يصلحون احوالهم بأسلوب صحيح فثوابهم عند الله » .

ويمكن رؤية تأثير الافكار العلمانية في الخلافات الدستورية بين المقدم والاخوة ، وان أهمية القسم عند انتخاب المقدم واجب للحفاظ على قوانين الاخوة . والاهتمام الدائم من أجل حكومة متعاونة ، والتحدي الرسمي ومناشدة القضاء من قبل النبلاء : كل هذه الامور كانت ترتكز على نظريات كانت شائعة لدى جميع الحركات البارونية الاوروبية . ويمكن ان يكون دستور الاسبتار قريبا من نظام الادارة المقترح من قبل البارونية السورية بطرق معينة ، في التأكيد على عقد يتم عند الانتخاب ، اذ يكون المقدم بموجبه مرتبطا بالتزامات ازاء مرؤوسه ، وفي جلسات الاخوة التي كانت مشابهة للاستخدام الذى كان في بيت المقدس لقانون الاقطاعة .

* * *

الفصل العاشر

القيمـــون الرهبانيـــون

الاداريـــون

نائب المقدم ومعاونوه المرؤوسون :

كان نائب المقدم او معلم الاسبتار هو الضابط الرئيسي بعد المقـدم . وكان يقلد هذا المنصب في اجتماع هيئة الرهبان امام جميع القيمين الرهبانيين، وكانت شارة سلطته عبارة عن جزدان ، وفي نهاية القرن الثالث عشر كانـت عبارة عن ختم من الشمع الاخضر مرسوم عليه صورة كلب صغير . وربما كـان في السابق يستخدم ختم الشمع الخاص بالمقدم . ومن المحتمل انه استخدم في اوائل القرن الرابع عشر ختمين ، خاتمه الرسمي وربما ختما خاصا عـن الشمع ، لكن الدليل على ذلك ضعيف . وسمح له اجتماع هيئة الرهبان لعام ١٢٠٦ باربعة احصنة وان يرافقه سرجندار مع حصانين ، وكاتب واثنان مـن التركوبول ، ورجل او اثنان من المشاة . ومن الممكن ان يسافر معه أخ بصفة مرافق له . وأعطت قوانين عام ١٢٩٢ المقدم حرية تحديد عدد الاحصنة ألتي ينبغي ان ترسل اليه ، ولكن في ١٣٠٢ سمح له بخمسة ، وبثلاثة اتباع للعناية بها . واصبحت حاشيته الان تتألف من خادم خصوصي ، وحاجب ، وغلام ، وكبير خدم وسرجندار . وقد وجد المقدم لاول مرة عام ١١٥٠ ، وبعد استقالة جيلبرت دو اسايي في عام ١١٧٠ ، أصبح هو الذي يقود الدير بواسطة هيئة الرهبان . وهو الذي يقيم العدل . ومع أنه حتى عام ١٢٠٦ لم يكـن يعتبر ضابطا دائما ، لان واجباته تحدد من قبل هيئة الرهبان . الا انه كان يشغل منطقة نفوذه بشكل فعلي وقد طورت منطقة نفوذه كليا في منتصف القـرن الثالث عشر .

كان نائب المقدم يدير الاخوية في غياب المقدم وفي الفترة الفاصلة بين حاكميتين . وفي عام ١١٧٢ ارسل اليه البابا الكسندر الثالث حكمه في النزاع الناشب حول انتخاب « كاست دو موروول » « Cast de Murols » . وحكم نائب المقدم الدير في الشرق بينما كان « روجر دو مولان » في اوروبا في عام ١١٨٥ وبعد موته في عام ١١٨٧ . وفي عام ١٢١٩ و ١٢٤٥ — ١٢٥٠ ، وربما ١٢٧٧ و ١٢٨٦ و ١٢٩٩ كان نائب المقدم مساعدا له ، لهذا السبب ربما كان سيتم تعيين « نيقولا لورن » « Nicholas Lorgne » في عام ١٢٧٧ و « جيمس دو تاكسي » « J. de Taxi » في عام ١٢٨٦ في المدرسة العليا . لهذا كان الواجب الاول لنائب المقدم هو ان يتصرف عند الضرورة نيابة عن المقدم وان يبدو قادرا كي يشغل مركزا ، بصرف النظر الى حد ما عن بقية الدير ، الذي كان قائده دائما هو المارشال . لقد لوحظ ان مسؤولياته الاولى كانت مالية . بينما كان يمثل — من غير ريب — المقدم الغائب في هذا المسائل . لذا قررت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٧٠ ان يتولى امر العناية بالاملاك المتروكة بالوصية الى الاخوية بشكل كامل وليس بشكل خاص للمرضى . وكان يصل الى مقاطعته الكثير من الجواهر والبضائع الثمينة المتروكة للاخوية ، بينما اصدر في ذلك الحين مرسوما في عام ١٣٠٠ يقضي بأن الاخوة الذين ارسلوا خارج الدير في مهمات،عليهم ان يقدموا اليه والى أمين الصندوق كشفا بمصروفاتهم . على أي حال ، لاتوجد اشارة مباشرة بان واجباته الرئيسية كانت مالية ، وانما كان هناك أمين للصندوق منذ وقت مبكر .

وهنا يبدو من المحتمل كثيرا ان على نائب المقدم في الشرق مسؤولية الادارة العامة للاملاك . ولذا منح في عام ١٢٠٦ مسؤولية الاشراف على كل الاماكن في سورية اللاتينية . لهذا فقد تسلم منصبا مشابها لذلك المنصب المشغول في اخوية الداوية من قبل قائد مملكة بيت المقدس ، وكان يعرف ، احيانا وليس دائما بآمر عكا او ليماسول . كان يزود الدير بالضروريات ويشرف على الادارة العامة للمناصب الصغرى . كان المقر الرئيسي للاخوية يعتمد على انتاج ممتلكاتها في الشرق وعلى استيراد المواد الغذائية التي غالبا ما تكون قابلة للفساد ، والبضائع الاخرى من اوروبا . وظهر عدد من الادارات حيث

كانت تخزن المواد والمؤن ، ويقوم بادارتها اخوة يعرفون باسماء مختلفة مثل : الاخوة في الوظيفة والاخوية في العمل والاخوة في الخدمة . يبدو ان الاخوة في الوظيفة يختلفون بسلطتهم عن الاخوة في العمل والاخوة في الخدمة ، لهذا كان الاخوة في الوظيفة يحملون مفاتيح المستودعات ومسؤولية كهذه كانت تسند عادة لاعضاء الاخوية . وكانوا غالبا والى حد بعيد سرجندارية في الخدمة ، على الرغم من انه كان باستطاعة الاخوة الفرسان والسرجندارية تحت السلاح ان يملؤوا مراكزهم . وهنا يظهر جليا بان الاخوة في الخدمة الذين هم ليسوا فرسانا ، وحتى اولئك الذين كانوا فيما مضى سرجندارية تحت السلاح ، لم يبلغوا في المرتبة منزلة الاخوة الرهبان في القرن الثالث عشر . وبناء عليه ان نائب المقدم،الذي لبست لديه سلطات على الاخوة تحت السلاح، كان مسؤولا عن كل الاخوة في الخدمة في الشرق ، الا اذا كانوا يعملون في منطقة نفوذ رهبان اخرى ، او كانوا فرسانا ، لان هؤلاء الفرسان كانوا تحت امرة المارشال .

على أي حال ، فانه من الخطأ ان نعتبره مديرا مدنيا فحسب ، بل انه أخ فارس . وفي اي وقت يمكن ان يدعى كي يكون نائبا للمقدم وحتى يمكن ان يتولى قيادة في المعركة . في عام ١٢٧٠ اصدرت هيئة الرهبان العامة مرسوما يقضي انه عندما يسافر المقدم والرهبان وراء حدود مملكة بيت المقدس،عليه ان يبقى مسؤولا في عكا وباستطاعته ان يعين قائدا عسكريا للاخوة معه . وكان شأنه شأن زملائه في اخوية الداوية مسؤولا عن مصنع الاقواس والسهام ، وهو قسم كان يتم فيه صنع الاقواس والسهام واصلاحها . وكان مسؤولا عن تزويد الادميرال بكل شيء من اجل تجهيز سفن الاخوية في القرن الرابع عشر . واستطاع نائب المقدم مثل « هيو ريفل » ان يلعب دورا هاما في ادارة الاخوية . وهناك اخوة اخرون في هذا المنصب . من بينهم «ويليام دو تنيير» «وريموند دو ريبل» « R. de Ribells » . فقد كان « ويليام دو تنيير » في عام ١٢١٦ قائدا لطرابلس ، وقد عين نائبا للمقدم قبل ايلول من عام ١٢٣١ . وهو الذي فاوض في العام السابق من أجل استسلام القوات الامبراطورية ، التي صمدت في قلعة « ديو دامور » « Dieu d'Amour » ، لبارونات بيت المقدس وقبرص . وكان

صديقا حميما « لجون دو ايبلين » ، صاحب بيروت وقائد المتمردين البارونيين . وفي عام ١٢٣٢ نصب رئيسا لدير فرنسا . وكان « ريموند دو ريبل » واحدا من اولئك الاخوة المتانقين الذين يرسمون في الاخوية ابان تعاقب القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وكاسباني كان صديقا حميما للملوك اراغون ، وفي عام ١٢٨٨ ساند علانية التاج في اراغون في مواجهة الحملة الصليبية البابوية ــ الفرنسية ضده . وفي عام ١٢٧٦ تقريبا كان آمرا لقلعة امبوستا ، وهو منصب استلمه حتى عام ١٣٠٠ ، بينما كان يشغل ايضا منصب مدير المدرسة العليا لاسبانيا من عام ١٢٩٥ حتى عام ١٣٠٠ . وربما قد ساند في عام ١٢٩٩ قرار « ويليام دو فيياريه » بادارة الاخوية من الغرب ، لكن يبدو انه اتبع المقدم الى قبرص وكان يقيم في ليماسول في عام ١٣٠١ . وأصبح نائبا للمقدم في شباط عام ١٣٠٣ واظهر في هذا المنصب حبا للمقاضاة ، اذ لم يكن ناجحا فيها دائما . يبدو انه قد تخلى عن منطقة نفوذه في اجتماع هيئة الرهبان العامة المنعقد في تشرين الثاني من ذلك العام .

لقد قسمت منطقة نفوذ نائب المقدم الى عدة دوائر . لكن توزيع المسؤوليات لم يكن واضحا . وعلى الرغم من ان نائب المقدم كان يتمتع بسلطة على الاخوة في الخدمة ، من الناحية النظرية ، يبدو انه لم يكن لديه السلطة على اولئك الذين كانوا يخدمون في مناطق نفوذ رهبانية اخرى . فقد تحكم بمخزن الطعام ، لكن الخزينة اصدرت علاوات صغيرة للدير . وكان مسؤولا عن مصنع الاقواس والسهام ، وهو دائرة عسكرية ، لكن الاقواس والسهام كانت تحفظ في الخزينة ، بينما كان مساعدوه يطيعون المارشال في كل الاشياء المتعلقة باختصاصاته . ومن المحتمل ان يكون التركيب الاداري لاخويتهم كان مشوشا للاسبتارية كما هو مشوش لنا ، وربما قد اعطوا فرصا للرشاوة ، لذلك حاولت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠١ ان تقمع ذلك بمطالبة كل المرتبطين مع الادارة بحسابات شهرية .

من الممكن ان نذكر العديد من الاخوة في الخدمة الذين كانوا تحت امرة نائب المقدم فقد ظهر القائد الصغير « Petty Commander » لاول مرة عام ١٢٣٥ . كانت لديه سيطرة محددة على كل المناصب الصغرى عموما ،

لكونه كان مسؤولا عن التخزين وعن توزيع المواد الغذائية الـى الدير وكذلك الضروريات الاخرى في الظروف الطبيعية . وكان شبيها بلا ريـب للمأمـور المسمى بـ آمر السرداب « Commander of the Vault » ، الذي ظهر لاول مرة في عام ١٢٦٤ . كان السرداب مصطلحا يشير الى المستودعات حيث يخزن : الاقمشة ، والاحذية ، والقنب ، والصابون ، والحديد ، والصوف ، والجلد ، والاطعمة غير القابلة للفساد مثل اللحم المملح والجبنة، والتي تبدو انها قد شغلت القسم الشرقي من مجموعة ابنية الدير في عكا . وكان يديرها اخ مرؤوس في الوظيفة . وباستطاعة اخوة آخرين في الوظيفة ان يسحبوا ما يرغبون به مـن المستودعات ، لكنهم كانوا ملزمين بتقديم وصولات استلام الى آمر السرداب، فقد كانوا في اوائل القرن الرابع عشر يحفظونها بحرص ويسلمونها في كل شهر الى الخزينة . وكمراجعة ، فان الاخوة في الوظيفة يقدمون حسابـات عـن مسحوباتهم من المخازن ، كما فعل تابع المقدم . وهو ضابط يخدم تحت امرة المارشال . كانت مسؤوليات القائد الصغير عموما تعني ان الدوائر الاخرى هي في رعايته . وفي عام ١٢٦٥ ظهرت كلمـة « L'abuerie » ربما تعنـي مستودع زيت او تبن ، وفي عام ١٢٧٠ كانت تعني مستودعا للحم البقـر والخنازير ومستودعا للدواجن ومشغلا للسجاد . كل هـذه الاشياء كانت في ايدي الاخوة في الوظيفة . وربما ظهر مستودع الدواجن الـى الوجود قبل ذلك بثلاثين عاما . عندما ظهر ان مزرعة قرب عكا قد تخصصت في تربيـة الدجـاج .

على اي حال ، كانت هناك دوائر أخرى تحت امرة الاخوة في الوظيفة ، الذين يبدو انهم متساوون في الرتبة لدى القائد الصغير ، لهذا كانوا مسؤولين مباشرة لدى نائب المقدم . وقد ظهرت مخازن القمح لاول مرة في عام ١١٧٦ ، وبقيت في الوجود حتى عام ١٣٠١ . واحتل القبو (حيث يخزن النبيذ) ، مكانا هاما في الدير القبرصي في عام ١٣٠٠ . وكانت صناعة الاقواس والسهام في عام ١٣٠٣ بالتحديد في منطقة نفوذ نائب المقدم ، على الرغم من ان الاقواس والسهام كانت تتبع المارشال وكانت تحفظ في الخزينة . كان الطعام للدير يحضر

في المطبخ ، وقد اصدرت هيئة لرهبان العامة لعام ١٣٠١ مرسوما يقضي بـان على الاخ في المطبخ ان يقدم ، كلما سحب لحما وجبنا من المستودع ، حسابات شهرية . اخيرا ، فان مدير النزل ، الذي ظهر في عام ١٢٣٩ وقهرمـان القصر كانا — من غير ريب — تحت سلطة نائب المقدم الى حد ما . وربما قد استلم شخص ما المنصب في النزل ، بينما الآخر كان مسؤولا عن الخدم في حجـرة الطعام ، وربما عن بقية الدير ايضا .

أمين الصندوق :

كان أمين الصندوق يعين من قبل هيئة الرهبان العامة في نفس الوقت مثل الاسبتاري ، مباشرة بعد نائب المقدم . وكان يحمل كيس دراهم ، وفي البداية قام بصنع ختم شمعي للمقدم . وقد حصل على ختم شخصي تقريبا في نهاية القرن الثالث عشر ، بينما اعطي في عام ١٢٧٨ ختما ذهبيا رهبانيا . وسمحت هيئة الرهبان العامة له في عام ١٣٠٢ بأن يقتني ثلاثة احصنـة وسائسين وان يستخدم حاجبا ووصيفا . ظهر منصبه لاول مرة في عام ١١٣٥ ، وبالتحديد في الاعوام الاولى بين عامي ١١٤١ و ١١٥٨ ، يبدو انه قد الـزم باخويتين في نفس الوقت . وكانت هذه الممارسة شائعة في مراكز اخرى في ذلك الوقت ، وضمنت عدم وجود فرص للغش ، لكن يبدو ان واحدا من امناء الصندوق اصبح مساعدا للآخر ، وعلم ان مساعدا لامين الصندوق تمتع بهذا المنصب في عام ١١٦٧ ووجد هناك موظف قبيل نهانة عام ١٢٥٥ عرف بالمستلم، وربما كان معاونا للخزينة . بالطبع كان امين الصندوق مسؤولا عن المـال . لقد أقر القانون بأن ترسل الصدقات والهبات من أوروبا الى بيت المقدس . فقد استلمت الخزينة في القرن الثالث عشر تلك الاشياء بالاضافة إلى الغرامات والتعويضات المفروضة من قبل القادة على الاقنان والخدم التابعين لهـم ؛ والارباح من عائدات حراسة المزارع ، والاموال الواردة الى سورية من قبـل الاخوة الفرسان والواهبين ، والنقود وبعض الكتب الموروثة من الاخوة الموتى ، والارباح من بيع الاحصنة والغنائم المكتسبة عن حملة عسكرية وبعض البضائع المتروكة للاخوية بالوصية . وكانت تشرف الخزينة على المال في الدير وتقوم بالصرف

نقدا عندما يتطلب ذلك والدفع للسفن وطواقمها في قبرص . كان عملها مثل المصرف ، حيث ترسل الاموال من قبرص الى اوروبا . وكانت مكانا للودائع بالنسبة للاخوة ، وكانت بضائعهم الموجودة فيها مصانة بموجب القانون . وكانت تحفظ لديها نسخ الدستور ومراسيم هيئة الرهبان العامة ، وتخزن الاقواس والسهام ، وتعطي حصصا اضافية صغيرة الدير ، وتوزع الشموع والنبيذ ، وترسل الاموال النقدية لقيمي الدير . واخذت على عاتقها الايصالات وحسابات الاخوة في الوظيفة واولئك الذين ارسلوا في مهمات ما .

من المفروض انه قد كان لدى الخزينة مؤسسة اكليركية موسعة في بداية عهدها ، فقد استخدمت ناسخين في عام ١٢٦٨ تقريبا . فقد طالب الدستور بأن ترسل الحسابات المسجلة من المقاطعات سوية مع الهبات والصدقات لكن بالرغم من انها احتوت على سجلات تدون الهبات المرسلة من الغرب ، فان مسؤوليات الخزينة كانت تقتصر مباشرة على اموال الدير في الشرق . وكانت منطقة مسؤوليتها مدونة في قوانينها ، التي صدرت في عام ١٢٠٦ ، ونظرا لانه لم يعد لها سلطة على مناطق النفوذ الاكليركية في اوروبا او على طرابلس والمرقب وقبرص وارمينيا في عام ١٢٨٣ ، فمن المفروض ان منطقة مسؤوليتها كانت تضم مملكة بيت المقدس حتى عام ١٢٩١ ، وقبرص بعد ذلك التاريخ . وورثت في عام ١٣٠٤ بضائع الاخوة الذين لاقوا حتفهم في البحر شرق كريت ، ولهذا فاننا نستطيع ان نفترض ان سلطتها امتدت على شرق البحر الابيض المتوسط .

كان أمين الصندوق ، كالرؤساء الرهبانيين الآخرين ، مسؤولا لدى هيئة الرهبان العامة . لكن منصبه كان خاضعا بشكل طبيعي لضوابط صارمة ويبدو انها ضعفت تدريجيا من حيث الاهمية . ولذا مارس المقدم ونائبه حقوق المراقبة عليها ، وأعلنت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٨٣ ان حساباتها يجب ان تدقق شهريا . ومن جهة اخرى ، وجد بعض المقدمين انه من الممكن صرف اموال الاخوية مع اشارة بسيطة الى الخزينة نفسها ، واذا فشل الدين في السيطرة على المقدم ، فليس بوسع امين الصندوق ان يفعل سوى القليل . على الرغم من ذلك ، فقد استلم المنصب من قبل عدد من الاخوة القديرين

جدا ، وتبوأ واحد منهم مركزا مرموقا خارج الاخوية بسبب مهاراته . ومن المحتمل ان « جوزيف تشونسني » « J. Chauncy » ، كان رجلا انكليزيا . فقد عين امينا للصندوق في عام ١٢٤٨ تقريبا ، وتولى المنصب لمدة ثلاثة وعشرين عاما ، او ربما خمسة وعشرين عاما تقريبا . ونصب في عام ١٢٨٤ رئيسا لدير الرهبان في انكلترا ، وان الملك ادوارد الاول ، الذي ربما قابله في عكا ابان الحملة الصليبية ، قد عينه امينا للصندوق في انكلترا . كان هذا واحدا من المراكز الاكثر أهمية لدى الاسرة الملكية ، وان رئيس الدير تولى مكانا مؤثرا في حكومة انكلترا . وان سنواته الطويلة باعتباره امينا للصندوق اخوية عالمية كبرى قد هيأته طبعا لواجباته الجديدة ، اذ انه لا يوجد ادنى شك بان الملك وجد خدمته مرضية . استدعي جوزيف في عام ١٢٨١ الى سورية ، ربما لان المقدم احتاج لمشورات اخ متمرس جدا . وطالب الملك ادوارد باستمرار بعودته الى انكلترا ، لكن لايبدو انه غادر الدير في الشرق .

الجـــواخ :

تضمن دستور الاسبتارية انظمة صارمة فيما يتعلق بملابسهم . فقد توجب ان يوجد هناك ضابط مسؤول عن توزيع الملابس واللوازم في القرن الثاني عشر ، لكن الجواخ لم يرد ذكره حتى عام ١٢٠٦ . فقد تقلد منصبه في الوقت الذي تقلد فيه المارشال مهام وظيفته في هيئة الرهبان العامة وبحث ذكره بعد الاسبتاري . وكان يحمل كيس الدراهم ، ثم حاز على ختم خلال القرن الثالث عشر فقط . وسمح له القانون في عام ١٣٠٢ ان يقتني ثلاثة احصنة يتم العناية بها بواسطة سائسين ، وان يستخدم حاجبا ووصيفا . وامتدت سلطته على الدير ، مثل امين الصندوق على منطقة عمل الاسبتارية في مملكة بيت المقدس . ومن المحتمل ان دائرته (مشغل الخياطة) « Parmentarie » ، قد تألفت من مخزن ومؤسسة خياطة . كان يعاونه مساعد واحد ، على الاقل « Brother of the Parmentarie » الذي كان من بعض واجباته ان يختم البضاعة للاخوة الموتى ، فعند موتهم يحق للجواخ ان يأخذ الاثواب المستعملة والملابس وملابس النوم والقبعات . وقد اعتاد ايضا في اواخر القرن الثالث

عشر ان يأخذ ملابس نوم اعضاء الجمعيات الدينية الذين يموتون في المشفى . وكان يوزع في اوائل القرن الرابع عشر الصدقات على الفقراء من الممتلكات الشخصية المنقولة للموتى .

على الرغم من ان « اودو دو بان » « ووليام دو فيياريه » كانا جواخين في الاخوية ، يبدو ان هذا المنصب لم يزدهر في القرن الثالث عشر . ولقد قلقت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ بخصوص رؤوس اموالها ، فاصدرت مرسوما بان مخازن الالبسة يجب ان تكون واسعة بشكل كاف لتلائم حاجات الاخوة . فقد لوحظ كيف سمح الاخوة بتزويد انفسهم بالملابس ووزعت عليهم الاموال لشراء وغسل وكي ملابسهم .

* * *

المحاربـــــــون

المارشال ، التركوبول ، والمؤسسة العسكرية

لقد لاحظنا ، في ذلك الحين ، كيف كان العنصر العسكري في البدايـة صغيرا ، واصبح مهيمنا ضمن الاخوية . كان قائدها المارشال ، وقد وجد لاول مرة في الستينات من القرن الثاني عشر . ربما كانت دائرته في ذلك الحين فترة تطور بدائي. وظهر في عام ١١٢٦ ضابط عرف بالكندسطبل « Constable » وربما بقي نائبا للمارشال حتى عام ١١٦٩ . لا تبدو واجبات المارشال انهـا تحتاج لتخصيص وقت كبير في منتصف القرن الثاني عشر ، لان أول ماعرف لدينا جمع منطقة نفوذه الرهبانية مع ادارة حاكمية طبريا الهامة ، لكنه هو او خلفه كان واحدا من قادة الدير الذين لعبوا دورا هاما في الاضطراب الذي حدث اثر استقالة « جيلبرت دو اسايي » . ربما قد تأثر تطور وظيفته بواسطة أخوية الداوية حيث تطابقت مع وظيفة المارشال لديهم الى حد بعيد،وبممارسة الاعمال الدنيوية في مملكة بيت المقدس .

كانت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٠٦ هي التي نظمت الجناح العسكري ووضعت اساسا قانونيا لسلطة المارشال . وكان كلا الاخـوة الفرسـان ، والسرجندارية تحت السلاح في الظروف العادية رهن اوامره ، لكن القيمين الاكليركيين لم يكونوا كذلك ولا رفاقا للمقدم . وكان يقود ، في الحملة العسكرية، اولئك الموجودين في القوة الاسبتارية ، على الرغم من ان المقدم او نائبه كانـا يمارسان سلطة عليا . وكان المارشال يمارس سلطته على الضباط العسكريين الادنى مرتبة وعلى تابع المقدم وحامل الراية وآمر الفرسان . وكانت لديـه سلطات اصدار الاوامر على قادة القلاع ، وحتى بعد عام ١٣٠٣ ، على التركوبول في وقت الحرب . وكانت له سلطـة على الادميرال عندما يكون موجودا في

الاسطول . وكان هو القيم الرهباني الثاني . وكان يرسل التقارير عن وضع وظيفته الى هيئة الرهبان العامة مباشرة بعد نائب المقدم . كانت شاراته علم الاخوية وكيس دراهم وختما ، الذي كان في اواخر القرن الثالث عشر تقريبا من الشمع الاخضر مصورا عليه صورة فارس مدجج بالسلاح ويحمل راية . خصص له في عام ١٢٠٦ أربعة أحصنة وكان برفقته تابعان وحامل راية (حامل راية الاسبتارية) . وكانت تجهيزاته تحمل على راحلتين يتولى امرهما سائس . وسمح له ايضا في عام ١٢٦٨ بتركوبول وعربة . وقد استطاع ان يستخدم في عام ١٢٧٨ فرسا للقتال كمطية عادية . في عام ١٢٩٢ ، كان عدد من احصنته تحت تصرف المقدم ، لكن هيئة الرهبان العامة خصصت له خمسة احصنة يقوم بالعناية بها ثلاثة سائسين . كانت حاشيته في ذلك الحين تتألف من تابع وحاجب ووصيف وساق وسرجندار وطباخ .

وكثيرا ما كان يشاهد وهو يعمل كقائد عسكري . لقد قاد الفرسان والتركوبول في غزو مصر في عام ١٢٦٨ . وكان موجودا في معركة ارسوف عام ١١٩١ . وأسر المارشال « ايمارد دو ليرون » **« Aymar de Layron »** ومن المحتمل انه قتل في هجوم الحملة الصليبية الخامسة على بيرلس **« Burlus »** في عام ١٢٢٠ . وفي عام ١٢٤٨ كان مع المقدم اسيران لدى المصريين ، وكان المارشال هو الذي كتب في مناسبتين الى القديس لويس يعلمه عن الحوادث السياسية في البلاد الاسلامية والنتائج العسكرية المحتملة لها . وفي عام ١٢٨٩ قاد المارشال «ماتيو دو كلير مونت» **« Matthew de Clrmont »** الاسبتارية دفاعا عن طرابلس ومات ميتة بطولية بعد عامين في المعركة من أجل عكا . وفي عام ١٣٠٣ شوهد المارشال « سيمون لورات » وهو يلقي على الاخوة في هيئة الرهبان محاضرة قصيرة عن معدات المسلمين العسكرية .

كان المارشال يقود كل الاخوة تحت السلاح ، وقد ناقشنا ان هؤلاء الاخوة هم فقط الذين وصلوا الى مرتبة الاخوة الرهبانيين . ويجب ان يكون هذا هو السبب للتطور غير العادي لسلطاته . وقد لوحظ في عام ١١٧٠ تقريبا انه ضابط هام . وصدر في عام ١٢٠٦ قانون ينص على انه اذا كان المقدم

قائبا بدعوة هيئة الرهبان العامة للاجتماع ، فانه يرسل بطاقات الدعوة الى المارشال ، الذي كان واضحا انه هو قائد الدير . وعلى الرغم من انه الرابع في التسلسل الهرمي للضباط ، فقد نصت قوانين واعراف الاخوية بشكل خاص ، بان كل الاخوة الرهبانيين هم تحت امرته . لانه كان مسؤولا عن الانضباط في النزل وعن معظم ترتيبات المبيت . وكان يوزع علف الخيل والمؤن على اولئك الذين حصلوا على اذن بالسفر بعيدا عن النزل ، وعليه ان يأتي الى الاجتماعات التي يدعو اليها رجل ديني يعرف برئيس كنيسة الاصحاء « Church of the Healthy » وربما هو اسم مرادف لرئيس دير الرهبان. لهذا فقد استلم مكانا خاصا جدا في الدير . وبخلاف نائب المقدم ، الذي اعتبر كممثل للمقدم ، فان المارشال كان قائدا للدير كهيئة اعتبارية . كان ملك اراغون في عام ١٢٨٨ غاضبا لان الاسبتارية ساندوا الحملة الصليبية البابوية ـ الفرنسية ضده ، وتذمر من سياسات المقدم تجاه المارشال والدير . وفي عام ١٢٩٩ عارض القيمون الرهبانيون « ويليام دو فيياريه » تحت قيادة المارشال « رئيسنا » .

على اية حال ، كان نفوذه غير مستقر الى حد ما بسبب التغيير السريع في مهام الوظيفة . ويبدو ان وظيفة المارشال كانت تنتقل من شخص الى آخر سنويا تقريبا في اوائل القرن الرابع عشر ، وقد استلمها بعض الاخوة عدة مرات . وكان « سيمون لورات » مارشالا في عام ١٢٩٩ عندما كان القيمون الرهبانيون يتنازعون مع المقدم ، وكان مارشالا مرة ثانية في عام ١٣٠٣ ، وتخلى عن المركز في تشرين الثاني ليصبح قائدا لقبرص . وعلى الرغم من حقيقة انه تصرف بشكل غير قانوني ، آخذا الممتلكات من المارشالية معه الى منصبه الجديد ، فقد أصبح مارشالا مرتين في عام ١٣٠٦ وعامي ١٣٠٩ ـ ١٣١٠ . وكانت هناك محاولة واضحة في فترة الانتقال من القرن الثالث عشر الى القرن الرابع عشر لتخفيض مطالب هؤلاء الضباط من الخزينة . وفي عام ١٢٨٨ خصصت مزرعة للمارشال لتأمين النبيذ والشموع والنقود ، لان الخزينة لم تعد مسؤولة ابدا عن هؤلاء . لقد نقضت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠١ قرار المقدم الذي سمح بان تؤول كل الاموال الى الخزينة التي بدورها يجب ان

ترسل اليه ثلاثمائة بيزا اسلامي كل عام . وربما قد ارتبط هذا القانون الاخير بمحاولة اعادة تحديد نفوذه . على الرغم من ان شروط منصبه وصلاحياته كانت معروفة بشكل واضح لا لبس فيه . وقد أعيد اصدار العديد من القوانين القديمة في عام ١٣٠١ التي تتعلق بهذه المسألة وعقدت عدة جلسات لهيئة الرهبان في عامي ١٣٠١ و ١٣٠٣ واعتبرت ذلك أمرا مشروعا .

لقد تحكم المارشال بكل الاشياء المتعلقة بالفرسان . وأكدت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠٠ ان عليه ان يطاع في هذه المسائل ليس فقط في دائرته ، بل ايضا في كل الدوائر الاخرى في الدير . وعندما يكون حاضرا ، له الحق في ان يطلب ما يريد من القادة المحليين ، فكل الاسلحة ، والأحصنة ، والاسرجة ، واللجامات ، والقماش غير المخاط ، تؤول اليه عند وفاة الاخوة ، سواء كانوا تحت السلاح ام في الخدمة كما فعل بالنسبة للامتعة التي تركت بموجب وصية للاخوية في قبرص ، الا اذا اوصوا باعطائها الى آمري قلعتي الحصن والمرقب بالتساوي ، وقد سمح له بالرجوع الى المقدم في جميع الاشياء التي يحتاجها في منطقة المارشالية ، حيث يقوم المقدم باصدار الاوامر الى الخزينة كي تزوده بالاموال المطلوبة لشرائها .

وهنا يبدو ان المارشالية قد قسمت الى دائرتين على الاقل . فالاولى كانت دار صناعة الاسلحة التي كانت تقوم بتوزيع وربما اصلاح الدروع والاسلحة ، ما عدا الاقواس والسهام . وكان يقوم بادارتها واحد في الخدمة على الاقل ، وهو يعين من قبل المارشال وعليه ان يحفظ الحسابات . وان اهمية هذه الدائرة الفرعية يمكن ملاحظتها في العدد الضخم من الانظمة التي تتعلق بالدروع والتي مازالت موجودة حتى الآن ، فالاخ الذي يريد عدة حرب جديدة ، والتي هي تجهيز كامل ، عليه ان يعيد العدة القديمة . ولا يحق لاي أخ ان يقتني اكثر مما تسمح به الانظمة الا اذا منح اذنا خاصا . ان عدة الاخ المتوفي في الشرق يجب ان تحفظ بعناية وتعاد الى المارشالية . ويجب ان ترسل كل الدروع المتروكة بموجب وصية للاخوية الى سورية . واعتاد القيمون القادمون من الشرق ان يجلبوا معهم مجموعة من الدروع ، واذا كانوا غير قادرين على المجيء ، عليهم ان يرسلوها على الرغم من ذلك ، فالاخوة الذين

قاموا برحلة الى الشرق يتوجب عليهم ان يجلبوا عدتهم الكاملة ، ومن ناحية اخرى ، يجب ان لا يؤخذ السرج والدرع وراء البحار ، الا اذا أرسل الاخ الى الغرب باعتباره قائدا . وفي تلك الحالة عليه ان لا يأخذ أكثر من الكمية التي سمح له بها . ويجب ان لا يعار الدرع للآخرين ، او يؤخذ بعيدا بدون رخصة. ان هذه القوانين تظهر رغبة طبيعية لتركيز المستودعات في الشرق ، حيث هم بحاجة لذلك ولمنع الضياع . وقد حاولت جماعات رهبان اخرى ، لكن بنجاح قليل ، ان تمنع الزخرفة المسرفة بالاسلحة والاسرجة وكذلك ارتداء الدروع في الاوقات المحظورة . وأشارت قوانين الاسبتارية الى أنواع الاسلحة المتقلدة والتي لابد وان تكون باهظة الثمن كثيرا . فكان يكلف تجهيز فارس واحد في عام ١٢٦٢ الفي دينار فضي في مدينة تورز . ولكن يبدو أنه لم تحصل أية زيادة في السعر في عام ١٣٠٢ تقريبا ، على الرغم من انه في ذلك العام كلف تجهيز سرجندار واحد ألف وخمسمائة دينار فضي في تور .

ان الدائرة الفرعية الاخرى للمارشالية هي الاسطبلات . فان فرسان العصور الوسطى كانوا تواقين بشكل طبيعي للحصول على أحصنة ملائمة ، وكانت صعوباتهم في سورية اللاتينية متفاقمة ليس فقط بسبب المناخ ووعورة تضاريس المنطقة وطول الخدمة المطلوبة ، بل بواسطة الاوضاع التي يتم بها نقل الاحصنة الى الشرق ايضا ، اذ كان هناك ضياع كبير ، في الحمولة عند المرور عبر البحر الابيض المتوسط ، بينما خلال فترة وجيزة خصص وقت للتأقلم عندما تهبط الاحصنة الى الارض . ولقد تميزت تلك الحالات الخاصة في مملكة بيت المقدس ، اذ كانت تعرف بالممارسة « بالتعويض » ، حيث يتحمل التاج مصاريف استبدال الاحصنة التي تقتل او تجرح في المعركة. وانه لمن الممتع ان نلاحظ أنه في معركة آرسوف اشتكى مقدم الاسبتارية الى الملك ريتشارد الاول بأن أحصنة الاخوة التي لديه قد قتلت . وربما ليس من قبيل الصدفة ان المارشال وهو الذي خرق النظام وبدأ الهجوم المفاجىء ضد المسلمين ، وان الحيوانات التي كان مسؤولا عنها والتي لم يستطع استعراضها بسهولة ، قد قضي عليها تماما .

لقد شددت القوانين تكرارا على قيمة الأحصنة بالنسبة للاسبتارية في

سورية. فعند استلامها يجب ان تطوق باحكام، ولا يمكن ركوبها بسرعة كاملة بدون اذن . ولا يمكن ان يباع اي حصان الا اذا كان غير ملائم للاستخدام من قبل أخ او اذا تقدمت به السن ، وعندئذ فقط يسمح بواسطة قيم اكليركي الذي توجب عليه بعد عام ١٢٩٣ ان يأخذ اشعارا في هذه المسألة من ممثلي المقاطعات. ولم يكن باستطاعة اي شخص ان يوزع اي فرس بدون اذن من المقدم الذي يجب ان تؤخذ مشورته قبل اعطاء الترخيص . وكان باستطاعة المقدم ، على أي حال، ان يعطي حصانا لنبيل مدني. ولا يمكن لاي شخص ان يأخذ الرواحل الى ما وراء البحر بدون رخصة الا اذا كان قيما اكليركيا من الشرق . فالقيمون الاكليركيون في الغرب عليهم ان يرسلوا « مجموعة أحصنة » الى سورية عندما يستدعون ، واذا لم يستطيعوا ان يحضروا بسبب حاجات امير ما ، فانهم يبقون ملزمين كي يرسلوا حصتهم . وكل الاحصنة ذات الشأن التي تترك بموجب وصية للاخوية يجب ان ترسل الى الشرق . واصدرت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠١ مرسوما يقضي بان الاحصنة التي تنزل من السفن ، التي تصل الى قبرص ، يجب ان تسجل اعدادها من قبل تابع المقدم وكاتب (ناسخ) الدير. وقد أعطت القوانين فكرة ما عن كمية الحيوانات في قسم تبديل الاحصنة في اوقات معينة . فقد سمح في عام ١٢٠٦ لكل فارس بأربعة أحصنة ولكل سرجندار تحت السلاح بحصانين . على أي حال ، يبدو انه قد خفضت في عام ١٢٩٣ تقريبا المجموعة الكاملة لاحصنة الفرسان ، الى ثلاثة ، وخفضت في عام ١٣٠٢ الى اثنين ، مع ان الفرسان ذوي المراتب العالية والحكماء استطاعوا الحصول على أحصنة اضافية وسمح مرة ثانية في عام ١٣٠٣ بثلاثة احصنة لكل فارس .

وربما كانت الاسطبلات في المارشالية تحت أمرة تابع المقدم مباشرة ، لكن يبدو ان هناك ضابطا مساعدا عرف بـ « مأمور الاسطبل » الذي كان مسؤولا عن الاسطبلات ذاتها . وقد كان هذا القسم يوزع الاحصنة وربما الاسرجة للاخوة تحت السلاح وفقا للحصة التي اقرها القانون ، ومن المحتمل انه كان يعمل كمركز تبديل الأحصنة . واذا كان هناك فائض في الاحصنة في الدير ، فانه يمكن ان يوزع على الاخوة بهائم اضافية . على اية حال ، كان هذا المنصب

عسكريا بشكل كلي ، ويتعلق فقط باحصنة الاخوة تحت السلاح بصرف النظر عن الاسطبلات ، فقد كانت « القافلة » تحت أمرة المارشال ايضا حيث كانت تحتفظ في القرن الرابع عشر بسبعة أحصنة في الاحتياط للاستخدام عند الاغارات .

كان كل الضباط العسكريين في الشرق تحت أمرة المارشال على الرغم من الدرجات المختلفة . وكان آمرو قلاع سنورية قيمين اكليركيين ، وقد لوحظ بعد منتصف القرن الثالث عشر ان رتبهم عمليا كانت قريبة من رتب السرجندارية تحت السلاح . وقد اقرت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠٤ انه ليس باستطاعة اي اخ ان يعطي قلعة ما الا اذا خدم في الاخوية مدة خمس سنوات . كان آمرو القلاع في الظروف العادية مسؤولين امام المقدم وهيئة الرهبان العامة فقط ، ولكنهم في الحرب او عندما يكون المارشال موجودا في مناطق نفوذهم ويرغب في طلب الضروريات ، فان للمارشال سلطة عليهم . وفي عام ١٢٠٦ سمح لكل قائد وآمر قلعة سوري ان يقتني ثلاثة احصنة وان يرافقه تابعان وكل آمر قلعة كان يرافق بتركوبول . ونعرف عن آمري قلاع : كوكب ، وبلمونت ، وبيت جبرين ، والحصن ، والمرقب ، وجبل طابور ، وسيلفيكه . ولا بد ان تكون هناك قلاع اخرى ، ولكن القلاع الصغرى كانت تعتبر بشكل واضح غير هامة لكي يقوم بادارتها مثل هؤلاء الضباط ، فربما كان البعض منها يأوى حاميات صغيرة فقط من المرتزقة ، وربما بقي البعض منها خاليا معظم الاحيان .

ان الكندسطبل « Canstable » ، الذي عرف انه تولى مهام منصبه عام ١١٢٦ ، كان مرؤوسا قديما للمارشال . وان حامل العلم «Gonfanonier» الذي ظهر لاول مرة في عام ١٢٠٦ ، كان مسؤولا عن راية الاخوية وعضوا في حاشية المارشال ، على الرغم من انه كان يرافق المقدم في القرن الرابع عشر . ان راية الاخوية في عام ١١٨٢ كانت بالتأكيد عبارة عن صليب أبيض على أرضية حمراء ، وقد أشار اليه البابا في عام ١٢٥٩ . وكان حامل الراية يعين من قبل المارشال وبمشورة المقدم دائما ، وقد اعتبر هذا المنصب مكافأة

لصاحبه على مهارته في استخدام السلاح . وبعد عام ١٢٧٠ توجب ان يكون حامل الراية مولودا شرعيا ومن المحتمل أن يكون أخا فارسا . فأهميته في المعركة لاتحتاج الى تأكيد ، لان الاخوة كانوا ملزمين بأن يسيروا وراء الراية ، وفي حالة الفوضى كانت الراية تمثل نقطة التجمع بالنسبة للداوية أيضا . وكان على الاسبتارية ان يقتحموا خطوط القتال في معركة ارسوف ويهاجموا خلف المارشال لكي يتبعوا الراية .

كانت هناك أوقات لايستطيع فيها المقدم ولا نائبه ولا المارشال ان يقودوا الاخوة تحت السلاح في الاغارات . وفي مثل هذه الظروف ، يعين المارشال ضابطا يعرف بآمر الفرسان . وكان ايمار « **Aymar** » وهو ابن أخ مارشال سابق ، أول من عرف لدينا ، ففي عام ١٢٢٠ كان مسؤولا عن القوة التي ارسلت من دمياط لنجدة ريموند روبن « **R. Roupen** » الموجود في طرطوس . كان ايمار بطيئا وفاشلا في مهمته . واصدرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠٢ مرسوما يقضي بأنه عند الاغارة ، فان الآمر يخول بتوزيع دروع الاخوة الاحياء . وكانت هيئة رهبان عامة سابقة قد إقرت بان نائب المقدم يستطيع تعيين أمر الفرسان في عكا ، اذا غادر بقية اعضاء الدير مملكة بيت المقدس . وقد اختير آمرو الفرسان لقيادة القوات المترجلة من أساطيل الاسبتارية في القرن الرابع عشر .

كان تابع مقدم الدير يشرف على الاتباع وسائسي الخيل ويراقب كل ما يخص أحصنة المارشالية ، لهذا كان الارفع منزلة بعد مأمور الاسطبل مباشرة . ويجب ان لايخلط بينه وبين تابع المقدم ، الذي يقود الاتباع والذي عرف فيما بعد باسم التابع الكبير . وقد ظهر تابع مقدم الدير لاول مرة في عام ١٢٠٦ ، وسمح له بثلاثة أحصنة لاستعماله الشخصي ، وكان أخا سرجنداريا تحت السلاح ، ومسؤولا امام المارشال ، وقد كان هذا المنصب يشكل احدى الوظائف الاكثر أهمية والتي يمكن استلامها من قبل سرجندار . وقد كان لديه عدد من الاتباع الخاصين به ، وكان يطالب باحصنة ودروع الاخوة الموتى نيابة عن المارشال ، كما كان يسجل وصول الرواحل في قبرص . وادت

مسؤولياته هذه الى الفساد ، وامر في عام ١٣٠١ بان يقدم حسابا شهريا بما يستلمه ويوزعه على ذوي المناصب . ويظهر أنه كان يلازم الاغارات دائما ، باعتباره مسؤولا عن الاتباع والاحصنة ، ويشارك فيها . وكان الاتباع يشكلون نسبة مرتفعة من الخدم المأجورين في الدير ، على الرغم من انه لم يكن هناك اي تمييز بين صانعي التروس الذين كانوا يعتنون بالاسلحة والدروع ، وبين سائسي الخيل . وسمح في عام ١٣٠٢ لكل اخ فارس باثنين من الاتباع ولكل سرجندار تحت السلاح بواحد ، ومن المحتمل انه قد سمح بهذه الحصة منذ بداية عهد الاخوية . كان فارس الهيكل (الداوي) يرافقه الى المعركة تابعان بشكل طبيعي،أحدهما يقف بجانبه حاملا رمحه بينما يبقى الآخر خلف القوات يقوم بالعناية بالاحصنة الاحتياطية . كان تابع المقدم مسؤولا كليا عن الانضباط ورفاهية هؤلاء الرجال ، لكن لا يستطيع احد ان يعرف فيما اذا كان مسؤولا عن ابناء السادة الذين كانوا في بعض الاحيان ضمن حاشيات الاخوة . كان التبديل في المناصب سريعا ، على الرغم من ان قلة من المستلمين كانوا معروفين بالاسم . ولم يزل في عام ١٣٠٣ ثلاثة من تابعي المقدم السابقين احياء ، وربما كان كل مارشال جديد يعين تابعه الخاص .

ان مركز الثقة الذي تمتع به الاخويات العسكرية في الجيوش الصليبية كان ضريبة ثقيلة لانضباطها . كان هذا الامر صارما وبشكل خاص في « القافلة »، وهي الكلمة التي وجدت لاول مرة في عام ١٢٦٣ وترمز الى حملة عسكرية او اغارة . يتضمن قانون الداوية فصلا حافلا بالواجبات العسكرية،ولا يوجد شيء متوفر بكثرة وباق في وثائق الاسبتارية مثل ذلك القانون . كان المقدم هو الذي يفرض الاوامر في القافلة او نائبه او المارشال او قائد الفرسان وكان يرافق القافلة كاهنها الخاص . وقد لاحظنا ان عددا معينا من الاحصنة كان يستبقى في المارشالية لاستعمال الاخوة عند الاغارات . عند التسلح للمعركة ، فان الاخوة يلبسون اولا قفطانا اسود ، واثوابا رهبانية تنطبق باحكام على مقاييس اجسامهم فوق دروعهم ، لكن بعد عام ١٢٤٨ كانوا يلبسون معاطف فرسان كبيرة مزينة بصليب على الصدر . وسمح البابا الكسندر في عام ١٢٥٩ للاخوة الفرسان بان يلبسوا معاطف قرمزية وعليها صليب ابيض ،

وكان هذا اللباس هو اللباس المميز للاخوة تحت السلاح في عام ١٢٧٨ . وكان الاسبتارية ، في الحملة العسكرية ، يوثقون دروع اجسادهم خلفهم عندما لا يكون هناك قتال . لكنهم كانوا يلبسون واقيات الارجل والخوذ دائما . كانت الغنائم تستلب بصورة جماعية ، وغير مسموح بأخذها افراديا . كان الاخ يفقد رداءه وبدون أمل في استرداده اذا ما تخلى عن علم المارشال او الاخوية في المعركة او انضم الى المسلمين . ولا يستطيع اي اخ تحت السلاح كبير في السن ان يتقاعد من الخدمة الفعلية بدون اذن المقدم .

عرف القليل عن الانضباط في قلاع الاسبتارية . وكانت بوابات القلعة عند حدود المسلمين تغلق بعد صلاة المساء ، ولا يسمح لاي أخ بمغادرتها . ويعين الحراس في الليل وكانوا يشاهدون في قلعة المرقب عام ١٢١٢ . واصدرت هيئة الرهبان العامة في عام ١٢٨٣ مرسوما يقضي بانه لا يحق لاية قلعة ان تستسلم بدون اذن من أمر القلعة العام ، وذلك بعد ما يتم اعلام المقدم والدير . ربما اصدر هذا القانون بسبب ظروف استسلام قلعة الحصن في عام ١٢٧١ ، لكن يجب ان نتذكر انه في عام ١٢٥٠ منح المصريون قادة الحملة الصليبية السابعة الاسرى حرياتهم مقابل قلاع الداوية والاسبتارية ، ولكن من الملفت للنظر ان ذلك كان متعذر التنفيذ لان آمري القلاع قد اقسموا بقبر المسيح بان لا يتخلوا عنها ابدا .

ان عدد الاخوة تحت السلاح الذين يخدمون في الشرق سوف نأتي على ذكره فيما بعد . لكن نسبة كبيرة من اية قوة اسبتارية تتألف من : عساكر التركوبول ، وفرسان وسرجندارية يقومون بالخدمة لقاء اجر ، واتباع وانصار ، . كانت الاخويات العسكرية تقدم مساعدات لبعضها بعضا . وقد اعتقد العرب بان قافلة امداد الاسبتارية التي نصبوا لها كمينا امام بانياس في عام ١١٥٧ كانت ترافق ليس فقط بواسطة أخوة بل بواسطة سرجندارية ، وداوية ، وقوة مشاة فرنجية وحلفاء من المسلمين ايضا . في عام ١١٦٨ وعد « جيلبرت دو اسايي » بأن يؤمن خمسمائة فارس وبنفس العدد من التركوبول من اجل غزو مصر ، ويبدو ان هذه القوة تألفت من مرتزقة ، وان الاتفاق بينه وبين الملك

املريك الاول جعل مكاسب الاخوية في هذه الحملة العسكرية مساوية لعدد الجنود المشتركين فيها . خدم التركوبول في الاخويات العسكرية في ارسوف عام ١١٩١ ، وفي غزة عام ١٢٤٤ وفي الهجوم على رودس عام ١٣٠٦ . وكانوا يقيمون في بيت جبرين في عام ١١٧٩ ، وفي عكا عام ١١٥٨ ، وكان يشغل قلعة الحصن حوالي الفاجندي ، وقلعة المرقب حوالي الف جندي . وفي الثمانيات من القرن الثالث عشر كانت حامية قلعة المرقب تتألف من ٦٠٠ خيال تقريبا . ومن المفروض ان القسم الاكبر من هؤلاء مأجور . وأشار « هيو ريفل » في عام ١٢٦٨ ، في رسالة له ، الى عشرة الاف رجل دعموا الاخوية في احدى المرات بالمؤن في الشرق ، وكان العديد منهم من المرتزقة . كان في عكا عام ١٢٩١ مرتزقة يخدمون بشكل اكيد في القوة الاسبتارية . وان المعلومات الاكثر أهمية ، على أي حال ، يجب ان تكون في وصف الحملات العسكرية المشتركة . فقد نظم الاسبتارية عام ١٢٠٣ في قلعتي المرقب والحصن جيشا لمهاجمة بعرين . وكان يتألف من اربعمائة حصان ، والف ومائة جندي مشاة وعدد من التركوبول ، وهكذا فهو لم يتألف من الاخوة وحدهم . وجهزت الاخوية في عام ١٢٣٣ حملة اخرى في الشمال ، هذه المرة ضد حماه . كان يرافق المقدم « غورين » العدد الذي يستطيع الاسبتار دفعه الى ميدان القتال : مائة فارس ، وثلاثمائة سرجندار خيار ، وأكثر من خمسمائة سرجندار راجل . ثم انضم اليه ايضا مقدم الداوية ، « ارمان دو بيرغور » « Armand de Périgord » ، وكل رهبانه ، ومئة فارس قبرصي تحت أمرة « جون دو ايبلين » « ووالتر دو بريين » « Walter de Brienne » ، وثمانون فارسا من مملكة بيت المقدس تحت امرة « بيتر افالون »ـ « Peter Avalon »، وثلاثون من انطاكية تحت امرة « هنري » وهو شقيق الامير . ارسل المقدم في عام ١٢٨٢ خمسين اخا في عدة الحرب الى ارمينيا معززين بخمسين تركوبولا .

يبدو ان التركوبول كانوا ، الاكثر عددا في المرتزقة . وكانوا اما من الفرسان المولدين او من السكان المحليين : وهم عبارة عن خيالة خفيفي التسليح يجهزون احيانا بقوس ، لكنهم كانوا يستخدمون ايضا لتعزيز الفرسان . اصبح

التركوبول جناحا شبه دائم لقوات الاخوية ، وفي عام ١٢٠٦ تقريبا عين التركوبول في حاشيات بعض الضباط ، بينما كانت لهم مساكن خاصة في الاسبتار . وجد قائد التركوبول ، الذي يمارس السلطة عليهم ، لاول مرة عام ١٢٠٣ ، وفي عام ١٢٤٨ كان اخا وربما سرجندارا تحت السلاح ، وتحت امرة المارشال . واصبح يحظى في منصبه في عام ١٣٠٣ بمنطقة نفوذ رهبانية ، لكن هيئة الرهبان العامة اصدرت مرسوما في ذلك العام يقضي بانه على الرغم من اعفائه من سلطة المارشال ، فهو مازال تحت امرة ذلك الضابط في المسائل العسكرية وفي الادارة وفي نشر التركوبول . سمح له ان يسحب مائة بيزنط اسلامي في العام من الخزينة علاوة على خمسين مكيالا من النبيذ خصصت له من انتاج كرمين في قبرص . وعرف ضابطان اخران . ولم يكن رامي اقواس القدم وسرجندار القدم بالتأكيد عضوين في الاخوية لهذا لم يكن مسموحا لهما ان يأكلا على طاولة الاخوة . ومن المحتمل انهما رجلان علمانيان مسؤولان عن المرتزقة السرجندارية تحت السلاح . استخدمت الاخويات العسكرية رماة الاقواس في الحملة الصليبية الخامسة . وكان الاسبتارية في عدم مناسبات يمتلكون اسلحة الحصار التي تحتاج الى مهارة فنية . وكان لديهم منجنيق عند حصار عكا في عام ١١٩١ ، وفي الحملة الصليبية الخامسة وامام دمياط كانت منجنيقاتهم وآلات الحصار الاخرى موضع اعجاب ، فكل واحد منها كان يحدث خرقا في اسوار المدينة . وقد نصبت المنجنيقات عند اسوار قلعة المرقب عام ١٢٨٥ ، وتولت آلات حصار الاسبتارية الدفاع عن عكا في عام ١٢٩١ . ولا يستطيع احد ان يعلم فيما اذا كان هناك قسم خاص مكرس لتركيب وصنع هذه الاسلحة المعقدة ، لكن من المحتمل كثيرا ان هذه الالات والمواد كانت تجلب عند الضرورة .

بالاضافة الى مرتزقتهم ، استطاع الاسبتارية الاستفادة من الخدمة العسكرية لهؤلاء الفرسان الذين كانت لديهم اقطاعات في ممتلكاتهم . وسوف نتعرض لذلك في فصل لاحق . وهنا ، يجب التأكيد على انه من المستحيل مناقشة تركيب قواتهم بدون الاخذ في الاعتبار مساهمة مقطعيهم . فبالنسبة لهؤلاء من المحتمل ان القوانين في الولايات اللاتينية طبقت عليهم واصبحوا

عبئا ثقيلا على اموال الاسبتارية اذا تم استدعاؤهم للخدمة فيما وراء حدود وطنهم ، او ربما بعدما ينتهي اجل الوقت المحدد للخدمة . ولقد قبلت شهادتهم في جلسات الاخوة ، واستطاعوا في عكا ان يأكلوا على مائدة الدير .

لذا كانت القوات التي تدفعها الاسبتارية الى ميدان القتال مختلطة كثيرا . وعند تقدير عدد الاخوة تحت السلاح في سورية اللاتينية ، يجب ان نتذكر ان الارقام المذكورة في كتب التاريخ المعاصرة غالبا ما تتسم بالمبالغة والتهويل ، لانها لم تفرق الاخوة عن بقية القوة . فالعدد كان قليلا اذا تمكنا من الحصول على دليل موثق . وقد جمع المقدم في عام ١٢٣٣ عناصر الدير كلها من اجل هجومه على حماه : مئة فارس ، وثلاثمائة سرجندار خيال ، وخمسمائة سرجندار راجل ، ولا يوجد اي دليل على ان هذه القوة كانت كلها تتألف من الاخوة . وفقد الدير معظم الاخوة تحت السلاح ابان سقوط أرسوف عام ١٢٦٥ . واشارت المصادر الى ان ثمانين او تسعين اسبتاريا قتلوا ، وان مئة وثمانين سيقوا الى الاسر ، ويمكن ان تتضمن الارقام ، مرة أخرى مرتزقة وموالين . فقد ابان سقوط طرابلس في عام ١٢٨٩ ، اربعون اسبتاريا ومئة حصان وقد اعتبر هذا خسارة خطيرة جدا فاتخذت اجراءات لاعادة تزويد الدير بالسكان من أوروبا . وعلى اي حال ، فقد جاء الدليل الاكثر خصوصية في رسالة من « هيو ريفيل » التي ذكرت ان هناك ثلاثمائة أخ في الشرق ، فهو بالتأكيد يشير الى الاخوة تحت السلاح فقط . ويمكننا ان نأخذ بذلك الرقم باعتباره رقما ذا مدلول معين ، لانه لايبدو انه لايوجد الكثير ممن يخدمون في سورية اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

لقد علمنا بشكل افضل عن اعداد الاخوة تحت السلاح في قبرص . فقد اقرت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠١ انه يوجد ثمانون اخا في ليماسول ، يتألفون من سبعين فارس وعشرة سرجندارية . وفي العام التالي تغيرت الارقام قليلا حيث اصبحت خمسة وستين فارسا ، وخمسة عشر سرجنداريا ، وحددت الاعداد التي يجب ان تترسل من قبل كل مقاطعة من المقاطعات . وساهمت كل مقاطعة في عام ١٣٠٦ بخمسة فرسان في القوة المرسلة الى رودس . وقد

لاحظنا انه ربما كانت هناك محاولة معينة لتخفيض الالتزام العسكري للاخوية بعد عام ١٢٩١ ، لكن يظهر انه حتى تلك القوات القليلة نسبيا لم تكن كاملة العدد . وكان من المفروض في عام ١٣٠٢ ان تساهم مقاطعة فرنسا بخمسة عشر فارسا للاخوية في الشرق ، لكنها اعتادت ان ترسل ستة وعشرين فارسا . وقد مثلت في عام ١٣٠٩ بحوالي اثني عشر فارسا تقريبا . وكان لدى الاخوة في العام نفسه ، احتياطي كبير نسبيا من الاخوة تحت السلاح في الغرب نظرا لان « فولك دو فيياريه » استدعى خمسمائة منهم لينضموا الى حملته الصليبية . ولا بد ان عتاد الاخوة تحت السلاح في الشرق قد ازداد في العام التالي ، لان الاخوية كانت قادرة على ارسال قوة من رودس الى قبرص تتألف من ثمانين أخا فارسا وعشرين تابعا ، ومائتي راجل ، وكانت الاخوية ممثلة سلفا في قبرص ولا بد أنها استبقت وراءها حامية في رودس .

يبدو ان قوات الاسبتارية نادراً ما كانت تتألف كليا من اخوة الاخوية . بل كانت تتألف من الاخوة الفرسان ، ونسبة قليلة من الاخوة السرجندارية ، وكانت تزود بالفرسان الذين يقومون بالخدمة في الحملة العسكرية وبحراسة القلاع ، وبالتركوبول ، وبرجال تحت السلاح مأجورين ، وبمساهمات الاصدقاء والموالين . ويمكن تصور المصاريف الباهظة التي يتحتم على الاخوية أن تواجهها ، وكانت فعاليتها التي ينبغي بواسطتها ان تنفذ واجباتها العسكرية تعتمد ليس على اعداد الاخوة الرهبان المقيمين في سورية فحسب ، بل على الاموال النقدية المتوفرة ايضا كي تدفع للمرتزقة والفرسان المقطعين .

الادميرال والاسطول :

كانت اخوية القديس يوحنا تمتلك في القرن الثاني عشر سفنها الخاصة . على الرغم من انها اعتمدت في معظم تنقلياتها على سفن البحارة الكتالونيين والبروفانسيين . على اية حال ، اصبحت تعتمد بشكل اضافي على ممتلكاتها الاوروبية في القرن الثالث عشر ، ويمكن ملاحظة تطور أسطولها في العدد الكبير من الاتفاقيات الباقية والاوامر الحكومية فيما يتعلق بنقل الحبوب والخضراوات والخبز والاحصنة والبغال ، الى سورية ، وأن أسماء العديد من سفنها معروفة

لدينا وهي مثيرة للذكريات : القديس يوحنا ، والصقر ، والفريف ، والكونتيسة ، وبونافنتشر ، والقديس أندرو ، والقديسة مريم الناصرية . في أواخر الثلاثينات من القرن الثالث عشر تقريبا ، كان لدى الاخوية اسطول كبير ، يرسو في عدة مرافىء أوروبية ، وبشكل خاص في مرسيليا ، حيث كان النزل الرهباني بمثابة وسيط مع التجار ، وكان هناك ضابط يعرف بآمر السفن ربما كان مسؤولا عن بناء وتجهيز المراكب .

وجد القبطان الاسبتاري لاول مرة في عام ١٢٤٠ ، وكان يدعى آمر السفينة . كان أخا وكانت مهمته الاساسية نقل البضائع الى الشرق لاخويته . على الرغم من انه ربما انشغل بالتجارة لصالحها . كانت السفن الاسبتارية تقوم عادة برحلتين الى الشرق كل عام ، في الربيع وفي الخريف ، في مواكبة الاساطيل الاخرى ، لكن هيئة الرهبان العامة فرضت على السفن ان تبحر في كل الفصول . اعطي في عام ١٢٦٨ آمر السفينة المسؤولية لتنظيم واطعام الاخوة في البحر ، حيث كان غذاؤهم منظما بعناية . ان هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٨٣ تراخت وأصبحت اقل حدة في قوانين التقشف . ففي الرحلة البحرية سمح للاخوة ان يتناولوا اللحم في ايام الاحاد الاربعة السابقة للميلاد ، ما عدا ايام الجمعة . وتولى سرجندار في الخدمة امر العناية في مخزن المؤن في السفينة ، واختار المقدم أمرا من الاخوة ليتولى السلطة على الاسبتارية على السفينة ، ويبدو ان هذا الضابط يعادل في البحر آمر الفرسان ، لانه يملك السلطات على آمر السفينة ولم يكن باستطاعته ، على أي حال ، ان يعمل ضده اذا لم يتم اطعام الاخوة كما يجب ان يكون ، لكن باستطاعته ان يرسل تقريرا الى المقدم . وكان القيمون الاكليركيون يزودون انفسهم وحاشياتهم بالمؤن خلال وجودهم في البحر . واتخذت اجراءات دقيقة بخصوص التحفظ على حاجيات الذين يلاقون حتفهم على ظهر السفينة .

ويظهر ان سفن الاخوية في عام ١٢٩١ ، كانت سفن نقليات اكثر مما هي سفن حربية ، بالرغم من ان بعضها قد أرسل لدعم الفرنسيين في الحملة الصليبية ضد اراغون في ثمانينات القرن الثالث عشر . وبعد فقدان سورية بدأ كل من الاسبتارية والداوية بناء الاساطيل الحربية . وامتلكت الاخوية في قبرص

عشر سفن حربية قبل عام ١٣٠٠ . قاد هذا النشاط الى ظهور قيم جديد . فظهر الادميرال لاول مرة في عام ١٢٩٩ ، عندما كان « فولك دو فييباريه » في منصبه ، والذي أصبح مقدما فيما بعد . يبدو انه في ذلك الحين كان عضـوا مهما في الدير ، على الرغم من ان القانون الذي رفعه الى مرتبة القيم الرهباني لم يصدر حتى العام التالي . وكانت لديه سلطات على كل السفن الشراعية والمراكب ذات الثلاث صواري والتي طلبت الاخوية بأن تكون مسلحة. فاستطاع ان يستأجر سفنا شراعية ورجالا تحت السلاح ، وبحارة ، وأمر الخزينـة لتدفع لهم أجورهم . وكان هؤلاء تحت امرته في الميناء وفي البحر ، لكن المارشال كان يمارس القيادة العليا اثناء وجوده في الاسطول ، بينما في حالة الترجل من السفينة كان آخر الفرسان هو الذي يقود الجنود . وكانت جميع التجهيزات تؤمن من قبل نائب المقدم . وأعطي الادميرال علاوة مقدارها خمسون مكيالا من النبيذ ومئة بيزنط اسلامي في العام ، مأخوذة من الغنائم المستولى عليها بواسطة اسطوله ، وكان هذا المبلغ يدفع من قبل الخزينة عندما تكون الغنائم قليلة .

كهنة الروح والجسد :

« مـرة ثانيـة ، نـؤدي قسما لا يستطيـع أحـد مـن النـاس ان يؤديـه ، وهـو الالتزام بأن نكـون خدما وعبيدا لاسيادنا المرضـى » .

وكان هذا القسم يؤدى من قبل المرشحين للعضوية ، ويعبر عـن الحقيقـة الاساسية وهي ان أخوية القديس يوحنا هي مؤسسة خيرية ، وسبب وجودها هو العناية بالحجيج الفقراء . كان ذلك واجبها الاول حتى نهاية القرن الثاني عشر ، وبقيت طوال تاريخها واحدة من مهماتها الرئيسية ، واليوم ، كما في العقود الاولى ، فان ذلك الواجب هو نشاطها الوحيد .

لقد رأينا ان روحانية الاسبتار القديم والافكار التي عبر عنها في قوانينه ، وبشكل خاص المتعلقة بسيادة المرضى ، قد مارست تأثيرا عميقا على المؤسسات الخيرية الاخرى ، وعلى جميع نزل « ديو » الفرنسيـة الرئيسية في القرن الثالث عشر ، وقد صور قانون « ريموند دويوي » فترة مـن تاريخ الاخوية عندما حكـم المقدم ـ خادم فقراء المسيـح ـ الاخوة القادمين لخدمتهـم نيابة عنهم ، وقد ظل المقدم محافظا على هذه الصيغة من العاطفة ، عـلى الرغم من ان تسمية المقدم كخادم للفقراء قد اختفت بعد فترة ادارة «روجر دو مولان»

للاخوية . فقد حملت الصدقات والهبات من اوروبا قبل ان يكون المرضى في الاسبتار وقبل ان توضع في الخزينة ، وكأنها أجساد الاخوة الموتى قبل أخذهم الى الدفن . اشتكى القيمون الرهبان في عام ١٢٩٦ بأن المقدمين يسرفون في انفاق الاموال « **في حين ان الواجب يقضي بأن تنفق لصالح سادتنا المرضى لمؤازرتهم ومؤازرة الفقراء** » .

كانت الاخوية تؤمن التكايا للحجيج في اوروبا وفي الشرق . وقبل عام ١١٨٧ كانت تعنى بالمرضى في عكا وفي نابلس - وفي اماكن اخرى على الارجح . لكنها علاوة على ذلك ، كانت تدعم اسبتارات كبيرة في مراكز حاكمياتها : في بيت المقدس حتى عام ١١٨٧ ، وفي عكا من عام ١١٩١ الى عام ١٢٩١ ، وفي ليماسول من عام ١٢٩٧ الى عام ١٣٠٩ وبعدئذ في رودوس . اقيم الاسبتار في بيت المقدس الى الجنوب من القبر المقدس . وقد زاره « جون اوف فورزبيرغ » «J. of Würzbwrg» في سبعينات القرن الثاني عشر وترك وصفا كاملا له . وعلم من اولئك الذين كانوا يخدمون في اقسامه انه وجد الفي عاجز من كلا الجنسين في التكية . كانت هناك حاجة للامكنة فيها بالرغم من انه كان يموت خمسون شخصا كل ليلة فيها ، وكانوا يستبدلون مباشرة بمرضى آخرين . واننا نعلم من دليل آخر ان الاسبتار كان مقسما الى أجنحة . واحد منها على الاقل مخصص للامراض النسائية . وكان يضم اربعة اطباء جراحين يقدمون المساعدة للمرضى ، ويساعدهم في كل جناح تسعة سرجندارية حيث انهم لم يعرفوا فيما اذا كانوا اخوة في الاخوية ام خدما مأجورين . ان عدد جلود الاغنام، التي صدرت في خصوصها قوانين عام ١١٨٢،وقضت بأن تؤمن الى الاسبتار في كل عام ، كانت تكفي الفي مريض . وفي تشرين الثاني من عام ١١٧٩ كان في الاسبتار تسعمائة مريض على الاقل ، وبعد بضعة أيام أخرى ، أدخل سبعمائة وخمسون جريحا بعد معركة تل الجزر . ان مصاريف هذه المؤسسة مع أنظمتها الشديدة الحرص وطقوسها الموسعة فيما يتعلق بالطعام والمنامة يجب ان تكون ضخمة ، لذا كانت ترسل حصة كبيرة من ثروات الاخوية لدعمها، وعلى الرغم من ان الاسبتار في عكا لم يبلغ شهرة نظيره في بيت المقدس ، فقد كان معروفا جيدا وموضع اعجاب في القرن الثالث عشر في اوروبا . وفي عام ١٢٩١ ومع سقوط عكا بأيدي المسلمين ، انتقل الاخوة الى قبرص وبدؤوا على الفور بانشاء اسبتار في ليماسول .

أهتم الاسبتارية كثيرا في القرن الثاني عشر بسن القوانين بخصوص تلك البيوت اذ سمح المقدم وهيئة الرهبان العامة باقامة اسبتار فيها . فقد أقر القانون بان يتم استلام المرضى واعطائهم القربان المقدس بعد اعترافهم بخطاياهم للكاهن . وبعدئذ يتم أخذهم الى اسرتهم ويعاملون بالمعاملة التي يستطيع النزل تقديمها . كما كان يتم اطعامهم كل يوم قبل ان يجلس الاخوة الى الطاولة الرهبانية . وفي كل يوم أحد يجب ان ترتل الرسالة والانجيل في الاسبتار وان يرش المكان بالماء المقدس . ويتوجب علـى الكاهن ان يذهب بالرداء الكهنوتي الابيض لزيارة المرضى ، حاملا بوقار القربان المقدس ومسبوقا بشماس او نائب شماس او على الاقل بقندلفت ، حاملا قنديلا مضاء ومرشة الماء المقدس . ويمكن ان نيدفن المريض في مقابر الاسبتارية ، وفيما بعد اقرت القوانين كيفية دفن الحجيج والمسيحيين الفقراء . فكانوا يمددون على نعوش ، وكانـت متماثلة طوال عيد النصرانية . ويتوجب ان يكون حول هؤلاء انوار ، وقضت قوابين عام ١١٨٢ بان تغطى هذه النعوش بعلم الاخوية بالطريقة نفسها وكان اولئك من الاخوة .

لقد رأينا أن البابا الكسندر الثالث كان قلقا لئلا تستبدل النشاطـات الخيرية بالواجبات العسكرية . فقد اهتمت قوانين عام ١١٨٢ كلية بالعنايـة بالمرضى والفقراء ، وربما صدرت لاسترضائه . فقد اعطت صورة شاملة عن تنظيم الاسبتار في اواخر القرن الثاني عشر . وقد توجب على الآمر في كـل تكية ، بان يقوم بخدمة الفقراء بقدر مايستطيع بدون تذمر . وقد استقبـل الاسبتار في القدس الرجال والنساء على السواء ، الذين يجب ان تكون أسرتهم كبيرة بما فيها الكفاية لتؤمن راحتهم . فكل واحد لديه غطاؤه وملاءته الخاصة ويتوجب على كل شخصين مريضين ان يتقاسما عباءة من الجلد وجزمة وقلنسوة صوفية يستخدمها احدهما عند قضاء حاجته . وكان يعمل في كل جنـاح او غرفة تسعة سرجندارية لاطعام وغسل المريض وتوزيـع الملاءات وترتيب الاسرة . كان من الواجب ان يتناول المرضى لحما طازجا ثلاثة أيام في الاسبوع، لحم خنزير ولحم ضأن ، وإذا لم يستطيعوا تناول ذلك ، فيتناولون الدجاج . وضعت اسرة صغيرة للاطفال المولودين للنساء الحاجات ، ووضع هؤلاء الاطفال بعيدين عن امهاتهم كي يلقوا العناية اللازمة . يوجد اربعة اطباء في الاسبتار ،

بيد انهم ليسوا بمسؤولين عن التشخيص فقط لكنهم يعملون كصيادلة ايضا . وقد ثبت ذلك الامر البابوي الرسمي في عامي ١١٨٤ و ١١٨٥ ، بل ذكر ايضا ان الاخوية كانت تستخدم اربعة جراحين .

حرص الاسبتار على تأمين أحتياجات المرضى من ممتلكاتهم . واصدر المقدم في عام ١١٧٦ مرسوما اثناء اجتماع هيئة الرهبان العامة يقضي بان يرسل انتاج مزرعتين في فلسطين الى الاسبتار في بيت المقدس لكي يزود المرضى بالخبز الابيض . واذا شحت الحنطة في هاتين المزرعتين فسوف توفر الخزينة المال لشرائها من مكان آخر ، واذا تلوثت بالاعشاب الضارة فيمكن الحصول على الذرة النظيفة من مخازن الاخوية . وخصصت هيئة الرهبان العامة في عام ١١٨٢ حصة من الهبات لاكثر الحاكميات والاديرة أهمية لتموين الفقراء في بيت المقدس . ويمكن ان نأخذ فكرة ما عن احتياجات الاسبتار المركزي من حجم هذه الالتزامات السنوية : مئة قطعة قماش لصنع الاغطية من فرنسا ومن سان جيل ، والفا ذراع قماش للغرض نفسه من انطاكية . والفا ذراع نسيج قطني من ايطاليا وبيزا والبندقية ، ومئتا لبادة من القسطنطينية ، وقنطاران من السكر لصنع الشراب والادوية الاخرى من قلعة صنجيل ومن طبرِيا . ولقد شهد القرن الثالث عشر انحطاطا مثيرا فيما يتعلق بهيئة الرهبان العامة ازاء الاسبتار . فكانت التزامات الاخوة الاخرى تشغل بالطبع جل اهتماماتهم ، وكانت منظمة الاسبتار في القرن الثاني عشر حتى ذلك الحين في تحسن بفضل الممارسة الغربية التي كانت بحاجة للقليل من الاصلاح . ومع ذلك فقد شغل الاسبتارية بين الفينة والاخرى بالامور الهامة الاساسية ، بينما طورت أعرافهم الطقوس الدينية . فقد توجب على الكهنة والكتبة بأن يأتوا الى الاسبتار كل ليلة بعد صلاة المساء ، وتوجب على كل واحد من الاخوة الذي تقع على عاتقه المسؤولية ان يتلو الصلاة من اجل المرضى .

من المثير ان نكتشف ماهو أثر منظمة الاسبتار . فلقد أشير الى أنه لم يكن هناك ترتيبات اوروبية معاصرة تعادل تلك الترتيبات الموسعة لعام ١١٨٢ ، في الواقع لم تظهر تلك الترتيبات في الاسبتارات الفرنسية الا في عام ١٢٢١ . ولقد ادركنا ولفترة طويلة انه سيكون مجديا كثيرا البحث عن التطابق بين بيزنطة والشرق ، وربما يكون هذا نموذجا عن اسبتار كبير انشيء بواسطة

الامبراطور « جون كومنينوس » «J. Comnenus» في القرن الثاني عشر في القسطنطينية . وضع الامبراطور في رعاية « الدير » ليس اسبتارا للرجال والنســاء فحسب ، بل أقام أيضا بيوتا للرجال المسنين والمصابين بالصرع والاولاد غير الشرعيين واليتامى والمجذومين . وكان هناك خمسون سريرا في الاسبتار نفسه ، مقسمة الى خمسة اجنحة ، واحد منها من أجل حــالات المعالجة الطبية والجراحية ، وواحد للنساء ، واثنان للحالات البسيطة . وقــد تضمنت هيئة الموظفين امرأة طبيبة . وكانت هناك حجرة عمليات جراحيــة وصيدلية للمرضى الخارجيين ومدرسة طبية لابناء الموظفين ، وشملت الانظمة تفاصيل حمية غذائية مدروسة بعناية والتي كان من الواجب تقديمها للمرضى. كانت المنظمة كلها تحت سلطة رئيس الدير الذي فوض عملا كثيرا الى واحد من الاخوة في جوقة مرتلي الكنيسة . هذا النموذج ، على أي حال ، ربما كان متأخرا الى حد ما . وانه من المحتمل الى حد بعيد ان تكون أخوية القديس يوحنا قد تأثرت بالطب العربي . فقد انشيء الاسبتار في بيت المقدس قبــل الحملة الصليبية الاولى ، في الاراضي الاسلامية ، واستمرت الولايات اللاتينية باستخدام أطباء من العرب واليونانيين والسوريين ، الذين وضــع الغربيــون ثقة كبيرة بهم ، حسب رأي المعاصرين . كانت هناك مدارس للطب في مدن انطاكية وطرابلس وبيت المقدس . واظهرت الانظمة الطبية لاخوية القديس يوحنا صلة حميمة خلال الممارسة مع مستشفيات عربية وأطبائها المقيمــين وصيدلياتها وأجنحتها لكلا الجنسين .

الاسبتاري

وقف الاسبتاري على رأس المنظمة الخيرية . وقد ظهر منصبه في عــام ١١٥٥ تقريبا، على الرغم من انه في البداية أطلق عليه عدد من الالقاب المختلفة. كان الاسبتاري قائدا للدير في عام ١١٧٠ . ورقي في القرن الثالث عشر حيث أصبح يرسل التقارير الى هيئة الرهبان العامة مباشرة بعد المارشال ، متنازلا عن كيس/دراهمه وخاتمه الذي رسم عليه في اواخر ذلك القرن بالشمع الاسود شكل رجل مريض مستلق على السرير يزود بالطعام بواسطة أخ . وسمح له في عام ١٣٠٢ بثلاثة أحصنة وتابعين وحاجب ووصيف . وقام بالاشراف على نشاطات الاخوية الخيرية في مملكة بيت المقدس وفيما بعد في قبرص ، ولهــذا



رجال دين من اللاتين والشرق

السبب تولى امر العناية بالارث المتروك بشكل خاص للمرضى . يبدو ان وكيل الصدقات ومأمور المشفى (اللذين ستذكر واجباتهما فيما بعد) كانا مرؤوسيه ، وكان يقوم بالاشراف على دائرته الاسبتار — وقد قسم موظفوه الى ثلاث مجموعات ، اولا ، كان هناك كاهن مقيم معين من قبل رئيس دير الرهبان ، الذي ربما بدأ الخدمة في اوائل عام ١٢٦٠ . وكان يساعده قندلفت . ثانيا ، يوجد أطباء وجراحون : أربعة من كل نوع في القرن الثاني عشر . من الواضح ان هؤلاء كانوا رجالا علمانيين ، لكنهم كانوا يتمتعون ببعض الامتيازات في الدير. وأخيرا ، كان هناك أولئك الاخوة الذين يقومون بالخدمة في الاسبتار في كل جناح . كان هؤلاء اما تحت سيطرة الاخوة في الخدمة او بدلاء عنهم . يظهر أنه كان هناك في اواخر القرن الثالث عشر تقريبا ضابط وسيط الذي اسند اليه الاسبتاري العديد من مسؤولياته يدعى « قهرمان » قصر الامراض « Seneschal of the Palais desMalades » . كان القهرمان اخا في الخدمة لكن الادلة تشير الى ان ذلك لم يكن اعتياديا . فقد ظهر في اوائل ذلك القرن أخ في الخدمة يدعى وكيل الدير « Procureur » وقد لوحظ انه هو ايضا كان مرؤوسا للاسبتاري .



قلعة الرقب

اثنى الرحالة « جون فور زبيرغ » في سبعينات القرن الثاني عشر على منح الاخوية للصدقات . فقد عززت هذه الشهادة بواسطة الدستور والقوانين. كانت تلك النشاطات بأيدي أخ يدعى وكيل الصدقات « **Almoner** » الذي كان في الخدمة عام ١١٧٧، وكان يقوم بمعاونته اخوة مساعدون يسمون بمأموري الصدقات « **Elemosinarii** » . وشملت وظيفته دائرتين : في الاولى ، يقوم سرجندارية باصلاح الملابس قبل ان تعطى للفقراء . وفي الثانية ، يوجد أخ حذاء ، يساعده ثلاثة سرجندارية يصلحون الاحذية العتيقة للغرض نفسه . يبدو ان التباسا في عام ١٢٠٦ تقريبا قد حصل حول ما اذا كانت وظيفة وكيل الصدقات مستقلة . ويبدو انه لم يظهر ثانية ، ومن المحتمل ان الاسبتاري نفسه قد اضطلع بواجباته .

ان الاسبتار المخصص للفقراء المرضى ، والمشفى المخصص للاخوة المرضى، كانا مؤسستين منفصلتين . كان المشفى تحت مسؤولية أخ في المشفى او مأمور المشفى . ومن المفروض بأن الاسبتاري ومأمور المشفى كانا الشخص نفسه ، لكن ربما ظهرا كشاهدين لنفس الوثيقة ، بينما لا يمكن ايجاد اي اسبتاري يحمل لقب مأمور المشفى . في نفس الوقت لم يكن مأمور المشفى في القرن الثالث عشر موظفا رفيعا . فقد صنف مع الاخوة في الوظيفة وكان أقل أهمية من تابع المقدم ، يبدو انه كان أخا سرجنداريا مرؤوسا للاسبتاري . وكانت مسؤولياته، على أية حال، كبيرة وتوجد بعض الادلة على ان منصبه قد تطور فيما بعد.

يجب ان يكون هناك شخص ما تولى العناية بالاخوة المرضى منذ البداية ، لكن مأمور المشفى لم يظهر حتى عام ١٢٣٥ . وكانت واجباته كثيرة وكان له خاتمه الخاص . وكان مسؤولا عن العناية واطعام الاخوة المرضى وعليه ان يؤمن لهم الاطباء . يظهر ان هؤلاء قد استخدموا في القرن الرابع عشر بشكل منفصل عن اولئك الذين في الاسبتار ، وفي عام ١٣٠٠ اقسموا يمينا بالولاء للاخوية بحضور مأمور المشفى وسبعة اخوة ممثلي المقاطعات . وقد أقرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ ان على مأمور المشفى ان يزور المرضى كل ليلة بعد صلاة المساء ، ومرة ثانية بعد صلاة الصباح ، ويتوجب عليه ان يرافق الاطباء في جولاتهم كل صباح ومساء . كان يمارس السلطة على الاخوة في

مساكن المرضى . وكان يقوم بختم امتعة اولئك الذين يلاقون حتفهم ويساعده في ذلك تابع المقدم وأخ يدعى مأمور الموتى « Parmentarie » ، وهم يمثلون الاقسام ذات الاهتمام بهذا الشأن . ولقد استعمل خاتم المشفى ، ولا يمكن ازالة الختم عن الامتعة الا بحضور ثلاثة موظفين . فقد خول مأمور المشفى بالمطالبة بدثار الفراش وملاءتين ووسادة وفراش موروثة من كل أخ ميت . لكنه في عام ١٣٠٣ خسر الدعوى في جلسة الاخوة ضد الجواخ ، الذي طالب بأغطية الفراش لاعضاء الجماعة الدينية ماتوا في المشفى ، وكان قادرا على البرهان بأن هذا الحق قد تمتع به اسلافه من قبله . على أي حال ، كررت هيئة الرهبان العامة في العام التالي بان مأمور المشفى مخول بأخذ أغطية الفراش للقيمين الاكليركيين والاخوة الرهبان . كان لديه واجب طقسي لتسليم المقدم التقدمة المصنوعة بأيدي الاخوة في القداس المكرس لراحة نفوس المرضى . ويبدو انه هو نفسه مسؤول عن مصاريف الدفن لاعضاء الجماعات الدينية الذين ماتوا في المشفى . لقد اقرت هيئة الرهبان العامة في عام ١٣٠٣ ان عليه ان يقدم حسابات شهرية لمصاريفه وموجوداته ، واصدرت مرسوما في عام ١٣٠٤ يقضي انه يتوجب عليه تقديم حسابات لهيئة الرهبان العامة عن كمية أغطية الفراش في مقاطعته ، والاضافات التي قد قام بها عاما بعد عام . يظهر ان هذا القانون صدر ليزيل عنه المسؤولية قبل الاسبتاري جاعلا اياه مسؤولا تجاه هيئة الرهبان العامة .

الرئيس الرهباني :

لم يكن الرئيس الرهباني ، الذي عرف لاول مرة برئيس الدير ، والسيد او القيم على الكنيسة ورئيس رجال الدين ، قيما اكليركيا لانه ليس مسؤولا او منتخبا من قبل هيئة الرهبان العامة . ولا يبدو انه اعتبر قيما رهبانيا ، على الرغم من انه كان يتمتع بامتيازات مشابهة . ومن المحتمل انه قد عين مدى الحياة من قبل روما بناء على نصيحة من المقدم . كان بالتأكيد في هذا المنصب قبل عام ١١٥٣ ، وعرف لاول مرة اسميا في عام ١١٦٣ . وقد حددت هيئة الرهبان العامة واجباته في عام ١١٨٢ . كان مسؤولا عن كنائس الاخوية وتجهيزاتها وكهنتها . لهذا كانت سلطته واسعة ، بالرغم من وجود نظام للرؤساء

الاسقفيين لقيادة الكتبة في حاكميات عسكرية صغيرة تماما ، بينما اظهر وجود رؤساء اديرة قلعة الحصن وقلعة صنجيل وقلعة المرقب انه قد مارس سلطته المباشرة في مملكة بيت المقدس فقط ، وفيما بعد في قبرص . يبدو ان الرئيس الرهباني كان يوجه كل الكهنة في الاخوية بشكل غير مباشر . وكانت حقوقه على الكتبة مثل حقوق الاسقف ، فلا يمكن ان يتقدم اي مرشح للسيامة بدون حضوره . عرف مقر الاخوية الرئيسي في اواخر القرن الثالث عشر «بالابرشية»، وقد وجدنا ان كهنة الاسبتار قد امتلكوا سلطانهم القضائي الخاص ، وان الرئيس الرهباني مارس سلطات كثيرة في ادارة هذا العدل .

شغلت واجباته الرئيسية الدير المركزي حيث كان يشفي الارواح . وتقاسم مع القساوسة الاخرين واجبات كاهن الاخوية ، فيتلو القداس الصباحي يوم الاحد ويتلو الصلاة الرهبانية في هيئة الرهبان . وقد رأينا ان الكهنة في الشرق في ذلك الحين كانوا تحت امرته ، واقر في عام ١٣٠١ ان كل الكهنة الاخوة الذين جاؤوا الى قبرص ، ما عدا قساوسة المقدم ، كانوا تحت سلطته المباشرة. كان مسؤولا عن حالة الكنيسة الام باعتبارها في كل مكان المركز الرئيسي للاسبتار . كانت الكنيسة الام ترث ثوب الكاهن الذهبي ، والاغطية والحلي العائدة للقيمين الاكليركيين والاخوة وطيلساناتهم من القماش الذهبي والحرير . يبدو ان ملابسهم الفخمة قد اتلفت بسقوط عكا ، وأصدر في عام ١٢٩٤ مرسوما يقضي بان القيمين الاكليركيين المدعوين للاجتماع يجب ان يجلبوا معهم حلية له من الغرب . أن لدى الرئيس الرهباني سلطات هامة الى جانب سلطاته الاكليركية بكل معنى الكلمة . فقد عهد اليه بمفاتيح الاخوة في الخدمة الذين كانوا مرضى ، واذا مات هؤلاء يتوجب عليه ان يسلم مفاتيحهم الى رؤسائهم . واذا كان المقدم والقيمون الرهبانيون الآخرون غائبين ، باستطاعته ان يوزع علاوات صغيرة للدير ، ويمارس الرحمة فيمايتعلق بالعقوبات . وربما قد عرف برئيس دير كنيسة الاصحاء ، والذي كان ملزما ان يأتي الى اجتماعات المارشال ، تلك الكنيسة التي اعتبرت كمؤسسة للنزل الرهبانية . فوق كل ذلك ، كان بحكم منصبه عضوا في لجنة هيئة الرهبان العامة التي تسن القوانين للاخوية وتعين القيمين الرهبانيين . ومن المالوف في هذه اللجنة ان تلتمس مشورته اولا.

الفصل الحادي عشر

الادارة الاقليمية

كانت ممتلكات الاسبتار المتناثرة في العالم المسيحي تقسم الى مجموعتين اولا : آمريات قلاع وحاكميات سورية وقبرص التي كان يتولى ادارتها قيمون اكليركيون . وسنعرض لهؤلاء في فصل لاحق . ثانيا : اديرة الرهبان وآمريات القلاع والحاكميات الاكليركية الاوروبية ، التي يديرها قيمون اكليركيون كانوا يتمتعون بادارة ذاتية اكبر مما كان يتمتع بها زملاؤهم في الشرق . ان تاريخ تطور هذه الاقاليم تاريخ مربك ، وذلك لعدم توفر المعلومات الكاملة في الوثائق التي في حوزتنا من جهة ، ولان الاسبتارية قد تجنبوا التسلسل الواضح للالقاب الرسمية من جهة ثانية ، فلقب رئيس الدير كان يشمل الموظفين الكنسيين،وفي الوقت نفسه استخدم ايضا من قبل الحكام المحليين ، ومن قبل وكلاء القيمين الاكليركيين ومن قبل القيمين الاكليركيين انفسهم . وكان يطلق اسم حاكم او معلم على مديري الاديرة الصغيرة ، كما يطلق عليهم أسم رئيس الدير او المقدم او المعلم . وكان القيمون الاكليركيون يلقبون باسم رؤساء الدير ، كما كانوا يلقبون بأسم آمري القلاع او الحكام . وخلاصة القول ان لقب « قيم » كان يطلق دونما تمييز على كل من يقوم بعمل رسمي .

كانت الممتلكات المسيحية في الغرب تقسم الى حاكميات تشكل كل واحدة منها وحدة متكاملة : وكانت كل وحدة تضم قرية ، وتكية ، ومساحات من الاراضي المتجاورة . وقد عاش في اديرة هذه المقاطعات عدد غير محدود من الاخوة ، وكانت لهم كنيسة ويتولى ادارتهم حاكم . وقد جمعت هذه الوحدات في اديرة ، وقلاع وحاكميات اكليركية ، وكانت تختلف فيما بينها بالنسبة لحجمها

وثروتها ، وكان يديرها رئيس الدير او آمر القلعة او حاكم المقاطعة ، الذين كانوا يتمتعون ببعض السلطات الادارية على الآمرين الادنى منهم وذلك لكونهم معينين من قبل هيئة للرهبان العامة في الاخوية وهم مسؤولون امام هذه الهيئة . ليس هذا فحسب ، بل ان الاديرة ومناطق النفوذ الاكليركية جمعت في وحدات كبيرة اطلق عليها اسم المقاطعات الكبيرة . والى جانب هذا التنظيم من اديرة ومقاطعات كبيرة ، قسمت الاقاليم الاوروبية ، في القرن الثالث عشر ، الى قطاعات ، وقد ارتبط هذا التطور بمقتضيات تمثيل هذه الاديرة في الاقاليم، وربما ارتبط ايضا بدفع الهبات والصدقات .

وضعت اسس نظام الاقاليم هذا في اوائل القرن الثاني عشر . وصادق الامر البابوي « Pie Postulatio Voluntatis » لعام ١١١٣ على ممتلكات الاسبتار في آسيا وأوروبا ، وبخاصة تكايا معينة في ايطاليا وفرنسا ، ووافق على تبعيتها لادارة المقدم المركزية في بيت المقدس . وقد كشف دستور ما قبل عام ١١٥٣ البنية المتطورة لما اسماه « بالرهبنة المطيعة » ، وربما ان هذه جاءت تقليدا للرهبنة البنديكتية . ونرى انه كانت هناك بعض الاديرة والاسبتارات المتفرقة لها ، كما كانوا مسؤولين امام المقدم في بيت المقدس . ونص النظام على ان تقدم الرهبنة المطيعة ثلث محصول ممتلكاتها الى الادارة المركزية . وقد وطد الامر البابوي و « النظام » المبادىء الاربعة التي تطورت بعد قرن ونصف فيما بعد ، وهذه المبادىء هي : الحياة المشتركة بين جميع الأخوة اينما وجدوا ، والدعم المالي المقدم من الاقاليم الى دير الرهبان المركزي في الشرق ، وسلطات الموظفين وعلاقتهم بالمقدم وهيئة الرهبان العامة .

تقاسم الموظفون على اختلاف مراتبهم امتيازات وحقوق قضائية ، وكان عليهم لقاء ذلك واجبات مشتركة . وقد شبه « ويليام اوف سان ستيفانو » سلطة هؤلاء الموظفين بالقانون الذي يسبغ على العقد شرعيته وفاعليته . من هنا كان على الاخوة الراغبين في استبدال دروعهم او جيادهم الحصول على موافقتهم وعلى مصادقة القيم . وكانت هذه الموافقة تمثل للاخوة القانون المطبق على العامة . خضع القيمون لهيئة الرهبان ولقوانين الاخوية ، وتطبق عليهم

العقوبات ذاتها التي كانت تطبق على مرؤوسيهم . أشرف هؤلاء على صيانة الكنائس التابعة لمناطق نفوذهم ، مثلما كانوا يشرفون على اداء الطقوس الدينية في الاديرة التابعة لهم ، هذا بالاضافة الى مسؤوليتهم عن قساوسة الابرشيات التي تقع تحت رعايتهم ، كما كانت عليهم ادارة الاسبتار وفق افضل سبل الادارة . وكان على الاخوة اطاعة الموظفين الذين يحق لهم فرض العقوبات المناسبة على العصاة . اما ما يتعلق بالمسائل الهامة فكان يخضع لقرارات هيئة الرهبان . ومع انهم كانوا يمثلون السلطة القضائية في ممتلكاتهم ، نجد ان الحكم بالاعدام لم يكن ضمن صلاحياتهم . بينما نرى ان المقاطعات التي نعم فيها الاسبتارية بمؤسسات قضائية رفيعة ، قد استفاذت من المحاكم وهيئات المحلفين في الفصل في احكام الاعدام . وكان على هؤلاء الموظفين استضافة الاخوة المسافرين الذين يقومون بزيارة الاديرة ، كما كانوا يستقبلون الاخوة الفرسان واعضاء الجمعيات الدينية قبل عام ١٢٩٢ . كان يحق لهؤلاء الموظفين استلام رسم تحرير العبيد الذي كان يعادل ثمن اثنين او ثلاثة عبيد ، هذا في الوقت الذي لم يمتلكوا فيه صلاحية التخلي عن العبيد ، او بيعهم الا اذا كانوا مرضى او طاعنين في السن . اما عمادة العبيد فقد كانت مرهونة بموافقة المقدم . عندما يستدعى هؤلاء الموظفون الى الشرق كانوا يحملون المؤن لتقديمها الى دير الرهبان في سورية ، ولدى ذهابهم الى اجتماع الكنيسة او الدير او الاخوية العامة ، عليهم تأمين كل ما تحتاجه اقاليمهم من النبيذ والقمح والشعير حتى يوم راس السنة ، وكانوا يفقدون هذه المؤن اذا ما صدر الامر بوضعها في الحجر الصحي . واخيرا ينبغي على من يحمل خاتما ان يسلمه عند اقتراب اجله الى بعض الاخوة في الدير ويسلمه هؤلاء بدورهم الى هيئة رهبان الدير التابعين له .

بعد هذا كله ، كان على القيمين ان يساهموا في دعم الاخوية ، فالاقاليم قد أسست منذ البداية لحماية دير الرهبان في الشرق ، ولا يدهشنا ان نجد في أيامنا هذه عددا كبيرا من القوانين والوثائق المتعلقة بدفع الاستحقاقات . فقد بلغت الضريبة الاساسية التي فرضتها الادارة المركزية على كل حاكمية ثلث انتاجها . اقرت هذه الضرائب التي سميت بالصدقات والهبات بموجب النظام الذي كانت تطاله بعض التعديلات بين الحين والآخر . في عام ١١٨٢ طلب الى

بعض الاديرة ان تبعث بسلع معينة الى بيت المقدس كجزء من الهبات والصدقات المترتبة عليها . ليس هذا فحسب ، بل كانت تضاف اليها أحيانا رسوم أخرى مثل ريع الصدقات والهبات التي يدفعها المؤمنون ، وارباح الكنيسة الاكليركية ، ورسوم وراثة الممتلكات الخاصة العائدة لرؤساء الاديرة ، وكذلك مرور القيمين المقالين وضرائب الاقطاعيات التي تجبى لقاء خدمات وممتلكات معينة ، وكانت هذه الضرائب تختلف بين دير وآخر ، اضف الى هذه الضرائب جميعها بعض الضرائب التعسفية .

كان حكام الادير يؤدون الهبات والصدقات للجماعة السنوية في الاقليم . وكان القيمون الاكليركيون ينقلونها الى الشرق . قدرت السجلات السورية الهبات والصدقات على أساس القطاعات وليس على أساس الاديرة . وقد وصفت رسالة حررت عام ١٢٨٦ تتعلق بمجموعها بالهبات والصدقات التي جبيت من سبع من مناطق القطاعات الاخرى . وقالت الرسالة ان هذه الهبات والصدقات كانت تجبى عبر البحار مرة بواسطة الرهبان ومرة بواسطة التجار واخرى بواسطة العامة . وكانت تصل الى مبالغ كبيرة ، فقد قدرت هبات وصدقات انكلترا وايرلندا بمبلغ خمسة الاف مارك فضي ، ولا شك ان انتاج الآمريات كان يفوق ماكانت تطلبه الادارة المركزية ، وهذا مادعا « فولك دو فيياريه » عام ١٣١٠ الى ان يعتزم فرض ضريبة استثنائية على هذه الحاكميات لمدة خمس سنوات قدر لها ان تجمع عشرين الف فلورين ذهبي في كل سنة .

كان التهرب من دفع الاستحقاقات يحدث بين وقت وآخر . فقد اتاح تطور اشكال الحاكميات المختلفة فرص التهرب من دفع الضرائب ، ومما ساعد على هذه الاغراءات ايلولة بعض الحاكميات الى ملكية خاصة للرهبان ، وحثت هيئة الرهبان لعام ١٢٦٢ جميع القيمين لاقامة الهبات والصدقات في أديرتهم ، وذلك بهدف ضمها الى عائدات مناطق نفوذهم لارسالها الى الشرق . واصدرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٨٨ قانونا يجيز للرؤساء الاستيلاء على أجور وبضائع وممتلكات حكام المقاطعات ذات الامتياز ، اذا حدث وامتنعوا عن تأدية الهبات والصدقات دون تقديم الاسباب الموجبة التي اضطرتهم الى عدم الدفع . وفي الوقت ذاته هدد ارتفاع نسبة الضرائب بانخفاض الهبات والصدقات

فتفادت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٥ وقوع الضرر باصدار قانون يمنع رؤساء الاديرة من ان يفرضوا الضرائب على اقاليم قبل ان تدفع كامل الهبات والصدقات . وبعدئذ لهم فرض الضرائب بالنسبة التي يرون . وفي عام ١٢٩٦ أخذ قيمو الاديرة برفع احتجاجاتهم وامتعاضهم من ان المقدمين الجدد يرهقونهم بطلب المساعدات الباهظة ، مما دفع بالموظفين الى التلاعب بمتاع وخيرات الاخوية كي يتمكنوا من دفع هذه المساعدات . وبالطبع فقد انعكس ذلك انعكاسا سلبيا على الهبات والصدقات .

اضف الى ما سلف ان الازمات الاقتصادية والاضطرابات السياسية في الغرب قد لعبت دورا ليس باليسير في الحد من كمية الهبات والصدقات . قال « هيو ريفل » في رسالة يائسة استعرض فيها الاحوال السائدة عام ١٢٢٨، انه لم يصله من اسبانيا غير بضعة جياد ، وقال ان الاسبتارية في ايطاليا يقدمون معوناتهم « لتشارلز دوق انجو » وان الدمار قد حاق بكل ممتلكاتهم، هذا في حين أن رئيس دير فرنسا حول تلك الهبات والصدقات ليسدد بها ديونه الخاصة . اما في انكلترا فقد أدت الفوضى التي تمخضت عنها الحرب الاهلية التي دارت رحاها بين هنري الثالث والبارونية الى تقليص العائدات ولم يكن للاسبتارية اثر يذكر خيال هذه الاحداث ، كما لم يكن باستطاعتهم وضع حد للاعمال الاستبدادية التي اقترفها حكام اوروبا . طالب البابا عام ١٢٩١ بنصف الهبات والصدقات بالاضافة الى معونات مادية اخرى كي يستطيع شراء بعض السفن ، وفي عام ١٢٩٥ صادرت الحكومتان البريطانية والبرتغالية الهبات والصدقات المستحقة على رؤساء الاديرة الواقعة تحت سلطتيهما . في مطلع القرن الرابع عشر اخذ اهتمام الاخوية باستحقاقاتها الخاصة من المقاطعات يزداد ، اذ اصدرت الهيئة العامة للرهبان قانونا عام ١٣٠٠ يحظر على الاخوة وضع اليد على الهبات والصدقات الا في حال صدور أمر محدد من المقدم . كما اصدرت في عام ١٣٠١ امرا وجهته الى رؤساء الاديرة في المانيا بوقف انشاء المباني الجديدة وطلبت اليهم دفع الهبات والصدقات ، وذكّرتهم بأن الاخوية تعاني من الفقر الشديد . وقد أمر رؤساء الاديرة والحكام الاكليركيون بارسال كامل الهبات والصدقات الى قبرص ، كما

اتخذ قرار باقالة من لا يدفع وان يتوجه الى ليماسبول في الرحلة التالية . ولكن ذلك الامر لم يتابع ولم يسر مفعوله والغي بعد عام فقط ، وصدر أمر جديد يطلب الى رؤساء الاديرة الذين يتأخرون عن دفع ديونهم ان يبينوا خطيا الاسباب التي تمنعهم من الدفع ، وان تمهر هذه الكتب وتكفل من قبل سبعة اخوة من جماعة الدير الذين يلزمهم يمين الاذعان بقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة . وقد ادعى « فولك دو فيياريه » عام ١٣٠٦ ان التضخم المالي والفوضى السياسية كانا من الاسباب التي أدت الى التقاعس عن دفع الهبات والصدقات .

تظهر المحاولات والجهود المستمرة التي بذلتها هيئة الرهبان العامة الشأن الكبير الذي كان للهبات والصدقات . ففي القرن الثالث عشر حظر رهن او اعارة او تحويل ملكية الاراضي دون موافقة جماعة الدير ومصادقة هيئة الرهبان العامة ، وليس من حق أحد من الاخوة ان يتنازل او ان يشتري او يبيع شيئا الا بعد موافقة رئيسه ، كما لايجوز التنازل عن البيوت الدينية عن طريق الهبة لغير المتدينين قبل الحصول على ترخيص من الادارة المركزية . اقرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٧٨ اصدار الخاتم البابوي لتمهر به كافة صكوك الهبات والمبيعات والمقايضات والاتفاقات . لم يكن تحويل الملكيات وحدة مثار قلق هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ ، بل ان مسألة الاجور كان لها نصيبها . كان القرن الثالث عشر قرنا تميز بالتضخم المالي ، اذ كانت الاجور التي يحصل عليها الاقطاعيون ذات قيمة متدنية عمليا . ووجدت هيئة الرهبان ان الممتلكات كانت تؤجر لقاء مبالغ واجور قليلة ولهذا اكدت على عدم تأجير الممتلكات ، الا اذا كان الاحتفاظ بها دون تأجير لا يعطي فائدة ترجى . وبهذه الحال فقد وجب تأجير هذه الممتلكات لقاء أكبر مبلغ ممكن . وأصبح على حكام المقاطعات الا يفرضوا على العائدات غرامات تفوق اجور سنة واحدة . كررت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠٣ هذا القانون . وكان قد صدر قبل عشر سنوات من تاريخه مرسوم يقضي بأن تدفع ديون حكام المقاطعات المتوفين من املاكهم المنقولة فقط . وقد استمرت محاولات استرجاع الاراضي والبيوت برغم الخوف الذي ساورهم من ان هذه الاجراءات ستلحق الاذى بالاخوية ، وستدفع الاخوة

الى التخلي عنها . أعلن عام ١٢٨٣ بطلان جميع الاجور والهبات ورسوم تحرير العبيد التي يجريها امناء الصناديق في الشرق حتى يصادق عليها المقدم ، وينطبق ذلك على أجور الاراضي أيضا برغم الجهود الجادة التي بذلتها البابوية لصالح الاسبتار ، حيث عملت على تنظيم ممتلكاته ومنعت تحويل ملكية الاراضي و رهنها دون « تفويض رسمي » من رؤساء الاديرة . وبرغم كل هذه الجهود لم تكن القوانين والاوامر البابوية نافذة المفعول . وفي نهاية عام ١٣٠٤ اصدرت هيئة الرهبان العامة مرسوما يقضي بالا يسدد حكام المقاطعات القروض المترتبة على املاك اسلافهم مباشرة ، بل عليهم التريث حتى انتهاء المدة المقررة ضمن شروط كل قرض .

كانت الحاكمية هي الوحدة الاساسية في الادارة الاسبتارية . وكانت تؤسس حالما تتوفر الاراضي التي تكفي تشكيل مؤسسة نظامية تستحق ما يبذل في سبيلها من عناء وجهد . وللعلم فقد اختلفت مساحات رقعة هذه الحاكميات وحجومها ، ومع ذلك فقد كانت المناطق الادارية في اقاصي اوروبا تتبع مناطق الابرشية التي تقع عليها الاخوية المركزية . وكانت تدار كوحدة اقتصادية تدين بدفع الهبات والصدقات وبغيرها من الخدمات العامة ، ويديرها قيم يأتمر بامرته عدد من الاخوة . وهكذا لم تكن الحاكمية مجرد وحدة من الاراضي فحسب ، بل كانت تمثل وحدة اذارية يعيش فيها موظف واخوة لهم وعليهم حقوق وواجبات لا تختلف عما تمتع به الاسبتارية الذين ادوا خدماتهم في الاديرة الادارية والخاصة بالرهبان ، كما كان الحاكم ، ممثلا للادارة المركزية يعقد الاجتماعات الاسبوعية لاخوته شأنه في ذلك شأن رئيس الدير او المقدم . وفي حين ان البابا كان يعتقد انه في عام ١٢٨٨ كان يعيش في البيوت الكبرى ما لا يقل عن عشرين من الاخوة ، تظهر مصادرنا ان الحاكميات لم تحتضن اكثر من هذا العدد ، بينما وصل احيانا الى ثلاثة اخوة او اقل . عرف بعض الفرسان الاخوة كمستوطنين بينما كان معظم الاخوة يعملون سرجندارية في الخدمة وهؤلاء جميعهم ، على كل حال ، اكليركيون ، وهذا ما كان يميز اخوتهم عن دير الرهبان المركزي . تقلد هؤلاء الاخوة الوظائف التي كيف بعضها وفق ما يتلاءم مع الظروف المحلية ، ومع ذلك نجد في اديرة صغيرة رؤساء الكنيسة والاسبتارية

ومأموري المشافي ووكلاء الصدقات كما كان يتبعها مجموعة من الخدم والحجاب الذين تمتعوا ببعض الصدقات .

كان آمر الحاكمية يعين عادة من قبل رئيس الدير ، وفي القرن الرابع عشر كان يفترض ان يكون فارسا واخا في السلاح ، ولكننا نجد ان قساوسة وسرجندارية قد اداروا بعض الحاكميات . اصدرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠٤ مرسوما ربطت فيه شروط منح مناطق النفوذ للاخوة بانقضاء ثلاث سنوات على خدمتهم في الاخوية ، ومرور خمس سنوات على رهبنتهم ليحق لهم تسلم قيادة القلعة . بدأت تتبلور في هذه الفترة بوضوح واجبات ومهام آمري الحاكميات وحددت في صكوك منح الحاكميات ذات الامتياز ، وليس لدينا ما يدفعنا للاعتقاد بأن مهام وواجبات هذه الحاكميات كانت تختلف عنها في الحاكميات العادية او انها لم تدم لفترات طويلة . كان كل آمر حاكمية يبذل قصارى جهده في ادارة حاكميته ، كما كان مسؤولا قضائيا امام رئيس الدير الذي يتسلم منه الهبات والصدقات وغيرها من خدمات عامة في الاقليم ، وكان آمر الحاكمية يشارك في جماعة الدير السنوية . وعليه استقبال رئيسه ومرافقيه استقبالا لائقا عند قيامه بزياراته التفتيشية . ولكن ليس لرئيس الدير ان يفرض على آمر الحاكمية استقبال الاخوة والاخوات والخدم وافراد حاشيته ، وليس له ان يفرض عليه مبالغ اضافية غير الخدمات العادية او ان يتدخل في خصوصيات ملكيته للحاكمية دون موافقة المقدم .

أدت تطورات اربعة حدثت في القرن الثالث عشر الى تعقيد النظام الاقليمي . لقد سمح للاخوة بادارة الحاكميات جماعيا ، وتطور نظام الحاكميات ذات الامتياز ، ومنحت البيوت للعامة يتمتعون بها مدى الحياة ، واصبحت بعض الحاكميات تدار غيابيا .

لم يسمح في البداية لاحد الاخوة ان يتولى اكثر من منطقة نفوذ واحدة . وخرق هذا النظام في القرن الثالث عشر حيث قررت هيئة الرهبان العامة الرهبان لعام ١٢٧٠ منح منطقتي نفوذ للاخ اذا كان ذلك في صالح النفع العام .

كانت الادارة المركزية ، وليس رؤساء الاديرة بمفردهم ، تمنح مباشرة

الحاكميات ذات الامتياز للاخوة الذين يشغلونها اما لمدى الحياة واما لمدد معينة ، ويرجع تاريخ منح اول حاكمية ذات امتياز لعام ١٢٦٢ ، وفي عام ١٢٧٨ تقرر ان يصادق على منح هذه الحاكميات او على قرارات الغائها بخاتم دير الرهبان . وفي ثمانينات القرن الثالث عشر اصبح المقدم وقيمو الاديرة يقدمون هذه الحاكميات ذات الامتياز كمكافآت لبعض الاخوة وخولت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠١ الحاكم الاكبر في المانيا منح الحاكميات للاخوة لمدى الحياة ، اذا وجد أن هذا السبيل الاجدى للمحافظة على الاخوة والمقاطعات معا . لا شك ان هذا الاجراء كان وليد الظروف الخاصة التي سادت في المانيا ، وترسخت ادارة دير الرهبان المركزي المباشرة لهذه الممتلكات عام ١٣٠٢ . كانت الحاكمية ذات الامتياز توجب لمن كان جديرا بها من الاخوة ، ولا تجوز اقالته الا من قبل ادارة الاخوية . واذا اتهم بجرم ما كان يستدعى الى المشرق ، وله حق أرسال ايضاحات مفصلة ينظر فيها في اجتماع المقدم وهيئة رهبان الدير ويقررون مايجب عمله في مثل هذه الظروف، ولهذا السبب كانت الحاكميات ذات الامتياز في بعض الاحيان تعفى من سلطة رؤساء الاديرة القضائية . وفي اوائل القرن الرابع عشر تم منح بعض مناطق النفوذ التي لم تخضع لرئيس الدير الا في نطاق محدود جدا ، فهو لا يستطيع طرد الاخوة من حاكمياتهم ذات الامتياز الا بادانتهم ولا بحكمهم بالحجر الصحي او العقوبة السباعية . كانت الحاكميات ذات الامتياز تمنح في اجتماعات هيئة الرهبان العامة ، ونلاحظ هنا تصاعد الحاح لوردات العامة ومطالبتهم بمصالحهم، الامر الذي ادى الى ان يتخذ قانون يمنع دراسة رسائل اللوردات قبل انتهاء الهيئة العامة من جدول اعمالها . كانت مناطق النفوذ تسلم لاصحابها الجدد في اجتماع يعقده رؤساء الاديرة بعد صدور قرارات المنح . ولقد تم التأكيد على ان يحافظ آمر الحاكمية على منطقة نفوذه ويبقيها في حالة جيدة كما تسلمها .

ثمة طريقة اخرى للحصول على الحاكمية ذات الامتياز ، جاء في احد القوانين انه اذا اشترى آمر حاكمية ما اراض جديدة باسم حاكميته يستطيع ان ينتفع منها شخصيا مدى الحياة . وقد استفاد من هذا القانون احد الاخوة،

عندما اشترى مزرعة قريبة من قلعة المرقب ما بين عامي ١١٧٨ و ١١٨١ . في فرنسا احتفظ آمر احدى الحاكميات بنزل كملك شخصي له عام ١١٩٠ . أما الرئيس الاكليركي لدير انكلترا وآمر حاكمية « مانوسك » « Manosque » « وآيكبس » « Aix » في جنوب فرنسا ، فقد تمتعا بثمار ما حققاه في مصلحة مناطق نفوذهما . ولا مندوحة من القول بأن الاحتفاظ بالحاكميات ذات الامتياز كان يتوقف على مصادفة المقدم وهيئة الرهبان العامة في الدير . وقد جعلت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٨٨ الاقالة او الطرد من الوظيفة محصورا في الادارة المركزية ، وذلك عندما اسبغت على مصادقة المقدم وهيئة الرهبان الصفة القانونية . وهنا ايضا ، ليس لرئيس الدير ان يفرض الحجر على آمر الحاكمية عند اقترافه لخطأ ما ، انما عليه ان يرفع ذلك الى المقدم ، على كل حال كان على المستفيد من الحاكميات ذات الامتياز ان يدفع الهبات والصدقات ، اما اذا امتنع فيحق لرئيس الدير مصادرة ممتلكاته ليسدد بها هذه الهبات والصدقات. اما عند وفاة آمر الحاكمية تعود ملكية مناطق نفوذه الى دير الرهبان الذي يقيم رئيسه عليها بعض الهبات والصدقات . وقد صدر عام ١٢٩٥ مرسوم يحرم تحويل ملكية هذه الممتلكات مدينة كانت أم معفاة من الضرائب ، ويمنع الحاقها بأملاك أي كان من اللوردات دون اذن مسبق .

في ذلك الوقت ازدادت عملية منح الحاكميات للعامة وقد اناطت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ هذه المنح بموافقة المقدم وهيئة الرهبان العامة ، وجاء في احدى وثائق عام ١٢٦٣ ان بعض مناطق النفوذ قد منحت لغير المتدينين. والى جانب هذا نجد ان « فولك دو فيياريه » قد عين في عام ١٣٠٨ ، متصرفا بسلطة ذيره ، بيوتا لاثنين من الفرسان ولكاهنين ولاحد ممثلي المدينة . اما ظروف الابقاء على هذه الممتلكات فقد اختلفت عن تلك التي تخص أصحاب الحاكميات ذات الامتياز. اذ أنهم جميعا كانوا ملزمين بدفع الهبات والصدقات ، ويقوم ثلاثة من بينهم باستقبال الزيارات التفتيشية التي يقوم بها رئيس الدير المحلي ، وعليهم ان يقدموا له ولحاشيته كل مايلزم . ويقع على عاتق اثنين آخرين إرسال الرسل المزودين بالمعلومات الى الاجتماع السنوي لرؤساء الاديرة وكان أربعة غيرهم مسؤولين عن ترميم واصلاح الكنائس ويقوم آخر بتأمين أماكن

اقامة الاخوة المسافرين . وكان على آمري الحاكميات ، القائمين على راس عملهم ، الاستمرار في ممارسة الاعمال الادارية المناطة بهم حتى موعد الاجتماع الرئاسي التالي ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية كان المالكون الجدد الذين تسلموا بيوتا تتبع للحاكميات يستثنون من سلطة القيمين . ومهما كانت الاحوال فـان ملكيتها كانت تعود الى الاخوية بعد وفاة أصحابها ، وكانت جميع الهبات تصدق من قبل البابا .

كانت الحاكمية التي تدار غيابيا شكلا من اشكال الحاكمية ذات الامتياز . وكانت ملكية خاصة لاحد موظفي الاخوية الكبار ، وكانت تتم ولايته لها غيابيا ، ويوكل عليها وكيلا يقوم بادارتها . اما مناطق النفوذ التي كانت سابقا حاكميات ذات امتياز ، والتي كانت قائمة مع بداية عام ١٢٦٢ ، فلا يمكن تحويلها الى حاكميات تدار غيابيا،حيث حظي رؤساء الاديرة بحاكميات في اقاليمهم ويعملون على ضمان دفع الهبات والصدقات . خولت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠١ نائب المقدم في المانيا ان يستولي على الحاكميات ذات الادارة السيئة ، علمـا بأن هذا الاجراء كان الملاذ الاخير لحل مشكلات سوء الادارة . بعد عامين وافقت هيئة الرهبان العامة على تولي رؤساء الاديرة الاوروبية لاربعة مناطق نفـوذ تستخدم كحاكميات تدار غيابيا في اديرتهم شريطة ان يدفعوا الهبات والصدقات المترتبة عليها . أشير الى حاكميات المقدم التي تدار غيابيا ، ولاول مرة ، عـام ١٢٨٨ ، وذلك عندما صدر مرسوم يمنع ان تؤول وراثة ممتلكات الوكلاء الذين عينهم المقدم في الحاكميات ، التي تدار غيابيا ، الى رؤساء الاديرة بعد وفاة هؤلاء الوكلاء . كانت احدى شكاوي القيمين الاكليركيين الرئيسية ان بعض المقدمين الجدد بدافع الجشع ، قد احتجزوا اديرة كاملة متذرعين بأنها حاكميات تـدار غيابيا على أنها تابعة لهم ، بدل اتاحة الفرصـة لهيئة الرهبان العامة لتعيين رؤساء لهذه الاديرة ، بينما احتفظ اخرون ببيوت واديرة في كل اقليم . لقيت شكاوى دير الرهبان آذانا صماء ، اذ شرع المقدم مع بداية عام ١٣٠٣ بالاحتفاظ بكل مناطق النفوذ التابعة لدير شاغر ، او كان يعطيها لاحد مستبقا بذلـك تعيين رئيس دير او قائد حاكمية جديد . ونعتقد ان نائب المقدم في رودس عام ١٣١٠ قد احتفظ بدير « نافار » كحاكمية تدار غيابيا . بعيد عام ١٣٠١

سمح لبعض الاخوة الحكماء الذين اراد المقدم استبقاءهم الى جانبه في الشرق بالاحتفاظ بحاكميةتدار غيابيا ، وقد عين للمعني منهم حاكمية تابعة للدير الذي جاء منه ، ووجب ان تقع الحاكمية في نطاق الزيارات التفقدية التي يقوم بها رئيس الدير .

نستخلص مما سبق ذكره ان نظام الحاكميات الاسبتارية في القرن الرابع عشر لم يكن نظاما بسيطا . فالحاكميات لا تختلف فيما بينها من حيث الحجم فحسب بل انها متباينة في انماطهاايضا . فكان بعضها يوهب لاجل محدد وبعضها يوهب لمدى الحياة ، بينما كان بعضها الآخر يدار جماعيا . منح رؤساء الاديرة انفسهم معظم هذه الحاكميات ، ولكن بعضها خصص مباشرة من قبل الادارة المركزية في الشرق ، واحتفظ العامة ببعض منها ، وكان بعضها يدار غيابيا من قبل وكلاء القيمين الاكليركيين او المقدم او الاخوة كبار السن العاملين في مقرات القيادة . على كل حال كانت هذه جميعها مصنفة في اقاليم وهي : الاديرة .

في عام ١٣١٠ تم تقسيم اوروبا الاسبتارية الى الاديرة التالية : دير سان جيل ، وفرنسا ، واوفيرن ، ومسينا ، وبارليتا، وكابوا، ولومبارديا، والبندقية، وروما ، وبيزا ، ونافار ، والى اديرة قشتاله وليسون ، والبرتغال ، وانكلترا ، وايرلندا ، والمانيا العليا ، والمانيا الدنيا ، وبوهيميا ، وبولونيا وهنغاريا ، وداشيا ، والى قلعة امبوستا الاكليركية ، والى المقاطعات الاكليركية : سان يوفيميا ، وموريا ، وسان ترينتي اوف فينوزا . ونجم عن اكتساب ممتلكات الداوية في مطلع القرن الرابع عشر تأسيس اديرة تولوز ، واكيتين ، وشمبانيا ، وكتالونيا . بعد ذلك انضم جزء من بولونيا الى دير بوهيميا بينما الحق الجزء الآخر بحاكمية « هيرنميسترتم » «Herrenmeistortam» الجديدة في « براندبيرغ » ، ودام النظام الاقليمي حتى تأسيس اديرة بولونيا ، وبافاريا التي لم تعمر طويلا في القرن الثامن عشر . لقد تم تنظيم الغرب في عملية تطور طويلة وصفها لنا أحد المؤرخين الحديثين وصفا جيدا .

منذ بداية تأسيس اول دير في الغرب وهو دير سان جيل ، انهالت

التبرعات والهبات على الاسبتار . وكان أحد رؤساء الاديرة يدير هذا الاقليم حوالي عام ١١٢٠ . واكتمل منذ عام ١١٤٣ كشف اسماء رؤساء الاديرة وامتدت حدود هذا الدير في اواسط القرن عشر عبر « البيرنية » الى كتالونيا واراغون ، ووصلت الى الاراضي المنخفضة في الشمال . ومن المعتقد ان رئيس دير سان جيل قد مارس بعض الصلاحيات على الممتلكات في انكلترا وكانت هذه المنطقة كبيرة جدا وكان من العسير ان تقوم بادارتها ادارة واحدة فانشئت لهذا السبب على التوالي قلعة امبوستا ، واديرة نافار ، وفرنسا ، واوفيرن ، كما كان يتبع رئيس دير سان جيل موظفان يأتمران بأمره توليا ادارة ممتلكات تولوز وبورغنديا ، وقد كانت الاخيرة تابعة لادارة رئيس دير فرنسا في القرن الثالث عشر . تبوأ دير سان جيل ، لما امتاز به عن غيره من الاديرة من حيث القدم والثروة ، وصدارة المكانة الاولى في بنية الاخوية الاقليمية ، وكان قادته من أهم الموظفين وقد وصل ثلاثة منهم الى رتبة المقدم .

أحدث دير فرنسا مابين عامي ١١٧٨ و ١١٧٩ . ويسعنا القول عامة بأن رئيس الدير ادار المنطقة التي كانت تنطق لهجة الدوي « Langue d'oïl » الفرنسية المحلية الا أن ادارته لم تصل الى بورغنديا حتى بعد مضي عشرات السنين من القرن الثالث عشر ، ولم يمارس اية سلطة على الاراضي المنخفضة. لا نستطيع الجزم بأن رؤساء الاديرة كانوا يعينون تعيينا بشكل دائم ، اذ يبدو ان نواب المقدم في فرنسا « واوتريمر » تمتعوا بالسلطة في وظائف الاخوية الشاغرة وتأكد لنا انه في بعض الاحايين لم يتم اختيار اي رئيس للدير ، وكانت تسند ادارة الاقليم الى نائب المقدم . وفي منتصف القرن الثالث عشر قامت الادارة المشؤومة ، ادارة « فيليب ديغلي » « Philip d'Egly » الذي ورط اخويته بالصراعات السياسية ، باعادة الاقليم الى حالة من الفوضى ولم تقم ادارة منتظمة حتى تم تعيين «جون دو تشيفري» « John de Chevry » رئيسا للدير في عام ١٢٧٢ . تجدر الاشارة الى نورمانديا بشكل خاص ، فقد كانت ما بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر تحت ادارة موظف اطلق عليه احيانا لقب رئيس الدير . ويرجح انه لم يكن قيما اكليركيا . اصبح « انسيلم دو كوربي » « Anselm de Corbeil » عام ١١٨٥ رئيسا لديري فرنسا

ونورمانديا معا ، وبعد اربع سنوات كان « لفارنيه دو نابولي » الـذي جمـع مابين منصبي رئيس دير انكلترا ونائب المقدم في فرنسا ، نائبان مثَّلاه في أوروبا، وكان لاحدهما ويدعى « جيمس » مهمة خاصة في نورمانديا اذ اصبح رئيسـا لدير نورمانديا عام ١١٩٩ ، ثم خلفه نائب مقدم وعدد من المقدمين وذلـك قبل اخفاء القاب الموظفين المستقلين في هذا الاقليم . وليس لدينا عام ١٢٨٠ سوى مرجع واحد يشير الى قيم الاسبتار في نورمانديا ، المنطقة التي لم تتمتع طويلا باستقلالها شبه الذاتي . وتفسير ذلك ان نورمانديا بقيت تابعة لملوك انكلترا حتى عام ١٢٠٤ ، ولهذا كان لها وضع خاص في دير فرنسا .

تأسس « دير اوفيرن » « **Auvergne** » ما بين عامي ١٢٢٩ و ١٢٤٥ في حين لم يكتمل كشف رؤسائه حتى عام ١٢٦٠ . وفي عام ١٢٩٤ حقق اسبقية ميزته فيما بعد على المؤسسات الفرنسية الاقدم ، وقد امتد حتى وصل الـى مرتبة البناء المركزي : « سيفن وجورا » « **Cevennes and Jura** » .

أصبح للاسبتار املاك في ايطاليا منذ أوائل القرن الثاني عشر ، ولكـن البنية الاقليمية الواضحة ظهرت في وقت متأخر نسبيا . ونرى ان تعدد الاديرة انما يعكس الاوضاع السياسية المضطربة والمتغيرة في شبه الجزيرة .

تأسس « دير مسينا » نظاميا في عهد روجر الثاني . وتولى رئيس الدير ادارة ممتلكات الاخوية في صقلية ، ويبدو انه مارس بعض السلطات علـى البر الرئيسي وخصوصا في كالابريا . وبرغم أن هذا الدير كان ذا أهمية كبيرة ، اذ كان يقع بمحاذاة الثغور الرئيسية التي تؤدي الى الشرق ، فان عدم توفر المعلومات الكاملة يجعل من الصعب علينا دراسته دراسة مفصلة .

شكلت اراضي « الكابيتانت » « **Capitante** » « وباري » « **Bari** » « واوترانتو » « **Otranto** » « دير بارليتا » « **Barletta** » الذي أحدث في أواخر القرن الثاني عشر . وظهر الى الساحة في ستينات القرن الثاني عشر رئيس دير « اوبوليا » « **Apulia** » ولم يكتمل كشف رؤساء الاديرة قبل عام ١٢٦٩ ولكنه استمر دون انقطاع بعد ذلك التاريخ .

شهد عام ١٢٩٧ اندماج « دير سان ترينيتي اوف فينوزا » « St. Trinity of Venosa » في أخوية القديس يوحنا ، ويعتقد ان نائب رئيس دير بارليتا قد اشرف على ادارة هذا الدير ، ولكن صكوك عام ١٣٠١ و ١٣٠٤ تظهر وجود حاكمية دير سان تريينيتي اوف فينوزا التي ارتقى مديرها الى مرتبة القيم الاكليركي وبذلك كان مساويا لرئيس الدير .

في منتصف القرن الثالث عشر أحدث دير « كابوا » « Capua » الذي ضم نابولي ، والتيراديلافور Terra di Lavore ومقاطعة موليز ، والبرنسيبيت « Prinsipate » ، والابروزي « Abruzzi » ، وكان يدير هاتين الاخيرتين وكيل مساعد .

اما أصول حاكمية « سان يوفيميا » « St. Euphemia » فهي غير معروفة لدينا . وكانت في البداية تابعة لدير كابوا ثم استقلت عام ١٢٩٤ عندما ارتقى حاكمها الى مرتبة القيم الاكليركي .

وفي عام ١١٧٦ أسس دير لومباردي الذي تولى مديره ادارة كل من « بيدمونت » « Piedmont » « وليجوريا » « Liguria » الى جانب لومباردي ، غير أن سلطته لم تصل الى السافوي . لم يكن تنظيم هذا الاقليم تنظيما ثابتا حيث نرى أن رئيس الدير فيه قد كلف مرات عديدة بادارة أديرة كل من روما والبندقية . اذ انه من المعتقد أن الاقاليم الثلاثة كانت في القرن الثالث عشر صغيرة بحيث لم تستلزم وجود ادارة مستقلة تدير شؤون كل منها على حدة .

امتدت سلطة دير البندقية لتشمل كلا من البندقية ، وفيرأرا ، ورافينا ، وفورلي ، وفينزا ، وبارما ، ومودينا . أحدث هذا الدير قبل عام ١١٨٢ وكان يضم عادة الى لومبارديا حيث يديرهما موظف واحد فقط .

انضوت ايطاليا الوسطى والولايات البابوية تحت سلطة دير روما ، ويحتمل أن روما لم تنظم حتى القرن الثالث عشر على الرغم من وجود دير ايطاليا عام ١١٨٢ . وقد ظهر أول رئيس لدير روما في عام ١٢١٥ كما ظهر عام ١٢٤٣ رئيس دير بيزا ، وشهد النصف الثاني من القرن ادارة عمرت طويلا وهي ادارة

« انغيران اوف غرانيانا » « Enguerrand of Gragnana » الذي شـغل منصب رئيس دير البندقية ودير لومبارديا .

أسس دير بيزا عام ١١٨٢ وقام مديره بادارة توسكانيا الى جانب منطقة من الولايات البابوية .

تلقى الاسبتارية في اسبانيا ممتلكات كبيرة كانت في بداية عهدها متصلة بدير سان جيل ، وعين رئيس دير أراغون عام ١١٤٩ ، وفي العام نفسه وهبت قلعة أمبوستا للاخوية . اضف الى ذلك أن الداوية تخلوا في عام ١١٥٣ عن جميع حقوقهم في القلعة لتصبح ملكيتها خالصة للاسبتار . أصبحت القلعة آنئذ مركزا اداريا للمقاطعة التي عرفت بقلعة امبوستا المستقلة عن سان جيل منذ عـام ١١٥٤ . وظهر أول مدير لها عام ١١٥٧ . وفيما بين عامي ١١٦٣ و ١١٧٤ أصبحت آراغون تحت ادارة رئيس دير نافار ، وفي عام ١١٦٩ ربما أصبح موظف عرف بلقب مقدم اراغون وكتالونيا رئيسا لقائد قلعة امبوستا . على كل حال فقد ارتقى قادة القلاع في الوظائف حتى مرتبة القيم الاكليركي وتولوا ادارة اراغون وكتالونيا الى جانب روسيون « Roussillon » ، وسيرداين « Cerdagne » في أوائل القرن الثالث عشر ، وفيما بعد ماجوركا ، وفالانسيا التي أنشىء دير كتالونيا على حسابها عام ١٣١٩ .

رافق احداث دير نافار تأسيس قلعة امبوستا الذي أدى الى انقسام اراغون . أتاحت المساحات الشاسعة التي حصل عليها دير نافار لهذه المملكة والمنطقة من اراغون أن تكون ديرا مستقلا . ثم استقل هذا الدير عن دير سان جيل في سبعينات القرن الثاني عشر وربما قد ترافق مع استقلال قشتاله .

أسس ديرا قشتالة وليون في بداية القرن الثاني عشر واستقلا عن دير سان جيل في سبعيناته ، وحصلا على الحكم الذاتي الكامل عام ١١٩١ . وكغيره من الاديرة المجاورة لمناطق المسلمين في المغرب ، امتد الى الجنوب مع عـودة الفتوحات .

أسس دير البرتغال عام ١١٤٠ ، مستقلا عن دير قشتالة ، وامتدت سلطته الى غاليسيا والبرتغال .

تلقت الاخوية أول ممتلكات لها في انكلترا في الاربعينات من القرن الثاني عشر ، ورافق ذلك احداث دير انكلترا ويحتمل ان ادارته كانت عند احداثه بين يدي أحد معاوني رئيس دير سان جيل . ولم يدم هذا الحال طويلا اذ أصبح الدير الذي أسس في « كلاركنويل » « Clerkenwell » ذا شأن في الخياة الانكليزية . منحت الاخوية في النصف الاول من القرن الثاني عشر أراض في اسكوتلندة ، لا سيما في « تورفيشن » « Torphichen » التي أصبحت حاكميتها مركزا لادارتها في تلك البلاد . وكانت الممتلكات تعتبر في زمننا جزءا من دير انكلترا .

تأسس دير ايرلندا قبل عام ١٢٠٢ ، وكان مركزه قرب دبلن في « كيلمانهام » « Kilmainham » التي أعطيت الى الاسبتار في عام ١١٧٤ بعد الغزو الانكلو — نورماندي ، وظل مستقلا عن انكلترا .

جاء قيام الاخوية في شمال شرق اوروبا واوروبا الوسطى مع الهبات الاولى التي كرست لها في العشرينات من القرن الثاني عشر ، وقد صادفنا أحد رؤساء أديرة المانيا يدير ممتلكات غرب بوهيميا منذ عام ١١٨٧ ، وكان لهذا الموظف نائب يدير المانيا العليا من ١٢٥٣ وحتى ١٢٦٣ ، كما كان يوجد نائب ثان يدير شؤون المانيا السفلى بدءا من عام ١٢٥١ . توحدت الالمانيتان بعد عام ١٢٦٣ ، تحت ادارة نائب المقدم ثم شكلت أديرة في ثمانينات القرن الثالث عشر . ضم دير المانيا العليا كلا من سويسرا ، وبادن ، والالزاس ، وبريزغو ، وبافاريا ، وفورتمبرغ ، وفرانكونيا ، وساكسونيا . في حين امتد دير المانيا السفلى شمالا من فرانكفورت الى الاراضي المنخفضة ، وحوض الراين ، وناسو ، وهيسن ، وربما الى برونسفيك ، وهانوفر . ان القوانين التي وضعت عام ١٢٩٤ تشير الى وجود رئيس دير واحد ، غير ان قوانين عام ١٣٠١ تشير الى وجود نائب مقدم يتمتع بسلطة على المانيا حيث كان نواب المقدم قيمين اكليركيين يتمتعون بسلطات كبيرة .

كان دير بوهيميا أول دير يؤسس في أوروبا الشرقية . وكان رئيس الدير يمارس سلطاته على كل من بوهيميا وبولونيا وبوميرانيا قبل عام ١١٨٤ ،

وكان الى جانب رئيس الدير هذا موظف ، ربما كان رئيسا له ، يتمتع بالسلطة على المجر وبوهيميا وما جاورهما في الشمال والشرق والجنوب . أما بولونيا فقد شكلت مع بوميرانيا ديرا مستقلا فيما ظلت مورافيا وسليزيا والنمسا مندمجة في دير بوهيميا الذي ألحق بدير بولونيا لمدة من الزمن قبل وبعد عام ١٢٨٤ . وأما مقر ادارة هذا الدير فكان في براغ .

في النصف الاول من القرن الثالث عشر انفصلت بولونيا وبوميرانيا عن سلطة دير بوهيميا لتشكلا دير بولونيا ، ولكن منذ عام ١٢٩٧ يبدو ان المدراء في بولونيا وبوميرانيا كانوا نوابا لرئيس الدير او نائب المقدم لاديرة المانيا .

يرجع تاريخ دير هنغاريا الى تاريخ انفصال هنغاريا عن بوهيميا وقد ظهر أول رئيس له عام ١٢١٧ .

انشئت أخويات الاسبتار في الدانمارك في منتصف القرن الثاني عشر وامتد نفوذها الى النرويج والسويد في القرن الثالث عشر . وأسس دير داسيا (أو الدانمرك) في خمسينات القرن الثالث عشر للقيام بادارة هذه المناطق النائية ، أما مركز الادارة فقد كان في « انتفورسكوف » « **Antvorskov** » وبرغم ان نواب المقدم لم يكونوا قيمين اكليركيين فقد كان يطلق عليهم لقب رؤساء الدير وقد امتدت سلطتهم الادارية على النروج والسويد .

في القرن الثاني عشر ، أدار رئيس دير القسطنطينية ممتلكات الاسبتار في كل من اليونان والامبراطورية البيزنطية وكان يعتبر قيما شرقيا . وكان وسيطا هاما ما بين البابوات والاباطرة . زال هذا اللقب في القرن الثالث عشر وتحولت الممتلكات اليونانية الى عهدة حاكم قلعة موريا الاكليركي الذي تمتع بمرتبة قيم اكليركي غربي .

كان كل رئيس دير قيما اكليركيا أشترط ان يكون شرعي الولادة بعد عام ١٢٧٠ . وكان يدير منطقة من الحاكميات التي ضمت عدة وحدات وكان من ضمن صلاحياته أن يوجه الدعوة للاجتماع الاقليمي مرة في السنة . وبطبيعة الحال كان تعيين رئيس الدير يصدر عن الهيئة العامة للرهبان في الأخوية وتقع عليه مسؤوليات جمة أمام تلك المؤسسة ، وعلى كل حال ، أمكن عمليا تعيين

رئيس الدير من قبل المقدم . وقد بذل المقدمون جهودا كبيرة في أواخر القرن الثالث عشر لتكون لهم ، شخصيا ، عملية اختيار ممثليهم في الاقاليم وقد عملوا لتحقيق ذلك ضمن طريقتين : كانت تتم الدعوة الى هيئات الجماعة العامة في أوقات متفاوتة واثناء الفترات التي تفصل بين الاجتماع والآخر كان المقدمون يعينون رؤساء مؤقتين للاديرة وينتظرون أن يصادق على هذه التعيينات أو اعادة النظر فيها في الاجتماع التالي للهيئات ، وبالطريقة ذاتها كان المقدمون والدير المركزي يتخلون عن رؤساء الاديرة . اتاح هذا النظام للمقدمين فرصا لاستغلال صلاحياتهم في تعيين رؤساء الاديرة وأصدرت الهيئة العامة للرهبان مرسوما بتفويض المقدم باختيار أحد الاخوة كرئيس للدير لمدة لاتتجاوز السنة بدلا عن رئيس الدير المتوفي او المقال ، واما أن يعقد المقدم مجلسا استشاريا يعين بموجبه نائبا عن رئيس الدير . أثارت الطريقة الثانية التي بدىء باستخدامها عام ١٢٩٦ استياء جماعة الدير وكانت غايتها ضمان الاشراف الاداري على الاديرة ، وتتلخص هذه الطريقة بجعل الدير حاكمية تدار غيابيا ويعين المقدم عليه وكيلا يقوم بادارته ، غير ان هذه المحاولات أحبطت جميعها بعد أن انتصر القيمون الاكليركيون على « ويليام دو فيياريه » في عام ١٢٩٩ .

أضحى الشغل الشاغل للهيئة العامة للرهبان لعام ١٢٦٢ هو ضمان استمرارية الادارة بعد وفاة أحد رؤساء الاديرة ، فكان على الحاكم المركزي أن يدعو أحد عشر حاكما من حكام الاديرة ، وذلك في حال وفاة أحد رؤساء الاديرة وينتخب هؤلاء الاثنا عشر حاكما من بينهم أحد الاخوة من المقاطعة ليعمل نائبا لرئيس الدير لحين وصول أوامر المقدم او نائب المقدم لمنطقة « أوتريمر » . وهكذا دواليك ، فان توفي رئيس دير ما في حاكمية خاصة به تدار غيابيا ، أو حاكمية ذات امتياز ، فان أقرب حاكم منه يدعو الناخبين الاحد عشر . واذا ماتوفي أحد رؤساء الاديرة بعيدا عن مقره بسبب مهمة ما ، كان على نائبه المكلف ان يقوم بتسيير شؤون الدير حتى يصل قرار الادارة المركزية .

عادة ، وليس بالضرورة ، كان رئيس الدير ينتخب من الدير الذي نشأ فيه ، وكان من غير المألوف استدعاؤه الى الشرق مدة معينة حالما يتم تعيينه .

وكان لزاما عليه القيام بالتطواف عبر البحر الابيض المتوسط مرة كل خمس سنوات ، حاملا معه ضريبة خاصة ، هي ضريبة مروره . ورأينا عدة محاولات لزيادة عدد اجتماعات هيئة الرهبان العامة . وحصلت هذه المحاولات في القرن الرابع عشر ، وكانت النتيجة اصدار مرسوم يقضي باستدعاء رؤساء الاديرة مرة كل سنتين او اكثر لمن تغيب مددا طويلة . ولقد منيت هذه التجربة بالفشل والغي المرسوم الآنف الذكر عام ١٣٠٤ . كذلك فشلت المحاولة الثانية التي استهدفت الحد من الجمع بين اكثر من دير واحد . فقد ارتأت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٨٣ ، أن من الممكن جمع عدة مقاطعات تحت أمرة رجل واحد . وصدر عام ١٣٠١ مرسوم يمنع ان يدير أخ أكثر من منطقة نفوذ اكليركية واحدة ، وقد استثنى المرسوم المانيا حيث تحقق الوحدة فيها ما بين الالمانيتين العليا والسفلى وبولونيا ، على كل حال فان هذا الموسوم قد ألغى بعد عام واحد من صدوره .

ورد في الاعراف أن كل قيم اكليركي هو ممثل للمقدم . ومن حسن الحظ ان بين ايدينا صكا صدر عام ١٢٩٧ عن رئيس دير نافار عينته هيئة الرهبان العامة في اجتماعها المنعقد في أفينيون ، يخول هذا الصك رئيس الدير أن ينوب عن المقدم حصرا في ثلاثة مجالات : القضايا القانونية بنوعيها اكليركية كانت أو عامة ، ووفود الادارة الى المرؤوسين ، والادارة العامة للدير . ولا بد من أن أول هذه الواجبات يحتاج لقليل من الشرح ، باستثناء حصول رؤساء الاديرة على صلاحيات مطلقة كممثلين للادارة المركزية . وقد غصت الملفات الاوروبية ببيانات عن النشاطات التي مارسها رؤساء الاديرة في سبيل الدفاع عن حقوقهم ، وككل المؤسسات الكبيرة ذات الاراضي الشاسعة اهتم الاسبتار اهتماما كبيرا بالمقاضاة ، وكان رؤساء الاديرة يقضون جل وقتهم بالاعمال القانونية . بينما كانت المهمتان الثانية والثالثة ذات أهمية بالغة فيما يتعلق ببنية الاخوية الداخلية اذ كان من حق رؤساء الدير الاهتمام بالقضايا التي تبين صلاحياتهم وتحددها .

كان رئيس الدير يعين غالبية حكام المقاطعات في منطقة النفوذ التابعة

له ، ولم يكن من ضمن سلطته باديء الامر أن يمنح أكثر من حاكمية واحدة لأي من الاخوة ، ثم سمح له عام ١٢٧٠ أن يمنح حاكميتين اذا رأى أن ذلك يعود بالنفع على الاخوية . وقد حظر على رئيس الدير عام ١٢٨٣ ان يعطي الحاكميات للاخوة ما لم يكونوا مقيمين في الدير ، يستثنى من بينهم من كان في مهمة من قبل رئيسه مع اشتراط الا تزيد مدة هذه المهمة على السنة . كما كان من ضمن صلاحياته أن تغير الانظمة التي تهم مناطق نفوذه . قام عام ١٢٢٩ أحد رؤساء دير سان جيل باعادة تنظيم مقاطعاته ، بينما خطط رئيس دير آخر عام ١٢٩٥ لتحويل المقرات الدينية في « تراسكون » ومرسيليا الى بيوت ينزل فيها الاخوة المسافرون الى الشرق . ولقد تناقص عدد الحاكميات التي تتبع لرئيس الدير مع ازدياد عدد الاخوة الذين يعينون في الحاكميات ذات الامتياز ، ومع منح الحاكميات التي تدار غيابيا للقيمين الاكليركيين ، هذا ولم تكن هيئة الرهبان في ديره وحدها تقيد من حريته في تعيين الوظائف ، بل ان ضغوط مطالب العامة كان لها دور كبير أيضا . كان على رئيس الدير بعد أن يختار مدراء حاكمياته أن يتأكد من دفعهم للهبات والصدقات المترتبة عليهم . اقرت هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ أن يقتني رئيس كل دير سجلا يحتوي احصائيات عن الايجارات والاراضي والكروم والمراعي الواقعة في ديره . وأن يحصل كل حاكم مقاطعة على نسخة من هذا السجل تخص مناطق نفوذ حاكميته ، واضافة الى اهتمام رئيس الدير بالهبات والصدقات كان عليه التدقيق في الخدمات والضرائب الاقطاعية ، ومع شيوع مثل هذه الاجراءات قبل عام ١٢٦٥ فقد اجازتها الهيئة العامة للرهبان في العام ذاته . ويجب أن لا يفوتنا أن هذه الاجراءات كانت تختلف بين دير وآخر . كان رئيس الدير يأخذ تركات آمري الحاكميات المتوفين ويرث أموالهم المنقولة بعد أن تقسم بينه وبين الآمر الجديد للحاكمية ، وبعد أن تدفع منها ديون المتوفى . كانت هذه الاجراءات ضرورية لرئيس الدير اذ كان عليه نقل الهبات والصدقات وخلافها من الاموال الى الشرق ، ناهيك عن وجوب تأمين مروره ، والمال والجياد والبضائع والاسلحة كلما دعي الى دير الرهبان المركزي . أشير للمرة الاولى ، الى البضائع التي نقلها رؤساء الاديرة الى سورية عام ١٢٧٠ ، وأصبحت هذه البضائع مألوفة عام ١٢٨٣ ، ولقد

كان ارسالها أمرا مسلما به حتى ولو لم يتمكن رئيس الدير نفسه من الحضور بها . وهذه الاجراءات اختلفت بدورها بين اقليم وآخر .

في أواخر القرن الثالث عشر كان نظام الزيارات التفتيشية التي يجريها رؤساء الاديرة ساريا في الاخوية ، وكان يحق لرئيس الدير فرض العقوبات على آمري الحاكميات التابعة له . وكانت صلاحياته تتيح له أن يفرض العقوبات التأديبية بحق جميع آمري الحاكميات باستثناء آمري الحاكميات ذات الامتياز على الرغم من أن صلاحيات رئيس الدير القضائية كانت مقيدة من قبل هيئة الرهبان العامة اذ كانت الجماعات المحلية ترفع اليه قضاياها ، مع أنه كان باستطاعتهم تجاوزه ورفع دعاواهم الى المقدم مباشرة . وكان موظفو الدير المحليون وهيئة الرهبان يساعدونه في أمور الادارة فيما يبدو أن الاديرة الاكليركية كانت أديرة صغيرة من حيث موظفيها : فدير سان جيل كان في عام ١٢٧٠ يتألف من آمر الحاكمية ورئيس كنيسة ، وخازن (أمين صندوق) واثني عشر أخا . وكان دير الرهبان يضم حاشية رئيس الدير والموظفين العاديين (موظفي العامة) والقساوسة ، وكتاب العدل . يرجع تاريخ وجود الخازن في دير سان جيل الى عام ١١٨٧ وكانت له صلاحيات على جميع الاسبتار في « هذا الجانب من البحر » ولا ننسى وجود الخزينة (أ مناء الصناديق) في اوروبا الغربية منذ منتصف القرن الثالث عشر . أحدث عام ١٢٦٢ في كل دير ما يسمى بالمكتب المالي الذي نظم على غرار المكاتب المالية في الولايات الصليبية ، ظهر خازن في انكلترا عام ١٢٧٠ ، وفي دير فرنسا في باريس عام ١٣٠٩ . ويرجع تشكيل هيئة الرهبان الاقليمية في دير سان جيل الى عام ١١٢٣ ، حيث كانت تنعقد في مدينة « بنتيكوست » « Pentecost » كل سنة ، ومنذ ذلك الحين لم تغب هذه الجماعات من عالم الاديرة . مع العلم انها لم تكن تعقد في وقت محدد من كل عام . وكانت تنعقد في أيام الآحاد بعد أن يدعى اليها بواسطة قرع الاجراس ، وقد استمر أحد هذه الاجتماعات في دير سان جيل مدة ثلاثة أيام . كانت هذه الجماعات تتلو النظام في اجتماع من اجتماعاتها التي كان يحضرها كافة آمري الحاكميات حيث يقدمون تقاريرا عن حاكمياتهم العادية او ذات الامتياز ، وكانوا

يدفعون الهبات والصدقات ، كما كانت تصدر الهيئات الرهبانية أوامر تفوض بموجبها رؤساء الاديرة بالعمل نيابة عنها .

استعمل رؤساء الاديرة الاختام . ونلمح اول خاتم منها ما بين عامي ١١٥٣ ـ ١١٥٨ في دير سان جيل . حصل كل رئيس من رؤساء الاديرة على خاتم يميزه عن بقية زملائه علما بأن هذه الاختام لم تحمل أسماء رؤساء الاديرة . والجدير بالذكر أن فكرة الاختام هذه لقيت تأييد ومساندة البابا انوسنت الرابع برغم ما أثارته من الشك والريبة ، كان يصعب في تلك الآونة من الزمن نقش اسم رئيس الدير على الختم كلما تغير حامل هذا الختم . أجبر تفاقم الريبة والشك الذي أبدته هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٧٠ على اصدار مرسوم يقضي بأن يحمل كل رئيس دير خاتما يحمل اسمه . لقد عكس هذا المرسوم الرغبه في الحد من استغلال رؤساء الاديرة لصلاحياتهم ، كما أكد سلطة هيئة الرهبان العامة على رؤساء الاديرة . ومما لاشك فيه ، ان كل رئيس دير كان يحتفظ بختمه بين يديه وكان يسلمه عند اقتراب منيته الى احد الاخوة ليسلمه بدوره الى جماعة الاقليم . أما بعد صدور المرسوم الآنف الذكر أصبحت أختام الدير تحفظ في خزانة أو صندوق يفتح بمفاتيح أربعة : يحمل رئيس الدير واحد منها فيما يؤتمن ثلاثة أخوة رهبان على المفاتيح الثلاثة وهكذا لا يستطيع رئيس الدير ، أن يصدق على أي شيء دون موافقة دير الرهبان .

مارس رؤساء الاديرة سلطة واسعـة ، وكانت الفرصة متاحـة امامهم للاستغلال ، فابتزوا الحاكميات وأجبروها على دفع أموال كثيرة أثقلت كواهلها . وأدت هذه التصرفات الى اثارة حفيظة الهيئة العامة للرهبان لعام ١٢٦٥ كما أدت الى اثارة قلق المقدم في أوائل القرن الرابع عشر . ومن بين الاسباب التي أدت الى قلقه الزام رؤساء الاديرة لآمري الحاكميات ، مكرهين ، بقبول الاخوة ورجال الدين والعامة في حاكمياتهم . لكل ذلك اتخذت هيئة الرهبان العامة لعام ١٣٠٦ بعض الخطوات لمعالجة اساءات رؤساء الاديرة تجاه آمري الحاكميات. ساهمت طبيعة السلطة القضائية للاسبتار ، وتدخل المقدم وجماعة دير الرهبان المركزي في الشرق ، ونظام الزيارات التفتيشية ، واشراف حكام المقاطعات ذات

الامتياز ، كل هذه الامور ساهمت الى حد ما بوقف الاستغلال المتأصل في جهاز السلطة الاقليمية المفوضة .

مثل المقدم ودير الرهبان المركزي المحكمة الختامية التي بتت في الالتماسات القضائية ، وزيادة على ذلك مارس المقدم صلاحيات دائمة اذ كانت سلطة الاشراف بعيدة ، وكان يرشح رؤساء للاديرة ويبعث بتوصياته بهم الى الامراء ، كما كان يتدخل في شؤون ادارة الاقاليم بناء على معلومات تتعلق بمسائل ينحصر الاشراف عليها برؤساء الاديـرة فقط . مارس المقدم وجماعـة دير الرهبان المركزي في الشرق السلطة القضائية على آمري الحاكميات ذات الامتياز ، كما مارس الاشراف المباشر على هذه الحاكميات وغيرها من الحاكميات عام ١٣٠٣ ، بعدما تأخر أحد آمري الحاكميات عن الوصول الى الدير بسبب انشغال أحد مرافقيه بجمع ديون حاكميته ليقدمها الى ويليام دو فيياريه الذي استدعاه الى الشرق ، وطلب حضوره مع جياده على أن يغادر منطقة نفوذه دون ديون . أرسل المقدم مفتشين زائرين الى الاديرة وأمر أحد الاخوة من الاسبتارية الانكليز بزيارة تفتيشية الى ايرلندا عام ١٢٩٨ . لقد اتضح أن المقدم كان يسيء ويستغل سلطاته . فقد اشتكى القيمون الاكليركيون عام ١٢٩٦ من أن بعض الاخوة كانوا يستدعون الى الشرق بدون اي اتهام وقبل أن يستمعوا الى أية نصيحة ، كما أقيل بعض رؤساء الاديرة بعد مدة قصيرة جدا لتسلمهم مهام أعمالهم ، وأعطيت الاوامر الى مرؤسيهم رغما عن ارادتهم .

لم تكن الرقابة محصورة بالمقدم ودير الرهبان المركزي فقط . ففي القرن الثالث عشر واجه رؤساء الاديرة ضغطا متزايدا من قبل كلا السلطتين الاكليركية والعامة . فكان الباباوات يتدخلون في سلطة المقدمين ، في حين ان هيئة الرهبان العامة لعام ١٢٦٢ كانت قد بينت الحالات التي يمكن فيها ايفاد رؤساء الاديرة خارج مناطق نفوذهم لتأدية خدمة لأمير ما ، ونرى الملوك يكلفون رؤساء الاديرة في مهمات لهم أو يمنعونهم من الاستجابة الى الدعوات التي تطلب حضورهم الى الشرق ، وكانوا (الملوك) يرفضون استقبال المفتشين الزائرين ، حتى انهم أنفسهم كانوا يعينون مديري ممتلكات الاخوية . أذعنت هيئة الرهبان العامة

لهذه الضغوط مكرهة في عام ١٢٨٣ وأصدرت مرسوما يسمح لرئيس الدير الذي يستدعى الى الشرق ولا يستطيع تلبية الدعوة ، بارسال « اعتذاره » وبامكان المقدم أو الدير ارسال بديلا عنه اذا رغبا في ذلك .

كان منصب رئاسة الدير هو أحد المناصب العليا التي أمكن للاخوة توليه ، ولن نخرج عن مسار البحث اذا تعرضنا لوصف سيرة اثنين من الاخوة ، علما بأن هذه السيرة لا تعتبر قاعدة عامة . شغل هذان الاخوان رئاسة ديرين في زمنين مختلفين : أولهما « ويليام دو فيياريه » الذي كان آمرا لحاكمية عكا ثم أصبح نائبا للمقدم عام ١١٩٢ وهو العام الذي استردت فيه الحملة الصليبية الثالثة المدينة. أرسل في عام ١١٩٣ الى الغرب ليشغل وظيفةنائب المقدم لحاكمية اوتريمر وعين عام ١١٩٩ رئيسا لدير انكلترا ورئيسا لدير فرنسا عام ١٢٠٧ . أما « جيمس دوتاكسي » فقد كان أخا بسيطا في عكا عام ١٢٦٦ وبعد ثلاث سنوات أصبح رئيس دير مسينا ، وظل رئيسا له الى مابعد عام ١٢٧٣ . وكان من بين العاملين الذين حازوا على ثقة « تشارلز اوف آنجو » . فأوفده سفيرا له الى تونس . ثم نقل عام ١٢٧٨ الى دير بارلسيتا ، ولا زال رئيسا للدير حتى عام ١٢٨١ ، عندما ارتحل متوجها الى الارض المقدسة ، ولكنه أصبح نائبا المقدم في الشرق في عام ١٢٨٦ وعمل نائبا للمقدم في غياب جون دو فيير. وكان أحد قادة الاخويات العسكرية الذين فاوضوا الانجفيين « Angevins » حول استسلام قلعة عكا لملك قبرص الشاب وسهلت علاقاته الوطيدة مع ملوك الانجفيين عقبات كثيرة واجهت تلك المهمة.

كانت الحاكميات الاكليركية وحتى الاديرة ذاتها تضم أحيانا الى تجمعات كبيرة أطلق عليها اسم « الحاكميات الكبرى » . تأكد لنا أن تاريخ حاكمية اوتريمر يرجع الى عام ١١٧١ ، غير ان موظفي الحاكمية لم يمارسوا كامل سلطتهم التي تتيحها لهم مراكزهم الا في حالات نادرة . ومع ذلك فقد كان بعضهم من الشخصيات الهامة . وليس من المستبعد أن نائب مقدم اوتريمر قد أقام في بروفانس ، وأن سلطته بدأت تنحسر تدريجيا مع أحداث حاكميات كبرى أخرى ، وقد تبين أن سلطته قد اقتصرت على فرنسا وبلجيكا وشمال اسبانيا

وانه يتمتع بميزات كثيرة لاتختلف عن الميزات التي كانت لنائب مقدم فرنسا ، غير أن هذا الاخير لم يمارس سلطة على شمال اسبانيا أو دير سان جيل ، ولم يتسلم هذان القيمان لوظيفتيهما في وقت واحد . ونرى أن أفرادا معينين قد تبادلوا هذين اللقبين . بينما غاب منصب نائب المقدم في الثلث الثاني من القــرن الثالث عشر . نرى ان مسؤوليــات نائب المقــدم في أوتريمر قد تغيرت كثيرا ، فقد خرجت أمبوستا من حيز سلطته في عام ١٢٣٠ وعام ١٢٥٠ ، ولكن قشتالة قبل عام ١٢٣٠ ، والبرتغال في عام ١٢٦١ ، وأراغون ونافار في عام ١٢٩٣ كانت هذه جميعها مسؤولة أمامه . وقد سمح له بموجب قوانين عام ١٢٩٢ تعيين الفرسان والخدم والحاشية اينما رغب خارج اسبانيا حيث كانت لها ظروف خاصة . لكن قوانين عام ١٢٩٤ ضيقت نطاق سلطته ليشمل أديرة سان جيل وأفيرن وفرنسا وانكلترا وايرلندا . ومن جديد ، في العــام التالي ، منح « بونيفاس دو كالامندراسن » « Calamandracen » لقب نائب المقدم لجميع أراضي أوتريمر . ويبدو أن لا صلة لوجود أو غياب نواب حتى عندما منح زميلهم نائب مقدم أوتريمر اوسع السلطات . ويبدو ان سلطة نائب المقدم كانت وقفا على القرار الشخصي للمقدم ودير الرهبان المركزي وهيئة الرهبان العامة . ونعتقد أن هذه الهيئة في عام ١٢٠٦ كانت تعني هؤلاء الموظفين عندما أصدرت مرسوما ينيط قرارات تعيينهم بالمقدم وبالدير المركزي . وقد استخدم هؤلاء الموظفون ختم المقدم الشمعي وكانت لهم السلطة على كل الاماكن عبر البحار . كان نائب المقدم لأوتريمر لايزال يستخدم ختم المقدم الشمعي في أواخر القرن الثالث عشر . وربما تعود اليه مقدمة قانون آخر صدر عن هيئة عام ١٢٠٦ **« مرت أوقات وجد فيها نائب مقدم في الاستبار ، ومرت أوقات غيرها دون وجود مثل هذا الحاكم . وكانت سلطاته تتسع أحيانا وتضيق أحيانا أخرى ، وذلك تبعا لمشيئة المقدم وهيئة الرهبان العامة »** .

أحدث منصب نائب مقدم أديرة المانيا في منتصف القرن الثالث عشر ، وقد مارس سلطته على ديرين في المانيا وعلى أديرة بولونيا وبوهيميا والمجر ودارسيا في مطلع القرن الرابع عشر . وقد اعتبرته القوانين ذات الصلة في المانيا والتي صدرت عن الهيئة العامة للرهبان لعام ١٣٠١ ، الحاكم المباشر لهذه

الاديرة ، ويرجع اتساع سلطته نتيجة لاعادة تنظيم الاقاليم الالمانية . كان له حق استبدال آمري الحاكميات الغارقين في الديون أو الذين كانت مناطق نفوذهم سيئة الحال ، هذا بعد أن يسترشد بآراء هيئة الجماعة الاقليمية . أما الحاكم الجديد فيتعهد بترميم وتجديد هذه المناطق ، وفي حال فشله يحق ان يتولى ادارتها بنفسه . منع نائب المقدم مرؤوسيه من تشييد مبان جديدة او جمع القروض دون اذن مسبق منه . استخدم نائب المقدم النزل الموروثة التي وهبتها الاخوية لمقاطعته لقضاء حاجاته الخاصة ، وكان يبيع هذه النُزل لقاء مبلغ ألف مارك بعد حصوله على موافقة الدير المركزي التي لا مناص منها . وترجع ملكية هذه النزل الى الاخوية بعد وفاة اصحابها . كان نائب المقدم يعين القساوسة والاخوة في العمل في الوظائف التي يحتاجها ، ولكنه لم يستطع ترقية الاخوة الى مرتبة الفارس والسرجندارية او الكاهن . من هنا نرى أن نائب المقدم في المانيا كان يضاهي في مكانته مكانة رئيس الدير . وربما جاز القول أنه في سبيل المصلحة العقلانية وبسبب فقر المقرات الاخوية انحسرت أهمية الالمانيتين(١) وبولونيا وبوهيميا وهنغاريا وداسيا وضمت جميعها الى مقاطعة ادارية سميت بالحاكمية الكبرى . فاذا كان الامر كذلك ، فان حال نواب المقدمين في فرنسا وايطاليا واسبانيا لم يختلف عن حال نظرائهم ، كما أن نائب المقدم في اوتريمر لم يعد يمثل أحدا من نظرائه منذ مطالع القرن الرابع عشر .

ظهر نائب المقدم للمرة الاولى في ايطاليا عام ١١٨٨ . ثم ظهر مرة ثانية في عام ١١٩٩ ، ولكنه لم يظهر بعد ذلك الا بعد منتصف القرن الثالث عشر ، وذلك عندما شرع بممارسة ادارته على ايطاليا وهنغاريا والنمسا . الا ان النمسا وهنغاريا انتقلتا الى الانضواء تحت سلطة نائب المقدم في المانيا بعد بضع سنوات ، بينما أدار نائب المقدم في ايطاليا شبه الجزيرة الايطالية فقط . ولم يختلف عن نائب المقدم في ادارته لمجموعة من الاديرة الصغيرة .

شهد عام ١١٧٠ ظهور نائب المقدم في اسبانيا ، وكان قبل ذلك قد أدار قشتاله والبرتغال . وبرغم تسميته بـ « رئيس دير اسبانيا كلها » فان نفوذه

---

(١) المانيا العليا والمانيا الوسطى .

لم يصل الى أراغون وكتالونيا حتى القرن الثالث عشر ، كما كانت سلطته في عرض شبه الجزيرة تستبدل أحيانا بسلطة نائب المقدم في أوتريمر . في عام ١٢٣٠ عرف هذا الموظف بلقب جديد وهو « حاكم الممالك الاسبانية الخمس » . ان ما حدث لايطاليا ، حدث في اسبانيا أيضا ، اذ أن أديرة اسبانيا جميعها أو بعضها توحدت مدة من الزمن . وكان لنائب المقدم في اسبانيا شأن مميز وذلك بسبب الاستقلال الراسخ الذي أبداه الفرسان الاسبان . في عام ١٣٠٨ أرسل « جون دو لوديسيا » ، الذي كان يرأس دير الرهبان المركزي في الاخوية ، بمهمة نائب للمقدم في الحاكمية الكبرى . وربما كان ارساله ذا علاقة بتمرد فرسان قشتاله ضد الحكومة المركزية .

ليس من السهل تحديد مكانة نواب المقدمين . وكان يتم استدعاء رؤساء الاديرة لشغل المناصب لفترة مؤقتة . ويمكن النظر الى نواب المقدمين وهم يدعون الى اجتماعات عامة لعدد من الاديرة ، وفي أوقات أخرى وهم يحضرون اجتماعات هذه الاديرة . وقد منحوا صلاحية التصديق على تعيين الحكام . ومن الممكن انه تم تعيينهم من فترة الى اخرى في مناطق نفوذ مساعدي مأمور التنفيذ التابعين لجماعة اكليركية وذلك عند دنو أجلهم ، وبالتأكيد ، فانهم كانوا ينقلون الاوامر من الحكومة المركزية ويرسلونها الى رؤساء الاديرة . انهم مارسوا حق الزيارة ، كما أنهم أرسلوا الزوار الى ممتلكات الاخوية ومن الغريب انه ليس هناك أي دليل يشير الى كونهم وكلاء لجماعة اكليركية . وفي الحقيقة، يبدو أنه قد تم تعيينهم ممثلين مؤقتين من قبل المقدم وهيئة الرهبان . وفي‌عام ١٢٩٦،عرف وكلاء هيئة الرهبان أنه غالبا ماستمر فترات لن يوجد فيها نواب مقدمين . لذلك،كان منصب نائب المقدم منصبا مؤقتا يشغله أحد رؤساءالاديرة، وقد انبثقت عنه حقوق الزيارة والدعوة الى الاجتماعات المشتركة لعدة مقاطعات والعمل كنائب للمقدم في منطقة من مناطق اوروبا . وكان يتم تعيين نواب المقدمين لتنفيذ مهمة محددة . وفي عام ١٢٩٩ ، يبدو ان وكلاء الاديرة قد اقترحوا انه يجب ارسالهم للوقوف في وجه التمرد الذي حدث مؤخرا والذي قام به فرسان قشتاله .

كان يتم انتقاء نواب المقدمين عادة من بين ابرز الاسبتارية. فالاخ آماريك دوباكس ، حاكم قلعة أمبوستا ، وحاكم قلعتي المرقب وسيليفكه ، وربما آمر حاكمية عكا ايضا ، كان دون شك ذا خبرة قبل تعيينه نائبا للمقدم في أوتريمر عام ١٢١٥ . الا ان اوسعهم شهرة وأجدرهم بالاهتمام والملاحظة كان « بونيفاس دي كالامندراسن » . فالجميع يشهدون ويقرون بصفاته العظيمة، فهو : رجل يعرفه العالم وتعرفه الاخوية وهو « سيد عظيم » « رجل بالغ النبل ، رجل رشيد ، وورع » وهو ينتسب الى البيت الملكي في « اراغون » ، وعين لاول مرة كنائب للمقدم في المشرق في ستينات القرن الثالث عشر ، ولعله تولى هذا المنصب ثانية في اواخر عام ١٢٧٠ ولكنه لم يشغل اية وظيفة في ثمانينات القرن الثالث عشر ، ولعل ذلك راجع لتأييده قضية آراغون في نفس الوقت الذي ساندت الاخوية فيه كلا من فرنسا والبابوية ضد هذه القضية . وقد ادعى ملك « اراغون » ان تأييده هذا كان سببا في ارساله الى ارمينيا حيث كان مناخها محفوفا بالمخاطر . ولكن بعد الاحتجاجات التي قامت على طريقة معاملته ، عين مفاوضا رئيسا عن الاسبتارية الى محادثات كوميونة طرابلس التي تمخضت عن قبول « لوسي » كونتيسة ، وعين نائبا للمقدم لاوتريمر في عام ١٢٥١ ومنها عمل وسيطا بين ممالك فرنسا وآراغون ونابولي وتلقى بيعة « روجر اوف لوريا » نيابة عن البابا . توفي « بونيفاس » عام ١٢٩٨ . لقد هز نبأ وفاته القيمين الاكليركيين في ليماسول ومما زاد في حزنهم سماعهم انباء تفيد بان البابا « بونيفاس » الثامن قد صادر ممتلكاته . اعاد البابا بضائع تساوى خمسين الف فلورين ذهبي الى المقدم ، ونستطيع القول بأن نائب المقدم ، بونيفاس ، توفي عن أكثر من ذلك بكثير . تبين نشاطات بونيفاس كيف يمكن لشخصية عظيمة كان لها شأنها في السياسة الاوروبية ان تعامل من قبل موظف في الاخوية ومدى الثروة التي يجنيها مثل هذا الموظف .

* * *

القسم الثالث

الإمتيازات الإكليركية لأخوية القديس يوحنا

الفصل الثاني عشر

أخويــة الكنيسة المستثناة

أدى وجود الاخويات المستثناة الى خلق مشاكل خاصة بالنسبة للكنيسة في العصور الوسطى ، وليس هناك اي شك حول وجود عداء تجاهها . وقــد هدد استثناء هذه الاخويات بانخفاض الدخل ، وتدني مكانة رجال الدين غير الاكليركيين* ، بينما ادى ذلك الى اغناء اولئك الذين لم يعتمدوا – نتيجـة للمبادىء التي كانوا يؤمنون بها – على سلطة الاسقف المحلي ، بل اعتمدوا بشكل مباشر على سلطة الحكومة البابوية وعلى موظفيهم . وقد اشار احـد المؤرخين البارزين مؤخرا الى انه لو تم تنفيذ سياسة منح الاستثناءات بشكل اكثر ، فانها كانت ستؤدي الى وجود سلطتين قضائيتين متساويتين ومتعاونتين فيما بينهما داخل الكنيسة ، وكذلك وجود « جماعة من رجال الدين الذيـن ستنشأ فيما بينهم بعض النزاعات نتيجة اتباعهم دستورا قديما وآخر يتعلـق بالاستنتاجات المقنعة التي توصل اليها كبار علماء اللاهوت السكولاستيين** » . ومن ناحية اخرى ، حاولت الاخوية العالمية ان تبرهن بشيء من الاقناع بـأن تمويل أعمالها الخيرة التي لايمكن انكارها ، وكذلك الاستقلال الذي كان أمر الشروع في تحقيقه ضروريا ، والسعادة الروحية لاعضائها ، ان تحقيق كل هذه الامور سيكون مستحيلا بدون منح امتيازات استثنائية ، وبدون وجود ادارة

---

* اكليركي : ديني – غير دنيوي .

** السكولاستية : الفلسفة النصرانية السائدة في اوائل عصر النهضة ، وقد بنيت على منطق ارسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة ، ولكنها اتسمت في أوروبا الغربية خاصة باخضاع الفلسفة للاهوت ، ومن أبرز رجالها (توما الاكويني) الذي حاول ان يقيم صلة فكرية بين العقل والدين .

مركزية متحررة من سلطه الاساقفة الابرشيين مع وجود متطلبات ومطامح محليــة .

كانت هناك اتفاقيات موطدة الاركان بين الطرفين . ولهذا السبب فانه من الصعب ان نرى كيف تجنب المشاكل التي نشأت بينهما ، اذ انها ازدادت حدة بسبب بروز الصعوبات المتزايدة حول تفسير الوثائق التي تم عن طريقهـا منح الامتيازات ، وكذلك بسبب تطبيق هذه الامتيازات من قبل اولئك الذين حصلوا على استثناء في ظروف فاقت تلك التي كانت سائدة خـلال الهبـات الاصليــة . انتشر شعور العداء ضد الاخويات المستثناة في العالم المسيحي كله ، ولكن كان لهذا الشعور أهمية خاصة في سورية في عهد الفرنج . وقد كان وضع المستوطنة اللاتينية غير مستقر ، اذ انها كانت خاضعة لضغوط خارجية، كما انها كانت ممزقة داخليا بالحروب الاهلية والعلاقات المضطربة القائمة بـين مؤسساتها ، التي كانت الهيئات الكهنوتية نبيب المقدس وانطاكية والاخويات العسكرية اكثر هذه المؤسسات تنظيما ، وادت القضية المعقدة المتعلقة بامتيازات الاخويات الى تجزئتها ، لذلك ، فان بقاء هذه الاخويات كان مرتبطا بقدرة سورية اللاتينية على الاستمرار في الوجود .

لقد تمت مناقشة وضع الاسبتار بالتفصيل من خلال الامتيازات التي منحت له ، وقام بهذه المناقشة افضل مؤرخي الاخويات العسكرية . لقد اصبح الاسبتار « مستثنى » منذ عام ١١٥٤ ، لان خمسة مراسيم بابوية هامة ساهمت في اقامة اسس تحـرره منالسيطـرة الابرشيــة . وفي المرســوم البابـوي « Pie Postulatio Voluntatis» جعل البابا باسكال الثاني «Paschal II» الاسبتارية تحت حمايته ، ومنح التثبيت الدينـي لكل مـن حصلـوا ، او « سيحصلون » عليه من الاساقفة والمؤمنين . لقد منحهم ما يتم جمعه من ضرائب العشر المفروضة على الاراضي التي يزروعونها انفسهم ، او الاراضي التي تخصص محاصيلها لاستهلاكهم المحلي . وقد قبل هؤلاء الاسبتارية الهبات التي منحت لهم عدا الاتاوات او الضرائب ، واصبح انتخاب المقدم يتم دون تدخل خارجي ، واخضعت ممتلكات الاوروبيين في الاخوية لسلطة الاسبتار . ولهذا الغرض اضاف المرسوم انه لم يكن بامكان اي اسقف ان يصدر حكمـا

بالتحريم الكنسي ، او ان يفرض التحريم على الكنائس الاسبتارية . وفي اوقات التحريم العام ، كان بامكان اعضاء الاخوية الاحتفال بأداء الطقوس الدينية ، على ان تكون ابواب كنائسهم مغلقة ، ولم يكن يسمح للاشخاص غير الاكليركيين بالدخول اليها ، كما انه لايسمح بقرع الاجراس . سمح مبدأ الايمان للاخوة باقامة الكنائس والمقابر لاستخدامها من قبل المستوطنين الذين كانوا يعيشون في المناطق القاحلة التي تم تطويرها من قبل الاخوية ، وتم انشاء الكنائس الصغيرة والمقابر في مناطق اخرى ليستخدمها الاسبتارية فقط . وقد وعد البابا « انوسنت الثاني » «Innocent II» بحماية جامعي صدقات الاخوية الذين اذا ما قدموا الى منطقة يكون مفروضا عليها التحريم الكنسي ، فبامكانهم منح الكنيسة في هذه المنطقة مرة واحدة كل سنة ، والاحتفال باقامة الشعائر الدينية فيها ، شريطة ان لا يسمح للمحرومين كنسيا بدخولها . وتم التأكيد للاخوة الاسبتارية بأنهم سيدفنون بشكل لائق ، حتى عندما يكون التحريم مفروضا . وقد أعفيت الاخوية بشكل رسمي من دفع ضرائب العشر المترتبة على الاراضي التي تزرع من قبل اعضائها ، او على المنتجات المعدة لاستهلاكها الخاص .

لقد قورن دستور الاسبتار «Quam Amabilis» بدساتير الاخويات الاخرى «Omne Datum Optimum» ، فقد كان دستورا ذا شأن كبير بالنسبة للاسبتارية . وتطلب ذلك من الاساقفة الابرشيين ان يشجعوا المؤمنين على اعطاء الصدقات الى الاسبتار ، حيث ان المتصدقين سيعفون من دفع سبع الكفارة التي كانوا يدفعونها سنويا ، وقد سمح الاساقفة لقساوستهم بالقيام بخدمة الاخوية لمدة سنتين او ثلاث سنوات ، ولن يسمح لاحد بمنعهم او الحاق الاذى والضرر باقطاعاتهم . وفي عام ١١٥٤ ، جدد البابا اناستاسيوس الرابع «Anastasius IV» قانون الايمان المسيحي واضاف اليه فقرات هامة . وقد سمح للإسبتار بان يكون له قساوسة خاصون به يقومون بالخدمة في أي مقر من مقراته ، لقد رأينا ان هذا الاجراء ربما كان التثبيت الديني الوحيد الذي منح للعرف الذي لم يطبق منذ فترة طويلة ، ولكن الاخوية حصلت على موافقة بابقاء هؤلاء القساوسة ، سواء سمح الاساقفة المحليون بذلك ام لا .

ولم يكن هؤلاء القساوسة مسؤولين الا أمام رهبان الاخوية وابرشية روما . واستطاع الاشخاص غير الاكليركيين ان يقوموا بخدمة الاخوية . ولم يسمح للاخوان بالتخلي عن عاداتهم ، فيما اذا كان هذا التخلي من اجل حياة غير اكليركية ، او من اجل اخوية اخرى ، بدون موافقة المقدم واخوتهم الاخرين ، ولم يكن من حق أحد ، اكليركيا او غير اكليركي ، ان تكون له سلطة عليهم . ان حق تكريس الكنائس ومذابحها ، وتكريس القساوسة الاسبتارية ، وتحقيق بعض الاعمال الاسقفية الاخرى ، كل هذه الامور كانت ما تزال من اختصاص الاساقفة الابرشيين ، ولكن اذا ظهر ان الاذى قد لحق بهم من قبل الاخوية ، فان الاسبتارية يستطيعون ان يختاروا اي اسقف كاثوليكي للقيام بواجباتهم .

يجب ان نؤكد هنا على ان هذه الامتيازات لم تتساو الا مع الامتيازات التي منحت للداوية والرهبان البندكتيين ، وانها كانت مقدمة للاعفاءات الكبيرة التي منحت لاعفاء الاخويات الدينية في القرن التالي . ويبدو انها نتجت عن رغبة الحكومة البابوية في استخدام الاخويات العالمية كوسائل لتحقيق ارادتها . وكان يتوجب على المؤسسات من هذا القبيل ان تكون غنية ، وقد اتخذت الامتيازات التي تم الحصول عليها شكلين ، فقد كانت هناك استثناءات من نماذج معينة من ضريبة العشر ، وفيما بعد ظهرت نماذج معينة من الضرائب الابرشية او غير الاكليركية وبذلك تم تخفيف العبء على الامور المادية للاخوية ، وقد كانت هناك ايضا الامتيازات التي مكنتها من زيادة دخلها ، وذلك عن طريق تشجيع المتصدقين عليها ، وكذلك تسهيل مهمة جامعي الصدقات والحصول على هبات خاصة من مصادر الدخل البابوي . وقد أثرت هذه الاجراءات على مكانة الاساقفة ، حيث انها لم تتناول فقط اموال الاسبتارية التي كانت تفيد رجال الدين غير الاكليركيين ، بل أدت بدورها الى منح الامتيازات التي حدّت قليلا من السلطة الابرشية . لقد اشير الى التسهيلات التي منحت لجامعي الصدقات على أنها قللت من حق الاساقفة في منع الاشخاص من الدخول الى اسقفياتهم. ان حقيقة تمكن جامعي الصدقات من فتح الكنائس مرة واحدة كل سنة في المناطق التي فرض عليها التحريم قد قللت من فعالية المراسيم الاسقفية ، ويمكن تطبيق الفكرة نفسها على الامتيازات التي خولت الحصول على الكنائس

والمقابر ، وكذلك استخدام القساوسة الذين تم استثناؤهم من السلطة القضائية الابرشية . وكانت حجة الاخوية هي انها لا تستطيع تنفيذ واجباتها دون وجود مؤسسة اكليركية مركزية ، ولكن وجود جماعة من رجال الدين في ابرشيات الاساقفة الذين لم تكن لهم اية سيطرة عليها ، كان مصدر قلق وخيبة امل بالنسبة لهم . كما هدد وجود هذه الجماعة حقوق هؤلاء الاساقفة في السلطة القضائية المفروضة على الكنائس التي كان فيها للاخوية حق تعيين الكاهن فقط ، لانه كان هناك خطر في امكانية ان تصبح هذه الكنائس مستثناة اذا ما قرر الاسبتار جعل مقر قساوسته داخلها .

كانت الاخوية متحررة من السلطة الاسقفية والسلطة القضائية للمحاكم الاسقفية ، وقد نتج ذلك عن الامتيازات التي منحت لها والمتعلقة بالامور المالية ، وكذلك عن حقوقها في امتلاك قساوسة خاصة بها ، ولم يكن بالامكان فرض التحريم على الكنائس التي احتفظت بها الاخوية لاستعمالها الخاص ، بينما كان بالامكان دفن الاخوة حتى في اوقات التحريم ، وهو التطور الذي كان يهابه الاسبتارية منذ ١١١٨ - ١١٢٦ وسنرى ان الاسبتارية لم يحصلوا على استثناء تام من سلطة المحاكم الاسقفية حتى القرن الرابع عشر . ولكن في أواخر القرن الثاني عشر توسعت الامتيازات الممنوحة لهم في هذا المجال بشكل كبير ، اذ انهم لم يكونوا بشكل عملي مسؤولين امام اية سلطة سوى سلطة روما . ان الغموض في التعبير عن العديد من الامتيازات بكلمات واضحة - ادى ، بشكل طبيعي الى الاختلاف في التفسير - والنزوع الواضح من قبل الاسبتارية للاستفادة من حقوقهم ، والضغط عليهم الى أقصى حد ، كل هذه الامور ادت الى تفاقم الوضع . لقد تم توضيح عدد الامتيازات التي طبقت بشكل عام وفي جميع الظروف من قبل اخوية القديس يوحنا ، والتي منحت في بداية الامر بناء على طلب استثنائي ولسبب خاص ، واحيانا بسبب غير اعتيادي . ولكن اذا كان الاسبتارية يتخذون موقفا عدائيا تجاه حقوقهم ، فان الاساقفة سيقفون الموقف نفسه ، وهم الاساقفة الذين تصرفوا بطريقة لا يمكن تبريرها خلال محاولاتهم للدفاع عن مواقفهم . وقد عبرت الحكومة البابوية بلهجة حادة عن شكواها من هذه الناحية في اكثر من مناسبة .

وكالعادة ، كانت روما تؤيد الاخوية في هذه النزاعات . وكان السماح بمنح الاستثناءات مسألة سياسية ، وذلك على الرغم من وجوب قيام البابوات المستقلين ذاتيا بمحاولة لوضع حد لازدياد الامتيازات ، وقد كانت الاخويات العالمية اسلحة السلطة البابوية المركزية . ولولا ذلك لما كان للاخويات العسكرية اي امل في الدفاع بشكل لائق عن مركزها دون ان يكون لها تمثيل في محكمة روما . وكان وكلاء الاعمال للفرسان التيوتون في الفترة الاخيرة موضع بحث مستفيض . ومن المحتمل ان ممثلي الاسبتارية تركزوا في روما في القرن الثاني عشر ، وذلك على الرغم من عدم ظهور اي رأي صحيح عن مفهوم سلطات التمثيل الملائمة حتى القرن الثاني عشر . ويشير ذلك الى استخدام الاخوة بشكل مؤقت كوكلاء لتمثيل الاخوية كلما سنحت الفرصة بذلك . ومن المحتمل ان « ريموند دو بوي » «Raymond du Puy» قد سافر بنفسه في الخمسينات من القرن الثاني عشر الى روما للدفاع عن الاسبتار ضد مزاعم بطريرك بيت المقدس . وبعد عقدين من الزمن ، يبدو انه قد تم تكليف الاخوة بمهمة تمثيل الاسبتار في مسألة اثبات شرعية استقالة « جيلبرت دو اسايي » . في عام ١١٩٩ ، ناقش نائب مقدم ايطاليا ورئيس دير بارليتا «Barletta» امام البابا قضية الاخوية مع الداوية في المرقب . ولكن في عام ١٢٢١ ، كلف المقدم شخصين — من المحتمل انهما الوكيلان — بمهمة السفر الى روما لتمثيل الاسبتار في نزاعه مع الداوية بشأن جبيل . وفي عام ١٢٢٧ عين حد الاخوة ويدعى « رودريك » ، وكيلا في الادارة البابوية . وفي عام ١٢٥٣ ، تم تعيين احد آمري الحاكميات الاراغوني في مهمة مؤقتة الى روما لتمثيل مقاطعته هناك ، كما عين المقدم عام ١٢٣١ اخا يدعى « ماركيز يوس » «Marquisius» ممثلا عنه في الادارة البابوية طوال ساعات الدوام المعتادة . ومنح هذا الاخ تفويض عام بتمثيل الاخوية ، وكذلك بصلاحيات مطلقة في الامور القانونية . وبعد ثلاث سنوات ، تم تمثيل رئيس دير روما وبيزا من قبل احد الوكلاء . وفي عام ١٢٥١ ، مات وكيل الاخوية ، وعين بدلا عنه وكيل آخر عام ١٢٥٩ . وفي عام ١٣٠٩ ، تولى الاخ ليونارد ادارة امور هذا المنصب . على أية حال ، كان أشهر هؤلاء الوكلاء هو أندرو اوف فوغيا « A. of Foggia » ، الذي كان أخا من الاسبتار ، والذي تم تعيينه عام

١٢٥٥ كأحد وكيلي رئيس دير روما عن كنيسة القبر المقدس في بيزا . وفي عام ١٢٣٨ ، تم تعيينه في روما وكيلا عن الاخوية بكاملها ، الا أنه لم يبق في هذا المنصب لفترة طويلة ، وفي عام ١٢٤١ ، أصبح « محامي الاخوية في مؤتمر طرابلس » . وربما نشير هنا الى انه أصبح في هذه المرحلة ممثل الاسبتار في محاكم مقاطعة طرابلس . لذلك ، فان تجربته في مجال القانون يجب أن تكون واسعة — كان هناك فرق كبير بين الاسلوب المطلوب للتقاضي في روما وبين التقاضي في الشرق اللاتيني — وهذا ما يجب أن يوحي لنا بأن أندرو هذا كان محاميا هاويا وليس محترفا .

وبتأييد من روما ، وسع الاسبتارية الامتيازات الممنوحة لهم للتغطية على قضايا عديدة لم تكن متوقعة في الهبات الاصلية . لقد رأينا أنه تم منح الاسبتار في البداية حق التمتع بضرائب العشر المفروضة على الاراضي التي تزرع من قبل أعضائهم ، وكذلك الضرائب المترتبة على الاراضي التي تستخدم منتجاتها لاستعمالهم الشخصي ، وأدى ذلك الى عملية الاستثناء الرسمي من دفع ضرائب العشر على الاراضي التي كانت تستخدم للاستعمال الشخصي . وقد أُقر أن المكافآت المالية الناتجة عن هذا الاستثناء كانت تستخدم لصالح الفقراء المرضى . وانتشرت أعمال الادارة البابوية هذه — استثناء الاخوية من دفع ضريبة العشر على الاراضي المخصصة للاستعمال الشخصي — في الامور المالية للكنائس المحلية بشكل مباشر ، ولم يكن الاساقفة وحدهم هم الذين كان عليهم أن يتحملوا العناء من جراء هذا الاجراء ، اذ أنهم لم يتمتعوا بحق التصرف بجميع ضرائب العشر التي جمعت في أبرشياتهم ، وقد تم تدوين الخسائر المادية التي كانت تحصل في الاديرة من قبل رجال الدين غير الاكليركيين . وعلاوة على ذلك ، وكالاخويات العسكرية والرهبان البندكتينيين ، وفيما بعد الرهبان « الكارثوسيون »(*) « Carthusians » ، فقد نجح الاسبتار في توسيع نطاق تحرره في مجال الاستثناء ليشمل عددا أكبر من المنتجات : علف الماشية

(*) الكارثوسيون : أخوية رهبانية أسست عام ١٠٨٤ (في فرنسا) من قبل القديس برونو اوف كولون . وقد لعبت هذه الاخوية دورا هاما في حركة اصلاح الرهبنة في القرن الحادي عشر (المترجم).

والحيوانات ، والاراضي المستصلحة وأول محصول من فواكهها ، ومحاصيل البساتين والحدائق ، والتين ، والخشب ، والصوف ، والكتان ، والخضروات ، والسمك . ولم يتوجب دفـع ضريبة العشر على الاراضي التي أخـذت من المسلمين ، كما استثني الاسبتار من العديد من الضرائب البابوية ، وتم تخفيض المبلغ الذي يأخذه الاساقفة كضريبة عليه . وكان قادرا على توسيع الامتيازات المتعلقة بالميراث والاراضي الموروثة ، وقد أكد البابا الكسندر الثالث على أن الاساقفة لم يتمكنوا من أخذ أي جزء من الميراث الذي ترك للاسبتار ، الا اذا كان المحسنون اعضاء في أبرشياتهم ، واختاروا بأن يتم دفنهم مع الاخوة . وفي هذه الحالة ، كان بامكانهم المطالبة بربع الميراث . على أية حال ، عندما منح هذا الامتياز التثبيت الديني مرة أخرى ، توجب استثناء الاسلحة والاحصنة من المطالبة بالضرائب التي كانت تطالب بها الابرشية ، وفي عام ١٢٥٦ ، طبق هذا الاستثناء على الأسّرة والملابس « وأشياء أخرى » .

سنرى بعد قليل ان الاساقفة انتقموا من هذا الوضع في المجمع الكنسي الثالث ، على الرغم من عدم نجاحهم بشكل تام ، وقد حاولوا ، بشكل طبيعي ، أن يستخدموا النتائج التي توصل اليها هذا المجلس كسلاح لمنع تطبيق الامتيازات الممنوحة للاخوية . وفي عام ١١٨٠ ، شجب البابا الكسندر الثالث بشدة أعمال أولئك الذين كانوا يستخدمون القرارات الصادرة عن هذا المجلس لحرمـان الاخويـة من ممتلكاتها . وفي عـام ١١٨٤ ، كان البابـا لوسيوس الثـالث « Lucius III » يبدي انزعاجه بمرارة تجاه المحن والمظالم التي تحملهـا الاسبتار ، وكان من بين هذه المظالم مطالبة الاساقفة بضرائب العشر التي كانت تأخذها الاخوية قبل صدور قرار المجمع . وفي عام ١٢١٥ ، أي عندما أصدر المجمع الكنسي الرابع قرارا يقضي بألا تدفع الاخوية المستثناة ضرائب العشر المترتبة على الاراضي التي تزرع من قبل فلاحيها ، أو المترتبة على المحاصيل التي يستخدمونها لاستعمالهم الشخصي ، ادعى بعض الاساقفة بأن هذا القرار يصبح غير شرعي اذا طبق على ضرائب العشر السابقة التي يستحقونها ، الا أنهم أشاروا الى ضرائب العشر المترتبة على الاراضي الجديدة فقط . ان اعفاء الاسبتار من دفع رسوم الوكالة نتج عن عادة بعض الاساقفة في الزيادة المتعمدة

لكنائسه وأديرته مع عدد كبير من الحاشية . وبين الاعوام ١١٦٦ و ١١٧٩ ، ومرة أخرى في عام ١٢٤٤ ، منع القساوسة الابرشيون جامعي الصدقات من القيام بواجبهم . وفي عام ١٢٦٨ ، فرض بعض أعضاء هيئة الاساقفة التحريم الكنسي على أولئك الذين حضروا أداء الشعائر الدينية التي سمح للاسبتار بالقيام بها مرة واحدة كل سنة في المناطق التي فرض عليها التحريم .

لقد رأينا أنه سمح للاخوية بأن تستخدم قساوستها فقط . وهنا أيضا ، وسعت الاخوية الامتيازات الممنوحة لها . وبالاصل لم تكن سلطة القساوسة في منح الغفران كاملة ، على الرغم من أنه كان يجب عليهم أن يتصرفوا في الظروف العادية « ككهنة اعتراف » امام الاخوة . على أي حال ، كان بامكان الاسبتارية في منتصف القرن الثالث عشر ، أن يعترفوا أمام قساوستهم فقط . وقد فتحت الكنائس والمقابر ، التي استخدمت بالاصل من قبل الاخوة فقط ، أمام الاشخاص غير الاكليركيين ، الذين كانوا في حد ذاتهم مصدرا جيدا للعائدات . وفي الفترة بين عامي ١١٦٦ و ١١٧٩ ، حصل الاسبتار على حق دفن أي شخص يرغب الدفن في مقابرهم . وفي عام ١١٨٤ ، استطاع الاشخاص الذين اختاروا أن يتم دفنهم في هذه المقابر أن يحصلوا على حق اقامة الطقوس الدينية الاخيرة من قبل قساوسة الاسبتار الذين سمح لهم عام ١١٩٠ بتعميد الاطفال الذين وجدوا على عتبات أبواب مقرات الاخوية ، أو أولئك الذين ولدوا في التكيات ، وذلك اذا كان موتهم محتملا او في الحالات الضرورية الاخرى . وفي السنة التالية ، سمح لهم بقبول فئات معينة من الآثمين في الكنيسة . وفي عام ١٢١٧ وما بعد ، منح الغفران لاولئك الذين زاروا كنائس اسبتارية معينة في أيام محددة من السنة . وقد حصلت مقرات الاسبتار في الشرق اللاتيني على حقوق امتلاك الحرم(*) .

في الاعوام ١٢٠٧ و ١٢١٧ و ١٢٢٧ ، توسع امتياز اقامة الكنائس والمقابر في الاراضي الخالية من السكان لاستخدامها من قبل المستوطنين غير الاكليركيين ،

(*) ـ الحرم : مكان كالكنيسة لا تنتهك حرمته ، وكان المدينون والمجرمون يهرعون اليه في العصور الخالية .

وشمل الأراضي التي استولت عليها الاخوية وأخذتها من المسلمين ، أو تلك الاراضي التي تقع على الحدود المسيحية ، مع انه لم يكن هناك أي دير مجاور . وكانت الكنائس التي تقام على هذا الاساس توضع تحت الحماية المباشرة لابرشية زوما ، لذلك فانها لم تخضع للسلطة القضائية للاساقفة المحليين . على أي حال ، منع البابا في عام ١٢٥٧ اقامة المصلى والكنائس الصغيرة في الاماكن التي لم يشملها الاستثناء ، وتمت مراقبة تنفيذ هذا الاجراء في كل مكان . وبالرغم من ذلك ، حصل الاسبتار على العديد من الكنائس الابرشية العادية مع حقوق تعيين الكهنة فيها . وقبل عام ١١٧٩ ، أكد البابا الكسندر الثالث على وجوب حماية الحقوق الابرشية في هذه الكنائس ، وقد أصدر المجمع الكنسي الثالث قرارا يوضح فيه انه ليس للاخوية أية سلطة على الكنائس عدا تلك التي لهـا تمثيل . وعلى الرغم من أن دستور عام ١٢٢٢ قد اقر بأنه لا يجوز لأحد تعيين أي كاهن في احدى الابرشيات التي يملك فيها الاسبتار هذا الحق ، الا في حالة سماح الاخير بذلك ، فقد كرر البابا عام ١٢٥٧ قوله بأن هذه الكنائس مستثناة من دساتير المحاكم الاسقفية . وقد منع الاسبتار من اقامة الشعائر الدينية في ابرشياتهم في أوقات التحريم . وكانت الكنائس الابرشية تشكل مصدرا من مصادر الدخل . وقد صدر عن الاجتماع العام الذي عقد عام ١١٧٧ قانون يتعلق بسلطة قادة الاسبتارية في هذه الكنائس ، وذلك بطريقة لم تترك أي مجال للشك في قيمتها المالية . وفي الوقت ذاته ، كان هناك خطر ــ شعر به « وولتر ماب » « Walter Map » في الثمانينات من القرن الثاني عشر ــ من ان الاسبتارية سيتمكنون من تحريم الكنائس التي كان لهم فيها حق التمثيل، من سلطة الاساقفة ، وذلك عن طريق تعيين قساوستهم المستثنيين في هـذه الكنائس . وفي الحقيقة ، خول الاسبتار بتقديم رجال الدين الذين يعيشون في مقراتهم ، اذا كانوا ملائمين لاداء الشعائر الدينية في الكنائس الشاغرة ، وذلك على الرغم من معارضة ممثلي البابا والاساقفة لهذا الامر . وقد سمح المجمع الكنسي الثالث للاخوية بنقل القساوسة من كنيسة الى اخرى ، وذلك فقط بعد التشاور مع الاساقفة . الا أن هؤلاء الاساقفة أمروا عام ١٢٦٨ بالموافقة على هذا النقل فور تقديم الاسبتار توصيته بذلك . وقد حصل الاخوة على حق

استخدام الفائض من عائدات كنائسهم بعد الانفاق على الكهنة ، وعلى حق استخدام العائدات بشكل كامل عندما أصبحت الكنائس مهجورة . وفي عام ١٢٥١ ، حصلوا على حق التمتع بالاموال التي جمعت من الحماس الديني للحملات الصليبية ، وفي عام ١٢٦٥ ، سمح لهم بالمطالبة للحصول على الغرامات المادية التي فرضت على الذين يلجؤون الى الاعتراف .

ينسب العديد من هذه الامتيازات الى تحرر الاخوية من السلطة الابرشية . ولم يحصل الاسبتار على استثناء رسمي وتام من سلطة الاساقفة حتى عام ١٣٠٩ ، وقد اشير الى أن البابا « كليمنت الخامس » « Clement V » اقدم على اتخاذ هذه الخطوة ليحميهم من المصير الذي آل اليه الداوية . على أي حال ، لم يعد هؤلاء الاسبتار مسؤولين أمام المحاكم الابرشية بشكل عملي منذ منتصف القرن الثاني عشر ، وفي عامي ١١٧٧ - ١١٧٨ ، كرر البابا الكسندر الثالث أن الاسبتار ليسوا خاضعين للاساقفة . وقد أصدر البابوات خمس مرات في الخمسينات من القرن الثالث عشر ، ومرة أخرى عام ١٢٧٤ ، قوانين تؤكد ان الاسبتارية ليسوا مسؤولين امام الاساقفة ، بينما تم تجديد « قانون العلاقة بين الاخوة » لعام ١١٩٩ عدة مرات في القرن الثالث عشر وتم التأكيد فيه على أنه لا يمكن للاساقفة فرض التحريم الكنسي عليهم . أدت طبيعة عمل الاسبتارية ومكانتهم العالمية الى حصولهم على امتيازات أخرى . وفي عام١٢٢٥، سمح للمقدم باقامة علاقات مع الاشخاص المحرومين كنسيا ، وذلك عندما يؤدي هذا الاجراء الى تحقيق الفائدة ، شريطة أن لا يشاركهم « في الطعام أو الكلام » ، وأن لا يعطي ذريعة لارتكاب فضيحة . وفي عام ١٢٦٦ ، تم استثناء الاخوة من اصدار أحكام التحريم الكنسي على مؤسسي مقراتهم ، وكذلك من السلطة على أولئك الذين اعتمد عليهم في الحصول على ممتلكات اقليمية . وقد حاول الاسبتارية من جهتهم توسيع امتيازاتهم لتشمل الاخوة والرجال الذين يستخدمونهم . وقد توجب على البابا أن يعلمهم بأن الاخوة ، ربما الرهبان الذين لم يقيموا في الاديرة ، بل في بيوتهم ، لم يتم استثناؤهم من السلطة الابرشية بسبب اتحادهم ومصادقتهم مع الاخوية ، كما أنهم ليسوا محسنين ومستأجرين مستثنيين من سلطة المحكمة الاسقفية . وقد عمم أحد القوانين

الذي صدر أول مرة في انكلترا عام ١١٨٥ ، وجود عدد مرات . وكان يحرم على الموظفين الاكليركيين فرض الغرامات الباهظة ، بشكل يدعو الى السخرية ، على أعضاء الاسبتار لدى تقاضيهم عندهم . وفي الحقيقة ، أدى الوضع الذي كانت تعيشه الاسقفية الى توسيع الامتيازات السابقة ، لان الاساقفة امروا بألا يفرضوا التحريم الكنسي على قساوسة أو كنائس أو خدم الاسبتار ، أو على أولئك الذين طحنوا حبوبهم في مطاحنه ، أو طبخوا على مواقده ، أو كانت لهم علاقة تجارية معه ، أو أقاموا في بيوته ومقراته ، أو حضروا اقامة شعائره الدينيـــة .

في القرن الثـــاني عشر ، عبر أربعة كتاب عن مشاعر أحــد رجال الدين الاسقفيين غير الاكليركيين ممن شهدوا امتيازات الاسبتار المتزايدة . وسنناقش موضوع « ويليام الصوري » فيما بعد . وقد اظهر الآخرون مثــل « جيرهوه » « Gerhoh » اوف رايخرز بورغ ، وجون اوف سالزبوري ، وولتر ماب »، ردود الفعل الاكليركية تجاه هذه الامتيازات .

شن جيرهوه ، الرئيس الشهير لكنيسة رايخرز بورغ ، في كتابه « التحقيق ضد المسيحية » « De investigatione Antichristi » الذي كتبه في اوائل الستينات من القرن الثاني عشر ، هجوما عنيفا على الفساد المنتشر في الكنيسة المعاصرة لتلك الفترة . لقد ادعى ان الاسبتارية اشتروا في روما استثناءهم من سلطة بطريرك بيت المقدس وجميع الاساقفة ، مستخدمين في ذلك شراء المنصب الكهنوتي ليحلوا انفسهم من الواجبات البنوية والقانونية ، ولذلك أثم العديد منهم ، ووقع النزاع بينهم .

قبل ذلك بقليل ، أي في عام ١١٥٩ ، أسهب « جون اوف سالزبوري » في كتابــه « Policraticus » في وصف النزاعات التي ورد ذكرها أيضا في الرسالة التي بعث بهــا الى اسقف سالزبوري . أن السيرة البــارزة لحيــاة يوحنا في « كانتربري » « Canterbury » ورومــا ، وكذلك معرفته المتعمقة بالاعمال الكلاسيكية القديمة ومذهبة الفرداني (*) معروفة بشكل جيد ، وعلى الرغم

(*) ــ الفردانية : مذهب يقول بأن مصالح الفرد هي ، أو يجب أن تكون ، أخلاقية ، فوق كل اعتبــار .

من كونه شخصا بابويا مخلصا ، فانه عارض التطورات التي أدخلت على الكنيسة في القرن الثاني عشر ، والتي بدت له على أنها تمس جذور الحرية الشخصية . وكان أحد هذه التطورات هو ايجاد الاخويات العالمية المستثناة . لذلك ، فانه كان يكتب مؤلفاته على أنه ممثل « لرجال الدين غير الاكليركيين » . ففي حين انه يعترف بأن أعضاء الاخويات تقاة وخيرون ، الا انه لم يكن يولي الثقة بمطامح العديد من أعضاء هذه الاخويات ، الذين ــ كما يقول ــ يدّعون البراءة والتواضع ، وبذلك فانهم استطاعوا توسيع سلطتهم ونفوذهم . وقد طلبت الاخويات التحرر من جميع السلطات ، وجمعت الصدقات أثناء القاء المواعظ ، وتنكرت لحق الكنيسة من ضرائب العشر والمحصول الاول بالنسبة لاشجار الفواكه وقد أحالت هذه الاخويات القرى الى أماكن مهجورة ، وذلك عن طريق تخريب الكنائس وتحويلها الى اسطبلات ومحلات لغزل الصوف . كما أنها ادعت أنها تلم بكل شيء ، وأرادت أن يكون لها دور الريادة في جميع المجامع الكنسية ، سواء كانت دينية أم دنيوية . وقد عاشت وهي تريق دماء أعدائها ، كما أنها أقدمت بجراة على افشاء السر المقدس المتعلق بسفك دم السيد المسيح ، وحصلت على بعض الكنائس من أشخاص غير اكليركيين ، دون أخذ موافقة الاساقفة المحليين . وقد اغتصبت مفاتيح الكنيسة عن طريق الاعتراف ومنح الغفران ، وتأثر افشاؤها لهذا السر المقدس بمقدار الهبة او الامتياز الذي حصلت عليه من التائبين ، وفتحت هذه الاخويات الكنائس التي اغلقها الاساقفة ، كما اقدمت على دفن الموتى الذين رفضتهم الكنيسة ، وكان اعضاؤها يلقون المواعظ كل سنة بطريقة تؤدي الى افساد المؤمنين ، لانها ، في الحقيقة ، ووفقا للنص الذي كانت تتبعه تعتبر ان الانسان لايحيا بنعمة الله ، بل بقيمته في الحياة . وعندما كانت تتعرض للنقد ، فانها تسرع الى الحكومة البابوية او الى السلطات غير الاكليركية لطلب الحماية ، وتدعي انها ملتزمة بدفع الضرائب فقط الى الحكومة في روما ، او الى حكوماتها المركزية في بيت المقدس .

في عام ١١٧٩ ، تكررت شكوى «جون اوف سالزبوري» على لسان مجموعة كبيرة من الاساقفة في المجمع الكنسي الثالث ، وفي الثمانينات من القرن الثاني

عشر ، اشتكى وولتر ماب ـ رئيس شمامسة اوكسفورد والكاتب الساخر ـ من ان النتائج التي توصل اليها الاساقفة في هذا المجمع لم يعد لها اي جدوى نتيجة الاعمال التي قام بها السكندر الثالث، لان«الليدي بيرس»* «Lady Purse» حيث انه لم يكن هناك اي حب هي التي غزت روما كلها . وتأثر موقف وولتر تجاه الاخويات بكرهه للرهبان البندكتينيين . وقد بدت له الاخويات على انها تزداد قوة على حساب سلطة القساوسة . وقد عين هؤلاء الرهبان عددا كبيرا من القساوسة في المذابح الكنسية المتوفرة ، مما أدى الى معاناة رجال الديـن غير الاكليركيين من هذه الناحية واساء هؤلاء الرهبان استعمال حقوقهم المتعلقة بالابرشيات التي كان لهم حق تعيين الكهنة فيها ، بينما كانت هذه الابرشيات تفضل تعيين ابناء طبقة الفرسان بدلا من اولئك الـذين ينتمون الى طبقـة أغنـى .

كان ما استطاع النقاد تحقيقه بشكل فردي قليلا . ومن ناحية اخـرى وجد الاساقفة الذين اجتمعوا في روما في المجتمع الكنسي الثالث عام ١١٧٩ في القرار الذي صدر عنه وسيلة قوية للادانة والشجب . فقد اتهم اخوة الداوية والاسبتار بحصولهم على الكنائس من اشخاص غير اكليركيين بشكل غير لائق ، وكذلك بدفن الاشخاص المحرومين كنسيا ، وقبولهم عند البوح بالاسـرار المقدسة ، وتعيين ونقل القساوسة في الكنائس التي كان لهم حقوق تعيين الكهنة فيها . وكان جامعو صدقاتهم يفتحون الكنائس أكثر من مرة واحدة في السنة ، ويدفنون الموتى في المناطق التي فرض عليها التحريم . وكانوا يعملون عـلى اضعاف السلطة الابرشية عن طريق تشجيع زملائهم الرهبـان على التمتـع بالامتيازات التي لم تمنح لهم ، آملين بذلك ان توهب لهم هذه الحقوق . وقـد منع المجمع حصول الاخويات على الكنائس وضرائب العشر من اشخاص غـير اكليركيين دون أخذ موافقة الاساقفة الابرشيين ، ان جميع الهبات التي منحت بهذه الطريقة في « الوقت الحاضر » ليست شرعية . ويجب على الاسبتاريـة والداوية ان يتجنبوا التحريم الكنسي ، كما يجب عليهم ان يقدموا اولئـك القساوسة الى الاساقفة الذين يرغبون في تعيينهم في الكنائس التي ليس لهم

---

* يقصد هذا الكاتب الساخر محفظة النقود «Purse» كناية عن دفع الاموال كرشوة .

سلطة كاملة عليها ، وبعد تعيين هؤلاء القساوسة ، لا يمكن نقلهم دون مشاورة السلطات الابرشية . ولم يقبل جامعو صدقاتهم في الكنائس الواقعة في المناطق التي فرض عليها التحريم اكثر من مرة واحدة في السنة ، وقد حرموا من دفن الموتى في هذه الاوقات : ان الرهبان ، الذين كانوا يعيشون في اراضيهم ولم يتخلوا عن جميع الاشياء للاخوة ، تم استثناؤهم من السلطة الابرشية ، ولكن طبقت عليهم المعاملة نفسها التي طبقت على المقيمين في الابرشيات .

ليس هناك أي دليل لتأييد اعتقاد « وولتر ماب » بان الاسبتارية رشوا الادارة البابوية بعد صدور قرارات المجلس كي تعمل على أضعاف مفعول هذه القرارات . وفي السنوات التالية ، تم اصدار عدد من المراسيم البابوية التي أضعفت بشكل حقيقي مفعول القرارات الصادرة عن هذا المجمع . وبعد ثلاثة أشهر من نشر الدستور ، حدد البابا السنوات العشر التي سبقت « الوقت الحاضر » ، والتي منحت فيها جميع الكنائس وضرائب العشر دون موافقة الابرشية على انها باطلة وغير شرعية . وفي تموز عام ١١٧٩ منع جميع المسؤولين من اصدار القرارات التي تلغي ما منح لاخوية القديس يوحنا ، وفي عامي ١١٨٠ و ١١٨٤ أدانت المراسيم الصادرة بشدة اولئك الذين كانوا يستخدمون سلطة المجمع لتجريد الاسبتارية من ضرائب العشر والممتلكات .

لم يكن المجمع الكنسي الثالث غير ناجح بشكل تام من وجهة نظر الاساقفة، فعلى الاقل تم الاعتراف بشكل رسمي بالمظالم والشكاوى ، ولكنها لم تعالج كما يجب ، كما استمر ظهور عدد كبير من الشكاوى الاخرى . وقد اقترح بعض مقدمي اوكسفورد خلال احدى المناقشات الرسمية في التسعينات من القرن الثاني عشر ، انه على الرغم من ان الاسقف لا يستطيع فرض التحريم الكنسي على الاسبتارية ، الا انه يستطيع ادانتهم في حالات معينة على انهم محرومون كنسيا ، وقد عبرت القوانين الصادرة عن المجلس والمجمع الكنسي الفرنسيين عن استهجانها للطرق التي زادت بها الاخويات امتيازاتها ، ولتسامحها بشأن التحريم الكنسي ، ووجد « جيمس دو فيتري » نفسه ، الذي كان أسقفا

لعكا ، متورطا في نزاع طويل مع الاسبتارية بشأن امتيازاتهم في ابرشيته ، ووبخ الاخويات العسكرية لكونها غير اكليركية . فقد كانت هذه الاخويات جشعة فيما يتعلق بالارض ، وتحدث الاخوة المستقلون عن التخلي عن املاكهم ، الا ان الاخويات رغبت في ابقاء كل شيء مشتركا . وقد اغضب بعض هذه الاخويات الاساقفة للامتيازات التي حصلت عليها ، كما أنها أخذت المكوس التي كانت تدفع للكهنة . واقترح « جيمس دو فيتري » ارسال الاخوة المتعلمين لدراسة اللاهوت بدلا من العلوم الدنيوية ، وبذلك ، فان الاخويات ستمتلك رؤساء اديرة وقساوسة يستطيعون القراءة والكتابة . واشتكى « روجر بيكون » من ان رد الوثنيين عن وثنيتهم أصبح امرا صعبا بسبب نزاعات ومطامح الاخويات العسكرية ، ومن بين التقارير الاربعة التي سلمت الى البابا «غريغوري الخامس» قبل عقد مجلس ليون عام ١٢٧٤ ، هاجم تقريران منها فقط الاخويات المستثناة بشكل مباشر . وقد كرر مؤلف كتاب « مجموعة الفضائح الكنسية » Collectio de Scandalis Ecclesiae الحجج والبراهين التي أوردها « جيمس دو فيتري » ، بينما لفت « برونو اوف اولمتز » «Bruno of Olmütz» الانتباه الى الطريقة التي جعلت بها هذه الاخويات المؤمنين يقفون ضد رجال الدين غير الاكليركيين .

لقد حضر المجمع الكنسي الثالث وفد يمثل الولايات المشتركة في الحروب الصليبية ، برئاسة « ويليام الصوري » ، الذي كان أحد أقوى نقاد الاخوية ، وقد توجب اضافة خبرات اساقفة الشرق اللاتيني الى خبرات أساقفة اوروبا، وعلى الرغم من ان الظروف في سورية اللاتينية كانت مختلفة عن الظروف نفسها — ردود فعل الكهنة تجاه الامتيازات الممنوحة للاسبتارية — بعض الصعوبات بالنسبة للعلاقات بين المؤسستين اللتين كان يعتمد عليهما كثيرا للحيلولة دون زوال المستوطنة . وفي الوقت نفسه ، من الخطأ ان نوحي بأن هذه المشاعر قد انتشرت على مستوى عال ، او ان كلا من اخوية القديس يوحنا وهيئة الاساقفة كانتا تحاولان باستمرار وبشكل مخادع ، ان تحصلا لصالحهما على بعض الفقرات في المراسيم البابوية عن طريق المراوغة . وتوجب عليهما

العيش معا ، وقد اصبحت العلاقات على المستوى المحلي سلمية بالضرورة . ومن الواضح ان العديد من اجراءات توسيع الامتيازات وردود الفعل تجاهها قد نشأت بسبب صعوبات حقيقية في تفسير العبارات التي صيغت بشكل سيء ، او تم التعبير عنها بكلمات مضللة . وكان تفسير هذه العبارات لصالح كلا الطرفين في أكثر الحالات تفاؤلا ، وكان ذلك احدى صفات علاقاتهما بسورية اللاتينيــة .

*   *   *

الفصل الثالث عشر

الاسبتارية والاساقفة اللاتين في الشرق

كانت الاخويات العسكرية تمثل البابوية في سورية اللاتينية وقد كانت مسألة سعي روما الى استخدام هذه الاخويات كوسيلة لجعل الكنيسة مركزية مثار جدل ونقاش . لقد رأينا ان هذه الاخويات كانت القنوات التي تتدفق من خلالها الاعانات المالية البابوية الى الاراضي المقدسة، وهي تعيد الحقائق والمعلومات الى روما، وانها غالبا ما كانت تستخدم من قبل البابوات كوسيلة لفض النزاعات الداخلية في سورية اللاتينية ، وذلك عندما كان هؤلاء البابوات يشعرون انهم بحاجة الى تدخلها . وعندما اصبحت السلطة المدنية ضعيفة في الاراضي المقدسة ، تعاظمت قوة الاخويات ، ولم يعترض البابوات المتعاقبين سبيل هذه القوة مطلقا، بل انها كانت تلقى التشجيع بشكل واضح. وقد اثر هذا التشجيع على علاقات الاسبتارية مع هيئة الاساقفة في سورية اللاتينية . بعد عام ١١٥٤ ، كانت سلطة بطريرك بيت المقدس على الاخويات اكثر بقليل من سلطة اي مطران . ويخبرنا « وليام الصوري » انه عندما اصبحت هذه الاخويات غنية جدا ، حررها البابا من يد ونفوذ « اللورد البطريرك » ، وقد كتب «جيرهوه اوف رايخرز برغ » الشيء نفسه قبل « وليام » وبشكل اكثر تأكيدا . وفي عام ١٢٥٦ ، أمر البابا « الكسندر الرابع » الاسبتارية بوجوب اطاعة نصح واوامر البطريرك الذي فوضه ممثلا للبابا عندهم « **على الرغم من تساهل المحكمة البابوية تجاهك وتجاه خدمك، سواء كان ذلك بشكل جماعي او شخصي، وذلك بشان المنع والتحريم ، والحرمان المؤقت من امتياز ، والحرمان من حق العضوية او الانتساب الى الكنيسة او الدعوة الى التقاضي خارج اماكن معينة**».

وفي الحالات التي لا تكون فيها للبطريرك سلطة اكثر من الاساقفة الاخرين ، فانه هو واخاه ، الذي كان صاحب انطاكية ، تكون لهما الافضلية في هذه السلطة. وقد انشئت اخوية القديس يوحنا لصالح ابرشياتهم ، وكان السبب في وجودها هو بقاء وازدهار الدول اللاتينية في اوروبا الشرقية . وبادىء ذي بدء ، كانت المراكز الرئيسية لها في بيت المقدس ومن ثم اصبحت في عكا ، حيث كان البطاركة والمقدمون مهتمين بالادارة اليومية للمستوطنة اللاتينية . لذلك ، فان جميع النزاعات المحلية تمت معالجتها على أعلى المستويات ، وهذا ما اعطى علاقات الاسبتارية مع الكنيسة في المشرق سمة خاصة .

وعلاوة على ذلك ، خلقت طبيعة الزراعة في سورّية اللاتينية وضعا غير مألوف بالنسبة لدفع ضريبة العشر الى الكنيسة . لقد رأينا انه كانت هناك فعلا ملكية خاصة للاراضي ، ولكن بشكل محدود . وكانت كل اراضي القرية تزرع من قبل الفلاحين الذين كانوا يدفعون نسبة معينة من محاصيلهم الى مالك هذه الاراضي . ولكن الامتيازات التي منحت للاسبتارية بشأن ضريبة العشر استثنتهم فقط من دفع ضريبة العشر المترتبة على أراضيهم المعدة للاستخدام الخاص وعلى المنتجات المخصصة لاستعمالهم الشخصي . وبالطبع، امكن تطبيق القسم الثاني من هذا الامتياز (وهو استثناء المنتجات من ضريبة العشر) ، وكان هناك ميل طبيعي من قبل الاخوية للمطالبة باستثناء حقول كروم العنب والحدائق من ضريبة العشر بالنسبة للاراضي الخاصة المحدودة، وكذلك للمطالبة بتخصيص اعمال محددة لقرى معينة وبذلك يتم توجيه منتجات هذه القرى نحو أهداف محددة . وقد تمت مؤخرا الاشارة الى عقود الامتيازات التي استثنت الاسبتارية من ضريبة العشر على انها لم تكن فعالية او انها كانت على الاقل قابلة للتفاوض . كان ذلك صحيحا بالنسبة لسورية بشكل خاص . كانت مشاهدة شخص يستخدم منتجات زراعية اصعب دائما من مشاهدة شخص يمتلك ارضا خاصة للاستعمال الشخصي : سنرى فيما بعد انه نادرا ما كانت الاخوية قادرة على المطالبة باستثنائها من دفع ضريبة العشر بشكل كلي . وفي الوقت نفسه تعدى ذلك الى أمور المصاعب المالية . وفي القرن الثالث عشر ، كانت وعود الاخوية كبيرة جدا بشأن الموارد

والثروات المحدودة لممتلكاتها ، وكان عليها ان تعتمد بشكل كبير على الاعانات المالية المقدمة من الدول الغربية على شكل حبوب واحصنة ونقود مالية . وكان هذا الفقر يشمل جميع المؤسسات التي كانت موجودة في الشرق بعد عام ١١٨٧، وادى ذلك الى نزاعات مريرة بشأن الضريبة والاراضي . وكان على الاسبتارية ان يتوصلوا الى حل مامع الاساقفة المحليين الذين كانوا يريدون ان يروا محاصيل هؤلاء الاسبتارية وقد تدنت بشكل كبير .

كانت العلاقات الجيدة القائمة بين هيئة الاساقفة والاسبتار ضرورية لتبقى المستوطنة الفرنجية الصغيرة في حالة جيدة . وفي البداية ، سعى الاساقفة كثيرا لمساعدة الاخوية . وقد منحها اول بطريرك لاتيني عين في انطاكية بعض الاراضي ، الواقعة امام الاسبتار في المدينة ، وبذلك استطاعت ان تبني بعض الاسطبلات . ووهب اساقفة رفنية الاوائل هذه الاخوية العديد من المزارع الواقعة في ابرشياتهم . وفي عام ١١١٢ ، منح الملك « بولدوين » الاول تثبيتا دينيا لممتلكات هذه الاخوية بحضور البطريرك وكهنة بيت المقدس ، وقد ربط تاريخ تنفيذ هذا التثبيت باليوم الذي سيوافق فيه البطريرك على على ذلك . وفي عام ١١١٨ ، منح رئيس اساقفة افاميا تثبيتا دينيا لكل ما تلقته هذه الاخوية من صاحب طرابلس او من الاقطاعيين التابعين له . في عام ١١٤٦ منحها اسقف عكا ضريبة العشر المترتبة على احدى مطاحن هذه المدينة وحتى بعد النزاع الكبير الذي وقع عام ١١٥٤ ، والذي سيناقش فيما بعد ، أوصى أحد بطاركة بيت المقدس « بصديقه العزيز » المقدم « جيلبرت دو أسايي » الى أساقفة المسيحيين . وفي عام ١١٧٠ ، لعبت هذه الاخوية دورا في مجاولة تهدئة النزاع – على الرغم من انه لم يكن دورا نزيها – الذي نشأ داخل الاخوية نفسها بعد استقالة جيلبرت من منصبه . وتم التخلي عن حصن ومقاطعة المرقب الى الاخوية عام ١١٨٦ وفقا لتوجيهات بطريرك انطاكية وبتحريض من أسقف بانياس . في اوائل القرن الثالث عشر ، أودع البطريرك بعض المجوهرات في أسبتار انطاكية . وفي عام ١٢١٥ ، استدان اسقف طرطوس ١٥٠٠ بيزنط اسلامي من الاخوية ، كما استدان عام ١٢٥٦ من بطريرك بيت

المقدس ١٥٠ أونصة من الذهب ، ومن أسقف طرابلس ١٩٠٠ جنيه توري* عام ١٢٥٧ ، وذلك للقيام برحلة الى أوروبا . وفي عام ١٢٥٩ ، أعلن رئيس أساقفة الناصرة عن منح حمايته الخاصة للاسبتار .

نالت الاخوية رعاية من قبل كنائس الشرق منذ وقت مبكر . وقبل عام ١١١٩ منحت هذه الاخوية كنيسة من قبل احدى الشخصيات غير الاكليركية « اذا وافق رئيس الاساقفة على ذلك » . وقبل عام ١١٣١ ، منحت كنيسة في مقاطعة الرها . وفي عام ١١٤٠ ، منحت قرية صغيرة «Gastina» وسميت بـ « العزبة » «Horari» وذلك مع الكنيسة وملحقاتها . ومن المحتمل ان الكاهن الاسبتاري قد اصبح تحت رعاية الابرشية منذ عام ١١٣٤ . وفي البداية ، لم يبد ان الاساقفة قد عارضوا ذلك . وفي عام ١١١٥ ، أعطى اسقف طرابلس الاسبتار كنيسة ابرشية وكنائس اخرى حيث يكون بامكان الاسبتار ان يعين فيها الكهنة . وكانت هذه الكنائس تولي الاحترام والطاعة لهذا الاسقف. في عام ١١٣٤ ، منح بطريرك انطاكية المقدم كنيسة ابرشية ، وقد وافق رئيس اساقفة « تولوب » « Tulupe » على منح كنيسة أخرى من قبل صاحب مقاطعة الرها . واستحسن بطريرك بيت المقدس عملية وهب أرض عمواس للاخوية عام ١١٤١ . وكانت كنيسة القبر المقدس (كنيسة القيامة) تتلقى نصف ضريبة العشر المستحقة على هذه الارض ، ولكن « **رهبان الاسبتار كانوا يحتفظون بكل شيء آخر يمكن ان يجمعوه من أجل ادارة كنائسهم الصغيرة والكنائس التي يحق لهم ان يقدموا فيها القرابين ويتزوجوا ويقوموا باعمال التطهير والجهر بالايمان وزيارة قبر مريم العذراء ، وهي الكنائس التي يوجد فيها بيت المعمودية والمدافن** » . وفي عام ١١٤٣ اعطى لطريرك بيت المقدس هذه الاخوية كنيسة « اخيلدا ماك » «Acheldamach» وبعض الاراضي « التي دفن فيها الحجاج » ، وقد اصبح دير القديس جورج في بيت جبرين ملكا للاسبتارية عام ١١٧٣ . وفي عام ١١٨٦ ، طالب هؤلاء الاسبتارية بدير القديسة « ماري دوفير » «Mary du Fer» وكذلك بدير « مون بارلييه » «Mont Parlier» ودير القديس «تيودور» الذي كان يتبع لولاية انطاكية. في عام

---

* نسبة الى مدينة تور الفرنسية .

١٢٠٠ ، اعطاهم اسقف عكا مدفنا بالقرب من اسوار المدينـة ، وسمح لهم ببناء كنيسة صغيرة يمكنهم فيها ان يقدموا قداسا دينيا حين يشاؤون .

في البداية ، خلص اساقفة المستوطنة اللاتينية الاسبتار من دفع ضرائب العشر طوعا . لقد اوحى بأن هذه الامتيازات تظهر بأن الاسبتارية لم يستغلوا الامتيازات الممنوحة لهم بشأن استثناءات من الضرائب قبل عام ١١٣٥ . ولكن اتضح حديثا ان الهبات الخاصة من ضرائب العشر التي منحها لهم اياهـا الاساقفة والشخصيات غير الاكليركية لم تدل على تخلصهم التام من دفع هذه الضرائب ، بل كان ذلك لمجرد نقل الملكية التابعة للشخص الذي منحها الـى شخص آخر : ذلك القسم من ضرائب العشر التي سترجع اليه حتما . وعلاوة على ذلك ، رأينا ان الامتيازات المتعلقة بضريبة العشر والممنوحة للاسبتاريـة لم تستغل بشكل كامل في سورية اللاتينية حيث كانت الاراضي التي يمتلكهـا السكان قليلة ، لذلك كانت الامتيازات التي يمنحها الاساقفة بشكل شخصي ضرورية لاعطائهم حق التمتع بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها في اوروبا . وهكذا قبل المرسوم البابوي «Pie Postulatio Voluntatis»ان يعفي بطريرك بيت المقدس الاخوية من دفع ضريبة العشر الى كنيسته خلال فترة توليه لمنصبه ، وذلك في عام ١١١٢ ، وحذا رئيس اساقفة قيسارية حذوه في العام نفسه . في عام ١١١٥ ، أعفي أسقف طرابلس الاخوية من دفع ضريبة العشر الواجب دفعها له والمترتبة على ممتلكات هذه الاخوية ، وذلك ، كما فعل اساقفة رفنية في السنوات الاولى من القرن الثاني عشـر ، وكما فعـل اسقف الناصـرة عام ١١٢٥ .

على أي حال ، أصبح الاساقفة منذ الثلاثينات مـن القرن الثاني عشر اقل تسامحا ، ويبدو ان الوثائق التي اعفت الاسبتارية ، الذين سكنوا المشرق من ضرائب العشر كانت نتيجة صفقات . في عام ١١٣٥ ، استثنى اسقف عكا الرهبان من دفع ضريبة العشر ، بشرط ان يتخلوا عن حقهم في النزاع القائم بين الطرفين بشأن البناء الواقع الى جوار كاتدرائيته . وفي عام ١١٤١ ، اي عندما تم وضع الترتيبات من قبل الاسبتار والبطريرك ، والتي كانت بموجبها

تؤخذ ضريبة العشر المترتبة على اراضي عمواس . كان كهنة القبر المقــدس يتلقون نصف ضريبة العشر المترتبة على محصول الفواكه . وفي عام ١١٦٨ ، اخبر البابا هؤلاء الكهنة بانه قد أمر الاسبتارية بأن يدفعوا هذه الضرائب دون مراوغة او مواربة . ومنذ عام ١١٥٠ ، اصبحت الناصرة تابعة لسلطة رئيس الاساقفة ، كما تم التوصل الى اتفاقية جديدة تتعلق بضريبة العشر وتنص على استثناء ابرشية طبريا بشكل خاص من هذه الضرائب بينمــا تمتعت الاخويــة بالعفو منها . وفي عام ١١٨١ ، توصل رئيس أساقفة الكرك في مقاطعة مؤاب الى اتفاقية مع المقدم بشأن ضريبة العشر المترتبة على ابرشيته وقد استثنيــت الاخوية من دفع هذه الضريبة مقابل دفع اربعين بيزنطا سنويا . واذا اصبحت هذه الاخوية في المستقبل بحاجة الى الارض حيث يحق لرئيس الاساقفة ان يأخذ ضريبة العشر ، فانه يتوجب عليها ان تدفع هذه الضريبة . لقد تمكنت الاخوية من التمتع بامتيازاتها ، اذ انها لم تدفع الضرائب المترتبة على اعلاف الماشية والممتلكات التي يعمل فيها الرهبان وكذلك المنتجات التي يستخدمونها. ويبدو ان ذلك قد شمل الاراضي الجديدة فقط : بساتين كروم العنب والحدائق التي بدىء بزراعتها حديثا، لان الاخوية كانت تدفع نصف ضريبة العشر المترتبة على هذه البساتين والحدائق اذ اعتاد رئيس الاساقفة ان يأخذ ضريبة العشر كاملة او حيثما كانت له حقوق المطران . في عام ١١٩٣ ، نظم مقدم الاسبتــار قائمة مفصلة بالمصادر التي يتوقع أسقف بانياس ان يأخذ منها ضريبة العشر او نصفها او لا يتوقع ان يأخذ منها شيئا على الاطلاع . وسنرى بعد قليل ان هذه الاتفاقية قد لقيت الاستخسان من قبل الاسقف . في عام ٢٠٣ ، وافــق الاسبتارية على ان يدفعوا لاسقف ليماسول ١٢٠ بيزنطا اسلاميا سنويا بدلا من دفع ضريبة العشر . وفي أواخر العشرينات من القرن الثالث عشر حــاول هؤلاء الاسبتارية ان يلغوا هذا الالتزام ؛ ولكنهم لم ينجحوا في ذلك . في عام ١٢٢٦ ، وافق مقدم الاسبتارية الذي كان يحكم انطاكية ان يدفــع لرئيس اساقفة « المصيصة » ضريبة العشر المترتبة على الاراضي التي يزرعها الفلاحون، ومن المحتمل ان الاخوية لم تمتلك اراض خاصة بها في هذه المنطقة . مهما يكن ، اكد هذا المقدم على ان هذه الموافقة يجب الا تلحق الضرر بأي امتياز يتعلــق

بالاعفاء من الضرائب . في عام ١٢٤٨ ، بدا ان الاخوية لم تتمتع باي إمتياز استثنائي بشأن ضريبة العشر في ابرشية قيسارية . انها استثنيت من دفع ضريبة العشر عن اربع مزارع كانت قد استأجرتها من رئيس اساقفة الناصرة عام ١٢٥٥ ، ويمكن ان يكون ذلك احد الاسباب التي جعلت اجرة هذه المزارع باهظة جدا . في عام ١٢٥٩ ، وافق رئيس الاساقفة والمقدم على فرض ضريبة العشر على حصن كوكب وملحقاته ، وعندما خرج حصن كوكب عن سيطرة الصليبيين ، فمن المحتمل ان الاخوية كانت تمتلك بعض اراضي هذا الحصن لان رئيس الاساقفة كان عليه في المستقبل ان يدفع ضريبة العشر من مجموع محاصيل الحبوب والفاصوليا والفول والحمص والعدس والخمر والزيت ، بينما استثني الاسبتارية من دفع ضريبة العشر . ولدى قبول رئيس الاساقفة بقرار الوفد البابوي بشأن النزاع مع الاسبتار حول مزرعة روبرت ، لم يعترف بضريبة العشر المترتبة عليه من جراء قبوله بهذا القرار ، كما انه تخلى عن جميع مطالبه من أجل دفعها فيما بعد ، ومن الواضح ان ضريبة العشر كانت أحد اسباب النزاع . في عام ١٢٧٧ ، تخلى أسقف طرابلس عن حقوقه المتعلقة بضريبة العشر والتي كانت تؤخذ من بعض الاراضي الواقعة بالقرب من طرابلس مقابل أجر سنوي مقداره ستون بيزنطا من الذهب يدفعه الاسبتار .

تدل هذه المواثيق على أن الاسبتارية لم يكونوا معفيين بشكل عادي من دفع ضريبة العشر الى الاسقف عن قرية في سورية دون الحصول على استثناء خاص ، على الرغم من أنهم كانوا يطالبون في بعض الاحيان باعفائهم من دفع الضرائب المترتبة على بساتين كروم العنب والحدائق . ولكن هذه الاعفاءات اظهرت ايضا أنه كان يجب على الاساقفة والاسبتارية ان يغيروا اتفاقياتهم بشأن الضرائب كلما تغيرت الظروف . ان الوثائق التي بقيت كانت المحصلة الاخيرة للمفاوضات الشاقة . عندما نناقش نزاعات الاخوية مع رجال الدين المسيحيين، فاننا سنراها عملية واضحة يمكن ادراكها بسهولة : محاولة لاستخدام امتياز جديد او محاولة لتوسيع امتياز قديم ، ورفض هذه المحاولة من قبل هيئة الاساقفة ، وفي بعض الاحيان التوصل الى تسوية عن طريق التحكيم .

لم يكن استخدام الاسبتارية للامتيازات مقبولا دائما . لقد اوضح ذلك « جون اوف سالزبوري » اذ انه بقدر ما كان يكره الامتيازات الممنوحة لهم ، كان يتهجم على سوء استعمالهم لهذه الامتيازات : انه سوء الاستعمال الذي تم توضيحه للبابوية من قبل الاساقفة في المجمع الكنسي الثالث . وهناك دلائل كثيرة تثبت ان الاسبتارية كانوا يسيؤون استعمال حقوقهم في سورية اللاتينية : فمثلا ، بالنسبة لضريبة العشر ، كانوا خلال عام ١١٦٨ يسيؤون استعمال حقهم في بناء الكنائس وفي الاحتفال الديني خلال فترة التحريم . وقد اخبر البابا الكسندر الثالث رئيس دير القبر المقدس بأنه امر الاسبتارية بأن يدفعوا لكنيسته ضريبة العشر المترتبة على الاراضي التي لايزرعونها همأنفسهم، كما أمرهم بان ينفذوا الاتفاقيات السابقة المتعلقة بالاراضي التي كانوا يزرعونها او المنتجات التي كانوا يستخدمونها . واذا ابدوا أي نوع من التظلم والشكوى ، فانهم يستطيعون ان يحيلوها الى المحاكم . انهم حرموا من بناء كنيسة في يافا دون الحصول على موافقة بطريرك بيت المقدس وكهنة دير القبر المقدس ، وخاصة انه كانت هنا في هذه البلدة كنيسة تابعة لهم . وعندما دخلت يافا فترة التحريم، كان على هؤلاء الاسبتارية الا يقرعوا اجراس كنيستهم ، وتم تذكيرهم بأنهم يجب ان يقيموا احتفالاتهم الدينية دون احداث ضجيج . وفي عام ١٢٠٧ ، كان هؤلاء الاسبتارية يسيؤون استعمال حقوقهم المتعلقة بالحرم ، اذ أنهم كانوا يستقبلون في بيوتهم أشخاصا غير مرغوب فيهم . مهما يكن ، رفض البابا انوسنت الثالث أن يتورط في هذه المسألة ، التي تركت للبابا غريغوري التاسع الذي وقف موقفا أشد تجاه هذه المسألة في عام ١٢٣٨ . لقد اخبر بطريرك بيت المقدس والاساقفة المساعدين بأنه يحق للاخوية اضفاء صفة الحرم على الاديرة او الكنائس التابعة لها فقط ، وانه يجب رفض دخول مرتكبي جرائم القتل حتى الى هذه الاماكن . وسمح لاساقفة سورية اللاتينية بأن يحرموا كنسيا أي شخص يرفض هذا الحكم القضائي . وفي عام ١٢١٢ ، خضعت طرابلس للتحريم حسب طلب الداوية والاسبتارية ، فاعترض أسقفها على ذلك لان الاخويات قد افترضت بأنها استثنيت من هذا الحكم القضائي الذي فرض لصالحها . وقد أعلمه البابا « انوسنت الثالث » انها اذا ماستمرت في تجاوز

حقوقها بهذه الطريقة ، فانه يستطيع ان يرفض التحريم ، وبذلك فانه يلغيه . في عام ١٢٣٧ ، منع البابا « غريغوري » التاسع الاخويات العسكرية والاساقفة في سورية من رفض معمودية الارقاء . وفي عام ١٢٣٨ ، اتهم « غريغوري » الاسبتارية بالفجور والجشع والفساد الاخلاقي وسوء استعمال امتيازاتهم المتعلقة بالحرم وسوء ادارة الاعمال المتعلقة بالاسرار المقدسة ، واتهمهم كذلك بالتعامل مع اليونان في « نيقية »* «Nicaea» من اجل الحاق الضرر بالسكان اللاتين في امبراطورية القسطنطينية ، وأتهم العديد من اعضاء الاخوية بالهرطقة. وانذرهم بأنه اذا لم يصلحوا أنفسهم خلال ثلاثة أشهر ، فان رئيس أساقفة صور سيؤمر بأن يأخذ على عاتقه التحقيق في هذه المسائل ، وان يصلح أمور سوء استعمال حقوقهم سواء كان ذلك متعلقاً « بالادارة او بالاعضاء » .

أن أحد أفضل الايضاحات بشأن الموقف العدائي الذي وقفته الاخوية تجاه حقوقها يكمن في علاقاتها مع الفرسان التيوتون . في عام ١١٤٣ ، أخضع البابا اسبتارا جرمانيا لسلطة اخوية القديس يوحنا . وتم تعزيز حقوق الاسبتارية في السلطة القضائية من قبل البابا ادريان الرابع . يبدو ان هذه الاخوية كانت المؤسسة الوقفية الاصلية لاخوية الفرسان التيوتون التي نشأت فيما بعد ، ولكن السيطرة الفعلية للاسبتارية على هذه الاخوية انتهت قبل عام ١١٩٢ ، أي عندما وقع « غارنييه » مقدم نابولي ، على عقد رسمي بانشاء المؤسسة التي يبدو أنها قد أصبحت أخوية جرمانية مستقلة ، وتخلى الاسبتارية عن بعض الاراضي لهذه الاخوية ولم يشر العقد الذي منحهم كل هذا الى حقهم في الحكم والتشريع . بعد عام ١١٩٥ ، تمتع الجرمانيون بالحقوق نفسها التي كان يتمتع بها الداوية والاسبتارية في اسواق عكا . وعندما انشأ مجلس عكا أخوية الفرسان التيوتون عام ١١٩٨ ، كان المقدم « جيوفري دو دونجون » أحد اعضاء هذا المجلس الذي صاغ دستور الاخوية ، وقد اشتمل على فقرات عسكرية مأخوذة من دستور اخوية الكنيسة وفقرات تتعلق بالعناية بالمرض ، وهي التي أخذت من دستور أخوية القديس يوحنا . على أي حال ، في عام

* نيقية : مدينة قديمة في اسيا الصغرى .

١٢٢٩ ، كن الاسبتارية في روما يدعون ان الجرمانيين هم رعايا خاضعين لسلطتهم التشريعية ، وربما فعلوا ذلك لانهم حرضوا نتيجة الدعم الذي لقيه الامبراطور فريدريك الثاني من قبل الفرسان التيوتون . ولما كان البابا « غريغوري » التاسع في حالة حرب مع الامبراطور « فريدريك » في ذلك الوقت ، ايد ادعاءاتهم وأمر بطريرك بيت المقدس بأن يتأكد ان لهؤلاء الاسبتارية سلطة على الفرسان التيوتون . ويبدو ان مزاعم الاسبتارية قد طرحت جانبا عام ١٢٣١ ، لانهم كانوا يرغبون في ايداع ممتلكاتهم الصقلية لدى الجرمانيين . بيد ان مسألة حقوقهم اثيرت مرة اخرى عام ١٢٤٠ ، وأمر الفرسان التيوتون بارسال ممثل عنهم الى روما ليدافع عن استقلالهم . وفي اذار ١٢٤١ ، تم تعيين بابا جديد للاسبتار ، ولكن مقدم الفرسان التيوتون توفي في هذه الفترة ولم تكن لوكلائه أية سلطة ، وكان الجرمانيون يدعون ان قرار التعيين هذا بات لاغيا وباطلا . فقرر البابا انه يجب عرض القضية مرة اخرى للتحكيم ، ويبدو أنها أهملت . وفي تشرين عهد الاسبتارية وصاحب انطاكية الى الجرمانيين بأمر حراسة الوثائق الخاصة بالاتفاقية التي عقدت بينهم . مهما يكن ، فقد ارجأ الاسبتارية في أواخر عام ١٢٥٨ مطالبتهم بممارسة سلطتهم على الفرسان التيوتون ، وذلك من خلال معاهدة وقعت من قبل ثلاث اخويات عسكرية كبيرة .

كانت جهود الاسبتارية لفرض سلطتهم التشريعية على أخوية الفرسان التيوتون سمة بارزة للمؤسسات الكبيرة في العصور الوسطى . وكجميع المؤسسات فقد كان هذا الاسبتار يؤكد في بعض الاحيان على حقوقه كثيرا جدا ، ويتعرض لانتقاد البابا ، وفي أكثر الاحيان ، كانت محاولات الاسبتار لممارسة أو توسيع امتيازاته ، والادعاءات المضادة لهذه المحاولات من قبل الاسقف تحال الى التحكيم . وتعطينا الوثائق التي بقيت من تلك الفترة صورة واضحة عن الصراع بين الاخوية المستثناة من الضرائب وبين ادارة الاساقفة في سورية اللاتينية .

* * *

بيت المقـدس

في عام ١١٥٤ ، نشأ صراع بارز مع كنيسة بيت المقدس ، وقد أظهر ذلك بوضوح مشاعر رجال الدين الصليبيين تجاه الامتيازات المتزايدة الممنوحة للاخويات المستثناة من الضرائب . وربما كان السبب المباشر لهذا النزاع هو العمل الذي قام به البابا اناستاسيوس الذي جدد عقيدة الايمان المسيحي ، وأضاف اليها الفقرات القانونية التي أعطت الاسبتار الحق الشرعي في امتلاك القساوسة التابعين للبابا فقط ، وكذلك ، فقد أضعفت هذه الفقرات سلطة أساقفة الابرشيات الى حد كبير في رفض رسامة الكاهن . ولكن الاسباب التي ذكرها ويليام الصوري بشأن هذا النزاع تعود الى حقوق الابرشية وحقوق ضريبة العشر ، وكذلك الى الامور التي يبدو انها كانت مستعصية منذ فترة طويلة . وكانت شكاوى البطريرك ، كما ذكرها ويليام ، مشابهة لشكاوى « جون اوف سالزبوري ، وولتر ماب » والمجمع الكنسي الثالث . وقبل الاسبتارية اولئك الذين حرموا كنسيا كأعضاء مشاركين في طقوسهم الدينية ، وقاموا تجاههم بأداء آخر الشعائر الدينية ودفنهم . وخلال أوقات التحريم ، كانوا يقرعون أجراس كنيستهم علانية ، ويدعون الناس الى اقامة الطقوس الدينية كي يتمتعوا بحق تقديم القرابين التي يجب أن تعود الى الكنائس الابرشية فهم لم يقدموا الى الاساقفة القساوسة الذين سيتم تعيينهم في هذه الكنائس التي لهم فيها حق تعيين الكهنة ، حتى انهم لم يعلموا هيئة الاساقفة بتعيينهم . وقد أهملوا دفع ضريبة العشر المترتبة عليهم . وكانت مزاعم ويليام الصوري صحيحة ، اذ انه أعلن ان هـذه الشكاوى عامة بالنسبة لجميـع الكنائس العالمية ، ولكن كانت هناك اسباب خاصة للاستياء الذي ساد في الشرق ، فقد بدا الاسبتارية وكأن الاذى قد لحق بهم ـ ربما بسبب التعصب المتزايد ـ نتيجة لايذاء البطريرك « فولشر الاندوليمي » . وقد وسع الاسبتار تكيتبهم ،

وكان القصد من ذلك هو جعلها مقرا أكثر سخاء من كنيسة القبر المقدس نفسها الواقعة الى جوارها . وعندما كان البطريرك يلقي مواعظه ، كانوا يقرعون الاجراس بشكل متعمد وبصوت عال حيث لم يكن بالامكان سماع كلماته . وقد التجأ فولشر الى المواطنين وناشدهم الا يفعلوا ذلك ، ولكن الاسبتار لم يهتموا بهذه الشكاوى . وفي أحد الايام ، عندما كانوا مندفعين نحو كنيسة القبر المقدس ، أمطروا الكهف بسيل من الرماح التي جمعت وعلقت في الموضع الذي صلب فيه السيد المسيح . وكان المرسوم الرسمي البابوي الذي اصدره البابا أناستاسيوس آخر تلميح بوشك وقوع حدث ما : أعتبر ذلك من قبل كل من «ويليام الصوري وجيرهوه اوف لايجر زبيرغ» تحرير الاسبتار تحريرا نهائيا من السلطة البطريركية ، وأضاف ويليام أن العديد من الاديرة والاسبتار التي تحذو حذو الاخوية قد أعفيت من الاذى الذي كانت ستلحقه بها ابرشية بيت المقدس . وعندما وجد البطريرك انه لم يعد بامكانه أن يفرض بالقوة ما كان يعتبره حقوقه ، قرر أن يلجأ الى روما ، وبالرغم من انه كان رجلا عجوزا جدا ، سافر الى ايطاليا في ربيع عام ١١٥٥ ،وكان يرافقه رئيس أساقفة صور وقيسارية وأساقفة عكا وصيدا واللد وسبسطية وطبريا في حاشية مهيبة .

ولكن يبدو انها لم تكن مهيبة بشكل كاف . فبعد رحلة شاقة عبر جنوب ايطاليا في منتصف فترة الحرب ، وصل رجال فولشر الى روما ، ولكنهم وجدوا ان البابا الجديد ، أدريان الرابع ، قد ذهب الى فرينتينو « Ferentino » وفي نهاية المطاف ، عندما وصلوا الى قصر البابا ، فاجأتهم صدمة قاسية . فقد وقف البابا أدريان «Adrian» الى جانب الاسبتارية بشكل علني ، وعامل البطريرك واتباعه ببرودة وجفاء . وعمل فولشر مافي وسعه ، اذ انه اغرق البابا بالمطالب ، وسعى للحصول على دعم الكرادلة ، وفي هذه الاثناء ، غادر أدريان مدينة فرينتينو وتوجه الى مدينة بنيفينتو «Benevento» ، ولما راى البطريرك أنه ليس هناك اي أمل في كسب القضية ، رجع الى الاراضي المقدسة . انه لمن الصعب تفسير اسباب الاستقبال على هذا النحو . وبالتأكيد لم يكن أدريان يفضل منح استثناءات لامحدودة للاخويات الدينية ، اذ انه اتخذ بعض الاجراءات لتقييدها . ولكنه كان مرتبطا الى حد بعيد بعلاقاته البابوية

مع الامبراطورية الغربية والنورمانديين ، ومن المحتمل انه لم يكن لديه وقت كاف ، او انه لم يكن راغبا في الاستماع لمثل هذا النوع من الشكوى حتى من جماعة الكهنة الذين كانت لهم أهمية كبيرة . لقد أشير الى أن الغرض من زيارة البطريرك كان لالغاء المرسوم الرسمي البابوي الذي صدر عام ١١٥٤ . ولم تقبل الحكومة البابوية بهذا ، حيث جدده أدريان في كانون الثاني من عام ١١٥٥ لصالح المقدم « ريموند دو بوي » الذي ربما كان في الوقت نفسه في ايطاليا كي يدافع عن الاسبتار . وأشاع وليام الصوري اتهامات بشأن الرشوة ، وانه ليس وحده الذي سمع بهذه الاشاعات . وكتب « جيرهوه اوف ريجرزبيرغ » أن أدريان قد تلقى (٣٠٠٠) مارك(*) من الفضة الخالصة مقابل جعل الاخوية تعتمد على أبرشية روما فقط . كان التأكد من صحة هذا النبأ صعبا ، لان كل ما هو معروف عن شخصية أدريان يقول غير ذلك ، ولكن حقيقة ان هذا النوع من الاشاعات كان منتشرا لدى العالم المسيحي توضح التعاطف والوقوف الى جانب البطريرك بين رجال الدين المسيحيين في الغرب .

مهما وقع في القصر البابوي من أحداث ، فقد توجب على الكنيسة والاسبتار أن يتعايشا في سلام ووئام . وقد استمرت العلاقات الطبيعية بينهما الى مابعد النزاع الكبير الذي حدث بين عامي ١١٥٤ ــ ١١٥٥ ، ومن المحتمل أن البطريرك فولشر استطاع أثناء عودته حل النزاع الذي وقع بسبب الارض بين الاسبتار وكهنة كنيسة القبر المقدس فقط . وعندما تخلى « جيلبرت دو أسايي » عن منصبه عام ١١٧٠ ، طالب البطريرك « املريك دو نيسل » «Amalric de Nesle» بحقه في تحريمه كنسيا . ولكن تم تكذيب ذلك من قبل أخوة أخوية القديس يوحنا في اجتماع عام لرجال الكنيسة . وفي عام ١٢٠٠ صدر مرسوم بابوي من قبل البابا انوسنت الثالث . وقد وجهه الى بطاركة انطاكية وبيت المقدس والى مساعدي الاساقفة ورجال الدين ، وأمرهم بايصال أية شكوى ضد الاسبتارية اليه في روما ، ولكنه منعهم بشدة من تحريم الرهبان كنسيا . ولم تكن الاسباب التي كانت وراء توجيه هذا المرسوم البابوي معروفة.

---

* مارك : وحدة وزن اوروبية قديمة للذهب والفضة تعادل حوالي ثماني اونصات .

ولكنها تعكس بعض الضغوط من قبل البطاركة لممارسة ما اعتبروه حقوقهم الشرعية ، والتصميم البابوي على مقاومتهم .

ان النزاع الذي نشأ فيما بعد بسبب الهبة التي منحت للاسبتار من قبل دير القديس « لازاروس » «St. Lazarus» فقد تم توضيحها اكثر من معظم النزاعات التي حدثت في القرن الثالث عشر . لقد أمكن التخلص من الجشع نحو امتلاك الاراضي وعدم رحمة الاسبتارية وتعويض السلطة الابرشية من قبلهم : أولا ، لان هذه الهبة كانت هامة جدا ، وثانيا ، لان أحد بطاركة بيت المقدس لم تكن لديه القدرة والتصميم على معارضة الاسبتار فحسب ، بـل انه تسلم مقاليد الحكم البابوي ، لذلك ، توفرت لديه جميع الاسباب ليفعل ما يريـد .

في ١ نيسان ١٢٥٥ ، وهب البابا الكسندر الرابع الاسبتارية دير جبل طابور . فأثارت هذه المنحة ، التي ترافقت مع اعطائهم حق التصرف في ممتلكات شاسعة معارضة كبيرة في المملكة . وسنناقش هذه المعارضة بعد قليل . وفي ١٥ كانون الثاني عام ١٢٥٦ ، أي بعد تسعة اشهر ، منح البابا الاخوية دير القديس « لازاروس اوف بيثاني » . وكان الاسبتار صادقين جدا في الاسباب التي قدموها لتوسيع طلبهم في امتلاك هذا الدير : ستزيد ممتلكات الديـر ثروتهم في الوقت الذي هم فيه بأمس الحاجة الى المال . ولكن يبدو انهم قد بالغوا في وصف حالة هذا الدير ، اذ انهم أخبروا البابا بأن المسلمين انزلوا به الدمار ، واحتلوه بشكل تام تقريبا . وقد حصلوا عليه مع كامل حقوقـه وامتيازاته الرئيسية والثانوية واستثنائه من الضرائب . وتوجب على الاسبتارية ان يحافظوا على رئيسة هذا الدير وراهباته ، ولكن عند موت هؤلاء الراهبات ، كان يجب استبدالهن بأخوات من الاسبتار ، على الرغم من وجوب المحافظـة على حقوق هيئـة الاساقفة على الدير . ويبدو ان تنفيذ اعطـاء هذه المنحة استغرق بعض الوقت ، ربما كان ذلك بسبب معارضة بطريرك بيت المقدس ، ولم يتحقق ذلك حتى آب ١٢٥٩ ، وذلك بصدر اوامر من اسقف طبريا ورئيس دير القديس صموئيل صاحب عكا الذي تخلى لهم عن الدير ، وكانت هذه

الاوامر توضح ان الاسبتارية قد استملكوا ممتلكات الراهبات في ابرشيات صور وطرطوس وبانياس وجبيل . وفي الوقت نفسه ، اعترفت رئيسة الدير بسلطة مقدم الاسبتار ، ولكنه لم يمارس هذه السلطة لمدة طويلة .

نصب اسقف « فيردون » «Verdun» ، « جيمس بانتاليون » «James Pantaléon» ، بطريركا على بيت المقدس في نيسان عام ١٢٥٥ ، بيد انه لم يصل الى فلسطين حتى حزيران عام ١٢٥٦ ، وخلال الفترة الممتدة بين هاتين الفترتين عزز مكانته بمساعدة البابا ، لان تعيينه في هذا المنصب لقي معارضة شديدة من قبل بعض الجماعات في الكنيسة الشرقية . وتوضح سجلات البابا ألكسندر ، وفيما بعد سجلات جيمس الذي تولى منصب البابا ، انشغالهما التام بأبرشية بيت المقدس والغيرة على حماية حقوقها . في تشرين الاول عام ١٢٥٥ ، منح البابا الكسندر الاخويات العسكرية حق أخذ الاموال التي جمعت من الحماس الديني للحملات الصليبية ومن التعويضات والميراث الذي خصص من أجل الارض المقدسة ، والذي تصل قيمته الى الفي مارك فضي ، وذلك لكي يتخلصوا من ديونهم ، وفي كانون الاول ، كان على البابا ان يعد البطريرك الجديد بأن هذه الهبة سوف لن تلحق الضرر بحقوقه . وفي شباط ١٢٥٦ ، عزز البابا الكسندر حرية الاسبتارية ، ومنع البطريرك من فرض التحريم الكنسي عليهم ، ولكن في الشهر نفسه أمرت الاخويات العسكرية باطاعة البطريرك جيمس في جميع المسائل ، على الرغم من تردد الاشاعات حول عدم قدرته على تحريمهم كنسيا .

في ٣ حزيران ، وصل البطريرك جيمس الى عكا التي كانت في حالة تمزق بسبب حرب القديس ساباس «St. Sabas» . وقد وقف الى جانب البنادقة ضد سكان جنوى والاسبتارية ، وفي الوقت نفسه ، بدأ بالاعتراض على المنح المقدمة لهم من قبل القديس لازاروس . لقد كان الدير معتمدا بشكل دائم على بيت المقدس ، وقد شعر جيمس بأن كون هذا الدير تابعا لاخوية مستثناة أمر ضار بأبرشيته . لقد عرف بأن الاسبتارية قد بالغوا في المحن التي أصابت هذا الدير . في عام ١٢٥٨ ، حرمهم كنسيا لاسباب غير معروفة وفي الحال ،

الغى البابا هذا القرار ولكن في عام ١٢٥٩ ، سافر جيمس الى ايطاليا ليقدم اليه شكويين . الاولى تتعلق بسلوك اسقف بيت لحم ، وذلك كموفد بابوي ، وتتعلق الثانية بالهبة التي منحها القديس لازاروس للاسبتارية . وخلال اشارته الى أن هذه الهبة قد أضرت كثيرا بكنيسة بيت المقدس والقديس لازاروس ، فانه اتهم الاسبتارية باخفاء بعض القضايا ، والمغالاة في قضايا أخرى ، ومن بينها الخطر البارز الناجم عن المسلمين ، وهو الخطر الذي لم يكن له أي وجود بنظره ، وكذلك حالة الدير ، لقد أظهر للبابا أن أكثر من خمسين راهبة ورئيستهم عشن في هذه « الحالة المحزنة » دون ان يواجهن أية صعوبة . وعندما عرض كل من البطريرك ووكيل الاسبتار وجهات نظرهما ، قطع البابا على نفسه للبطريرك جيمس وعودا أكيدة بالغاء المنحة مرة أخرى ، ولكنه توفي قبل أن يوضع هذا القرار موضع التنفيذ . ووجد بطريرك بيت المقدس نفسه وقد اعتلى عرش البابوية باسم اربان الرابع «Urban IV» .

اعتبر البابا اربان الرابع نفسه كأحد مناصري العدالة ، وكان لا يتأثر بما يجري حوله من نزاعات عندما كان في منصبه السابق (عندما كان بطريركا) ولكن على الرغم من أن هناك أمثلة عديدة على اعطائه أو مساعدته في اعطاء ، بعض الامتيازات للاسبتار خلال فترة استلامه منصب البابا ، فقد اظهر ميلا وعطفا تجاه الداوية ، ويبدو أنه قلما كان يبدي تعاطفا مع أخوية القديس يوحنا ، وهو الوضع الذي يدعو للاستغراب لرجل كان بطريركا لبيت المقدس قبل توليه هذا المنصب . وفي ١٧ ايلول عام ١٢٦١ ، أي بعد أقل من شهر من انتخابه لمنصب البابوية ، الغى هبة القديس لازاروس للاسبتارية . وكان عليهم أن يعيدوا كل ما اقتنوه يوم استلامهم للهبة الى الراهبات اللواتي تكرر خضوعهن لكنيسة بيت المقدس مرة اخرى . وفي سلسلة المراسيم البابوية التالية خلص اديرة القديس لازاروس ــ معتمدا على الدير الموجود في سورية ــ من سلطة الاساقفة المحليين وجعلها تخضع لكنيسة بيت المقدس فقط . وفي الوقت نفسه ، كتب الى رئيسة الدير معلما اياها باجرائه هذا وطالبا منها ومن اخواتها ان يتذكرنه في صلواتهن وادعياتهن ، وبلا شك ، فانهن فعلن ذلك .

طــرابلس

تم تدوين اول نزاع مع هيئة الاساقفة في سورية بسبب ضرائب العشر . في عام ١١٢٥ ، عرض الاسبتارية وجوقة المرتلين في كنيسة طرابلس قضاياهم على لجنة مؤلفة من ممثلي القضاة الذين تم تعيينهم من قبل الابرشية المقدسة ورئيس اساقفة قيسارية ورئيس دير القديس صموئيل صاحب عكا ورئيس الشمامسة في الناصرة . وقد قدمت كنيسة طرابلس دعوى بشأن ضرائب العشر المتعلقة ببعض المزارع والممتلكات والاراضي والاشياء الاخرى الموجـودة في ابرشية طرابلس ، والتي كان من المعروف ان المقدم والاخوة المذكورين آنفـا يمتلكونها ، وفي غضون ذلك . وقعت الاخوية اتفاقية مع الاسقف بعد ان اطلعته على الامتيازات التي حصلت عليها من أجداد ، الاسقف هربرت والاسقف «بونز» « Pons » ، ومن الكونت ريموند الاول . وقد توصل الى هذه الاتفاقية — التي دققتها جوقة المرتلين في طرابلس — وكيل الاسبتار ، واعلن شرعيتها ، كمـا انه تخلى عن ادعاءاته السابقة . وفي عام ١٢٥٩ ، اي عندما توجب على الاسبتار مرة اخرى ، الدفاع عن تحرره من دفع ضرائب العشر الى كنيسة طرابلس ، فانه (الاسبتار) كان قادراً على ابراز هذا العقد وقبوله كدليل على استثنائه .

وقع نزاع آخر مع كنيسة طرابلس في حوالي نهاية القرن الثاني عشر . وكانت قضية النزاع تتعلق بالضرائب المترتبة على كنيسة في انفة « Nephin » وعلى ثلاثة مزارع تابعة لها ، حيث ادعى ان الاسبتارية استولوا عليها بشكل غير شرعي . وفي التسعينات مـن القرن الثاني عشر ، سمع بهذا النـزاع رئيس اساقفة الناصرة ورئيس دير جبل الزيتون ، وقد اصدر حكما لصالح الاسبتار . مهما يكن ، احتكمت الاطراف المتنازعة الى روما ، واحيلت القضية برمتها الى الادارة البابوية . وفي عام ١١٩٨ ، أمر الاسبتارية بالتنازل عـن

الكنيسة والمزارع والاموال التي جمعت من ضرائب العشر . اخبر البابا انوسنت الثالث رئيس اساقفة صور واسقف صيدا انه اذا لم يتخل لاسبتار عن الاشياء المذكورة خلال شهر واحد ، فعليهما ان يضما كنيسة طرابلس الى ممتلكاتهما الشخصية وان يستعملا المراسيم والقوانين الكنسية ضد اي شخص يتجاهل هذا الحكم . ومهما يكن ، أمر المفوضان في السنة التالية ان يمعنا النظر في هذه المسألة حيث ان الاسبتارية أنفسهم تخلوا عن الكنيسة واموال ضرائب العشر والمزارع .

* * *

عكـــــا

لم يكن الاساقفة والاسبتارية في اي مكان أكثر شعورا بحقوقهم الكنسية كما كانوا في عكا . في عام ١١٧٥ ، كانت هناك اتفاقية بين الاسقف والاخوية وهي التي جددت الحقوق الخاصة المتعلقة بالكاتدرائية والكنائس الابرشية والمقر الهام للاسبتارية في المدينة . وقد وعد الاسقف انه سيعين ـ عندما يطلب منه ـ قساوسة من الاسبتارية الذين يحملون رسائل معتمدة من اساقفتهم ، او اولئك الذين نالوا استحسانا نتيجة سلوكهم الجيد والمخلص في مقر الاخوية . فهو سيعين الشبان الذين ولدوا او تربوا في الاسبتار في مناصب تصل الى مرتبة مساعد شماس . وسيمد الاخوية في الاحد المقدس بالزيت من أجل دهن الاخوة والرهبان المرضى ، الذين ـ اضاف معقبا ـ لم تتح لهم الفرصة في نقلهم الى أخوية مقدسة اخرى ، والذين تركوا كل شيء بعد موتهم من أجل استخدامها في الاسبتار . ولولا هذا الاذن الخاص من قبل الاسقف بالقيام بهذا الاجراء ، لما استطاعت الاخوية ان تعالج بالزيت الا الحجاج الذين يقيمون في الاسبتار . ان أبناء ابرشية عكا الذين رغبوا في ان يتم دفنهم من قبل الاسبتارية ، سيتم اعلامهم من قبل الكاهن الذي اسروا اليه بوصاياهم بأنه يجب السعي للحصول على موافقة الاسقف وقراره بشرعية مطلبهم هذا . وقد وعد الاسقف بأنه ، هو او كاهنه ، سيعير اهتماما لمثل هذه المطالب ، الا في الحالات التي تكون فيها هذه المطالب متعارضة مع حقوق الشخص التابع لكنيسة ابرشية . وكلما زار رئيس الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس المرضى ، سواء كانوا مواطنين عاديين او حجاجا ، فانه كان يحضهم على دفع الصدقات الى الاسبتار ، وكان بعمله هذا ينال تأييد أسقفه . كما أن قس الاسبتار سيناشدهم للقيام بالعمل نفسه لصالح الكاتدرائية، وكان على كل قس أن يعلم الآخر بعمله هذا . ووعد الاسقف بأنه سوف لن يمنع تعليم الاطفال

عن طريق الاخوية ، ومن ناحية اخرى ، فانه لم يكن يسمح باقامة شعائر تطهير النساء في الاسبتار دون موافقة هيئة الاساقفة ، لانه يجب تطهيرهن في الكنيسة الابرشية التي تم تعميد اطفالهن فيها . واذا ذهبن الى كنائس غير تابعة للكاتدرائية ، فانه يجب تصحيح هذه الفعلة عن طريق الاسقف دون انتهاك حقوق الاسبتارية . واذا أراد أحد ابرشيي عكا ان يعترف بذنوبه لقس كنيسة الاسبتار خلال فترة الصوم الكبير ، فقد توجب على القس ان ينبهه الى انه كان عليه (الابرشي) ان يذهب الى ابرشيته ليقوم بواجبها في عيد الفصح،مهما يكن ، اذا فضل الابرشي أن يعترف للاسبتار ، فانه يمكن أن تفرض عليه كفارة . ومن المحتمل أن الاسبتارية كانوا في هذا الوقت يستفيدون من المقبرة العامة الموجودة في المدينة في دفن موتاهم ، وعندما كانت مواكب جنائز رجال الدين غير الاكليركيين تلتقي مع مواكب الاسبتارية في المقبرة ، فانه ، على مايبدو ، ينشأ هناك نزاع حول استخدام الشموع والشمعدان ، وهو البند الذي نظم الحقوق الخاصة المتعلقة بالكاتدرائية والاسبتار . واذا كتب أحد الاشخاص المرضى وصيته وجعلها وقفا على كنيسة عكا ودخل اسبتار الاخوية ومات هناك خلال سبعة ايام ، فان وصيته تصح ويسرى مفعولها ، ولكن اجراء أي تغيير في قراره خلال هذه الايام السبعة شرعي ايضا . واخيرا ، وعد الاسقف انه عندما يقوم هو أو قسه بالقاء المواعظ،فانهما سيطلبان من المؤمنين أن يصلوا من أجل الاسبتار ويعطوه الصدقات . وقد وعد رئيس دير الاسبتار والقس بأن يردا هذا الجميل للاسقف وكهنته .

تظهر هذه الاتفاقية درجة التعقيد الذي يمكن ان يصل اليها التطبيق العملي للامتيازات الممنوحة للاخوية على المستوى الابرشي ، وذلك فيما يتعلق بالحصول على القس ودفن الموتى والحصول على الميراث من المؤمنين ، وهي المشاكل التي ازدادت حدة في عكا التي كان فيها اسبتار هام وحركة مرور نشطة للحجاج. في عام ١٢٢١ ، توسط بيلاغيوس أسقف البانو « Albano » ، والمفوض البابوي لحل نزاع جديد بين الاسبتار وأسقف عكا ، جيمس دو فيتري، الذي كان عالما وشخصية بارزة ، وقد طالب جيمس بضريبة العشرين على ثلاثة حقول لكروم العنب كانت تمتلكها الاخوية في ابرشيته . وقد كانت هناك قديما

اتفاقية بين الاسبتار واحد اجداده وكانت تقضي على ان تدفع له ضريبة العشرين من محصول الحبوب المستخرج من حقلين من هذه الحقول الثلاثة. ويبدو ان الاسبتار قد غيروا المحاصيل التي كانوا يزرعونها كي يتجنبوا الضرائب: اما انهم وسعوا مساحة اراضيهم التي كانت صغيرة ، وذلك على حساب اراضي القرويين ، أو انهم اقنعوا القرويين بزراعة المحاصيل التي تستهلك مباشرة . وفي كلتا الحالتين ، طالبوا باستثنائهم من ضريبة العشر ، وهذا مثال جيد على الطرق التي اتبعوها في سورية اللاتينية للتخلص من الضرائب الاسقفية. مهما يكن ، فقد احتج الاسقف بان الاتفاقية السابقة كانت تتعلق بالارض ، لذلك، لم يكن في هذه الاتفاقية اي فرق بين حقول كروم العنب وحقول محاصيل الحبوب . وقد رد مقدم الاسبتار قائلا هذه الاتفاقية كانت تتعلق بالمحاصيل ، وان العنب ليس من محاصيل الحبوب ، وان حقل كرم العنب الثالث مستثنى من الضريبة ، لانه كان سابقا حديقة ، ويبدو ان الكنيسة كانت تعتبره دائما ارضا مخصصة للاستعمال الشخصي . عندئذ ، طالب جيمس دو فيتري بريع كل شيء من أجل الاسبتار في المدينة بموجب وصية ، وبسبب حكم الادارة البابوية لهذا الاسبتار سابقا . وقال انه يجب على الاسبتار الا يزوروا اولئك الذين يقيمون في ابرشيته للتشاور معهم حول الاسرار المقدسة ، ما لم يحصل على ما يترتب عليهم من اموال ومحاصيل ، كما ينبغي عليهم الا يلقوا المواعظ على الناس حتى في كنائسهم . ورد المقدم قائلا بأن جميع كنائس اخويته قد تحررت من سلطة الاسقف ، ففي حين انه كان يتنازع مع جيمس بشأن اخذ ريع الميراث الذي ترك للاسبتار ، فقد طبقت الاخوية أمر التحرر من دفع الضريبة لمدة اربعين سنة ، لذلك ، فقد أصبح هذا الامر امتيازا . وللاسباب نفسها ، لم يكن الاسبتارية بحاجة الى اذن يمنحه الاسقف للحصول على الاسرار المقدسة من أجل المرضى ، وكذلك ما يمكن ان تعظ به أبرشياتهم ، او ان يعظوهم انفسهم في كنائسهم أو مدافنهم .

تم التوصل الى اتفاقية وافق فيها الاسبتارية على دفع ضريبة العشرين المترتبة على حقول كروم العنب ، وذلك على الرغم من أن الاسقف لم يتمكن من المطالبة بشيء آخر مقابل أشجارهم ومنتجاتهم من الفواكه . وقد أصدر

بيلاغيوس قرارا يقضي بأنه يجب معاملة حقل كرم العنب كمعاملة الحديقة عندما يبلغ هذا الحقل مستوى الاخيرة ، ولكن يجب عدم تطبيق هذا القرار على الاراضي البكر : الاراضي التي لم تزرع من قبل ، والتي كانت الاخوية ترغب في الاستيلاء عليها . وارجأ الاسقف دفع ربع الميراث . واستطاع رئيس دير الاخوية وقسسه ان يقدموا المواعظ في كنائس الاسبتارية ومقابرهم في الوقت الذي يشاؤون ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يبدوا ملاحظاتهم على المواعظ التي كان يقدمها الاسبتارية . وخارج الاسبتار ، أستطاع رئيس الدير وقسسه ان يقدموا الاسرار فقط الى اوائك الذين أختاروا أن يدفنوا معهم ، او كانوا مقيمين في تكيتهم ، على الرغم من انه كان بامكانهم أن يزوروا تكيات اخرى ، معلمين اياها انه ليس بامكانهم ان يقدموا اليهم الاسرار المقدسة . لقد أستطاعوا أن يعالجوا المرضى ، ويدفنوا الموتى الذين وجدوهم في شوارع المدينة ، ولم يكن كل ذلك متعارضا مع رغباتهم ما لم يكونوا طاعنين في السن . وكان الحجاج ورجال الدين المقيمون في ابرشيات عكا يقدمون هبات الصدقات والميراث الى الاسبتارية ، سواء شاء هؤلاء الحجاج ورجال الدين أن يتم دفنهم مع الاخوية ام لا ، أو أنهم كانوا ينتمون الى الاسبتار بشكل كلي أم لا . وكما كان عليه الحال في الاتفاقية السابقة ، فقد وعد كل طرف بتشجيع منح الصدقات الى الطرف الآخر ، دون الاخذ بعين الاعتبار الجهة التي قامت بدفن المحسنين . ووافق « جيمس دو فيتري » على تعيين كهنة الاخوية بشرط ان يؤكد رئيس الدير ، ويتعهد المقدم ، بأن سلوك هؤلاء الكهنة جيد ، وان يعداه بأنهما على استعداد دائم للنهوض باعبائهم واعالتهم : انها الفقرة التي يجب ان ننظر اليها على ضوء الشكاوى التي قدمت من قبل اعداد متزايدة من كهنة الاسبتارية في القرن السابق .

تم تثبيت دعائم هذه الاتفاقية من قبل البابا هونوريوس الثالث « Honorius III » عام ١٢٢٥ ، ولكن كلا الطرفين تنازعا مرة اخرى عام ١٢٢٨ ، وكان السبب في هذه المرة هو المعنى الدقيق لفقرات معينة من هذه الاتفاقية ومن المحتمل ، ان « جيمس دو فيتري » ، الذي كان في روما في ذلك الوقت ، قد لفت نظر البابا الى هذه المسألة ، لانه ظهر ان الاسبتارية استغلوا

عدم وضوح بعض الجمل الواردة في الاتفاقية مرة اخرى . وكان على بيلاغيوس ان يحدد بشكل أكثر وضوحا حق الاسبتارية في منح الاسرار المقدسة الى ابرشيي الاسقف الذين اختاروا أن يتم دفنهم الى جانب الاسبتارية ، لقد قرر بيلاغيوس أن يكون بامكان القساوسة الملحقين بالاسبتار ان يقيموا الشعائر الدينية الاخيرة تجاه الذين قرروا قبل موتهم،ان يتم دفنهم بالقرب من الاخوية ، ولكن اولئك الذين أختاروا – وهم في صحة جيدة – أن يتم دفنهم مع سكان الاسبتار لم يتم استثناؤهم بسبب هذا الاختيار من القوانين والاحكام الاسقفية ومن الواجبات الابرشية ، وقد كان بامكان الاسبتارية ان يقدموا اليهم الاسرار المقدسة فقط قبل مفارقتهم الحياة بقليل . ويجب على الاخوة الا يطلبوا اختيار الدفن عن طريق الوعود او الدعوات او بوسائل اخرى ، كما يجب عليهم ان يستقبلوا النساء من أجل التطهير . وقد أوضح بيلاغيوس مسألة تقديمهم ملاحظات حول المواعظ التي يقدمها الاسبتارية ، وذلك عن طريق اصدار قرار يقضي بأنه ليس بامكانهم ان يحددوا الايام التي يلقون فيها المواعظ للناس ، سواء كان ذلك بشكل خاص او بشكل عام . وقد منعوا من التوقف عن دفع ضريبة العشر الى الاسقف في حالة قيام نزاع بينهم ، وعلى كل طرف أن يلجأ الى التحكيم دون انتهاك حقوق الطرف الآخر . وكانوا يمتنعون عن اداء ضريبة العشر المترتبة على مزرعتين ، لانهم ادعوا انه تم استثناؤهم من الضريبة المترتبة على هاتين المزرعتين من قبل الاسقف . وطالب بيلاغيوس بأن يرى هذه الوثيقة بأم عينه ، والا فانه يتوجب عليهم دفع الضرائب . وكان الاخوة ايضا يحملون الجثث ويدفنونها مؤكدين انهم لم يتفقوا على الدفن مع الاخوية حول قساوسة الابرشية . وقد أمر بيلاغيوس بوضع نهاية لهذا العمل المروع . ويجب على الاسبتار ان يثبت حقه في دفن كل شخص بواسطة شهادة كاهن الاعتراف ، عن طريق كتابة وصية او عن طريق شهادات شرعية . وأخيرا ، كان هناك نزاع مشابه للنزاع الذي حدث عام ١٢٢١ بسبب بعض الاراضي التي كان الاسبتارية يخططون لزراعتها بقصب السكر بدلا من الحبوب ، ويدعون بأنهم لم يحصلوا على ضرائب العشر المستحقة ، وذلك لاسباب كانت معتادة

في ذلك الوقت . وقد امرهم بيلاغيوس بدفع هذه الضرائب تماما كالضرائب المفروضة على الحبوب المزروعة في الاراضي .

في ١٠ ايار عام ١٢٣٨ ، امر البابا « غريغوري » التاسع بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة صور ورئيس دير القديس صموئيل صاحب عكا بأن يمعنوا النظر في أحد النزاعات الجديدة . واثيرت مسألة الضرائب الابرشية مرة اخرى اذ كان الاسقف يطالب بضرائب العشر والعشرين المفروضة على مزارع معينة في الابرشية ، وذلك بالاعتماد على حق قديم . ويبدو ان الاسبتارية قد لجؤوا الى اسلوبهم المعتاد في تغيير محصول أحد هذه المزارع ليطالبوا بالاستثناء . واصبحت حقوقهم المتعلقة بالدفن مثار جدل ومناقشات مرة اخرى ، لان ورثة من دفنوهم كانوا يحاولون التخلص من دفع الضرائب المترتبة عليهم بشكل قانوني الى الاسقف الذي ادعى انه قد انفق ٥٠٠ بيزنط اسلامي على هذه القضية . وبعد أسبوع ، سمع البابا بأن الاسقف والاخوية قد توصلا الى اتفاقية . لذلك ، امر البطريرك ورئيس الاساقفة ورئيس الدير بمراقبة تنفيذ بنود هذه الاتفاقية . ويبدو ان المشكلة قد نشأت في بعض جوانبها عن الفشل في الاعتراف بقرار بيلاغيوس عام ١٢٢٨ ، لان كلا من الاسقف والاسبتار وافقا بشكل اكيد على الالتزام به ، على الرغم من انه كان هناك نوع من عدم القبول بالفقرتين الاخيرتين المتعلقتين بضرائب العشر المترتبة على مزرعتين ، وعلى زراعة قصب السكر بدلا من الحبوب ، وقد خول البابا مفوضيه بصلاحيات بسيطة لتغيير هاتين الفقرتين .

يبدو أن الاسبتارية في عكا قد دخلوا في نزاع آخر ، ولكن معرفة تفاصيله صعبة بالنسبة لنا . ففي عام ١٢٧٤ ، تم تجديد المرسوم البابوي « Subreligionis habitu » لصالح هؤلاء الاسبتارية ، وقد تم توجيهه الى أسقف اللد ، الذي أمر باستخدام القوانين الصادرة عن الكنيسة ضد اولئك الذين تدخلوا في شؤون ممتلكاتهم . وفي الوقت نفسه ، منح البابا موفده في عيد الفصح صلاحيات واسعة ليقوم بعمل معاد للاخويات العسكرية . وفي الحقيقة ، كان ذلك عملا ضد جميع الرهبان والراهبات اذا ما رفضوا

اطاعته ، وفي السنة التالية ، أمر البابا رئيس أساقفة صور بحماية الاسبتارية في عكا ، الذين كان يضايقهم عدد من رجال الدين وبعض الاشخاص العلمانيين (غير الاكليركيين) ، والذين كان الاساقفة يهملونهم في اعطاء حقوقهم لحسدهم اياهم بسبب الامتيازات الممنوحة الدينية الاخرى في عكا . ان ابرشية القبر المقدس مخولة باقرار الحقوق في أي نزاع .

* * *

افاميـــــا

« APAMEA »

في عام ١١٧٥ ، كان الاسبتار ورئيس اساقفة افاميا في نزاع حول السلطات الابرشية . وكان هذا النزاع يهم الكنائس التي كانت تتمتع فيها الاخوية بحق تعيين الكهنة ، ولكن هذا النزاع تعقد نتيجة الحاق أحد الاديرة باحـدى هذه الكنائس . في شهر شباط ، ثبت الامير « بوهمند » صاحب انطاكية المنحةالتي وهبها « لورد صهيون » « Lord of Saone » عام ١١٧٠ لصالح أخويـة مزرعة تريكاريا « Tricaria » ويمكن انيكون هذا تحركا في قضية « النزاع الطويل » مع رئيس اساقفة افاميا الذي طالب بحقوق كنسية تتعلق بهـذه المزرعة وبمزرعة حومدين « Homedin » وقد قدم الاسبتار امتيازات ناقضت هذه الادعاءات ، وفي شهر اذار ، تدخل بطريرك انطاكية كوسيط لحل هـذا النزاع ، ووافق الاسبتارية على تسليم حومدين الى رئيس الاساقفة ، الذي تخلى بدوره عن حقوقه في تريكاريا . وتم اعفاء القس الذي خدم «الله والاخوة» في تريكاريا من منصب السلطة القضائية بشكل تام في افاميا ، لتعيينه في منصب كاهن عند الاسبتارية . ويبدو أنه قد أصبح تحت رعاية الكنيسـة الابرشية في تريكاريا ، وقد طبق على منصبه هذا القوانين نفسها التي كانت تطبق على كهنة الاسبتارية في سورية واوروبا . لذلك من المحتمل انه سمح للاخويـة بالحصول فقط على حقوق التقديم بالنسبة للابرشية .

* * *

بانيـــــاس

« VALENIA »

كان للنزاع القائم مع رئيس اساقفة افاميا علاقة بحقوق الاخويـة في الكنيسة الابرشية التي كان يحق لها تعيين كاهن فيها . أما النزاع مع مساعـد الاسقف في افاميا فقد كان له علاقة بحقوق الاخوية بشأن تعيين كاهن كنسي في الابرشية،وكانت مدينة بانياس تابعة في قيادتها لقلعة المرقب ، وقد طالبها الاسبتارية عام ١١٨٦ . لقد شجع اسقفها انستيريوس « Ansterius » ، بيع قلعة المرقب الى الاخوية ، ولكن في الوقت نفسه ، كانت له حقوق دينيـة ومالية لا تلائم حرية الاسبتارية في المقاطعة الخاضعة لسلطة اللورد . وكـان قيام النزاعات امرا محتما ، وبعد اشهر قليلة من امتلاك المرقـب ، ارسلـت الالتماسات الى روما من قبل الطرفين ، وعين البابا اوربان الثالث لجنة من مفوضي القضاة ، وعقد « ويليام » رئيس اساقفة صور « وأودو » « Odo » ، وأسقف بيروت ، جلساتهم بحضور بطريرك بيت المقدس ومساعدة رؤسـاء اساقفة قيسارية والناصرة وأسقف الرملة . وكانت الخلافات الناشئة تتعلق بالمسائل الدنيوية ، لان اللجنة قررت انه يجب على كلا الطرفين ان يذعنا للقرار الصادر عن اربعة فرسان من قلعة المرقب . لقد تم التوصل الى اتفاقية ، ولكن هذا النزاع كان تكهنا لما كان سيأتي فيما بعد . ففي عام ١١٨٨ ، انزل « صلاح الدين » الخراب والدمار ببانياس . وتحرك اسقف ومطران افاميا نحو قلعة المرقب نفسها . وكانت بانياس ماتزال مدمرة ، وعند زار الرحالة « ويلبراند اوف اولد نبرغ » «Willbrand of Oldenburg» هذه المدينة عام ١٢١٢ ، كان اسقفها مايزال مقيما في المرقب ، ويبدو ان خلفاءه قد عاشوا في القلعـة حتى تم اخضاعها لحكم المسلمين عام ١٢٨٥ .

في عام ١١٩٣ ، اصدر المقدم « جيوفري دو دونجون » مرسوما بشأن

« انستيريوس » ، وقد اكد شرعية العديد من الحقوق الاقطاعية التي حصل عليها الاسقف من لوردات المرقب سابقا ، وكذلك شرعية ضرائب العشر التي حصل عليها منهم . وهكذا ، فانه اصدر احكامه المتعلقة بضرائب العشر بطريقة بدا فيها سخيا تجاه الكنيسة . لقد أكد على استثناء الاخوية من دفع ضرائب العشر المترتبة على الاراضي التي تزرعها هذه الاخوية ، وعلى المنتجات التي تنتجها من اجل استهلاكها الخاص . ومن الناحية العملية ، لم يكن هذا يعني الا الشيء القليل ، لان الاسبتارية وافقوا على دفع نصف ضريبة العشر ليس فقط على مبيعات ما تنتجه بساتينهم بشكل حقيقي ، ولكن ايضا على مالهم من الدجاج والاغنام والمنتجات اليومية والزيت والخمر وحتى تلك الاراضي التي يزرعونها بانفسهم . وطمأن المقدم الاسقف بمنح الحرية التامة لكنيسته . مهما يكن ، بعد وفاة « انستيريوس » تم اقناع خلفه بأن يصبح عضوا في الاخوية ، وان يأخذ عهدا على نفسه بأن يعيش في قلعة المرقب . كانت بانياس في طريقها الى ان تصبح أبرشية اسبتارية ، وارادت الاحوية ان تجعل هذا الوضع ابديا ، وبشكل طبيعي ، فقد رفضه الاسقف . وفي عام ١١٩٧ ، وافق البابا سليستاين الثالث « Celestine » على هذه التسويات ، ولكنه أوضح انها يجب أن تكون مؤقتة ، ما لم يكن لوردات المرقب السابقين قد تمتعوا بحق مطالبة أساقفة بانياس بأداء القسم . ولم يكن بالامكان فرض شروط اداء القسم ووجوب الانتساب الى عضوية الاخوية على أحد من خلفاء الاسقف .

في عام ١٢١٤ ، مات الاسقف ، وقد اختار رهبان دير بانياس رئيس الشمامسة « ايوستاس » صاحب بيروت ليخلفه في هذا المنصب . وقد سلموا قرار اختيارهم هذا للمقدم « غارين دو مونتيغيو » الذي كان يشارك في حصار « الخوابي » مؤكدا انه يجب الا يؤدي عملهم هذا الى خلق سابقة تضر بحقوقهم الكنسية ، ما لم يقرر البابا بأن الاخوية لها امتياز التقديم في بانياس . وكان المقدم غاضبا جدا على هذه الاعمال ، وطالب الكهنة بالاحتكام الى روما . وقال انه سيرد عليهم عن طريق المبعوثين ، ولكن الهجوم المعتاد الذي شنه المسلمون منعه من الرد . وعندما علم رهبان دير بانياس بغضب المقدم ، احتكموا الى بطريرك انطاكية ، بطرس الثاني ، الذي رأيناه حليفا للاسبتارية في الحرب

الاهلية التي كانت محتدمة في الولاية ، لقد اقنع الكهنة انه يجب ان تكون للمقدم حقوق التقديم والتصديق على انتخابات الاسقف ، وهي الحقوق نفسها التي كانت للملوك بيت المقدس وامراء انطاكية على الابرشيات في ولاياتهم . وفي كانون الثاني عام ١٢١٥ ، ارسل أحد المفوضين الى «غارين » في قلعة الحصن . وقد وافق على قرار البطريرك ، وحصل الاسقف « ايوستيس » « Eustace » على ابرشيته في شهر نيسان ، ولم تكن الحكومة البابوية راضية عن هذه الاجراءات . وفي ١٧ اذار عام ١٢٢٥ ، جعل البابا هونوريوس الثالث كنيسة بانياس تحت حمايته ، ومنع التثبيت الديني لممتلكاتها ولضرائب العشر ، ولكنه اكد مرة اخرى بأن انتخاب الاساقفة من قبل الكهنة يجب ان يكون حراً ، ويجب الا يكون هناك اي تأثير للتدخل الخارجي في قراراتهم ، لذلك ، رفض البابا ضمنيا الاعتراف بحكم بطريرك انطاكية ، وذلك عام ١٢١٥ . على أي حال ، لم يستطع البابوات عمليا منع الاخوية من الاشراف على تعيين الاساقفة . وفي عام ١٢٦٤ ، كان المقدم يمارس حق تعيين الكهنة في مناصب معينة ، وفي أواخر الثمانينات من القرن الثالث عشر ، اصبح اسقف بانياس اسبتاريا .

* * *

الناصـــــرة

الى هنا ناقشنا الحالات التي حاول فيها الاسبتارية ان يمارســوا او يوسعوا ، حقوقهم التي حصلوا عليها من البابا . وفي منتصف القرن الثالث عشر . حصلوا على دير غني ومستثنى من الضرائب ، وهكذا فقد نشأ نـوع جديد من المشكلة . في ١ نيسان عام ١٢٥٥ ، اعطاهم البابا الكسند الرابع دير جبل طابور . ومنحت هذه الهبة بناء على طلبهم ، ويبدو ان تعليمات البابـا حول وضع الدير قد تم تنظيمها واصدارها من قبلهم . وقد أخبر الكسندر بان الدير قد دمر من قبل المسلمين،وان رئيس الدير والرهبانلايأملون في انيتم اصلاحه ، وكان يعتقد بان المسلمين كانوا يحتلون في ذلك الوقـت الجبـل ، ويحصنونه استعدادا لدفع اذى الصليبيين . وعلى الرغم من قلة الدلائل التي تشير الى هذه النقطـة بالذات ، فانه ليس هناك أي سبب في عدم الاعتقاد بالامور الاساسية الواردة في قصة الاسبتارية . لقد منحوا التثبيت الديني من قبل رهبان دير جبل طابور . واعطى البابا الكسندر الاسبتارية الممتلكـات والحقوق الممنوحة لدير جبل طابور ، وكذلك استثناهم من دفع ضرائـب العشر بكاملها ، وضرائب أخرى ومــن التدخل الابرشي في ادارة ممتلكاتهم التابعة للدير ، هذا بالاضافة الى منحهم بضائع اخرى . وبما ان وضع الهدنة بين المسلمين والصليبيين قد استمر ، وان الاسبتارية قد حصلوا على ممتلكات كثيرة في هذه المدينة ، فانهم استطاعوا ان يحصنوا الجبل خلال عشر سنوات ، وان يضعوا فيه حامية من اربعين فارسا مسلحا . وأمروا بأن يقوموا بأعبـاء رئيس الدير والرهبان وفقا لقرار المحكمين ، الذين سيكون من بينهم رئيس أساقفة صور ورئيس دير القديســة ماري راعية وادي « جيهو صفد » « Jehosaphat » ، وسيكون ذلك أمرا ضروريا فقط اذا لم يكن من الممكن أستيعاب الرهبان في أديرة اخرى . وفي نيسان ، أخبر البابا رئيس اساقفة

صور وراهب دير القديسة ماري حول اعطيته . وفي ٢٣ حزيران ، أمر رئيس الاساقفة امين الصندوق في كنيسة طرابلس بأن يدخل الاسبتارية ضمن ممتلكات دير جبل طابور في هذا الاقليم . وفي الشهر نفسه ، أخذ الاسبتارية حصة شخصية لهم من الدير نفسه ومن المزارع المجاورة له ، وقد زاد توسع هذه الممتلكات وموقعها من قيمتها في نظر هؤلاء الاسبتارية تماما كما حصل مع الاسبتارية الذين كانوا في دير القديس لازاروس بعد أشهر قليلة .

حصل دير جبل طابور على بعض الاراضي بالقرب من طرابلس بيت المقدس وشرقي الاردن . وكان هذا الدير يسعى للحصول على بعض الحقوق في انطاكية . ولكن معظم ممتلكاته الهامة كانت تقع حول الدير نفسه ، كما انه امتلك ارضا واسعة بين الناصرة والبحر الميت امتدت جنوبا نحو نابلس. وكانت هذه الممتلكات على مقربة من عكا ، ويمكن الاشراف عليها من جبل طابور الذي كان الاسبتارية يعتزمون جعله حصنا هاما ثم تم تعيين آمر لهذا الحصن عام ١٢٥٩ . لقد رأينا ان اربعين فارسا كانوا يتخذون مواقع لهم في هذا الجبل وفي الوقت نفسه ، كان من المتوقع ان تضم قلعة الحصن ستين فارسا . ان المقارنة بين هذين الامرين تكشف لنا بعض الحقائق ، اما ممتلكات الاخوية حول كوكب فتقع ، الى شرق وجنوب مباني ومنشآت جبل طابور ، وقد احتلت هذه القلعة من قبل المسلمين عام ١٢٤٧ ، ولكننا رأينا ان الاسبتارية كانوا مازالوا يدفعون ضريبة العشر المترتبة على اراضيها حتى عام ١٢٥٩ . وفي الحقيقة ، يبدو انه كان هناك توسع اقليمي متعمد من قبلهم تجاه ابرشية الناصرة ، وذلك خلال السنوات التي امتدت من عام ١٢٤٧ حتى الغزوات التي شنها « بيبرس » .

ورث الاسبتارية ايضا الامتيازات الممنوحة للدير . وفي ايار ١٢٥٦ ، كتب ثلاثة من رهبان جبل طابور الى البابا مذكرين أياه بأن الدير كان في سالف الايام مستقلا عن سلطة أي أسقف ، وطلبوا منه ان يجدد الامتيازات القديمة الممنوحة له (للدير) . ورد البابا بالموافقة على تثبيت المراسيم البابوية التي صدرت عن باسكال الثاني « ويوجينيوس الثالث « Eugenius III » والكسندر الثالث،

وهي المراسيم المتعلقة بالدير الذي لقي حماية من قبل روما ، وحصل على حقوقه من ابرشية مطرانية وعلى منح طيلسان للاسقف وسيادة على كل انحاء الجليل وطبريا ، وجميعها منحت له من قبل أسقف أحد الابرشيات ، على الرغم من ان هذه الحقوق الاسقفية كان مصيرها الاهمال . وأعلن البابا انه لايمكن لاية ميزة من الميزات الموروثة عن جبل طابور ان تنال من مكانة الاخوية . وحتى اذا استولى العدو على هذا الدير في اوقات الحرب ، فان هذا العمل سوف لن ينتقص من حقوقه .

ان اكتساب ثروة هائلة كهذه كان مدعاة لخلق المشاكل . فقد كانت هناك معارضة قوية ضد هذه الهبة منذ صيف عام ١٢٥٦ . وترافقت هذه المعارضة في بعضها مع الوضع المضطرب في هذه الممتلكات : توجب ترميم واصلاح العديد من هذه الهبات ، وتم الاستيلاء على بعضها الآخر من قبل ما لكي الاراضي المسيحيين . واحتكم رهبان جبل طابور الى البابا بشأن هذه المسالة ، فكتب البابا الكسندر في آذار ١٢٥٧ الى رئيس دير القديسة ماري راعية وادي «جهيو صفد» يأمره بأن يبقي الاسبتار مع ممتلكاته من بضائع وأملاك جبل طابور حماية لها ممن سيستولون عليها . وفي عام ١٢٦٢ ، كان هناك نزاع مع اخوية الكنيسة بشأن أحد المزارع ، الذي ادعى الداوية بانه قد منح لهم من قبل « جون دو مو مونتفورت » . صاحب صور وتبنين . ولم يخمد النزاع مع أميرة الجبيل الا عام ١٢٦٥ . وقد منح الاسبتارية ٢٠٠ كاروكيت(*) من الاراضي مقابل ثماني مزارع ، التي كانت الاميرة تحتفظ بها دون اي اعتبار لحقوقهم .

هناك بعض الشك حول رد الفعل الذي قام به رئيس اساقفة الناصرة . في عام ١١١٢ ، توسط المفوض البابوي لحل نزاع وقع بين اسقفي الناصرة وجبل طابور وتم التوصل الى حل وسط تمكن الاسقف من خلاله من ممارسة بعض حقوقه الابرشية على الدير، وذلك على الرغم من ان التكريسات ورسامات الكاهن التي كان يقوم بها البطريرك . وكان يتوجب على جبل طابور ان يحصل على ثلث ضرائب العشر المفروضة على طبريا . وقد تعقد الوضع بشكل اكثر في

(*) — كاروكيت : وحدة لقياس مساحة أراضي ، وتساوي ١٢٠ فدانا .

السنوات التالية ، وذلك ، اولا بسبب الامتيازات المتزايدة الممنوحة للدير ، وثانيا لان الناصرة قد أصبحت مقرا لرئيس الاساقفة ، كما أصبحت مقرا لأسقف مساعد، ويبدو ان جبل طابور قد فقد قوته كمقر للابرشية . وبالتأكيد فان الناصرة حصلت على امتياز بممارسة الحقوق المطرانية علـى جبل طابور عام ١١٧٤ . وعلى الرغم من ان المرسوم البابوي الذي صدر عام ١٢٥٥ ، قد استثنى الاخوية من دفع ضرائب العشر بكاملها والمترتبة على جبل طابور ، فان الوثائق ترينا علاقاتها مع رئيس الاساقفة كي تعيش في سلام ، وفي عام ١٢٥٩، جعل الاسقف الاسبتارية تحت حمايته . وكانت احدى الكوارث التي أصابت هذه العلاقة هي النزاع الذي كان مختلفا تماما عن بقية النزاعات ، وكان متعلقا بقرية «مزرعة روبرت» الهامة ، وقد تمت تسويته في كانون الثاني عام ١٢٦٣. ولكن لم يتم الاعتراف من قبل رئيس الاساقفة بحصول الاسبتارية على السلطة القضائية وتخلصهم من سلطة الاسقف في جبل طابور حتى شهر شباط ، ومن المحتمل انه تم اقتراح ذلك قبل هذا التاريخ وذلك بسبب تهديـد بيبرس للجليـل .

* * *

نيقوسـيا

في عام ١٢٥٥ ، سافر رئيس أساقفة نيقوسيا الى عكا . وقد عقد هناك اتفاقية مع المقدم « ويليام دو شاتينوف » تتعلق بالمسائل التي تنازع بشأنها مع الاخوية في أبرشيته . وكما كان عليه الحال في عكا ، فقد كانت هذه المسائل تتعلق بضريبة العشر وحقوق دفن الاسبتارية ومطالبهم بالتخلص من سلطته القضائية ، وهي المطالب التي كانوا يحاولون توسيعها لتشمل تابعيهم . لقد وافقوا بأن يدفعوا الرئيس الاساقفة أجرا سنويا مقداره ٣ بيزنط أبيض بدلا من ضرائب العشر ، وكذلك ، فانهم وافقوا على اعطائه ماركا فضيا واحدا كل سنة بدلا من ربع الميراث الذي يترك لهم . لقد اعترفوا بأنهم لا يستطيعون أن يمارسوا أية سلطة كنسية على المستأجرين والارقاء الذين سيكونون مسؤولين أمام رئيس الاساقفة ، ومنقذين لحقوق الاسبتار . وقد أبقي آمر الاسبتار في نيقوسيا وكذلك الاخوة والنساء الذين كانوا يخدمون هناك لمراقبة أي تحريم عام أو احكام تتعلق بالحرم الكنسي والحرمان المؤقت المفروض من قبل رئيس الاساقفة ، منقذين ، مرة أخرى ، امتيازاتهم . وقد وعد رئيس الاساقفة من جهته بأن رجال الدين عنده سيرسلون الى مقبرة الاسبتارية جثمان أولئك الذين اختاروا بأن يتم دفنهم بالقرب من الاخوية وسيسمح لآباء الكنيسة بأن يختاروا مدافن أولادهم الشبان في الاسبتار ، اذا كانت تلك هي العادة السائدة في مدينة نيقوسيا.. ومن الواضح ، انه لم يكن متأكدا بأن هذا ما كان سائدا هنـاك .

* * *

طرطوس

ان آخر النزاعات الكبيرة التي كتب عنها بالتفصيل كان ذلك الذي حصل مع اسقف طرطوس ، الذي كان في وضع سيء فيما يتعلق باسترداد أبرشيته من أيدي الاخويات العسكرية بشكل كامل . في عام ١٢٥١ ، عهد البابا الى رئيس دير بيلمونت في طرابلس ورئيس دير القديس صموئيل صاحب عكا وجوقة المرتلين في كنيسة بيروت بمهمة النظر في النزاع الذي وقع بسبب ضرائب العشر بين الاسقف والاسبتار ، وكذلك بمهمة جمع الدلائل بعناية . وتسرب نبأ هذه القضية الى روما ، ولكن البابا كان بحاجة الى مزيد من المعلومات حولها وخاصة لان مفوض الاسبتار قد وافته المنية . في عام ١٢٥٢ ، كان عليه أن يأمر الاسبتارية بالا يزعجوا الاسقف وكنيسة طرطوس « سواء كان ذلك فيما يتعلق بالاشخاص أو الممتلكات » . وليس هناك معلومات عن هذا النزاع أكثر مما قلناه ، ولكن البابا اتخذ في عام ١٢٥٥ خطوة كان من شأنها ان تؤدي الى مزيد من التعقيدات في المستقبل . فقد استثنى الاسبتارية من دفع ما يترتب على محصولهم من الفواكه ، وكذلك دفع ضريبة العشر المترتبة على قلعة الحصن ، حيث كان لهم الحق في تعيين كاهن في كنيسة أبرشية ، وذلك كي يخفف من التكاليف التي ستنفق على تمركز ستين فارسا في هذه القلعة .

تقع قلعة الحصن في أبرشية رفنية ، ولكن هذه الابرشية ضمت الى ابرشية طرطوس . وقد أكد البابا اربان الرابع لاسقف الابرشية الموحدة الجديدة بأنه سيدرس الترتيبات المتعلقة بضريبة العشر والحقوق الابرشية القائمة بين قلعة الحصن ورفنية . وسيقرر فيما اذا كان سيستمر سريان مفعول هذه القرارات أم لا . وفي السنة التالية ، كتب الى رئيس الاساقفة معلما اياه أن أي امتياز طالب به الاسبتار والآخرون بحجة الاتفاقيات التي

عقدت مع رفنية قبل اتحاد الابرشيات لم يعد شرعيا . وقد توجب اجراء ترتيبات جديدة . وفي عام ١٢٦٧ ، وقع نزاع بين الاسقف والاخوية حول ضريبة العشر المترتبة على قلعة الحصن ، وذلك عندما تم استدعاء بطريرك بيت المقدس للتوسط من أجل حل هذا النزاع . وبالاستناد الى قرار البطريرك هذا ، تخلى الاسقف عن مطلبه بشأن ضريبة العشر المترتبة على قلعة الحصن ، في ذلك الوقت وفي المستقبل ، عدا تلك الضرائب المترتبة على الاقطاعات القديمة ، وذلك مقابل أجر سنوي قدره ألف بيزنط اسلامي . على أي حال ، وفيما بعد العام نفسه ، وافق على قبول بيزنط طرابلسي بدلا من البيزنط الاسلامي ، كما صادق على أن الاسبتار قد دفع له الف وخمسمائة بيزنط اسلامي كدفع متأخر عن الضرائب المتراكمة خلال سبعة عشر عاما ، أي منذ حكم البابا الكسندر الرابع . وقد عزم هذا الاسقف على استخدام الاموال لشراء الاملاك لكنيسته . وسمح للكهنة الموجودين في قلعة الحصن ، الذين اعتنوا بالاغريق والذين ينتسبون الى جنسيات غير لاتينية ، سمح لهم بممارسة سلطة كنسية في منطقته ، وخاصة بشأن مسألة بناء الكنائس وفقا لاستخدام شعائر دينية مختلفة . ولم يكن الاسبتار ملتزمين بالقيام بعمل ما ضد قادة الكنائس غير اللاتينية بسبب ارتكابهم للبدع وانفصالهم عن الكنيسة الشرعية ، ولكنه وعد بأنه سوف لن يدعهم يستمرون في أخطائهم : مثال على التسامح الضروري للاساقفة اللاتين تجاه الطوائف المسيحية في الشرق . وكان على رئيس دير قلعة الحصن أن يمارس سلطة أبرشية فيما يتعلق « بمسائل الزواج وقضايا اخرى ليست هامة » . ولم يكن الاسقف وخلفاؤه ملزمين ببعض فقرات هذا العقد الذي تم تجديده في السنة التالية :

ان بقاء العديد من الوثائق الاسبتارية حتى أيامنا هذه يعطي المؤرخ نظرة مفصلة وجيدة حول التطبيق العملي للامتيازات الممنوحة للاخوية في الشرق . وبذلك يمكن التوصل الى استنتاجين : الاول ، أنه من النادر أن نجد حقا قد تم تطبيقه بشكل كامل . وبشكل عام ، فان محاولات الاسبتار لتطبيق امتيازاتهم بشكل عملي أدت الى قيام رد فعل ما قبل هيئة الاساقفة والى

الالتجاء الى القضاء والتوصل الى تسوية ، وذلك في الوقت الذي لم يكن فيه هناك أي تعهد بعدم اثارة المسألة مرة اخرى ، وقد توصل الاسبتار الى اتفاقية مع اسقف طرابلس حول ضرائب العشر وذلك منذ عام ١١١٥ ، ولكن توجب عليهم تقديم الوثائق التي تثبت حقوقهم في عام ١١٢٥ وعام ١٢٥٩ . ثانيا ، ولكن التسويات التي تم التوصل اليها مع الاساقفة غالبا ما كانت لصالح الاخوية، ونستطيع أن نرى فيها حقيقة يمكن ادراكها . تم التوصل الى تسوية ، ولكن ، لسبب أو لآخر ، كان فيها بعض الفقرات الغامضة . وقد استفاد منها الاسبتار وكانت هذه الفقرات بحاجة الى تحديد أكثر ، وغالبا ما كان يتوجب على الاسقف أن يضحي بشيء مقابل قبول الاخوية بهذا التحديد . ونستطيع أن نرى في الاتفاقيات التي عقدت مع كنيسة عكا بأن الاسبتار كان يزيد من ممارسته العملية لامتيازاته عن طريق تفسيره الخاص والجدلي لفقرات معينة من الاتفاقيات السابقة . على أي حال ، تمت الموافقة على التسويات ، وهذه هي الصفة البارزة للاخوية كمؤسسة ابرشية في سورية اللاتينية .

* * *

القسم الرابع

مصادر القوة العسكرية للاستبارية في سورية

الفصل الرابع عشر

الاسبتارية كملاك للأرض

ان الاسبتارية مدينون بالنسبة للمحاصيل الزراعية الى سخاء المحسنين غير الاكليركيين . وقد حصلوا على معظم الممتلكات عن طريق الهبات ، وأتى أكثر من نصفها عن طريق الصدقة ، ولم تكن الاراضي التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة بحاجة للقيام بخدمة مقابلها سوى خدمة الصلاة . وفي بعض الحالات ، تم استثناؤهم حتى من هذه الخدمة ، وقد منح معظم هذه الهبات في القرن الثاني عشر ، وكانت هبات التصدق ، بشكل خاص ، أقل بكثير في القرن الثالث عشر مما كان عليه الحال في أوقات أخرى ، ومن ناحية أخرى ازداد عدد الاملاك المستأجرة ، وظهر معظم الامثلة الدالة على هذه الحالة بعد عام ١٢٤٠ ، وغالبا ما كانت الاجور عالية ، وكانت هناك محاولات لتخفيضها ، أو استبدالها بدفع مبالغ أقل . ان جميع الاراضي التي منحت كضمانة ما أجل الديون أو وفاء لها ، تم الحصول عليها بين الاعوام ١١٧٥ و ١٢١٥ : ربما بسبب فترة الاضطرابات التي سادت في الشرق بين القرنين . وقد تكررت الزيادة في بدلات الايجار ، على الرغم من أن هذه العملية كانت أقل تأثيرا نتيجة الاتجاه المتزايد نحو الحصول على الاملاك عن طريق الشراء . ولكن الاسبتارية اشتروا بعض الاراضي في القرن الثاني عشر ، وفي بعض الاحيان ، تم اتباع طريقة معينة في البيع ، بحيث أنها أمنت للمشتري في الوقت نفسه الفوائد المرجوة من الهبة التصدقية . وكان ينبغي أن تعطى الاملاك الى الاخوية في « مكان الصدقات » مقابل مقدار من المال أو الآجار أو قطعة من الارض ، وينبغي تثبيت البيع في « مكان الصدقات » من قبل الملك أو الامير أو الكونت ، وقد تم اتخاذ جميع هذه الترتيبات ، عدا واحدة منها ، في القرن الثاني عشر ، واستثنيت مملكة بيت المقدس من هذه

الاجراءات الثلاثة : ان معظم الدلائل تشير الى امتلاك الاراضي عن طريق المقايضة تعود الى القرن الثاني عشر ، وكان الاستثناء الرئيسي عبارة عن سلسلة من المقايضات مع الداوية في عام ١٢٦٢ . ومن الواضح أن التوسع الكبير في أملاك الاخوية قد حدث قبل عام ١١٨٧ : بعد معركة حطين ، انخفض عدد الممتلكات المكتسبة بشكل مفاجىء .

لقد لاحظ المؤرخون الاوائل بأن أراضي الاخوية قد تركزت في منـاطق معينة ، بين الخليل وعسقلان امتدادا نحو غربي بيت المقدس والبحر الميت ، وحول قلعة الحصن والمرقب والروج . ولا نعرف مدى تأثير المفاوضات التي جرت قبل الحصول على هذه الممتلكات ، ولكن الدلائل توحي بأن معظـم الممتلكات التي غطت مساحة واسعة ، واشتملت على مزارع عديدة تم الحصول عليها دفعة واحدة ، ولم يتم بناؤها طوال سنوات عديدة . ومن الامثلة على ذلك ، الاراضي الواقعة حول بيت جبرين وكوكب وجبل طابور وقلعة الحصن والمرقب. وعلى الرغم من أن الاسبتارية كانوا مستعدين لدفع مبلغ كبير من المال من أجل كوكب والمرقب ، ومن أجل منافسة البابا بشأن جبل طابور ، فاننا نرى أن الاملاك الهامة الواقعة حول قلعة الحصن والروج قد تم اكتسابها بمبادرة من الحاكم المحلي . وعندما أصبحت هذه الاراضي بأيدي الاسبتارية ، فان هناك دلائل قليلة ــ عدا عمليات المقايضة مع الداوية التي سنأتي على ذكرها بعـد قليل ــ على النجاح في توسيعها او في شراء قطع الاراضي الصغيرة المتداخلة مع أراضيهم ، أو القرى المحاطة بها . كان هناك في سهل عسقلان وحول قلعـة الحصن نوع من النشاط في القرن الثاني عشر . وفي أوائل القرن الثالث عشر ، من المحتمل أن الاسبتارية قاموا ببعض المحاولات لاسترداد اقطاعتهم في المرقب مما أدى الى الاستعجال في قيام سلسلة من النزاعات مع الداوية . وفي عـام ١٢٣١ ، استرد الاسبتارية احدى اقطاعاتهم الواقعة داخل ممتلكاتهم في مانويت « Manueth » بالقرب من عكار ، وذلك بشرائها بمبلغ ١٦٠ بيزنطا اسلاميا . وفي عام ١٢٥١ ، أحبطوا ، بنجاح ، محاولة أحد البائعين لاستردادها . على أي حال ، لم يكن هناك مايثير الدهشة حتى الخمسينات من القرن الثـاني

عشر ، اذ أن الاسبتارية ليس لأنهم قد حصلوا على دير جبل طابور والاراضي التابعة له والتي تقع الى الشمال الغربي من كوكب فحسب ، بل لأنهم استأجروا من رئيس أساقفة الناصرة عددا كبيرا من المزارع الواقعة في هذه المنطقة . وبالطبع ، فانهم خططوا لتوسيع ممتلكاتهم في ذلك الوقت ، وتضمنت اتفاقيات ضريبة العشر التي وقعت مع بطريرك بيت المقدس ورئيس اساقفة الكرك الثابعة لمؤاب فقرات تتعلق بامتلاك الاراضي في المستقبل . وبشكل عام ، يبدو أن الاسبتارية كانوا مستعدين لقبول اقتناء الاراضي في أي مكان كان ، وكانت النتيجة هي أنهم امتلكوا عددا كبيرا من الممتلكات الموزعة هنا وهناك في المشرق ، وخاصة في المقاطعات الغنية مثل قيسارية والرملة وجبيل ، وليس هذا بغريب . ان الحصول على مساحة صغيرة من الاراضي الجيدة في فلسطين وسورية والمرارة التي رافقت ذلك يجب ان يكونا قد أثنيا الاسبتارية عن التركيز على الاملاك القديمة ودفعا بهم الى الحصول على ممتلكات جديدة .

من المؤكد أن الاسبتارية قد نجحوا في امتلاك نسبة جيدة من الاراضي التي أمكن الاستفادة منها ، وفي احدى الفترات ، حصلوا على ١٧٠ قرية من أصل ٨٥٨ قرية كانت موجودة في مملكة بيت المقدس والتي تم تعيينها وتنظيمها في خريطة هذه المملكة في تلك الفترة . ويبدو أن أملاكهم من الاراضي كانت تشكل أعلى نسبة من أراضي طرابلس وانطاكية ، وكذلك ، فقد حصلوا على أوسع الممتلكات في المدينة ، وقد جنوا منها ارباحا كبيرة نتيجة ايجارها . وتم الاحتفاظ بأكثر أراضيهم الواقعة في القرى عن طريق منحها على شكل اقطاعات . وقد استغلوا باقي الاراضي التابعة لهم باتباعهم أربع وسائل . فقد كانت هنـاك الممتلكات التي أنشؤوها ، وكانت ادراتها الكاملـة بأيديهم أو بأيدي موظفيهم . وكانت هناك المزارع التي أسندت اليها أعمال خاصة . كما كانت هناك الاراضي القاحلة ، ليس فقط داخل حدود الاراضي التابعة للمسيحيين ، بل أيضا تلك الاراضي الممتدة داخل البلاد والتي تم تعريفها بأنها « أماكن قاحلة » ويمكن الاستيلاء عليها واقامة المستوطنات عليها . واخيرا ، كانت هناك الممتلكات القليلة جدا والتي تم ايجارها مقابل الاموال التي كانت تدفع على شكل نقد مباشرة .

تحتم على آمر الاسبتارية في أوروبا أن يكون مسؤولا عن عدد من الاملاك الممتدة على مساحات واسعة ، الا انه جعل مركزه الرئيسي في احدى هـذه الممتلكات ، مشرفا على أعمال الاعطيات الممنوحة لاراضيه الخاصة ، وممارسا القضاء الاقليمي ، وكان يعمل أحيانا كقاض أعلى . وبصرف النظر عن حقيقةانه عاش في دير مع أخوة آخرين ، وانه اتبع دستورا دينيا ؛ فقد كانت مهامهمختلفة قليلا عن مهام لوردات الاقاليم الذين كانوا يعيشون بالقرب منه . وعلى الرغم من أن الاسبتارية كانت لهم سياسة عامة تجاه ممتلكاتهم ، بحيث انها ادت في خاتمة المطاف الى تشجيع المستأجرين لاراضيهم على استبدال دفع الايجار بالقيام بخدمة هذه الاراضي ، فانه يجب التأكيد على ان الاسبتارية لم يكونوا ثوريين ، وانهم اكتفوا باتباع عادات وتقاليد محلية في أصقاع عديدة ومختلفة من أوروبـا .

ان الشيء نفسه صحيح بالنسبة لسورية . ولكن في حين ان اكثر الانظمة الزراعية في أوروبا الغربية قد تطابقت مع الشكل العام الذي كان سائدا بشكل واسع ، فان ادارة الممتلكات في سورية كانت لها تلك الصفة الخاصة التي تـم وصفها على الشكل التالي : عدم وجود الاراضي الخاصة ، وفرض حد ادنى من عمل السخرة على القرويين . وقد عمل الفلاحون في مضظم الاراضي تحت اشراف مرشد أو وكيل ، من السكان المحليين ، بينما اخذ اللوردات نسبة من محاصيلهم وكذلك اجور اضافية محددة . وكان ما استعمله اللوردات بشكل مباشر هو فقط بعض الاراضي المزروعة بكروم العنب ، وكذلك بساتين الزيتون وحقول قصب السكر والحدائق . وقد استخدم الاسبتارية الاساليب نفسها التي استخدمها جيرانهم في ادارة الاعمال المتعلقة بهذه الاراضي ، وكان هـذا يعني بشكل عام أنهم تركوا أملاكهم الخاصة جانبا . وسنرى فيما بعد أن المقاطعات العسكرية في الشرق قد انشئت داخل القلاع ، أو المدن (عدا بعض الاستثناءات) بحيث أن رؤساء وقادة هذه القلاع والمدن كانوا مسؤولين عن المحافظة على مساحات من الاراضي أوسع من المساحات التي كان يسيطر عليها القـادة الاوروبيون الذين اعتبروا وكلاء خاصين بالجماعات الاكليركية ، اذ

انهم كانوا بمنزلة رؤساء الاديرة الاوروبيين . وقد اشرفوا من مراكزهم على الممتلكات المترامية الاطراف لان الاراضي الخاصة بهم ، والتي تحتاج للاشراف عليها ، كانت قليلة ، ولكنهم جمعوا نسبة معينة من محاصيل فلاحيهم ، ومن المحتمل ان مهمتهم كانت انشاء المستودعات في مراكز معينة معدة لتخزين المحاصيل فيهـا .

وفي حالة غياب الاسبتارية ، فان اعمال السكان السوريين كانت تـدار من قبل حاكم مسلم ، واحيانا من قبل عدة حكام مسلمين ، ويكون عادة مـن السكان الاصليين ، وهو مسؤول امام الاخوية فيما يتعلق بحكم القرية بطريقة سلمية ، ويجعل عائداتها مؤلفة من النقود والسلع . وكان منصب هؤلاء الحكام يعتمد فقط على مشيئة المقدم والاخوة . وقد أدوا القسم المعتاد إمام ممثلي الاخوية ، مرة لوحدهم وأيديهم فوق السيوف ، ومرة اخرى مع اناس محددين من القرويين،وكذلك،فانهم ابدوا نوعا من الاخلاص للاقطاعي . ويجب ان نسلم بانهم تركوا لوحدهم دون ان يتدخل أحد في شؤونهم ، باستثناء بعض الزيارات بغرض التفتيش ، وذلك على الرغم من ان الاسبتارية قد تركوا امناء لسجـل اعداد الفلاحين في كل قرية والاجور التي يتقاضونها . ومن المحتمل انه قد تم تنظيم القرى في مجموعات كانت مراكزها المستودعات حينا او المخازن احيانـا اخرى حيث كانوا يرسلون منتجاتهم اليها . والى الآن ماتزال احدى المزارع التي تعود الى عهد الاسبتارية تحتوي على آثار مستودع كبير . وقد ضمت المستودعات الاخرى الى القلاع الصغيرة . ويبدو انها لم تكن مقرات لرؤساء وقادة الحصون ، ومن المعقول ان نقول انها كانت مراكز مقاطعات ادارية عـلى نحو أصغر . وتصف احدى الوثائق الهامة عملية اجراء تقسيمات ثانوية لاحدى المقاطعات ، وقد أخذ بعين الاعتبار في هذا التقسيم ما حصلت عليه المقاطعـة من أملاك في دير جبل طابور . وفي يوم الاربعاء ، ٣٠ حزيران ، وصل المؤرخ « جوسلين دو تورنيل » « Joscelin de Tornell » الى احدى القرى الواقعة بين الناصرة والبحر الميت ، ومن المحتمل ان جوسلين هذا كان آمر قلعة جبل طابور في ذلك الوقت ، وبالتأكيد ، فانه كان مارشال الاخوية عام ١٢٦٢ . وقد

رافقه احد كتاب العدل ، والعديد من الاخوة ليقوموا بدور الشاهد ، وكذلك جنديان من التركوبول يستطيعان بلا شك تكلم اللغة العربية . ولقد زار جوسلين مزارع جبيل وكاستنا وكفر الست ، وسارونية ودامية وسيبيرا ولوبية ، واخذ منها ممتلكات شخصية من اجل الاخوية ومنحها التثبيت الديني بمنح الاسرار المقدسة للعديد ممن كانوا يشغلون منصب الرئيس . وفي يوم الخميس ، قام بالمراسيم نفسها في مزرعة اربيل ، وفي يوم الجمعة فعل الشيء نفسه في « اجديس » التي تقع بالقرب من البحر الميت . وهنا أيضا ، رفع « راية او شارة » الاسبتار . وبما أن « أجديس » كانت تقع فوق أرض مرتفعة ، فانها لم تكن ملائمة لاقامة مستودع فيها ، ولكن كل هذه الممتلكات كانت تقع ضمن الاراضي الشاسعة التابعة لقلعة جبل طابور ، ويبدو ان « جوسلين دو تورنيل » قد انشأ مقاطعة صغيرة وحكمها من هذه المزرعة التي تم اختيارها بحكم موقعها الهام على طرف الاراضي التابعة للقلعة .

اننا نعرف عشرين مقاطعة وقطعة ارض تابعة للقلاع في الشرق . وهناك امكانية لوجود مقاطعات وأراضي أخرى من هذا النوع ، وذلك على الرغم من ان جميع قلاع الاسبتارية كانت تحكم من قبل آمريها . ولم يكن جميع هؤلاء الوكلاء يعملون في وقت واحد ، وقد اعيد تنظيم إملاك الأخوية مرات عديدة ، ولم تكن هذه التنظيمات تجري لاسباب ادارية محضة فحسب بل قد جرى بعض هذه التنظيمات من اجل الاشراف علي قلاع هامة ، وكان الدافع الى اقامتها اسباب ادارية من ناحية وعسكرية من ناحية اخرى . ومن المحتمل ان بعضها قد جرى من أجل انشاء تكية . على أي حال ، كانت جميعها مناطق نفوذ خاصة بجماعة اكليركية ، والتي كان الموظفون فيها يسيطرون على مساحات واسعة من الاراضي ، وذلك لان سيطرتهم كانت قليلة على القرى في اكثر الحالات ، ولكن السبب في ذلك بالنسبة لقبرص هو قلة الممتلكات . وكان بعض هذه المناطق أهم من بعضها الآخر : في عام ١٢٧٠ ، كانت قوة نفوذ القيمين في قبرص وصور وطرابلس وارمينيا اقل مما كان عليه الحال بالنسبة لزملائهم في عكا وقلعة الحصن والمرقب . ولكن عكا وانطاكية وارمينيا وقبرص وطرابلس والمرقب

وقلعة الحصن كانت لديها خزائن مالية خاصة بها ، كما ان آخر مدينتين مما ذكرناها كانت لديهما في عام ١٢٦٨ محكمة عاليا خاصة بكل منهما. وقد كان القيمون في سورية ، كزملائهم في الدول الغربية ، وكلاء عامين للمقدم والدير الرئيسي ، حيث انهم كانوا يحصلون على الاملاك ويؤجرونها في مقاطعاتهم لصالح الاخوية . وكما كان عليه الحال في جميع المناطق المسيحية ، فانهم كانوا يتصرفون كما يتصرف أي لورد محلي ، حيث انهم كانوا يمارسون حق تعيين الكهنة للكنائس ، ويطلبون من التابعين لهم والمستأجرين الاوروبيين ان يؤدوا الخدمة ، كما انهم يشرفون على تحقيق العدالة بينهم ، ولهم سلطة قوية على الفلاحين الذين يعملون عندهم ، على الرغم من ان هؤلاء الفلاحين كانوا مسؤولين امام محاكم الدول التي يتبعون لها .

لقد اشرف آمر قلعة بيت جبرين على ممتلكات كبيرة وواسعة امتدت بين عسقلان والخليل ، وقد تم الحصول على معظمها عند بناء هذه القلعة او قبل ذلك بقليل . وقد كانت قلعة بيت جبرين مركزا نشطا لاعمال الاستيلاء التي كان يقوم بها المستوطنون الاوروبيون ، وهذا ما سنأتي على ذكره بعد قليل . لقد أشرفت هذه القلعة على ممر هام للقوافل التجارية ، وبلا شك فانها أخذت منها رسوما مقابل مرورها . وكان يوجد فيها عام ١١٦٨ اخ قائد من بيت جبرين . ولكن خلال سنتين ، تم تعيين آمر لها ، ومن المحتمل ان خلفاءه احتفظوا بمناصبهم حتى سلمت القلعة للمسلمين عام ١١٨٧ . وقد احتلت مرة اخرى من قبل الاسبتارية بين عامي ١٢٤٠ – ١٢٤٢ ، ولكن هناك دلائل قليلة تشير الى احياء منصب آمر القلعة من جديد .

من المحتمل ان الادارة العامة للاملاك الواقعة في مدينة بيت المقدس ، وكذلك الممتلكات الواقعة بجوارها قد وقعت تحت سيطرة نائب المقدم ، وذلك في القرن الثاني عشر ، على الرغم من اننا رأينا سابقا انه كان هناك بعض الموظفين الذين أصبحوا مسؤولين عن جباية الايجارات . على أي حال ، كان هناك في عام ١١٦٨ قائد من بيسان حيث لم تكن مسؤولياته معروفة ، بينما كانت الممتلكات الهامة الواقعة الى الغرب من بيت المقدس ، على الطريق الى الشاطىء ، تدار

من قبل قائد من عمواس ، وآمر قلعة بيلمونت الذي أوجد منصبه منذ عام ١١٧٠ . وبين عام ١١٦٦ و ١١٧٨ ، من المحتمل ان قائد سبينا « Spina » قد أستطاع ان يسيطر على الممتلكات الواقعة في الاراضي المنخفضة بين قيسارية ويافا . ومن المحتمل ان فقدان بيت المقدس ومعظم راضي فلسطين المتاخمة لاراضي الاسبتار الواقعة بالقرب من البحر قد ادى الى اعادة التنظيم . وفي النصف الاول من القرن الثالث عشر ، فان جميع الممتلكات الواقعة جنوبي فلسطين كان يحكمها آمر يافا . ومن المحتمل أن أمور الاراضي الواقعة في مقاطعة قيسارية كانت تدار من قيسارية ، حيث كان يوجد هناك نزل في منتصف القرن الثالث عشر .

يبدو ان ممتلكات الاسبتار في الجليل كانت تحكم في البداية من قبل آمر طبريا الذي ظهر عام ١١٦٥ ، وقد بقي وكيلا ذا أهمية كبيرة حتى عام ١١٨٢ . ومن المحتمل ان بعض ممتلكاته قد ضمت الى أرض آمر قلعة كوكب ، حيث تقع اقطاعته الى الجنوب . وأستمر تعيين آمري هذه القلعة من عام ١١٧٣ حتى عام ١١٨٩ ، عندما وقعت تحت حكم صلاح الدين . وقد أحتلت مرة اخرى فيما بعد ، حيث أنها حوصرت من قبل المسلمين عام ١٢٤٧ ، ولكن الاقطاعات التابعة للوكيل في طبريا وقلعة كوكب لم تظهر مرة اخرى في القرن الثالث عشر. ومن المحتمل ان أمور الاقاليم التابعة لهؤلاء المساعدين كانت تدار من عكا ، ولكن الحصول على جبل طابور عام ١٢٥٥ ، أدى الى اقامة قلعة جديدة سيطرت على معظم الاراضي الواقعة شرقي الخليل وفي أبرشية الناصرة . ويبدو ان مدينة عكا والاقطاعية التابعة لها ، جليل الغربية ومقاطعة حيفا قد اصبحتا ضمن مسؤولية آمر عكا ، الذي تم تنصيبه لاول مرة عام ١١٥٥ . وكانت اقطاعته أكبر الاقطاعات في القرن الثاني عشر ، حيث كان لها تكية وهيئة اكليركية وخزينة خاصة بها . أي وبعد عام ١١٩١ ، ازدادت أهميتها بانتقال الدير المركزي الى المدينة . وعلى أي حال ، من المحتمل ان الممتلكات الشمالية التابعة لها قد أعيد ضمها الى مجموعة جديدة من مجموعات مناطق نفوذ الوكيل تحت أمرة قائد مانويث . وقد تم التوصل الى هذا التعديل في تسوية عام ١٢١٢ ، وعلى الرغم

من ان هذه الاقطاعية لم تذكر مطلقا ، فقد صدر عن الاجتماع العام لرجال الكنيسة عام ١٣٠١ مرسوم يقضي بأن تبقى ادارة امور قرية كولوس في قبرص كما كانت سابقا . وقد كانت كولوس مركزا من مراكز مقاطعة قبرص ، ويدل ذلك على ان مانويث كانت تتمتع بموقع هام . ويبدو ان املاك الاسبتارية في مقاطعة صور وتبنين وصيدا وبيروت كان يسيطر عليها آمر صور ، وذلك خلال فترة سيطرته على الجزء الرئيسي من الاراضي البعيدة عن الشاطئ .

كانت أمور الممتلكات الواقعة في اقليم طرابلس ، « شمال با دو شيان » « Pas dou Chien » ، تدار من قبل أحد الوكلاء الذي عرف في البداية كرئيس للدير او آمر قلعة صنجيل . وبين عامي ١١٨٢ و ١١٩٢ ، استبدل اسم آمر قلعة صنجيل باسم آمر طرابلس . فقد كانت هذه المقاطعة منطقة هامة ، حيث كان لها في عام ١٢٨٣ خزينة خاصة بها . ومن المحتمل ان البلاطينية الكبيرة الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية ، حول قلعة الحصن ، لم تصل الى مستوى منطقة مستقلة حتى القرن الثاني عشر . وقد أعطى الاسبتارية القلعة والمقاطعة التابعة لها الملك بوهيميا لاستخدامها لاغراض الحج. ولكن في عام ١١٧٠ ، ظهر آمر قلعة الحصن ، واتخذ خلفاؤه من بعده على عاتقهم أمر الاشراف على املاك الاسبتارية الواقعة الى الشمال من هذه المقاطعة،وكانت قلعة الحصن تمتلك منشأة كنسية هامة في عهد رؤساء الاديرة ، الذي كان يتمتع ببعض الامتيازات من قبل اسقف طرطوس ، وكانت تمتلك خزينة ومحكمة عليا خاصة بها . وفي القرن الثالث عشر ، تم تعيين قائد مرؤوس للفرسان ، وقد كان من احد فرسان الكرك ، واسندت اليه مهمةاستعادة القلعة.

يبدو ان الاراضي الواقعة الى الجنوب من مقاطعة انطاكية قد أصبحت تحت سيطرة آمر اللاذقية وجبيل ، وذلك عام ١١٨٣ ، وادى الحصول على قلعة ومقاطعة المرقب في عام ١١٨٦ الى اعادة تنظيم امور الادارة في هذه المنطقة : سيطر موظف جديد ، وهو آمر قلعة المرقب ، على الممتلكات الواقعة في المناطق السورية الاخرى ، والتي كانت تابعة في وقت من الاوقات لسيد اقطاعي غير اكليركي . وقد تم تعيين أول آمر بعد الحصول على القلعة مباشرة ، وكما كان

عليه الحال في قلعة الحصن ، فان آمري القلاع كانوا مسؤولين عن عدد من رجال الدين وخزينة مالية ومحكمة عليا . ومن المحتمل ان مقاطعة « مرقية » غير الاكليركية والتي تقع على الشواطىء ، جنوب المرقب ، قد اصبحت تحت سيطرة الاسبتارية خلال فترة من فترات القرن الثالث عشر . ومن المحتمل ، انه كان هناك ، بسبب هذه السيطرة ، قائد لمرقية في عام ١٢٥٧ . ولكن وجود منطقة النفوذ هذه في سورية غير مؤكد . ان الاملاك الواقعة الى شمالي المقاطعة، وربما تلك التي تمتد نحو سهل قيليقية قد ضمت الى مجموعة الاراضي التابعة لمنطقة هامة تابعة لسيطرة آمر انطاكية ، الذي كان يساعده امين الصندوق بشكل مؤكد .

كانت أراضي الاخوية الواقعة في أرمينيا اللاتينية تحت سيطرة آمر قلعة سيليفكه في بداية الآمر ، وقد استمرت هذه القلعة في الوجود من ١٢١٠ حتى ١٢٢٦ فقط . وفي عام ١٢١٠ ، كان احد القادة يساعد آمر هذه القلعة، ومن المحتمل انه هو القائد الذي اسند اليه جزء من مهمة تنظيم الحدود الجديدة للاسبتارية في غربي المملكة . وبعد خسارة القلعة ، أوجدت الاخوية منصب قائد ارمينيا ، وقد عرف هذا المنصب لاول مرة في عام ١٢٤٨ . وفي عام ١٢٨٣، كان يساعده امين الصندوق . ومن المحتمل ان خزينة انطاكية قد تم نقلها الى ارمينيا بعد سقوط المدينة بيد المسلمين .

امتلك الاسبتار ممتلكات خاصة به في قبرص منذ بداية القرن الثالث عشر . وكانت الظروف هنا شبيهة بتلك الظروف التي كانت سائدة في اوروبا ، حيث كان اللوردات يملكون أراضي خاصة بهم . على أي حال ، كانت ممتلكات الاخوية قليلة ، ومنذ عام ١٢١٠ ، اصبحت هذه الممتلكات تحت سيطرة آمر قبرص الذي كانت له خزينة خاصة به . وادى فقد الاراضي السورية البعيدة عن الشواطىء في عام ١٢٩١ الى اعادة تنظيم الاملاك القبرصية التي قسمت الى مقاطعتين : مقاطعة بقيادة آمر ليماسول الذي يبدو انه قد اصبح نائبا للمقدم مسؤولا فقط عن الاملاك في هذه المدينة ، وأخرى بقيادة آمر قبرص . ويبدو ان الاخير ، الذي كان مقره في نيقوسيا في بادىء الامر ، قد اقام مركزا ثانيا له

في قلعة كولوس بعد عام ١٣١٠ ، وقد ادى اقتناء المزيد من الممتلكات الداوية في هذه الجزيرة الى القيام بمزيد من اعادة التنظيم التي تحدثنا عنها قبل قليل .

لقد رأينا ان الاسبتارية في سورية لم يستطيعوا ان يطبقوا الامتيازات الممنوحة لهم بشأن استثنائهم من دفع ضرائب العشر المترتبة على الاراضي الخاصة ، وانهم كانوا يتوقون الى تطبيق الامتياز الآخر المتعلق بضريبة العشر. التخلص من دفع ضرائب العشر على المنتجات التي يستعملونها . وكان الرد المقنع للفلاحين هو ان يزرعوا فقط المحاصيل التي يحتاجونها ، او ان يطلبوا منهم عائدات من منتجات محددة ، وقد رايناهم يحاولون تجنب دفع ضرائب العشر عن طريق تغيير محاصيلهم او ممتلكاتهم . ولكن التخصص في زراعة نوع معين كان اسلوبا لمواجهة المتطلبات الكثيرة التي جرتها عليهم التزاماتهم التي تعهدوا بها بشأن أراضيهم . فلم يتوجب عليهم ان يقوموا بأعباء النشاطات العسكرية والخيرية فقط ــ تلك النشاطات التي تطلبت كميات كبيرة من المواد الغذائية والعلف والمعدات العسكرية ــ بل كان لديهم عدد كبير من التابعين لهم ممن توجب اطعامهم . وفي عام ١٢٦٨ ، كتب « هيو ريفل » بأنه كان هناك في وقت من الاوقات أكثر من عشرة آلاف شخص عاشوا على المؤن التي حصلوا عليها من خارج بيوتنا . وقد فرض الموظفون المسؤولون عن بعض املاك الاسبتارية عائدات خاصة ، وذلك كجزء من المبالغ المطلوبة منهم . وفي عام ١١٨٢ ، توجب على آمر انطاكية ان يزود الاسبتار الموجود في بيت المقدس بألفي ذراع من القطن سنويا ، فقد توجب على كل من آمر قلعة صنجيل وآمر طبريا تزويده بقنطارين من السكر .

كانت معظم القرى تعمل بأساليب قديمة . ولكن كانت هناك الاساليب التي استطاع بواسطتها القادة تأمين متطلبات الاخوية وحاجاتها . وقد طلبوا من القرويين عائدات مقابل منتجات معينة . لقد استطاعوا ان يستفيدوا من اقطاعتهم الصغيرة بشكل كامل ، وعملوا بالاستناد على اسس المشاركة : بساتين الزيتون وحقول كروم العنب وحقول قصب السكر والحدائق ، والتي يبدو ان اتفاقيات ضرائب العشر المعقودة مع الاساقفة بشأن هذه الاراضي قد اعتبرت

انها اقرب الاتفاقيات المعقودة في سورية لتلك الاتفاقيات المعقودة في اوروبا ، بشأن الاراضي الخاصة واكثرها مساواة لها . ومن المحتمل ان سبب هذه النزعة هو استغلال هذه الاراضي بشكل كامل ، ولتوسيعها على حساب الاراضي المشاع في القرى . وادى الموقع الجغرافي لبعض المزارع الى جعلها - من قبل هؤلاء القادة - أماكن مفيدة بالنسبة لمزارعهم ليزرعوها بشكل رئيسي بنوع واحد من المحاصيل . ويبدو ان مساحة كبيرة من الاراضي « مزرعة روبرت » قد زرعت باشجار الزيتون ، وذلك عندما انتقلت ملكيتها الى ايدي الاسبتارية عام ١٢٥٤ . وقد تم الحصول على مزرعة القديسة ماري كافير «M. Caphaer» عندما اعلن في عام ١١٧٦ انهم سيمدون الاسبتار الموجود في بيت المقدس بالخبز الابيض في المستقبل . ومن المحتمل ان سكان قراهم كانوا دائما يزرعون نسبة كبيرة من الحقول بالقمح . ويمكننا ان نتوقع ان مزارع معينة في القرى التي تقع في الاماكن المنخفضة والمروية بشكل جيد ، والقريبة من البحر كانت تزرع دائما كميات كبيرة من قصب السكر ، ولكن في الوقت نفسه ، تظهر لنا اتفاقيات ضرائب العشر المعقودة مع الاساقفة ان الاسبتارية غيروا محاصيل اراضي معينة . وليس من الواضح كيف تم ذلك ، لاننا لانعرف القوة التي استخدمت من قبل اللوردات اللاتين في الشرق في زراعة المحاصيل . وبطريقة ما - ربما عن طريق الاقناع ، وربما عن طريق التهديد - فانهم اقنعوا القرويين بتغيير محاصيلهم .

واخيرا ، كانت هناك عملية الاستيلاء على الاراضي غير المزروعة . ان القرار المتعلق باعادة زراعة الاراضي البور هو سمة من سمات وثائق الاسبتارية، وقد لوحظ كثرة المزارع « Gastinae » في سورية من قبل العديد من المؤرخين. واقترح بعضهم مؤخرا ان هذه المزارع كانت بشكل رئيسي عبارة عن مراع مشاع . وعلى الرغم من أنه من المؤكد انه يمكن تطبيق هذا التعريف المحدد على بعض المزارع ، فيجب علينا ان نحاول البرهان على ان هذه التسمية لها معنى اوسع بكثير ، وانها استخدمت للدلالة على جميع الاراضي غير المحروثة . وليس هناك اي دليل على ان الاسبتارية قد حاولوا الاستيلاء على المراعي

القروية على حساب الفلاحين التابعين لهم ، ولكنهم بالتأكيد حاولوا زراعة للاراضي غير المحروثة من قبل ، والتي يبدو انها لم تكن مأهولة بالسكان ولم تضم الى المستوطنات المشاع . في عام ١١١٨ ، كان الاسبتارية يجلبون المزارعين لزراعة الارض في مقاطعة الرها. وفي عام ١١٥٢ ، منح لورد مونتريال الاسبتارية بعض الاراضي ليزرعوها بكروم العنب. وبعد عدة سنوات منحهم صاحب المرقب اراضي « يوبين » وذلك لاقامة مستوطنة عليها . وفي عام ١١٦٦ ، تم الحصول على قرية اخرى ، وهي قرية ناريا « Naria » . وعلى الرغم من تحويل ملكيتها اليهم ، فانها اصبحت تحت سيطرة الاخوية مرة اخرى عام ١٢٦٥ ، وقد تحولت الى مزرعة ، ومن ثم فانها زرعت . وعندما سلمت « سولوريا » « Soloria » الى الاخوية في عام ١١٥٥ ، فانها كانت مزروعة ، وفي عام ١٢١٧ ، خرجت عن سيطرة الاسبتارية ، وتحولت الى قرية ، على أي حال ، رأت الاخوية انه من الافضل بيعها في ذلك الوقت . وفي عام ١١٩٨ ، سمح المقدم « جيوفري دو دونجون » لبعض خدمة بأن يزرعوا كروم العنب . وفي عام ١٢٣٦ ، سمح صاحب طرابلس للفلاحين في قلعة صنجيل بزراعة كروم العنب واشجار الزيتون بشرط ان تحصل الاخوية على ثلث مجموع محصول الفواكه ، واذا بقيت الاراضي بورا ، فان ملكيتها تعود له . ومن الواضح انه كان يحاول اقامة مستوطنة على ان يكون له حق في قسم ما من المحصول (أي على أساس المشاركة في المحصول) ، وليس قرية جديدة بالمعنى الصحيح بل مستوطنة على الطراز الغربي مع بعض الامتيازات الممنوحة للمزارعين ، لانه اكد بأن اقتناء الارض يجب الا يتم عن طريق حق الوراثة .

لقيت عملية استيطان الاراضي البور اول تشجيع من قبل الحكومة البابوية . وفي عام ١١٣٧ ، سمح للاسبتارية بان يقيموا الكنائس والمدافن في الاراضي المهجورة ، وكان هذا امتيازا ذا قيمة كبيرة بالنسبة للمستوطنين في المستقبل ، وفيما بعد ، سمح لهم ببناء المدن والقرى والمدافن على حدود المسلمين ، مع العلم بأنه لم يكن هناك بالقرب منهم أي دير أو مجمع ديني . وقبل عام ١١٨٧ ، تدفق المهاجرون الاوربيون بشكل كبير الى فلسطين وسورية ،

وقد تعاونت المملكة مع الكنيسة في اقامة المستوطنات لهم ، والتي كانت تماثل المدن الجديدة من عدة نواحي ، وهي المدن الجديدة التي اقيمت في اوروبا في الوقت نفسه . وقد اقيمت احدى هذه المستوطنات من قبل الاسبتارية . وفي عام ١١٣٦ - حصل الاسبتارية على حصن بيت جبرين الذي من المحتمل،كانت فيه مستوطنة للاحرار . وقبل عام ١١٦٠ - لكن من المحتمل بعد سقوط عسقلان بيد الصليبيين عام ١١٥٣ - منح المقدم « ريموند دو بوي » حقوقا خاصة للمستوطنين الذين بلغ عدد عائلاتهم ٣٢ عائلة وبلغ عددهم نحو ١٠٠ - ١٥٠ شخصا . وقد أشير الى ان العقد ، الذي تم تصديقه من قبل « جيلبرت دو اسايي » في عام ١١٦٨ ، كان يعادل تماما عقد الاعمال الاوروبي او مخطط القرى « Villes neuves » وقد اعلن بشكل واضح ان الهدف من الاستيطان هو تأهيل هذه الاراضي . ويبدو ان جميع المستوطنين كانوا من الفرنج - الذين أتوا من بقاع عديدة من البلدان المسيحية . وكان هناك شخصان من مملكة بيت المقدس ، احدهما من الرها ، والآخر من الخليل ، وكذلك شخصان من الرملة ولكن كان هناك مستوطنون جدد من اوفيرن ، ولومبارديا ، وبواتو ، وكتالونيا ، وبورغنديا ، وفلاندرز ، وكركسون . وقد حصل كل مستوطن على ٢٤٠ فدانا من الارض ليبني في جزء منها بيته ، ويزرع الباقي . وبالمقابل، فقد توجب عليه ان يدفع ضريبة سنوية او جزءا من المحصول ، وكان هذا الجزء عبارة عن ضريبة العشر المترتبة على محاصيله وفواكه عدا الزيتون ، كما توجب عليه ان يدفع عائدات معينة كانت مألوفة في ذلك الوقت . في بادىء الامر ، كان للاخوية حق الاولوية في شراء هذه الاملاك ، ولكن في عام ١١٦٨ ، سمحت الاخوية للمستوطنين ببيع أراضيهم لمن يريدون ، عدا رجال الدين والفرسان. ويجب دفع بيزنط واحد الى الاسبتار عن كل ١٢٠ فدانا ، او جزءا من البيزنط بشكل يتناسب مع مساحة قطعة الارض المباعة . ويجب دفع « روبينوس » « Robinus » واحد - يساوي ثلث او ربع بيزنط - عند بيع بيت او بستان للفاكهة . وكان للمستوطنة نظام خاص بالنسبة للعدالة، وهذاما سنبحثه في فصل آخر . ويبدو ان دستورها قد اعتمد على الاعراف التي تمت صياغتها قديما في احدى المستوطنات في الرملة .

من المهم ان تؤكد على مدى ارتباط المستوطنة في بيت جبرين بالمشاريع الاستيطانية الفرنسية الحالية فقد كان هناك عقد الاعمار ومنح الاراضي ، وكان المستوطنون احرارا ، حيث كان بامكانهم مغادرة هذا المكان عندما يشاؤون، انهم لم يحصلوا على ارضهم وفقا لشروط امتلاك اراضي الاقطاعيين : انها كانت ممتلكات وراثية ، يحق لهم ان يبيعوها او يرهنوها حسب ارادتهم،حيث كانوا يدفعون الآجار عنها . وقد تركت السيادة وادارة امور القضاء للاسبتارية . لقد كان المستوطنون مدينين لهؤلاء الاسبتارية بالحق الاقطاعي اي بجزء من محاصيلهم ، وهو الجزء الذي يدفع وفقا لكمية المحاصيل المحصورة ، ولم يكن هذا الجزء ثابتا بشكل دقيق ، وكان نموذجا عن المدن الجديدة الفرنسية . ويبدو ان المستوطنة في بيت جبرين قد بقيت حتى عام ١١٨٧ على الاقل . وقد نهبت عام ١١٥٨ ، ولكن تم تجديد العقد مع المستوطنين في عامي ١١٦٨ و ١١٧٧، وكان لها محكمة ذات ممثلين لها في البرلمان ، ومن المحتمل ان هذه المحكمة قد عادت الى مزاولة عملها خلال الفترة التي عادت فيها المستوطنة الى ايدي الاسبتارية بين عامي ١٢٤٠ و ١٢٤٤ .

من المحتمل ان بيت جبرين لم تكن المشروع الاستيطاني الوحيد للاسبتارية، وذلك على الرغم من كونها افضل دليل وثائقي . وكان الاخوة يشاركون في الاستيطان في المحمرية الكبرى « Magna Mahumeria » عن طريق كهنة القبر المقدس ، وذلك في القرن الثاني عشر . وبحصولهم على ممتلكاتهم في جبل طابور في الخمسينات من القرن الثالث عشر بنوا القريتين اللتين كانتا سابقا اماكن لتجارب اقامة المستوطنات ، وذلك على الرغم من ان بقاءهما في ذلك الحين غير معروف .

ان محاولات استغلال الحدائق وحقول كروم العنب وبساتين الزيتون وجعل ملكيتها خاصة ، وكذلك التركيز على اتفاقيات دفع جزء من المحاصيل ، ان هذين الامرين يؤكدان حقيقة ان الاسبتارية كانوا مهتمين بما تنتجه قراهم أكثر من اهتمامهم بما تدره عليهم هذه المحاصيل من أموال . فالاسبتارية في سورية كانوا بحاجة الى المنتجات الزراعية لتأمين الغذاء لانفسهم ولتابعيهم

ولحيواناتهم . وكانت احدى نتائج هذه الحقيقة هي وجود دلائل قليلة على تغيير الخدمات بايجارات ثابتة ، والتي كانت سمة من السمات المتعلقة بممتلكاتهم في اوروبا ، وقد اعتمدوا على الايجارات بالنسبة للبيوت وممتلكاتهم في المدن ، ولكن الامثلة التي تدل على قبولهم اخذ الايجارات بدلا من الخدمات المعتادة ، التي يؤديها المستأجرون في الاراضي الزراعية ، كانت قليلة ، وخاصة في طرابلس وانطاكية ، وذلك على الرغم من انهم كانوا مستعدين لدفع أجور عالية من أجل الممتلكات التي حصلوا عليها . وقد وافق الامير « بوهمند » الخامس على دفع الآجار لهم عن المرقية وحمص ، وذلك عن طريق التسوية التي حققها احد المحكمين . الا ان الاخوة لم يكونوا راضين عن هذه التسوية . على أي حال ، تم أيجار مزرعة ومرعى بالقرب من اللاذقية «لويليام مارتن» مقابل ١٠٠ بيزنط سنويا ، وذلك في عام ١١٥٢ . وفي عام ١١٧٦ ، كان امير انطاكية ـ طرابلس مدينا للاخوية بمبلغ ٣٠٠ بيزنط مقابل استئجار عدة مزارع لمدة سنة واحدة ، ومن المحتمل ان مزرعة « بوكومبر » « Bocombre » ومزرعة « رمسكا » « Remesca » تم الحصول عليهما مع الممتلكات الموجودة في المرقب . وفي عام ١٢٠٢ ، استؤجرت هاتان المزرعتان من الاسبتار مقابل ٣٠٠ بيزنط سنويا، وكانت تدفع بشكل خاص من اجل حصص فارسين ، وكان هذا المبلغ يعود بدوره الى أمراء طرابلس ، ولكن تم تسليمه في السنة التالية الى الاخوية من قبل « بوهمند » . وفي عام ١٢٥٤ ، حصل « هيو دو بارليز » « Hugh de Barlais » على هذه القرى من الاخوية . وقد عقد اتفاقية مع آمر قلعة المرقب الذي استعاد ريمسكا وبقيت تحت سيطرته لمدة اثنتي عشرة سنة . وقد أعفي « هيو » من اداء الخدمة التي كانت عبارة عن دفع ٣٠٠ بيزنط طرابلسي ، الا اذا عجزت ريمسكا عن دفع مبلغ مماثل للاخوية ، وفي هذه الحالة ، فانه سيتدخل لتسوية الخلاف ، وبعد اثنتي عشرة سنة ، فان « ريمسكا » ستعود لملكيته بنفس شروط الخدمة السابقة . وبين عامي ١٢٧٨ ـ ١٢٨٤ ، عقدت الاخوية اتفاقية مع « وولتر دو بيلوي » « Walter de Beloy » ، وقد قضت بوضع المزرعة تحت خدمة فارسين . وحصل الاسبتار على ريمسكا مقابل استثناء كلا المزرعتين من الخدمة ، لذلك

حصل وولتر على « بوكومبر » مستثناة من اداء الخدمة تجاهها . وفي هـذه الحالة ، فضل الاسبتارية الحصول على مزرعة واحدة مقابل الحصول مـن الاخرين على اداء الخدمة تجاه مزرعتين .

يبدو ان هناك اختلافين رئيسيين بين ادارة امور ممتلكات الاسبتار في اوروبا وبين ادارتها في سورية اللاتينية . لقد ادت طبيعة الزراعة في الشرق الى مزيد من المراقبة والاشراف أكثر مما كان سائدا في اوروبا ، حيث كان قادة الاسبتارية مالكين غائبين عن اراضيهم ، يتلقون الايجارات والضرائب عنها ، اكثر من كونهم لوردات مقيمين في اراضيهم . وفي الوقت نفسه ، ادت هـذه الطبيعة الى الرغبة بتقديم المحاصيل بدلا من دفع النقود ، وأدى هذا بدوره الى ايجاد أساليب خاصة لدفع جزء من المحاصيل الى الاقطاعيين ، وكذلك للتخصص في زراعة معينة . وقد شجع الاسبتارية ، في الغرب بشكل طبيعي ومتزايد ، تبديل الخدمة بدفع الايجار ، لانهم كانوا يحتاجون للنقود في دفـع مايترتب عليهم من أموال تجاه الآخرين ، ولكن في سورية اللاتينية ،كانت الخدمة والمحاصيل على حد سواء حاجتين هامتين . وفي كلا الحالتين ، كان الهدف من وراء الاستيلاء على الاراضي واستغلالها واحدا وثابتا : الانفاق على الاسبتارية وتابعيهم ومواشيهم ، وكذلك لمدهم بالمنتجات للوفاء بتعهداتهم الكثيرة التـي تحتاج لنفقات كبيرة . ويبدو أن وجوب تعديل وتغيير الترتيبات والاجراءات المتخذة لاحلال الايجار الثابت محل الخدمة صفة مميزة لهذا العهد ، اذ ان محاصيل مزرعة أخرى يمكن ان تستخدم للانفاق عليهم .

لم تكن ممتلكات الاسبتارية في سورية اللاتينية كافية لمدهم بالمنتجـات وذلك على الرغم من الاستغلال الجيد والتام لجميع الاراضي . وقد أصبـح الوضع خطيرا عندما أصاب الفقر المستوطنة عام ١١٨٧ بعد معركة حطين . ان انخفاض عدد المزراعين ، وتقلب الاحوال الجوية وانتشار الاوبئة وحدوث الهزات الارضية وبقاء مساحة صغيرة من الاراضي لدى المسيحيين ، كل هذه الامور ادت الى سيطرة القلق بشكل كبير ، وتم التعبير عن هذه الحالة من قبل البابوات والمقدمين بالتحذير منها مرارا وبشكل متزايد . وفي عام ١١٩٦ ، كتب

« جيوفري دو دونجون » رسالة الى ملك نافار يناشده فيها تقديم المساعدة بسبب حدوث هزات أرضية في سورية ، الحقت الخراب والدمار بقلعتي الحصن والمرقب ، وتلتها الاوبئة التي قضت على المحاصيل الزراعية . وعندما صادر الامبراطور « فريدريك الثاني » الممتلكات الصقلية التابعة للاسبتارية والداوية ، كتب البابا « غريغوري » التاسع عدة رسائل مذكرا اياه بنفقات الاخويات واعتمادها على ممتلكاتها في اوروبا . وفي الوقت نفسه تقريبا ، طلب « غويرين » « Guérin » من اسقف « شيشيستر » « Chichester » المساعدة بسبب الحاق الخراب بالاخوية نتيجة الحرب التي قامت بين المؤيدين للحكم الامبراطوري والاستعمار وبين البارونات في سورية . وفي عام ١٢٤٤ ، طلب « ويليام دو شاتونوف » من أحد اصدقائه في « مارسيليا » ان يستخدم مساعيه الحميدة لدى بلدية المدينة من أجل الحصول على ترخيص لوكلاء الاخوية لشراء الحبوب وتصديرها الى الشرق . وقد علل طلبه قائلا انه يوجد نقص في هذه المادة في سورية ، وان سعرها مرتفع جدا . وتضمنت وثيقة عام ١٢٦٣ فقرة كانت تنذر بالشؤم ، وتتحدث عن احتمال قيام الفلاحين بالثورة . وبين عامي ١٢٧٩ و ١٢٨٠ ، أخبر « نيكولاس لورني » « Nicholas Lorgne » الملك « ادوارد الاول » ، ملك انكلترا ، ان الجفاف قد أصاب الاراضي المقدسة، وقد أدى الى اتلاف المحاصيل ، وأصبحت أسعارها غالية بشكل لايطاق . وقد طلب الحبوب من أجل اطعام المرضى والاخوة في الاسبتار . وكذلك ، كان هناك جفاف آخر يخبرنا عنه جوزيف تشونسي « Joseph Chauncy » من خلال كتابته الى الملك « أدوارد » في عام ١٢٨٢ رسالة يعلمه فيها عن هذا الجفاف .

من الواضح ان الاسبتارية لم يكونوا ليقووا على البقاء في الشرق لولا اتصالاتهم وعلاقاتهم مع اوروبا . فقد اعتمدوا على الغرب ، اولا بالنسبة للاموال التي جمعت من قبل اولئك الذين كانوا يجمعون لهم الصدقات ، وهي الصدقات التي كانت تترك لهم من الميراث ، ويحصل عليها عن طريق منح ابابا امتيازات استثنائية ، وثانيا بالنسبة للاموال والمنتجات الاضافية التي تقدمها ممتلكاتهم الاوروبية .

لقد رأينا كيف ان هؤلاء الاسبتارية اقاموا — بمساعدة الحكومة البابوية — مجمعا تبشيريا ، وشكلوا هيئة ادارية لتدابير أمور الحسنات والتبرعات ، ولجمع اموال الميراث والصدقات . وعندما اصبحت المعيشة في سورية اللاتينية اكثر صعوبة ، منحتهم روما مصادر دخل اضافية . وقد خولت الاخوية بأن تطالب بكل ما يقتنيه اعضاؤها اذا ما استمروا في سلوك سبل الحياة الدنيوية. وكان لها الحق في استخدام الاموال التي تجمع مقابل التعويض عن تكريس الحرب الصليبية ، ومن الميراث الذي يخصص للاراضي المقدسة والذي يؤخذ من الاشخاص الذين يعيشون على ما تدره عليهم الممتلكات الواقعة في هذه الاراضي . وفي عام ١٢٥٥ ، تم توسيع مجال هذا الامتياز . وقد استطاعت الاخوية بهذه الطريقة ان تحصل على الفي مارك ، وهو المبلغ الذي جمع نتيجة مصادرة ارباح المرابين واللصوص تلك الارباح التي لا يمكن اعادتها الى أصحابها الحقيقيين . وفي عام ١٢٦٥ ، استطاعت هذه الأخوية المطالبة بالكفارات المادية وفرضها عند الاعتراف بالخطايا . ولكن الامتيازات الممنوحة لها ، وجمعها للصدقات قوبلت بالمعارضة ، وذلك على الرغم من تأييد الحكومة البابوية لهذه الامتيازات ، اذ انها اشارت عام ١١٨٨ ، ومرة اخرى عام ١٢١٧، الى ان الاسبتارية لا يستطيعون ان يعيلوا انفسهم دون مساعدة المؤمنين ، وقد صدرت الاوامر للاساقفة عن طريق المراسيم المتوالية بفرض عقوبة التحريم الكنسي بحق أي شخص يستخدم العنف والقوة ضد جامعي الصدقات ، كما اشارت الى الشكاوى التي تقول ان رجال الدين غير الاكليركيين كانوا يعيقون تقديم المواعظ وعملية جمع الصدقات ، لانهم كانوا يطالبون بجزء من هذه الاموال، ويستخدمون قوتهم للضغط على اولئك الذين يقيمون في ابرشياتهم لابتزاز الاخوة عن طريق تهديدهم للاذعان والخضوع لمطالبهم ، وكذلك هناً بعض الاساقفة — نتيجة شعورهم بأهمية العمل الذي قام به الاخوة — الذين حددوا أياما محددة ليأتوا فيها الى كنائسهم لجمع الصدقات . وأخيرا ، فان هذه المراسيم ألزمت الاساقفة الآخرين بألا يؤجلوا المواعيد التي حددت لهذه العملية ، أو يعترضوا سبيل الاسبتارية بطرق اخرى . وفي الاعوام ١٢١٧ و ١٢٢١ و ١٢٤٤ ، كرر البابوات شكواهم بشأن رجال الدين غير الاكليركيين

الذين لا يسمحون للاسبتارية بالقيام بزياراتهم السنوية ، كما أنهم يضايقونهم . وقد ذهب البابا اربان الرابع عام ١٢٦١ الى اكثر من مجرد الشكوى ؛ اذ انه امر الاساقفة بفرض عقوبة التحريم الكنسي ليس فقط على اولئك الذين ازعجوهم ، او قللوا من الصدقات ، ولكن ايضا على اولئك الذين يعقدون العزم على فعل اي شيء مع أولئك الاشرار . وتدل جهود البابوات على امتداد المعارضة لى جمع الصدقات من الاسبتارية . ومن المحتمل ان قساوة رجال الدين غير الاكليركيين قد امتدت الى أوساط اولئك الذين يقيمون في ابرشياتهم ، مما نتج عنها تخفيض عدد القرابين المقدمة للاغراض الدينية أو الخيرية .

لقد اتى قدر كبير من المساعدة من ممتلكات الاسبتار في اوروبا ، ورأينا كيف ان أهمية الرسوم والضرائب الاخرى قد انعكس على تنظيم الاقاليم ، وعلى المراسيم التي صدرت عن الاجتماع العام لرجال الكنيسة ، وكما كانت اديرة الاخوية هامة بالنسبة لتاريخ الشؤون الداخلية للعديد من الدول الاوروبية ، فانه يجب علينا ان نتذكر بأن المهمة الرئيسية للاسبتارية — من وجهة نظرهم — هي الانفاق على الدير في الشرق . وقد بقي عدد كبير من الوثائق المتعلقة بشحن الحبوب والاحصنة والبغال والعلف وحتى المواد الغذائية القابلة للفساد عن طريق المراكب البحرية ، وخاصة مراكب الاسبتارية ، من ارجاء عديدة من اوروبا الى سورية وقبرص . وقد ساعدت الحكومة البابوية على تنشيط حركة البضائع عن طريق تحريم فرض اية ضريبة من قبل السلطات غير الدينية على البضائع المنقولة .

مع ذلك ، لم تستطع اية مؤسسة في العصور الوسطى ، مهما بلغت دقة تنظيمها ، ان تتفادى الجهود المبذولة لاضعافها ، وجعلها عاجزة عن القيام بواجبها ، ومن ثم افسادها . وترينا الرسائل التي بعث بها المقدمون كيف أنهم كانوا حذرين من اعتمادهم على فعالية وكفاءة الادارة الاوروبية واعتمادهم على الوضع السياسي في اوروبا ، وعلى نزعات وميول السلطات الدنيوية غير الاكليركية . في عام ١٢٠١ ، طلب « جيوفري دو دونجون » مساعدة من دير انكلترا تتعلق بالمواد الغذائية والاموال ، وذلك لان القتال في صقلية ادى الى توقف وصول الحبوب والخمر واللحم . وقد صادر فريدريك الثاني ممتلكات

الاخوية في صقلية ، وذلك في طريق عودته من الحروب الصليبية ، وتبعه في ذلك ملوك اوروبا الآخرون ، او انهم هم أنفسهم اخذوا الرسوم . وفي عام ١٢٨٢ ، كتب جوزيف تشونسي رسالة الى ادوارد الاول ، ملك انكلترا ، يخبره فيها بأن « شالرز أوف آنجو » قد منع تصدير البضائع عن طريق صقلية بسبب قتاله مع الاغريق . وقد توسل الى الملك « ادوارد » بأن يطلب من اي شخص انكليزي ذي شأن يسافر عبر هذه البلاد بأن يستخدم نفوذه للتأثير على « شارلز » . وفي عام ١٣٠٦ ، إشتكى « فولك دو فيياريه » من ان انخفاض قيمة النقود ، وعدم الاستقرار السياسي في اوروبا اديا الى التاثير على دفع الرسوم الى دير قبرص . وقد تم ذكر أهم ما جاء في هذه الرسائل ، حيث انها وجهت من قبل « هيو ريفل » الى دير سان جيل ، وذلك في عام ١٢٦٨ ، ولم تقدم مملكة بيت المقدس اي شيء لمدة ثماني سنوات . « من كان منكم في عرض البحر يعرف تماما باننا لم نكن قادرين على الحصول على اية مساعدة من الاراضي الموجودة هنا » وبالاضافة الى ذلك ، ادى الجفاف والخوف من غزوات المسلمين في ذلك الوقت الى اخلاء سهول ارمينيا من المزارعين الذين اعتمدت عليهم الاخوية ، على اي حال ، خيبت الممتلكات الاوروبية أمل « هيو ريفل » أيضا . وكانت المساعدة التي قدمتها له أسبانيا وايطاليا وفرنسا وانكلترا ضئيلة ، وقد كان يعتمد على الرسوم التي يدفعها دير سان جيل واوفيرن والمانيا .

كان هذا الاعتماد على الاملاك الأوروبية ضروريا ، ولكنه خطير . وقد إستند هذا الاعتماد على عدة عوامل : انحراف السلطات غير الدينية التي استطاعت ان تصادر الممتلكات والرسوم ، او انها كانت تغلق الموانىء في الوقت الذي تشاء ، وكذلك الادارة الاسبتارية التي وقعت في ذلك الوقت في ديون كثيرة ، وتقلبات الاحوال الاقتصادية ومواسم الحصاد في الغرب ، وحالة الطقس اثناء القيام بالرحلات البحرية والخسارة التي تتعرض لها البضائع المنقولة . وقد أخذ المعاصرون صورة عامة غير صحيحة عن الثروات والاملاك ، وتبعهم في ذلك بعض مؤرخي العصر الحديث . وفي الحقيقة وقعت الاخوية في ضيق في الاعوام التالية : ١١٦٩ و ١٢٤٧ و ١٢٥٩ و ١٣٠١ و ١٣٠١ و ١٣٠٦ و ١٣١٠ . وكان

واضحا من خلال رسائل الاسبتارية والبابوات ان التزاماتهم في الاراضي المقدسة ، وفيما بعد في قبرص ، قد فرضت توترا مستمرا على مصادر ثروتهم ، وهو التوتر الذي صعب فهمه على المعاصرين ، لانهم رأوا الاسبتار على أنه مؤسسة غنية وقوية ، بيد أنهم لم يتعرضوا بشكل كامل للصعوبات التي كانت تواجهه في الشرق .

ادى وجود الصعوبات في سورية اللاتينية الى مزيد من النزاعات المتعلقة بالاملاك . وكانت قلة الاراضي الزراعية تؤدي الى اثارة المنافسة في امتلاكها ، ويجب ان تكون المنازعات التي نتجت عنها قد تفاقمت بسبب محاولات الاخوية استعادة الاراضي المنقولة الى ملكية الآخرين ليس في أوروبا فحسب، بل في سورية ايضا . وفي عام ١٢٥٠ ، أمر البابا رئيس دير القديس « صموئيل اوف عكا » لينظر في أمر تأخر الاخوة في امتلاك اموال ضرائب العشر والقلاع والقرى والممتلكات وتولي السلطة القضائية والحقوق التي استعيدت بشكل غير شرعي. لقد رأينا في عام ١٢٨٣ ان الاجتماع العام لرجال الكنيسة قد طالب باسترداد جميع انواع المساعدات والهبات والامتيازات ، او انه وافق على المصادقة على الاموال المخصصة لعكا والمرقب وقبرص وارمينيا وطرابلس اذا لم تنطبق عليها احكام المرسوم الذي صدر عن حكام هذه المقاطعات. وأظهرت جميع المؤسسات تنافسا قويا من أجل الاملاك . ومن بين الوثائق التي بقيت ، فان تلك التي تصف الاتفاقيات المعقودة بين الداوية والاسبتارية تحظى باهتمام خاص ، وكانت اخويات الداوية والاسبتارية قوية جدا تجاه النزاعات التي تنشأ بينها ، وذلك من أجل الحصول على مكاسب لا أهمية لها. وقد كانت أخويات الطرفين متشابهة من حيث تنظيماتها وامتيازاتها ومتساوية في ثرواتها تقريبا . كما انها كانت أكبر مالكة للاراضي في سورية ، ووفقا لاقوال أحد المعاصرين الذي تعرف عليهم بشكل جيد ، فان أعضاءها كانوا من الحاسدين الجشعين . الى هنا ، فاننا ناقشنا خلافاتها السياسية ، ولكن اغلب نزاعاتها كان بسبب الممتلكات ، هذا ما كان يؤدي في بعض الاحيان الى استخدام العنف والقوة .

في عام ١١٧٩ ، قرر الاسبتارية والداوية حل خلافاتهم ، وذلك لانهم لاقوا

انتقادا من قبل المجمع الكنسي الثالث ، وكذلك ربما لان البابا قد حثهم على ذلك ، وقد وضع المقدمون صيغة اتفاقية بحضور ملك بيت المقدس وامير انطاكية وصاحب طرابلس نصت على انهاء النزاعات القائمة ، وحددت المبادىء والقوانين المتعلقة بالاراضي والاموال والميراث والتعامل بها في المستقبل . وعند وقوع الخلاف في الشرق او الغرب ، يتوجب على وكلاء المقاطعات الاجتماع ويساعدهم اخوان كل منهم ، واذا ما فشلوا في التوصل الى اتفاقية ، فانه يجب استشارة جميع الاخوة و « الاصدقاء » ، ويجب على القيمين ان يوافقوا على الاخذ بقرار الاغلبية الساحقة من مجموع اصوات الاعضاء المجتمعين ، واذا لم يتم التوصل الى أي حل ، فان القضية تحال الى المقدمين . وسيتخذ اجراء تأديبي بحق اي اخ ينتهك حرمة الاتفاقيات .

في عام ١١٩٨ ، قامت الاخويات بتسوية نزاع وقع حول ممتلكاتها في طرابلس . على أي حال ، كانت احدى المنازعات على وشك أن تقع في السنة نفسها بشأن اقطاعة احد الفرسان غير الاكليركيين في مقاطعة المرقب ، ويدعى « سيغويا » ومن الواضح انه كان احد التابعين للاسبتارية ، وقد ادعى بأن الداوية اخذوا منه بعض الممتلكات بشكل غير شرعي ، وان الاسبتارية وقفوا الى جانبه ، وذلك تنفيذا لتوصية احد اللوردات . ويبدو ان الاسبتارية استخدموا القوة في استعادة هذه الممتلكات من أيدي الداوية . وقد مثل « سيغوين » مع ممثلين عن اخويتي كل من الاسبتارية والداوية امام البابا « انوسنت » الثالث للمحاكمة عام ١١٩٩ ، وقد وافقوا على وجوب اعادة الاملاك الى الداوية الى ان تصدر المحكمة الاقطاعية في المرقب حكما بشأن هذه القضية . في هذه الاثناء ، ذكر البابا الاسبتارية باتفاقية عام ١١٧٩ ، وحدد لتثبيت الديني البابوي لهذه الاتفاقية ، وحذر الاخوية بأن استخدام اي عنف او قوة سيؤدي الى فرض التحريم الكنسي .

في عام ١٢٠١ ، تم التوصل الى اتفاقية حول فرن بانياس ، الذي كان يستخدمه عامة الشعب ، وكان ملكا للداوية . وقد كانت بانياس تابعة للاسبتارية ، ولكن التسهيلات الخاصة بالخبز كانت مصدرا يدر المال على

صاحبه . لقد تم الاعتراف بأنه يجب ان يحصل الداوية على الفرن الذيكان وحيدا وعاما ، وذلك على الرغم من ان الاسقف والاسبتار يجب ان يحصلا على أفران خاصة بهما لاستعمالهما الخاص . وقد دمرت بانياس من قبل «صلاح الدين» في عام ١١٨٨ ، وكانت ماتزال في حالة خراب حتى عام ١٢١٢ ، ومن المحتمل ان الاتفاقية السابقة تضمنت خططا لاعادة تأهيلها بالسكان . وفي عام ١٢٢١ ، كانت الاخويات في نزاع حول امتلاك مدينة واقطاعية جبيل التي كانت غنية جدا . وفي عام ١٢٢١ تلقى الاسبتارية مبلغ الفي بيزنط كايجار عن سوق الملابس فقط . ويجب ان نتذكر هنا ان هذه الاقطاعة منحت لهم من قبل « ريموند روبن » ، وانها منحت الى الداوية من قبل « بوهمند » صاحب طرابلس ، وذلك عندما كانوا في نزاع حول ولاية انطاكية . وقد حصل عليها « بوهمند » ، ولكن كلتا الاخويتين (الاسبتارية والداوية) ادعتا ان هذه الولاية كانت لهما بشكل شرعي . وتم احتلال جبيل مرة اخرى من قبل اللاتين حوالي عام ١٢١٨ ، ولكنها أصبحت بيد المسلمين مرة اخرى بعد عام ١٢٢٠ بوقت قصير . وفي عام ١٢٢١ ، احيلت ادعاءات الاخويتين الى البابا ، الذي احالها بدوره الى ممثله ، « بيلاغيوس » ، الذي قرر ان يعطي نصف الولاية لكل منهما ، واستثنى من ذلك الممتلكات التي حصلت عليها كل منهما قبل حصولهما على المنح الخاصة من الولايات بشكل عام . ولكن لم تنته هذه المشكلة على هذا النحو البسيط . فمن المحتمل ان جبيل قد احتلت من قبل الاخويتين لاسابيع معدودة وذلك عام ١٢٣١ . وفي السنة نفسها ، عقد الاسبتارية اتفاقية مع « بوهمند » الرابع ، متخليا عن جميع المنح التي منحها « ريموند روبين » ، غدا منح جبيل والقلعة القديمة «Châteew de la Vieille» وقد حصلت كلتا الاخويتين على امتياز عقد او نقض المعاهدات مع المسلمين في هذه المنطقة . وفي عام ١٢٣٣ ، كان هذا الامتياز متعارضا مع مصلحة الاخويتين، لانه كان يبدو ان الاسبتارية قد عقدوا اتفاقية مع حلب ، حيث ادى ذلك الى ترك المسلمين في حالة سلام لدى امتلاكهم لجبيل لعدة سنوات . وقد قرر بطريرك انطاكية البرت ــ ساعده ثلاثة اخوة من كل اخوية ــ انه يجب على الكنيسة ان توافق على هذه المعاهدة ، وتشارك في الفوائد التي سيتم الحصول

عليها ، ولكن يجب عليها ان تمنح بعض اراضي الاسبتار الواقعة حول المرقب للحراس وعندما انتهى سريان مفعول المعاهدة ، ولم يتم استرداد جبيل بعد ، كان على الداوية ان تحصل على البلدة بكاملها ، ولكن يجب عليهم ان يدفعوا للاسبتارية مبلغا مقداره ١١٠٠ بيزنط اسلامي مقابل هذا الحق النظـري ، الذي كان مربحا حتما بطريقة او اخرى . وقد سمح للداوية باستخدام بوابات وطرق الاسبتارية الواقعة حول المرقب . ولم يكن كلا الطرفين ملزما باحترام علاقات الطرف الآخر مع ولاية صهيون المسلمة الواقعة بجوارهما ، ولكـن المعاهدات التي عقدت فيما بعد مع المسلمين والتي تتعلق بجبيل كانت تلزم كلتا الاخويتين بتقديم الدعم والمساعدة . ويجب على الاسبتارية ان يساعدوا الداوية في الحملات التي قاموا بها ضد هذه البلدة . وعندما تم الحصول عليها ، وجب تقسيمها فيما بينهما ، كما أكد ذلك « بيلاغيوس » عام ١٢٢١ . ومن المحتمل ان جبيل قد احتلت مرة أخرى من قبل الصليبيين في عام ١٢٦١ . وفي عام ١٢٦٦ ، منح الداوية حصتهم (نصف البلدة) لبيبرس ، وذلك ليعقدوا معه معاهدة تتعلق بقلعة « البوم » وطرطوس ، وقد منع المسلمين مـن احتلالهـا السببان التاليان : تصميم الاسبتارية ، والمساعدة التي أرسلها صاحب انطاكية. وفي عام ١٢٦٧ ، كانت الاخويتان في نزاع بشأن حدودهما مع المرقب .

كان الماء عنصرا هاما ومادة ثمينة في الشرق ، وغالبا ما كان الحصـول عليه يثير المنازعات . في عام ١٢٠١ ، عقد مقدمو الكنيسة اتفاقية مع الاسبتار بشأن استعمال مياه أحد الينابيع الذي لم يعرف اسمه . وفي نيسان عـام ١٢٣٥ ، نشأ نزاع حول مياه قناة عكا ، وهي المياه التي كانت تدير طواحـين الاخويات في « دوك وريكوردين » « Doc and Recordane » . وقد استدعى ممثل البابا للتحكيم في هذا النزاع ، الذي أدى الى استخدام العنف ويبدو ان النزاع قد نشأ لان الداوية أقاموا سدا في مجرى القناة من جهة الاسبتارية لتسهيل تدفق مياه مطاحنهم في دوك . وفي شهر تموز ، وافق الاسبتارية على السماح باقامة هذا السد ، كما سمح للداوية برفع مستوى ضفتي النهـر ومنسوب المياه ، ولكن الى مستوى يتم تحديده على جدار المطحنة . وبعـد

كل طرف بعدم التعرض لمتلكات الطرف الآخر . وسمح للاسبتارية بتسيير القوارب في هذا النهر قبل وبعد سد الداوية ، ولكن الاسبتارية وعدوا باصلاح أي خراب يتسببون به . ولن يقوم اي طرف بانشاء أي سد أو حاجز من شأنه ان يعيق مرور القوارب . ولكن هذه الاتفاقيات لم تنه المنازعات ، ففي عام ١٢٦٢ ، اتهم الداوية بعدم الالتزام بالاتفاقية السابقة ، حيث انهم شيدوا أبنية أعاقت مرور القوارب نحو أعالي لنهر ، وكذلك أدت الى رفع مستوى مياهه فوق المستوى المحدد لها عند مطحنة « ريكوردين » . كان الاسبتارية يشقون القنوات لجر مياه النهر الى حقوق قصب السكر ، وهذا ما كان يؤدي الى خفض مستوى مياهه ، والى توقف مطحنة الداوية في دوك « Doc » عن العمل . وقد تم التوصل الى اتفاقية من خلال تحكيم لجنة ذات شأن كبير ، وسنبحث الاطراف التي مثلت هذه اللجنة بعد قليل .

في عام ١٢٤٠ ، نشأ نزاع بشأن الممتلكات الواقعة في مقاطعة طرابلس ، وقد وافقت الاخويات على الالتزام بقرار بطريرك انطاكية ، حيث أنه أمر الاخوة بتشكيل لجنة تكون القرارات الصادرة عنها ملزمة ، ويجب قبولها . وفي عام ١٢٤٣ ، توصلت الاطراف المتنازعة — ومعها « لورد لو بوي » ، الذي كان محكما مستقلا — الى اتفاقية حول حدود اراضيها في طرابلس والمرقب ، ولكن توجب التحكيم مرة اخرى في عام ١٢٦٠ بشأن الممتلكات في هذه المناطق .

قبل اربع سنوات ، اي في عام ١٢٥٦ ، وافقت الاخويات على التخلي عن مطالبة احداها الاخرى بالنفقات الناجمة عن النزاعات التي قامت بينها . ويبدو ان هذه المعاهدة هي واحدة من سلسلة المعاهدات التي تبرز التصميم على بذل الجهود لانهاء منافساتها حول الاملاك . وفي عام ١٢٥٨ ، تم التوصل الى اتفاقية بين مقدمي الداوية والاسبتارية والفرسان التيوتون ، كانت هامة جدا لدرجة انها كانت تتلى كل سنة في اجتماع هيئة الرهبان العامة ، ومن قبل كل مقدم جديد امام اثني عشر اخا من الاخويتين الاخريين . وكان على جميع آمري وقادة القلاع في قبرص وسورية وفلسطين ان يؤدوا القسم بالالتزام بهذه الاتفاقية واذا لم يتم مراعاة الامور المتعلقة بها ، فانه يتوجب على الاخوية

التي انتهكت هذه الاتفاقية دفع مبلغ مائة مارك فضي الى الاخويتين الآخريين .
وقد شملت هذه الاتفاقية جميع الاخوة في قبرص وسورية وارمينيا وفلسطين، ولكنها لم تشمل القلاع والتحصينات او القرى ، حيث تنقل النزاعات التي تحصل في هذه الاماكن الى محاكم كنسية ، او محاكم غير اكليركية . وكان احد الامور التي تم استثناؤها في هذه الاتفاقية بشكل خاص هو مطالبة الاسبتارية ببسط سيطرتهم على الفرسان التيوتون . وقد وضعت قوانين دقيقة من أجل تسوية النزاعات الاخرى ، وقد شرع القيمون المحليون في المفاوضات .
واذا لم يتمكنوا من التوصل الى حل خلال شهر واحد ، فانه يتوجب عليهم أن يختاروا خلال الشهر التالي أخا أو أخوين من كل مقر تشمله الاتفاقية لتسوية المسألة وكان باستطاعتهم ان يختاروا إخا آخر من الاخوية الثالثة ليساعدهما في ألتوصل الى حل ، اذا لم يكن طرفا في النزاع . واذا لم يتمكنوا من الاتفاق حول الاخ الذي سيختارونه ، فان الإخوية الثالثة ستختاره بنفسها . ولم يكن باستطاعة هؤلاء المحكمين الذين تم اختيارهم على هذا النحو رفض المهمة ، ما لم يكونوا مرضى او انهم أرسلوا الى الخارج من قبل رؤسائهم كما انه باستطاعتهم ان يطالبوا بأداء اليمين ، وفسح المجال امامهم لمدة شهر للتوصل الى قرار ، ويجب عليهم ان يصدروا حكما خلال الايام الثمانية التالية، الا أنهم لم يستطيعوا اقرار ذلك عن طريق الاقتراح بالاغلبية .

كانت الأخويات ملزمة بتقديم المساعدة لبعضها بعضا في حربها ضد المسلمين . ويمكن استثناؤها من تقديم المساعدة فقط عندما يتطلب بناء قلعة او عمل ضروري من اعمال مملكة بيت المقدس وجود اعضائها في مكان آخر وسيقوم الاسبتارية والداوية بدفع نفقاتهما الخاصة ، حتى عند الذهاب الى مساعدة اخوية اخرى ، واذا ذهب الفرسان التيوتون لمساعدة الداوية الاسبتارية في طرابلس او انطاكية ، فان الاخوية التي استدعتهم ستدفع نفقاتهم، وذلك كما حدث بعد الشهر الاول من خدمة الفرسان في غربي نهر الاردن . ومن ناحية اخرى ، تضمنت الاتفاقية فقرات لحماية الاخويات من بعضها بعضا ، فالاخ الذي يستخدم القوة ضد احد اعضاء اخوية اخرى سيحاكم وفقا لقوانين

الاخوية إلتي يتبع لها الاخ المعتدى عليه ، ولا يسمح بحمل اي سلاح من قبل أي مقر ضد مقر آخر ، واذا اراد الوكيل الذهاب الى خارج مقاطعته ، فانه يتوجب على زملائه من الاخويات الاخرى ان يقوموا بمهامه الى ان يعود ، وينبغي عدم التنافس عند شراء الاشياء غير المنقولة ، الاراضي والابنية . واذا اراد أي قيم شراء شيء بمبلغ أقل من الف بيزنط اسلامي ، فيتوجب عليه ان يبلغ من هم أعلى منه مرتبة في الاخويات الاخرى المجاورة ، لكي لا يدفعوا سعرا أعلى لئلا ينافسوه . واذا كانت كلفة الشيء غير المنقول أكثر من الف بيزنط ، فانه يمكن اقتسام هذه التكلفة اذا رغبت الاطراف في ذلك ، ولكن الاشياء التي ينطبق عليها النظام الاقطاعي والمعدة للايجار تم استثناؤها من ذلك : انها كانت غير قابلة للاقتسام . وقد توجب الا تكون هنالك اية منافسة بشأن الحصول على ضروريات الحياة في عكا ، ولكن القيمين الآخرين أستطاعوا المطالبة بثلث كل شيء قامت الاخوية بشرائه . وقد استثني من هذا الشرط البغال والاحصنة والجمال والحمير والدواجن الاخرى . واذا تم ايداع بعض الاشياء عند الاخوية من أجل حمايتها ، وقامت اخوية اخرى بالاستيلاء عليها ، فانه يجب التعويض لصاحبها عنها ، والذي يقرر فيما ذا كان يقبل تركها عند القيم الجديد عليها او لا .

تضمنت هذه الاتفاقية فقرات هامة لحماية الحقوق الاقطاعية . وقد توجب على الاخوية التي تمتلك قرية من القرى التي يجب دفع رسومها الاقطاعية الى احدى الاخويات ان تبيعها الى شخص غير اكليركي ، خلال سنة واحدة ، لان مقر الاخوية الذي يستحق الخدمة لا يمكن خداعه بها (بالخدمة) . ومن المفترض ان الاخويات كانت تعارض اداء الخدمة كأتباع ثانويين . وكانت المنازعات المتعلقة بالسادة الاقطاعيين واصحاب الاقطاعات تسوى وفقا لاعراف وتقاليد القرية التي تقوم فيها هذه المنازعات . واذا فر احد قرويي الاخوية الى اراضي اخوية اخرى ، فانه يتوجب على آمر الاخيرة ان يعلم آمر الاولى خلال ثمانية أيام عن دخول هذا القروي أراضيه ، ويجب معاملة هؤلاء القرويين وفقا للاعراف السائدة في المناطق التي تمت المصادقة عليها سابقا ، عدا طرابلس،

حيث يمكن اعتقالهم اذا طلب مقدمو الشخص الفار ذلك . واذا فر الاشخاص الذين يترتب عليهم دين تجاه احدى الاخويات الى مقاطعة اخوية اخرى ، فانه يسمح لهم بالكوث هناك على ان يفوا بديونهم تجاهها ، والا فانهم سيعتقلون وتتم اعادتهم الى موطنهم الاصلي . ومن المألوف انه لم يكن يسمح لاية اخوية بممارسة اية سلطة على أخوية أخرى .

كان لهذه الاتفاقية فائدة كبيرة ، انها كانت محاولة لايجاد الوسائل والطرق التي تؤدي الى التوصل الى تسوية النزاعات وحماية حقوق الاخويات، وقد تم الاعتراف بأهمية هذه الاتفاقية من قبل الادارة البابوية التي منحتها التثبيت الديني عام ١٢٧٥ . وعلاوة على ذلك ، فانها وضعت موضع التنفيذ. وفي عام ١٢٦٢ ، أحال الاسبتارية والداوية عددا من النزاعات الى المحكمين وهم : نائب مقدم الفرسان التيوتون واسقف بيت لحم ، الذي كان مفوضابابويا، والقهرمان ، وحاكم مملكة بيت المقدس وكان هؤلاء المحكمون هم الذين توصلوا الى تسوية مشكلة استعمال مياه قناة عكا . وكانت هناك محاولة لاحلال السلام في الاخويات عن طريق تبادل الاملاك ، وبذلك ، فان أي شخص سوف لن تكون لديه ممتلكات ذات مساحة صغيرة في منطقة يكون فيها شخص آخر مهيمنا على مساحة كبيرة ويخشى من السيطرة عليها . وقد تخلى الداوية عن حقوقهم وممتلكاتهم في الخابور والمرقب وفي احدى المزارع في صيدا وكفر زيت وبانياس التي أبقوا منها مزرعة وفرنا لسد احتياجاتهم فقط ، وتخلى الاسبتارية بدورهم عن حقوقهم وممتلكاتهم في حصن كايمونت والفولة والدامور وكفارلت وصيدا وشقيف ارنون ، ولكنهم طلبوا من الداوية عشرة آلاف مارك من الفضة لقاء التنازل عن حقوقهم في اقطاعه صيدا . وقد وافق الطرفان على الاحكام بشأن مشكلة قلعة « عَلَمه » « Alme » التي منحها للداوية صاحب صور وتينين ، والتي طالب بها الاسبتارية .

ان احدى الحقائق التي تبرز بشكل واضح هي المنفعة الشخصية التي حصل عليها البابوات،الذين تعاقبوا على السلطة،وذلك من خلال النزاعات التي قامت بشأن أراضي الاخوية . انهم منحوا التثبيت الديني لاتفاقيتي عام١١٧٩

و ١٢٥٨ . وقد تدخل البابا انوسنت الثالث في عام ١١٩٩ ــ بناء على طلب هذه الاخويات في النزاع حول اقطاعة سيفوين في المرقب . وفي عام ١٢٢١ ، أصدر مقدم الاسبتار تعليماته الى ممثليه ليتصرفوا على ضوئها في المناقشات التي كانت تدور حول النزاع في الادارة البابوية ضد ادعاءات الداوية بشأن جبيل . وفي عام ١٢٣٥ ، تدخل البابا غريغوري التاسع بشكل مباشر ، وان جاء ذلك في وقت متأخر قليلا ، في النزال حول مطحنة دوك وريكوردين . وقد هدد بفرض عقوبة التحريم الكنسي اذا مااستخدم العنف والقوة ، كما أمر رؤساء أديرة كنيسة هيكل الرب والقديس صموئيل صاحب عكا باطلاعه على حقيقة الامر في هذه القضية . ان معرفة اسباب هذا القلق البابوي ليست صعبة ،ومن الواضح أن نزاعات الاخويات العسكرية حول الاملاك قد اعتبرت انها قامت لتعريض سورية اللاتينية للخطر . وفي الوقت نفسه ، كانت مصالح أكبر مالكين للاراضي في المستوطنة اللاتينية ــ وفقا للظروف التي سادت في القرن الثالث عشر ــ معرضة للنزاع حولها . أن مايزيد من معرفتنا حول هذه الامور هو ادراكنا لعدد المرات التي كانت فيها هذه الاخويات مستعدة للمصالحة وعقد الاتفاقيات وصياغة فقراتها التي تعالج النزاعات المستقبلية ، وعلى الاقل ، فانها قامت بمحاولات جريئة لتسوية ماكان يبدو على انها خلافات غير قابلة للتسوية .

* * *

الفصل الخامس عشر

الاسبتارية كلوردات اقطاعيين

كانت اخوية القديس يوحنا في سورية هي صاحبة الاراضي في الولايات الاقطاعية ، لذلك فانها كانت تشترك مع مالكي الاراضي الآخرين في حصولها على حقوق معينة على المستأجرين ، وتكون مدينة بالقيام بواجبات معينة تجاه الحكام . الا ان أية دراسة تتعلق بالنظام الاقطاعي تتضمن صعوبات كبيرة بالنسبة للمؤرخ الحديث الذي لايعرف بالضبط معنى المصطلحات التي كانت عادية ومألوفة في ذلك الوقت : عدالة « Justice » والعرف « Coutume » والولاء الاقطاعي « Ligence » وحتى الخدمة «Service». ان تقصي الدلائل وعدم وجود أية دراسة مقنعة عن الاقطاعية في سورية اللاتينية سيجعلان استنتاجاتنا غير نهائية .

يبدو من النظرة الاولى ان الاسبتار كان في وضع غير صحيح لانه حصل على امتيازات هامة من روما تتعلق بنشاطاته الروتينية المؤقتة ، وبين عامي ١١٧٠ ـ ١١٨٠ استثناه المرسوم البابوي Pervenit ad nos quod من دفع ضريبة العشرين التي كانت تدفع من قبل السلطات غير الاكليركية خلال أوقات الحرب ، وقال البابا الكسندر الثالث ان مشاركة الاخوة في دفع تكاليف القتال ضد المؤمنين كانت خطأ . وفي عام ١١٨٢ ـ ١١٨٣ منع المرسوم البابوي «Cum Bond Fratribus» الاسبتار من دفع ضريبة العشرين التي جمعت لتحصين المدن والقلاع ، ولم يكن يسمح لاي شخص غير اكليركي من الحجاج بتخفيض الاموال المخصصة للعمل والدفاع عن الاراضي المقدسة . وفي عام ١١٨٤ ، استثنى المرسوم البابوي «Justis Petentium Desideriis» الذي تم تجديده تسع

مرات حتى عام ١١٩٨ ، الاسبتار من الضرائب التي كانت تدفع من أجل الاعمال العامة : اصلاح الجسور والاسوار ، والتحصينات . وقد منع دستورا عامي ١١٩٤ و ١٢٣٢ دفع الضرائب غير الاكليركية على الاملاك المنقولة وعلى المواريث المستحقة عليها ، ويجب التأكيد على وجود سلطة مستقلة عن السلطات غير الدينية ، اذ كان بامكان الاسبتارية الرجوع اليها . وفي معظم الاحيان ، لم يكن في سورية اللاتينية أي دليل على دفع الاخويات العسكرية أموالا من أجل الاعمال العامة ، على الرغم من انها كانت تخضع لدفع ضريبة ملكية في قبرص بعد عام ١٢٩١ ، ولكن من الواضح أن تطبيق الامتيازات البابوية في سورية اللاتينية اختلف من الناحيتين النظرية والعملية . وعلى الرغم من صدور دستور عام ١١٩٤ ، استمر منح الاستثناء من الضرائب المترتبة على الاملاك المنقولة ، كالامتياز الذي منح في القرن الثالث عشر ، ومن المحتمل انها لم تطبق بشكل عام .

لذلك ، وعلى الرغم من هذه الامتيازات ، فانه يجب علينا ان نعتبر الاسبتار كمالك عادي للاراضي الاقطاعية ، ونحاول ان نكتشف حقوقه وواجباته تجاه اتباعه والحكومات . ومن المعروف انه حصل على السيادة الاقطاعية « Dominium » وهي السلطة والحقوق الاقطاعية المتعلقة بمقاطعات كاستروم روبروم « Castrum Rubrum » ،والجليل،وبويضة « Beaude » وكرمان « Karaman » وبيت زعل « Betzaal » ؛ وفانيريوم « Vanerium » وجبيل ، والقلعة القديمة ، وحمص ، وقلعة الحصن ، والرفنية ، وبعرين ، وجبلكار « Gibelcar » والمرقب وافاميا وابو قبيس وارزغان وروشفورت وقلعة الروج ومرقية . وفي الحالات الاخرى منح الواجب الاخوية السيادة التي كانت تتمتع بها اية ملكية ، وكانت هذه الحملة في بعض الاحيان تعني بوضوح الاحتفاظ بحقوق الملك او الامير او الكونت او انها تتعلق بالملكية التي يسيطر عليها أكثر من شخص واحد . ومن خلال احدى هذه الهبات ،وبالتحديد هبة ١٢٥٤ قدمت للاسبتارية ملكية الولاية وذلك بحضور أعضاء المحكمة العليا في بيت المقدس ، الذين من المحتمل انهم كانوا يمثلون الملك الذي كان غائبا عن البلاد . وهناك صعوبة تتعلق بالسلطة التي كانت سائدة في مرقية التي تخلى

عنها للاسبتارية الكونت بوهمند صاحب طرابلس عام ١١٩٨ ، وفي السنة التالية ، أعيدت اليه لاسباب دفاعية ضد الحشيشية ، وقد وعد بأنه سيعيدها الى الاسبتار عند وفاته . ولكن خلفاءه تنازعوا في السيطرة عليها بعد موته. وفي عام ١٢٣٤ منح القاضي الذي كان يمثل البابا الاسبتارية سيادة مشروطة على هذه الاقطاعية ، والتي من المحتمل ان لوردات مرقية قد اعترفوا بها ، وربما صدر هذا القرار نتيجة رفض امير انطاكية ـ طرابلس مناقشة قضية هذا القاضي أكثر من كونه قد صدر بسبب البراهين التي قدمها الاسبتارية ، والتي أدت الى مزيد من عدم الاقتناع . وقد نوقشت هذه القضية مرة أخرى في روما واستمرت دون التوصل الى حل حتى عام ١٢٤١ ، اذ تمت الموافقةعلى وجوب ادارة أمور هذه الاقطاعية من قبل الامير الذي سيعين وصيا على وريثها حتى يبلغ سن الرشد . عندئذ سيقرر هذا الوريث فيما اذا كان يفضل الامير او الاخوية ليكون سيده الاعلى ، ولم يعرف القرار ، الا ان الاسبتارية كانتلهم علاقة جيدة مع لوردات « مرقية » استمرت حتى زوالهم .

دفعت الاخوية عن اقطاعاتها المال الذي كان يدفع عادة وفاء بالتزامات التبعية للاقطاعيه . ويبدو ان ممثلي الاسبتارية قد دفعوا مثل هذا المال الى الملك بولدوين الرابع عن اقطاعة الجليل ، وذلك عام ١١٨٢ وبالتأكيد ، فان هذه الاموال قدمت الى ريموند روبين في عام ١٢٠٧ من أجل جبيل ، وفي عام ١٢٥٨ ، أبدى مقدمو الكنيسة والفرسان التيوتون ولاء لـ « هيو » صاحب قبرص الذي كان شابا في ذلك الوقت ، (صائن جميع الحقوق) . وعندما توج هيو الثالث ملكا على بيت المقدس في عام ١٢٨٩ ، « خضع له الاسبتارية والداوية وقاموا بخدمته على أنه « لورد » . على أي حال ، حصلت الاخوية ، كونها تتمتع بسيادة اقطاعية ، على حقوق معينة ، وترتب عليها بعض الواجبات . انها تمتعت بحق جمع الضرائب « **Consuetudines** » ولكن تحتم عليها ان تكون مدينة بها الى الحاكم في الظروف العادية أيضا.وكان لها الحق في تلقيالمساعدة من تابعيها ، ولكنها كانتتؤدي اشكالا عديدة من الخدمة تجاه السيد الاقطاعي الاعلى . وأخيرا تمكنت من الحصول على محاكم خاصة بها ولكنها كانت في

الوقت نفســه مسؤولة أمام القضاء الملكي والاميري والكونتي (نسبــة الى الكونت) .

وجدت أعراف جمع الضرائب في معظم الاحيان في الوثائق ، ان تحديــد مانتج عنها بشكل دقيق ليس امرا سهلا . ومن وجهة نظر مالك الارض ، فانها عبارة عن أجور اضافية اقليمية تجبى من الضريبة والمصادرة والاحتكار وحق فرض رسوم معينة على مرور الطرق عبر الاقطاع . وبالنسبة للسيد الاقطاعي الاعلى مرتبة من مالك الارض ، فان هذه الاعراف كانت عبـارة عن الضرائب المفروضة على نقل الاملاك المنقولة وعلى مايترتب على الاسواق من رســوم . نستطيع ان نفسرها على انها رسوم جمركية ومكوس على السلــع وضرائــب مفروضة على المشتريات والمبيعات . وقد ركزت بعض العقــود علــى حــق الاسبتارية كملاك للارض ، في جباية هذه الرسوم . وفي عام ١١٢٦ منح أمير يافا التثبيت الديني للمنحة التي كانت عبارة عن بعض الاراضي في اقطاعته ، وأضاف انه تنازل للاسبتاريــة « بمحض ارادته ، وبدون أي تحفظ ، عــن الايجارات التي تجبى من كل اراضيه ، فيما اذا تم الحصول عليها في الــوقت الحاضر ، او انها ستجبى في المستقبل ، وكذلك عن الضرائب المترتبــة علــى الحبوب والرسوم التي تؤخذ عند بوابة الاقطاعة وعن أشياء أخرى » . واعطيت الاخوية حق جمع هذه المدفوعات الضريبية في بيت جبرين واقطاعة حمص ولكن من المحتمل انها تمتعت بهذا الحق في جميع اقطاعاتها ويجب ان تكــون قــد جمعت هذه الضرائب في بلاطينيتها الكبيرة . ومن ناحية أخرى ، عندما منــح « جون دو ايبلين » الاسبتارية حقوقا نظرية تتعلق بمزرعة معينة كجزء مــن التعويض عن الخسارة التي تعرض لها سقوط عسقلان ، احتفظ لنفسه بحق الطرق وكذلك بحق السلطة والسيادة على القرويين الذين يولدون في المزرعة خلال اول سنتين بعد اعادة فتح عسقلان مرة اخرى . وربما نستطيع ان نرى هنا التحفظ الخاص بالاعراف التي اتخذها اللورد السابق .

لم يحصل الاسبتارية على حق جمع الضرائب الاعتيادية فقط ، بــل ان الحاكم استثناهم من اداء مايترتــب عليهم . وفي عــام ١١٣٦ ، منحوا بعض

الاراضي بدون دفع اي ضرائب . وفي الوقت الذي منح فيه الاسبتارية منطقة حدود طرابلس في عام ١١٤٤ ، تم استثناء اولئك الذين يعيشون في الاراضي التابعه لهم ، والواقعة في سورية اللاتينية ، وحتى اولئك السوريين الذين يعيشون في قلعة الحصن ، تم استثناؤهم من دفع الضرائب على ماكانوا يشترونه او يبيعونه ، وكان هذا امتيازا هاما . ومن المحتمل ان الاخوية قد واجهت في أواخر القرن الثاني عشر بعض المصاعب في اقناع بوهمند صاحب طرابلس للتصديق عليه . ولم يمنح تابعوا الاسبتار السوريون المقيمون في قلعة الحصن التثبيت الديني بشأن تخلصهم من دفع مايترتب عليهم من الضرائب في جميع أنحاء سورية الا في عام ١٢٠٣ . وفي عام ١١٤٩ منح ريموند صاحب انطاكية الاسبتارية حق أخذ مالهم من ممتلكات داخل المقاطعة وخارجها بدون دفع أية ضرائب اعتيادية او ضرائب بابوية . وأعيد منح هذا الامتياز من قبل بوهمند الثالث عام ١١٦٨ ، ولكن عندما أعاد منحهم التثبيت الديني في دستور المرقب عام ١١٨٦ كان فيه شرط هام : « انني أمنحهم حرية التصرف بجميع أملاكهم الواقعة في الاراضي التابعة لي ... فهم يستطيعون ان يستوردوا ويصدروا ، ويبيعوا ويشتروا دون دفع أية ضريبة اعتيادية او بابوية . ولكن اذا باعوا او اشتروا شيئا لايمت الى الاسبتار بصلة فيستوجب دفع مايترتب عليهم من ضرائب اعتيادية الى المحكمة » . واعفي الاسبتارية من دفع الضرائب التي تجبى من المواد الغذائية في مملكة بيت المقدس قبل عام ١١٩٢ . وفي عام ١٢١٠ ، خلصهم الملك هيو الاول ملك قبرص من جميع الضرائب المفروضة على الاملاك المنقولة التي اشتروها او باعوها ، او تلك التي قاموا باستيرادها او تصديرها . وفي عام ١٢١٢ ، أعطاهم صاحب جبيل المزرعة التي لم تفرض عليها أية ضريبة تعود اليه شخصيا وتركهم يبيعون ويشترون داخل اقطاعته دون فرض أية ضريبة ، وقد منح الامتياز نفسه لسفينة اسبتارية دخلت ميناءه .

وكما كان عليه الحال بالنسبة للورد ، فان الاسبتار تمتع بحق قيام التابعين له بالخدمة والولاء . ولا يمكننا التأكد من ان جميع الوثائق تشير الى الخدمة العسكرية ، ولكن تقريبا في كل حالة من الحالات التي تم فيها توضيح

الظروف ، كان هؤلاء التابعون عسكريين . وكان الاسبتارية يتلقون الخدمة من قبل أولئك الذين كانوا يقيمون حول قلعة الحصن وعلى حدود انطاكية وفي المرقب وجبيل والقلعة القديمة والاراضي التي كانت بأيدي الصليبيين وفي « عرقة » وجبلكار « Gibelcar » وبويضه « Beaude » وفي بعض المزارع في طرابلس ، وربما من قبل المواطنين في بيت جبرين . على أي حال ، صدرت أهم وثيقة تتعلق بهذه الخدمات في ارسوف في الستينات من القرن الثالث عشر .

ويجب ان نتذكر بأن الاسبتارية قد استأجروا المدينة والاقطاعة من باليان دو ايبلين ، اذ أعطاهم قائمة بماله من سلطان عليهم في اقطاعته : ستة فرسان واحدى وعشرون سرجندارا . وكل فارس مدين له بأربعة حيوانات للركوب ، وبالتأكيد ، فانها كانت أحصنة ، هذا بالاضافة الى أداء الخدمة الشخصية . وكانت المهمة الملقاة على عاتق السرجندارية عسكرية في بعضها ، ولكنهم كانوا مدينين أيضا بالخدمات الادارية مثل النسخ والترجمة : يبدو ان الفيكونت(*) وكبير الخدم والقس في الاقطاعة كان لديهم سرجندارية . ويبدو ان اقطاعة واحدة من بين جميع الاقطاعات قد تم تقييمها وفقا لاراضيها ، بينما تم تقييم جميع الاقطاعات الباقية على اساس البيزنط : وكانت اجرة الاقطاعة عبارة عن مبلغ من المال وكمية من المنتجات الزراعية . وليس معروفا الى أي مدى كان ذلك متمثلا بالنسبة للظروف السائدة في سورية اللاتينية . وعلى الرغم من ان العديد من الاقطاعات قد تم تقييمها على أساس الارض ، فقد اشير الى أنه هناك دلائل أكثر على وجود اقطاعات مأجورة . ولكن مهما كان الشكل الذي يتم على أساسه تقييم اقطاعات تابعي الاسبتارية ، فانهم (الاسبتارية) كانوا بشكل طبيعي — قلقين وحريصين على الا يخسروا خدمة هؤلاء التابعين . لقد ناقشنا مسألة اعتماد الاسبتارية على تابعيهم في مد جيشهم بالعناصر والمؤن في أوقات الحرب وقد لفت الاسبتارية الانتباه الى قلة اسباب المعيشة ، لذلك لجأ هؤلاء التابعون الى أداة الخدمة مقابل أجر ثابت . وعندما منح الاسبتارية المزرعة الواقعة في طرابلس لاحد الفرسان قبل عام ١١٨٥ ، اعلنوا انه «الفارس» سيتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتعون بها هم أنفسهم ، عدا الخدمة التي يتم

---

* الفيكونت : نبيل دون مرتبة الكونت وفوق مرتبة البارون .

اداؤها الى الاسبتار وفقا للاعراف السائدة في اراضي طرابلس . ولدى حصولهم على المرقب منحوا التثبيت الديني لاقطاعتين من اقطاعات التابعين لهم بشرط ان تؤديا الخدمة العسكرية لصالحهم .

هناك بعض الدلائل التي تشير الى ان الاسبتار كان مدينا بالخدمة تجاه الحكومة . ومن المؤكد ان جون دو ايبلين لم يضم الاخوية الى قائمته التي تضمنت الاسماء التي توجب عليها اداء الخدمة الى الادارة الملكية ، الا ان التصنيف في هذه القائمة لم يكن كاملا . ونذكر انه تم التعهد في اتفاقية ١٢٥٨ بعدم السماح للاخويات العسكرية بالخصول على ممتلكات دائمة حيث سيسيطر احداها على الاخرى ، لانه من غير المعقول ان « تنحرف الاخوية عن أداء واجباتها » . على أية حال ، كانت مكانة الاخويات مشابهة لمكانة المستأجرين الرئيسيين ، فهي لن تنفذ واجبات الاتباع الثانويين عن طيبة خاطر . وسيكون امتناع الاخويات العسكرية عن اداء الخدمة لى الادارة الملكية أمرا غير اعتيادي . ان طبيعة امتيازاتها لم تخلصها من هذه الخدمة التي كانت أمرا طبيعيا ، وكذلك الامر بالنسبة لمنزلتها كمقر كهنوتي . كما انها كانت مدينة بالخدمة في المستوطنات الغربية ، كما كان عليه الحال في امبراطورية قسطنطينة اللاتينية . وقد حصلت هذه الاخويات على معظم أراضيها عن طريق الهبات والصدقات ، مما ادى الى عدم أداء الخدمة تجاهها ، ولكن يجب ان نتذكر ان أية هبة في مكان الصدقات لم تخلص الجهة التي تلقتها من اي التزام ، ولكنها غيرت طبيعة الخدمة فقط تجاه الذي كان يقوم بأداء الصلاة وهناك مناسبات تخلصت فيها الاخوية بشكل خاص من الخدمة . كانت الشروط المطبقة عامة ، وفي جميع الحالات ، تخلصت الاخوية من اداء « جميع الخدمات » او « من أداء الخدمات » ، ولكن في بعض الحالات يصعب علينا ان نعرف فيما اذا كانت هذه الخدمة عسكرية ام غير عسكرية ، او فيما اذا كانت الفقرات الواردة في العقود وصفا للاقطاعات « Borgesies » والامتلاك الحر للاراضي التي تمتعت باستثناءات شرعية . على أي حال ، تشير الحالات التي وردت هذه الفقرات من اجلها الى ان هذه الاستثناءات كانت فردية ، ومن المفيد ان نسأل فيما اذا كان من المربك بالنسبة للاخوية ، التي استثنيت بشكل طبيعي من الخدمة ،

ان تدون في العقـود الفقرات التي تخص استثناءها من الضرائب في حالات خاصـة .

في بعض الاحيان ، منح هذا الامتياز بمبادرة من البارونات . وفي حالات أخرى ، استثنى الحاكم والاسبتارية من الخدمة ، كما حصل على عقود قلعة الحصن والمرقب ، وكذلك عندما منح الملك أملريك الاول في عام ١١٧٤ ، التثبيت الديني لبيع بعض الاراضي الواقعة بالقرب من صور الى الاخوية ، وهي الاراضي التي أستثنيت من جميع الضرائب ، وكذلك عندما تم بيع مزرعة « تشـولا Chola » الى الاسبتار الذي استثني من جميع الخدمات تجاهها . وعندما تم منح التثبيت الديني لهذا البيع من قبل الملك ، لم تكرر هذه الفقرة مـرة أخرى ، ولكن عندما منح أملريك التثبيت الديني لبيع مزرعة الجليل الى الاخوية عام ١١٨٢ ، تم الغاء الالتزام بأداء الخدمة له . ويجب التركيز على ان هـذه الامتيازات كانت استثنائية ، وبشكل طبيعي ، لم يكن الحكام يحبذون فكـرة الغاء الخدمة ، وقد تأكدوا انهم لم يخسروها . وفي عام ١١٤٩ ، تنازل ريموند صاحب انطاكية عن كل شيء كان باروناته سيعطونه للاسبتارية ، مع العلم ان اقطاعات الفرسان لم تكن قد قلت ، وبذلك فان محكمته خسرت الخدمة التي كانوا يؤدونها تجاهها . وقد أعيدت هذه الفقرة مرة أخرى عام ١١٦٣ وعام ١١٦٨ من قبل بوهمند الثالث . وفي عام ١١٦٣ منح صاحب طرابلس التثبيت الديني لبيع بعض الممتلكات الى الاخوية ، وكتب بشأن هذا التثبيت عقدا كانت له صفة الهبة التصدقية ، ولكنه أضاف الى ذلك بندا — كان استثناء بالنسبة للبنود التي تكتب في هذا المجال — ينص على ابقاء احدى هذه الممتلكات في اقطاعته ولخدمته . وقد أعطى أحد القرات وبعض الاراضي الواقعة في مقاطعة قيسارية للاسبتار، مع العلم انه تم اقتناء هذه الممتلكات بالشروط نفسها التي تم اقتناؤها من قبل مالكيها السابقين . وفي عام ١١٨٦ ، منح بوهمند صاحب انطاكيـة التثبيت الديني لكل شيء منحه رجاله الذين كانوا من الفرنج الى الاخوية ، مع العلم ان هباتهم كانت عبارة عن اقطاعات . وقد استطاع الاسبتارية بيـع هذه الاقطاعات بعد ان بقيت لديهم سنة واحدة ويوما واحدا بشرط الا يبيعوها لاولئك الذين يدينون بالخدمة لهم ، ولكن اقطاعات الفرسان و « التابعين » لم

يكـن بالامكان الحصول عليها الا بعـد اخذ موافقـة بوهمنـد . وبين عامي ١٢٥٧ ــ ١٢٥٨ أعطى صاحب صيدا الاسبتارية اذنا لشراء الاراضي والمزارع في مقاطعته بشرط عدم حرمانه من الخدمة التي يؤديها له أي فارس . ان رغبة الادارات في الابقاء علـى الخدمة في المناطق التي يريدون تشـير الـى ان الاستثناءات الشخصية لم تكن صيغا فارغة المحتوى .

يجب ان ننظر الى بعض الدلائل على انها تشير الى ان الاسبتاريـة لم يكونوا مدينين بالخدمة في الحالات العادية ، لان أمراء انطاكية وصاحب صيدا خشوا ان يخسروا الخدمة اذا انتقل مقطعو(*) الاراضي الى الاخوية . ولكن تم الاقتراح أولا بان الاخوية لم تحبذ اداء الخدمة المترتبة على التابعين الثانويين، وهي الخدمة التي كانت دائما يصعب على اللوردات الحصول عليهـا في جميع الظروف . وثانيا ، من المحتمل ان امراء انطاكية كانوا يخشون من منح الهبـة التصدقية التي ستؤدي الى خسارتهم للخدمة من غير الحصول على أي حق طبيعي من أخوية القديس يوحنا . وثالثا هناك دليل مباشر بأن الاخويات كانت مدينة بالخدمة عن بعض ممتلكاتها . وقد كان الاسبتار مدينا بهذه الخدمة تجاه كونتات طرابلس بالنسبة لمزرعتين واقعتين في مقاطعة المرقب ، كما ان الكنيسة مدينة تجاه صاحب صور وتبنين بالنسبة لمزرعة واقعة بالقرب من صفد . وعندما طلب فريدريك الثاني بأن يقدم له جماعة البارونات والاخويات العسكرية والحجاج خدمة بسبب تقدمه نحو داخل البلاد في عام ١٢٢٨ ، رفض هذا الطلب من قبل الاسبتارية والداوية الذين لم يستجيبوا له على أساس انهم معفون من الخدمة ، بل انهم قالوا ان البابا قد حرم عليهم تقديم المساعدة لامبراطور فرض عليه التحريم الكنسي ، وكان الملك في عام ١٢٧٦ حانقا على الداوية لانهم حصلوا علـى مزرعة « لافوكونيري « La Fauconnerie » بدون اذن منه : وكانت المزرعة عبارة عن اقطاعة وهو سوف لن يحصل على أية خدمة أو ولاء من اجلها . في الستينات مـن القرن الثالث عشر كان الاسبتاريـة مدينين بالخدمة للملك في حالة واحدة بشكل مؤكد . ففي الوثيقة التي اعترف فيهـا

* ــ المقطع : شخص يقطعه السيد الاقطاعي ارضا لقاء تعهده بتقديم المساعدة العسكرية اليه.

المقدم بأنه قد أجر أرسوف ، وافق أيضا بأن تكون خدمة الفرسان لصالح المملكة ، على الرغم من أنه أعفي من تقديم الخدمة العسكرية . لذلك كان الاسبتارية مدينين بالخدمة العسكرية عن بعض ممتلكاتهم . وعلى الرغم من انه من الصعب ان نقول بأن الشاهد الذي اوردناه كان استثناء لاقاعدة ، فعلى الاقل لم يكن هناك أي سبب لعدم وجوب تقديم هذه الخدمة تجاه الآخرين.

ان اقتناء الاقطاعة غالبا ما أدى الى ادارة الامور القضائية فيها . وتظهر القائمة التي أعدها جون دو ايبلين بأن البارونات العظماء تمتعوا بنوعين من السلطة القضائية : القضاء في المقاطعة لادارة الامور القضائية للتابعين ، وحق السيطرة على المحاكم الشعبية في اقطاعات هؤلاء البارونات . وقد سمح لهم بتولي منصب القضاء الاعلى الذي كان يصدر احكاما بالموت . وفيما يتعلق بمسألة السلطة القضائية المتعلقة بالسكان المحليين ، فان معرفتنا بها غير مؤكدة الى حد كبير . ويبدو ان من المحتمل ان اللوردات من الاصل اللاتيني تركوا هذه المسألة للوكيل والزعماء في قراهم ، وقد احتفظوا فقط بالعائدات التي تجبى من القضاء ، وكذلك احتفظوا ببعض السلطة العامة .

مارس الاسبتارية سلطة قضائية اقطاعية في بلاطينياتهم الواقعة حول قلعة الحصن وعلى حدود انطاكية وفي جبيل والمرقب . على أي حال ، فاننا نعلم بأن عمل المحكمة الاسبتارية اقتصر على المرقب . لقد رأينا ان اسقف بانياس والاسبتارية وافقوا عام ١١٨٦ على عرض خلافاتهم على أربعة فرسان من مدينة المرقب ، ومن المحتمل ان هذا الامر قد أصبح تحقيقا قضائيا بالنسبة للمحكمة الاقطاعية ، لان موضوع الخلاف كان مؤقتا . على أي حال كان هذا دليلا على وجود جماعة غير اكليركية مخولة بسلطات قضائية ، وذلك في احدى اقطاعات الاسبتارية . وبعد بضع سنوات ، أصدرت المحكمة مرة أخرى مرسوما بابويا بشأن احد النزاعات التي قامت بين الاسبتارية والداوية . لقد رأينا ان فارسا ، يدعى « سيغوين Seguin » كان من اتباع الاسبتارية في المرقب ، الا ان ممتلكاته كانت بأيدي الداوية ويبدو ان الاسبتارية صادروا

هذه الاراضي من الداوية لصالح سيفوين . وقد أصدر البابا انوسنت الثالث حكما يقضي بوجوب اعادة الاملاك الى الداوية الدين عقدوا اجتماعا في ذلك الوقت، في محكمه الاسبتارية لاصدار حكم بشأن قضية « سيفوين » التي استدعي من أجلها الاسبتارية ، وخاصة محكمة المرقب الاقطاعية . رجالا شرفاء من اقليم انطاكية ومقاطعة طرابلس للتحكيم في هذه القضية . واذا شعر الداوية بأن أحد هؤلاء الرجال يتخذ موقفا عدائيا تجاههم فانهم يستطيعون الاعتراض على قرارهم لدى هيئة المحلفين ، ولكن اذا رفضوا حضور جلسات المحكمة ، عندئذ يستطيع الاسبتارية جعل سيفوين تابعا لاقطاعتهم . وكان يتوجب على هيئة المحلفين ان يصدروا الحكم في هذه القضية دون انحياز، ووفقا للاعراف السائدة في اراضي انطاكية ومن الواضح ان ذلك كان تعهدا تجاه المحكمة الاقطاعية بالنسبة لقضية نزع الملكية من قبل عبد اقطاعي ، او الاسبتارية ، او الداوية ، وأحيلت هذه القضية الى هيئة المحلفين لاصدار حكم تجاهها وفقا « لاعراف » انطاكية .

وقعت المحاكم الاقطاعية تحت سيطرة العديد من اللوردات بينما لم يحصل ذلك بالنسبة للمحاكم الشعبية ، ومن المحتمل ان الاسبتارية لم يمارسوا القضاء في حالات معينة ، بل انهم فقط تمتعوا بحق الحصول على العائدات المالية من هذا المصدر . وفي عام ١١٨٢ ، اشترى الاسبتارية جبيل مع كل الامور القضائية التابعة لها . الا اننا لانستطيع ان نعرف في الوقت الحاضر فيما اذا كانت هذه العبارة تشير الى ادارة أمور الفضاء او الى التمتع بحق التعويضات والغرامات ، او الى كليهما معا . ومن الجدير بالذكر انالملك قد منح السلطة في هذه القرية للاخوية ولمساعديهم . وبعد سنتين ، ومن خلال منح ريموند الثالث صاحب طرابلس الاسبتارية حقوقا نظرية في حمص، سمح لهم بالتمتع بحق التعويضات والغرامات ، وليس هناك أي دليل على ان الاسبتارية استطاعوا ان يمارسوا القضاء تجاه الاشخاص الذين كانوا يتمتعون بالحرية المدنية او السياسية بشكل كامل . وبعد ان أجر الاسبتارية أرسوف، أصدر اللورد السابق في هذه المدينة قانونا يقضي بمنحهم حق التمتعبالتعويضات

والمصادرات، التي جمعت من السكان لاسباب عديدة . كما أنه ليس هناك أي دليل على أنهم لم يمارسوا القضاء الا تجاه تابعيهم .

على أي حال ، هناك دليل على وجود محاكم اسبتارية خاصة بالمواطنين الانكليز ، وقد انتزع الاخوة السلطات التي كان يمارسها الكونت او الامير حول قلعه الحصن وجبيل وعلى حدود انطاكية ، وبذلك فانهم ورثوا على الاقل مركزين من المراكز التي كانت تدير أمور المواطنين الانكليز وهما الرفنية وأفاميا. وذلك على الرغم من أنهما كانتا بأيدي المسلمين . وقد وجد بعض المجرمين في سجن الاسبتار في عام ١١٣٩ . لقد رأينا أن « جيلبرت دو اسأيي » قد أصدر عام ١١٦٨ دستورا لسكان مستوطنة اسبتارية في بيت جبرين ، حيث ان الامتيازات كانت قد منحت اولا من قبل ريموند دو بوى ، وان المواطنين الانكليز الذين تم تنصيبهم قد حصلوا على بعض الاراضي من الاخوية ، ودفعوا مقابل ذلك ضريبة سنوية وأخرى عشرية على المحاصيل الزراعية والفواكه ، عدا محصول الزيتون . وفي هذا الوقت تنازل الاسبتارية عن حقوقهم الاولى المتعلقة باعطائهم الافضلية في الشراء ، الا ان تغيير المالك ارتبط « بقضاء الاسبتار ». وقد تضمن هذا الدستور فقرات هامة أخرى تتعلق بالسلطة القضائية . ان الاسبتار سيستفيد من التعويضات التي ستؤخذ من الطرف الذي ستتم ادانته او من كلا المتقاضيين . وكان على المواطنين الانكليز ان يكونوا تابعين لمملكة بيت المقدس قضائيا ، وان يعيدوا الى الاسبتارية جميع الغنائم التي غنموها من المسلمين ، وذلك وفقا للاعراف السائدة في اللد ، وهي الاعراف نفسها التي كانت سائدة في الرملة . وقد توجب جلد الزاني امام الناس ، ثم ابعاده عن المستوطنة . كما ينبغي مصادرة ممتلكات اللصوص وتسليمهم للاخوية حيث يصبحون تحت رحمتها .

لقد ساد الاعتقاد لدى كثير من الناس بأن قوانين بيت المقدس كانت مطبقة في مستوطنات عديدة ، لذلك تولت المحكمة الشعبية في بيت المقدس امور السلطة في بيت جبرين ، الا انه حصل خلاف حول هذه الفكرة . واصبح البعض يتساءل لماذا كانت عقوبة الزنا والسرقة قاسية جدا ، ثم أصبحت غير ضرورية عندما شمل دستور بيت المقدس الشرعي والمتطور كلتا الجريمتين من جميع

وجهات النظر ؟ لماذا يجب على الاسبتارية ان يتخلوا عن مصدر مربح من مصادرات العائدات الى فيكونت بيت المقدس ، واذا فعلوا كذلك لماذا سلمت ممتلكات اللصوص الى الاخوية ؟ ومن المحتمل ان الاشارة في هذا الدستور الى قوانين بيت المقدس كانت تقضي بأن الغرامات نفسها التي فرضت في بيت المقدس على جرائم معينة يجب دفعها في المستعمرة ايضا . لقد أشير الى انه اتبعت في ادارة الامور القضائية في بيت جبرين الاعراف التي تم وضعها في احدى مستوطنات الاسبتار . وقد كانت هذه التساؤلات مقنعة . هناك صعوبات كبيرة في التوفيق بين الكلمات التي وردت في دستور عام ١١٦٨ وبين الخضوع والطاعة لفيكونت بيت المقدس . وكانت هذه الوثيقة من جميع جوانبها اتفاقية خاصة بين الاسبتار والمستأجرين لديه حيث وقع عليها ممثلو الاخوية و «رجال بيت جبرين » ، وقد رأينا ان الاخوية سيطرت على محاكم شعبية أخرى ، وقد منح التثبيت الديني لهذا الدستور عام ١١٧٧ ، وفي حوالي الفترة نفسها تم ادخال محكمة شعبية في سجلات المستوطنة بشكل رسمي . وقد وضعت تحت سيطرة صاحب الخليل ، وذلك على الرغم من انه من المستحيل ان تكون له صلاحية في الاشراف على بيت جبرين في هذه الفترة ، الا أن هناك احتمالا بوجود محكمة تابعة للمواطنين الانكليز في هذه المنطقة قبل ان يحصل عليها الاسبتارية عام ١١٣٦ . ويبدو انها عادت الى ممارسة أعمالها مرة أخرى في أوائل الاربعينات من القرن الثالث عشر . ومن المحتمل انها استعيدت بعد الاستيلاء على بيت جبرين مرة أخرى من قبل الاسبتارية عام ١٢٤٠ .

نستطيع ان تعد أخوية القديس يوحنا في مرتبة اللوردات الاقطاعيين ، حيث انها كانت تتمتع بالاعراف والخدمات وادارة الامور القضائية الخاصة بها . انها استثنيت من دفع العديد من الضرائب الى الادارات المركزية ، ولكن من الحقائق البدهية ان مالك الارض تعهد على نفسه بالتزامين تجاه سيده ازاء الخدمة العسكرية « Auxilium » وواجب تقديم المشورة « Consilium » لقد رأينا ان الاسبتار ربما كان مدينا بالخدمة العسكرية « Auxilium » ولكن ماذا عن المشورة « Consilium » التي نتج عنها في هذا المجال اشغال مقعد في المحاكم العليا التي كانت منتشرة في سورية اللاتينية ؟ لقد رأينا في مواضع أخرى

انه لم يكن هناك أي دليل على كون مقدم الاسبتار عضوا في المحكمة العليا في بيت المقدس ، بل اننا وجدنا بعض الدلائل على انه لم يكن كذلك . ويجب ان نتذكر انه لم يكن مدينا بالخدمة بالقوة العضلية ، لذلك لم يكن تابعا للسيد الاقطاعي بشكل كامل ، حيث شغل كهنة آخرون بعض المناصب في المحاكم العليا ، وعلى الرغم من كون أعضاء الاسبتارية دينيين ، فانه لم يتم استثناؤهم من جميع الامور القضائية للمحاكم الدنيوية (غير الاكليركية) وهنا يبرز دليل أكثر وضوحا ، اذ يجب علينا ان نفترض ان المقدم ـ كرجال المناصب العليا الآخرين ـ شغل منصبا في المحكمة العليا ، وساعد الملك او الحاكم في ادارة أمور القضاء .

اعتبرنا فيما تقدم الاسبتار كصاحب ارض اقطاعي وعادي . على أي حال ، لايمكن لاحد ان ينكر ان الاسبتار تمتع في مناطق معينة بالسلطات التي كانت مساوية للسلطات التي تمتع بها قليل من المسؤولين . لقد رأينا ان ريموند صاحب طرابلس منح الاسبتار في عام ١١٤٤ قطعة ارض كبيرة حول قلعة الحصن والتي كان يقع جزء منها خارج الاراضي التي كان يسيطر عليها الصليبيون . ويجب ان نتذكر ان هذه الهبة قد نتجت عنها قاعدة عامة ، وان الخصائص الناجمة عنها تمت مضاعفتها في الهبات الاخرى التي منحت في الشمال ، حيث منحت الحكومة الاخوية الاراضي التي كانت قد تخلت عنها للمسلمين ، وقد أقدمت الحكومة على فعل ذلك لاسباب دفاعية او هجومية ، وستكون بعض هذه الاراضي او كلها بأيدي الاعداء وسيحصل الاسبتارية على الامتيازات التي تشجعهم على استعادة المقاطعات التي فقدوها . وباعتبار ان دورهم سيكون عسكريا ، فقد كانت هناك شروط مرضية في اقتسام الغنيمة، وكذلك فقد منحت لهم حرية التصرف في علاقاتهم مع المسلمين . وسيتنازل الحاكم عن جميع حقوقه الاقطاعية والقضائية والاقتصادية التي كان يتمتع بها تجاه سكان هذه الممتلكات .

لم يكن الاسبتارية في قلعة الحصن مدينين بأي تعهد اقطاعي تجاه الكونت ريمون . لقد منحوا السيادة الكاملة والولاء الممنوح لجميع الفرسان والمواطنين الانكليز الذين كانت لهم أراض وممتلكات في قلعة الحصن ، ويمكن تفسير

« Ligietas Militum » بسهولة . لقد أخذت الاخوية مكانة الكونت كلورد تابع ، وذلك مع جميع السلطات التي نتجت عن ذلك : الخدمة العسكرية « Auxilium and Consilium » حق اقتناء محاكم اقطاعيته ، وبما ان هذا الحق كان يبدو على أنه حق عام ، فانها تمتعت أيضا بامتياز ممارسة القضاء في الامور الكبيرة والصغيرة . ولكن الاسبتار حصل أيضا على الامتيازات الممنوحة كلورد تابع ، وهي الامتيازات التي كانت تمارس على المواطنين الانكليز ، لذلك انتزع الاسبتار السيطرة على المحاكم التابعة للمواطنين الانكليز من يد الادارة المركزية . لقد أصبح الاسبتار هو السيد الاعلى في هذه المنطقة من مقاطعة طرابلس .

في عام ١١٦٨ ، منح بوهمند الثالث ، صاحب طرابلس ، الاسبتارية مقاطعة واسعة شملت أفاميا وامتدت على طول ضفتي نهر العاصي . واحتل المسلمون معظم هذه المقاطعة . لقد منحهم بوهمند الثالث السلطة والولاء ، ليس فقط تلك الحقوق التي تضمنتها السلطة القضائية في أفاميا ، بل سلطة على جميع الممتلكات التي منحت من خلال هذا العقد . لقد أكد بوهمند على أنه حصل على الموافقة على هذه الهبة من جميع أولئك الذين لديهم اقطاعة او حق أو ميراث في هذه الاراضي : بكلمة أخرى ، موافقة الفرسان والمواطنين الانكليز . وشملت هذه المنطقة اقطاعة « دو فامي » « de Femie » والتي تم تعريفها كمنطقة ادارية للمقاطعة التي كانت تحت سلطة موظف يدعى الوالي « Praefectus » الذي كانت مكانته تماثل مكانة فيكونت بيت المقدس . لذلك لم يحصل الاسبتارية فقط على السيادة التي كان يتمتع بها التابعون من الفرسان ، بل سيطروا على المحاكم الشعبية أيضا . وكانت هذه الهبة تصدقية ، لذلك ، لم يتوجب على الاسبتارية اداء أية خدمة الا خدمة الصلاة .

بعد ثماني عشرة سنة ، حصل الاسبتارية على المرقب واقطاعتها وبعد ذلك ، أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن جنوب انطاكية وشمال طرابلس ضد الحشيشية ، وقد منح الامير بوهمند الثالث التثبيت الديني لحصولهم عليها ، وذلك ليس فقط بموافقة محكمته العليا ، ولكن أيضا بموافقة المحكمة التابعة

للمواطنين في انطاكية ، كما انه منح الاسبتارية السلطة التي استخدمت سابقا ليس فقط من قبل لوردات المرقب ، ولكن من قبل الامير بوهمند أيضا ، كما أعطى الاسبتاريه حق الولاء المعطى للفرسان بالشكل الذي حصل عليه لوردات المرقب . ولم يكن يتوجب عليهم اداء أية خدمة تجاه الامير مقابل حصولهم على هذه الممتلكات ، وليس هناك أي دليل على ان الاسبتارية قد سيطروا على المحاكم الشعبية ، ولكن كونها قد أصبحت شبه مستقلة ، وقد تم توضيحها في الفقرة التي وعد فيها الامير والاسبتارية باعادة كل طرف قنان(*) الطرف الآخر ، وهم الذين اجتازوا حدود المرقب وانطاكية ، شريطة ان يكون هؤلاء ملكا من الاملاك الشخصية للامير او اذا كانوا من المسلمين . اما اذا كانوا من المسيحيين ، فكان بامكان الاخوية اما أن تعيدهم أو تعطيهم « رخصة البقاء في أراضيها » .

منح ريموند روبين — الذي كان يدعى بأن له الحق في الحصول على مقاطعة انطاكية — جبيل للاسبتار عام ١٢٠٧ ، ومن الواضح انه كان يتصور الهبة في ذلك الوقت كمنحة تصدقية عادية . انه لم يستطع ان يمتلك هذه المنطقة حتى عام ١٢١٨ ، الا انه كان مستعدا منذ عام ١٢١٠ ، لان يعطي الاخوية امتيازات كبيرة . وقد تخلى عن هذه البلدة واقطاعتها وعن القلعة القديمة « Chateau de la Vieille » مع السلطة القضائية والسيادة والولاء « Ligence » فيها الى الفرسان والمواطنين . لذلك توجب على الاخوية ، هنا مرة أخرى ، ان تشرف على المحاكم الاقطاعية والمحاكم الشعبية ، والا تكون مدينة للامير بأية التزامات اقطاعية .

تضمنت عقود الهبات هذه بعض الفقرات العسكرية ، ومن الواضح ان الامتيازات التي حصلت عليها الاخوية في هذه العقود ترافقت مع أخذ الاخوية على عاتقها مسؤولية الدفاع عن قطاعات حدودية وقد أصبحت المناطق الواسعة التي تقع على الحدود الشرقية لطرابلس وانطاكية ، وكذلك المناطق الواقعة حول المرقب وجبيل بلاطينيات شبه مستقلة ، حيث كان الاسبتار كلورد تابع للفرسان ، وفي معظم الاحيان تابع للاشخاص الذين كانوا يتمتعون بالحرية المدنية

(*) — المفرد قن وهو عبد الارض — المترجم .

أو السياسية بشكل تام ، وقد كان الاسبتار نفسه مدينا بقليل من الالتزامات تجاه الادارة .التي أخذت على عاتقها تولي أموره . وكانت جميع هذه البلاطينيات تقع في الولايات الجنوبية التابعة لاحد المشتركين في الحملة الصليبية ، لان الادارة في الولايات كانت في وضع أسوأ من وضع ملوك بيت المقدس في القرن الثاني عشر ، أي عندما تم معظم الهبات ، وكذلك لان ملوك بيت المقدس رفضوا الموافقة على تصديق حصول الاسبتار على مثل هذه السلطات عمدا . وبعد كل هذا ، توفر أمام الحكومة في عكا في القرن الثالث عشر جميع المبررات لمنح الاخويات العسكرية شروطا مرضية مقابل دفاعها عن الحدود . ومع ذلك ، فان الحكومة لم تقدم على فعل ذلك . وكان للعديد من الممتلكات الواقعة في الجنوب صفات مشتركة مع الاقاليم الواقعة في الشمال ، ولكن لم تتخل هذه الاقاليم عن السلطة الملكية التي منحت لها

يبدو ان الاسبتارية في بيت جبرين قد سيطروا على المحكمة الشعبية. وقد دار النقاش مؤخرا حول كون بيت جبرين مستوطنة مسالمة بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ . ومما هو مؤكد انها قد أصبحت مركزا نشيطا للاستيطان، وما كانت لتصبح كذلك لو تعرضت هذه الاراضي للحرب . الا ان العبارة الواردة في ميثاق عام ١١٦٨ ،« ان الارض ستؤهل بالسكان على أفضل وجه»، وكذلك الامتيازات التي أعقبت ذلك ، الامر الذي أشار بالتأكيد الى بعض القلق من جانب الاسبتارية من جراء اجتذاب المستوطنين ، واشار كذلك الى شيء من المعارضة من جانب المستوطنين بشأن الاستيطان . ويصبح هذا دلالة واضحة عندما نعتبر ان بيت جبرين كانت محطة هامة على الطريق التجارية عبر جنوبي فلسطين ، وانها أصبحت محط انظار المواطنين بشكل عام . لقد تضمن ميثاق عام ١١٦٨ فقرة تتعلق بتقسيم الغنيمة التي أخذت من المسلمين، وان المحاولة الاخيرة لتوضيح ذلك على انه اشارة الى الصدامات الثانوية مع المسلمين والمكاسب التي نجمت عن الاغارة على القوافل ليست مقنعة بشكل تام . ان تنظيم تقسيم الغنيمة يظهر في وثيقة أخرى من وثائق الاسبتاروتتعلق بالمملكة نفسها . وهناك سبب وجيه في ذكرها هنا . وعلاوة على ذلك فان المواطنين كانوا مدينين بنوع من الخدمة تجاه الاسبتار ، على الرغم من انها لم

تكن عسكرية . وقد هاجم المسلمون هذه المنطقة في عام ١١٥٨ . وفي عام ١١٧٩ كانت الاخوية تحشد جنودها التركوبول المدججين بأسلحة خفيفة في القلعة ، لان المسلمين كانوا يغيرون على مخيمات البدو التابعين للداوية . وأخيرا ، هناك الدليل الذي أورده ويليام الصوري ، وهو الدليل الذي فاتنا الانتباه اليه ، من من خلال ماكتبه ويليام بعد فترة طويلة من سقوط عسقلان ، فانه يخبرنا عن اقامة القلعة ومنحها هبة من قبل الملك فولك « Fulk » للاسبتارية الذين « قاموا بحراستها بعناية حتى الوقت الحاضر ... لذلك أصبحت هجمات العدو في هذه المناطق لا أهمية لها » . ومن الواضح ان هذه الهجمات لم تتوقف بشكل تام . ويبدو ان بيت جبرين اشتركت في صفتين من صفات الاقاليم الشمالية ، كما كان لها علاقة شبه عسكرية معها حتى أواخر القرن الثاني عشر ؛ وقد مارس الاسبتارية سلطات قضائية واسعة .

في عام ١١٥٢ ، منح لورد « مونتريال « Montreal » » عددا من الهبات للاخوة في اقطاعته الواقعة عبر نهر الاردن ، والتي كانت تتعرض لهجمات الاعداء . وقد تضمن العقد فقرة تتعلق بتقسيم الغنيمة . وفي عام ١١٦٨ ، عقد الملك املريك اتفاقية مع هؤلاء الاخوة خلال شروعه في غزو مصر حيث تم منحهم بعض الاراضي والاجور فيها ، وكذلك تمت مشاركتهم في الغنيمة التي تم الاستيلاء عليها خلال الحملة ، وذلك مقابل اشتراكهم في هذا الغزو عسكريا . ان العقد الذي صدر عن مونتريال يماثل ماتم الحصول عليه في الشمال ، وذلك في الفقرة المتعلقة بتقسيم الغنيمة ، وكذلك فانه يماثل الاتفاقية مع أملريك من حيث انه يظهر الاسبتارية على وشك الحصول على مساحة واسعة من الاراضي الواقعة داخل دولة معادية ، والتي لم تحتل من قبل المسلمين بعد . ولم يكن هذا العقد او هذه الاتفاقية ، تتضمن أية اشارة الى امتيازات أكثر أهمية . ومن المحتمل ان المملكة ، عند بلوغ أوج قوتها ، لم تكن راغبة في اضاعة حقوقها .

لقد رأينا ان الاسبتارية قد منحوا عام ١٢٤٣ وبين عامي ١٢٦١–١٢٦٥ حق الوصاية على عسقلان ، وانهم استأجروا اقطاعة ارسوف . وهما القاطعتان اللتان كانتا في ذلك الوقت واقعتين على الحدود حيث ان الاسبتارية انفقوا قدرا

كبيرا من ثروتهم من أجل الدفاع عنهما . وقد تمتع الاسبتارية في ارسوف بحق خدمة مالكي الاقطاعات لهم ، وكذلك بالعائدات المالية التي تأتي من القضاء . ومن المحتمل انهم تولوا مهمة ادارة الامور القضائية فيها ، الا ان المقدم صادق على أنه هو والاخوية سيقدمان خدمة الفرسان الى الملك وخلفائه، وذلك على الرغم من ان المقدم قد أعفي من تقديم الخدمة . وليس هناك في أي من المقاطعتين السابقتين أي دليل على تمتع الأسبتارية بامتيازات استثنائية .

ومن المحتمل وجود حالات مشابهة في الولايات الشمالية للحالات التي تحدثنا عنها قبل قليل . ولكن اقطاعات الاسبتارية في بيت جبرين وعسقلان وارسوف وكذلك امتيازاتهم في « فوتريلي » والوعود لمنحهم بعض الاراضي في دلتا النيل ، لم يكن كل ذلك خارج نطاق السلطة الكاملة للملوك . وعلى الرغم من ان هذا الامر قد حصل في الشمال في المناطق التي كان يوجد فيها حاكم بمرتبة امير مستقل ، فان هذا الاسبتار في مملكة بيت المقدس لم يظهر على أنه قد حصل على امتيازات أكثر من أي شخص آخر قوي وذي سلطة . لقد اشير الى احتمال ان يكون الاسبتار مدينا بالخدمة تجاه الملك او تجاه سادة أعلى بسبب اقتنائه بعض أراضيهم . وفي الوقت الذي تمتع فيه بالتعويضات وادارة أمور القضاء ، وفي بعض المناطق استثناه من دفع مايتوجب عليه تجاه املاكه المنقولة، على الرغم من عدم وجود أية اشارة على تطبيق هذا الاستثناء في جميع الاحوال والاماكن . ومن ناحية أخرى ، بالنسبة للهبات التي منحت للاسبتار من ممتلكات كبيرة ، كان هناك فرق بين تطبيق حكام طرابلس وانطاكية للاستثناءات السابقة ، وبين تطبيقها من قبل ملوك بيت المقدس . ان طبيعة الاراضي التي تم الحصول عليها لها علاقة بذلك، ولكن حتى في تلك الايام الحالكة السواد في القرن الثالث عشر ، لم يتنازل ملوك بيت المقدس ، ومحكمتها العليا عن سلطاتهم بشكل نهائي . وعندما تمت تسوية الحوادث السابقة ، وأقام الاسبتارية منشآتهم وممتلكاتهم الكبيرة على الحدود ، أصبحت مكانة انطاكية وطرابلس أضعف بكثير من مكانة بيت المقدس . وعندما يئست هاتان المقاطعتان من حماية حدودهما ، او من استعادة المدن والحصون التي كانت تسقط احداهما تلو

الاخرى بيد العدو الذي كان يغير على هذه الممتلكات بشكل مستمر ، فقد تخلى الحكام في الشمال عن قطاعات واسعة من جدودهم الى الاخويات العسكرية وقد دفعوا مقابل ذلك ثمنا باهظا .

يمكن استخلاص استنتاجات معينة من هذه الدراسة لممتلكات أخوية القديس يوحنا في سورية اللاتينية . ان التوسع الرئيسي بالنسبة للممتلكات حدث في القرن الثاني عشر ، وقد أصبح الحصول على ممتلكات جديدة أكثر صعوبة في القرن الثالث عشر بسبب النقص المتزايد في الاراضي التي يمكن اقتناؤها . وأدى النظام الزراعي الى تنظيم غير مألوف للمقاطعات الاسبتارية، كما ادى الى القيام بمحاولات للتخصص في جباية العائدات من قرى معينة. لقد كان هناك استغلال كثيف للاراضي ، وترافق ذلك مع اقامة المستوطنات، نتيجة لمتطلبات الاخوية ، وكان هناك تركيز على زراعة هذه الاراضي وانتاج المحاصيل بدلا من ايجارها . على أي حال ، لم تكن نتائج هذه الجهود مرضية بالنسبة للاخوية التي كانت تعتمد ، حتى في القرن الثاني عشر ، على القرب بالنسبة للضرائب والصدقات . لقد أصبح النقص في المؤن في القرن الثالث عشر خطيرا في سورية ، ولا نبالغ اذا قلنا ان الاسبتارية كانوا قادرين على الاستمرار في البقاء بسبب تدفق المؤن والعائدات من أوروبا . وفي الوقت نفسه ازدادت النزاعات المتعلقة بالملكية في الشرق ، وقد حاولت الاخويات العسكرية مرارا وضع الوسائل والطرق الكفيلة بتسوية مثل هذه النزاعات . وأخيرا ، يمكن استخلاص بعض الامور في سلوك الاسبتار كبارون اقطاعي ، ولكن على الرغم من ان الامتيازات التي ألحقت ببعض ممتلكاته في ولاية طرابلس وانطاكية فان هذه الامتيازات جعلت هذه الولايات مستقلة عن الحكومة تقريبا ، وهناك في مملكة بيت المقدس — عدا بعض الاستثناءات من الضرائب الاعتيادية والمصادرات دلائل قليلة على انها كانت ذات امتيازات اكثر من اللوردات الآخرين ذوي الشأن الكبير .

❁ ❁ ❁

الخاتمة

« بدأت مملكة اللاتين ، قبل حدوث معركه حطين بوقت طويل ، تعتمد على الاخويات الدينية العسكرية أكثر فأكثر ، وبما أن هذه الاخويات كانت تعزز باستمرار بسيل منتظم من المتطوعين الاوروبيين المتمرسين في الامور العسكرية، فان كفاءتها كانت لاتقارن مع خصومها في المشرق ، وبقيت العنصر الثابت والمفيد في المملكة . وليس هنالك أدنى شك بتكريس نفسها وتضحيتها في سبيل الواجبات التي نذرت نفسها لها » .

« اصبحت أخويات الداوية والاسبتارية وفرسان التيوتون دولة ضمن الدولة ، حيث كان لها سياساتها الخاصة بها والتي كانت تمليها مصالحها المالية حتى ولو تعارضت مع احتياجات البلاد الضرورية . ولم تكن هذه الاخويات تهتم بمصير الدولة أكثر من اهتمامها بها كوسيلة لتحقيق غاياتها وقد ورطتها في حروبها الخاصة بها لتحقيق مصالحها » .

ان وجهتي النظر المتناقضتين المذكورتين آنفا حول الاخويات العسكرية عبارة عن آراء متطرفة لمدرستين من مدارس التاريخ . فبالنسبة لوجهة النظر الاولى ، فان العديد من مؤرخي الاخويات العسكرية يؤمنون بها ، وكان معظم هؤلاء مرتبطين بشكل أو بآخر بالفروع التي تشعبت عن أخوية القديس يوحنا .

أما وجهة النظر الثانية فينتمي اليها جميع مؤرخي الحروب الصليبية والدول الصليبية . يقول أصحاب وجهة النظر الاولى بأن أعضاء الاخويات العسكرية هم مؤيدون لمثل عليا جديرة بالاهتمام . وبينما يعترفون بأنهم أنانيون

وبعيدون عن النظام ، الا انهم يعتقدون في الوقت نفسه بان حسناتهم تفوق سيئاتهم . وهم يدعون بأن أعضاء الاخويات العسكرية قد أقاموا العمود الفقري لدولة مهترئة ، وانهم المسؤولون عن بقائها أكثر من قرنين .

وباختصار ، فهم يقفون موقفا غير ناقد من الاخويات العسكرية ، على الرغم من انهم يعترفون بأن صورتها غير جذابة للوهلة الاولى . فلقد تغيرت المثل العليا التي كان يتمسك بها اعضاء هذه الاخويات عند انشائها . وبما ان هؤلاء الاعضاء كانوا رعايا يتمتعون بنفوذ كبير في مملكة اللاتين ، فقد ساهموا في رذائل مؤسسات العصور الوسطى من حيث الانانية والجشع والتسلط . وكثيرا ماكانت تؤدي منازعاتهم الى درجة قتل الاخ لاخيه . **وقد قيل حديثا بأن بنية الاخويات وأهدافها تعبر عن المثل العليا للفروسية بشكل واضح للعيان، بينما تختفي وحشيتها تحت رداء الفروسية النبيل** . ويمكننا القول بأن ذلك كان حصيلة الظروف السائدة في سورية اللاتينية آنذاك ، حيث كانت جميع المؤسسات في القرن الثالث عشر تميل الى التعبير عن نفسها بواسطة العنف الجسدي .

تقول المدرسة الثانية من مدارس التاريخ بأن الاخويات كانت انانية القانية . ولم تكن مهتمة بشيء سوى نفسها وكانت قصيرة النظر بحيث لم تدرك مصالحها الحقيقية في الاراضي المقدسة . وتتجاهل وجهة النظر هذه الطريقة الجدية التي كانت تسلكها الاخويات في تحمل مسؤولياتها . فلا أحد يستطيع ان ينكر المصاريف الكبيرة التي كانت تتحملها الاخويات (الاسبتارية على سبيل المثال) في العناية بالمرضى او في تنفيذ الحرب . ففي الحملات العسكرية واتخاذ القرارات في المجالس الحربية كنا نجد الاخويات تتسم بالعقلانية والواقعية، وعلى الرغم من عدم انسجام الاوروبيين مع مثل هذه المجالس الحربية ، كانت تعقد من قبل البارونات السوريين أنفسهم ، ومن المؤكد ان الاخويات أضعفت سورية اللاتينية كما أضعفت مركزها نفسه من جراء المنازعات السياسية العنيفة فيما بينها .

ولكن المسائل التي كانت تسبب الانقسام فيما بينها دائما ، وهي العلاقات

مع المسلمين ووراثة العرش ، كانت مسائل ذات أهمية بالنسبة لجميع المؤسسات في المستوطنة . فالداوية كانت بارونية ومناهضة للملكية ، بينما كانت الاسبتارية ملكية ، وكان لكل منهما وجهة نظره المقبولة . ومن الممكن ان يكون الدافع الحقيقي وراء وجهات النظر هذه هو الانانية ، لكن الاصرار الذي كان يبديه الداوية والاسبتارية حول التمسك بوجهات نظرهم يدل على وجود فلسفة سياسية نمت وترعرعت ضمن كل أخوية . علاوة على ذلك فان بقاء الاراضي المقدسة بأيدي الصليبيين آنذاك كان سببا في بقاء الاخويات . وكانت الاخويات تدرك ذلك جيدا . وكانت على علم أيضا بالرأي العام الذي لايرحم في الغرب : فقد كان الرأي العام هذا يحكم على الاخويات وفقا للنتائج الراهنة . وكانت الاخويات لاتستطيع ان تتخذ موقفا معارضا لاحتياجات مملكة اللاتين في المشرق ، وكان هذا الامر موضع نقاش دائم .

في الحقيقة،ان كلتا وجهتي نظر الاخويات العسكرية قد أفرطتا في تبسيط تاريخ هذه الاخويات . فوجهة النظر الاولى مؤيدة جدا ، بينما وجهة النظر الثانية انتقادية جدا . ووجهتا النظر الاولى والثانية تعتبران الاخويات انها ذات نفوذ وثراء أكثر من الواقع . ولهذا التشوش التاريخي أعذاره ، لان المعاصرين أنفسهم يبالغون في قوتها ، ولكن لايوجد شواهد بأيديهم حول ذلك. وكانت هذه المنظمة تسمى « الهيئة الدينية الحديدية » لكن جميع المؤسسات الكبيرة كانت تعاني في العصور الوسطى من عدم الكفاءة والقصور والفساد داخل صفوف هذه المؤسسات . وكانت أخوية القديس يوحنا أكبر الاخويات . وقد بينا كيف ان الهيئة الدولية الكبيرة نادرا ماكانت قادرة على العمل كما أراد لها مؤسسوها ، على الرغم من جميع المحاولات التي قام بها رئيس هيئة الرهبان . وكان الدير في سورية يعتمد على الهبات الواردة من اوروبة والتي لم تكن تدفع بالكامل،وكان الدير يتأثر سلبا بنتيجة اخفاق المقدمين والمعاونين.

وتكشف دراسة حول الاخوية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تناقضات داخل تنظيم الاخوية نفسه . لقد كانت الاخوية فائقة التنظيم لكن كان ينقصها الكفاءة وكانت غنية بالاراضي والممتلكات ومستثناة من العديد من

الضرائب ، لكنها كانت تعاني من نقص الاموال بشكل دائم . وكانت الاخوية مستقلة عن الكنيسة وتتمتع بمزايا كبيرة حصلت عليها من البابوية ، لكنها لم تكن قادرة في تلك الممالك على ممارسة هذه الامتيازات بشكل كامل على الرغم من القوة التي كانت تتمتع بها . وكانت الاخوية تمتلك العديد من المقاطعات في شمال سورية ، حيث كانت تتصرف كالامراء المستقلين وتشن حربا عدوانية ضد جيرانها المسلمين . ولكن في الاراضي المقدسة نفسها ، أي في مملكة بيت المقدس ، لم تكن ممتلكاتها مستقلة عن التاج ابدا ، ونظرا لانها كانت تجابه قوتين اسلاميتين كبيرتين ، لجأت الى سياسة الانخراط بالسياسات في الشرق عن طريق التحالفات،حيث انها كانت تشك في امكانية الحملات الصليبية في تغيير الوضع الراهن شديد الحساسية.وكان نفوذها السياسي في القرن الثاني عشر مبالغا فيه . وقد حققت القوة والنفوذ ببطء وكيفما اتفق ، وترافق نشوؤها بنكسات مخزية.وجاء انشاؤها كاحدى المؤسسات القليلة التي تحكم المستوطنة مترافقا مع الاحداث والنكسات التي أعقبت معركة حطين ، بينما انتقلت الملكية الى اسرة حاكمة متغيبة في الغرب . ولا نستطيع ان نجد أساسا دستوريا للمركز الذي كان يحتله المقدمون في ادارة المستوطنة . علاوة على ذلك ، كانت اخوية القديس يوحنا ، في هذا الوقت ، تعتمد على الامدادات القادمة من أوروبا والتي كان من الممكن اعاقة شحنها من قبل الادارات الوطنية التي كانت تظهر آنذاك . وكانت منظمتها الدولية وليدة القرن الثاني عشر وكانت تعتبر قديمة في القرن الثالث عشر وفق المصطلحات السياسية .

اذا بالغ المؤرخون في تقدير قوة الاخوية ، فانهم قللوا من شأن أهميتها التاريخية الحقيقية . فبالاضافة الى كونها احدى أهم المؤسسات في مملكة اللاتين ، في المشرق ، فان المسؤولين عن ادارتها كانوا من الرجال العظماء في الدول الغربية . وكانت من أوائل الاخويات الدولية المنظمة والمستثناة من الكنيسة . وقد كان اسلوبها في العناية بالمرضى الفقراء يعتبر مثلا أعلى سار على منواله العديد من الاخويات في أواخر العصور الوسطى . وكانت تنادي بالاحسان وفي الوقت نفسه بالقتال ، وكان لهذه العقيدة تأثير عميق على الفكر الغربي في العصور الوسطى . لقد كانت الاخوية اداة بيد البابوات ابان القرون

التي سادوا فيها سياسيا ، بينما عكست ، في تاريخها لداخلي ، البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الاوروبي : نشوء طبقة الفرسان ، وكذلك ظهور الاقتصاد النقدي الراسمالي .

واصبحت الاخوية مستقلة عن السيطرة الدنيوية بعد انتقال ادارتها الى رودس ، وغير هذا الاستقلال الجديد طبيعتها . ولم يعد اعضاء الاخوية بقادرين على تنفيذ مهمتهم التي كانوا ينفذونها في القرون الاولى من نشوء الاحويات ، لانه لم يعد بمقدورهم العودة الى الاراضي المقدسة التي كانتسبب وجود الاخويات في الاصل .

* * *

ملحــــق

املاك أخوية القديس يوحنا في المشرق :

يتوفر للمؤرخين مصدر هام حول املاك مؤسسة هامة في مملكة اللاتين في المشرق وذلك من وثائق أخوية القديس يوحنا . ومن الممكن الآن تحديد أملاك الاسبتار ، اذ ان الاعمال الطبوغرافية المميزة في السبعين سنة الماضية قد حددت مواقع معظم الاماكن . واول واهم هذه الاعمال هي خريطة مملكة بيت المقدس التي رسمها كل من براور « Prawer » وبنفنستي « Benvenisti » وقد أستشرت هذين الدارسين وكان لمشورتهما ومساعدتهما قيمة كبيرة . كذلك استخدمت دراسات كل من باير « Beyer »، وروهرخت « Rohricht » وآبل « Abel » وديشــــان « Deschamps »، وداسو « Dussaud » ، كما استفدت من خريطة قديمة لفلسطين كان قد رسمها السيد جونز « Johns » ولم تلق المستوطنات الصليبية الشمالية مثل هذه المعالجة . وكانت مقــالات روهرخت ذات قيمة كبيرة ، لكن دراسات داسو كانت أساس التعريف في طرابلس وانطاكية والرها . وقد حظيت طبوغرافيـــة طرابلس حديثا باهتمام أكبر مـــن قبل كل مـــن ديشان ورتشارد ، كما اهتم كاهين « Cahen » بطبوغرافية انطاكية والرها وكان لمساعدتـه أهمية كبيرة أيضا فيما يتعلـــق بممتلكات الاخوية في ارمينيا السفلى . وهنالك معلومات مفيدة في معجم هازارد « Hazard » الجغرافي الخاص بالتاريخ الامريكي الحديث للحروب الصليبية.

وبالنسبـــة لقبرص ، فقد اعتمـــدت علـــى دراســــات دو ما ــ لاترى de Mas - Latrie واكملتها بدراســـات ريتشارد الحديثه . وقد استطعت زيادة العديد من ممتلكات الاخوية في المشرق وآمل ان انشر في المستقبل القريب معجما جغرافيا كاملا مع تعليق على الاماكن الواردة في الخرائط المرفقة بهـــذا الكتاب . وقد اعتمدت الاسم العربي بالنسبة للاماكن الهامة فقط والتي ذكرت عدة مرات في النص .

* * *

ملحق بأسماء المدن والاماكن الجغرافية كما وردت في المراجع الصليبية وما يقابلها في المراجع العربية

Ablastha , Ablastain	ابلستين ــ البستان
Acre , Polemais	عكــــا
Adalia	انطاليــا
Aere , Polemais	اذنــة
Adiaman	حصن منصور
Adraad , Deraad	أذرعـــات
Afamia , Farmiya	فامية ــ افامية
Afrabala	عقربــلا
Afrin	عفريــــن
Aghmat	أغمـــــات
Aila , ELYN	ايلـــة
Ain Jalud	عين جالوت
Aintab , Hamtab	عين تاب ــ عينتاب
Akhlat , Ahlat , Khilat	خلاط ــ اخلاط
Akkar , Gibelcar , Gibeleas	عكار (حصن)
Al	عال (حصن ــ تل)
Alamut	المــوت
Al - Bara	البـــارة
Aleppo , Caleph , Calyptus	حلـــب

Atlit , Chateau Pelerin , Dustrey	عثليث
Ayas , Lajazzo	ايـاس
Baalbek	بعلبك
Bab - Buzaah , Bizaa	الباب ـ باب بزاعة ـ بزاعة
Babain	البابين
Babylon	الفسطاط
Baghras , Gaston , Gaston Pagrae	بغراس
Balance , Sulunyas , Banyos , Belinas	بانياس
Balat	البلاط
Balatanus	بلاطنس
Balis	بالس
Barin , Montferrand	بارين ـ بعرين
Baruth , Bèrytus	بيروت
Basrafuth , Coquei	بسرفوث
Beavoir, Belvoir	كوكب (حصن)
Beccar , Beqa , Coelesyria	البقاع
Behesni	بهسنى
Beit Jibrin , Beth Gibelin	بيت جبرين (جبريل)
Belfort , Beaufort , Shaigif Arnun	شقيف ارنون
Betenoble , Bait Nuba	بيت نوبا
Bethelon , Boutron , Botron , Batrun	البترون
Bethlehem	بيت لحم
Bethsan , Bessan	بيسان
Birejik , Birtha , Bira , Bile	البيرة
Blanche Garde	تل الصافية
Bosra , Bostra	بصرى

Bursia , Burzey .... برزيــــة

Byblos , Gibel , Gibelet .... جبيــل

Caco , Chaco .... قاقـــــون

Caesarea Caesarea Magna , Sisara , Larissa , ... قيساريــة

Shaizar .... شـــيزر

Caiffa , Cayphas , Haifa , Caiphas .... حيفــــا

Calcaille , Qalqiliya .... قيليقيــة

Calogenbar .... جعبـــر

Calquis .... قنسريــن

Camolla , Chamelle , Emesa , Emissa,Homs , Hims .... حمص

Capharca , Capharda , Kafartab .... كفر طــاب

Carep .... الاثــارب

Cartapeta , Kharput , Khartpert , Harpurt ..... خرتبرت ــ خربوت

Carran , Qarram , Gerhae , Harran , Carrhae .... حــــران

Castra Commenon .... قسطمونــي

Cavam .... القحوانة ــ الاقحوانــة

Cavea de Tyron , Shaqif Tirun , Selcath .... شقيف تــيرون

Caymont .... قيمون (تل ــ حصن)

Cedron .... وادي مريم

Chastel - Blane .... برج صافيتــا

Chastel - neuf .... حصن هونــين

Chastel Rouge .... حصن الروج

Chateau des Kurdes , Krak des Chevaliers .... حصن الاكــراد

Laodicea , Latakia , Lichia	اللاذقية
Laris	العريش
Latmin	لطمين
Latron : La Toron de Chevaliers	الاطرون
Layas , Laias , Lajazzo	اياس
Lejjun , Megiddo	اللجون
Lydda , Saint George	اللد
Maan	معان
Maarat Masrin	معرة مصرين
Maarat Numan	معرة النعمان
Mair a Farigin Martyropolis	ميافارقين
Majdal	المجدل
Mamistra , Misis , Mopsueste	المصيصة
Mansis Platanus	بلاطنس
Maraclea , Maraqiya	مرقية
Marash, Germanicia	مرعش
Mardin	ماردين
Margat	المرقب
Marj - al Suffar	مرج صفر
Masrj Ayun	مرج عيون
Masyaf	مصياب ــ مصياف ــ مصيافة
Mersina	مربين
Melitine	ملطية
Mesopotamia	العراق
Mirabel	مجد ليابا ــ مجدل يابا (راس العين)
Montferrand	بارين ــ بعرين

Montfort	القريــن
Montgisarel	تــل الجزر
Mont Pelerin	قلعة صنجيــل
Mont Thabor	الطور (جبل طابور)
Municitira , La Monestre , La Moinestre	المنيظـــرة
Nablus , Neapolis	نابلس
Naqurah , Nangura	النقورة ـ النواقــير
Nazareth	الناصرة
Neocesarea	نكســار
Nephin	انفــه
Nicaea	نيقيـــة
Nijm	نجم (قلعــة)
Nisibe , Nisibis , Nisibin	نصيــبين
Orfa , Roais , Edessa	الرهــا
Oronte	العاصي (نهر)
Osrahocne	اقليم الرهــا
Palaestina , Palestine	فلسطين
Paneas , Valania	بانيــاس
Pelusium	الفرمــا
Pont	البحر الاســود
Pont de Fer	جسر الحديد
Portus St. Simeonis	السويديــة
Pyramus, Chahan	جيهــان
Qadmus	القدموس
Qahwana	القحوانة ـ الاقحوانــة

Samosata	صميساط
Saone , Zion	صهيون
Sarafand , Sarepta , Zarephath	صرفند
Sardonas , Sadanium , Zardana , Zerdane	زردنا
Sarmata , Sarmeda , Sarmit	سرمدا ــ سرمد
Sarmin , Sermin	سرمين
Saruj , Sorogia , Soroges	سروج
Scythopolis , Beisan	بيسان
Sebastae , Samaria	سبسطية ــ سبصطية (بالشام)
Sebastia	سيبراس (بآسيا الصغرى)
Segor	زعر
Sephorie , Sephoris	صفورية
Sermin	سرمين
Shaffran	شفرعم ــ شفر عمر
Sharon	شارون (سهل)
Shaqhab	شقحب (تل)
Shaqif	الثقيف
Siffin	صفين
Silifke	سلوقية ــ سيلفيكة
Sinjar	سنجار

Sinn al Nabra .... الصنبـــرة

Sion , Zion .... جبل صهيون

Smyrna .... ازمـــير

Subeibe .... الصبيبـــة

Syria .... سوريا ــ الشـــام

Toron , Tibnin .... تبنـــين

Tabor , Thabor .... جبل الطور (قرب عكا)

Tafnis , Tampnis , Tinnis .... تنيس

Tekrit .... تكريـــت

Tell Mannas .... تل منس ــ تلمنس

Templar .... الداويـــة

Templum , Eomini .... قبة الصخرة

Tiabaria .... طبريـــة

Tigris .... دجلـــة (نهر)

Tilhamdoum .... تل حمدون (حصن)

Tizin .... تيزيـــن

Tripoli , Tripolis .... طرابلس

Tubanic .... الطوبـــان

Tulupe .... دلـــوك

Turbessel , Turbezel .... تـــل باشـــر

* * *

الفهـــرس

الموضــــوع	الصفحة

القســم الثاني

لائحة بالصور

● ● ●

الاستبارية: فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠ ــ ١٣١٠م= THE KNIGHTS OFST. JOHN IN JERUSALEM AND CYPRUS C. 1050-1310 / تأليف جوناثان رايلي سميث؛ ترجمة صبحي الجابي. ــ ط. ١. ــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. ــ ٤٩٥ ص. ؛ ٢٥ سم.

١ ــ ٩٥٦٫٠٥٤٥ رأي إ ٢ ــ العنوان ٣ ــ رايلي سميث ٤ ــ الجابي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٩٨٨/٦/٥٨٨

رقم الاصدار ٣٦٣

هـذا الكتـاب

إن كتاب «الاسبتارية» أو ــ فرسان القديس يوحنا ــ يؤرخ من خلال معطياته وأحداثه للحملات الصليبية على أجزاء هامة من منطقتنا العربية في بلاد الشام، من بيت المقدس وحتى قبرص، وذلك على مدى ما ينوف على القرنين من الزمن، وبالتحديد في الفترة من ١٠٥٠ ــ ١٣١٠م.

إن منطقتنا العربية بمركزها الجغرافي ــ الاستراتيجي، وبدورها الهام التي تضطلع به عبر التاريخ جعلت الاستعمار الامبريالي، منذ القديم، يشن على أمتنا العربية فيها أشرس الهجمات تحت شعارات مختلفة أصبحت مفضوحة ولا تخفى على أحد، إذ أن ما تتعرض له اليوم في فلسطين، ولبنان .. وأجزاء أخرى ما هو إلا امتداد لتلك الحملات الظالمة، الغرض منها إخضاع شعوب هذه المنطقة المتبقية للتبعية ومناطق النفوذ.

مؤلف هذا الكتاب ليس عربياً بل ربما كان معادياً ولكنه بحث تاريخي يجدر الإطلاع عليه، في التنظيمات العسكرية الصليبية، التي كانت تسيطر على بيت المقدس، وعسقلان وعكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية، وقلاع بانياس والمرقب والحصن وصهيون (صلاح الدين). وأنشئت في أعقاب تلك الحملات التي شنتها التنظيمات العسكرية الصليبية الممالك والإمارات والمقاطعات، هذه التنظيمات المسلحة عرفت عند العرب، بفرسان «الاسبتارية والداوية» الذين كان لهم في تاريخنا العربي صولات وجولات حطم أسطورتها البطل الشجاع صلاح الدين الأيوبي.